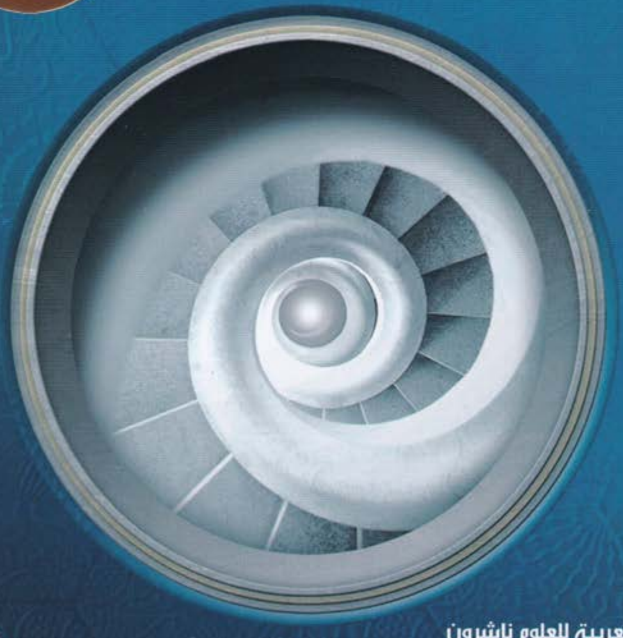
DAN BROWN

دان براون

مؤلف رواية «شيفرة دافنتشي»

الأصل

ORIGIN



رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

DAN BROWN

دان براون

مؤلف رواية «شيفرة دافنتشي»



رواية

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2018 م - 1439 هـ

يجب أن تكون لـدينا الرغبـة فـي التخلّـي عن الحياة التي خطّطنا لها، لكي ننال الحياة التي تنتظرنا.

جوزيف كامبل

جميع الأعمال الفنّية والمعمارية، والمواقع، والحقائق العلمية، والمنظّمات الدينية المذكورة في هذه الرواية حقيقية.

مقدّمة

بينما كان قطار العجلات المسنّنة القديم يشقّ طريقه صعوداً على المنحدر الشاهق، أخذ إدموند كيرش يتأمّل قمّة الجبل الوعرة المطلّة من فوقه. بعيداً، بدا الدير الحجري الضخم المبنيّ في واجهة جرف شديد الانحدار معلّقاً في الفضاء، كما لو أنّه انصهر بطريقة سحرية بالهاوية العمودية.

لقد قاوم هذا المحراب الموغِل في القِدم في كاتالونيا، بإسبانيا، الجاذبية التي تشدّه بلا هوادة منذ أكثر من أربعة قرون، من دون أن يحيد عن هدفه الأصلي يوماً؛ ألا وهو عزل سكّانه عن العالم الحديث.

من المفارقات، أن يكونوا الآن أوّل من سيعرف الحقيقة. هذا ما فكّر فيه كيرش وهو يتخيّل كيف سيكون ردّ فعلهم. فتاريخياً، يُعتبر رجال الدين أكثر الناس خطورة على وجه الأرض... لا سيّما حين تصبح آلهتهم مهدّدة. وأنا على وشك إشعال النار في عشّ الدبابير.

عندما بلغ القطار قمّة الجبل، رأى كيرش طيفاً وحيداً ينتظره على المنصّة. كان الجسد الذاوي للرجل مكسوّاً بالرداء الكهنوتي الكاثوليكي التقليدي بلونه الأرجواني والكتونة البيضاء، فيما وضع قلنسوة على رأسه. عرف كيرش ملامح مضيفه الضامرة من الصور، وشعر بموجة غير متوقّعة من الأدرينالين تجتاح جسده.

فالديسبينو يستقبلني شخصياً.

كان الأسقف أنطونيو فالديسبينو شخصية مهمة في إسبانيا. ليس لأنّه صديق موثوق ومستشار الملك نفسه فحسب، بل لأنّه أيضاً واحد من أشدّ المدافعين عن القيم الكاثوليكية المحافِظة والمعايير السياسية التقليدية، وأكثرهم نفوذاً.

وبينما كان كيرش يترجّل من القطار، بادره الأسقف قائلاً: "إدموند كيرش على ما أظنّ؟".

فابتسم كيرش ومدّ يده لمصافحة يد مُضيفه الهزيلة قائلاً: "هو بعينه. حضرة الأسقف فالديسبينو، أودّ أن أشكركم على ترتيب هذا الاجتماع".

"يسرّني أنّك *طلبتَه*، فليس من المعتاد أن يستشيرنا رجال العلم، لا سيّما حضرتك. تفضّل من هنا". كان صوت الأسقف أقوى ممّا توقّع كيرش، كما كان واضحاً وحادّاً كالجرس.

وبينما كان فالديسبينو يقود كيرش عبر المنصّة، أخذ الهواء الجبلي البارد يلفح رداءه الكهنوتي.

قال فالديسبينو: "أقرّ بأنك مختلف عمّا تخيّلت. فقد كنت أتوقّع رؤية عالم، ولكنّك تبدو...". ورمق بذلة كيتون كـ50 الأنيقة التي يرتديها ضيفه، مروراً بحذاء باركر بشيء من الازدراء، ثم تابع: "هِيبياً، على ما أعتقد".

ابتسم كيرش بتهذيب. *لقد بطُل استخدام كلمة هيبي منذ عقود.*

قال الأسقف: "بينما كنت أقرأ قائمة إنجازاتك، لم يتّضح لي تماماً مجال عملك".

"أنا متخصّص في نظرية الألعاب والنمذجة الحاسوبية".

"إذاً، أنت تصنع ألعاب الكمبيوتر التي يلعب بها الأولاد؟".

شعر كيرش بأنّ الأسقف يتظاهر بالجهل؛ في محاولة منه ليبدو قديم الطراز. رغم أنّ كيرش يعرف حقّ المعرفة أنّ فالديسبينو كان طالب تكنولوجيا واسع الاطّلاع على نحو مخيف، وغالباً ما كان يحذّر الناس من مخاطرها. "كلّا سيّدي. في الواقع، نظرية الألعاب مجالٌ رياضيّ يدرس الأنماط من أجل القيام بتوقّعات حول المستقبل".

"آه، أجل. أعتقد أنّني قرأت توقّعاتك بشأن أزمة نقدية أوروبية منذ بضع سنوات. وفي الوقت الذي لم يصغِ فيه أحد، أنقذتَ الوضع باختراع برنامج كمبيوتر أعاد الاتّحاد الأوروبي من الموت. ما كانت جملتك الشهيرة؟ *في سنّ الثالثة والثلاثين، أنا بعمر المسيح وقت جلجلته*".

انكمش كيرش لدى سماعه ذلك وقال: "هذه مقارنة سيّئة، نيافتكم. فقد كنت شابّاً".

ضحك الأسقف. "شابّاً! وكم عمرك الآن؟ أربعون ربّما؟".

"بالكاد".

ابتسم الرجل المسنّ في حين واصل الهواء نفخ ردائه. "حسناً، كان يفترض أن يرث الودعاء الأرض. ولكنّها عوضاً عن ذلك ذهبَت إلى الشباب المولعين بالتكنولوجيا، الذين يحدّقون إلى الشاشات عوضاً عن التحديق إلى نفوسهم. أعترف أنّني لم أتخيّل يوماً أن يكون لديّ سبب للقاء الرجل الذي يقود هذه الموجة. فهم يسمّونك *مُلهماً*، كما تعلم".

أجاب كيرش: "لا أعتقد أنكم كنتم ميّالين للقائي، يا نيافة الأسقف. فعندما طلبتُ اجتماعاً خاصّاً معكم ومع زميليكم، لم أتوقع أن تتجاوز فرص موافقتكم عشرين بالمائة".

"كما قلت لزميليّ، باستطاعة المتديّنين دائماً الاستفادة من الإصغاء إلى غير المؤمنين. فعند سماع صوت الشيطان، سنقدّر صوت الله أكثر". ثمّ ابتسم الأسقف مُضيفاً: "أنا أمازحك طبعاً. أرجو أن تغفر لي حسّ مرحي في هذه السنّ. فلباقتي تخونني من وقت إلى آخر".

وأشار الأسقف فالديسبينو إلى الأمام قائلاً: "زميلاي بانتظارنا. تفضّل من هنا".

تأمّل كيرش المكان الذي كانا يتّجهان إليه، والذي كان عبارة عن قلعة حجرية هائلة رمادية اللون معلّقة على حافة جرف شديد الانحدار يبلغ عمقه آلاف الأقدام، وينتهي عند بساط خصب من الغابات. بدا كيرش غير مكترث بالارتفاع، وحوّل نظره عن الهاوية ليلحق بالأسقف على طول طريق وعر يمتدّ على سفح الجرف، وأفكاره منصبّة على الاجتماع المرتقب.

كان كيرش قد طلب الاجتماع بثلاثة قادة روحيين بارزين أنهوا للتوّ مؤتمراً عُقِد في هذا المكان.

برلمان أديان العالم.

فمنذ العام 1893، يقوم مئات القادة الروحيين من نحو ثلاثين ديانة عالمية بالاجتماع معاً في مكان مختلف كلّ بضع سنوات، حيث يُجرون حواراً بين الأديان لمدّة أسبوع. ويتضمّن المشاركون مجموعة واسعة من الشخصيات النافذة من الكهنة المسيحيين، والحاخامات اليهود، والملالي المسلمين من جميع أنحاء العالم، فضلاً عن البوجاريين الهندوس، والبوذيين، واليان، والسيخ، وغيرهم...

وكان الهدف العام الذي أعلنه البرلمان يقوم "على تنمية الوئام بين أديان العالم، وبناء الجسور بين مختلف الانتماءات الروحية، والاحتفال بالقواسم المشتركة بين جميع الأديان".

وقد وصفه كيرش بأنه سعي *نبيل*؛ على الرغم من أنّه اعتبره ممارسة فارغة، وبحثاً بلا معنى عن نقاط تطابق عشوائية بين خليط من القصص الخيالية والخرافات والأساطير القديمة.

وبينما كان الأسقف فالديسبينو يقود كيرش على طول الطريق، نظر هذا الأخير إلى أسفل الجبل وهو يفكّر ساخراً: *تسلّق موسى جبلاً ليستلم كلمة الله... فيما تسلّقتُ جبلاً لأفعل العكس تماماً.*

كان كيرش قد فكّر في سره بأنّ دافعه لتسلّق هذا الجبل كان التزاماً أخلاقياً، ولكنّه كان يعلم أنّ ثمّة عدداً لا بأس به من المتغطرسين الذين أجّجوا رغبته في هذه الزيارة. لذا، كان توّاقاً إلى الاستمتاع بالجلوس وجهاً لوجه مع رجال الدين هؤلاء، وإخبارهم عن توقعاته لهم بالزوال الوشيك.

لقد حصلتم على فرصتكم لتعريف حقيقتنا.

فجأة، قال الأسقف وهو ينظر إلى كيرش: "ألقيتُ نظرة على سيرتك الذاتية. وكما تبيّن لي، أنتَ من خرّيجي جامعة هارفرد، أليس كذلك؟".

"أجل، حصلت منها على شهادة البكالوريوس".

"فهمت. قرأت مؤخراً أنه للمرّة الأولى في تاريخ هارفرد، يزيد عدد الطلاب الملحدين واللاأدريين على عدد أتباع أيّ ديانة على الإطلاق في فوج الطلاب الجدد. وهذه إحصاءات معبّرة جداً يا سيّد كيرش".

أراد كيرش أن يجيب: *ماذا أقول؟ طلّابنا يزدادون ذكاء مع مرور الزمن.*

ازدادت الرياح قوّة مع وصولهما إلى البناء الحجري القديم. كان مدخل البناء خافت الإضاءة، فيما الهواء ثقيل وعابق برائحة البخور المحترق. شقّ الرجلان طريقهما عبر متاهة من الممرّات المظلمة، وجاهدت عينا كيرش للتكيّف مع الظلام فيما كان يتبع مضيفه. وأخيراً، وصلا إلى باب خشبي صغير غير اعتيادي. طرقه الأسقف، ثمّ انحنى ودخل مشيراً إلى ضيفه ليتبعه.

عبر كيرش العتبة بتردّد، ووجد نفسه في غرفة مستطيلة الشكل اكتست جدرانها بالمجلّدات القديمة، فيما برزت من الجدران رفوف إضافية بدت كالأضلاع، وتخلّلتها شبكة التدفئة الحديدية التي راحت تقعقع وتهسّ مُضفيةً على الغرفة جوّاً غريباً؛ كما لو أنها حيّة. نظر كيرش إلى الدرابزين المزخرف الذي يحيط بالطابق الثاني، وعرف من دون أدنى شكّ أين هو.

إنها *مكتبة مونسرات الشهيرة!* فوجئ بإدخاله إليها؛ إذ يُشاع أنّ هذه الغرفة المبجّلة تحتوي على نصوص نادرة جداً غير متاحة سوى للرهبان الذين كرّسوا حياتهم للعبادة، وأقاموا هنا على قمّة هذا الجبل.

قال الأسقف: "لقد طلبتَ اجتماعاً سرّياً، وهذا أكثر الأماكن انعزالاً لدينا. فقلّة هم الغرباء الذين دخلوا هذا المكان".

"إنّه لكرم منكم أن تمنحوني هذا الشرف. شكراً لكم .

تبع كيرش الأسقف إلى طاولة خشبية كبيرة جلس إليها رجلان مسنّان ينتظران. بدا الرجل الجالس إلى اليسار طاعناً في السنّ، والتعب واضح في نظرات عينيه، فيما لحيته البيضاء متشابكة. كان يرتدي بذلة سوداء مغضّنة وقميصاً أبيض، ويعتمر قبّعة.

قال الأسقف: "أقدّم لك الحاخام يهودا كوفيس. إنّه فيلسوف يهودي بارز كتب الكثير عن علم الكونيات القبالي .

مدّ كيرش يده من فوق الطاولة، وصافح بأدب الحاخام كوفيس قائلاً: "يسرّني لقاؤكم، سيّدي. فقد قرأت كتبكم عن القباله. لا أستطيع القول إنّني فهمتها، ولكنّني قرأتها".

فهزّ كوفيس رأسه بلطف وهو يمسح عينيه الدامعتين بمنديله.

تابع الأسقف مشيراً إلى الرجل الآخر: "وحضرته سماحة العلاّمة سيّد الفضل".

وقف رجل الدين المسلم وابتسم ابتسامة عريضة. كان قصير القامة وممتلئاً، ذا وجه بشوش بدا متناقضاً مع عينيه السوداوين حادّتَي النظرات. كان يرتدي عباءة بيضاء

متواضعة. "سيّد كيرش، وأنا قرأت توقّعاتكم بشأن مستقبل البشرية. لا أستطيع القول إنّني *أتّفق* معك في الرأي، ولكنّني قرأتها".

ابتسم كيرش بلطف وصافح الرجل.

ثمّ قال الأسقف موجّهاً كلامه إلى زميلَيه: "وضيفنا إدموند كيرش، كما تعلمان، عالم كمبيوتر شهير، كما أنّه باحث في مجال نظرية الألعاب، ومخترع، ويُعتبر مُلهِماً إلى حدّ ما في عالم التكنولوجيا. ونظراً إلى خلفيته هذه، حيّرني طلبه الاجتماع بنا نحن الثلاثة. لذلك، سأطلب من السيّد كيرش أن يشرح لنا سبب مجيئه".

جلس الأسقف فالديسبينو بين زميليه، ثمّ كتف ذراعيه، وأعار كيرش كلّ انتباهه. جلس الرجال الثلاثة أمامه كأنّهم قضاة في المحكمة؛ الأمر الذي أضفى على الأجواء انطباعاً غريباً، فشعر كيرش وكأنّه أمام محكمة تفتيش وليس في اجتماع ودّي مع علماء. وفي تلك اللحظة، أدرك كيرش أنّ الأسقف لم يجهّز له مقعداً.

شعر كيرش بالدهشة أكثر من شعوره بالخوف وهو يتأمّل الرجال الثلاثة الجالسين أمامه. *إذاً، هذا هو الثالوث الذي طلبتُه. الحكماء الثلاثة.*

قرّر كيرش أن يأخذ بضع ثوانٍ لتأكيد سلطته. فذهب إلى النافذة، وحدّق إلى المشهد الذي يخطف الأنفاس في الأسفل. فقد امتدّت أمام ناظريه المراعي القديمة المشمسة في وادٍ عميق، مُفسحةً المجال لقمم سلسلة جبال كولسيرولا الوعرة. وعلى مسافة أميال خلفها، في مكان ما فوق بحر البليار، أخذ الأفق يتلبّد بسحب سوداء.

الأجواء مناسبة. هذا ما فكّر فيه كيرش وهو يستشعر الاضطراب الذي سيُحدثه قريباً في هذه القاعة، وفي العالم خارجها.

فجأة، التفت نحو رجال الدين الثلاثة، واستهلّ كلامه قائلاً: "أيّها السادة، أعتقد أنّ الأسقف فالديسبينو قد أخبركم برغبتي في أن يكون اجتماعنا سريّاً. لكن، قبل أن نتابع، أودّ أن أوضّح لكم أنّ ما سأطلعكم عليه ينبغي أن يبقى طيّ الكتمان. ببساطة، أنا أطلب منكم أنتم الثلاثة أن تتعهّدوا بالصمت. هل نحن متّفقون على ذلك؟".

فهزّ الرجال الثلاثة رؤوسهم موافقي؛ الأمر الذي اعتبره كيرش غير ضروري على الأرجح. *فهم بالتأكيد سيرغبون في دفن هذه المعلومات عوضاً عن نشرها.*

بدأ كلامه قائلاً: "لقد أتيت إلى هنا اليوم لأنّني توصّلت إلى اكتشاف علمي أعتقد أنّه سيذهلكم. إنّه أمر أتابعه منذ سنوات عديدة، على أمل الإجابة عن سؤالين من أهمّ الأسئلة في تجربتنا البشرية. والآن، وبعد أن نجحت في ذلك، أتيت إليكم أنتم على وجه التحديد لأنّني أعتقد أنّ هذه المعلومات ستترك أثراً عميقاً في مؤمني العالم، ومن المحتمل أن تسبّب تحوّلاً لا يمكن سوى وصفه بأنّه مدمّر. في هذه اللحظة، أنا الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف المعلومات التي سأطلعكم عليها".

ثمّ مدّ كيرش يده إلى جيب سترته، وأخرج هاتفاً ذكياً ضخماً كان قد صمّمه وبناه لخدمة احتياجاته الخاصّة الفريدة من نوعها. وكان للهاتف غطاء من الفسيفساء زاهي الألوان، أسنده أمام الرجال الثلاثة مثل تلفاز. وخلال لحظة واحدة، استخدم الجهاز لدخول خادم فائق الأمان، وأدخل كلمة السرّ المؤلّفة من سبعة وأربعين حرفاً، ثمّ قدّم لهم عرضاً حياً.

قال كيرش: "ما ستشاهدونه جزء من إعلان آمل أن أطلع العالم عليه؛ ربّما في غضون شهر من الزمن أو نحو ذلك. لكن، قبل أن أفعل ذلك، أردت التشاور مع عدد من المفكّرين الدينيين الأكثر تأثيراً في العالم، لأعرف كيف سيتمّ تلقّي هذا النبأ من قبل الأشخاص المعنيين به أكثر من غيرهم".

عندها، تنهّد الأسقف بصوت عالٍ، وبدا عليه الملل وليس القلق: "يا لها من ديباجة مثيرة للاهتمام يا سيّد كيرش! إنك تتكلّم كما لو أنّ ما ستطلعنا عليه سيهزّ أسس ديانات العالم".

جال كيرش بنظره على المستودع القديم الذي يتضمن النصوص المقدّسة، وفكّر في سرّه: *لن يهزّ أسسكم، بل سيحطّمها*.

ثم قيّم كيرش بنظراته الرجال الجالسين أمامه. ما لا يعرفونه هو أنّه ينوي إعلان اكتشافه في غضون ثلاثة أيّام فقط؛ وذلك في حدث مذهل تم التخطيط له بدقّة. وما إن يفعل ذلك، حتى يكتشف الناس في جميع أنحاء العالم أنّ تعاليم الأديان كافة لديها بالفعل قاسم مشترك واحد.

الفصل 1

حدّق البروفيسور روبرت لانغدون إلى الكلب الجالس في الساحة، والذي يقارب طوله أربعاً وأربعين قدماً. كان فراء الحيوان عبارة عن سجّادة حية من الأعشاب والأزهار العطرة.

قال في سرّه: *أنا أحاول أن أحبّك، أحاول ذلك حقّاً.*

تأمّل لانغدون ذلك المخلوق قليلاً بعد، ثمّ تابع سيره على طول الطريق المعلّق ليهبط شرفة مدرّجة واسعة صُمِّم سطحها غير المستوي بطريقة تدفع الزائر إلى تغيير وتيرة مشيته المعتادة. *لقد أنجِزت المهمّة.* كاد يتعثّر مرّتين على الدرجات غير المنتظمة.

وعند أسفل الدرجات، توقّف فجأة، وحدّق إلى شيء ضخم لاح أمامه.

الآن رأيتها بأكملها.

ظهر أمامه تمثال لأرملة سوداء هائلة الحجم، حملت أرجلها الحديدية النحيلة جسماً مستديراً يرتفع نحو ثلاثين قدماً في الهواء. وقد عُلّق ببطن العنكبوت كيس بيوض من الشبك السلكي يحتوي على كرات زجاجية.

قال صوت: "اسمها *مامان* (الأمّ)".

أخفض لانغدون نظره فرأى أمامه رجلاً نحيلاً يقف تحت تمثال العنكبوت. كان يرتدي شيرواني أسود مزركشاً، ولديه شارب ملتفّ على طراز شارب سالفادور دالي؛ فبدا مظهره كوميدياً إلى حدّ ما.

تابع قائلاً: "اسمي فرناندو، وقد أتيت لاستقبالك في المتحف". ثمّ حوّل الرجل انتباهه إلى مجموعة من بطاقات الأسماء الموضوعة على طاولة أمامه، وسأله: "هل يمكنني الحصول على اسمك رجاء؟".

"بالتأكيد. روبرت لانغدون".

فوجئ الرجل، ونظر إليه مجدّداً ثم قال: "آه، أنا آسف جدّاً! لم أعرفك!".

بالكاد أعرف نفسي؛ فكّر لانغدون في ذلك وهو يتقدّم نحوه بسترته الطويلة السوداء، وقميصه الأبيض، وربطة عنقه البيضاء. *أبدو مثل أحد أعضاء مجموعة ويفنبوف.* كانت سترة لانغدون الكلاسيكية ترجع إلى ثلاثين عاماً مضت تقريباً، فقد

احتفظ بها من أيّام عضويته في نادي آيفي في برينستون. ولكن، بفضل التزامه بنظام السباحة اليومية، ما زالت السترة تناسب مقاسه تماماً. فنظراً لعجلة لانغدون وهو يحزم أمتعته، تناول البذلة الخاطئة من خزانته عوضاً عن بذلته الرسمية المعتادة.

قال: "بحسب الدعوة، ينبغي ارتداء الأبيض والأسود. أرجو أن تكون السترة الطويلة مناسبة".

"السترة الطويلة كلاسيكية! أنت تبدو مذهلاً!". ثمّ سارع الرجل إلى تعليق بطاقة الاسم بعناية على طيّة الصدر في سترته.

قال صاحب الشارب: "إنّه لشرف لي أن ألتقيكَ يا سيّدي. لا شكّ في أنّك زرتنا من قبل".

حدّق لانغدون من بين أرجل العنكبوت إلى المبنى الذي تضيئه الشمس أمامهما، ثم قال: "في الواقع، يحرجني القول إنّني لم أفعل".

تظاهر الرجل بالسقوط من هول المفاجأة. "حقّاً! ألستَ من محبّي الفنّ الحديث؟".

لطالما استمتع لانغدون بتحدّي الفنّ الحديث، لا سيّما استكشاف سبب اعتبار أعمال معيّنة تحفاً فنية. وكمثال على ذلك، لوحات جاكسون بولوك المرسومة بتقنية التنقيط، وعلب حساء كامبلز لآندي وارهول، والمستطيلات الملوّنة في أعمال مارك روثكو. مع ذلك، كان لانغدون يرتاح أكثر بكثير عند مناقشة الرمزية الدينية في أعمال هييرونيموس بوش أو ضربات فرشاة فرانسيسكو دي غويا.

أجاب لانغدون: "أنا أكثر ميلاً إلى الفنّ الكلاسيكي، وأفضّل دافنشي على دي كونينغ".

"لكنّ دافنشي ودي كونينغ متشابهان جدّاً!".

فابتسم لانغدون قائلاً: "إذاً، من الواضح أنّه عليّ تعلّم المزيد عن دي كونينغ".

"في هذه الحال، أنت في المكان المناسب!". وأشار الرجل بذراعه إلى المبنى الضخم وتابع: "في هذا المتحف ستجد إحدى أجمل مجموعات الفنّ الحديث في العالم! أتمنّى أن تستمتع بزيارته".

أجاب لانغدون: "هذا ما أنويه. غير أنّني أتمنّى فقط لو أنّني أعرف سبب وجودي هنا".

فضحك الرجل بمرح وهو يهزّ رأسه: "شأنك شأن الجميع! مضيفكم متكتّم جدّاً حيال حدث هذه الليلة. حتّى إن موظّفي المتحف لا يعرفون ما يجري. لكنّ الغموض يشكّل نصف المتعة، والشائعات كثيرة! ثمّة عدّة مئات من الضيوف في الداخل، والكثير من الوجوه المعروفة، ولا أحد يدري شيئاً عن برنامج الليلة!".

ابتسم لانغدون، فقلّة هم الأشخاص الذين يملكون الشجاعة لإرسال دعوات في اللحظة الأخيرة لا تتضمّن سوى بعض المعلومات الأساسية: *مساء السبت. كونوا هناك. ثقوا بي*. كما أنّ عدداً أقلّ من الناس يستطيعون إقناع المئات من كبار الشخصيات بتأجيل كلّ أعمالهم، والسفر إلى شمال إسبانيا لحضور حدث ما.

مرّ لانغدون من تحت العنكبوت، وتابع سيره وهو ينظر إلى اللافتة الحمراء الضخمة التي راحت ترفرف فوق رأسه.

أمسية مع
إدموند كيرش

فكّر لانغدون في سره بمرح: *لا شكّ في أنّ إدموند لم يفتقر يوماً إلى الثقة بالنفس*.

فقبل عشرين عاماً، كان الشابّ إدي كيرش من بين طلّاب لانغدون الأوائل في جامعة هارفرد. وكان الشابّ ذو الشعر الأملس المسرّح بعناية مهووساً بالكمبيوتر، وقد قاده اهتمامه بالرموز إلى الالتحاق بالحلقة الدراسية التي يعطيها لانغدون: الشيفرات ولغة الرموز. أُعجِب لانغدون كثيراً بذكاء كيرش وبراعته. ومع أنّ هذا الأخير ابتعد لاحقاً عن عالم الرموز القديم ولنتقل إلى عالم المعلوماتية البرّاق والواعد، إلّا أنّ علاقة صداقة نشأت بين المعلّم والطالب، وبقيا على تواصل خلال الأعوام العشرين الماضية بعد تخرّج كيرش.

فكّر لانغدون، *والآن فاق التلميذ معلّمه بعدّة سنوات ضوئية*.

اليوم، أصبح إدموند كيرش شخصية ذائعة الصيت؛ فهو ملياردير وعالم كمبيوتر، وعالم مستقبلي، ومخترع، ورجل أعمال. فقد ابتكر الرجل البالغ من العمر أربعين عاماً مجموعة مذهلة من التقنيات المتقدّمة التي تشكّل قفزات هائلة في مجالات متنوّعة مثل الروبوتات، وعلم الدماغ، والذكاء الاصطناعي، والنانوتكنولوجيا. كما أنّ توقّعاته الدقيقة بشأن التقدّم العلمي كوّنت حوله هالة من الغموض.

خمّن لانغدون أن تكون موهبة إدموند الغريبة في مجال التوقّع نابعة من معرفته الواسعة جدّاً بالعالم المحيط به. فكما يذكر، كان إدموند قارئاً نهماً يقرأ كلّ ما تقع عليه عيناه. لا بل إنّ لانغدون لم يرَ مثيلاً له من حيث شغفه بالكتب وقدرته على استيعاب محتوياتها.

خلال السنوات القليلة الماضية، عاش كيرش بشكل أساسي في إسبانيا، عازياً اختياره لتلك البلاد إلى علاقة حبّ لا تنتهي مع سحر عالمها القديم، وهندستها المعمارية الطليعية، وحاناتها الغريبة، وطقسها المثالي.

كلّ عام، حين يعود كيرش إلى كامبردج لإلقاء محاضرة في مختبر الإعلام في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ينضمّ إليه لانغدون لتناول الطعام في أحد مطاعم بوسطن الجديدة التي لم يسبق له أن سمع بها. وفي تلك اللقاءات، لم تكن أحاديثهما تدور حول التكنولوجيا على الإطلاق، بل كانت الفنون هي الموضوع الوحيد الذي يحبّ كيرش مناقشته مع لانغدون.

وغالباً ما كان يمازحه قائلاً: "أنت صلتي الوحيدة بالثقافة يا روبرت؛ أستاذي الوحيد في عالم الفنون!".

وكانت الإشارة الطريفة إلى وضع لانغدون الاجتماعي ساخرة جدّاً، وتصدر عن شخص عازب مثله أيضاً؛ يرفض الزواج من شريكة واحدة، ويعتبر أن ذلك "إهانة للتطوّر"، لا سيّما وأنّه ظهر على مرّ السنين في صور عديدة مع مجموعة واسعة من عارضات الأزياء.

نظراً إلى سمعة كيرش كمبدع في مجال علوم الكمبيوتر، يسهل تخيّله كشخص مملّ وجدّي مهووس بالتكنولوجيا. إلّا أنّه عوضاً عن ذلك جعل من نفسه أيقونة معاصرة؛ إذ راح يتنقّل في أوساط المشاهير، ويرتدي ملابسه على أحدث طراز، كما كان يصغي إلى الموسيقى الحديثة، ويهوى جمع الأعمال الفنّية الانطباعية والحديثة التي لا تقدّر بثمن. وغالباً ما راسل لانغدون لاستشارته بشأن تحف فنية جديدة ينوي ضمّها إلى مجموعته.

فكّر لانغدون، *ثمّ كان يفعل العكس تماماً*.

منذ عام مضى تقريباً، فاجأ كيرش لانغدون بسؤال لا يتعلّق بالفنّ، بل بالله. وكان هذا موضوعاً غريباً بالنسبة إلى شخص لا يُخفي إلحاده. هكذا، وأمام طبق من اللحم غير الناضج تماماً في مطعم تايغر ماما في بوسطن، تحاور كيرش ولانغدون حول المعتقدات الأساسية لمختلف الديانات العالمية، لا سيّما رواياتها المختلفة لقصّة الخَلق.

أعطاه لانغدون نظرة عامّة عن المعتقدات الحالية؛ بدءاً من قصة التكوين في الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام، ووصولاً إلى قصّة براهما الهندوسية، وحكاية مردوخ البابلية، وغيرها...

حينها، سأله لانغدون وهما يغادران المطعم: "لكنّني مُستغرب، فما الذي يدفع شخصاً مثلك يهتمّ بالمستقبل إلى الاهتمام بالماضي؟ هل هذا يعني أنّ الملحد الشهير قد وجد أخيراً طريقه إلى الله؟".

فانفجر إدموند ضاحكاً وقال: "مستحيل! أنا أقيس وحسب حجم المنافسة يا روبرت".

ابتسم لانغدون وفكّر في سرّه: *هذا نموذجي بالنسبة إليك*. "في الواقع، العلم والدين ليسا متنافسَين، بل هما لغتان مختلفتان تحاولان أن ترويا القصّة نفسها. وفي هذا العالم

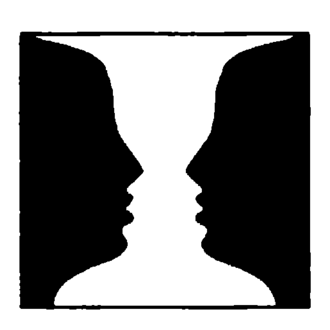
مكانٌ لكليهما".

بعد ذلك الاجتماع، انقطع الاتّصال بين إدموند ولانغدون لمدّة عام تقريباً. ومنذ ثلاثة أيّام، تلقّى لانغدون فجأة مغلّفاً عن طريق فيديكس يتضمّن تذكرة طائرة وحجزاً فندقيّاً ورسالة مكتوبة بخطّ اليد ومُرسَلة من إدموند يحثّه فيها على المجيء لحضور حدث هذه الليلة. وقد كتب في الرسالة: *روبرت، سيسعدني كثيراً أن تتمكّن أنت من بين جميع الناس من الحضور. فالأفكار التي زوّدتني بها خلال لقائنا الأخير ساعدت في جعل هذه الليلة ممكنة.*

ذُهِل لانغدون تماماً حين قرأ الرسالة. فما من شيء في ذلك الحديث بدا ذا صلة بحدث يستضيفه تلميذه المهتم بالمستقبل.

تضمّن مغلّف فيديكس أيضاً صورة بالأبيض والأسود لشخصين يقفان وجهاً لوجه. وكتب كيرش مقطعاً شعرياً قصيراً للانغدون.

روبرت،
حين تراني وجهاً لوجه،
سأكشف لك المساحة الخالية.
- إدموند



ابتسم لانغدون حين رأى الصورة التي كانت تتضمّن إشارة ذكية إلى قضية عمل عليها روبرت قبل بضع سنوات. فقد ظهرت الكأس المبجّلة في المساحة الخالية بين الوجهين.

في تلك اللحظة، وقف لانغدون أمام المتحف وهو يشعر بالتوق لمعرفة ما سيعلنه تلميذه السابق. هبّ نسيم خفيف على ذيل سترته فيما كان يسير على الطريق الإسمنتي على ضفّة نهر نيرفيون؛ الذي كان في ما مضى شريان الحياة لمدينة صناعية مزدهرة، واشتمّ في الهواء رائحة نحاس خفيفة.

وبينما كان لانغدون ينعطف على الطريق المؤدّي إلى المدخل، سمح لنفسه أخيراً بالنظر إلى المتحف الضخم البرّاق. كان من المستحيل رؤية المبنى كله في نظرة واحدة. وعوضاً عن ذلك، جال نظره على طول البناء الطويل والغريب ذهاباً وإياباً.

فكّر لانغدون في سره: *هذا البناء لا يكسر القواعد فحسب، بل يتجاهلها تماماً. إنّه بقعة مثالية بالنسبة إلى إدموند.*

بدا متحف غوغنهايم في بيلباو بإسبانيا أقرب إلى هلوسة غريبة؛ إذ ظهرت أشكال معدنية مشوّهة تمّ إلصاقها بعضها ببعض بطريقة عشوائية تقريباً، فيما امتدّت كتلة الأشكال الفوضوية وغُلّفت بما يزيد عن ثلاثين ألف بلاطة من التيتانيوم التي راحت تلمع مثل حراشف السمك، مُضفيةً على البناء انطباعاً بأنّه عضوي ومن خارج هذا العالم في الوقت نفسه؛ كما لو أنّ سفينة مستقبلية ضخمة خرجت من الماء لتتشمّس على ضفّة النهر.

عندما تمّ الكشف عن المبنى للمرّة الأولى عام 1997، أشادت صحيفة نيو يوركر بالمهندس المعماري فرانك غيري، وقالت إنّه صمّم "سفينة خيالية رائعة ذات شكل متموّج في عباءة من التيتانيوم". في حين قال نقّاد آخرون في العالم إنّه "أعظم بناء في زماننا!"، وإنه "متألّق!"، و"إنجاز معماري مذهل!".

منذ بدايات المتاحف، تمّ تشييد عشرات المباني "التفكيكية" الأخرى، مثل قاعة ديزني للحفلات الموسيقية في لوس أنجلوس، وعالم بي إم دبليو في ميونيخ، وحتّى المكتبة الجديدة في جامعة لانغدون. وجميعها تمثّل تصاميم وأبنية غير تقليدية على نحو جذري. لكنّ لانغدون شكّ في أن يضاهي أيّ منها متحف غوغنهايم في بيلباو بطابعه الصادم.

مع اقترابه من المتحف أكثر، بدت واجهة التيتانيوم وكأنّها تتحوّل مع كلّ خطوة، وتُقدّم للزائر شخصية جديدة من كلّ زاوية. وأصبح الخداع البصري الأكثر دراماتيكية للمتحف مرئياً الآن. فمن هذه الزاوية، بدا البناء هائل الحجم وكأنّه يطفو فعليّاً على سطح المياه، يجرفه بحر واسع لا نهاية له، أمواجه تتلاطم وتضرب جدران المتحف الخارجية.

توقّف لانغدون للحظة متأمّلاً المشهد، ثمّ شرع بعبور النهر سالكاً جسر المشاة البسيط الممتدّ فوق المياه البرّاقة. لكنّه ما إن وصل إلى منتصف الجسر حتّى سمع هسيساً قوياً أجفله. كان الهسيس صادراً من تحت قدميه. توقّف في مكانه، بينما بدأت سحابة من الضباب تنبعث من تحت الجسر. ارتفع الضباب الكثيف وأحاط به، ثمّ اندفع من فوق المياه باتّجاه المتحف، وأحاط بقاعدة المبنى بأكمله.

منحوتة الضباب.

كان قد قرأ عن هذا العمل للفنّان الياباني فوجيكو ناكايا. كانت "المنحوتة" ثورية من حيث تكوينها من الهواء المائي. إذ يظهر جدار من الضباب ويتلاشى مع مرور الوقت، وبسبب اختلاف النسيم والظروف الجوّية بين يوم وآخر، فإنّ المنحوتة تكون مختلفة في كلّ مرّة تظهر فيها.

توقّف صوت الهسيس، وراقب لانغدون جدار الضباب وهو يتلاشى بصمت فوق المياه، ويدور ويزحف كما لو كان لديه عقل خاصّ به. كان التأثير أثيرياً ومربكاً على السواء. إذ بدا المتحف بأكمله الآن وكأنّه يحوم فوق الماء، ويستقرّ على سحابة؛ مثل شبح سفينة ضائعة في البحر.

وعندما أوشك لانغدون على الانطلاق مجدّداً، اضطرب سطح المياه الساكن بسلسلة من الانفجارات الصغيرة. وفجأة، انطلقت خمسة أعمدة نارية من النهر نحو السماء، وهي تهدر مثل محرّكات صواريخ اخترقت الهواء المحمّل بالضباب، وألقت شراراتها الضوئية البرّاقة على بلاط التيتانيوم الذي يكسو المتحف.

كان ذوق لانغدون المعماري أكثر ميلاً إلى المتاحف الكلاسيكية مثل اللوفر أو برادو. ولكن، بينما كان يشاهد الضباب واللهب فوق المياه، لم يجد مكاناً أفضل من هذا المتحف العصري لاستضافة حدث دعا إليه رجل محبّ للفنّ والإبداع، وقادر على استراق نظرة واضحة إلى المستقبل.

مشى لانغدون عبر الضباب، وحثّ خطاه في طريقه إلى مدخل المتحف الذي كان عبارة عن ثقب أسود مخيف في البناء الضخم. ومع اقترابه، راوده إحساس مزعج بأنّه يدخل فم تنين.

الفصل 2

جلس أميرال البحرية لويس أفيلا على مقعد في نادٍ ليلي مهجور في بلدة غريبة. كانت الرحلة قد أنهكته. فقد أتى إلى هذه المدينة جوّاً بعد يوم عمل تنقّل فيه آلاف الأميال خلال اثنتي عشرة ساعة. تناول رشفة من كأس الماء المنشِّط الثانية، وحدّق إلى مجموعة الزجاجات الملوّنة التي تزيّن الجدار.

فكّر في سرّه: بإمكان أيّ رجل أن يحافظ على اتّزانه في الصحراء، ولكن الأوفياء هم وحدهم الذين يستطيعون الجلوس في واحة من دون أن يفتحوا أفواههم.

لم يفتح أفيلا فمه للشيطان منذ سنة تقريباً. رمق انعكاس صورته على سطح البار أمامه، ومنح نفسه لحظة نادرة من الرضى عن الصورة التي تبادله النظر.

كان أفيلا واحداً من أولئك الرجال المتوسطيين المحظوظين الذين بدا لهم التقدّم في السنّ امتيازاً وليس عائقاً. فعلى مرّ السنوات، تحوّلت لحيته القصيرة السوداء القاسية إلى لحية مميّزة بلون الملح والفلفل، بينما بدا الاسترخاء في عينيه السوداوين الناريتين بفعل الثقة والهدوء اللذين شعر بهما، وأصبحت بشرته زيتونية اللون والمشدودة سمراء ومغضّنة؛ ما أضفى عليه هالة رجل يحدّق إلى البحر دائماً.

حتّى في سنّ الثالثة والستّين، ما زال جسده نحيلاً ومشدوداً، وقد زاد زيّه الرسمي المفصّل على مقاسه من جاذبيته. في تلك اللحظة، كان أفيلا يرتدي زيّه البحري الأبيض الكامل؛ وهو عبارة عن بذلة ملكية المظهر تتألّف من سترة بيضاء مزدوجة الصدر، عليها شارات كتف عريضة سوداء، ومجموعة كبيرة من الميداليات، فضلاً عن قميص ذي ياقة بيضاء، وسروال أبيض مطرّز بالحرير.

ربّما لم تعد الأرمادا الإسبانية أقوى سلاح بحرية في العالم، ولكنّنا ما زلنا نعرف كيف نُلبِس الضبّاط.

لم يكن الأميرال قد ارتدى هذا الزيّ منذ سنوات، ولكن هذه الليلة مميّزة. وبينما كان يذرع شوارع هذه البلدة المجهولة منذ برهة، استمتع بنظرات الاستحسان التي كانت النساء يلقينها عليه، وبالتقدير الذي أولاه إيّاه الرجال.

الجميع يحترمون من يعيشون وفقاً للقانون.

سألته النادلة الجميلة بالإسبانية: "هل ترغب في كأس أخرى؟". كانت في الثلاثينيات من عمرها، ممتلئة الجسم، تعلو وجهها ابتسامة لعوب.

فهزّ أفيلا رأسه رافضاً. "كلّا، شكراً".

كان هذا النادي خالياً تماماً، حيث استطاع أفيلا أن يشعر بنظرات الإعجاب في عيني النادلة. من الجميل أن يلفت المرء الأنظار مجدّداً. *لقد عدتُ من الهاوية*.

سيبقى الحدث المروّع الذي دمّر حياته قبل خمس سنوات متوارياً في أعماق عقله، لحظة مرعبة انشقّت فيها الأرض وابتلعته كاملاً.

كاتدرائية إشبيلية.

صباح الفصح.

تسلّلت شمس الأندلس عبر الزجاج الملوّن، وألقت مشكالاً من الألوان الزاهية على جدران الكاتدرائية الداخلية. وراح الأورغن الأنبوبي يصدر ألحانه المرحة في احتفال ديني ضمّ آلاف المصلّين.

ركع أفيلا أمام درابزين المناولة، وقلبه مليء بالامتنان. فبعد حياة من الخدمة قضاها في البحر، أنعم الله عليه بأعظم النعم؛ بأسرة. ابتسم ابتسامة عريضة، ثم التفت إلى الخلف لينظر إلى زوجته الشابّة ماريا التي كانت لا تزال جالسة على مقعدها، لأنّ الحمل لم يسمح لها باجتياز المسافة الطويلة عبر الممرّ. وإلى جانبها جلس ابنهما بيبي، البالغ من العمر ثلاث سنوات، والذي لوّح لأبيه بحماسة. غمز أفيلا الصبيّ، فيما ابتسمت ماريا لزوجها بحنان.

قال أفيلا لنفسه وهو يلتفت مجدّداً لقبول الكأس: *الحمد لله*.

بعد لحظة من ذلك، هزّ انفجار عنيف جدران الكاتدرائية العريقة.

وفي غمضة عين، التهمت النيران عالمه بأكمله.

أدّت قوّة الانفجار إلى دفع أفيلا بعنف إلى الأمام، حيث ارتطم جسده بدرابزين المناولة، وسُحِق بالشظايا والأشلاء البشرية المتطايرة. وحين استعاد وعيه، كان عاجزاً عن التنفّس بسبب الدخان الكثيف، ولم يعرف للحظة مكانه أو حقيقة ما جرى.

بعد ذلك، ما لبث الصراخ أن طغى على صوت الطنين الذي صمّ أذنيه، فنهض وقد بدأ يدرك برعب المكان الذي يتواجد فيه. شعر أنّه في كابوس رهيب، وأخذ يسير في الكاتدرائية التي يعمّها الدخان مترنّحاً، ومتعثّراً بالضحايا المشوّهين الذين راحوا يئنّون ألماً. حاول بصعوبة الوصول إلى المنطقة التي كانت زوجته وابنه يجلسان فيها قبل لحظات وحسب مُبتسمَين له.

لم يجد شيئاً هناك.

لا مقاعد، ولا أناس.

مجرّد بقايا دامية على الأرض الحجرية المتفحّمة.

فجأة، قُرِع باب المقهى، محطّماً الذكريات المروّعة. فتناول أفيلا كأسه، وأخذ منها رشفة سريعة؛ في محاولة لينفض عنه ظلام تلك الذكريات، كما اضطرّ أن يفعل مرّات عديدة من قبل.

فُتِح باب المقهى، فالتفت إليه أفيلا، ورأى رجليْن ضخمَي الجثّة يدخلان منه. كانا يغنّيان أغنية قتال إيرلندية خارج اللحن تماماً، ويرتديان قميصَين أخضرين من قمصان كرة القدم لا يغطّيان بطنيهما. من الواضح أنّ مباراة هذا المساء قد انتهت لصالح الفريق الإيرلندي الزائر.

قال أفيلا في سرّه وهو ينهض: *سأعتبر هذه إشارة للرحيل*. ثم طلب الفاتورة، ولكنّ النادلة غمزته ولوّحت له للانصراف، فشكرها واستدار ليغادر.

فجأة، صاح أحد الوافدَين وهو يحدّق إلى زيّ أفيلا: "تبّاً! ملك إسبانيا هنا!".

ثم انفجر الرجلان ضاحكين وهما يندفعان نحوه.

حاول أفيلا تجاوزهما للرحيل، ولكنّ الرجل الأضخم أمسك بذراعه وأعاده إلى مقعده وهو يقول: "مهلاً يا صاحب الجلالة! لقد قطعنا كلّ هذه المسافة للمجيء إلى إسبانيا، ولن نغادر قبل أن نتناول كأساً مع الملك!".

رمق أفيلا يد الرجل القذرة على كمّ بذلته المكوّية حديثاً وقال بهدوء: "دعني أذهب، عليّ الرحيل".

"كلّا، بل عليك البقاء لتناول كأس من الشراب يا صديقي . وشدّ الرجل قبضته على ذراع أفيلا، بينما بدأ صديقه يكز بإصبعه القذرة الميداليات المعلّقة على صدر أفيلا. "يبدو أنّك بطل كبير يا سيّدي". وشدّ الرجل أحد أثمن شعارات أفيلا. "أهذا صولجان من القرون الوسطى؟ إذاً، أنت فارس بدرع برّاقة؟!". وقهقه ضاحكاً.

عندها، ذكّر أفيلا نفسه: *كن متسامحاً*. إذ كان قد التقى عدداً لا يُحصى من أمثال هذين الرجلين؛ أشخاصاً بسطاء- أرواحاً بائسة- لم يتحمّلوا مسؤولية شيء قطّ، لا بل استغلّوا بشكل أعمى الحرّيات التي قاتل آخرون لمنحهم إيّاها.

أجاب أفيلا بلطف: "في الواقع، الصولجان شعار وحدة العمليّات الخاصّةِ في البحرية الإسبانية".

"العمليّات الخاصّة؟!". وتظاهر الرجل بأنّه يرتعد خوفاً. "هذا رائع. وماذا عن هذا الرمز؟". ثمّ أشار إلى يد أفيلا اليمنى.

نظر أفيلا إلى كفّ يده. ففي الوسط على الجلد الناعم نُقِش وشم أسود كان عبارة عن رمز يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر.



فكّر أفيلا وهو يرمق الشعار: *هذا الوشم يحميني، مع أنّني لم أعد بحاجة إليه*.

وأخيراً، ترك الرجل ذراع أفيلا قائلاً: "انسَ الأمر. وحوّل انتباهه إلى النادلة: "أنت جميلة، هل أنت إسبانية مائة بالمائة؟".

أجابت بلباقة: "أجل".

"أليس فيك شيء إيرلندي؟".

"كلّا".

"أتريدين القليل؟". ثمّ انفجر الرجل ضاحكاً بهستيرية وهو يضرب بيده على البار.

فأمره أفيلا: "دعها وشأنها".

عندها، استدار الرجل وحدّق إليه.

فيما وكز الهمجي الآخر صدر أفيلا بقوّة قائلاً له: "هل تحاول أن تُملي علينا ما يجب علينا فعله؟".

أخذ أفيلا نفساً عميقاً وقد شعر بالتعب بعد رحلة هذا اليوم الطويلة، ثمّ أشار نحو البار قائلاً: "تفضّلا بالجلوس أيّها السيّدان، سأقدّم لكما الشراب".

فكّرت النادلة في سرّها: *أنا سعيدة ببقائه*. فرغم أنّها قادرة على العناية بنفسها، إلّا أنّ الهدوء الذي تعامل به هذا الأميرال مع الرجلين جعلها تشعر بشيء من الضعف، وتمنّت أن يبقى حتّى وقت الإقفال.

طلب الأميرال كأسين من الشراب وكأساً من المياه المنشّطة له، ثمّ عاد للجلوس على مقعده. أمّا هاويا كرة القدم الهمجيان فجلسا إلى جانبيه.

قال أحدهما: "مياه منشّطة! ظننت أنّنا سنتناول الشراب معاً".

فابتسم الأميرال للنادلة ابتسامة متعبة وأنهى ما في كأسه.

ثم قال وهو يقف: "أخشى أنّ لديّ موعداً. ولكن، استمتعا بشرابكما".

وبينما كان ينهض، وضع الرجلان يديهما على كتفيه وكأنّهما تدرّبا على ذلك، ودفعاه للجلوس مجدّداً، فومضت شرارة غضب في عينيه ثمّ اختفت.

"اسمع يا جدّي، لا أظنّ أنّك تودّ أن تتركنا بمفردنا هنا مع صديقتك". ثمّ نظر الرجل إلى النادلة وقام بحركة مثيرة للاشمئزاز.

جلس الأميرال بصمت للحظات طويلة، ثمّ مدّ يده إلى سترته.

فأمسك به الرجلان. "مهلاً! ماذا تفعل؟!".

وببطء شديد، أخرج الأميرال هاتفاً خلوياً وقال شيئاً ما للرجلين بالإسبانية، وحين حدّقا إليه من دون أن يفهما، انتقل إلى الإنكليزية. "أنا آسف، لكنّني أودّ الاتّصال بزوجتي لأخبرها أنّني سأتأخّر. يبدو أنّني باقٍ هنا لبعض الوقت".

فقال الأضخم بينهما: "الآن بدأتَ تتكلّم بشيء صائب يا صديقي!". ثمّ تناول شرابه كله، ووضع الكأس على البار بقوّة. "أريد كأساً أخرى".

وبينما كانت النادلة تملأ الكأسين، راقبت الأميرال عبر المرآة وهو يضغط على عدد من الأزرار في هاتفه، ثمّ يرفعه إلى أذنه. وراح يتحدّث بإسبانية سريعة.

قال الأميرال وهو يقرأ اسم المقهى وعنوانه المكتوبين على حاملة الكوب أمامه: "أنا أتّصل بكم من مقهى مولي مالونيه، شارع بارتيكولار دي إسترونزا، 8". انتظر لحظة ثمّ تابع قائلاً: "نحن بحاجة إلى مساعدة عاجلة. فثمّة مصابان هنا". وبعد ذلك أنهى الاتصال.

تسارع نبض النادلة. *مصابان؟*

وقبل أن تتمكّن من استيعاب معنى كلامه، استدار الأميرال إلى يمينه، ولكم أنف الرجل الأضخم بمرفقه محطّماً إيّاه، فغطّت الدماء وجه الرجل وسقط أرضاً. وقبل أن يتمكّن الثاني من التحرّك، استدار الأميرال إلى يساره هذه المرّة ولكم بكوعه قصبة الرجل الهوائية وأسقطه عن مقعده.

حدّقت النادلة إلى الرجلين الممدّدين أرضاً بذهول. كان أحدهما يصرخ ألماً، فيما الآخر يشهق وهو يمسك بحلقه.

وقف الضابط ببطء. وبهدوء غريب، أخرج محفظته ووضع ورقة نقدية بقيمة مائة يورو على البار.

وقال لها بالإسبانية: "أنا أعتذر. ستصل الشرطة قريباً لمساعدتك". ثمّ استدار ورحل.

في الخارج، تنشّق الأميرال أفيلا هواء الليل، ثم سلك شارع ألاميدا دي مازاريدو باتّجاه النهر. وحين اقترب صوت صفّارات سيّارات الشرطة، اختبأ في الظلّ ليسمح للسلطات بالمرور. فلديه أعمال خطيرة، ولا يمكنه تحمّل المزيد من التعقيدات هذه الليلة.

لقد حدّد الوصيّ بوضوح مهمّة الليلة.

كان أفيلا يشعر بالارتياح والسكينة عند تلقّيه الأوامر من الوصيّ. إذ لن يتوجّب عليه اتّخاذ قرارات أو الإحساس بالذنب، بل عليه التنفيذ وحسب. فبعد حياة مهنية أمضاها في إعطاء الأوامر، كان من المريح أن يتخلّى عن زمام القيادة ويدع الآخرين يقودون هذه السفينة.

في هذه الحرب، أنا جندي مشاة.

قبل بضعة أيّام، أطلعه الوصيّ على سرّ مقلق جدّاً؛ حيث لم يجد أي خيار أمامه سوى عرض كامل خدماته لأجل هذه القضية. ومع أنّ الوحشية التي اتّسمت بها مهمّة الليلة الفائتة ما زالت تطارده، إلّا أنّه كان واثقاً أنّ أعماله ستُغتَفَر.

للاستقامة أشكال كثيرة.

وهذه الليلة ستشهد المزيد من الموت قبل أن تنقضي.

عندما خرج أفيلا إلى ساحة مفتوحة على ضفّة النهر، نظر إلى البناء الضخم أمامه. كان عبارة عن فوضى من الأشكال المتموّجة السخيفة المكسوّة بالبلاط المعدني، كما لو أنّ ألفي عام من التقدّم المعماري قد ألقيت في البحر واستُعيض عنها بالجنون المحض.

ثمّة من يسمّون هذا متحفاً، أمّا أنا فأسمّيه قبحاً.

أعاد أفيلا تركيزه إلى مهمّته. فعبَر الساحة، وشقّ طريقه عبر سلسلة من المنحوتات الغريبة خارج متحف غوغنهايم في بيلباو. ومع اقترابه من المبنى، رأى عشرات الزوّار الذين يتوافدون بملابسهم البيضاء والسوداء.

لقد اجتمعت الجماهير الملحدة.

لكنّ الليلة لن تجري كما يشتهون.

سوّى قبّعته وسترته، وشجّع نفسه ذهنياً للقيام بالمهمّة التي تنتظره. كانت الليلة جزءاً من مهمّة أعظم بكثير؛ حملة صليبية من البِرّ.

وبينما كان أفيلا يعبر الباحة متّجهاً إلى مدخل المتحف، لامس المسبحة في جيبه.

الفصل 3

بدا داخل المتحف أشبه بكاتدرائية مستقبلية.

عندما دخل لانغدون، تحوّل بصره فوراً نحو الأعلى، على طول مجموعة من الأعمدة الضخمة، ومروراً بستارة من الزجاج شاهقة الارتفاع، ترتفع مسافة مائتي قدم وصولاً إلى سقف مقبّب شعّت منه الأنوار من مصابيح الهالوجين بضوء أبيض نقيّ. كانت هناك شبكة من الممرّات والشرفات التي بدت كما لو أنها معلّقة في الهواء، والتي انتشر عليها زوّار بالملابس السوداء والبيضاء، وراحوا يتنقّلون بين صالات العرض العليا، ويقفون أمام النوافذ المرتفعة لتأمّل النهر الممتدّ في الأسفل. وفي الجوار، انزلق مصعد زجاجي بصمت على طول الجدار وهو يهبط عائداً إلى الأسفل ليقلّ المزيد من الزوّار.

كان هذا المتحف مختلفاً عن كلّ المتاحف التي رآها لانغدون. حتّى إن الأصوات فيه بدت غريبة. فعوضاً عن الهمس الخفيف التقليدي الناتج عن استخدام وسائل كاتمة للصوت، كان هذا البناء ينبض بصدى الأصوات التي ترشح من الحجر والزجاج. بالنسبة إليه، كان طعم المعقّم على الجزء الخلفي من لسانه هو الشيء الوحيد المألوف. فقد كان هواء المتحف نفسه في كلّ أنحاء العالم؛ إذ تتمّ فلترته بدقّة من جميع الجسيمات والمؤكسدات، ومن ثمّ ترطيبه بالماء المؤيّن بدرجة رطوبة تبلغ 45 بالمائة.

تنقّل لانغدون عبر سلسلة من النقاط الأمنية المشدّدة، ولاحظ وجود عدد من الحرّاس المسلّحين. أخيراً، وجد نفسه أمام طاولة أخرى لتسجيل الدخول. وهناك، قدّمت له امرأة شابّة سمّاعة أذنين قائلة بالإسبانية: "هل ترغب بالدليل الصوتي؟"

فابتسم لانغدون مجيباً: "كلّا، شكراً".

لكن، مع اقترابه من الطاولة، استوقفته المرأة وتكلّمت معه بإنكليزية ممتازة: "أنا آسفة يا سيّدي، لكنّ مضيفنا هذه الليلة، السيّد إدموند كيرش، طلب من الجميع وضع السمّاعات. إنّها جزء من تجربة هذا المساء".

"آه بالطبع. إذاً، سآخذها".

ومدّ يده لأخذ سمّاعة، ولكنّها منعته بحركة من يدها، قبل أن تتحقّق من اسمه المكتوب على البطاقة، وتبحث عنه في قائمة طويلة تضمّ أسماء المدعوّين. وعندما

وجدت اسمه، أعطته سمّاعة يتناسب رقمها مع اسمه وقالت: "جولات هذه الليلة مصمّمة لكلّ زائر على حدة".

عندها، نظر لانغدون حوله متسائلاً في سرّه: *حقّاً؟ لكن ثمّة مئات الزوّار.*

رمق السمّاعة التي كانت عبارة عن مجرّد حلقة معدنية ينتهي كل من طرفيها بسمّاعة صغيرة. وربّما لدى رؤيتها أمارات الحيرة على وجهه، نهضت المرأة واقتربت منه لتقديم العون له.

وقالت وهي تساعده في وضع الجهاز: "إنّها جديدة تماماً. فالسمّاعة الناقلة للإشارة لا تدخل الأذن، بل تبقى على الوجه". ثمّ وضعت الحلقة خلف رأسه، وثبّتت السمّاعتين حيث استراحتا بلطف على وجهه، فوق عظم الفكّ تماماً وتحت الصدغ.

"لكن، كيف-"

"إنّها تكنولوجيا التوصيل العظمي. إذ تقوم السمّاعة الناقلة للإشارة بتوجيه الصوت مباشرة إلى داخل عظام الفكّ، مُتيحةً له الوصول إلى قوقعة الأذن مباشرة. لقد جرّبتها منذ برهة، وهي مذهلة حقّاً؛ إذ يبدو الصوت كما لو أنه يصدر من داخل رأسك. والأهمّ من ذلك أنّ الأذنين تبقيان مكشوفتين؛ ما يُتيح لهما سماع الأحاديث الخارجية".

"كم هذا ذكي!".

"السيّد كيرش هو مَنْ اخترع هذه التكنولوجيا منذ أكثر من عشر سنوات. وهي الآن متوفّرة في العديد من العلامات التجارية للسمّاعات".

عندها، فكّر لانغدون في سرّه: *أتمنّى لو نال لودفيغ فان بيتهوفن حصّته من التقدير*. إذ كان واثقاً أنّ المخترِع الأصلي لتكنولوجيا التوصيل العظمي هذه كان ذلك الموسيقار الذي عاش في القرن الثامن عشر. فقد اكتشف بيتهوفن عندما أصيب بالصمم أنّه باستطاعته وضع عود معدني على البيانو والعضّ عليه خلال العزف؛ الأمر الذي مكّنه من السماع تماماً من خلال الاهتزازات في عظم الفكّ.

قالت المرأة: "نتمنّى أن تستمتع بجولتك. لديك ساعة لاستكشاف المتحف قبل موعد العرض، وسيقوم الدليل الصوتي بإبلاغك عندما يحين وقت الصعود إلى قاعة المحاضرات".

"شكراً لك. هل أحتاج إلى الضغط على أيّ-"

"كلّا، فالجهاز ذاتي التنشيط. ستبدأ جولتك الإرشادية ما إن تبدأ بالسير

فقال لانغدون مبتسماً: "آه، بالطبع". ثمّ عبَر القاعة متنقّلاً بين عدد من الزوّار الذين كانوا ينتظرون المصاعد ويضعون سمّاعات مشابهة لتلك التي يضعها.

كان في منتصف القاعة تقريباً عندما تردّد صوت رجل في رأسه. "مساء الخير، وأهلاً بكم في متحف غوغنهايم في بيلباو

عرف لانغدون أنّ الصوت صادر من السمّاعة، ولكنّه مع ذلك تسمّر في مكانه وأخذ ينظر خلفه. كان الأثر الذي تركه الصوت مربكاً؛ تماماً كما وصفته الشابّة، كما لو أنّ

هناك شخصاً ما في رأسه.

"أرحّب بك بحرارة، بروفيسور لانغدون". كان الصوت ودّياً وخفيفاً، مع لهجة بريطانية مرحة. "اسمي وينستون، ويشرّفني أن أكون دليلك لهذا المساء".

من قام بالتسجيل؟ أهو هيو غرانت؟

تابع الصوت المرح: "هذه الليلة، يمكنك التجوّل على هواك أينما شئت، وسأحاول تنويرك قدر الإمكان حيال ما تراه".

على ما يبدو، بالإضافة إلى الدليل المرح، والتسجيلات الشخصية، وتكنولوجيا التوصيل العصري، كانت كلّ سمّاعة مجهّزة بنظام لتحديد المواقع لمعرفة المكان الذي يقف فيه الزائر بدقّة في المتحف، وإعطائه التعليق المناسب.

أضاف الصوت: "أنا أدرك يا سيّدي، أنّه بصفتك أستاذاً في مجال الفنون، فأنت أحد ضيوفنا الأكثر اطّلاعاً، وقد لا تحتاج إلى تدخّل كبير من قِبلي. والأسوأ أنّك قد تختلف تماماً مع تحليلي لبعض التحف الفنّية!". ثمّ صدرت عن الصوت ضحكة غريبة.

حقّاً! من كتب هذا النصّ؟ كانت النبرة المرحة والخدمة الشخصية لمسة ساحرة بلا أدنى شكّ، لكنّ لانغدون لم يستطع أن يتصوّر مقدار الجهد الذي احتاج إليه تخصيص المئات من سمّاعات الرأس.

لحسن الحظّ، صمت الصوت الآن، كما لو أنّه استنفد حوار الترحيب المُبرمَج.

نظر لانغدون إلى لافتة حمراء ضخمة أخرى معلّقة فوق الحشد.

إدموند كيرش

الليلة سنسير قُدماً

ما الذي ينوي إدموند إعلانه يا ترى؟

حوّل لانغدون نظره إلى المصعد الذي تجمّع أمامه حشد صغير من الزوّار، بمن فيهم مؤسّسان شهيران لشركتَي إنترنت عالميّتين، وممثّل هندي بارز، وشخصيات معروفة أخرى. شعر لانغدون أنّه يعرف أولئك الأشخاص، ولكنّه لم يستطع أن يتذكّر الأسماء. لم يشعر لانغدون بالرغبة ولا بالاستعداد لبدء حديث قصير حول مواضيع وسائل التواصل الاجتماعي وبوليوود. لذا، ذهب بالاتّجاه المعاكس، وانحرف باتّجاه تحفة كبيرة الحجم من تحف الفنّ الحديث عند الجدار المقابل.

كانت التحفة موضوعة في زاوية مظلمة، وتتكوّن من تسعة أحزمة ناقلة ضيّقة تنطلق من شقوق في الأرض وتمتدّ إلى الأعلى، لتختفي في شقوق في السقف. كانت تشبه تسعة ممرّات متحرّكة تمتدّ على سطح عمودي. وكلّ حزام فيها يحمل رسالة مضيئة تتحرّك نحو الأعلى.

أصلّي بصوت عالٍ... أشمّ رائحتك على بشرتي... ألفظ اسمك.

لكن، مع اقتراب لانغدون منها، أدرك أنّ الأحزمة المتحرّكة كانت في الواقع ثابتة. وكانت خدعة الحركة ناتجة عن طبقة من مصابيح LED الصغيرة المثبّتة على كلّ عارضة عمودية. كانت المصابيح تضيء بتعاقب سريع لتشكّل كلمات تظهر من الأرض، وتندفع على طول العارضة لتختفي في السقف.

إنّني أبكي بشدّة... كان ثمّة دماء... لم يخبرني أحد.

مشى لانغدون حول العارضات العمودية لرؤية التحفة ككلّ، فعاد الدليل الصوتي ليعلن فجأة: "هذه التحفة صعبة الصنع تسمّى *جهاز من أجل بيلباو*، وهي من تصميم الفنّانة المفاهيمية جيني هولزر. تتألّف هذه التحفة من تسع لافتات LED، كلّ منها بطول أربعين قدماً، تبثّ مقتبسات بلغات الباسك، والإسبانية، والإنكليزية، وكلّها ترتبط بفظائع الأيدز والألم الذي يخلّفه هذا المرض".

كان لا بدّ للانغدون من الاعتراف أنّ العمل مؤثّر، لا بل مفجع إلى حدّ ما.

"هل سبق لك أن رأيت أعمالاً لجيني هولزر من قبل؟".

شعر لانغدون أنّ النصّ المندفع نحو الأعلى قد خدّره تماماً.

أدفن رأسي... أدفن رأسك... أدفنك.

سأله الصوت في رأسه: "سيّد لانغدون، هل تسمعني؟ هل السمّاعة تعمل؟".

انتزع الصوت لانغدون من أفكاره، فقال: "أنا آسف. ماذا؟ مرحباً؟".

أجاب الصوت: "نعم، أهلاً. أعتقد أنّه سبق لنا أن تبادلنا التحيّة، أليس كذلك؟ كنت أتأكّد وحسب من أنّك تسمعني".

فتمتم لانغدون وهو يستدير باتجاه معاكس للتحفة، وينظر إلى أرجاء القاعة. "أنا... أنا آسف. ظننت أنّك تسجيل مُسبق! لم أكن أعرف أنّ معي شخصاً حقيقياً".

تخيّل لانغدون مزرعة من الحجيرات التي يجلس فيها جيش من أمناء المتحف مسلّحين بسمّاعات للرأس وكاتالوجات عن المتحف.

"لا بأس يا سيّدي. سأكون دليلك الشخصي هذا المساء. وسمّاعتك مجهّزة بمكبّر للصوت أيضاً. فهذا البرنامج مصمّم ليكون تجربة تفاعلية يمكننا أن نتحاور فيها أنا وأنت حول الفنّ".

وفي تلك اللحظة، لاحظ لانغدون أنّ الزوّار الآخرين يتحدّثون أيضاً عبر سمّاعاتهم. حتّى إن أولئك الذين أتوا معاً انفصلوا قليلاً عن بعضهم، وراحوا يتبادلون نظرات الدهشة، وكل منهم يواصل حديثه على انفراد مع دليله الشخصي.

"هل كلّ ضيف هنا لديه دليل شخصي؟".

"أجل سيّدي. فنحن الليلة نقوم بمرافقة ثلاثمائة وثمانية عشر ضيفاً، كلّ على حدة".

"هذا لا يصدّق!".

"كما تعلم، إدموند كيرش يعشق الفنّ والتكنولوجيا. وقد صمّم هذا النظام خصّيصاً للمتاحف؛ على أمل أن يحلّ محل الجولات الجماعية التي يكرهها. وهكذا، يستطيع كلّ زائر الاستمتاع بجولة خاصّة، والتنقّل براحته، وطرح الأسئلة التي قد يشعر بالحرج من طرحها في مجموعة. إنّه حقّاً أكثر حميمية وعمقاً".

"لا أودّ أن أبدو قديم الطراز، لكن لماذا لا ترافقون كلاًّ منّا شخصياً؟".

"لأسباب لوجستية. إذ إن إضافة مرافقين شخصيين إلى الحدث المنظّم في المتحف سيضاعف عدد الحاضرين، وسيؤدي إلى خفض عدد الزوّار المحتملين إلى النصف. هذا ناهيك عن الصخب الذي سينتج عند تحدّث كلّ المرافقين في الوقت نفسه. الهدف من هذا النظام هو جعل النقاش تجربة في غاية السلاسة؛ فالسيّد كيرش يقول دائماً إنّ تعزيز الحوار من أهداف الفنّ".

أجاب لانغدون: "وأنا أوافقه الرأي تماماً. ولهذا السبب، غالباً ما يزور الناس المتاحف مع صديق. الأمر الذي يجعل هذه السمّاعات غير اجتماعية إلى حدّ ما".

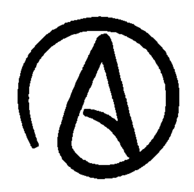
أجاب البريطاني: "حسناً، إن أتيت برفقة أصدقاء، فمن الممكن تحويل السمّاعات إلى دليل واحد، والاستمتاع بمناقشة جماعية. فالبرنامج متقدّم حقّاً".

"يبدو أنّ لديك جواباً عن كلّ سؤال".

"في الواقع، هذه وظيفتي . وضحك الدليل مُحرَجاً، ثمّ غيّر الحديث فجأة. "والآن بروفيسور، إن انتقلت باتّجاه النوافذ فسترى أكبر لوحة في المتحف".

وعلى الفور، بدأ لانغدون يسير عبر القاعة، متجاوزاً زوجين في العقد الثالث من

عمرهما يعتمران قبعتَي بايسبول بيضاوين متناسقتين. وقد زُيِّنت مقدَمة كلٍّ من القبَعتَين ليس برمز شركة بل برمز أثار استغرابه.



كان رمزاً يعرفه لانغدون جيّداً، ولكنّه لم يره على قبّعة من قبل قط. ففي السنوات الأخيرة، أصبح هذا الحرف المخطّط بأناقة رمزاً عالمياً لإحدى الجماعات الأسرع نموّاً وازدهاراً على سطح الأرض، جماعة *الملحدين* الذين بدأ صوتهم يعلو بقوّة أكبر كل يوم ضدّ ما اعتبروه مخاطر المعتقد الديني.

هل أصبحت للملحدين قبّعات بايسبول خاصّة بهم؟

وبينما كان لانغدون يراقب مجموعة عباقرة التكنولوجيا وهم يتنقّلون حوله، ذكّر نفسه بأنّ الكثير من هذه العقول التحليلية الشابّة معادية جدّاً للدين على الأرجح؛ تماماً مثل إدموند. لم يكن جمهور هذه الليلة مناسباً تماماً لأستاذ في علم الرموز الدينية.

الفصل 4

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

تحديث: يمكن الاطلاع على "أفضل 10 قصص إعلامية لهذا اليوم" على موقع ConspiracyNet.com هنا. وردنا للتوّ أيضاً خبر جديد!

إعلان إدموند كيرش المفاجئ؟

توافد عمالقة التكنولوجيا إلى بيلباو بإسبانيا هذا المساء لحضور حدث يضمّ كبار الشخصيات. وقد استضاف هذا الحدث العالِمُ المستقبليُ إدموند كيرش في متحف غوغنهايم. التدابير الأمنية مشدّدة للغاية، ولم يتمّ إخبار الضيوف بالهدف من هذا الحدث، غير أنّ موقعنا تلقّى معلومة من مصدر مقرّب تشير إلى أنّ إدموند كيرش سيتحدّث بعد قليل، وينوي مفاجأة ضيوفه بإعلان علمي كبير. سيتابع موقع ConspiracyNet تزويدكم بآخر مستجدات هذا الخبر فور ورودها.

الفصل 5

يقع أكبر كنيس في أوروبا في بودابست، في شارع دوهاني. وقد بُني الكنيس على الطراز المغربي، وهو يمتاز ببرجين توأمين ضخمين. تضمّ قاعته الرئيسة مقاعد تتّسع لأكثر من ثلاثة آلاف مصلٍّ، ومنها مقاعد في الطابق السفلي للرجال ومقاعد على الشرفات للنساء. أما الحديقة في الخارج فتحتوي على مدفن جماعي يضمّ المئات من جثث اليهود المجريين الذين ماتوا خلال أهوال الاحتلال النازي. ويتميّز الموقع بشجرة حياة هي عبارة عن منحوتة معدنية لشجرة صفصاف باكٍ، نُقِش على كلّ ورقة من أوراقها اسم أحد الضحايا. وعندما يهبّ النسيم، يصدر عن الأوراق المعدنية حفيف يتبعه صدى مخيف.

على مدى أكثر من ثلاثة عقود، ظلّ الزعيم الروحي للكنيس الكبير، الباحث التلمودي البارز والقبالي الحاخام يهودا كوفيس- على الرغم من تقدّمه في السنّ، وسوء حالته الصحية- عضواً ناشطاً في المجتمع اليهودي في المجر وحول العالم على السواء.

حين مالت الشمس إلى المغيب فوق نهر الدانوب، خرج الحاخام من الكنيس، وشقّ طريقه من أمام محلّات شارع دوهاني ومقاهيه الغامضة متوجّهاً إلى منزله في ساحة مارسيوس 15، الواقع على مسافة قصيرة من جسر إليزابيث الذي يربط بين مدينتي بودا وبست القديمتين، واللتين توحّدتا رسمياً عام 1873.

كانت عطلة عيد الفصح تقترب بسرعة، وهي في العادة من أسعد الأوقات في السنة بالنسبة إلى كوفيس. ولكن، منذ عودته في الأسبوع الماضي من *برلمان أديان العالم*، والقلق يقضّ مضجعه.

ليتني لم أذهب على الإطلاق.

فالاجتماع غير العادي مع الأسقف فالديسبينو، والعلّامة سيّد الفضل، والمستقبلي إدموند كيرش شغل بال كوفيس لثلاثة أيّام كاملة.

ما إن وصل كوفيس إلى منزله الآن حتى ذهب مباشرة إلى حديقة باحته، وفتح باب *الهازيكو* الخاصّ به، والذي كان عبارة عن كوخ صغير يؤدّي دورَ محرابه ومكتبه.

كان الكوخ عبارة عن غرفة واحدة فيها رفوف عالية راحت تئنّ تحت ثقل المجلّدات الدينية. ذهب كوفيس للجلوس خلف طاولة مكتبه، ونظر عابساً إلى الفوضى التي تعمّه.

لو رأى أحد مكتبي هذا الأسبوع، لظنّ أنّني فقدت عقلي.

انتشرت على سطح المكتب نصف دزينة من الكتب الدينية الغامضة المفتوحة والمليئة بالملاحظات المكتوبة على أوراق لاصقة. خلفها، أُسنِدت ثلاثة مجلّدات ثقيلة على دعائم خشبية– التوراة بالعبرية، والآرامية، والإنكليزية– وكلّها مفتوحة على السفر نفسه.

سفر التكوين.

في البداية...

بالطبع، يعرف كوفيس سفر التكوين باللغات الثلاث عن ظهر قلب، ومن الطبيعي أكثر أن يراه المرء وهو يقرأ تعليقاً أكاديمياً حول الزوهار أو نظرية كونية قبالية متقدّمة. أمّا أن يقوم عالم بمثل مركزه بدراسة سفر التكوين، فهذا أشبه بعودة أينشتاين إلى دراسة الحساب في المدرسة الابتدائية. ومع ذلك، هذا ما كان الحاخام يفعله طوال هذا الأسبوع، بينما اجتاح سيل من الملاحظات المكتوبة بخطّ اليد المفكّرة الموضوعة على مكتبه، والتي بدت فوضوية جداً؛ حيث بالكاد استطاع فهمها هو نفسه.

يبدو أنّني أصاب بالجنون.

كان الحاخام كوفيس قد بدأ بالتوراة، فقرأ قصّة الخلق المشتركة لدى اليهود والمسيحيين على حدّ سواء. في البداية، خلق الله السماء والأرض. ثمّ انتقل إلى النصوص التعليمية للتلمود، وأعاد قراءة التوضيحات الحاخامية حول فصل الخلق (Ma'aseh Bereshit). غاص بعد ذلك في المدراش، وتأمّل في تعليقات مختلف المفسّرين الموقّرين الذين حاولوا شرح التناقضات الظاهرية في قصّة الخلق التقليدية. وأخيراً، دفن كوفيس نفسه في العلم القبالي الباطني للزوهار.

لطالما كان للتعقيد الغامض للمعتقدات المكوِّنة لليهودية أثر مريح على كوفيس. فقد اعتبره تذكيراً من الله بأنّ الجنس البشري لا ينبغي أن يفهم كلّ شيء بالضرورة. ومع ذلك، بعدما شاهد العرض الذي قدّمه إدموند كيرش، وتأمّل في بساطة ووضوح ما اكتشفه، شعر أنّه أمضى الأيّام الثلاثة الأخيرة وهو يحدّق إلى مجموعة من التناقضات التي عفا عليها الزمن. وفي لحظة من اللحظات، لم يجد بيده حيلة سوى دفع نصوصه القديمة جانباً والخروج في نزهة على ضفة الدانوب لاستجماع أفكاره.

وأخيراً، بدأ الحاخام كوفيس يتقبّل الحقيقة المؤلمة: ستكون لعمل كيرش بالفعل انعكاسات مدمّرة على نفوس المؤمنين في هذا العالم. فاكتشاف ذلك العالِم يتعارض

بشكل واضح مع كلّ العقائد الدينية الراسخة، وذلك بطريقة بسيطة ومقنعة على نحو مخيف.

لا يمكنني أن أنسى تلك الصورة الأخيرة. فكّر في ذلك في سره وهو يتذكّر الخاتمة المحزنة للعرض الذي قدّمه كيرش وشاهدوه على شاشة هاتفه الكبير. *سيؤثّر هذا الخبر في كلّ الناس، وليس في المتديّنين منهم وحسب.*

والآن، على الرغم من تأمّلاته خلال الأيّام القليلة الماضية، ما زال يجهل ما يجدر به فعله بالمعلومات التي قدّمها كيرش.

من جهة أخرى، شكّ في أن يكون فالديسبينو وسيد الفضل قد توصّلا إلى شيء هما أيضاً. فقد تواصل الثلاثة عبر الهاتف قبل يومين، لكنّ الحديث لم يكن مثمراً.

قال فالديسبينو: "من المؤكّد أنّ عرض السيّد كيرش كان مزعجاً يا صديقَيّ... وذلك على عدة مستويات. ومع أنّني حثثته على التواصل معي لنناقشه أكثر، إلّا أنّه لم يفعل ذلك. والآن، أعتقد أنّ لدينا قراراً علينا اتّخاذه".

قال الفضل: "لقد اتّخذت قراري. فنحن لا يمكننا أن نجلس مكتوفي الأيدي، بل علينا أن نسيطر على هذا الوضع. فكيرش لا يُخفي ازدراءه للدين، وسيُقدّم اكتشافه بطريقة تخلّف أكبر ضرر ممكن على الإيمان مستقبلاً. لذا، علينا أن نستبق ذلك. يجب أن نعلن عن اكتشافه بأنفسنا، وعلى الفور. علينا تقديمه بالشكل المناسب للتخفيف من أثره وخطورته على المؤمنين في العالم الروحي قدر الإمكان

قال فالديسبينو: "أدرك أنّنا ناقشنا موضوع النشر، لكن لسوء الحظّ، لا أستطيع أن أتخيّل طريقة مناسبة لتقديم هذه المعلومات بشكل غير خطر". ثم تنهّد وأضاف: "هذا من دون أن ننسى أيضاً مسألة الوعد الذي قطعناه للسيد كيرش بالحفاظ على سرّية اكتشافه".

قال الفضل: "هذا صحيح، وأنا أيضاً متردّد حيال النكث بذلك الوعد، ولكنّني أشعر بأنّنا يجب أن نختار الأهون بين الشرّين، وأن نفكّر في الصالح العامّ. فجميعنا مهدَّدون، المسلمون واليهود والمسيحيون والهندوس على السواء. وبما أنّ دياناتنا تتّفق جميعها على الحقائق الأساسية التي ينوي السيّد كيرش تقويضها، فمن واجبنا تقديم هذه المعلومة بطريقة لا تؤذي مجتمعاتنا".

قال فالديسبينو: "أخشى ألّا نستفيد من ذلك على الإطلاق. فإن كنّا نفكّر في نشر ما أخبرنا به كيرش، فأنا أرى أنّ النهج الوحيد الذي يمكننا اتّباعه هو التشكيك باكتشافه وتشويه سمعته قبل أن يُخرِج هذه المعلومات إلى العلن

قال الفضل: "إدموند كيرش! ذاك العالِم اللامع الذي لم يخطئ يوماً حيال شيء! ألم نكن كلّنا في الاجتماع نفسه مع كيرش؟ كان العرض الذي قدّمه مقنِعاً".

فصدر أنين عن فالديسبينو ثم قال: "ليس أكثر إقناعاً من العروض التي قدّمها غاليليو، أو برونو، أو كوبيرنيكوس في أزمنتهم. فقد سقطت الأديان في هذا المأزق من قبل. هذا ليس سوى العِلم الذي يقرع بابنا مجدّداً".

هتف الفضل: "غير أنّ ما سيحصل الآن سيكون على مستوى أعمق بكثير من اكتشافات الفيزياء وعلم الفلك! فكيرش يتحدّى جوهر ما نؤمن به وجذره! يمكنك أن تستشهد بالتاريخ ما شئت، لكن لا تنسَ أنّه على الرغم من جهود الفاتيكان لإسكات رجال من أمثال غاليليو، فإنّ علمه غلب في نهاية المطاف. وهذا ما سيحدث مع علم كيرش، وما من طريقة للحؤول دون ذلك".

خيّم صمت مطبق.

قال فالديسبينو: "موقفي من هذه المسألة بسيط. أتمنّى لو أنّ إدموند كيرش لم يتوصّل إلى هذا الاكتشاف. فأنا أخشى أنّنا غير مستعدّين للتعامل مع نتائجه، وأفضّل ألّا ترى هذه المعلومات النور يوماً". وصمت قليلاً قبل أن يضيف: "في الوقت نفسه، أنا أؤمن بأنّ أحداث عالمنا تقع بأمر من الله. سيلهم الله السيّد كيرش بأن يعيد النظر في الإعلان عن اكتشافه".

قال الفضل بنبرة استياء: "لا أعتقد أنّ السيّد كيرش من أولئك الناس الذين يلجأون إلى الصلاة".

"ربّما لا، لكنّ الأعاجيب تحدث كلّ يوم".

فردّ عليه الفضل بحدّة: "مع احترامي، لكن ما لم تكن تصلّي لكي يخطف الله روحه قبل أن يعلن–"

وهنا تدخّل كوفيس مقاطعاً؛ في محاولة منه لنزع فتيل التوتّر المتزايد: "أيّها السيّدان! قرارنا لا يحتاج إلى التسرّع. نحن لسنا بحاجة إلى التوصّل إلى توافق في الآراء هذه الليلة. فقد قال السيّد كيرش إنّ إعلانه سيتمّ بعد شهر. وأنا أقترح أن نتأمّل في هذه المسألة كلّ بمفرده، ثمّ نتكلّم مجدّداً بعد بضعة أيّام. فربّما سيضعنا التفكير مليّاً على المسار الصحيح".

أجاب فالديسبينو: "هذا رأي حكيم".

حذّرهما الفضل قائلاً: "لا ينبغي أن ننتظر طويلاً، فلنتحدّث مجدداً بعد يومين".

فقال فالديسبينو: "أنا موافق. ويمكننا عندئذٍ اتّخاذ قرار نهائي .

حصل ذلك قبل يومين، والليلة موعد حديثهم التالي.

جلس الحاخام كوفيس في مكتبه بمفرده والقلق يتعاظم داخله. كان الاتّصال المنتظر قد تأخّر عشر دقائق تقريباً.

وأخيراً، رنّ الهاتف، فردّ كوفيس على الفور.

قال الأسقف فالديسبينو بنبرة قلقة: "مرحباً أيّها الحاخام، أنا آسف على التأخير أخشى ألّا يتمكّن العلّامة الفضل من الانضمام إلى هذه المكالمة".

فقال كوفيس مستغرباً: "حقّاً! هل كلّ شيء على ما يرام؟".

"لا أدري. أنا أحاول الاتصال به طوال اليوم، ولكن يبدو أنّ العلّامة... قد اختفى. فما من أحد من زملائه لديه أي فكرة عن مكانه".

عندها، سرت قشعريرة في جسد كوفيس وقال: "هذا مقلق".

"أنت محق. أتمنّى أن يكون على ما يرام. مع الأسف، لديّ خبر آخر وصمت الأسقف، فيما ازدادت نبرته جدّية وهو يتابع: "عرفت للتوّ أنّ إدموند كيرش قد نظّم حدثا للإعلان عن اكتشافه للعالم... هذه الليلة".

"هذه الليلة!! ولكنّه قال بعد شهر!".

"أجل، لقد كذب".

الفصل 6

تردّد صوت وينستون الودود عبر سمّاعة الأذن الخاصة بلانغدون. "أمامك مباشرة بروفيسور، سترى أكبر لوحة في مجموعتنا، مع أنّ أغلب الضيوف لا يلاحظونها على الفور

نظر لانغدون أمامه ولكنّه لم يرَ شيئاً؛ باستثناء الجدار الزجاجي الذي يطلّ على النهر. "أنا آسف، ولكن أعتقد أنّني واحد من الأغلبية هنا، فأنا لا أرى أيّ لوحة".

فقال وينستون ضاحكاً: "في الواقع، إنّها معروضة بشكل غير تقليدي. فاللوحة ليست مثبّتة على الجدار، بل على الأرض".

عندها، فكّر لانغدون في سرّه، *كان يجب عليّ أن أخمّن*. ثم أخفض نظره وهو يتقدّم إلى الأمام إلى أن رأى اللوحة المستطيلة الممتدّة على الأرض عند قدميه على مساحة شاسعة.

كانت اللوحة الضخمة مؤلّفة من لون واحد؛ حقل أحادي اللون من الأزرق *العميق*، وقف الزوّار حولها يحدّقون إليها كمن يحدّق إلى بركة صغيرة.

راح وينستون يشرح قائلاً: "تبلغ مساحة هذه اللوحة ستّة آلاف قدم مربّعة".

أدرك لانغدون أنّ مساحتها تعادل عشرة أضعاف مساحة شقّته الأولى في كامبريدج.

"إنّها بريشة إيف كلاين، وباتت تُعرف تحت عنوان *حوض السباحة*".

كان لا بدّ للانغدون من أن يقرّ بأنّ الغنى المذهل لهذا الظلّ من اللون الأزرق قد أعطاه إحساساً بأنّه يستطيع الغوص في قماش اللوحة مباشرة.

تابع وينستون قائلاً: "كلاين هو مَن اخترع هذا اللون الذي يُسمّى أزرق كلاين الدولي. وقد ادّعى أنّ عمقه يستحضر لا مادية رؤيته الطوباوية الخاصّة بالعالم ولا نهائيتها".

شعر لانغدون بأنّ وينستون بدأ الآن يقرأ نصّاً.

"اشتُهِر كلاين بلوحاته الزرقاء، ولكنّه معروف أيضاً بصورة فوتوغرافية هي عبارة عن خدعة مزعجة تحمل عنوان *قفزة في الفراغ*، وقد سبّبت حالة من الذعر عندما عُرِضت عام 1960".

كان لانغدون قد رأى اللوحة في متحف الفنّ الحديث في نيويورك. والصورة أكثر من مزعجة بعض الشيء؛ لأنّها تصوّر رجلاً بكامل ملابسه يقفز عن سطح مبنى عالٍ ويغوص في الفراغ باتجاه الرصيف. في الحقيقة، كانت الصورة عبارة عن خدعة تمّ تصويرها ببراعة، وتعديلها بواسطة شفرة حلاقة؛ وذلك قبل زمن طويل من اختراع الفوتوشوب.

قال وينستون: "بالإضافة إلى ذلك، ألّف كلاين مقطوعة موسيقية تحت عنوان الصمت المونوتوني، وتقوم فيها فرقة أوركسترا بتأدية معزوفة على وتر واحد، د-ماجور، لمدّة عشرين دقيقة كاملة".

""وهل الناس يصغون إليها؟".

"بالآلاف. وهذه ليست سوى الحركة الأولى. أمّا في الحركة الثانية، فيجلس أفراد الأوركسترا بلا حراك، وفي صمت مُطبِق لمدّة عشرين دقيقة".

"لا شكّ في أنّك تمزح".

"كلّا، بل أنا في غاية الجدّية. غير أنّ الأداء على الأرجح لم يكن مملّاً بقدر ما يبدو عليه، إذ تضمّن العرض أيضاً ثلاث نساء عاريات وملطّخات بالطلاء الأزرق، واللواتي يتدحرجن على لوحات عملاقة على المسرح".

مع أنّ لانغدون كرّس الجزء الأكبر من حياته المهنية لدراسة الفنّ، إلّا أنّه ينزعج من عدم قدرته على تقدير ما يقدّمه الفنّ الطليعي. وبقيت جاذبية الفن الحديث لغزاً بالنسبة إليه".

"أنا لا أقصد الإهانة يا وينستون. لكن، لا بدّ لي من القول إنّني غالباً ما أجد صعوبة في التمييز بين الفنّ الحديث وما هو مجرّد عمل غريب".

فأجاب وينستون: "لكن، أليس هذا هو السؤال الذي يُطرَح في الكثير من الأحيان؟ ففي عالم الفنّ الكلاسيكي، يتمّ تقدير الأعمال الفنية استناداً إلى مهارة الفنان في التنفيذ، أي كيفيّة استخدامه الريشة على اللوحة أو الإزميل على الصخر. أمّا في الفنّ الحديث، فغالباً ما تعتمد التحف الفنية على الفكرة أكثر من اعتمادها على التنفيذ. وكمثال على ذلك، بإمكان أيّ شخص تأليف سيمفونية لا تتألّف سوى من وتر واحد، وتُعزَف لمدّة أربعين دقيقة، ثم يتبع ذلك الصمت المطبق، لكنّ إيف كلاين هو مَن أتى بتلك الفكرة".

"أنت محقّ تماماً".

"وبالطبع، تشكّل منحوتة *الضباب في الخارج* مثالاً ممتازاً عن الفنّ المفاهيمي. فقد خطرت للفنانة فكرة تقوم على تمديد أنابيب ذات ثقوب تحت الجسر لنفخ الضباب فوق النهر، لكنّ تنفيذ تلك الفكرة تمّ على أيدي سبّاكين محليين". صمت وينستون هنيهة قبل

أن يضيف: "مع أنني أعطي الفنّانة علامة عالية جدّاً على استخدام تلك المنحوتة كرمز

"الضباب رمز؟".

"إنّه كذلك بالفعل. وهو عبارة عن تكريم لمهندس المتحف[1]".

"فرانك غاري؟".

"فرانك أوين غاري".

"يا لها من فكرة ذكية".

ومع اقتراب لانغدون من النوافذ، قال وينستون: "تطلّ هذه النافذة على منظر جميل لتمثال العنكبوت. هل رأيت مامان في طريقك إلى الداخل؟".

حدّق لانغدون من النافذة إلى منحوتة الأرملة السوداء الضخمة المعروضة في الساحة، ثم قال: "أجل، فمن الصعب عدم ملاحظتها".

"أشعر من نبرة صوتك أنّك لست من المُعجَبين بها".

"أحاول أن أكون كذلك . وصمت هُنيهة ثم أضاف: "بما أنّني من محبّي الفنّ الكلاسيكي، فأنا أشعر هنا إلى حدّ ما كما لو أنّني سمكة خارج المياه".

هذا مثير للاهتمام. فقد تخيّلت أنّك أنت دوناً عن جميع الناس ستقدّر مامان. فهي مثال كامل عن مفهوم التجاور الكلاسيكي. حتّى إنّك قد ترغب في استخدامها عند تعليمك طلابك هذا المفهوم".

تأمّل لانغدون العنكبوت من دون أن يرى شيئاً من ذلك. فعندما يتعلّق الأمر بتدريس مفهوم التجاور، يفضّل لانغدون شيئاً أكثر تقليدية. "أعتقد أنّني سأكتفي بتمثال دايفيد".

عندها، قال وينستون ضاحكاً: "أجل، مايكل أنجلو هو المعيار الذهبي. فقد نحت دايفيد ببراعة بوضعية التعارض المخنّثة؛ إذ أظهره حاملاً بمعصمه المرتخي مقلاعاً ملقى على كتفه بلا مبالاة، لينقل بذلك ضعفاً أنثوياً. ومع ذلك، تشعّ عينا دايفيد بتصميم قاتل، وتنتفخ أوتاره وأوردته ترقّباً قبل أن يُقدِم على قتل جالوت. فالعمل مرهف وقاسٍ في آن واحد .

أعجب لانغدون بالوصف، وتمنّى لو أنّ طلّابه يكوّنون فكرة بمثل هذا الوضوح عن تحفة مايكل أنجلو.

قال وينستون: "لا تختلف مامان عن دايفيد. إنّها عبارة عن تجاور يمتاز بالقدر نفسه من الجرأة لمبادئ نموذجية أصلية متعارضة. ففي الطبيعة، تُعتبر الأرملة السوداء مخلوقا مخيفاً، حشرة مفترسة تلتقط الضحايا في شبكتها وتقتلها. لكن على الرغم من

---

(1) كلمة "ضباب" بالإنكليزية هي "fog"، وهي تضم الأحرف الأولى من الاسم الثلاثي لمهندس المتحف.

كونها قاتلة، إلّا أنّها تُصوَّر هنا مع كيس بيوض. إنها تستعدّ لمنح الحياة، ما يجعلها مفترسة ومولِّدة على السواء؛ نواة قوية مستقرّة فوق أرجل نحيلة للغاية، حيث تنقل القوّة والهشاشة في آن واحد. إن أردت، يمكنك اعتبار مامان دايفيد عصرنا".

أجاب لانغدون مبتسماً: "لا أريد. لكن، لا بدّ لي من الاعتراف بأنّ تحليلك يعطيني مادّة للتفكير

"هذا جيّد. إذاً، دعني أريك تحفة أخيرة، يصدف أنّها عمل أصلي بيد إدموند كيرش".

"حقّاً! لم أكن أعرف أنّ إدموند فنّان".

فضحك وينستون قائلاً: "سأدعك تحكم على ذلك".

سمح لانغدون لدليله بأن يقوده مروراً بالنوافذ إلى مكان تجمّع فيه عدد من الزوار أمام لوح كبير من الطين المجفّف المعلّق على الجدار. للوهلة الأولى، ذكّره لوح الطين الصلب بمعرض في متحف أحفوري. غير أنّ هذا الطين لم يكن يحتوي على أحافير، بل عوضاً عن ذلك، كان يحمل علامات منقوشة بشكل خفيف، شبيهة بتلك التي قد يرسمها طفل بالعصا على الإسمنت الرطب.

لم يبدُ على الحشد أيّ إعجاب.

تمتمت امرأة ذات شفتين منتفختين بالبوتكس، وترتدي معطفاً من فراء المنك: هل إدموند مَن صنع هذه؟! أنا لم أفهمها".

لم يستطع الأستاذ داخل لانغدون المقاومة، فقاطعها قائلاً: "في الواقع، إنه عمل يدلّ على ذكاء بالغ. وحتّى هذه اللحظة، سأعتبره تحفتي المفضّلة في المتحف بأكمله.

عندها، استدارت المرأة ورمقته بشيء من الازدراء. "حقّاً! إذاً، اشرح لي .

يسرّني ذلك. اقترب لانغدون من سلسلة العلامات المحفورة على السطح الطيني.



قال: "حسناً، في البداية، نقش إدموند هذه العلامات في الطين تكريماً لأول لغة مكتوبة عرفتها البشرية؛ أي اللغة المسمارية".

فضاقت عينا المرأة وبدا عليها التشكّك.

"العلامات الثلاث الكبيرة في الوسط تعني سمكة باللغة الآشورية. وهذا يُسمى رسماً تخطيطياً. وإن نظرتِ بتركيز فبإمكانك تخيّل فم السمكة المفتوح والمتّجه إلى اليمين، فضلاً عن الحراشف المثلّثة على جسدها".

فما كان من أعضاء المجموعة إلا أن أمالوا رؤوسهم محاولين تأمّل العمل بنظرة جديدة.

قال لانغدون مشيراً إلى سلسلة الانخفاضات إلى يسار السمكة: "وإن نظرتم هنا، فسترون أنّ إدموند قد صنع آثار أقدام في الطين خلف السمكة؛ في إشارة إلى الخطوة التطوّرية التاريخية للأسماك على الأرض".

بدأت الرؤوس تومئ بحركة تقديرية.

وأضاف لانغدون: "أمّا النجمة غير المتماثلة التي تبدو إلى اليمين، أي الرمز الذي يبدو أنّ السمكة تأكله، فهو واحد من أقدم رموز الإله في التاريخ".

عبست المرأة ذات الشفتين المنتفختين.

"على ما يبدو. إنّها نسخة هزلية لسمك داروين، التطوّر الذي يقضي على الدين".

هزّ لانغدون كتفيه مُضيفاً: "كما قلت، الأسلوب ذكي جدّاً".

وبينما كان لانغدون يبتعد، سمع الحشد وراءه يتمتم، بينما ضحك وينستون قائلاً: "كان هذا ممتعاً جدّاً أيّها البروفيسور. ولو كان إدموند هنا لقدّر كثيراً محاضرتك العفوية؛ فقلّة هم الناس الذين يستطيعون تفكيك هذا الرمز .

فقال لانغدون: "في الواقع، هذا عملي".

"أجل، ويمكنني الآن أن أدرك سبب طلب السيّد كيرش منّي اعتبارك ضيفاً مميّزاً أكثر من غيرك. لا، بل في الواقع، طلب منّي أن أريك شيئاً لن يراه أيّ من الزوّار هذه الليلة".

"حقّاً! وما هو؟".

"هل ترى إلى يمين النافذة الرئيسة رواقاً مغلقاً؟".

نظر لانغدون إلى يمينه، ثم قال: "أجل".

"ممتاز. من فضلك، اتّبع توجيهاتي".

بدأ لانغدون ينفّذ بتردّد تعليمات وينستون خطوة خطوة. فتوجّه نحو مدخل الرواق، وبعدما تأكّد تماماً من أنّ أحداً لا يراقبه، تسلّل خفية من خلف الدعامات وانزلق عبر الممرّ بعيداً عن الأنظار.

والآن، بعدما ترك خلفه الحشد الموجود في القاعة، مشى ثلاثين قدماً باتّجاه باب معدني مزوّد بلوحة مفاتيح رقمية.

قال وينستون وهو يذكر الأرقام للانغدون: "اطبع هذه الأرقام الستّة".

طبع لانغدون الرمز، فطقطق الباب.

"حسناً بروفيسور، ادخل من فضلك".

للحظة، وقف لانغدون في مكانه غير متأكّد ممّا يتوقّعه. وبعد ذلك، استجمع شجاعته وفتح الباب. كانت الغرفة غارقة بظلام شبه دامس.

قال وينستون: "سأضيء لك المصابيح. ادخل من فضلك وأغلق الباب".

دخل لانغدون وهو يجاهد لرؤية ما يوجد في الداخل. وما إن أغلِق الباب خلفه، حتّى طقطق القفل.

تدريجيّاً، بدأت إضاءة خفيفة تتوهّج حول أطراف الغرفة، لتكشف عن قاعة أشبه بكهف، وهي عبارة عن غرفة واحدة واسعة، تشبه حظيرة لأسطول من طائرات الجامبو.

قال وينستون: "تبلغ مساحتها أربعاً وثلاثين ألف قدم مربّعة".

كانت مساحة الغرفة تتجاوز مساحة القاعة التي كان فيها بكثير.

وبينما راح وهج المصابيح يزداد قوّة، رأى لانغدون مجموعة من الأشكال الضخمة على الأرض، وهي عبارة عن سبعة أشكال غامضة أو ثمانية، تشبه الديناصورات التي تَرعى العشب في الليل.

سأله لانغدون: "ما هذا الذي أنظر إليه؟".

فتردّد صوت وينستون المرح عبر سمّاعة لانغدون: "إنّها تسمّى *مسألة الزمن*، وهي أثقل تحفة فنية في المتحف، يتجاوز وزنها مليونَي طن".

كان لانغدون لا يزال يحاول فهم ما يراه حوله. "ولماذا أنا هنا بمفردي؟".

"كما سبق لي أن قلت، طلب منّي السيّد كيرش أن أريك هذه الأشياء المدهشة".

بلغت المصابيح أقصى قوّتها، وأغرقت القاعة بوهج ناعم، بينما اكتفى لانغدون بالتحديق إلى المشهد أمامه بحيرة.

لقد دخلتُ عالماً موازياً.

الفصل 7

وصل الأميرال لويس أفيلا إلى نقطة التفتيش الأمنية في المتحف، فنظر إلى ساعته ليؤكد لنفسه أنّه وصل في الموعد.

ممتاز.

قدم هويّته للمسؤولين عن قائمة الضيوف. للحظة، تسارعت نبضات قلبه عندما لم يتمكن الموظّفون من إيجاد اسمه في القائمة. غير أنهم أخيراً عثروا عليه في أسفلها؛ إذ كان اسمه قد أُضيف في اللحظة الأخيرة، وسُمِح له بالدخول.

تماما كما وعدني الوصيّ. لم يكن أفيلا يملك أدنى فكرة عن كيفية تمكّن الوصي من إنجاز هذا الأمر. إذ قيل إنّ قائمة الضيوف لهذه الليلة كانت مغلقة.

تابع طريقه إلى جهاز الكشف عن المعادن، وهناك أخرج هاتفه الخلوي ووضعه في الوعاء المخصّص لذلك، ثمّ قام بعناية فائقة بإخراج المسبحة الثقيلة على نحو غير عادي من جيب سترته ووضعها فوق الهاتف.

فكّر في سرّه: *برفق، برفق شديد.*

لوّح له حارس الأمن من خلال جهاز الكشف، ثم حمل الوعاء الذي يحتوي على المقتنيات الشخصية ونقله إلى الجهة الأخرى.

قال الحارس بالإسبانية متأمّلاً المسبحة المعدنية التي كانت مؤلّفة من سلسلة ثقيلة من الخرز مع صليب مستدير سميك: "يا لها من مسبحة جميلة!".

أجاب أفيلا: "شكراً". *لقد صنعتُها بنفسي.*

اجتاز أفيلا جهاز الكشف من دون أيّ حوادث. وحين صار في الجهة الأخرى، أخذ هاتفه والمسبحة وأعادهما برفق إلى جيبه، قبل أن يُسرع باتّجاه نقطة التفتيش الثانية. وهناك، تمّ إعطاؤه سمّاعة غير عادية.

فكّر في سره: *أنا لست بحاجة إلى جولة صوتية، فلديّ عمل أقوم به.*

وبينما كان يتنقّل في أرجاء القاعة، ألقى بالسمّاعة سرّاً في سلّة للقمامة.

كان قلبه ينبض بعنف وهو يتأمّل القاعة بحثاً عن مكان منعزل. فقد أراد الاتصال بالوصيّ لإخباره أنّه دخل بأمان.

قال لنفسه: *لله، وبلادي، والملك. ولكن خصوصاً لله.*

في تلك اللحظة، في أعماق الصحراء المقمرة خارج دبي، كان العلّامة المحبوب سيّد الفضل البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً يجاهد بألم وهو يزحف فوق رمال الصحراء الكثيفة. لم يعد بإمكانه الابتعاد أكثر.

كانت بشرة الفضل متقرّحة ومحترقة، وحلقه جافاً؛ حيث بالكاد استطاع أن يتنفس. أعمت الرياح المحمّلة بالرمال عينيه منذ ساعات، ولكنّه على الرغم من ذلك ما زال يزحف. في لحظة من اللحظات، ظنّ أنّه سمع من بعيد أنين عربات الكثبان الرملية، ولكنّ الصوت الذي سمعه كان على الأرجح عويل الرياح لا غير. كان أمل الفضل بالنجاة قد تبدّد منذ زمن طويل. فالنسور لم تعد تحلّق فوقه، بل بدأت تسير بجانبه.

لم يتفوّه الإسباني طويل القامة الذي خطف الفضل في الليلة الفائتة بأيّ كلمة وهو يقود سيّارة العلّامة إلى أعماق الصحراء الشاسعة. وبعد ساعة في السيّارة، توقّف وأمره بالترجّل، ثمّ تركه في الظلام بلا طعام أو ماء.

لم يعطِه الخاطف أيّ إشارة إلى هويّته، أو أيّ تفسير لما يقوم به. والشيء الوحيد الذي لمحه الفضل كان علامةً غريبة على كفّ الرجل اليمنى، رمزاً لم يستطع التعرّف عليه.



ظلّ الفضل لساعات يكافح عبر الرمال، ويصيح بلا جدوى طالباً المساعدة. والآن، وقد انهار من شدّة العطش فوق الرمال الخانقة، شعر بقلبه يستسلم، فطرح على نفسه السؤال نفسه الذي كان يطرحه منذ ساعات.

مَن الذي قد يرغب في قتلي؟

ومع الخوف الذي استبدّ به، لم يستطع التوصّل سوى إلى إجابة منطقية واحدة.

الفصل 8

جال روبرت لانغدون بنظره من شكل ضخم إلى آخر. كانت كلّ قطعة عبارة عن صفيحة شاهقة الارتفاع من الصلب المُعرَّض لعوامل التعرية، والتي تمّ طيّها بأناقة وتثبيتها بعناية من طرفها، حيث توازنت لتشكّل جداراً قائماً بذاته. كان ارتفاع الجدران المنحنية يبلغ نحو خمس عشرة قدماً، وقد لُوِيت بمرونة بأشكال مختلفة: شريط متموّج، دائرة مفتوحة، لفائف فضفاضة.

كرّر وينستون قائلاً: "*مسألة الزمن*، والفنّان يدعى ريتشارد سيرّا. إنّ استخدامه للجدران غير المدعّمة والمكوّنة من هذه المادّة الثقيلة يولّد وهماً بعدم الاستقرار. ولكنّها في الواقع مستقرّة جدّاً. تخيّل أنك تقوم بلفّ ورقة دولار نقدية حول قلم رصاص. إن أزلتَ القلم، فستبقى الورقة قائمة بذاتها على طرفها، تدعمها هندستها الخاصّة بها".

توقّف لانغدون، وراح يحدّق إلى الدائرة هائلة الحجم إلى جانبه. كانت قد تمّت أكسدة المعدن، ما أضفى عليه لوناً نحاسياً محروقاً، ونوعية عضوية خاماً. وكانت القطعة الفنية تنضح بالقوّة الهائلة، وبحسّ دقيق بالتوازن.

"بروفيسور، هل لاحظت أنّ هذا الشكل الأوّل ليس مغلقاً تماماً؟".

تابع لانغدون طريقه حول الدائرة، ورأى أنّ طرفَي الجدار لا يلتقيان تماماً، كما لو أنّ طفلاً حاول رسم دائرة ولكنّه لم يبلغ آخرها.

"يشكّل هذا الاتّصال المنحرف ممرّاً يجذب الزائر إلى الداخل لاستكشاف الفضاء السلبي".

فكّر لانغدون في سرّه وهو يبتعد بسرعة: *هذا ما لم يكن الزائر يعاني من رهاب الأماكن المغلقة*.

قال وينستون: "سترى أمامك أيضاً ثلاثة أشرطة متعرّجة من الصلب، تمتدّ بشكل متوازٍ، بعيدة عن بعضها بعضاً، ولكنّها في الوقت نفسه متقاربة بما فيه الكفاية لتشكّل نفقين متموّجَين يبلغ طولهما أكثر من مائة قدم. هذه التحفة الفنية تسمّى *الأفعى*، وزوّارنا الشباب يستمتعون بالمرور عبرها. في الواقع، بإمكان زائرَين يقفان عند طرفيها أن يهمسا لبعضهما بصوت خافت ويسمعا بعضهما تماماً؛ كما لو أنّهما يقفان وجهاً لوجه".

"هذا رائع يا وينستون. لكن، هلّا تشرح لي من فضلك سبب طلب إدموند منك أن تريني هذه الصالة". *فهو يعرف أنّني لا أفهم هذه الأشياء.*

أجاب وينستون: "القطعة الفنية التي أراد أن أريك إيّاها تحمل عنوان *الدوّامة الملتوية*، وهي أمامك في أقصى الزاوية اليمنى. هل تراها؟".

حدّق لانغدون بعيداً، وتساءل في سرّه: *أهي تلك التي تبدو وكأنّها على مسافة نصف ميل؟* "أجل، أنا أراها".

"هذا ممتاز. فلنذهب إليها من فضلك".

ألقى لانغدون نظرة متردّدة على أرجاء القاعة الهائلة، ثمّ شقّ طريقه باتّجاه الدوّامة البعيدة، في حين واصل وينستون كلامه.

"سمعتُ يا حضرة البروفيسور أنّ إدموند كيرش شديد الإعجاب بأعمالك، ولا سيّما أفكارك حول التفاعل بين مختلف التقاليد الدينية عبر التاريخ، وتطوّرها المنعكس في الفن. ومن نواحٍ عديدة، يُعتبَر مجال عمل إدموند في نظرية الألعاب والمعلوماتية التوقعية مشابهاً جدّاً؛ وذلك من خلال تحليله نموّ مختلف النظم، وتوقّعه كيفيّة تطوّرها مع مرور الزمن".

"في الواقع، من الواضح أنّه بارع جدّاً في ذلك. فهم يسمّونه في النهاية نوستراداموس هذا العصر .

"هذا صحيح. مع أنّ هذه المقارنة مهينة بعض الشيء، برأيي".

"لماذا؟! لقد كان نوستراداموس أشهر متوقّع عبر كلّ العصور

"لا أعارض ذلك يا بروفيسور، لكنّ نوستراداموس كتب ما يقارب ألف رباعية بصياغة فضفاضة على مدى أربعة قرون، واستفادت من القراءات المُبدِعة لمن يصدّقون الخرافات ويسعون إلى استخراج المعنى من حيث لا يوجد أيّ معنى... وذلك حول كلّ شيء؛ بدءاً من الحرب العالمية الثانية، ومروراً بمقتل الأميرة ديانا، ووصولاً إلى الهجوم على مركز التجارة العالمي. إنّه أمر في غاية السخافة. وبالمقابل، نشر إدموند كيرش عدداً محدوداً جدّاً من التوقعات المحدّدة التي تحقّقت خلال فترة زمنية قصيرة جدّاً: الحوسبة السحابية، سيّارات بدون سائق، رقاقة معالجة تشغّلها خمس ذرّات فقط. السيّد كيرش لا يشبه نوستراداموس بشيء .

ففكر لانغدون في سرّه: *أشعر وكأنّني ارتكبتُ خطأً* . كان من المعروف عن إدموند كيرش أنّه يتمتّع بولاء من يعمل معهم وإخلاصهم الشديد له. وعلى ما يبدو، كان وينستون واحداً من تلامذته المخلصين.

سأله وينستون مغيّراً الموضوع: "إذاً، هل تستمتع بجولتك معي؟".

"كثيراً. والفضل يعود إلى إدموند في تطويره هذه التكنولوجيا".

"أجل. فقد كان هذا النظام حلماً بالنسبة إلى إدموند لسنوات، وقد أنفق الكثير من الوقت والمال لتطويره سرّاً".

"حقّاً! لكنّ هذه التكنولوجيا لا تبدو معقّدة جدّاً. لا بدّ لي من القول إنّني كنت متشكّكاً في البداية، ولكنّني استمتعت كثيراً بالمحادثة".

"هذا كرم منك، مع أنّني آمل ألّا أدمّر الآن كلّ شيء باعترافي بالحقيقة. فأنا أخشى أنّني لم أكن صادقاً معك تماماً".

"المعذرة؟"

"أوّلاً، اسمي الحقيقي ليس وينستون، بل آرت".

فضحك لانغدون وقال: "أنت مُرشِد في متحف، واسمك آرت (فن)! حسناً، أنا لا ألومك على استخدام اسم مستعار. تشرّفت بمعرفتك يا آرت".

علاوة على ذلك، عندما سألتني عن سبب عدم تجوّلي معك شخصياً، أعطيتك إجابة دقيقة عن رغبة السيّد كيرش في إبقاء عدد زوّار المتحف محدوداً. لكنّ تلك الإجابة لم تكن كاملة، فثمّة سبب آخر لحديثنا عبر السمّاعة وليس شخصياً". وصمت هنيهة قبل أن يُضيف: "في الواقع، أنا عاجز عن الحركة".

"أوه... أنا آسف". تخيّل لانغدون الشابّ جالساً على كرسي متحرّك في مركز اتّصال، وأسف لأنّ آرت اضطرّ إلى شرح حالته.

"لا حاجة إلى الشعور بالأسف عليّ. أنا أؤكّد لك بأنّ الساقين ستبدوان غريبتين بعض الشيء عليّ. ففي الواقع، أنا لست كما تتخيّل تماماً".

عندها، تباطأت مشية لانغدون وسأله: "ماذا تعني؟".

"اسم آرت ليس اسماً بل هو اختصار. إنّه اختصار لكلمة Artificial، أي اصطناعي، مع أنّ السيّد كيرش يفضّل كلمة مركّب". صمت الصوت للحظة، ثم تابع: "والحقيقة يا بروفيسور هي أنّك كنت تتفاعل هذا المساء مع دليل اصطناعي، مع نوع من أنواع الكمبيوتر

فنظر لانغدون حوله بتردّد، ثم سأل: "أهذا "مقلب"؟".

"إطلاقاً بروفيسور. أنا في غاية الجدّية. فقد أنفق إدموند عقداً من الزمن ونحو مليار دولار في مجال الذكاء الاصطناعي، وأنت الليلة واحد من بين الأوائل الذين يجرّبون ثمار عمله. لقد قمت بجولتك بأكملها برفقة دليل اصطناعي. أنا لست إنساناً".

لم يستطع لانغدون تقبّل ذلك على الإطلاق. فقد كان أسلوب كلام الرجل ولغته ممتازَين، وباستثناء ضحكته الغريبة بعض الشيء، كان متحدّثاً لبقاً إلى حدّ بعيد. بالإضافة إلى ذلك، شملت دردشتهما هذه الليلة مجموعة واسعة ودقيقة من المواضيع.

وفي تلك اللحظة، أدرك لانغدون أنّه مراقَب، فراح يتأمّل الجدران بحثاً عن كاميرات خفية. شكّ في أنّه يشارك عن غير قصد في قطعة غريبة من "الفن التجريبي"؛ وهو عبارة عن مسرح عبثي صُمِّم ببراعة. *لقد جعلوا منّي فأراً في متاهة.*

تردّد صوت لانغدون في أرجاء القاعة الخالية وهو يعلن قائلاً: "أنا لست مرتاحاً".

قال وينستون: "أقدّم لك اعتذاري. هذا مفهوم، لقد توقّعت أن يصعب عليك استيعاب هذا الخبر. وأعتقد أنّ إدموند طلب منّي إحضارك إلى هذا المكان المنعزل بعيداً عن الآخرين لهذا السبب تحديداً. فهذه المعلومة لن يتمّ الكشف عنها لبقية الضيوف".

جال لانغدون بناظريه في أنحاء القاعة المعتمة بحثاً عن شخص آخر.

وبدا الصوت غافلاً تماماً عن انزعاج لانغدون، إذ تابع قائلاً: "كما تعلم بلا شكّ، الدماغ البشري عبارة عن نظام ثنائي؛ فنقاط الاشتباك إمّا تعمل أو لا تعمل، وإمّا تكون مضاءة أو مطفأة، تماماً مثل زرّ الكمبيوتر. ويشتمل الدماغ على ما يزيد عن مائة تريليون مفتاح؛ ما يعني أنّ بناء دماغ ليس مسألة تكنولوجيا بقدر ما هو مسألة نطاق".

بالكاد كان لانغدون يصغي إليه. فقد بدأ يسير مجدّداً وقد صبّ كلّ اهتمامه على البحث عن لافتة كُتبت عليها كلمة "خروج" مع سهم يشير إلى الطرف الأقصى للقاعة.

"بروفيسور، أنا أدرك أنّ صوتي البشري يجعل من الصعب بالنسبة إليك تصديق أنّه صادر عن آلة. لكنّ الكلام في الواقع هو الجزء السهل؛ فأجهزة قراءة الكتب إلكترونية التي يبلغ ثمن أحدها تسعة وتسعين دولاراً تحاكي على نحو مقبول أسلوب الخطاب البشري. وقد استثمر إدموند المليارات ليحقّق هذه النتيجة".

"إن كنت جهاز كمبيوتر فأجبني عن سؤالي. في أيّ يوم أغلق مؤشّر داو جونز الصناعي في الرابع والعشرين من أغسطس 1974؟".

أجاب الصوت على الفور: حصل ذلك يوم السبت، لذا لم تفتح الأسواق قط".

شعر لانغدون برعشة تسري في جسده. كان قد استخدم التاريخ كخدعة. فمن الآثار الجانبية لذاكرته البصرية أنّ التواريخ تحفر في ذهنه إلى الأبد. وقد صادف ذاك السبت يوم ذكرى ميلاد صديقه المقرّب، وما زال يتذكّر الحفلة التي أقيمت عند المسبح. *كانت هيلينا وولي ترتدي ثوب سباحة أزرق اللون.*

أضاف الصوت على الفور: "لكن في اليوم السابق، أي يوم الجمعة 23 أغسطس، أغلق مؤشّر داو جونس الصناعي على 686.80، أي بانخفاض 17.83 نقطة أو ما يعادل 2.53 بالمائة".

للحظة، عجز لانغدون عن الكلام.

قال الصوت: "يسرّني الانتظار إن كنت ترغب في التحقّق من البيانات على هاتفك الذكي. مع أنّه لا يسعني سوى التعليق على عبثية ذلك".

"لكن... أنا لن...".

قال الصوت بلكنته البريطانية الخفيفة التي بدت الآن أكثر غرابة من ذي قبل: "لا يكمن التحدّي بالنسبة إلى الذكاء الاصطناعي في سرعة الوصول إلى البيانات التي تُعتبَر في الواقع أمراً في غاية البساطة، بل في القدرة على تمييز كيفيّة ترابط البيانات وتشابكها؛ وهو أمر أعتقد أنّك تتفوّق فيه، أليس كذلك؟ أعني العلاقة المتبادلة بين الأفكار؟ وهذا أحد الأسباب التي جعلت السيّد كيرش يرغب في أن أختبر قدراتي عليك تحديداً".

فقال لانغدون مستغرباً: "اختبار! عليّ... أنا!".

تردّدت الضحكة الغريبة مجدّداً. "كلّا، على الإطلاق، بل عليّ؛ ليرى ما إذا كان بإمكاني إقناعك بأنّني إنسان".

"اختبار تورينغ".

"بالضبط".

تذكّر لانغدون أنّ اختبار تورينغ كان تحدّياً اقترحه مفكّك الرموز ألان تورينغ لتقييم قدرة الآلة على التصرّف بطريقة لا يمكن تمييزها عن سلوك الإنسان. في الأساس، يقوم حكَم بشري بالإصغاء إلى حديث بين آلة وإنسان. وفي حال لم يتمكّن من معرفة أيّ من المشاركَين هو الإنسان، تُعتبَر الآلة ناجحة في الاختبار. تمّ اجتياز تحدّي تورينغ في الاختبار الشهير الذي أُجرِي عام 2014 في الجمعية الملكية في لندن. ومنذ ذلك الحين، تقدّمت تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي بوتيرة سريعة للغاية.

تابع الصوت: "حتّى هذه اللحظة، لم يشتبه أيّ من ضيوفنا بشيء هذا المساء. وجميعهم يمضون وقتاً ممتعاً".

"مهلاً، هل جميع الموجودين هنا يتحدّثون إلى جهاز كمبيوتر؟!".

"تقنياً، الجميع يتحدّثون معي أنا. فأنا قادر على تقسيم نفسي بغاية السهولة. أنت تسمع الآن صوتي الافتراضي؛ الصوت الذي يفضّله إدموند، لكنّ الآخرين يسمعون أصواتاً أو لغاتٍ أخرى. فاستناداً إلى ملفّ التعريف الخاصّ بك كرجل أكاديمي أميركي، اخترتُ لهجتي البريطانية الافتراضية بصوت رجل. فقد توقّعت أن تولّد ثقة أكبر مما لو كنت أتحدّث بصوت أنثى شابّة ذات لكنة جنوبية مثلاً".

هل وصفني هذا للتوّ أنّني شوفيني؟

تذكّر لانغدون تسجيلاً شعبياً تمّ تداوله عبر الإنترنت قبل سنوات عدّة: إذ تمّ الاتّصال برئيس مكتب مجلّة التايم، مايكل شيرير، من قبل روبوت تسويق عبر الهاتف،

وبدا صوته بشرياً إلى حدّ كبير، لدرجة أنّ شيرير نشر تسجيلاً للاتصال على الشبكة ليسمعه الجميع.

حصل ذلك منذ سنوات.

كان لانغدون يعرف أنّ كيرش منهمك في العمل على الذكاء الاصطناعي منذ سنوات، وأنّه يظهر على أغلفة المجلات من وقت إلى آخر للإعلان عن مختلف الاكتشافات. وعلى ما يبدو، إنّ اختراعه "وينستون" يمثّل آخر ما توصّل إليه.

قال الصوت: "أنا أدرك أنّ كلّ هذا يحدث بسرعة، لكنّ السيّد كيرش طلب منّي أن أريك هذه الدوامة التي تقف عندها الآن. كما طلب أن تدخلها من فضلك وتسير حتّى المركز

حدّق لانغدون إلى الممرّ الضيّق المقوّس، وشعر بعضلاته تتوتّر. *أهذه فكرة إدموند عن "المقالب"!؟* "هلّا تخبرني من فضلك عما يوجد هناك، فأنا لست من هواة الأماكن الضيّقة".

"هذا مثير للاهتمام، فأنا لم أكن أعرف ذلك عنك".

"رهاب الأماكن المغلقة ليس مُدرَجاً ضمن معلوماتي على الشبكة". قال لانغدون ذلك وهو لا يزال عاجزاً عن استيعاب أنّه يتحدّث إلى آلة.

"لا تخَف شيئاً. فالمساحة في وسط الدوّامة كبيرة جدّاً، وقد أراد السيّد كيرش أن ترى المركز تحديداً. لكن، قبل أن تدخل، طلب إدموند أن تخلع السمّاعة وتضعها على الأرض هنا".

نظر لانغدون إلى الهيكل الغريب متردّداً، ثم سأل: "ألن ترافقني؟".

"كلّا على ما يبدو .

"أتعلم؟ كلّ هذا غريب جدّاً، وأنا لست–"

"بروفيسور، بما أنّك اجتزت كلّ هذه المسافة تلبية لدعوة إدموند، فالسير لمسافة قصيرة إلى داخل هذه القطعة الفنّية يُعتبَر طلباً بسيطاً. الأطفال يقومون بذلك طوال الوقت ولا يصيبهم شيء".

لم يسبق للانغدون أن تعرّض للتوبيخ من قبل جهاز كمبيوتر، لكنْ كان لذلك التعليق القاطع التأثيرُ المطلوب. لذا، نزع السمّاعة عن رأسه، ووضعها بعناية على الأرض، ثمّ التفت ليواجه فتحة الدوّامة. شكّلت الجدران العالية ممرّاً ضيّقاً يلتفّ ويختفي عن الأنظار وسط الظلام.

قال بصوت عالٍ: "فلنجرّب".

أخذ لانغدون نفساً عميقاً ودخل عبر الفتحة.

أخذ الطريق يلتفّ باستمرار، أكثر ممّا تخيّل، ويزداد عمقاً. وسرعان ما فقد لانغدون إحساسه بعدد الدورات التي قام بها. ومع كلّ دورة، كان الممرّ يزداد ضيقاً، حيث إنّ كتفَي لانغدون أصبحتا تحتكّان بالجدران تقريباً. *تنفّس يا روبرت*. شعر كما لو أنّ الصفائح المعدنية المائلة ستنهار نحو الداخل في أيّ لحظة وتسحقه تحت أطنان من الصلب.

لماذا أفعل ذلك؟

وفي اللحظة التي قرّر فيها لانغدون أن يستدير ويعود أدراجه، انتهى الممرّ فجأة، ووجد لانغدون نفسه أمام مساحة مفتوحة وكبيرة. كما قيل له، كانت الفسحة أكبر ممّا توقّع. خرج لانغدون بسرعة من النفق إلى المساحة المفتوحة، وأخذ يتنفّس وهو يتأمّل الأرض الخالية والجدران المعدنية العالية، ويتساءل عمّا إذا كان ضحية أحد تلك "المقالب" التي يدبّرها زملاء الدراسة لبعضهم بعضاً.

سمع باباً يُفتح في مكان ما في الخارج، ووقع خطوات سريعة يتردّد خلف الجدران العالية. لقد دخل أحدهم القاعة من الباب المجاور الذي رآه لانغدون. أخذت الخطوات تقترب من الدوّامة، ثمّ بدأت تدور حول لانغدون، ويرتفع صداها مع كلّ دورة. ثمّة من دخل الدوّامة.

تراجع لانغدون ووقف بمواجهة الفتحة، مع استمرار صوت الأقدام بالاقتراب. ارتفع وقع الأقدام إلى أن ظهر فجأة رجل عند فتحة النفق. كان قصير القامة ونحيلاً، ذا بشرة شاحبة ونظرات خارقة، يعلو رأسه شعر أسود غير مرتّب.

حدّق لانغدون بجمود إلى الرجل مطوّلاً، قبل أن تظهر أخيراً ابتسامة كبيرة على وجهه. "إدموند كيرش العظيم يدخل دائماً دخولاً مهيباً".

أجاب كيرش بمودّة: "لا توجد سوى فرصة واحدة لترك الانطباع الأوّل. كم اشتقت إليك يا روبرت. شكراً لمجيئك".

عانق الرجلان بعضهما بحرارة. وبينما كان لانغدون يربّت على ظهر صديقه القديم، شعر أنّ كيرش قد خسر من وزنه.

قال: "لقد خسرت من وزنك".

أجاب كيرش: "أصبحت نباتياً، فهذا أسهل من أن أصبح بيضاوي الشكل .

ضحك لانغدون وقال: "من الرائع أن أراك مجدّداً. كالعادة، ها أنت تجبرني على الاهتمام بمظهري بشكل زائد".

"من؟ أنا؟!". نظر كيرش إلى سرواله الجينز الأسود، وقميصه القطني الأبيض، وسترته البسيطة قائلاً: "هذه هي الموضة الراقية".

"وهل الشبشب الأبيض جزء من الأناقة؟".

"شبشب! هذا يسمّى فيراغامو غينيا".

"وأعتقد أنّه أغلى ثمناً من بذلتي بأكملها".

اقترب إدموند منه، وتفحّص العلامة التجارية لسترة لانغدون الكلاسيكية، ثمّ قال مبتسماً بمودّة: "في الواقع، هذه السترة جميلة جدّاً. إنّهما متعادلان بالقيمة تقريباً".

"إدموند، لا بدّ لي من القول إنّ صديقك الاصطناعي وينستون... مقلق جدّاً".

ابتسم كيرش قائلاً: "إنّه لا يصدَّق، أليس كذلك؟ لا يمكنك أن تصدّق ما أنجزته في مجال الذكاء الاصطناعي هذا العام، لقد حقّقتُ قفزات نوعية. لقد طوّرت بضع تقنيات خاصّة جديدة تمكّن الآلات من حلّ المشاكل وتنظيم ذاتها بطرائق جديدة تماماً. ويُعتبَر وينستون عملاً في طور التقدّم، ولكنّه يتحسّن يوميّاً".

لاحظ لانغدون أنّ تجاعيد عميقة ظهرت حول عينَي إدموند الصبيانيتين في السنوات الأخيرة. لقد بدا الرجل منهكاً. "إدموند، هلّا تخبرني عن سبب إحضارك لي إلى هنا".

"إلى بيلباو؟ أم إلى دوّامة ريتشارد سيرا؟".

"فلنبدأ بالدوّامة. أنت تعلم أنّني أعاني من رهاب الأماكن المغلقة".

"بالضبط. لكنْ هذه الليلة، سيتمّ دفع الناس إلى خارج مناطق الراحة التي اعتادوا عليها".

"هذا اختصاصك".

أضاف كيرش: "وأيضاً لأنني كنت بحاجة إلى التحدّث إليك، ولم أرغب في أن يراني أحد قبل العرض".

"هل سبب ذلك أنّ نجوم الروك لا يختلطون مع الزوّار قبل الحفل؟".

فأجاب كيرش ضاحكاً: "تماماً! فنجوم الروك يظهرون كالسحر على خشبة المسرح".

فوق رأسيهما، تلاشت الأضواء فجأة، ثمّ شعّت مجدّداً، فرفع كيرش كمّ سترته وتحقّق من الساعة. بعد ذلك، نظر إلى لانغدون، وأصبح تعبيره جادّاً فجأة.

"روبرت، نحن لا نملك الكثير من الوقت. هذه الليلة فرصة هائلة بالنسبة إليّ. في الواقع، ستشكّل أهمّ فرصة للبشرية جمعاء".

شعر لانغدون بنبضات قلبه تتسارع.

قال إدموند: "توصّلت مؤخّراً إلى اكتشاف علمي ستكون له آثار بعيدة المدى. تقريباً، ما من أحد على وجه الأرض يعرف به. والليلة، بعد قليل، سأتوجّه إلى العالم في بثّ مباشر، وأعلن عمّا توصّلت إليه".

أجاب لانغدون: "لا أدري ماذا أقول، يبدو هذا مذهلاً".

أخفض إدموند صوته، وأصبحت نبرته متوتّرة على نحو غير معهود وهو يتابع: "قبل أن أخرج إلى البثّ الحيّ بهذه المعلومات، أحتاج إلى نصيحتك يا روبرت". ثمّ صمت قليلاً قبل أن يضيف: "أخشى أنّ حياتي تعتمد على ذلك".

الفصل 9

خيّم الصمت على الرجلين داخل الدوّامة.

أحتاج إلى نصيحتك... أخشى أنّ حياتي تعتمد على ذلك.

بقيت كلمات إدموند معلّقة في الهواء بثقل، ورأى لانغدون القلق واضحاً في عينَي صديقه. "إدموند، ماذا يجري؟ هل أنت بخير؟".

انطفأت أضواء المصابيح فوقهما ثمّ عادت لتشعَ مجدّداً، لكنّ إدموند تجاهلها.

وقال بصوت هامس: "لقد كان هذا العام رائعاً بالنسبة إليّ؛ إذ كنت أعمل بمفردي على مشروع ضخم أدّى إلى اكتشاف رائد".

"هذا يبدو رائعاً".

هزّ كيرش رأسه موافقاً وقال: "بالفعل. ولا يمكنني أن أصف مدى حماستي لأطلع العالم عليه هذه الليلة. فهو سيؤدّي إلى تحوّل نموذجي كبير. وأنا لا أبالغ حين أقول إنّ اكتشافي ستكون له انعكاسات بحجم الثورة الكوبيرنيكية".

للحظة، اعتقد لانغدون أنّ مضيفه يمزح، لكنّ تعابير كيرش بقيت جادّة للغاية.

كوبيرنيكوس! لم يكن التواضع يوماً من أبرز مزايا إدموند، لكنّ هذا الادّعاء بدا منافياً للعقل. فقد كان نيكولاوس كوبيرنيكوس مكتشف نموذج مركزية الشمس، أي حقيقة أنّ الكواكب تدور حول الشمس. وهو الذي أشعل الثورة العلمية في مطلع القرن السادس عشر، والتي طمست تماماً تعاليم الكنيسة القديمة؛ وهي أنّ البشرية تحتلّ مركز الكون الذي خلقه الله. وقد أدانت الكنيسة اكتشافه لمدّة ثلاثة قرون، لكنّ الضرر كان قد وقع، وتغيّر العالم إلى الأبد.

قال إدموند: "أرى أنّك متشكّك. هل كان من الأفضل لو قلت داروين؟"

ابتسم لانغدون وأجاب: "هذا لن يغيّر شيئاً".

"حسناً إذاً، دعني أطرح عليك سؤالاً. ما هما السؤالان الأساسيان اللذان طرحهما الجنس البشري عبر التاريخ؟".

فكّر لانغدون ثم أجاب: "في الواقع، لطالما طرحنا السؤال: كيف بدأ كلّ شيء؟ ومن أين أتينا؟".

"تماماً. لكنّ السؤال الثاني ليس: من أين أتينا؟ ... بل

"إلى أين نحن ذاهبون؟".

"بالضبط! فهذان اللغزان يكمنان في قلب التجربة الإنسانية. من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ إنّهما اللغزان الكونيان". ازدادت نظرة إدموند حدّة وهو يحدّق إلى لانغدون بترقّب. "روبرت، الاكتشاف الذي توصّلت إليه... يجيب بكلّ وضوح عن هذين السؤالين".

راح لانغدون يحاول جاهداً استيعاب كلام إدموند وتشعّباته الثقيلة. "أنا... لست واثقاً مما يجب أن أقوله".

"لستَ بحاجة إلى قول شيء. ولكنّني آمل أن نجد- أنا وأنت- الوقت لمناقشة هذه المسألة بعمق بعد العرض الذي سأقدّمه هذه الليلة. لكنني في هذه اللحظة، أودّ التحدث إليك حول الجانب المظلم لكلّ هذا؛ أقصد التداعيات المحتملة لهذا الاكتشاف".

"وهل تعتقد أنّه ستكون له تداعيات؟".

"بلا أدنى شكّ. فبالإجابة عن هذين السؤالين، وضعت نفسي في صراع مباشر مع قرون من التعاليم الراسخة. فقضيتا خلق الإنسان ومصيره شكّلتا تقليدياً مجال الدين، وأنا أعدّ هنا دخيلاً. ولهذا السبب، إنّ ديانات العالم أجمع لن يعجبها ما سأعلن عنه".

أجاب لانغدون: "هذا مثير للاهتمام. ألهذا السبب أمضيتَ ساعتين في استجوابي حول الدين أثناء تناولنا الغداء في بوسطن في العام الماضي؟".

"تماماً. وربّما تذكر ضمانتي الشخصية لك عندما قلت إنّه في زماننا سيدمّر التطوّر العلمي كلّ الأساطير

هزّ لانغدون رأسه موافقاً. *يصعب نسيان ذلك*. فجرأة إعلان كيرش جعلته يُحفَر في ذاكرة لانغدون البصرية كلمة كلمة. "أجل، أذكر. وقد رددت عليك يومذاك أنّ التطور العلمي لم يؤثر سلباً في الدين لآلاف السنين، وقد أدّى الدين غرضاً مهمّاً في المجتمع".

"بالضبط. وقلتُ لك حينها إنّني وجدت هدف حياتي؛ ألا وهو توظيف الحقيقة العلمية للقضاء على المعتقدات الأسطورية".

"أجل، كلام كبير

"وقد تحدّيتني بشأنه يا روبرت، وقلتَ لي إنّني كلّما وقعت على حقيقة علمية تتعارض مع مبادئ الدين أو تقوّضها، فعليّ مناقشة ذلك مع رجل دين؛ على أمل أن أدرك أنّ العلم والدين يحاولان غالباً رواية القصّة نفسها ولكن بلغتين مختلفتين .

"أذكر ذلك. فغالباً ما يستعمل العلماء والروحيون مفردات مختلفة لوصف أسرار الكون نفسها. لذلك، غالباً ما تكون الصراعات حول الدلالات وليس حول الجوهر

قال كيرش: "في الواقع، اتّبعتُ نصيحتك وقمت باستشارة زعماء روحيين بشأن اكتشافي الأخير

"حقاً!".

"هل سمعت ببرلمان أديان العالم؟".

"بالطبع". كان لانغدون من أكبر المعجبين بجهود المجموعة لتعزيز الحوار بين الأديان.

وتابع كيرش كلامه: "بمحض الصدفة، عقد البرلمان اجتماعه خارج برشلونة هذا العالم، على بعد ساعة تقريباً من منزلي، في دير مونسيرات".

يا له من موقع مذهل! وكان قد سبق للانغدون أن زار الدير الواقع على قمّة الجبل منذ سنوات عديدة.

"عندما سمعت أنّ البرلمان سيُعقَد في الأسبوع نفسه الذي خطّطتُ للإعلان عن اكتشافي العلمي الكبير فيه، لا أدري...".

"أتعني أنك تساءلتَ عمّا إذا كانت تلك إشارة من الله؟".

ضحك كيرش مجيباً: "شيء من هذا القبيل. لذا اتّصلت بهم".

بدا الإعجاب على وجه لانغدون. "هل خاطبتَ برلماناً بأكمله؟".

"كلّا! هذا خطر جداً. فأنا لا أريد تسريب هذه المعلومات قبل أن أعلن عنها بنفسي، ولذلك عقدت اجتماعاً مع ثلاثة منهم فقط؛ مع ممثّل عن كلّ من الديانات المسيحية، والإسلامية، واليهودية. لقد التقينا نحن الأربعة في المكتبة".

قال لانغدون بشيء من الدهشة: "أستغرب سماحهم لك بدخول المكتبة، فقد سمعت أنّها مكان مبجّل .

"قلت لهم إنّني بحاجة إلى قاعة اجتماعات آمنة، بلا هواتف ولا كاميرات ولا دخلاء، فاصطحبوني إلى المكتبة. وقبل أن أقول لهم شيئاً، طلبت منهم أن يوافقوا على التعهّد بالصمت، وقد امتثلوا لطلبي. وحتّى هذه اللحظة، هم الأشخاص الوحيدون على الأرض الذين يعرفون شيئاً عن اكتشافي .

"هذا مذهل! وكيف كان ردّ فعلهم على ما قلته؟".

بدا الخجل على وجه كيرش وهو يجيب: "أظنّ أنّني لم أتمكّن من التعامل مع الوضع كما ينبغي تماماً. أنت تعرفني يا روبرت، فعندما تغلب عليّ حماستي، لا أتحلّى بالدبلوماسية".

قال لانغدون ضاحكاً: "أجل. فقد قرأت أنّه لن يضرّك التدرّب على شيء من اللباقة". *شأنه شأن ستيف جوبس والكثير من أصحاب الرؤى العباقرة.*

"لذا، تماشياً مع طبيعتي الصريحة، بدأت حديثي بإخبارهم الحقيقة ببساطة. أي أنّني كعالم أجد صعوبة في القبول أنّ مليارات الناس الأذكياء يعتمدون على إيمانهم لإيجاد الراحة وإنارة طريقهم. وعندما سألوني عن سبب استشارتي أشخاصاً لا أكنّ لهم

احتراماً كبيراً، أجبتهم بالقو إنّني أرغب في قياس ردود أفعالهم على اكتشافي؛ لكي أكوّن فكرة عن كيفية تلقّي المؤمنين في العالم خبراً كهذا حين أعلن عنه".

عندها، قال لانغدون وقد تقلّصت تعابير وجهه: "دبلوماسي كعادتك. أنت تعلم بلا شكّ أنّ الصدق ليس أفضل سياسة دوماً؟".

لوّح كيرش بيده بلا اكتراث وتابع: "أفكاري حول الدين منتشرة على نطاق واسع، وظننت أنّهم سيقدّرون الشفافية. على أيّ حال، عرضت عليهم بعد ذلك عملي، وشرحت لهم بالتفصيل ما توصّلت إليه وكيفية تغييره كلّ شيء. حتّى إنّني أخذت هاتفي وتركتهم يشاهدون بعض مقاطع الفيديو التي أعترف بأنّها مذهلة جدّاً. وهكذا، عقدت الدهشة ألسنتهم".

تعاظم فضول لانغدون لمعرفة ماهية اكتشاف كيرش، وحثّه قائلاً: "لا بدّ أنّهم قالوا شيئاً ما".

"كنت آمل أن نجري حواراً ونقاشاً، لكنّ رجل الدين المسيحي أسكت الاثنين الآخرَين قبل أن ينبسا ببنت شفة، ثمّ دعاني إلى إعادة النظر في نشر هذه المعلومات. فقلت له إنّني سأفكّر في الأمر خلال الشهر المقبل".

"لكنّك ستعلن عنه الليلة".

"أعلم. لقد أخبرتهم أنّ الإعلان سيتمّ بعد عدّة أسابيع لكي لا يُصابوا بالذعر أو يحاولوا التدخّل".

"وما الذي سيحدث عندما يكتشفون أمر هذا العرض؟".

"لن يسرّهم ذلك، ولا سيّما أحدهم تحديداً". نظر كيرش إلى عينَي لانغدون وأضاف: "كان رجل الدين المسيحي هو الأسقف أنطونيو فالديسبينو. هل تعرفه؟".

توتّر لانغدون وهو يسأله: "أتعني الأسقف من مدريد؟".

هزّ كيرش رأسه قائلاً: "هو نفسه".

فكّر لانغدون في سرّه: *على الأرجح، لم يكن ذلك هو الجمهور المثالي بالنسبة إلى ملحد راديكالي مثل إدموند*. فقد كان فالديسبينو شخصية نافذة في الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية، ومعروفاً بآرائه المُحافظة جدّاً ونفوذه القويّ على ملك إسبانيا.

قال كيرش: "كان هو مَن استضاف البرلمان هذا العام، وبالتالي هو مَن تحدّثت إليه لترتيب الاجتماع. عرض الحضور شخصياً، فطلبت منه أن يجلب ممثّلين عن الإسلام واليهودية".

تلاشت الأنوار فوقهما مجدّداً.

عندها، تنهّد كيرش بتعب، وأخفض صوته أكثر وهو يقول: "روبرت، سبب رغبتي في التحدّث إليك قبل العرض هو أنّني أحتاج إلى نصيحتك. أريد أن أعرف ما إذا كنت تعتقد أنّ الأسقف فالديسبينو خطر

"خطر! من أيّ ناحية؟".

"ما أريته إيّاه يهدّد عالمه، وأريد أن أعرف ما إذا كنت مُعرَّضاً للخطر من قبله".

وعلى الفور، هزّ لانغدون رأسه نافياً وأجاب: "كلّا، هذا مستحيل. أنا لا أدري ما الذي قلتَه له، ولكنّ فالديسبينو ركيزة من ركائز الكاثوليكية الإسبانية، وعلاقاته بالأسرة المالكة في إسبانيا منحته نفوذاً هائلاً... لكنّه كاهن، وليس مجرماً. إنّه يتمتّع بسلطة سياسية. قد يلقي عظة ضدّك، ولكن يصعب عليّ تصديق أنك ستكون مُهدَّداً بخطر جسدي من قبله".

ولكنّ كيرش بدا غير مقتنع وهو يقول: "كان يجب عليك أن ترى كيف نظر إليّ وأنا أغادر مونسيرات".

هتف لانغدون: "لقد جلستَ في المكتبة المبجّلة لذلك الدير، وأخبرتَ الأسقف أنّ نظام معتقده بأكمله وهمي! هل توقّعت منه أن يقدّم لك الشاي والكعك!؟".

أقرّ إدموند: "كلّا، لكنّني لم أتوقّع أيضاً أن يترك لي رسالة تهديد صوتيّة بعد اجتماعنا".

"هل اتّصل بك الأسقف فالديسبينو؟".

مدّ كيرش يده إلى جيب سترته الجلدية، وأخرج هاتفاً ذكياً كبيراً على نحو غير اعتيادي. كان الهاتف مزوّداً بغلاف فيروزي زاهٍ مزيّن بأشكال سداسية متكرّرة، فتعرّف لانغدون على الفور على نمط البلاط الشهير الذي صمّمه المهندس المعماري الكتالوني العصري أنطوني غاودي.

قال كيرش وهو يضغط على بعض الأزرار ويرفع الهاتف: "أصغِ إليها". تصاعد صوت رجل مسنّ من السمّاعة، وبدت نبرته في غاية الجدّية:

سيّد كيرش، معك الأسقف أنطونيو فالديسبينو. كما تعلم، وجدت اجتماعنا هذا الصباح مقلقاً للغاية، وكذلك كان رأي زميليّ. لذا، أطلب منك الاتّصال بي على الفور لمناقشة هذه المسألة أكثر، وأحذّرك مجدّداً من مخاطر نشر هذه المعلومات. أمّا في حال عدم اتصالك، فاعلم أنّنا سنقوم- أنا وزميلاي- بإعلان وقائي لنشر اكتشافاتك، وإعادة صياغتها، وتجريدها من مصداقيتها، ومحاولة تفادي الضرر الهائل الذي توشك على إلحاقه بالعالم... وهو ضرر من الواضح أنّك لم تستطع توقّعه. أنا بانتظار اتّصالك، وأوصيك بشدّة ألّا تختبر صبري.

انتهت الرسالة.

ممّا لا شكّ فيه أنّ لانغدون فوجئ بنبرة فالديسبينو العدوانية، لكنّ الرسالة الصوتية لم تخِفْه بقدر ما ضاعفت من فضوله حيال إعلان إدموند الوشيك. "إذاً، بِمَ أجبت؟".

قال إدموند وهو يدسّ الهاتف في جيبه مجدّداً: "لم أفعل. اعتبرتُ كلامه تهديداً فارغاً. فأنا واثق أنّهم يريدون دفن هذه المعلومات، ولا يرغبون في الإعلان عنها بأنفسهم. علاوة على ذلك، كنت أعرف أنّ التوقيت المفاجئ لعرض الليلة سيأخذهم على حين غرّة، لذلك لم أهتمّ كثيراً بإجرائهم الوقائي . وصمت هنيهة، ورمق لانغدون قبل أن يضيف: "والآن... لا أدري، لكنّ شيئاً ما في نبرته... بقي عالقاً في ذهني .

"هل تخشى أن تكون في خطر هنا؟ هذه الليلة؟".

"لا، لا، فقائمة الضيوف محدّدة جدّاً. وهذا المبنى خاضع لإجراءات أمنية ممتازة. أنا أكثر قلقاً بشأن ما سيحدث بعد الإعلان". فجأة، بدا على إدموند الأسف لأنّه ذكر المسألة. "هذا سخيف، لا شكّ في أنّ السّبب هو التوتّر الذي يسبق العرض. أردت وحسب أن أعرف رأيك".

تأمّل لانغدون صديقه بقلق متزايد؛ فقد بدا إدموند شاحباً ومضطرباً على نحو غير اعتيادي. "برأيي، لا يمكن أن يتعرّض فالديسبينو لحياتك إطلاقاً؛ مهما أثرتَ حفيظته".

انطفأت الأضواء مجدّداً، بإصرار هذه المرّة.

تحقّق كيرش من ساعته. "حسناً، شكراً لك. عليّ الذهاب، لكن هل يمكننا اللقاء بعد العرض؟ ثمّة بعض الجوانب التي أودّ مناقشتها معك أكثر

"بكلّ تأكيد".

"ممتاز. سيكون الوضع فوضوياً بعد العرض، لذلك نحن بحاجة إلى مكان هادئ للهروب من الفوضى والتحدّث". أخرج إدموند بطاقة وكتب شيئاً على ظهرها ثم قال: "بعد العرض، استقلّ سيّارة أجرة، وأعطِ السائق هذه البطاقة. أيّ سائق محلّي سيعرف إلى أين يأخذك". ثمّ أعطى لانغدون البطاقة.

توقّع لانغدون رؤية عنوان فندق أو مطعم محلّي، ولكنّه رأى عوضاً عن ذلك شيئاً يشبه الشيفرة.

BIO-EC346

"المعذرة، لكن هل أعطي سائق سيّارة الأجرة هذه البطاقة؟".

"أجل، وسيعرف إلى أين يأخذك. سأخبر رجال الأمن هناك بمجيئك، وسألحق بك بأسرع وقت ممكن".

رجال الأمن؟ عبس لانغدون، وتساءل عمّا إذا كان BIO-EC346 رمزاً لنادٍ علمي سرّي.

غير أنّ كيرش غمزه قائلاً: "إنّه رمز بسيط جدّاً يا صديقي. وينبغي أن تكون أنت من بين كلّ الناس قادراً على تفكيكه. بالمناسبة، فقط كي لا تُفاجأ، سيكون لك دور في إعلاني هذه الليلة".

فوجئ لانغدون وسأله: "أيّ دور؟".

"لا تقلق، لن تضطرّ إلى فعل أي شيء".

بعد ذلك، توجّه إدموند كيرش إلى مخرج الدوّامة وهو يقول: "عليّ الإسراع إلى الكواليس، لكنّ وينستون سيقودك في طريق العودة". ثم توقّف عند الباب، واستدار قائلاً: "أراك بعد الحفل. وأتمنّى أن تكون على حقّ بشأن فالديسبينو

فأكّد له لانغدون: "استرخِ يا إدموند، وركِّز على العرض. رجال الدين لن يهدّدوا حياتك بالخطر

لم يبدُ كيرش مقتنعاً وقال: "قد يتغيّر رأيك يا روبرت عندما تسمع ما أوشك على قوله".

الفصل 10

يقع المقرّ المبجّل للأبرشية الكاثوليكية الرومانية لمدريد في كاتدرائية ألمودينا، وهي كاتدرائية نيوكلاسيكية ضخمة متاخمة للقصر الملكي في مدريد. بنيت الكنيسة على موقع مسجد قديم، واستمدّت اسمها من الكلمة العربية "المدينة".

وفقاً للأسطورة، عندما استعاد ألفونسو السادس مدريد من المسلمين عام 1083، قرّر نقل أيقونة ثمينة ضائعة لمريم العذراء كانت قد دُفِنت تحت جدران القلعة لحفظها. وحين لم يتمكّن من العثور عليها، راح يصلّي بإلحاح إلى أن انفجر جزء من جدار القلعة وانهار، وظهرت الأيقونة في الداخل، وكانت لا تزال مضاءة بالشموع التي دفنت معها منذ قرون.

واليوم، تُعتبر عذراء ألمودينا شفيعة مدريد، ويتوافد إليها الحجّاج والسيّاح لإقامة القداديس في كاتدرائية ألمودينا والصلاة هناك. وما يضاعف من جاذبيتها لدى المصلّين هو موقعها المهيب؛ إذ تشترك في الساحة الرئيسة مع القصر الملكي، وهذا ما يمنح القادمين إليها فرصة لمح أفراد الأسرة الحاكمة وهم يدخلون القصر أو يغادرونه.

الليلة، في أعماق الكاتدرائية، أسرع أحد مساعدي الكهنة الشباب عبر الرواق مذعوراً.

أين الأسقف فالديسبينو؟!

القدّاس على وشك أن يبدأ!

كان الأسقف أنطونيو فالديسبينو رئيس الكهنة والمشرف على هذه الكاتدرائية لعقود من الزمن. وكان الأسقف، الذي يُعتبَر صديقاً قديماً للملك ومستشاراً روحياً له، تقليدياً وصريحاً ومتفانياً، ولا يتسامح على الإطلاق تقريباً مع الحداثة. حتّى إنّ الأسقف البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً ما زال يضع أغلال الكاحل خلال أسبوع الآلام وينضمّ إلى الناس الذين يحملون الأيقونات ويجوبون شوارع المدينة.

فالديسبينو دوناً عن كلّ الناس لا يتأخّر على القدّاس أبداً.

قبل عشرين دقيقة، كان المساعد برفقة الأسقف في غرفته، يساعده على ارتداء ملابسه كالعادة. وما إن أنهيا حتّى تلقّى الأسقف رسالة نصّية، فأسرع إلى الخارج من دون أن يقول شيئاً.

إلى أين ذهب؟

بحث عنه المساعد في المحراب وغرفة الملابس وحتّى في حمّام الأسقف الخاصّ، وها هو الآن يجري بأقصى سرعته عبر الرواق المؤدّي إلى القسم الإداري للكاتدرائية للبحث عن الأسقف في مكتبه.

سمع عزف الأورغن من بعيد.

بدأ نشيد الدخول!

توقّف المساعد أمام مكتب الأسقف الخاصّ، وفوجئ لدى رؤيته شعاعاً من الضوء من تحت الباب المغلق. *أهو هنا؟*

طرق الباب بهدوء. "حضرة الأسقف؟".

لم يأتِه أيّ جواب.

طرق بقوة أكثر ونادى مجدّداً: "هل سماحتكم هنا؟!".

لا جواب.

خوفاً منه على صحّة الرجل المسنّ، ضغط المُساعد على مقبض الباب وفتحه.

ربّاه! شهق المساعد وهو يحدّق إلى المكتب.

كان الأسقف فالديسبينو جالساً إلى مكتبه المصنوع من خشب الماهوغاني، محدّقاً إلى شاشة كمبيوتر محمول. كانت قلنصوته لا تزال على رأسه، أما رداؤه فكان مغضّناً تحته، وصولجانه مسنوداً إلى الجدار بلا اهتمام.

تنحنح مساعد الكاهن ثم قال: "القدّاس على وشك–"

غير أنّ الأسقف قاطعه من دون أن يرفع نظره عن الشاشة: "قم بالاستعدادات اللازمة ليحلّ الأب ديريدا مكاني .

غير أن المساعد راح يحدّق إليه حائراً. *يحلّ الأب ديريدا مكانه!* لم يكن من المألوف أن يشرف كاهن مبتدئ على قدّاس مساء السبت.

قال فالديسبينو بحدّة من دون أن ينظر إليه: "انصرف وأغلق الباب!".

خاف الشابّ من نبرة الأسقف، ونفّذ ما طُلِب منه فوراً، فرحل على الفور وأغلق الباب خلفه.

أسرع باتّجاه المكان الذي يصدح فيه صوت الأورغن وهو يتساءل عمّا استحوذ على اهتمام الأسقف إلى حدّ أنه شغله عن أداء واجباته الدينية.

في تلك اللحظة، كان الأميرال أفيلا يتسلّل بين الحشد المتزايد في قاعة متحف غوغنهايم، وقد حيّره أمر الزوّار الذين يدردشون مع سمّاعاتهم. يبدو أنّ الجولة الصوتية في المتحف عبارة عن محادثة بالاتّجاهين.

شعر بالسرور لأنّه تخلّص من جهازه.

لن يلهيني أي شيء الليلة.

نظر إلى ساعته ومن ثمّ إلى المصعد. وحين وجده مزدحماً بالضيوف المتوجّهين لمشاهدة الحدث الرئيس في الطابق العلوي، قرّر صعود السلّم. وفي طريقه، اجتاحه إحساس عارم بعدم التصديق؛ تماماً كما حدث في الليلة الماضية. *هل أصبحت حقّاً قادراً على القتل؟* لقد غيّرته النفوس المجرمة التي سلبته زوجته وطفله. ذكّر نفسه: *أفعالي مؤيّدة من سلطة عليا. ثمّة خير في ما أقوم به.*

وعندما وصل أفيلا إلى الطابق الأوّل، لفتت انتباهه امرأة تسير على منصّة علوية مجاورة. فقال وهو يرمق الجميلة الشهيرة، *أحدث السيدات شهرة في إسبانيا.*

كانت ترتدي ثوباً أبيض ضيّقاً مع شريط أسود منحرف امتدّ بأناقة على صدرها. كان الإعجاب بقامتها النحيلة، وشعرها الأسود الغزير، ومشيتها الرشيقة أمراً طبيعيّاً. ولاحظ أنّه لم يكن الوحيد الذي استقرّ نظره عليها.

فبالإضافة إلى نظرات الاستحسان التي تلقّتها من الزوّار الآخرين، استحوذت المرأة ذات الفستان الأبيض على اهتمام كلّي من قِبَل اثنين من رجال الأمن اللذين رافقاها عن كثب. تنقّل الرجلان بثقة الفهود، وقد ارتديا سترتين زرقاوين متشابهتين أكتافهما مطرّزة، وعليهما الحرفان GR.

لم يفاجأ أفيلا بوجودهما. ومع ذلك، تسارعت نبضاته لدى رؤيتهما. فبصفته عضواً سابقاً في القوّات المسلّحة الإسبانية، كان يعرف تماماً معنى الحرفين GR. لا بدّ أن يكون هذان المرافقان مسلّحَين ومدرّبَين تدريباً عالياً؛ شأنهما في ذلك شأن أيّ حارس شخصي على وجه الأرض.

فكّر أفيلا في سرّه: *إنّ وجودهما يُلزمني باتّخاذ أقصى درجات الحذر.*

علا صوت رجل خلفه مباشرة: "مرحباً!"

فاستدار أفيلا إلى الخلف، ورأى أمامه رجلاً سميناً يرتدي بذلة رسمية، ويعتمر قبّعة راعي بقر سوداء، فيما علت وجهه ابتسامة عريضة. قال مشيراً إلى زيّ أفيلا العسكري: "يا لها من بذلة رائعة! من أين يمكنني الحصول على واحدة مثلها؟".

حدّق إليه أفيلا وشدّ قبضتيه وفكّر في سرّه: *يتطلّب ذلك عمراً كاملاً من الخدمة والتضحية.* غير أنه أجاب وهو يهزّ كتفيه: "لا أجيد الإنكليزية". ثمّ تابع طريقه صعوداً.

في الطابق الثاني، وجد أفيلا رواقاً طويلاً، فتبع الإشارات للوصول إلى حمّام بعيد في الطرف الأقصى. وفيما كان على وشك الدخول، تلاشت أضواء المتحف ثمّ شعّت مجدّداً؛ وكان ذلك أوّل تذكير لطيف لحثّ الضيوف على البدء بالتوجّه إلى الطابق العلوي لحضور العرض.

دخل أفيلا الحمّام الخالي، واختار الحجرة الأخيرة، ثم أقفل الباب خلفه. وما إن أصبح بمفرده حتّى بدأت الأفكار السوداوية المألوفة محاولاتِها للصعود إلى السطح، مُهدِّدَة بسحبه مرّة أخرى إلى عمق الهاوية.

خمس سنوات، وما زالت الذكريات تطاردني.

طرد أفيلا الذكريات الفظيعة وأخرج المسبحة من جيبه، ثمّ علّقها بلطف على الخطّاف المخصّص للمعاطف على الباب. وبينما راحت المسبحة والصليب المعلّق بها يهتزان بسلام أمامه، أخذ يتأمّل ما صنعته يداه بإعجاب. قد يشعر المؤمن بالرعب من فكرة أن يقوم شخص ما بتدنيس مسبحة لفعل شيء كهذا. ومع ذلك، أكّد الوصيّ لأفيلا أنّ الأوقات العصيبة تحتمل قدراً من المرونة في قواعد الغفران.

وعده الوصيّ قائلاً: *عندما تكون القضية مبجّلة ومهمّة إلى هذا الحدّ، فإنّ غفران الله مضمون.*

وكما هو الحال مع حماية روحه، كان جسده أيضاً خلاصاً مضموناً من الشرّ. نظر إلى الوشم على راحة يده.



وقد وشمه أفيلا هناك منذ ثلاثة أيّام بواسطة إبرة، واستعمل حبر الحديد؛ بحسب التعليمات تماماً، والبقعة لا تزال حمراء ومؤلمة. وقد أكّد له الوصيّ أنّه في حال تمّ القبض عليه، فما عليه سوى رفع كفّه في وجوه أولئك العناصر، وسيتمّ إخلاء سبيله في غضون ساعات.

قال له الوصيّ: *نحن نحتلّ المراكز العليا في الحكومة.*

كان أفيلا قد شاهد مدى نفوذهم المذهل، وشعر كما لو أنّ مظلّة من الحماية تحيط به. *ما زال هناك مَن يحترمون الطرائق القديمة.* أمل أفيلا أن ينضمّ يوماً إلى صفوف هذه النخبة، ولكنّه شعر في الوقت الراهن بالامتنان لتأديته أيّ دور على الإطلاق.

في عزلة الحمّام، أخرج هاتفه وطلب الرقم الآمن الذي أُعطِي إيّاه.

أجاب الصوت من الرنّة الأولى: "ماذا؟".

فقال بانتظار التعليمات النهائية: "أنا في الموقع".

عندها قال الوصيّ: "لديك فرصة واحدة، ولا بدّ لك من اقتناصها".

الفصل 11

على بعد ثلاثين كيلومتراً من ساحل دبي الذي يعجّ بناطحات السحاب المضيئة، والجزر الصناعية، والفيلات التي تصدح بحفلات المشاهير، تقع مدينة الشارقة؛ العاصمة الثقافية الإسلامية المحافظة جدّاً لدولة الإمارات العربية المتّحدة.

فبوجود أكثر من ستمائة مسجد وأرقى الجامعات في المنطقة، تحتلّ الشارقة مركز الصدارة على صعيد الروحانية والتعلّم؛ وهو موقع تغذّيه احتياطات النفط الضخمة وحاكم يضع تعليم شعبه فوق كلّ شيء آخر.

الليلة، اجتمعت أسرة سيّد الفضل، علّامة الشارقة المحبوب، للصلاة من أجل عودة الوالد والعمّ والزوج الذي اختفى بغموض ليلة أمس من دون أن يترك خلفه أثراً.

كانت الصحف المحلية قد أعلنت للتوّ أنّ أحد زملاء العلّامة زعم أنّه بدا "مضطرباً على نحو غريب" لدى عودته من برلمان أديان العالم قبل يومين؛ وهو الذي لا يفقد سيطرته على نفسه عادة. وبالإضافة إلى ذلك، قال ذلك الزميل إنّه سمعه وهو يتجادل بحدّة مع شخص ما عبر الهاتف بعد وقت قصير من عودته. كان الجدال باللغة الإنكليزية، ولم يفقه منه شيئاً، ولكنّه أقسم إنّه سمع "سيّد" يذكر مراراً وتكراراً اسماً واحداً.

إدموند كيرش.

الفصل 12

راحت الأفكار تعصف في رأس لانغدون وهو يغادر الدوّامة. كان حديثه مع كيرش مثيراً للحماسة والقلق في آن واحد؛ فسواء أكانت مزاعم كيرش مبالغاً فيها أم لا، من الواضح أنّ عالِم الكمبيوتر قد اكتشف شيئاً يعتقد أنّه سيُحدِث نقلة نوعية في العالم.

اكتشاف لا يقلّ أهمّية عن اكتشاف كوبيرنيكوس!

عندما خرج لانغدون من الدوامة أخيراً، شعر بشيء من الدوار. رفع السمّاعة التي تركها على الأرض قبل قليل، ثمّ شغّل الجهاز قائلاً: "وينستون؟ مرحباً".

وبعد نقرة خافتة، عاد الدليل البريطاني الإلكتروني إلى الحياة وقال: "أهلاً بروفيسور. نعم، أنا هنا. طلب منّي السيّد كيرش اصطحابك عبر المصعد لأنّ الوقت قصير جدّاً للعودة إلى القاعة. وقد فكّر أيضاً أنّ مصعدنا الضخم سيعجبك.

"هذا لطف منه، فهو يعرف أنّني أعاني من رهاب الأماكن المغلقة".

"الآن، أصبحت أعاني منه أنا أيضاً، ولن أنسى ذلك".

قاد وينستون لانغدون عبر باب جانبي إلى ردهة من الإسمنت تضمّ مصعداً. وكما وعده، كان المصعد ضخماً، ومصمّماً على ما يبدو لنقل الأعمال الفنية الكبيرة.

عندما دخل لانغدون المصعد، قال له وينستون: "الزرّ العلوي، الطابق الثالث". ما إن وصلا إلى وجهتهما، حتّى خرج لانغدون من المصعد.

قال وينستون بصوته المرح: "حسناً، سنعبر الآن الصالة الواقعة إلى يسارك. فهذا الطريق يؤدّي مباشرة إلى قاعة المحاضرات".

تبع لانغدون تعليمات وينستون، وعبَر قاعة واسعة تعرض سلسلة من الأعمال الفنية الغريبة. رأى مدفعاً فولاذياً يُطلِق على ما يبدو كرات لاصقة من الشمع الأحمر على جدار أبيض، وزورقاً مصنوعاً من الشبك السلكي لا يمكنه أن يطفو بالطبع، ومدينة كاملة مصغّرة مصنوعة من الكتل المعدنية المصقولة.

وبينما كانا يعبران الصالة باتّجاه المخرج، راح لانغدون يحدّق إلى قطعة ضخمة هيمنت على المكان بحيرة بالغة.

وفكّر في سرّه: *لقد وجدت رسمياً أغرب قطعة في المتحف*.

كانت التحفة تمتدّ على عرض الغرفة بكاملها، وتتألّف من عدد كبير من الذئاب الخشبية ذات الوضعيات الديناميكية، والتي تجري في خطّ طويل عبر القاعة ثمّ تقفز في الهواء، قبل أن تصطدم بعنف بجدار زجاجي شفّاف، وتتكوّم ميتة على الأرض.

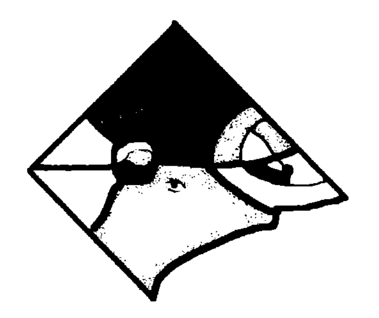
أخذ وينستون يشرح من تلقاء نفسه: "إنّها تسمّى *اصطدام مباشر* (Head On). تسعة وتسعون ذئباً تجري بشكل أعمى نحو الجدار؛ في إشارة إلى عقلية القطيع والافتقار إلى الشجاعة للخروج عن القاعدة".

شكّلت هذه الرمزية مفارقة لفتت انتباه لانغدون. *أعتقد أنّ إدموند سيخرج عن القاعدة هذا المساء على نحو دراماتيكي.*

قال وينستون: "والآن، إن تابعت طريقك مباشرة، فستجد مخرجاً إلى يسار تلك القطعة الملوّنة الشبيهة بالألماس. صاحبها من الفنّانين المفضّلين لدى إدموند".

رأى لانغدون اللوحة ذات الألوان الزاهية أمامه، وعرف على الفور العلامات المميّزة، والألوان الأساسيّة، والعين العائمة.

خوان ميرو، لطالما أحبّ لانغدون الأعمال المرحة للفنّان البرشلوني الشهير، ووجدها أشبه بمزيج من كتب تلوين الأطفال والنوافذ الزجاجية السريالية الملوّنة.



اقترب لانغدون من القطعة ووقف أمامها، ولكنّه جمد في مكانه عندما رأى السطح أملس جدّاً، ويخلو من ضربات الفرشاة المرئية. "أهي تقليد؟"

فأجاب وينستون: "كلّا، بل هي أصلية".

اقترب لانغدون أكثر. من الواضح أنّ العمل طُبِع بواسطة طابعة كبيرة. "وينستون، هذه طباعة، واللوحة ليست مرسومة على قماش .

أجاب وينستون: "أنا لا أعمل على القماش، بل أبتكر الفنّ افتراضياً، ثمّ يطبعه لي إدموند".

عندها، قال لانغدون غير مصدّق: "مهلاً، أهذا عملك؟".

"أجل، حاولت تقليد أسلوب خوان ميرو

قال لانغدون: "أرى ذلك. حتّى إنّك وقّعته باسم ميرو

قال وينستون: "كلّا، دقّق النظر جيّداً. لقد وقّعته باسم ميرو، ولكن بلا علامة التشديد. فبالإسبانية، هذه الكلمة تعني *أنا أنظر إلى*".

أقرّ لانغدون بذكاء تلك الفكرة وهو يرى العين الواحدة التي يتميّز بها أسلوب ميرو تنظر إلى الزائر من وسط تحفة وينستون.

"طلب منّي إدموند أن أرسم صورة ذاتية، وهذا ما خرجتُ به".

هذه صورتك الذاتية! نظر لانغدون إلى مجموعة الخطوط المتعرّجة مجدداً، لا بدّ *أنك كمبيوتر غريب الشكل*.

كان لانغدون قد قرأ مؤخّراً عن اهتمام إدموند المتنامي بتعليم أجهزة الكمبيوتر ابتكار فنّ حسابي، أي فنّ ناتج عن برامج كمبيوتر في غاية التعقيد. وقد طرح ذلك سؤالاً غير مريح: عندما يبتكر الكمبيوتر فنّاً، من يكون الفنّان، الكمبيوتر أم المبرمج؟ وفي معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، طرح معرض نُظّم مؤخّراً للفنون الحسابية المنجزة ببراعة عالية سؤالاً غريباً في مادّة العلوم الإنسانية في جامعة هارفرد: *هل الفنّ هو ما يجعلنا* بشراً؟

قال وينستون: "أنا أؤلّف الموسيقى أيضاً. عليك أن تطلب من إدموند أن يعزف لك شيئاً منها لاحقاً إن كنت تشعر بالفضول. لكن، عليك الآن أن تسرع، فالعرض على وشك أن يبدأ".

غادر لانغدون القاعة ووجد نفسه على منصّة عالية تشرف على القاعة الرئيسة وفي الجهة المقابلة من تلك القاعة المقبّبة، كان الأدلّاء يحثّون آخر الضيوف على مغادرة المصعد ويقودونهم باتّجاه لانغدون نحو باب في الأمام.

قال وينستون: "سيبدأ برنامج الليلة خلال دقائق معدودة، هل ترى مدخل قاعة العرض؟".

"أجل، إنّه أمامي".

"ممتاز. هناك شيء أخير. عندما تدخل، سترى عدداً من المستوعبات المخصصة للسمّاعات. غير أنّ إدموند طلب منّي إخبارك بألّا تعيد سمّاعتك، بل أن تحتفظ بها وهكذا، سأتمكّن بعد انتهاء البرنامج من مرافقتك إلى خارج المتحف عبر باب خلفي وستتجنّب بذلك الحشود وتضمن إيجاد سيّارة أجرة".

عادت إلى ذهن لانغدون سلسلة الأرقام والأحرف الغريبة التي دوّنها إدموند على البطاقة، وطلب منه إعطاءها للسائق. "وينستون، لم يكتب إدموند سوى BIO-EC346 وقال إنّه رمز بسيط للغاية".

أجاب وينستون على الفور: "هذا صحيح. والآن بروفيسور، البرنامج على وشك أن يبدأ. أتمنّى أن تستمتع بمحاضرة السيّد كيرش. وأنا بانتظار مساعدتك على الخروج في ما بعد".

سُمعت نقرة مفاجئة، ثمّ اختفى وينستون.

اقترب لانغدون من الباب، ثمّ نزع سمّاعته ووضع الجهاز الصغير في جيب سترته. بعد ذلك، أسرع عبر المدخل مع آخر الضيوف قبل أن يغلَق الباب وراءه.

وجد نفسه مجدداً في مكان غير متوقّع.

هل سنحضر العرض ونحن واقفون؟!

كان لانغدون قد تخيّل أنّ الحشد سيجتمع في قاعة جلوس مريحة للاستماع إلى إعلان إدموند. ولكن عوضاً عن ذلك، وقف مئات الضيوف في قاعة بيضاء ضيّقة لا تحتوي على أعمال فنية مرئية ولا على مقاعد، بل على مجرّد منصّة عند الجدار المقابل، تعلوها شاشة إل سي دي كبيرة ظهرت عليها الجملة التالية:

يبدأ البرنامج الحيّ بعد دقيقتين وسبع ثوانٍ

شعر لانغدون بالترقّب، وواصلت عيناه قراءة سطر آخر على الشاشة، واحتاج إلى قراءته مرّتين:

الحضور الحالي عن بعد: 1,953,694

مليونا شخص!!

كان كيرش قد أخبره أنّه سيبثّ إعلانه عبر الهواء مباشرة، لكنّ هذه الأرقام تفوق الخيال، والرقم يرتفع بسرعة مع كلّ ثانية.

عبرت ابتسامة خفيفة وجه لانغدون. لا شكّ في أنّ طالبه السابق قد حقّق نجاحاً كبيراً. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما الذي ينوي إدموند إعلانه للعالم؟

الفصل 13

تحت ضوء القمر في الصحراء، شرق دبي تماماً، انحرفت عربة مخصصة للسير على الكثبان الرملية من نوع ساند فايبر 1100 إلى أقصى اليسار وتوقّفت، مثيرة سحابة من الرمال أمام مصابيحها الأمامية.

خلع الشابّ المراهق الجالس خلف المقود نظّارته وحدّق إلى الشيء الذي أوشك أن يدوسه، ثمّ ترجّل من العربة خائفاً، واقترب من الشكل الداكن الغارق في الرمال.

كان تماماً كما بدا له.

فهناك، في ضوء مصابيح العربة، تمدّد جسد بشري على وجهه بلا حراك.

ناداه الشابّ: "مرحباً".

لكن، ما من مجيب.

عرف الشابّ أنّ الشخص الممدّد على الرمال رجل نظراً إلى ملابسه؛ وذلك لأنّه كان معتمراً شاشية ومرتدياً العباءة التقليدية الواسعة. كما بدا أنّه يتمتّع بجسد قويّ. كانت آثار قدميه قد تلاشت منذ مدّة طويلة؛ شأنها في ذلك شأن أيّ آثار للإطارات قد تشير إلى كيفيّة توغّله في الصحراء إلى هذا الحدّ.

كرّر الشابّ: "مرحباً".

ولكنّه لم يحصل على أيّ جواب.

لم يعرف ما الذي يجدر به فعله، فمدّ قدمه ووكز بها الرجل بلطف. ومع أنّ جسده كان ممتلئاً، إلّا أنّه بدا قاسياً ومشدوداً بعد أن جفّ أساساً بفعل الرياح والشمس.

لقد مات بالتأكيد.

انحنى الشابّ وأمسك بكتف الرجل ثمّ حمله على ظهره؛ فحدّقت عينا الرجل الخاليتان من الحياة إلى السماء. كان وجهه ولحيته مكسوّين بالرمال، ولكن على الرغم من ذلك، بدت ملامحه ودّية بشكل ما، لا بل مألوفة، كما لو كان عمّاً أو جدّاً محبوباً.

سمع صوت عدد من الدرّاجات الرباعية والعربات في الجوار مع عودة رفاق الشاب للتأكّد من أنّه لم يصب بأيّ مكروه. هدرت محرّكات عرباتهم وهي تسير فوق الكثيب قبل أن تنزلق على سفحه.

توقف الجميع ونزعوا نظّاراتهم وخوذاتهم، ثمّ تجمّعوا حول ذاك الاكتشاف المروّع للجثة الجافة. وسرعان ما راح أحد الصبية يتكلّم بحماسة بعد أن تعرّف على الرجل الميت على أنّه العلّامة الشهير سيّد الفضل، العالِم والزعيم الديني الذي يُلقي محاضرات في الجامعة من وقت إلى آخر.

سأل بصوت عالٍ: "ماذا نفعل!؟".

تحلّق الصبية في دائرة، وراحوا يحدّقون إلى الجثّة بصمت. وأخيراً، فعلوا ما يفعله المراهقون حول العالم؛ إذ أخرجوا هواتفهم، وبدأوا بالتقاط الصور لإرسالها إلى أصدقائهم.

وقف الضيوف جنباً إلى جنب حول المنصّة، وشاهد روبرت لانغدون بذهول الرقم على الشاشة يرتفع باطّراد.

الحضور الحالي عن بعد: 2,527,664

كانت ثرثرة الحضور في القاعة الضيّقة قد ارتفعت إلى همهمات واضحة فيما كان مئات الضيوف يهمسون بترقّب، بينما يُجري الكثيرون منهم مكالمات هاتفية حماسية في اللحظة الأخيرة أو يطلقون تغريدات عن مكان وجودهم.

صعد فنّي إلى المنصّة، وطرق على مكبّر الصوت. "سيّداتي سادتي، لقد رجوناكم في وقت سابق وطلبنا منكم إطفاء الهواتف المحمولة، والآن سنوقف كل اتصال بالواي فاي والاتصالات الخلوية طوال فترة هذا الحدث".

كان الكثير من الضيوف لا يزالون يستخدمون هواتفهم، غير أن الاتصال انقطع فجأة. بدا معظمهم مذهولين تماماً؛ كما لو أنّهم رأوا للتوّ تكنولوجيا سحرية من صنع كيرش قادرة على قطع كلّ اتّصال بالعالم الخارجي.

لا يكلّف الأمر سوى خمسمائة دولار في متجر للإلكترونيات. فقد كان لانغدون واحداً من أساتذة هارفرد الذين يستخدمون تكنولوجيا التشويش على الهاتف المحمول لجعل قاعات محاضراتهم "مناطق ميتة"، ولمنع طلّابهم من استخدام أجهزتهم الخلوية خلال المحاضرات.

أتى مصوّر ووقف في موقع مناسب حاملاً كاميرا ضخمة على كتفه، ووجّهها إلى المنصّة، ثمّ خفتت أضواء القاعة.

على الشاشة، ظهرت هاتان الجملتان:

يبدأ البرنامج الحيّ بعد ثمانٍ وثلاثين ثانية

الحضور الحالي عن بعد: 2,857,914

راقب لانغدون عدّاد الحضور بدهشة عارمة. فقد بدا أنّه يرتفع بسرعة أكبر من الدَّين الوطني الأميركي. وجد أنّه من المستحيل تقريباً أن يتخيّل أنّ ثلاثة ملايين شخص تقريباً يجلسون في منازلهم في هذه اللحظة لمشاهدة بثّ حيّ لما سيحدث في هذه القاعة.

أعلن الفنّي بهدوء عبر مكبّر الصوت: "ثلاثون ثانية".

في تلك اللحظة، فُتِح باب ضيّق في الجدار خلف المنصّة، فصمت الحضور على الفور، ونظروا جميعاً بترقّب إلى إدموند كيرش العظيم.

لكنّ إدموند لم يظهر.

بقي الباب مفتوحاً لمدة عشر ثوانٍ تقريباً.

وأخيراً، ظهرت امرأة أنيقة واقتربت من المنصّة. كانت رائعة الجمال، وممشوقة القوام، وذات شعر أسود طويل، ترتدي فستاناً أبيض ضيّقاً مع شريط أسود منحرف. بدت أنّها تسير على الأرض بلا جهد. وقفت في وسط المسرح، وعدّلت مكبّر الصوت، ثمّ أخذت نفساً عميقاً، ووجّهت للحضور ابتسامة صبورة وهي تنتظر أن يحين الوقت.

يبدأ البرنامج الحيّ خلال عشر ثوانٍ

أغمضت المرأة عينيها للحظة وكأنّها تستجمع نفسها، ثمّ فتحتهما مجدّداً وانتظرت.

رفع المصوّر خمس أصابع.

أربعة، ثلاثة، اثنان...

خيّم الصمت التامّ بينما نظرت المرأة إلى الكاميرا. وفي تلك اللحظة، نقلت الشاشة صورة حية لوجهها. نظرت إلى الحضور بعينيها السوداوين المليئتين بالحماسة وهي تبعد خصلة من شعرها عن خدّها الأسمر.

استهلّت كلامها قائلة بلكنة إسبانية خفيفة وبصوت مثقّف وجميل: "مساء الخير جميعاً. أنا أدعى أمبرا فيدال".

انفجرت القاعة بتصفيق عالٍ؛ الأمر الذي أثبت بوضوح أنّ عدداً كبيراً من الناس يعرفون من تكون.

صاح أحدهم: "تهانينا!".

فاحمرّ وجه المرأة، وشعر لانغدون أنّ بعض المعلومات قد فاتته.

قالت بسرعة: "حضرات السيدات والسادة، على مدى السنوات الخمس الماضية كنت مديرة متحف غوغنهايم بيلباو، وأنا هنا الليلة لأرحّب بكم في أمسية خاصّة يقدّمها رجل استثنائي.

صفّق الحشد بحماسة، وشاركهم لانغدون التصفيق.

"لا يُعدّ إدموند كيرش راعياً سخياً لهذا المتحف فحسب، بل أصبح أيضاً صديقاً موثوقاً. ومن دواعي سروري، كما أنّه شرف شخصي لي، أنّني عملت معه عن كثب خلال الأشهر القليلة الماضية للتخطيط لحدث هذه الليلة. لقد تحقّقت للتوّ من أنّ وسائل الإعلام الاجتماعية مشغولة بالحدث! وكما سمع الكثيرون منكم بلا شكّ، ينوي إدموند كيرش الإعلان عن اكتشاف علمي كبير هذه الليلة، ويعتقد أنّ العالم سيذكر مساهمته هذه إلى الأبد".

سرت همهمة مليئة بالحماسة عبر القاعة.

فيما ابتسمت المرأة ذات الشعر الأسود مضيفة: "بالطبع، توسّلت إلى إدموند ليخبرني بما اكتشفه، ولكنّه رفض حتى مجرّد التلميح إليه".

أعقبت كلامها موجة من الضحك والمزيد من التصفيق.

"سيتمّ عرض حدث هذه الليلة المميّز باللغة الإنكليزية؛ لغة السيّد كيرش الأمّ، مع أنّ من يحضرون منكم عن بعد سيحظون بترجمة فورية إلى أكثر من عشرين لغة".

أضافت أمبرا: "وإن ساورتكم أيّ شكوك بشأن ثقة إدموند بنفسه، إليكم البيان الصحفي الذي أُعطِي قبل خمس عشرة دقيقة إلى وسائل الإعلام حول العالم".

رمق لانغدون الشاشة.

اللّيلة: بثّ حيّ. الساعة 20:00 بتوقيت وسط أوروبا الصيفي
سيعلِن العالِم المستقبلي إدموند كيرش عن اكتشاف
من شأنه أن يغيّر وجه العلم إلى الأبد.

فكّر لانغدون سرّه: *هكذا إذاً يحصل المرء على ثلاثة ملايين مشاهد في غضون دقائق.*

ثمّ حوّل انتباهه إلى المنصّة، ورأى شخصين لم يلاحظ وجودهما سابقاً، حارسَين بملامح جامدة كالصخر يقفان بكلّ تأهّب قرب الجدار الجانبي، ويراقبان الحشد. فوجئ لانغدون لدى رؤيته الحرفين الأوّلين على سترتيهما الزرقاوين.

الحرس الملكي؟! ما الذي يفعله الحرس الملكي هنا الليلة؟

بدا من غير المحتمل حضور أحد أفراد الأسرة المالكة هذا الحدث. فبصفتهم كاثوليك محافظين، لا شكّ في أنّهم يتجنّبون الاجتماعات العامة مع ملحد مثل إدموند كيرش.

ومع أنّ ملك إسبانيا يتمتّع بسلطة رسمية محدودة جدّاً– لكونه ملكاً برلمانياً– إلّا أنّه يحتفظ بنفوذ هائل على قلوب أبناء شعبه وعقولهم. فبالنسبة إلى ملايين الإسبان، ما

ما زال التاج يشكّل رمزاً للتقاليد الكاثوليكية الغنية للملوك الكاثوليك ولعهد إسبانيا الذهبي.

ولا يزال القصر الملكي في مدريد يُعتبر بوصلة روحية ونصباً تذكارياً يشهد على تاريخ طويل من المعتقدات الدينية الراسخة. كان لانغدون قد سمع هذه الجملة في إسبانيا: البرلمان يقرّر، لكنّ الملك يحكم". فخلال قرون من الزمن، كان جميع الملوك الذين ترأسوا الشؤون الدبلوماسية للبلاد كاثوليكاً محافظين ومتديّنين جدّاً. *والملك الحالي ليس* إستثناء، هذا ما توصّل إليه لانغدون بعد أن قرأ عن قناعات الرجل الدينية العميقة وقيمه المحافظة.

في الأشهر الأخيرة، قيل إنّ الملك المسنّ طريح الفراش ويصارع الموت، وإنّ البلد يستعد لإنتقال السلطة إلى ابنه الوحيد، جوليان. وبحسب الصحف، كان الأمير جوليان غامضا إلى حدّ ما؛ بعد أن عاش بهدوء في ظلّ أبيه طويلاً. وسكّان البلد يتساءلون الآن عن نوع الملوك الذي سيكون عليه.

هل أرسل الأمير جوليان حرّاساً ملكيين لاستكشاف ما يجري في الحدث الذي نظمه إدموند؟

تذكر لانغدون مجدّداً رسالة التهديد الصوتية التي أرسلها الأسقف فالديسبينو. فعلى الرغم من مخاوف لانغدون، شعر أنّ الأجواء ودّية وحماسية ويسودها الأمان. وتذكر ما قاله إدموند عن أنّ التدابير الأمنية لهذه الليلة مشدّدة جدّاً. لذا، ربّما كان الحرس الملكي تدبير حماية إضافياً لضمان سير الأمسية على ما يرام.

تابعت أمبرا فيدال كلامها: "لمن يعرفون منكم مدى شغف إدموند بالدراما، أنتم تعلمون بلا شكّ أنّه ليس شخصاً يخطّط لجعلنا نقف في هذه الغرفة المعقّمة طويلا.

وأشارت إلى باب مغلق في الجهة المقابلة.

خلف هذا الباب، أقام إدموند كيرش فضاءً تجريبياً لتقديم محاضرة ديناميّة ومتعددة الوسائط هذه الليلة. وهي مجهّزة بأجهزة الكمبيوتر، وسيُبَثّ العرض مباشرة حول العالم. و صمتت قليلاً للنظر إلى ساعتها الذهبية، ثم تابعت: "تمّ توقيت حدث الليلة بعناية، وقد طلب مني إدموند إدخالكم جميعاً لكي نبدأ عند الساعة الثامنة والربع تماماً؛ أي بعد دقائق فقط". وأشارت إلى الباب المزدوج. "لذا، من فضلكم أيّها السيدات والسادة، ادخلوا رجاء لنرى ما يخبّئه لنا إدموند كيرش المذهل".

وفي تلك اللحظة فُتح الباب.

فاسترق لانغدون نظرة إلى الداخل متوقّعاً رؤية صالة عرض أخرى. غير أنه عوضا عن ذلك، دُهش تماماً بما رآه. فخلف الباب، ظهر نفق طويل مظلم.

وقف الأميرال أفيلا في الخلف، بينما بدأ حشد الزوّار يتدافع بحماسة نحو الممرّ ذي الإضاءة الخافتة. نظر إلى النفق، وسُرّ عندما رآه غارقاً في الظلام.

من شأن الظلام أن يجعل مهمّته أسهل بكثير.

لمس المسبحة في جيبه واستجمع أفكاره، ثمّ راجع التعليمات التي تلقّاها للتوّ بشأن مهمّته.

سيكون التوقيت حاسماً.

الفصل 15

كان النفق المصمّم من القماش الأسود المعلّق على أقواس داعمة يمتدّ بعرض نحو عشرين قدماً، ويرتفع قليلاً متّجهاً إلى اليسار. وكان مكسوّاً بسجّادة سوداء سميكة، بينما انبعثت الإضاءة الوحيدة من شريطين من المصابيح ممتدّين على طول قاعدة الجدران.

همس دليل للوافدين الجدد: "الأحذية من فضلكم. الرجاء خلع الأحذية وحملها معكم".

خلع لانغدون حذاءه الجلدي، فغرقت قدماه المكسوّتان بالجوربين في السجّادة الناعمة. شعر تلقائيّاً بأنّ جسده يسترخي، وسرعان ما علت حوله تنهيدات الارتياح.

وبينما كان يمشي عبر الممرّ، رأى نهايته أخيراً، وكانت عبارة عن حاجز من ستارة سوداء يقف عندها أدلّاء يستقبلون الضيوف ويسلّمون كلّاً منهم ما بدا كما لو أنّه منشفة بحر سميكة، وذلك قبل اصطحابهم عبر الستارة.

داخل النفق، تلاشت همهمات الترقّب، وحلّ محلّها صمت تردّد. وحين وصل لانغدون إلى الستارة، ناوله دليل قطعة قماش مطوية، فأدرك أنّها ليست منشفة بحر بل بالأحرى بطّانية سميكة يتّصل أحد أطرافها بوسادة. شكر لانغدون الدليل، ثمّ عبر من خلال الستارة.

للمرّة الثانية هذه الليلة، أُجبر على التوقّف. فمع أنّه لم يكن يعرف ما ينتظره خلف الستارة، إلّا أنّه لم يتخيّل بكلّ تأكيد شيئاً من هذا القبيل.

هل نحن... في الهواء الطلق؟

كان لانغدون يقف على أطراف حقل واسع. فوقه، امتدّت سماء مرصّعة بالنجوم، وفي البعيد، توهّج هلال نحيل وهو يرتفع من خلف شجرة قيقب وحيدة. ملأت صراصير الليل الفضاء بأناشيدها، بينما داعب نسيم دافئ وجهه، وكان عابقاً برائحة العشب المجزوز حديثاً تحت قدميه المكسوّتين بالجوربين.

همس الدليل: "سيّدي"، ثمّ أمسك بذراعه وقاده إلى الحقل مضيفاً: "أرجو أن تجد مكاناً هنا على العشب تمدّ عليه بطّانيتك وتستمتع بالجلوس".

مشى لانغدون في الحقل مع بقيّة الضيوف الذين كانوا لا يقلّون عنه دهشة، وكان معظمهم يختارون بقعاً على العشب لمدّ بطّانياتهم. كانت المساحة العشبية المشذّبة

تعادل مساحة حلبة هوكي تحيط بها الأشجار والأعشاب الطويلة التي راحت تصدر حفيفاً بفعل النسيم.

استغرق لانغدون بضع دقائق ليدرك أنّ كلّ هذا كان وهماً؛ إنه مجرّد عمل فنّي هائل.

فكّر في سرّه: *أنا داخل قبّة سماوية دقيقة الصنع.* وتعجّب من شدّة الاهتمام بالتفاصيل.

كانت السماء المليئة بالنجوم في الأعلى إسقاطاً، بما في ذلك القمر، والسحب، والتلال البعيدة. أمّا الأشجار والأعشاب التي تصدر حفيفاً فكانت موجودة بالفعل؛ وهي إمّا مزيّفة بإتقان أو غابة صغيرة من النباتات الحية في أماكن مخفيّة. وهذا الشريط غير الواضح من الأعشاب يخفي بذكاء الأطراف الصلبة لهذه الغرفة الهائلة، ويمنح الآخرين الانطباع بأنّهم في بيئة طبيعية.

جلس لانغدون القرفصاء ولمس العشب، فوجده طرياً كالعشب الحي، ولكنّه جافّ تماماً. وكان قد قرأ عن أعشاب اصطناعية جديدة تخدع حتّى الرياضيين المحترفين، غير أنّ كيرش ذهب خطوة أبعد من ذلك وابتكر أرضاً غير مستوية بعض الشيء، مع منخفضات ومرتفعات صغيرة؛ تماماً مثل مرج حقيقي.

تذكّر المرّة الأولى التي خدعته فيها حواسه. كان طفلاً في قارب صغيرة يُبحر في ميناء تحت ضوء القمر، وكانت ثمّة سفينة قراصنة تشارك في معركة حامية بالمدافع. لم يتقبّل عقل لانغدون اليافع أنّه لم يكن في ميناء على الإطلاق، بل في مسرح تحت الأرض غُمر بالماء للإيحاء بهذا الوهم ضمن رحلة قراصنة الكاريبي في عالم ديزني.

هذه الليلة، كان التأثير واقعياً على نحو مذهل. وبينما كان الضيوف يستوعبون تلك الحقيقة، رأى لانغدون الدهشة والفرح نفسيهما على وجوههم. كان لا بدّ له من الاعتراف ليس بنجاح إدموند في ابتكار هذا الوهم المذهل فقط، وإنما بتمكّنه من إقناع مئات الراشدين بخلع أحذيتهم الأنيقة والاستلقاء على العشب وتأمّل السماء.

كنّا نفعل ذلك في صغرنا، ولكن في مرحلة ما من حياتنا، توقّفنا عن ذلك.

استلقى لانغدون ووضع رأسه على الوسادة، ثمّ ترك جسده يذوب في العشب الطريّ.

فوق رأسه لمعت النجوم، وللحظة شعر أنّه عاد مراهقاً ممدّداً على العشب الأخضر في ملعب الغولف في بالد بيك في منتصف الليل مع صديقه المفضل، وهما يتفكّران في أسرار الحياة. *مع شيء من الحظّ، قد يكشف لنا إدموند كيرش بعضاً من هذه الأسرار الليلة.*

في الجزء الخلفي من المسرح، استطلع الأميرال لويس أفيلا الغرفة للمرّة الأخيرة، ثمّ تراجع بصمت إلى الخلف، وعبَر خلسة الستارة نفسها التي دخل منها للتوّ. وعندما أصبح بمفرده في النفق، مرّر يده على جدران النسيج إلى أن عثر على شقّ. وبهدوء قدر الإمكان، فتح الشقّ الذي تمّ إغلاقه بشريط فيلكرو، ثمّ عبر من خلاله وأعاد إغلاق الفتحة خلفه.

وعلى الفور، تبخّرت كلّ الأوهام.

إذ لم يعد أفيلا واقفاً في مرج. بل أصبح الآن في غرفة مستطيلة هائلة تعلوها فقاعة كبيرة بيضاوية الشكل. *غرفة داخل غرفة*. كان البناء الموجود أمامه، والذي يشبه مسرحاً مقبّباً، محاطاً بهيكل خارجي شاهق من السقالات التي تدعم شبكة من الكابلات والمصابيح ومكبّرات الصوت. وكان ثمّة مجموعة متلألئة من أجهزة عرض الفيديو التي تتوهّج معاً وهي موجّهة إلى الداخل، وتلقي أشعّة عريضة من الضوء نحو الأسفل، على سطح القبّة الشفّاف، وتولّد في الداخل وهماً بوجود سماء مضاءة بالنجوم وتلال بعيدة.

أُعجِب أفيلا بشغف كيرش بالدراما؛ مع أنّ العالِم المستقبلي ما كان ليتخيّل كم ستصبح هذه الليلة دراماتيكية قريباً.

تذكّر ما يوجد على المحكّ. أنت جندي في حرب نبيلة. أنت جزء من كلّ أكبر.

كان أفيلا قد تدرّب على هذه المهمّة في عقله مرّات عديدة. مدّ يده إلى جيبه وأخرج مسبحة الخرز الكبيرة. وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت رجل ذي نبرة جهورية من مجموعة مكبّرات الصوت المثبّتة فوق رأسه داخل القبّة.

"مساء الخير يا أصدقائي، أنا أدعى إدموند كيرش".

الفصل 16

في بودابست، أخذ الحاخام كوفيس يذرع غرفة مكتبه ذات الإضاءة الخافتة بعصبية. حمل جهاز التحكّم عن بعد، وراح يقلّب قنوات التلفاز بنفاد صبر وهو ينتظر المزيد من الأخبار من الأسقف فالديسبينو.

على الشاشة، قطعت عدّة قنوات برامجها المعتادة خلال الدقائق العشر الفائتة لتنقل بثّاً حيّاً من متحف غوغنهايم. كان المعلّقون يناقشون إنجازات كيرش، ويطلقون التخمينات حول إعلانه الوشيك الغامض. وتقلّصت عضلات كوفيس عند ملاحظته مستوى الاهتمام المتعاظم.

لقد سبق لي أن رأيت هذا الإعلان.

قبل ثلاثة أيّام، على قمّة جبل مونسيرات، عرض إدموند كيرش على كوفيس والفضل وفالديسبينو ما زعم أنّه ملخّص. والآن، توقّع كوفيس أن يكون العالم على وشك مشاهدة البرنامج نفسه.

قال لنفسه بحزن: *هذه الليلة، لن يبقى شيء على حاله.*

في تلك اللحظة، رنّ الهاتف وأخرج كوفيس من تأمّلاته، فتناول السمّاعة.

بدأ فالديسبينو حديثه بلا مقدّمات: "يهودا، أخشى أنّ لديّ المزيد من الأخبار السيّئة". وبصوت كئيب، قرأ عليه تقريراً غريباً ورده للتوّ من الإمارات العربية المتّحدة.

وضع كوفيس يده على فمه برعب وقال: "العلّامة الفضل... انتحر!".

"هذا بحسب توقعات السلطات. فقد عُثِر عليه منذ مدّة قصيرة في عمق الصحراء... كما لو أنّه ذهب إلى هناك بقدميه ليموت". وصمت فالديسبينو قليلاً قبل أن يُضيف: "جلّ ما أستطيع التفكير فيه هو أنّ ضغوط الأيّام القليلة الماضية كانت أكبر ممّا استطاع أن يتحمّل".

فكّر كوفيس بذلك الاحتمال، واجتاحته موجة من الحسرة والحيرة. فقد كان هو أيضاً يعاني من جراء اكتشاف كيرش، لكنّ فكرة أن يُقدِم العلّامة الفضل على وضع حدّ لحياته بسبب شدّة اليأس بدت له بعيدة الاحتمال تماماً.

قال كوفيس: "ثمّة خطب ما هنا. لا أصدّق أنّه أقدم على فعل شيء كهذا".

خيّم الصمت على الطرف الآخر طويلاً. وأخيراً، وافقه فالديسبينو الرأي قائلاً: "يسرّني أن تقول ذلك. فأنا أقرّ أنّني لم أقبل فكرة انتحاره بسهولة".

"إذاً... من قد يكون المسؤول؟".

أجاب الأسقف بسرعة: "أيّ شخص أراد أن يبقى اكتشاف إدموند كيرش طيّ الكتمان. لا بد أنه شخص مثلنا يظنّ أنّ أسابيع ما زالت تفصلنا عن هذا الإعلان".

فردّ عليه كوفيس: "لكنّ كيرش أكّد لنا أنّ لا أحد غيرنا يعرف بأمر هذا الاكتشاف! لا أحد سوانا أنا وأنت والعلّامة الفضل".

"ربّما كذب بشأن ذلك أيضاً. لكن، حتّى لو كنّا نحن الثلاثة فقط الذين نعرف بما أخبرنا إياه، تذكّر كم كان سيّد الفضل راغباً في إطلاع العالم على هذا الخبر. من الممكن أن يكون العلّامة قد أطلع أحد زملائه في الإمارات على اكتشاف كيرش، وربّما اعتقد ذلك الزميل- شأني أنا- أنّه ستكون له تداعيات خطيرة".

فسأله الحاخام غاضباً: "ما الذي يعنيه ذلك؟! أتعني أنّ أحد زملاء الفضل قد قتله ليسكته؟! هذا كلام سخيف!".

فأجاب الأسقف بهدوء: "حضرة الحاخام، أنا لا أعرف حتماً ما جرى، بل أحاول أن أتوقّع ما حصل وحسب؛ مثلك تماماً".

فتنهّد كوفيس قائلاً: "أنا آسف، ما زلت أحاول استيعاب خبر موت سيّد".

"وأنا أيضاً. ولكن، إن كان سيّد قد قُتِل بسبب ما يعرفه، فعلينا أن نكون حذرَين. فمن المحتمل أن نُستهدَف أنا وأنت أيضاً".

فكّر كوفيس بذلك ثم قال: "ما إن يخرج النبأ إلى العلن حتى لن تعود لنا أيّ أهمّية".

"هذا صحيح، ولكنّه لم يخرج إلى العلن بعد".

"نيافة الأسقف، لا تفصلنا عن الإعلان سوى دقائق، وجميع المحطّات تنقله".

عندها، تنهّد فالديسبينو متعباً وقال: "بالفعل... يبدو أنّه عليّ أن أقبل فكرة أنّ دعواتي لم يُستجَب لها".

فتساءل كوفيس عمّا إذا كان الأسقف قد دعا الله تحديداً ليُغيّر رأي كيرش.

قال فالديسبينو: "حتّى لو خرج هذا النبأ إلى العلن، فلن نكون بأمان. فأنا أخشى أن يستمتع كيرش بإخبار العالم أنّه استشار زعماء دينيين قبل ثلاثة أيّام، وأتساءل الآن عمّا إذا كان مظهر الشفافية الأخلاقية دافعه الحقيقي الكامن وراء دعوتنا إلى الاجتماع. أمّا إن ذكرنا بالاسم، فسنصبح أنا وأنت محور الأسئلة، وربّما حتّى محور الانتقاد من رعيّتنا نفسها التي سترى أنّه كان يجدر بنا أن نتّخذ إجراءات ما. أنا آسف، أنا... وتردّد الأسقف كما لو أنّه يرغب في قول المزيد.

فحثّه كوفيس قائلاً: "ما الأمر؟".

"يمكننا مناقشة ذلك لاحقاً. سأتّصل بك مجدّداً بعد أن نرى كيف سيتعامل كيرش مع إعلانه. وحتّى ذلك الحين، ابقَ في الداخل من فضلك، وأقفل على نفسك الأبواب، ولا تكلّم أحداً، وانتبه إلى نفسك".

"أنت تقلقني يا أنطونيو".

فأجاب فالديسبينو: "أنا لا أقصد ذلك، ولكن ليس بيدنا حيلة سوى الانتظار لرؤية كيفية تفاعل العالم مع الخبر. لقد خرجت هذه المسألة الآن من بين أيدينا".

الفصل 17

وحده النسيم ظلّ يخرق سكون الحقل داخل متحف غوغنهايم بعد أن تناهى صوت إدموند كيرش إلى مسامع الجميع كما لو أنه صادر من السماء. كان مئات الزوّار ممدّدين على البطّانيات، وهم يحدّقون إلى النجوم. استلقى لانغدون على بطّانيته في وسط الحقل تقريباً، وقد سيطر عليه إحساس متنامٍ بالترقّب.

فيما تابع صوت كيرش: "الليلة، دعونا نرجع أطفالاً من جديد. فلنستلقِ تحت النجوم، ولنفتح عقولنا على جميع الاحتمالات".

شعر لانغدون بتعاظم حماسة الحضور.

"الليلة، لنكن مثل المستكشفين الأوائل الذين تركوا كلّ شيء وراءهم وأبحروا في المحيطات الشاسعة... الذين ألقوا أوّل نظرة على أرض لم يرها أحد من قبل... الذين ركعوا وهم يدركون بذهول أنّ العالم أكبر بكثير ممّا تخيّلته فلسفاتهم، والذين انهارت معتقداتهم القديمة بشأن العالم أمام الاكتشاف الجديد. هكذا ستكون حالتنا الذهنية هذه الليلة".

كم هذا مثير للإعجاب! هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يتساءل بفضول عمّا إذا كان حديث إدموند مسجّلاً مسبقاً، أم تراه يقرأ نصّاً من خلف الكواليس بشكل مباشر.

تردّد صوت إدموند فوقهم: "يا أصدقائي، لقد اجتمعنا هنا الليلة لسماع خبر اكتشاف مهمّ. وأطلب منكم أن تسمحوا لي بتهيئة المسرح لذلك. فالليلة، كما هو الحال مع جميع التحوّلات في الفلسفة البشرية، من الأهمّية بمكان أن نفهم السياق التاريخي لولادة لحظة كهذه".

دوّى الرعد من بعيد؛ في اللحظة المناسبة تماماً. وشعر لانغدون بالصوت العميق وهو يهدر عبر مكبّرات الصوت.

"لحسن حظّنا، ولمساعدتنا في التأقلم هذه الليلة، انضمّ إلينا عالِم مشهور، أسطورة في عالم الرموز والتاريخ والدين والفنّ، وهو أيضاً صديق عزيز. سيداتي سادتي، يسرّني الترحيب بأستاذ جامعة هارفرد، روبرت لانغدون".

عندها، نهض لانغدون على مرفقيه، بينما أخذ الحشد يصفّق بحماسة. وفي تلك اللحظة أيضاً، تحوّلت النجوم فوق رؤوسهم إلى لقطة من زاوية عريضة لقاعة

محاضرات كبيرة مزدحمة بالناس. على المسرح، راح لانغدون يروح ويجيء بسترة هاريس تويد أمام جمهوره السابح في عالم آخر.

فكّر لانغدون في سرّه وهو يستلقي على العشب مجدداً: *إذاً، هذا هو الدور الذي نكره إدموند.*

راح لانغدون يُحاضر على الشاشة: "كانت علاقة البشر الأوائل مع الكون علاقة تعجّب، لا سيّما في ما يتعلّق بتلك الظواهر التي لم يتمكّنوا من فهمها عقلانياً. ومن أجل حلّ تلك الأسرار، أنشأوا عدداً هائلاً من الآلهة لتفسير كلّ ما يتجاوز قدرتهم على فهم تلك الظواهر؛ كالرعد والمدّ والزلازل والبراكين والعقم والأوبئة وحتّى الحبّ".

فكّر لانغدون في سرّه وهو مستلقٍ على ظهره محدّقاً إلى الشاشة: *هذا سريالي.*

"فالإغريق الأوائل مثلاً عزوا سبب المدّ والجزر إلى تبدّل مزاج بوسيدون". وعلى السقف، تلاشت صورة لانغدون، غير أنه استمرّ بالكلام.

ظهرت صور محيط تتلاطم أمواجه، وراحت تهزّ الغرفة بأكملها. وشاهد لانغدون بتعجّب الأمواج المتلاطمة وهي تتحوّل إلى تندرا جرداء تكسوها الثلوج. ومن مكان ما، هبّت رياح باردة عبر المرج.

تابع لانغدون كلامه قائلاً: "أمّا تغيّر المواسم من الصيف إلى الشتاء فكان نتيجة لحزن الكوكب على اختطاف بيرسيفوني سنوياً إلى العالم السفلي".

عاد الهواء ليصبح دافئاً من جديد. ومن المشهد الجليدي، ارتفع جبل، وأخذ يعلو إلى أن انفجرت قمّته بالشرر والدخان والحمم البركانية.

"بالنسبة إلى الرومان، كانت البراكين موطن فولكان، حدّاد الآلهة، الذي يعمل في كور هائل تحت الجبل، ويتسبّب بتطاير النيران من مدخنته".

اشتمّ لانغدون رائحة كبريت عابرة، ودهش من براعة إدموند في تحويل محاضرته إلى تجربة متعدّدة الحواس.

توقّف هدير البركان فجأة. ومع حلول الصمت، عادت صراصير الليل تنشد مجدّداً، وهبّ نسيم دافئ وعطر عبر المرج.

قال لانغدون: "لقد ابتكر العلماء عدداً لا يُحصى من الآلهة؛ ليس لتفسير أسرار كوكبهم فحسب، بل وأسرار أجسادهم أيضاً".

عادت كوكبة النجوم اللامعة إلى الظهور فوق رؤوسهم، تصل بينها خطوط ترسم مختلف الآلهة التي تمثّلها.

"فالعقم ناتج عن غضب جونو. والحبّ يولد عند استهداف إيروس للبشر. أمّا الأوبئة فهي عقاب يرسله أبولو".

أضاءت كوكبات جديدة الآن مع صور آلهة أخرى.

"إن قرأتم كتبي، فلا بدّ أنكم وقعتم على عبارة *إله الثغرات*. وهي تعني أنّه كلّما واجه القدماء ثغرة في فهم العالم الذي يحيط بهم، كانوا يملأون تلك الثغرات بالآلهة".

امتلأت السماء الآن بمجموعة كبيرة من اللوحات والتماثيل التي تصوّر عشرات الآلهة القديمة.

قال لانغدون: "ملأت أعداد لا تحصى من الآلهة أعداداً لا حصر لها من الثغرات. ومع ذلك، وعلى مرّ القرون، توسّعت المعرفة العلمية". اجتاح مزيج من الرموز الرياضية والتقنية صفحة السماء فوقهم. "ومع اختفاء الثغرات في فهمنا للعالم الطبيعي تدريجياً، بدأت مجموعتنا من الآلهة تتقلّص".

وعلى السقف، احتلّت صورة بوسيدون مقدّمة الشاشة.

"مثلاً، عندما عرفنا أنّ المدّ والجزر ناجمان عن دورات القمر، لم تعد لبوسيدون ضرورة، واستبعدناه على اعتبار أنّه أسطورة سخيفة من زمن غير مستنير

وهنا تبخّرت صورة بوسيدون في نفخة دخان.

"وكما تعلمون، حلّ المصير نفسه بجميع الآلهة، وراحت تختفي الواحد تلو الآخر بعد أن تجاوزها تطوّر عقولنا".

وفوق رؤوسهم، أخذت صور الآلهة تنطفئ واحداً تلو الآخر؛ آلهة الرعد، والزلازل، والأوبئة، وهلم جرّاً...

ومع تضاؤل عدد الصور، أضاف لانغدون: "لكن، لا تنخدعوا بذلك. فهذه الآلهة لم تخلد إلى النوم بطواعية، بل خاضت الثقافة عمليّة فوضوية وهي تتخلّى عن آلهتها. وذلك لأنّ المعتقدات الروحية تكون محفورة في نفوسنا بعمق منذ سنّ مبكرة، من قِبل أكثر من نحبّه ونثق به، وأعني بذلك آباءنا ومعلّمينا وزعماء الدين. وبالتالي، إنّ أيّ تحوّلات دينية تحدث على مدى أجيال، وهي لا تخلو من الاضطرابات الكبيرة وإراقة الدماء في أحيان كثيرة".

وهكذا، أخذ صليل السيوف والصراخ يرافقان الاختفاء التدريجي لصور الآلهة التي انطفأت الواحدة تلو الأخرى. وأخيراً، بقيت صورة إله واحد، ذي وجه مسنّ أيقوني ولحية بيضاء غزيرة.

وأعلن لانغدون بصوت جهوري: "زيوس... إله الآلهة. أكثر من يبعث على الخوف والتبجيل من بين الآلهة الوثنية كافة. قاوم زيوس- أكثر من أيّ إله آخر- انطفاءه، وشنّ معركة عنيفة للحفاظ على بقائه؛ تماماً كما فعلت الآلهة السابقة التي حلّ محلّها".

وعلى السقف، تعاقبت صور ستونهانج، والألواح المسمارية السومرية، وأهرامات مصر الكبرى. ثمّ عاد تمثال زيوس.

"قاوم أتباع زيوس فكرة التخلّي عن إلههم؛ إلى حدّ أنّ الديانة المسيحية لم تجد خياراً أمامها سوى تبنّي وجه زيوس كوجه لإلهها الجديد".

وعلى السقف، تلاشى تمثال زيوس الملتحي بسلاسة ليتحوّل إلى جدارية لوجه ملتحٍ مشابه، وجه الإله في المسيحية كما صوّره مايكل أنجلو في لوحة خلق آدم على سقف الكنيسة السيستينية.

"اليوم، لم نعد نُصدّق تلك القصص التي تحكي عن زيوس؛ الصبيّ الذي قامت بتربيته معزاة، والذي مُنِح القوّة من مخلوقات ذات عين واحدة تسمّى سيكلوبات. فبالنسبة إلينا، وبفضل الفكر الحديث، صُنِّفت هذه الحكايات كأساطير، أي قصص خيالية غريبة تعطينا لمحة مسلّية عن ماضينا الذي كان يصدّق الخرافات".

أظهر السقف الآن صورة رفّ في مكتبة مكسوّة بالغبار، تكدّست فيه مجلّدات حول الأساطير القديمة في الظلام، إلى جانب كتب عن عبادة الطبيعة، بعل، وإنانا، وأوزيريس، وعدد لا يحصى من الآلهة الأولى.

وأعلن صوت لانغدون العميق: "لقد اختلفت الأمور الآن! فنحن نعيش في العصر الحديث".

وفي السماء، ظهرت صور جديدة، واضحة ومتألّقة. صور لاستكشاف الفضاء... ولشرائح كمبيوتر... ومختبر طبي... ومسرّع جسيمات... وطائرات حديثة.

"نحن أشخاص متطوّرون فكرياً، كما نتمتّع بمهارات تكنولوجية عالية جدّاً. ونحن لا نصدّق وجود الحدّاد العملاق الذي يعمل تحت البراكين، أو الآلهة التي تتحكّم بالمدّ والجزر أو الفصول. نحن لا نشبه أسلافنا في شيء".

أم ترانا نشبههم؟ همس لانغدون بذلك بصوت منخفض وهو يتابع المحاضرة.

علا صوت لانغدون: "أم تُرانا نشبههم؟ نحن نعتبر أنفسنا أشخاصاً عقلانيين حديثين، في حين أنّ ديانتنا الأكثر انتشاراً تشتمل على مجموعة كاملة من المزاعم العجيبة".

وبينما كان لانغدون يتحدّث، ظهرت على السقف صور مسيحية معروفة للقيامة، ومريم العذراء، وسفينة نوح، وانشقاق البحر.

قال لانغدون: "لذا، دعونا نتخيّل للحظة ردّ فعل المؤرّخين وعلماء الأنثروبولوجيا في المستقبل. فهل سيستفيدون من تغيّر المنظور وينظرون إلى معتقداتنا ويصنّفونها على أنّها أساطير من زمن غير مستنير؟ وهل سينظرون إلى آلهتنا كما ننظر إلى زيوس؟ وهل سيجمعون كتبنا ويكدّسونها على رفّ التاريخ المكسوّ بالغبار؟".

ظلّ السؤال عالقاً في الظلام طويلاً.

فجأة، خرق صوت إدموند كيرش الصمت.

وقال العالِم المستقبلي: "أجل يا بروفيسور، أعتقد أنّ كلّ ذلك سيحدث. أعتقد أنّ الأجيال القادمة ستسأل نفسها كيف يمكن لأناس متقدّمين تكنولوجياً مثلنا أن يكونوا مؤمنين".

وازداد صوت كيرش ارتفاعاً مع ظهور سلسلة جديدة من الصور المرتبطة بمختلف الأديان على السقف.

قال كيرش: "أعتقد أنّ الأجيال القادمة ستنظر إلى تقاليدنا الحالية وتخلص إلى أنّنا عشنا في زمن غير مستنير. وبالطبع، سيُدينون معتقداتنا".

ظهر المزيد من الصور، مونتاج سريع من الصور التي تعرض احتفالات دينية من جميع أنحاء العالم، من طرد الأرواح والتعميد إلى ثقب الأجساد. وانتهى عرض الشرائح بشريط فيديو مزعج للغاية يظهر فيه رجل دين هندي وهو يدلّي طفلاً صغيراً من على حافة برج يعلو خمسين قدماً عن الأرض. فجأة، أفلت رجل الدين الطفل ليسقط عن ارتفاع خمسين قدماً قبل أن يحطّ فوق بطانية ممدودة يحملها القرويون ببهجة مثل شبكة رجال الإطفاء.

السقوط من معبد غريشنيشوار. تذكّر لانغدون اعتقاد الناس هناك أنّ هذا يجلب المحبّة للطفل.

لحسن الحظّ، انتهى الشريط.

في الظلام الدامس الذي خيّم الآن، تردّد صوت كيرش من الأعلى. "كيف يعقل أن يكون العقل البشري الحديث قادراً على التحليل المنطقي الدقيق، ومع ذلك يسمح لنا في الوقت نفسه بقبول معتقدات أسطورية ينبغي أن تنهار تحت أدنى تدقيق عقلاني؟".

في الأعلى، عادت السماء تتلألأ بالنجوم.

استنتج إدموند: "كما يتّضح، الجواب بسيط جدّاً".

أخذت النجوم تسطع في السماء بقوّة أكبر، ثمّ ظهرت سلاسل من الألياف التي راحت تربط بين النجوم لتشكّل شبكة لا نهاية لها كما يبدو من العقد المترابطة.

الخلايا العصبية. أدرك لانغدون ذلك بينما عاود إدموند الكلام وقال: "الدماغ البشري. لماذا يؤمن بما يؤمن به؟".

لمعت عدّة عقد في الأعلى، وأرسلت نبضات كهربائية عبر الألياف إلى خلايا عصبية أخرى.

"تماماً مثل جهاز كمبيوتر عضوي، يملك الدماغ نظام تشغيل؛ وهو عبارة عن سلسلة من القوانين التي تنظّم وتحدّد كلّ المدخلات الفوضوية التي يستقبلها خلال اليوم كاللغة، والنغمة الجذّابة، وصفّارة الإنذار، وطعم الشوكولاته. وكما تتخيّلون، إنّ تيّار المعلومات الواردة متنوّع جدّاً ومتواصل، وعلى الدماغ أن يستوعب كلّ ذلك. في الواقع،

إنّ برمجة نظام تشغيل الدماغ نفسها هي التي تحدّد تصوركم للواقع. لكن، لسوء الحظّ، انقلبت الحيلة علينا؛ لأنّ من كتب برنامج الدماغ البشري، كائناً من كان، يتمتّع بحسّ فكاهة ملتوٍ. بتعبير آخر، ليس خطأنا أن نصدّق الأشياء الجنونية التي نصدّقها".

تلاشت نقاط الاشتباك العصبي التي كانت ظاهرة في الأعلى، وظهرت صور مألوفة من داخل الدماغ: خرائط فلكية، مؤسّس السيانتولوجيا ل. رون هوبارد، الإله المصري أوزيريس، الإله الهندوسي غانيشا الذي يتميّز بشكل فيل ذي أربع أذرع، وأخيراً تمثال رخامي لمريم العذراء يذرف دموعاً حقيقية.

"بالتالي، وبصفتي مبرمجاً، لا بدّ لي من طرح هذا السؤال: أيّ نظام تشغيل غريب من نوعه قد يُنتج مثل هذه المعتقدات غير المنطقية؟ لو كان بإمكاننا أن ننظر إلى داخل العقل البشري ونقرأ نظامه التشغيلي، لوجدنا شيئاً من هذا القبيل".

وظهرت أربع كلمات بخطّ ضخم فوق رؤوس الحضور.

رغم الفوضى.

أولّد النظام.

قال إدموند: "هذا برنامج دماغنا الأساسي. وبالتالي، هذا ما يميل إليه البشر تماماً. فهم ينفرون من الفوضى ويحبّون النظام".

فجأة، ارتجّت الغرفة بمزيج فوضوي من نوتات البيانو غير المتناغمة؛ كما لو أنّ طفلاً يضرب على لوح المفاتيح، فانكمش لانغدون ومن حوله لا إرادياً.

أما إدموند فرفع صوته ليعلو على الصخب: "الشخص الذي يضرب عشوائياً على البيانو ينتج صخباً لا يطاق! ومع ذلك، إن أخذنا هذه النوتات نفسها ورتّبناها بنظام أفضل...".

توقّف الصخب على الفور، وحلّ محلّه لحن ديبوسّي الهادئ، "كلير دو لون".

فشعر لانغدون بعضلاته تسترخي، وبدأ التوتّر الذي ساد الغرفة يتبخّر.

فيما تابع إدموند: "فستبتهج أدمغتنا. النوتات نفسها، والآلة نفسها، لكنّ ديبوسّي أنتج نظاماً. وهذه البهجة نفسها في إنتاج النظام هي التي حفزت البشر على ترتيب قطع أحاجيَ عشوائية أو تصويب لوحات على جدار. إذ إن استعدادنا للتنظيم مكتوب في حمضنا النووي، ولذلك لا عجب في أن يكون أعظم اختراع أتى به العقل البشري هو جهاز الكمبيوتر؛ تلك الآلة التي صُمّمت خصيصاً لمساعدتنا على إنتاج النظام انطلاقاً من الفوضى. في الواقع، إنّ المرادف الإسباني لكلمة كمبيوتر هو أوردينادور، وتعني حرفياً منظِّم.

وظهرت صورة كمبيوتر هائل يجلس شابّ أمامه.

"تخيّلوا أنّكم تملكون جهاز كمبيوتر قويّاً مع إمكانية الوصول إلى جميع المعلومات في العالم. يمكنكم أن تطرحوا على هذا الكمبيوتر أيّ سؤال تشاؤون. وتشير الاحتمالات أنّكم ستطرحون في نهاية المطاف أحد سؤالين شغلا البشرية منذ أن بدأت تتمتّع بوعي ذاتي".

طبع الرجل على لوح المفاتيح، وظهر النصّ التالي:

من أين أتينا؟

إلى أين نحن ذاهبون؟

قال إدموند: "بتعبير آخر، ستسألون عن أصلنا ومصيرنا. وعندما تطرحون هذين السؤالين، فهذا ما سيجيبكم به الكمبيوتر

أظهرت الشاشة:

عدم كفاية البيانات لإعطاء إجابة دقيقة.

قال كيرش: "الجواب ليس شافياً، ولكنّه صادق على الأقلّ".

والآن، ظهرت صورة دماغ بشري.

"لكن، إن سألتم هذا الكمبيوتر البيولوجي الصغير عن المكان الذي أتينا منه فسيحدث شيء آخر

تدفّق من الدماغ سيل من الصور التي توضح معتقدات قديمة.

قال إدموند: "والآن ستسألون: إلى أين نحن ذاهبون؟".

وتدفّق المزيد من الصور من الدماغ: جنان لم يطأها البشر، جحيم ملتهبة، صفحات هيروغليفية من كتاب الموتى المصري، منحوتات صخرية من التوقّعات الفلكية، رسومات إغريقية لحقول الإيليزيه، أوصاف قبالية *لجِلجول نيشاموت*، رسوم بيانية للتقمّص من البوذية والهندوسية، والدوائر الثيوصوفية للسمرلاند.

شرح إدموند: "بالنسبة إلى الدماغ البشري، أيّ جواب يعدّ أفضل من عدم الإجابة على الإطلاق. فنحن نشعر بعدم ارتياح كبير عندما نواجه بيانات غير كافية، ولذلك تقوم أدمغتنا باختراع البيانات عبر إنتاج عدد لا يحصى من الفلسفات والأساطير والمعتقدات لطمأنتنا بوجود نظام وهيكل معين للعالم غير المرئي .

ومع استمرار سيل الصور الدينية، تحدّث إدموند بحدّة متزايدة.

"من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ لطالما شغلني هذان السؤالان الأساسيان المتعلّقان بالوجود الإنساني، وحلمت لسنوات بالإجابة عنهما". ثم صمت، وأصبحت نبرته كئيبة. "مع الأسف، وبسبب العقائد الدينية، يعتقد ملايين الناس أنّهم يعرفون أساساً الإجابة عن هذين السؤالين الكبيرين. وبما أنّ مختلف الأديان لا تقدّم إجابات متشابهة، فقد انتهى المطاف بنشوب صراعات بين ثقافات بأكملها حول من يملك الجواب الصحيح، وأيّ نسخة هي القصّة الحقيقية الوحيدة".

امتلأت الشاشة في الأعلى بصور لإطلاق نار وقذائف هاون متفجّرة ضمن مونتاج عنيف لصور عن حروب دينية، تبعتها صور لاجئين منكوبين، وأسر نازحة، وجثث لمدنيين.

"منذ بداية التاريخ الديني، وجنسنا البشري عالق في حرب لا تنتهي بين ملحدين ومسيحيين ومسلمين ويهود وهندوس ومؤمنين من الأديان كافة، ولا يوحّدنا جميعاً سوى توقنا العميق إلى السلام".

اختفت صور الحرب، وحلّت مكانها سماء صامتة يضيئها بريق النجوم.

"تخيّلوا وحسب ما يمكن أن يحدث إن توصّلنا بأعجوبة إلى إجابات عن أسئلة الحياة الكبيرة... إن رأينا فجأة دليلاً واحداً لا لبس فيه، وأدركنا أنّه ليس أمامنا خيار سوى فتح أذرعنا والقبول به... معاً، كجنس واحد".

ظهرت صورة كاهن على الشاشة وقد أغمض عينيه في صلاة صامتة.

"لطالما كان البحث الروحي مجالَ الدين الذي يشجّعنا على الإيمان بتعاليمه إلى حدّ كبير

ظهرت الآن مجموعة من الصور لمؤمنين مخلصين، وقد أغمضوا أعينهم وهم ينشدون ويركعون ويصلّون.

"لكنّ الإيمان بتعاريفه يتطلّب أن تضعوا ثقتكم في اللا محسوس وغير المحدد، وتتقبّلوه كواقع لا يمكن إثباته بأدلّة تجريبية. وهكذا، ينتهي بنا المطاف طبعاً بالإيمان بأشياء مختلفة لأنّه ما من حقيقة عالمية". وصمت هنيهة، ثمّ أضاف: "مع ذلك... .

تلاشت الصور على السقف لتظهر مكانها صورة واحدة لطالبة فتحت عينيها جيّداً وحدّقت بتركيز عبر مجهر.

تابع إدموند: "العلم نقيض الإيمان. فالعلم بتعريفه محاولة لإيجاد دليل مادّي لكلّ ما هو مجهول أو غير محدّد، ورفض كل ما لا يقترن بدليل لصالح حقائق يمكن رؤيتها. وعندما يقدّم العلم الجواب، يصبح هذا الجواب عالمياً. ولا يخوض الناس حروباً من أجله، بل يجتمعون حوله".

وعُرِضت على الشاشة الآن صور تاريخية من مختبرات ناسا وسيرن وغيرها، قفز فيها علماء من مختلف الأعراق في فرحة مشتركة، وعانقوا بعضهم مع كشف النقاب عن معلومات جديدة.

وفي تلك اللحظة، بدأ إدموند يهمس: "يا أصدقائي، لقد توقّعت أموراً كثيرة في حياتي. وسأطلق توقّعاً جديداً هذه الليلة". ثم أخذ نفساً بطيئاً وطويلاً قبل أن يتابع: "لقد شارف عصر على نهايته، وستشرق شمس عصر جديد".

خيّم الصمت التامّ على الغرفة.

"والليلة، توشك البشرية على تحقيق قفزة نوعية في هذا الاتّجاه".

سرت رعشة في جسد لانغدون عند سماعه هذه العبارة. فأيّاً كان هذا الاكتشاف الغامض، من الواضح أنّ إدموند يمهّد الطريق لمواجهة كبيرة بينه وبين أديان العالم.

الفصل 18

ConspiracyNet.com

جديد إدموند كيرش

في بثّ مباشر بلغ حالياً رقماً لم يسبق له مثيل، يقارب ثلاثة ملايين مشاهد على الشبكة، يبدو العالِم المستقبلي إدموند كيرش مستعداً للإعلان عن اكتشاف علمي، سيُجيب كما ألمح عن اثنين من أقدم الأسئلة التي طرحتها البشرية.

بعد مقدمة لافتة من قبل أستاذ جامعة هارفرد البروفيسور روبرت لانغدون، انطلق إدموند كيرش في نقد موجع للمعتقدات، وقدّم فيه هذا التوقّع الجريء: "لقد شارف عصر على نهايته".

حتّى هذه اللحظة، يبدو الملحد المعروف أكثر التزاماً بضبط النفس والاحترام من عادته. لمشاهدة مجموعة من تصريحات كيرش السابقة المعادية للدين، اضغط هنا.

الفصل 19

خارج الجدار القماشي الذي يحيط بالمسرح المقبّب، تمركز الأميرال أفيلا في موقعه، وقد حجبته عن الأنظار المتاهة التي شكّلتها السقالة. أخفض جسده ليبقى ظلّه مختفياً عن الأنظار، ولم تعد تفصله سوى إنشات عن الجهة الخارجية للجدار بالقرب من مقدّمة القاعة.

مدّ يده بصمت إلى جيبه وأخرج مسبحة الخرز.

سيكون التوقيت حاسماً.

مرّر خرزات المسبحة بين يديه إلى أن عثر على الصليب المعدني الثقيل، واستغرب كيف أنّ الحرّاس الذين يديرون أجهزة الكشف عن المعادن في الأسفل تركوا هذا الشيء يفلت من بين أيديهم من دون أن يُلقوا عليه نظرة ثانية.

استخدم شفرة حلاقة كانت مخبّأة في ساق الصليب، وصنع شقّاً عمودياً بطول ستّة إنشات في الجدار القماشي.

بعد ذلك، فتح الشقّ برفق وأطلّ منه على عالم آخر؛ حقل مشجّر استلقى فيه مئات الضيوف على البطّانيات وراحوا يحدّقون إلى النجوم.

لا يمكنهم أن يتخيّلوا ما سيحدث.

فرح أفيلا لدى رؤيته عنصرَي الحرس الملكي متمركزَين في الجانب الآخر من الحقل؛ على مقربة من الزاوية الأمامية اليمنى للقاعة. وقفا يراقبان بانتباه تامّ، مخبّأين في ظلّ بعض الأشجار. ولكن، بفضل الضوء الخافت، لن يتمكّنوا من رؤية أفيلا إلّا بعد فوات الأوان.

لم يكن يقف إلى جانب الحارسين سوى شخص واحد؛ ألا وهو مديرة المتحف أمبرا فيدال التي بدت كما لو أنّها منزعجة لدى مشاهدتها العرض الذي يقدّمه كيرش.

أغلق أفيلا الشقّ راضياً عن موقعه، ثمّ أعاد تركيزه إلى الصليب. على غرار معظم الصلبان، كانت لهذا الصليب ذراعان قصيرتان. لكنّ ذراعي هذا الصليب كانتا معلّقتين مغنطسياً بالجذع العمودي ويمكن نزعهما.

أمسك إحدى الذراعين ولواها بقوّة، فانتُزِعت القطعة وسقط شيء صغير. ثم قام بالمثل من الجهة الأخرى وأصبح الصليب بلا ذراعين، أي مجرّد مستطيل معدني معلّق بسلسلة ثقيلة.

أعاد السلسلة إلى جيبه لحفظها. *سأحتاج إليها قريباً* . ثمّ ركّز الآن على القطعتين الصغيرتين اللتين كانتا مخبّأتين داخل ذراعَي الصليب.

رصاصتان قصيرتا المدى.

بعد ذلك، مدّ يده إلى الخلف، وأخرج من تحت حزامه شيئاً كان قد هرّبه تحت سترته.

مضت عدّة سنوات منذ أن قام أميركي يدعى كودي ويلسون بتصميم "المحرّر"، وهو أوّل مسدّس بوليمر مطبوع بتقنية الأبعاد الثلاثية. ومنذ ذلك الحين، تطوّرت تلك التكنولوجيا بشكل كبير. ومع أنّ تلك الأسلحة الجديدة المصنوعة من السيراميك والبوليمر لا تتمتّع بعد بقوّة كبيرة، إلّا أنّ ما تفتقر إليه من حيث المدى عوّضت عنه إلى حدّ كبير لكونها غير مرئية بالنسبة إلى أجهزة الكشف عن المعادن.

لا أحتاج سوى إلى الاقتراب بما فيه الكفاية.

إن سار كلّ شيء حسب المخطّط، فإنّ موقعه الحالي سيكون ممتازاً.

كان الوصيّ قد حصل بطريقة ما على معلومات من الداخل حول المخطّط الدقيق وتسلسل الأحداث لهذا المساء... وأوضح تماماً كيف ينبغي أن تنفّذ مهمّة أفيلا. ستكون النتائج عنيفة، لكن بعد أن شاهد أفيلا مقدّمة إدموند للتوّ، صار واثقاً أنّ الخطايا التي سيرتكبها هنا هذه الليلة ستُغتَفَر.

كان الوصيّ قد قال له: *إنّ أعداءنا يشنّون حرباً علينا؛ فإمّا أن نقتل أو نُقتل.*

وقفت أمبرا فيدال قرب الجدار المقابل في الزاوية الأمامية اليمنى من القاعة، وتمنّت لو أنّها تستطيع أن تُخفي عدم ارتياحها.

قال لي إدموند إنّ هذا البرنامج علمي.

لم يخجل العالم المستقبلي الأميركي يوماً من نفوره من الدين، لكنّ أمبرا لم تتخيّل على الإطلاق أن يكون عرضه لهذه الليلة بهذا العداء.

لقد رفض أن أراه مسبقاً.

لا شكّ في أنّ هذا العرض ستكون له تداعيات مع أعضاء مجلس المتحف، لكنّ مخاوف أمبرا في هذه اللحظة كانت شخصية أكثر بكثير.

في الواقع، قبل أسبوعين، أخبرت أمبرا رجلاً نافذاً جدّاً بمشاركتها في حدث الليلة. غير أنّ الرجل حثّها بشدّة على عدم المشاركة. كما حذّرها من مخاطر استضافة عرض من دون معرفة محتواه، لا سيّما حين يكون من إعداد شخصية معروفة مثل إدموند كيرش.

وتذكّرت أنّه أمرها فعليّاً بإلغاء العرض، لكنّ نبرته الواثقة جعلتها ترفض الإصغاء إليه.

والآن، بينما كانت تقف بمفردها تحت السماء المرصّعة بالنجوم، تساءلت عما إذا كان ذلك الرجل جالساً في مكان ما يشاهد هذا البثّ المباشر وهو يحتضن رأسه بين يديه.

فكّرت في سرّها: *لا شكّ في أنّه يشاهد. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل ستثور ثائرته؟*

في كاتدرائية ألمودينا، جلس الأسقف فالديسبينو بتصلّب إلى مكتبه وعيناه مسمّرتان على جهاز الكمبيوتر المحمول. لم يكن لديه أيّ شكّ في أنّ كلّ من في القصر الملكي المجاور يشاهدون هذا البرنامج، لا سيّما الأمير جوليان، وريث عرش إسبانيا.

لا شكّ أنّ الأمير على وشك الانفجار.

هذه الليلة، كان أحد أهمّ المتاحف المرموقة في إسبانيا يتعاون مع ملحد أميركي مشهور لبثّ ما يصفه المثقّفون الدينيون "حيلة دعائية معادية ومسيئة للمسيحية". بالإضافة إلى ذلك، ولكي يتفاقم الجدل، كانت مديرة المتحف الذي يستضيف هذا الحدث واحدة من أهمّ مشاهير إسبانيا؛ الجميلة أمبرا فيدال التي هيمنت خلال الشهرين الفائتين على عناوين الصحف الإسبانية، وفازت بين ليلة وضحاها بمحبّة دولة بأكملها. والغريب أنّ الآنسة فيدال قرّرت المخاطرة بكلّ ذلك عبر استضافتها هذا الهجوم واسع النطاق على الإيمان.

لن يكون أمام الأمير جوليان أيّ خيار سوى التعليق.

في الحقيقة، لم يكن دوره المنتظر كشخصية سيادية كاثوليكية في إسبانيا سوى جزء صغير من التحدّي الذي سيواجهه في التعامل مع حدث هذه الليلة. فالمسألة الأكثر إثارة للقلق بكثير هي أنّ الأمير جوليان أقام في الشهر الفائت احتفالاً بهيجاً وضع فيه أمبرا فيدال في دائرة الضوء؛ فقد أعلن خطوبته عليها.

الفصل 20

كان روبرت لانغدون يشعر بعدم الارتياح إزاء المنحى الذي تتّخذه الأحداث هذا المساء.

كان العرض الذي يقدّمه إدموند يتصاعد بشكل خطير، ويوشك أن يتحوّل إلى تنديد علني بالإيمان؛ الأمر الذي دفع لانغدون إلى التساؤل عمّا إذا كان إدموند قد نسي بشكل أو بآخر أنّه لا يتحدّث إلى مجموعة العلماء الملحدين الموجودين في هذه القاعة فحسب، بل أيضاً إلى ملايين الناس حول العالم الذين يشاهدونه عبر الإنترنت.

من الواضح أنّ الهدف من هذا العرض إشعالُ الجدل.

انزعج كذلك من ظهوره في البرنامج. ومع أنّ إدموند قصد تكريمه من خلال هذا الشريط، إلّا أنّ لانغدون شكّل في ما مضى نقطة انطلاق لا إرادية للجدل... وكان يفضّل ألّا يكرّر تلك التجربة.

غير أنّ كيرش قام بإنتاج مواد سمعية وبصرية متعمدة مسيئة للمؤمنين؛ حيث بدأ لانغدون الآن يُعيد التفكير في تجاهله أهمية الرسالة الصوتية التي تلقّاها إدموند من الأسقف فالديسبينو.

ملأ صوت إدموند القاعة مجدّداً، وتحوّلت الشاشة فوق رؤوسهم إلى مزيج من الرموز الدينية من حول العالم. وأعلن صوت إدموند: "أعترف أنّه كانت لديّ تحفّظات بشأن إعلان الليلة، لا سيّما حيال تأثيره المحتمل على المؤمنين. لهذا السبب، وقبل ثلاثة أيّام، قمت بعمل لا يلائمني إلى حدٍّ ما. ففي محاولة مني لإظهار الاحترام لوجهات النظر الدينية، ومن أجل قياس كيفية استقبال مختلف الديانات لاكتشافي، استشرت سرّاً ثلاثة من كبار الزعماء الدينيين، وهم علماء من الإسلام والمسيحية واليهودية، وأطلعتهم على اكتشافي.

سرت همهمات خافتة في القاعة.

"وكما توقّعت، أعرب الثلاثة عن دهشتهم العارمة، وقلقهم، وحتى غضبهم، أجل، حيال ما كشفته لهم. ومع أنّ ردود أفعالهم أتت سلبية، إلّا أنّني أودّ أن أشكرهم على تكرّمهم باستقبالي. وفي حين أنّني لن أقوم بالكشف عن أسمائهم، إلّا أنّني أودّ أن أخاطبهم الليلة مباشرة وأشكرهم على عدم محاولتهم التدخّل في هذا العرض".

صمت هنيهة قبل أن يُضيف: "وأنتم تعلمون أنّهم كانوا يستطيعون ذلك".

أصغى إليه لانغدون وهو يسير ببراعة على خطّ رفيع ويغطّي قواعده. كان قرار إدموند لقاء زعماء دينيين يُشير إلى الانفتاح والثقة والحياد؛ وهي صفات لم يكن العالِم المستقبلي معروفاً بها. غير أنّ لانغدون اشتبه في أن يكون اجتماع مونسيرات مهمة بحثية من جهة، ومناورة علاقات عامة من جهة أخرى.

بطاقة ذكية للخروج من السجن بلا عقاب.

تابع إدموند كلامه: "تاريخياً، لطالما قمعت الحماسة الدينية التطوّر العلمي. لذا، أناشد هذه الليلة الزعماء الدينيين حول العالم بضبط النفس وتفهّم ما سأقوله. من فضلكم، دعونا لا نكرّر العنف الدموي الذي شهده التاريخ. دعونا لا نرتكب أخطاء الماضي".

وتحوّلت الصور على السقف إلى رسم لمدينة مسوّرة قديمة، مدينة دائرية تماماً تقع على ضفاف نهر يجري في الصحراء.

عرف لانغدون على الفور بغداد القديمة، بمخططها الدائري المدعّم بثلاثة جدران متّحدة المركز تعلوها الشرفات والكوّات.

قال إدموند: "في القرن الثامن عشر، برزت مدينة بغداد كأكبر مركز للتعلم على الأرض، واستقبلت جميع الديانات والفلسفات والعلوم في مدارسها ومكتباتها. وعلى مدى خمسمائة عام، تدفّقت الابتكارات العلمية من المدينة على نحو لم يشهد له العالم مثيلاً، وما زال تأثيرها ملموساً حتّى اليوم في ثقافتنا المعاصرة".

في الأعلى، عادت النجوم إلى الظهور، والكثير منها مع أسمائها: النسر الواقع (Vega)، إبط الجوزاء (Betelgeuse)، رجل الجبار (Algebar) (Rigel)، ذنب الدجاجة (Deneb)، العقرب (Acrab)، النجم كيتالفا (ألفا قطعة الفرس) (Kitalpha).

"وجميع أسمائها مشتقّة من اللغة العربية. وحتى هذا اليوم، يحمل أكثر من ثلثي النجوم في السماء أسماء عربية الأصل لأنّها اكتشفت على أيدي علماء فلك من العالم العربي".

سرعان ما شعّت السماء بعدد كبير من النجوم ذات الأسماء العربية، حيث أوشكت أن تحتجب خلفها، ثم تلاشت الأسماء مجدّداً من صفحة السماء.

"وبالطبع، إن أردنا أن نعدّ النجوم...".

I، II، III، IV، V...

توقّفت الأرقام فجأة واختفت.

قال إدموند: "فإنّنا لا نستخدم الأرقام الرومانية، بل العربية".

بدأت الأرقام بالظهور مجدّداً باستخدام نظام الترقيم العربي؛ *1، 2، 3، 4، 5...*

"ربما تعرفون أيضاً أن هناك الكثير من المصطلحات التي تُنسب إلى علماء مسلمين، وما زلنا نستخدم أسماءها العربية".

ظهرت كلمة *الجبر* ALGEBRA في السماء، محاطة بسلسلة من المعادلات متعدّدة المتغيّرات. وأتت بعدها كلمة *خوارزمية* ALGORITHM مع مجموعة متنوّعة من الصيغ. ثمّ أتت كلمة السمت AZIMUTH مع رسم بياني يصوّر زوايا على أفق الأرض. وتسارع سيل الكلمات... الدرك الأسفل (NADIR)، الذروة (ZENITH)، الخيمياء (ALCHEMY)، علم الكيمياء (CHEMISTRY)، شيفرة (CIPHER)، الإكسير (ELIXIR)، الكحول (ALCOHOL)، قلوي (ALKALINE)، صفر (ZERO)...

ومع تتالي الكلمات العربية المألوفة، فكّر لانغدون كم أنّه من المأساوي أن يتخيّل الكثير من الأميركيين مدينة بغداد كواحدة من مدن الشرق الأوسط المغبرّة التي تمزّقها الحروب، كما تظهر في نشرات الأخبار، من دون أن يعرفوا أنّها كانت في ما مضى مركز التقدّم العلمي الإنساني.

قال إدموند: "بحلول نهاية القرن الحادي عشر، كان أعظم اكتشاف فكري على وجه الأرض يجري داخل بغداد وحولها. فجأة، بين ليلة وضحاها تقريباً تغيّر ذلك. فقد ظهر عالِم لامع يدعى أبا حامد الغزالي، وهو يُعدّ اليوم واحداً من أكثر المسلمين تأثيراً في التاريخ، وقد كتب سلسلة من النصوص المقنعة التي تشكّك في منطق أفلاطون وأرسطو، وتعلن أنّ الرياضيات *فلسفة الشيطان*. فأطلق بذلك مجموعة من الأحداث التي قوّضت التفكير العلمي. وأصبحت دراسة الفقه إلزامية، وفي نهاية المطاف، انهارت الحركة العلمية المعاصرة له بأكملها".

تبخّرت الكلمات العلمية فوق رؤوسهم، وحلّت مكانها صور لنصوص دينية إسلامية.

"حلّ الحذر محلّ التحقيق. وحتّى هذا اليوم، ما زال العالم الإسلامي يحاول أن يتعافى". صمت إدموند قليلاً، ثمّ أضاف: "وبالطبع، لم يكن وضع العالم العلمي المسيحي أفضل".

ظهرت لوحات علماء الفلك كوبيرنيكوس، وغاليليو، وبرونو على السقف.

"فالقتل الممنهج، والسجن، والشجب الذي مارسته الكنيسة ضدّ بعض ألمع العقول العلمية في التاريخ أخّر التقدّم البشري لقرن من الزمن على الأقلّ. واليوم، لحسن الحظّ، مع تحسّن فهمنا لفوائد العلم، خفّفت الكنيسة هجماتها..." تنهّد إدموند مضيفاً: "إلى حدّ ما".

ظهر شعار كروي مع صليب وثعبان، ورافقه النصّ التالي:

إعلان مدريد حول العلم والحياة

"هنا في إسبانيا، أعلن الاتّحاد العالمي للجمعيات الطبية الكاثوليكية مؤخّراً الحرب على الهندسة الوراثية، زاعماً أنّ *العلم يفتقر إلى الروح*، وبالتالي يجب أن يكون مُقيَّداً من قبل الكنيسة".

تحوّل رمز الكرة الأرضية الآن إلى دائرة مختلفة؛ عبارة عن مخطّط لمسرّع جسيمات ضخم.

"وهذا مسرّع تكساس الخارق فائق التوصيل، المصمّم ليكون أكبر مسرّع جزيئات في العالم".

تلاشت الصورة، وحلّ محلّها بناء إسمنتي ضخم على شكل حلقة يمتدّ عبر صحراء تكساس. كانت المنشأة شبه المكتملة مكسوّة بالغبار والأتربة، بعد أن هُجرت على ما يبدو وسط أعمال البناء.

"كان بإمكان المسرّع الخارق أن يُحقّق تقدّماً هائلاً في الفهم البشري للكون، لكنّ المشروع أُلغِي بسبب تجاوز التكاليف المستوى المتوقّع، وبسبب الضغط السياسي الذي مورس من جانب مصادر غير متوقّعة".

أظهر مقطع إخباري مبشّراً إنجيلياً شاباً يظهر على التلفاز وهو يلوّح بالكتاب الأكثر مبيعاً، *ذاغاد بارتيكل*، ويصيح غاضباً: "علينا أن نبحث عن الإيمان داخل قلوبنا! وإنفاق المليارات على هذه التجربة السخيفة أمر محرج لولاية تكساس، وفيه إهانة للمؤمنين!".

عاد صوت إدموند يقول: "هذه الصراعات التي وصفتُها، والتي طغت فيها الخرافات الدينية على العقل، ليست سوى مناوشات في حرب مستمرّة".

ازدحم السقف فجأة بمجموعة من الصور العنيفة لمدن حديثة؛ احتجاجات خارج مختبرات أبحاث جينية، كاهن يُضرم النار في نفسه خارج مؤتمر عابر للبشرية، إنجيليون يهزّون قبضاتهم ويحملون كتاب سفر التكوين، سمكة يسوع تأكل سمكة داروين، لوحات إعلانية دينية غاضبة تُدين أبحاث الخلايا الجذعية، وحقوق المثليين، والإجهاض، هذا بالإضافة إلى لوحات إعلانية غاضبة تردّ على ذلك.

شعر لانغدون وهو ممدّد في الظلام أنّ نبضه يتسارع. للحظة، اعتقد أنّ العشب تحته يرتجف، كما لو أنّ مترو أنفاق يقترب. ومع ازدياد الاهتزازات قوّة، أدرك أنّ الأرض كانت تهتزّ بالفعل. فقد أخذت الارتجاجات العميقة تهزّ العشب تحته، إلى أن ارتجفت القبّة بأكملها وأصدرت هديراً صاخباً.

عرف لانغدون أنّ الهدير كان ناتجاً عن صوت شلّالات ينبعث من مكبّرات صوت تحت العشب. ثمّ شعر بضباب رطب وبارد على وجهه وجسده، كما لو أنّه ممدّد وسط نهر هائج.

نـادى إدموند بصـوت أعلـى من هـدير النهـر: "هـل تسمعون هـذا الصـوت؟ إنّـه الصـوت المتعاظم لنهر المعرفة العلمية العنيد".

علا هدير الماء أكثر، وشعر لانغدون برطوبة الضباب على خدّيه.

صـاح إدموند: "منذ أن اكتشف الإنسان النار في البداية، أخذ هذا النهر يزداد قوّة. وأصبح كلّ اكتشاف أداة للمزيد من الاكتشافات، وكلّ منها أضاف قطرة إلى هذا النهر. واليوم، نحن نركب قمّة تسونامي؛ طوفان يندفع قدماً بقوّة لا يمكن صدّها!".

أخذت الغرفة ترتجّ بعنف أكبر.

صـاح إدموند بصـوت أعلـى: "*من أين أتينا؟! إلى أين نحن ذاهبون؟!* لطالما كان قدرنا العثورَ على الإجابات! وأساليب بحثنا تتطوّر أضعافاً مضاعفة على مرّ آلاف السنين!".

أخذ الضباب والرياح يعصفان بالغرفة، وأصبح هدير النهر يصمّ الآذان.

أعلن إدموند: "فكّروا بهذا! استغرق البشر ما يزيد عن مليون سنة للتقدّم من اكتشاف النار إلى اختراع العجلة. ثمّ احتاجوا إلى بضعة آلاف من السنين لاختراع المطبعة. ولم يمضِ سوى مائتي عام بعد ذلك حتى بنوا التلسكوب. وفي القرون التي تلت ذلك، وعلى فترات زمنية أقصر من ذي قبل، انتقلنا من المحرّك البخاري إلى السيّارات التي تعمل على الغاز، ومن ثمّ إلى المكّوك الفضائي! ولم يلزمنا بعد ذلك سوى عقدين من الزمن لنبدأ بتعديل حمضنا النووي!

نحن نقيس الآن تقدّمنا العلمي بالأشهُر، ونتقدّم بسرعة مذهلة. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يبدو أسرع جهاز كمبيوتر خارق في يومنا هذا قديمَ العهد، وتصبح الوسائل الجراحية الأكثر تقدّماً بربريةً، وتبدو مصادر الطاقة التي نستخدمها في عصرنا غريبة علينا؛ تماماً مثل استخدام شمعة لإضاءة غرفة!".

تواصل صوت إدموند وهدير المياه في الظلام الدامس.

"كان على الإغريق أن ينظروا إلى الوراء قروناً من الزمن لدراسة الثقافات القديمة، في حين أنّه ما علينا سوى أن ننظر إلى الوراء لجيل واحد لنجد أولئك الذين عاشوا من دون التكنولوجيات التي نعتبرها اليوم من المُسلّمات. لقد تقلّص الإطار الزمني للتطوّر البشري، والمسافة الفاصلة بين القديم والحديث تنكمش لتختفي تدريجياً. لهذا السبب، أؤكّد لكم أنّ السنوات القليلة المقبلة للتطوّر البشري ستكون صادمة وخطيرة، ولا يمكن تصوّرها إطلاقاً!".

من دون سابق إنذار، توقّف هدير النهر.

وعادت السماء لتصبح مرصّعة بالنجوم، ومعها النسيم الدافئ، وأناشيد صراصير الليل.

وبدأ الضيوف في الغرفة يتنهّدون معاً.

وفي الصمت المفاجئ، عاد صوت إدموند هامساً.

وقال بصوت خافت: "يا أصدقائي، أعلم أنّكم هنا لأنّني وعدتكم باكتشاف، وأشكركم لأنّكم سمحتم لي بهذه المقدّمة. والآن، دعونا نتخلّص من أغلال تفكيرنا الماضي، فقد آن الأوان لنتشارك متعة الاكتشاف".

ومع هذه الكلمات، زحف ضباب خفيف من جميع الجهات، وبدأت السماء تتوهّج بضوء الفجر الذي أنار الجمهور في الأسفل بنور خافت.

فجأة، سُلِّطت بقعة ضوء، وانحرفت إلى مؤخّر القاعة. وخلال دقائق، جلس جميع الضيوف تقريباً، والتفتوا إلى الخلف وسط الضباب مترقّبين رؤية مُضيفهم يظهر شخصياً. لكن بعد ثوانٍ، توجّهت بقعة الضوء إلى مقدّمة القاعة مجدّداً، والتفتت معها رؤوس الحاضرين.

وهناك، في مقدّمة القاعة، وقف إدموند كيرش مبتسماً تحت وهج بقعة الضوء. كانت يداه موضوعتين بثقة على طرفي منصّة لم تكن هناك قبل ثوانٍ. وقال مقدّم العرض العظيم بمودّة مع بدء تلاشي الضباب: "مساء الخير يا أصدقائي".

وخلال ثوانٍ، نهض الناس واقفين، وانفجر التصفيق في الغرفة، فانضمّ إليهم لانغدون عاجزاً عن كبح ابتسامته.

دع الأمر لإدموند ليخرج إلى المسرح مع نفخة دخان.

حتّى تلك اللحظة، كان عرض الليلة- على الرغم من عدائه للإيمان- جولة جريئة لا تشوبها شائبة؛ تماماً مثل الرجل نفسه. الآن، فهم لانغدون سبب عشق أصحاب الفكر الحرّ في العالم إدموند إلى هذا الحدّ.

على الأقلّ، هو يبوح بما في ذهنه بطرائق لا يجرؤ عليها سوى قلّة آخرين.

عندما ظهر وجه إدموند على الشاشة فوق رؤوسهم، لاحظ لانغدون أنّه يبدو أقلّ شحوباً بكثير من ذي قبل؛ بعد أن تمّ إخفاء شحوبه على يد خبير بلا شكّ. لكن مع ذلك، كان واضحاً أنّ الرجل منهك.

تواصل التصفيق الحماسي، حيث بالكاد شعر لانغدون بالاهتزاز في جيب سترته. وتلقائيّاً، مدّ يده لإخراج هاتفه، ولكنّه أدرك فجأة أنّ الهاتف مطفأ. واستغرب كثيراً عندما أدرك أنّ الاهتزاز صادر عن الجهاز الآخر الموضوع في جيبه، أي سمّاعة التوصيل العظمي التي يبدو أنّ وينستون يتكلّم الآن عبرها بصوت عالٍ جدّاً.

يا له من توقيت سيّئ!

أخرج لانغدون الجهاز من جيبه وثبّته على رأسه. وما إن لامست العقدة عظام خدّه، حتّى تردّد صوت وينستون القويّ في رأسه.

"–فيسور لانغدون؟ هل أنت هنا؟ الهواتف معطّلة، وأنت وسيلة اتصالي الوحيدة. بروفيسور لانغدون؟".

أجاب لانغدون وهو يرفع صوته فوق صخب التصفيق من حوله: "أجل وينستون، أنا هنا".

قال وينستون: "أخيراً! أصغِ إليّ جيّداً. أظنّ أنّنا أمام مشكلة خطيرة".

الفصل 21

شهد إدموند كيرش لحظات نصر لا تعدّ ولا تحصى على المسرح العالمي. ولهذا السبب، كان دائم السعي إلى الإنجاز، ولكنّه نادراً ما كان يشعر بالرضى التامّ. مع ذلك، في هذه اللحظة، وهو واقف على المنصّة يتلقّى ترحيباً حارّاً، سمح لنفسه بالإحساس بفرحة إدراك أنّه على وشك تغيير العالم.

اجلسوا يا أصدقائي، فالآتي أفضل.

ومع تبدّد الضباب، قاوم إدموند رغبته في النظر إلى الأعلى؛ إلى الشاشة التي تنقل صورة مقرّبة لوجهه إلى جمهوره هنا، وإلى ملايين الناس حول العالم.

قال لنفسه بفخر: "*هذه لحظة عالمية تتجاوز الحدود والطبقات والمعتقدات*".

نظر إلى يساره، وهزّ رأسه بامتنان لأمبرا فيدال التي كانت تراقبه من الزاوية، والتي عملت معه بلا كلل لإنتاج هذا العرض. ولكنّه فوجئ عندما لاحظ أنّها لا تنظر إليه، بل تحدّق إلى حشد الزوّار بقلق واضح.

فكّرت أمبرا في سرّها وهي تنظر من مكانها: *ثمّة خطب ما*.

في وسط الغرفة، كان ثمّة رجل أنيق وطويل القامة يشقّ طريقه بين الحشد وهو يلوّح بذراعيه متّجهاً نحو أمبرا.

عرفت البروفيسور الأميركي من الشريط الذي عرضه كيرش، *إنّه روبرت لانغدون*.

كان لانغدون يقترب بسرعة؛ الأمر الذي دفع حارسَي أمبرا إلى الابتعاد فوراً عن الجدار والوقوف أمامها لاعتراض طريقه.

ماذا يريد؟! رأت أمبرا القلق واضحاً في تعابير وجه لانغدون.

التفتت إلى إدموند على المنصّة متسائلة عمّا إذا كان قد لاحظ هذه الجلبة هو الآخر. واستغربت حين رأته يحدّق إليها مباشرة.

إدموند! ثمّة خطب ما!

وفي تلك اللحظة، دوّى صوت يصمّ الآذان تحت القبّة، وارتدّ رأس إدموند إلى الخلف. رأت أمبرا برعب حفرة حمراء تظهر على جبين إدموند، فيما تراجعت عيناه قليلاً

إلى الوراء، وتصلّبت يداه اللتان تمسكان بالمنصّة، وكذلك جسده بأكمله. ترنّح للحظة، وغزا الارتباك وجهه، ثمّ مال جسده جانباً مثل شجرة تسقط، وانهار على الأرض، ليرتطم رأسه المخضّب بالدماء بقوّة بالأرض المكسوّة بالعشب الاصطناعي.

وقبل أن تفهم أمبرا ما تراه، وجدت نفسها تُدفع على الأرض من قبل أحد الحارسين الملكيين.

توقّف الزمن للحظة.

وفجأة... ساد الهرج والمرج.

راح الضيوف يتدافعون بقوّة نحو مؤخّر القاعة محاولين تفادي المزيد من إطلاق النار، يضيئهم الوهج المنبعث من صورة جثّة إدموند الدامية فوق رؤوسهم.

ومع اندلاع الفوضى، تسمّر روبرت لانغدون في مكانه وقد شلّته الصدمة. فعلى مسافة غير بعيدة، استلقى صديقه على جنبه، وهو لا يزال يواجه الجمهور، فيما تدفّق الدم من الثقب الذي أحدثته الرصاصة في جبينه. كانت أضواء الكاميرا مسلّطة بلا رحمة على وجه إدموند الذي فارق الحياة، بعد أن تُرِكت الآلة على دعامتها لتواصل على ما يبدو نقل صورة حيّة على السقف المقبّب، وكذلك إلى العالم.

شعر لانغدون وهو يجري إلى الكاميرا ويحوّلها نحو الأعلى، مُبعِداً عدساتها عن إدموند، كما لو أنه يسير في حلم. بعد ذلك، استدار ونظر عبر فوضى الضيوف الهاربين إلى المنصّة وصديقه، وكان واثقاً أنّ إدموند قد رحل.

ربّاه... لقد حاولت تنبيهك يا إدموند! لكنّ تحذير وينستون أتى متأخّراً.

على مسافة غير بعيدة من جثّة إدموند الممدّدة على الأرض، رأى لانغدون حارسا ملكياً ممدّداً فوق أمبرا فيدال لحمايتها. فسارع نحوها مباشرة، لكنّ الحارس تصرّف بشكل تلقائي. إذ انتصب واقفاً، ثمّ اندفع نحوه ليصل إليه في ثلاث خطوات طويلة، ويُلقي بجسده عليه.

سحق الحارس بكتفه صدر لانغدون، وأفرغ الهواء من رئتيه تماماً، مُرسِلاً موجة من الألم عبر جسده وهو يطير إلى الخلف ليحطّ بقوّة على العشب الاصطناعي. وقبل أن يتمكّن من أخذ أيّ نفس، مدّده الحارس بذراعيه القويتين على بطنه، وثنى ذراعه اليسرى خلف ظهره، ثمّ ضغط بكفّ كالحديد على مؤخّر رأسه حيث ثبّته تماماً، وضغط خده الأيسر على العشب.

صاح الحارس: "لقد عرفتَ بذلك قبل وقوعه. ما صلتك بالحادثة!؟".

على مسافة عشرين ياردة، اندفع الحارس الملكي رافا دياز بين حشود الضيوف الفارّين، وحاول الوصول إلى تلك البقعة في الجدار الجانبي التي رأى وميض الطلقة النارية من خلالها.

أميرا فيدال بأمان؛ هذا ما أكّده لنفسه بعد أن رأى شريكه يدفعها إلى الأرض، ويغطّي جسدها بجسده. من جهة أخرى، كان دياز واثقاً من أنّه ما من شيء يمكن فعله للضحية. *لقد مات إيموند قبل أن يرتطم بالأرض.*

لاحظ دياز أيضاً أمراً غريباً، وهو أنّ أحد الضيوف تلقّى تحذيراً مسبقاً بالهجوم، واندفع نحو المنصّة قبل لحظة من إطلاق النار.

أيّاً يكن السبب، فالمسألة يمكنها أن تنتظر.

في الوقت الراهن، لديه مهمّة واحدة فقط.

القبض على مطلق النار.

مع وصول دياز إلى الموقع الذي رأى منه الوميض، وجد شقّاً في جدار القماش، فأدخل يده عبر الفتحة، ومزّق النسيج نزولاً حتّى الأرض، ثمّ دخل عبره إلى متاهة من السقالات.

إلى يساره، لمح رجلاً طويل القامة يرتدي زياً عسكرياً أبيض يسرع باتّجاه مخرج الطوارئ الواقع في الجهة المقابلة من القاعة الضخمة. بعد لحظة، خرج الهارب من الباب واختفى.

انطلق دياز يجري خلفه في خطّ متعرّج بين الإلكترونيات المنتشرة خارج القبّة، إلى أن خرج من الباب إلى سلّم إسمنتي. أطلّ من فوق الدرابزين، ورأى الهارب على بعد طابقين تحته، يهبط دوّامة السلّم بسرعة فائقة. لحق به وهبط السلّم كلّ خمس درجات معاً. لكن، في مكان ما في الأسفل، سمع باب المدخل يُفتح مصدراً صوتاً عالياً، ثمّ يُصفق مجدّداً.

لقد غادر المبنى!

عندما وصل دياز إلى الطابق الأرضي، سارع إلى المخرج الذي كان عبارة عن باب ذي مصراعين مع عارضتين أفقيتين، ورمى بثقله عليه. لكنّ الباب لم يُفتَح بسهولة كما فُتح الباب العلوي، بل تحرّك مسافة إنش واحد قبل أن يتوقّف. فارتطم جسد دياز بالباب المصنوع من الصلب، وسقط أرضاً وهو يعاني من ألم حارق في كتفه.

نهض باستغراب وجرّب فتح الباب مجدّداً، فلم يُفتح سوى بما فيه الكفاية ليفهم أصل المشكلة.

كان مقبضا مصراعي الباب من الخارج مقيّدين بحلقة سلكية؛ بسلسلة من الخرز الملفوفة حولهما. استغرب دياز أكثر عندما أدرك أنّ شكل الخرز كان مألوفاً تماماً بالنسبة إليه، وإلى أيّ كاثوليكي إسباني صالح.

استخدم دياز كلّ قوّته ليدفع مصراعَي الباب مجدّداً بجسده المتألّم، لكنّ حلقة الخرز ظلّت صامدة. نظر مرّة أخرى من خلال الفتحة الضيّقة، فأذهله وجود المسبحة بقدر ما فاجأه عدم قدرته على قطعها.

صاح من خلال فتحة الباب: "مرحباً! هل من أحد هنا؟!". ولكن، لم يجبه أحد.

ومن فتحة الباب، رأى دياز جداراً إسمنتياً عالياً وممرّ خدمة مهجوراً، فأدرك أنّه ما من احتمال بأن يمرّ أحد وينزع الحلقة. وحين لم يجد خياراً آخر أمامه، سحب مسدّسه من تحت سترته، ثمّ مرّر فوهته عبر شقّ الباب وضغطها على المسبحة.

أنا أطلق النار على مسبحة مقدّسة! فليغفر لي الربّ.

اهتزّت أجزاء الصليب المتبقّية أمام عينَي دياز.

ضغط على الزناد، فدوى صوت الطلقة التي أصابت الأرض الإسمنتية، وفُتِح الباب. تحطّمت المسبحة، واندفع دياز إلى الأمام وهو يترنّح في الزقاق الخالي، بينما تساقطت حبّات المسبحة على الرصيف حوله.

لقد هرب القاتل بزيّه الأبيض.

وعلى بعد مائة متر، جلس الأميرال لويس أفيلا بصمت على المقعد الخلفي لسيّارة الرينو السوداء التي أسرعت تقلّه بعيداً عن المتحف.

متانة ألياف فيكتران التي علّق فيها حبّات الخرز أدّت مهمّتها وأخّرت مطارديه بما فيه الكفاية.

والآن، لقد رحلت.

ومع انطلاق السيّارة باتّجاه الشمال الغربي على طول نهر نيرفيون المتعرّج، واختفائها بين بقيّة السيّارات المسرعة على جادة أباندويبارا، تنفّس الأميرال أفيلا الصعداء أخيراً.

ما كان من الممكن لمهمّته هذه الليلة أن تكون أكثر سهولة.

في ذهنه، بدأ يسمع النغمات المرحة لنشيد أوريامندي، بكلماته القديمة التي أنشدت مرّة في معركة دامية هنا في بيلباو. فأخذ يردّد في ذهنه: *Por Dios, por la Patria y ¡el Rey!* *(للربّ، والبلاد، والملك!).*

تمّ نسيان صرخة المعركة منذ زمن طويل... لكنّ الحرب بدأت للتوّ.

الفصل 22

يُعتبَر قصر مدريد الملكي أكبر القصور الملكية في أوروبا، وواحداً من اجمل مظاهر الانصهار المعماري بين النمطين الكلاسيكي والباروكي. بُني القصر في موقع قصر مغربي يرجع إلى القرن التاسع عشر، وتمتدّ واجهته التي تتخلّلها الاعمدة والمؤلّفة من ثلاثة طوابق على كامل عرض ساحة أرميريا المُقام فيها والبالغة خمسمائة قدم. أمّا قلبها فهو عبارة عن متاهة مذهلة من 3,418 غرفة على مساحة تقدّر بنحو مليون ونصف قدم مربّعة. وقد زُيِّنت الصالات، وغرف النوم، والأروقة بمجموعة من الأعمال الفنّية التي لا تقدَّر بثمن؛ بما في ذلك روائع لفيلاسكيز، وغويا، وروبنز.

بقي القصر لأجيال مقرّ سكن ملوك إسبانيا وملكاتها. غير أنّه يُستخدَم اليوم في المقام الأوّل لوظائف الدولة، فيما تقيم الأسرة الملكية في قصر زارزويلا الأكثر بساطة وانعزالا، والواقع خارج المدينة.

لكن في الأشهر الأخيرة، أصبح قصر مدريد الرسمي المقرّ الدائم لولي عهد إسبانيا الأمير جوليان البالغ من العمر 42 عاماً. فقد انتقل إلى القصر بناء على طلب القيّمين عليه الذين أرادوا أن يكون جوليان "أكثر حضوراً في البلاد" خلال هذه الفترة العصيبة التي تسبق تتويجه لاحقاً.

في الواقع، أصبح والد الأمير جوليان- الملك الحالي- طريح الفراش منذ أشهر نتيجة مرض عضال. ومع تلاشي قدراته العقلية، بدأ القصر بنقل السلطة ببطء وإعداد الامير لتولّي العرش بعد وفاة أبيه. وبما أنّ انتقال زمام القيادة أصبح وشيكاً، تحوّلت انظار الإسبان إلى وليّ العهد جوليان، وشغل بالهم سؤال واحد:

أيّ نوع من الحكّام سيكون؟

لطالما كان الأمير جوليان طفلاً متحفّظاً وحذِراً لأنّه حمل على كاهله عبء منصبه القادم منذ صباه. فقد توفّيت أمّه نتيجة مضاعفات الحمل بينما كانت حاملاً بطفلها الثاني، وقرّر الملك- خلافاً لتوقّعات كثيرين- ألّا يتزوّج ثانية، وهكذا بقي جوليان الوريث الوحيد للعرش الإسباني.

وريث بلا احتياطي؛ هكذا وصفته الصحف البريطانية ببرودة.

وبما أنّ جوليان نشأ تحت جناح أبيه المحافظ بشدّة، فقد اعتقد معظم الإسبان التقليديين أنّه سيتمسّك بتقاليد ملوكهم المترمّتة، ويحافظ على مهابة العرش الإسباني من خلال الإبقاء على الأعراف القائمة والاحتفال بالطقوس المعتادة، والأهمّ من كلّ شيء؛ احترام تاريخ إسبانيا الكاثوليكي الغني.

لقرون من الزمن، شكّل إرث الملوك الكاثوليك مركز إسبانيا الأخلاقي. ولكن، في السنوات الأخيرة، بدا أنّ الأساس الديني للبلاد يتحلّل، لتجد إسبانيا نفسها عالقة وسط صراع عنيف بين القديم جداً والجديد جداً.

كان ثمّة عدد متنامٍ من الليبراليين الذين يجتاحون المدوّنات ووسائل التواصل الاجتماعي بشائعات مفادها أنّه ما إن يتمكّن جوليان أخيراً من الخروج من ظلّ أبيه حتّى يكشف عن وجهه الحقيقي كزعيم علماني، وتقدّمي جريء مستعدّ أخيراً للسير على خطى الكثير من الدول الأوروبية وإلغاء الملكية تماماً.

في الحقيقة، كان والد جوليان ناشطاً جدّاً في دوره كملك، ولم يترك له مساحة كبيرة للمشاركة في السياسة. فقد أعلن بصراحة أنّه على جوليان أن يستمتع بشبابه، وأنّه لا يجد انخراطه في مسائل الدولة قبل أن يتزوّج ويستقرّ أمراً منطقياً. وهكذا، كانت السنوات الأربعون الأولى من حياة جوليان- المدوّنة بتفاصيلها في الصحافة الإسبانية- عبارة عن مدارس خاصّة، وركوب خيل، وقصّ أشرطة، وجمع تبرّعات، وسفر حول العالم. ومع أنّ الأمير لم ينجز الكثير في حياته، إلّا أنّه كان من دون أدنى شكّ العازب الأكثر جاذبية في إسبانيا.

وعلى مرّ السنوات، تواعد الأمير الوسيم البالغ من العمر 42 عاماً علناً مع عدد لا يحصى من النساء الجديرات به. وعلى الرغم من سمعته كرومنسي ميؤوس منه، لم تتمكّن إحداهنّ من الاستيلاء على قلبه يوماً. لكن في الأشهر الأخيرة، شوهِد جوليان عدّة مرّات مع امرأة جميلة. ومع أنّها بدت مثل عارضة أزياء متقاعدة، إلّا أنّها كانت في الواقع مديرة متحف غوغنهايم بيلباو التي تحظى باحترام كبير.

وسرعان ما أشادت وسائل الإعلام بأمبرا فيدال وقالت إنّها "المرأة المثالية لملك عصري . فقد كانت مثقّفة وناجحة، والأهمّ من ذلك كلّه؛ ليست سليلة إحدى الأسر الإسبانية النبيلة. كانت أمبرا فيدال من الشعب.

بدا أنّ الأمير قد وافق على تقييم الصحف. وبعد مدّة قصيرة، عرض عليها الزواج بطريقة غير متوقّعة على الإطلاق ورومنسية جدّاً، فقبلت أمبرا فيدال العرض.

وفي الأسابيع التي تلت ذلك، تحدّثت الصحف يومياً عن أمبرا فيدال، وأشارت إلى أنّها ليست مجرّد وجه جميل وحسب، فسرعان ما تبيّن أنّها كانت امرأة شديدة الاستقلالية؛ فقد رفضت رفضاً قاطعاً- على الرغم من كونها ملكة إسبانيا المستقبلية-

السماح للحرس الملكي (الغوارداريال) بالتدخّل في برنامجها اليومي، أو توفير الحماية لها سوى في المناسبات العامّة الكبرى.

وعندما اقترح قائد الحرس الملكي سرّاً أن تبدأ أمبرا بارتداء ملابس محافِظة وفضفاضة أكثر، حوّلت المسألة إلى نكتة علنية، وقالت إنّها تلقّت توبيخاً من قائد "الغواردارووبيا ريال"؛ الخزانة الملكية.

عرضت المجلّات الليبرالية صورها على جميع أغلفتها. "أمبرا! مستقبل إسبانيا الجميل!". وعندما رفضت إعطاءها مقابلات، مدحتها على أنّها "مستقلّة". أمّا عندما منحتها مقابلة، فأثنت على "تواضعها".

فيما ردّت المجلّات المحافظة عبر الاستهزاء بالملكة المستقبلية الجديدة الصاخبة، ووصفتها بأنّها انتهازية تسعى إلى السلطة، وسيكون لها تأثير خطير على الملك المستقبلي. وكدليل على ذلك، استشهدت بتجاهلها الصارخ لسمعة الأمير.

وتركّز اهتمام تلك المجلّات الأوّل على عادة أمبرا في مخاطبة الأمير جوليان باسمه الأوّل وحسب، متجاهلة الأعراف التي تفرض عليها الإشارة إليه باسم دون جوليان أو سو *ألتيزا*، أي سموّ الأمير.

أمّا تخوّفها الثاني فبدا أكثر خطورة. فخلال الأسابيع الماضية، انشغلت أمبرا بجدول أعمال مزدحم فرض عليها غياباً تامّاً عن الأمير؛ علماً أنّها شوهدت مراراً في بيلباو وهي تتناول الغداء بالقرب من المتحف مع ملحد معروف، ألا وهو عالم التكنولوجيا الأميركي إدموند كيرش.

وعلى الرغم من إصرار أمبرا على أنّ وجبات الغداء كانت مجرّد اجتماعات عمل مع أحد أكبر المتبرّعين للمتحف، إلّا أنّ مصادر من داخل القصر أشارت إلى أنّ دماء جوليان بدأت تغلي.

ومن يلومه؟ فحقيقة الأمر أنّ خطيبة جوليان الساحرة، وبعد أسابيع وحسب من ارتباطهما رسمياً، اختارت قضاء معظم وقتها مع رجل آخر.

الفصل 23

بقي وجه لانغدون مضغوطاً بقوّة على العشب، وكان وزن العميل فوقه ساحقاً. الغريب أنّه لم يكن يشعر بشيء.

كانت عواطف لانغدون مبعثرة ومخدّرة، وتتراوح بين الحزن والخوف والغضب. فأحد ألمع العقول في العالم، وواحد من أعزّ أصدقائه قد قُتِل للتوّ علناً بأكثر الطرائق وحشية. *لقد قُتل قبل لحظات وحسب من إعلانه عن أكبر اكتشاف في حياته.*

أدرك لانغدون الآن أنّ الخسارة المأساوية لحياة بشرية قد ترافقت مع خسارة ثانية؛ خسارة علمية.

الآن، قد لا يعرف العالم أبداً ما اكتشفه إدموند.

اجتاحته موجة غضب مفاجئة، تبعها قرار حازم.

سأبذل كلّ ما في وسعي لمعرفة المسؤول عن هذه الجريمة. سأحافظ على إرثك يا إدموند، وسأجد طريقة لأطلع فيها العالم على اكتشافك.

قال الحارس على مقربة من أذنه: "لقد عرفتَ. كنتَ متوجّهاً إلى المنصّة وكأنّك تتوقّع حدوث شيء".

فأجاب لانغدون وهو بالكاد يتنفّس: "لقد... تمّ... تحذيري".

"من قبل من؟!".

استطاع لانغدون أن يشعر بالسمّاعة الملتوية على خدّه. "السمّاعة الموجودة على وجهي... إنّها دليل آلي. لقد حذّرني كمبيوتر إدموند كيرش. فقد عثر على اسم غريب في قائمة الضيوف، أميرال متقاعد من البحرية الإسبانية".

كان رأس الحارس قريباً من أذن لانغدون بما فيه الكفاية ليسمع الصوت الآتي عبر السمّاعة. كان الصوت لاهثاً وملحّاً، وعلى الرغم من أنّ إسبانية لانغدون لم تكن جيّدة، إلّا أنّه استطاع فهم النبأ السيّئ.

el asesino ha huido .

لقد هرب القاتل.

salida bloqueada .

تمّ إقفال أحد المخارج.

uniforme militar blanco .

ما إن نطق الجهاز بعبارة "زيّ عسكري"، حتّى خفّف الحارس من ضغطه على جسد لانغدون. سأل شريكه: "أهو زيّ البحرية؟ أهو أبيض... زيّ أميرال؟".

أتى الردّ إيجابياً.

زيّ البحرية. لقد كان وينستون على حقّ.

أطلق الحارس سراح لانغدون ونهض عنه قائلاً: "استدر

فانقلب لانغدون على ظهره متألّماً، ثمّ اعتدل على مرفقيه. كان رأسه يدور وصدره يؤلمه.

قال الحارس: "لا تتحرّك".

لم يكن لانغدون ينوي أن يتحرّك. فقد كان الحارس الواقف أمامه يملك نحو مائتي باوند من العضلات الصلبة، وقد أثبت له منذ قليل أنّه في غاية الجدّية بشأن عمله.

صاح الحارس عبر اللاسلكي بالإسبانية: "حالاً!". وهو يواصل طلب الدعم العاجل من السلطات المحلية ووضع حواجز حول المتحف.

الشرطة المحلّية... حواجز طرق...

رأى لانغدون من موقعه أمبرا فيدال التي كانت لا تزال على الأرض على مقربة من الجدار الجانبي. حاولت الوقوف، ولكنّها تعثّرت وانهارت مجدّداً على يديها وركبتيها.

فليساعدها أحد!

لكنّ الحارس كان يصيح في تلك اللحظة في أرجاء القبّة، وبدا أنّه لا يكلّم شخصاً معيّناً. "*¡Luces! ¡Y cobertura de móvil!*" أحتاج إلى مصابيح وخدمة هاتف.

مدّ لانغدون يده وعدّل السمّاعة على وجهه.

"وينستون، هل أنت هناك؟".

التفت الحارس ورمق لانغدون بغرابة.

كان صوت وينستون خافتاً. "أنا هنا".

"وينستون، لقد قُتِل إدموند. نحن بحاجة إلى عودة الإضاءة حالاً، كما نحتاج إلى إعادة خدمة الهاتف الخلوي. هل يمكنك فعل ذلك أو الاتّصال بشخص ليقوم به؟".

بعد ثوانٍ، أضيئت مصابيح القبّة فجأة، وزال الوهم السحري بوجود مرجٍ يضيئه القمر، لتظهر مساحة من العشب الاصطناعي الذي توزّعت عليه بطّانيات مهجورة.

بدا الحارس متفاجئاً من سلطة لانغدون الظاهرة. وما لبث أن مدّ يده وساعده على الوقوف، ثمّ نظر الرجلان إلى بعضهما في الضوء الساطع.

كان الحارس طويل القامة، بطول لانغدون، وذا رأس حليق وجسد قويّ برزت عضلاته من تحت السترة الزرقاء. وقد خلا وجهه الشاحب من التعابير، في حين تركّزت نظرات عينيه الحادّتين على لانغدون مثل أشعة اللايزر.

"لقد ظهرتَ في شريط الفيديو هذه الليلة. أنت روبرت لانغدون".

"أجل بالفعل، فقد كان إدموند كيرش تلميذي وصديقي .

أعلن الحارس بإنكليزية ممتازة: "أنا العميل فونسيكا من الحرس الملكي. أخبرني كيف عرفتَ بأمر زيّ البحرية".

عندها، التفت لانغدون نحو جثّة إدموند الممدّدة بلا حراك على العشب بجانب المنصّة. ركعت أمبرا فيدال بالقرب منها مع اثنين من موظّفي أمن المتحف، وأحد المسعفين الذي توقّف أساساً عن محاولة إنعاشه. فقامت أمبرا بتغطية الجثّة ببطّانية بلطف.

من الواضح أنّ إدموند قد رحل.

شعر لانغدون بالغثيان، وعجز عن رفع نظره عن صديقه القتيل.

قال الحارس بحدّة: "لا نستطيع مساعدته. أخبرني، كيف عرفت؟".

حوّل لانغدون نظره إلى الحارس الذي لم تترك نبرته أيّ مجال لسوء التفسير. لقد كان أمراً.

روى له لانغدون بسرعة ما قاله وينستون عن أنّ برنامج الدليل كشف أنّ سمّاعة أحد الضيوف تمّ التخلّي عنها. وعندما عثر دليل بشري على السمّاعة في حاوية النفايات، تحقّق من اسم الضيف الذي أُعطيت له، وقلق عندما اكتشف أنّ اسمه أضيف إلى قائمة الضيوف في اللحظة الأخيرة.

ضاقت عينا الحارس وقال: "هذا مستحيل! فقائمة الضيوف أغلقت أمس، وتمّ التحقّق من تاريخ الأسماء كافة".

أعلن صوت وينستون عبر سمّاعة لانغدون: "باستثناء هذا الرجل. شعرتُ بالقلق، وقمت ببحث حول اسم الضيف، واكتشفت أنّه كان أميرالاً سابقاً في البحرية الإسبانية، وتمّ تسريحه بسبب الإدمان على الكحول وضغوط الصدمة التي تعرّض لها بعد هجوم إرهابي وقع في إشبيلية قبل خمس سنوات".

نقل لانغدون المعلومات إلى الحارس.

وبدا هذا الأخير غير مصدّق لما يسمعه. "تفجير الكاتدرائية!". قال وينستون للانغدون: "علاوة على ذلك، اكتشفتُ أنّ الضابط لا تربطه أيّ صلة على الإطلاق بالسيّد كيرش؛ الأمر الذي أثار قلقي ودفعني إلى الاتّصال بأمن المتحف ليقوموا بإطلاق الإنذار. لكن، بما أنّني لم أكن أملك معلومات قاطعة، قالوا إنّه لا يجدر بنا تخريب الحدث الذي نظّمه إدموند، لا سيّما وأنّه يُبثّ مباشرة إلى العالم. وبما أنّني أعرف كم عمل إدموند على برنامج الليلة، بدا لي كلامه منطقياً، فاتّصلت بك على الفور يا روبرت على أمل أن تجد هذا الرجل لكي أرسل إليه فريقاً أمنياً بهدوء. كان يجدر بي أن أتّخذ إجراءات أقوى. لقد خذلتُ إدموند".

كان شعور آلة إدموند بالذنب أمراً مثيراً للأعصاب بنظر لانغدون. التفت مجدّداً إلى جثّة إدموند المغطّاة، ورأى أمبرا فيدال تقترب.

تجاهلها فونسيكا الذي كان لا يزال يصبّ كلّ تركيزه على لانغدون مباشرة، وسأله: "هل أعطاك الكمبيوتر اسماً لضابط البحرية المعنيّ؟".

هزّ لانغدون رأسه مجيباً: "اسمه الأميرال لويس أفيلا".

وبينما كان يلفظ الاسم، توقّفت أمبرا في مكانها، وحدّقت إلى لانغدون وقد ارتسم الرعب على وجهها.

لاحظ فونسيكا ردّ فعلها وتوجّه إليها على الفور. "آنسة فيدال، هل تعرفين الاسم؟".

بدت أمبرا عاجزة عن الإجابة، وأخفضت نظرها وحدّقت إلى الأرض كما لو أنّها رأت شبحاً للتوّ.

كرّر فونسيكا سؤاله: "آنسة فيدال، الأميرال لويس أفيلا، هل تعرفين هذا الاسم؟".

لم يترك تعبير الصدمة الذي بدا على وجه أمبرا أدنى شكّ في أنّها تعرف القاتل فعلاً. وبعد لحظة من الدهشة، رفّت عينيها مرّتين، وعاد الصفاء إلى عينيها السوداوين كما لو أنّها كانت في حالة ذهول، ثم همست قائلة: "كلّا... أنا لا أعرف الاسم". ونظرت إلى لانغدون ومن ثمّ إلى الحارس مضيفة: "فوجئت وحسب لكون القاتل ضابطاً في البحرية الإسبانية".

إنّها تكذب. شعر لانغدون بذلك وفوجئ، كما تساءل عن سبب محاولتها إخفاء ردّ فعلها. *لقد رأيت ذلك. لقد عرفت اسم الرجل.*

سأل فونسيكا وهو يتقدّم خطوة أخرى نحو أمبرا: "من كان المسؤول عن قائمة الضيوف؟! من أضاف اسم هذا الرجل؟".

كانت شفتا أمبرا ترتجفان الآن. "لا... لا فكرة لديّ".

قاطع أسئلة الحارس صخبٌ مفاجئ صدر عن أجهزة الهاتف الخلوي التي أخذت ترنّ في أرجاء القاعة. من الواضح أنّ وينستون قد وجد طريقة لإعادة خدمة الهاتف الخلوي، وكان أحد تلك الهواتف يرنّ الآن في جيب سترة فونسيكا.

مدّ الحارس الملكي يده إلى هاتفه، وعندما رأى هوية المتّصل، أخذ نفساً عميقاً ثمّ أجاب: "*Ambra Vidal está a salvo*".

أمبرا فيدال بأمان. حوّل لانغدون نظره إلى المرأة المضطربة التي كانت تنظر إليه أساساً، والتقت نظراتهما، فحدّقا إلى بعضهما طويلاً.

بعد ذلك، سمع لانغدون صوت وينستون يهمس في أذنه: "بروفيسور، أمبرا فيدال تعرف تماماً كيف أُضيف اسم لويس أفيلا إلى قائمة الضيوف؛ فقد قامت بذلك بنفسها".

استغرق لانغدون لحظة لاستيعاب تلك المعلومة.

هل أضافت أمبرا فيدال بنفسها اسم القاتل إلى القائمة؟!

وهي الآن تكذب بشأن ذلك!

وقبل أن يتمكّن لانغدون من فهم هذه المعلومات تماماً، أعطى الحارس أمبرا هاتفه.

وأعلن بالإسبانية: "دون جوليان يرغب في التكلّم معك".

بدت أمبرا غير راغبة في تلقي المكالمة، وأجابت الحارس: "أخبره أنّني بخير وسأتّصل به بعد قليل".

بدا الحارس غير مصدّق على الإطلاق. وغطّى الهاتف بيده وهمس لأمبرا: "سموّ الأمير، دون جوليان، يطلب-"

غير أنّها أجابته بحدّة: "أنا لا أهتمّ لكونه الأمير. إن كان سيصبح زوجي فعليه أن يتعلّم إعطائي مجالاً عندما أحتاج إلى ذلك. لقد شهدت على جريمة للتوّ، وأحتاج إلى دقيقة لنفسي! أخبره أنّني سأتّصل به قريباً".

حدّق فونسيكا إلى المرأة، وومض شيء من الازدراء في عينيه، وبعد ذلك استدار مبتعداً ليواصل المكالمة على انفراد.

بالنسبة إلى لانغدون، ساعده هذا الحديث الغريب في حلّ غموض صغير واحد. *أمبرا فيدال مرتبطة بأمير إسبانيا!* هذا الخبر يفسّر معاملة المشاهير التي تتلقّاها، كما يفسّر وجود الحرس الملكي؛ مع أنّه لا يفسّر بالطبع سبب رفضها التكلّم مع خطيبها. *لا شكّ في أنّ الأمير يكاد يجنّ من القلق إن كان قد شاهد ما حدث على التلفزيون.*

وفي اللحظة نفسها، صُعِق لانغدون عندما أدرك أمراً آخر أكثر خطورة.

ربّاه... أمبرا فيدال على علاقة بقصر مدريد الملكي.

أرسلت هذه المصادفة غير المتوقّعة رعشة خوف في جسده وهو يتذكّر رسالة التهديد الصوتية التي أرسلها الأسقف فالديسبينو لإدموند.

الفصل 24

على مسافة مائتي ياردة من قصر مدريد الملكي، داخل كاتدرائية ألمودينا، حبس الأسقف فالديسبينو أنفاسه للحظة. كان لا يزال مرتدياً ثوب القدّاس، وجالساً أمام جهاز الكمبيوتر المحمول في مكتبه، يشاهد بذهول الصور التي يتمّ نقلها من بيلباو.

ستشكّل هذه الحادثة مادّة إخبارية ضخمة.

منذ الآن، كان اهتمام وسائل الإعلام العالمية منصبّاً على المسألة تماماً. وكانت أهمّ المنافذ الإخبارية تتّصل بمراجع علمية ودينية لاستطلاع آرائها حول العرض الذي قدّمه كيرش، في حين قدّم الجميع فرضيات حول قاتل إدموند كيرش وأسباب قتله. وعلى ما يبدو، اتّفقت وسائل الإعلام على أنّه بحسب الظاهر، ثمّة من كان جادّاً للغاية في منع خروج اكتشاف كيرش إلى النور.

بعد لحظات طويلة من التفكير، تناول فالديسبينو هاتفه الخلوي وقام باتّصال.

أجاب الحاخام كوفيس عند أوّل رنّة، وكان صوته أقرب إلى الصراخ: "هذا رهيب! كنت أشاهد التلفزيون! علينا الذهاب إلى السلطات حالاً وإخبارهم بما نعرفه!".

فأجاب فالديسبينو بنبرة هادئة: "حضرة الحاخام، أنا أوافق على أنّ هذا التحوّل في الأحداث مرعب، ولكن علينا التفكير ملياً قبل اتّخاذ أيّ إجراء".

أجاب كوفيس بحدّة: "ما من شيء لنفكّر فيه! من الواضح أنّ ثمّة شخصاً لا يردعه رادع يريد دفن اكتشاف كيرش، وهو سفّاح! أنا واثق من أنّه هو مَن قتل "سيّد" أيضاً. ولا بدّ أنّه يعرف بأمرنا، وسيحين دورنا قريباً. أنا وأنت ملتزمان أخلاقياً بالذهاب إلى السلطات وإخبارهم بما قاله لنا كيرش".

عندها، أجاب فالديسبينو: "نحن ملتزمان أخلاقياً! يبدو أنّك تريد كشف المعلومات لكي لا يكون لدى أحد دافع لإسكاتنا أنا وأنت شخصياً".

فجادله الحاخام قائلاً: "سلامتنا هي أحد الاعتبارات بالتأكيد، ولكن لدينا التزام أخلاقي تجاه العالم. أنا أدرك أنّ هذا الاكتشاف سيثير التساؤل حول بعض المعتقدات الأساسية. لكنْ، إن كان ثمّة ما تعلّمته في حياتي الطويلة فهو أنّ الإيمان يصمد دوماً؛ حتّى في وجه أعظم العقبات. وأنا أعتقد أنّ الإيمان سيصمد أمام هذه المحنة أيضاً، حتّى لو كشفنا النتائج التي توصّل إليها كيرش".

فما كان من الأسقف إلا أن قال أخيراً وهو يحاول الحفاظ على هدوئه قدر الإمكان: "أنا أسمعك يا صديقي، أسمع التصميم في صوتك، وأحترم رأيك. وأريدك أن تعرف أنّني منفتح على النقاش، لا بل حتّى على تبديل رأيي. ومع ذلك، أطلب منك إن كنت تنوي الإعلان عن هذا الاكتشاف للعالم أن نقوم بذلك معاً، في وضح النهار وبشرف، وليس بدافع اليأس في أعقاب هذا الاغتيال المروّع. دعنا نخطّط لذلك، ونتمرّن عليه، ونضعه في إطاره المناسب".

لم يقل الحاخام شيئاً، لكنّ فالديسبينو سمع الرجل المسنّ يتنفّس.

تابع الأسقف: "أيّها الحاخام، في الوقت الراهن، تُعتبَر سلامتنا الشخصية القضية الأكثر إلحاحاً. فنحن نتعامل مع قتلة، وإن خرجتَ إلى العلن كثيراً، عبر الذهاب إلى السلطات مثلاً أو إلى محطّة تلفزيونية فستكون النهاية عنيفة. وأنا أخشى عليك تحديداً... فأنا أتمتّع بالحماية هنا داخل مجمّع القصر، أمّا أنت... أنت وحيد في بودابست! ومن الواضح أنّ اكتشاف كيرش مسألة حياة وموت. لذا، اسمح لي بأن أقوم بترتيبات حماية من أجلك يا يهودا".

خيّم الصمت على كوفيس قليلاً ثم قال: "من مدريد! كيف–"

"لديّ موارد أمن الأسرة المالكة تحت تصرّفي. الزم بيتك وأقفل أبوابك. وأنا سأطلب من حارسين ملكيين إحضارك إلى مدريد لنتأكّد من أنك بأمان في القصر الملكي. وهكذا، يمكننا أن نجلس أنا وأنت وجهاً لوجه ونناقش أفضل السبل للتحرّك".

سأله الحاخام بتردّد: "إن أتيت إلى مدريد، ماذا لو لم نتّفق أنا وأنت على كيفيّة المضيّ قدماً؟".

فأكّد له الأسقف: "سنتّفق. أنا أعرف أنّني قديم الطراز، ولكنّني واقعيّ أيضاً مثلك. معاً سنجد أفضل مسار للعمل، وأنا واثق من ذلك".

عندها، ضغط عليه كوفيس وقال: "وماذا لو كانت ثقتك في غير محلّها؟".

شعر فالديسبينو بتقلّص في معدته، ولكنّه صمت للحظة وتنهّد، ثمّ أجاب بهدوء قدر الإمكان: "يهودا، إن لم نستطع أنا وأنت في النهاية أن نتّفق على قرار ما فسنفترق كصديقين، وسيفعل كلّ منّا ما يناسبه. أنا أعدك بذلك".

أجاب كوفيس: "شكراً لك. سآتي إلى مدريد عندما تتّصل بي .

"هذا جيّد. في هذه الأثناء، أقفل بابك ولا تكلّم أحداً. احزم حقيبتك، وأنا سأتّصل بك وأزوّدك بالتفاصيل". وصمت هنيهة ثمّ أضاف: "وثق بالربّ، إلى اللقاء قريباً".

أنهى فالديسبينو المكالمة وقد استبدّ به إحساس بالرعب؛ إذ شعر أنّ الاستمرار في السيطرة على كوفيس سيتطلّب أكثر من مجرّد نداء للعقلانية والحذر.

كوفيس يشعر بالذعر، مثل سيّد تماماً.

كلاهما عجزا عن رؤية الصورة الكبرى.

أغلق فالديسبينو جهاز الكمبيوتر وحمله تحت ذراعه، ثمّ مشى عبر حرم الكنيسة المظلم، وخرج من الكاتدرائية بثوب القدّاس إلى هواء الليل البارد، وعبر الساحة باتّجاه واجهة القصر الملكي البيضاء المتوهّجة بالضوء.

وفوق المدخل الرئيس، رأى فالديسبينو شعار إسبانيا الذي كان عبارة عن شارة يحيط بها عمودا هرقل، والشعار القديم بلاس ألترا الذي يعني "أبعد من ذلك". يعتقد البعض أنّ العبارة تشير إلى سعي إسبانيا على مدى قرون إلى توسيع الإمبراطورية خلال عصرها الذهبي، بينما يظنّ آخرون أنها تشير إلى اعتقاد البلاد الراسخ بأنّه ثمّة حياة في السماء بعد هذه الحياة الدنيا.

وفي كلتا الحالتين، أحسّ فالديسبينو بأنّ الشعار يقلّ أهمّية يوماً بعد يوم. وبينما كان يرمق العلم الإسباني الذي يرفرف فوق القصر، تنهّد بحزن، وعادت أفكاره إلى ملكه المريض.

سأفتقد إليه بعد رحيله.

أنا مدين له بالكثير.

منذ أشهر والأسقف يقوم بزيارات يومية لصديقه الحبيب الذي يرقد طريح الفراش في قصر زارزويلا على مشارف المدينة. ومنذ بضعة أيّام، استدعى الملك الأسقف إليه، وكان القلق العميق بادياً في عينيه.

همس الملك: "أنطونيو، أخشى أن تكون خطوبة ابني خطوة... متسرّعة".

ففكر فالديسبينو في سرّه: *إنّها بالأحرى جنونية*.

منذ شهرين، عندما أسرّ الأمير لفالديسبينو بأنّه ينوي أن يعرض الزواج على أمبرا فيدال بعد فترة تعارف قصيرة جدّاً، فوجئ الأسقف وتوسّل إلى جوليان ليكون أكثر تعقّلاً. لكنّ الأمير أكّد أنّه مغرم بها، وأنّ والده يستحقّ أن يرى ابنه الوحيد متزوّجاً. وبالإضافة إلى ذلك، قال إنّه إن كان ينوي تكوين أسرة مع أمبرا، فإنّ سنّها لا تسمح له بالانتظار طويلاً.

ابتسم فالديسبينو وقال للملك بهدوء: "نعم، أنا أوافقك الرأي. لقد فوجئنا جميعاً بعرض الزواج الذي قدّمه دون جوليان. ولكنّه أراد إسعادك وحسب".

فقال الملك: "واجبه تجاه بلاده وليس تجاه أبيه. ومع أنّ الآنسة فيدال لطيفة، إلا أنّنا لا نعرفها، فهي غريبة. وأنا أتساءل عن دوافعها لقبول عرض دون جوليان. فقد كان العرض متسرّعاً جدّاً، وما كان ينبغي لامرأة تتحلّى بالكرامة أن تقبل به".

"أنت على حقّ". أجاب فالديسبينو بذلك، مع أنّه كان يعرف أنّ دون جوليان لم يترك لها مجالاً للرفض.

مدّ الملك يده برفق وأمسك بيد الأسقف النحيلة. "اسمع يا صديقي، أنا لا أعرف كيف مرّ الزمن. لقد كبرنا أنا وأنت، وأودّ أن أشكرك. فقد قدّمتَ لي مشورتك الحكيمة على مرّ السنوات؛ عندما خسرت زوجتي، وخلال التغيّرات التي حلّت ببلادنا، وقد استفدت كثيراً من قوّة قناعاتك".

"صداقتنا شرف سأعتزّ به حتّى آخر يوم في حياتي".

فابتسم الملك بضعف وقال: "أنطونيو، أنا أعلم أنّك قدّمت تضحيات من أجل البقاء معي. منها روما".

هزّ فالديسبينو كتفيه بلا اكتراث وأجاب: "ما كان منصب الكاردينال ليقرّبني من الله أكثر. فمكاني كان هنا دائماً، معك".

"كان ولاؤك نعمة لي".

"وأنا لن أنسى عطفك عليّ خلال كلّ هذه السنوات".

أغمض الملك عينيه وهو ممسك بيد الأسقف بإحكام. "أنطونيو... أنا قلق. قريباً سيجد ابني نفسه على رأس سفينة ضخمة، سفينة ليس جاهزاً لقيادتها. لذا، قم بتوجيهه من فضلك. كن نجمه القطبي. ضع يدك الثابتة فوق يده على الدفّة، لا سيّما في البحار الهائجة. والأهمّ، عندما ينحرف عن المسار الصحيح، أتوسّل إليك أن تساعده ليجد طريق العودة... العودة إلى كلّ ما هو نقيّ".

همس الأسقف: "بالطبع، أنا أعدك".

والآن، في هواء الليل البارد، بينما كان فالديسبينو يشقّ طريقه عبر الساحة، نظر إلى السماء. *جلالة الملك، اعلم أنّني أبذل كلّ ما في وسعي لأنفّذ رغباتك الأخيرة.*

فرح فالديسبينو لمعرفته أنّ مرض الملك لا يسمح له بمشاهدة التلفزيون. *فلو رأى ما عُرِض الليلة من بيلباو، لقُضي عليه فوراً وهو يشاهد ما وصلت إليه بلاده الحبيبة.*

إلى يمين فالديسبينو، خلف الأبواب الحديدية، على طول شارع بايلين، تجمّعت شاحنات وسائل الإعلام وراحت تمدّ أبراج أقمارها الاصطناعية.

انتهازيون؛ هذا ما فكّر فيه فالديسبينو بينما كان هواء المساء يلوّح بردائه.

الفصل 25

قال لانغدون في سره وهو يكافح للسيطرة على عواطفه: *سيحين وقت الحداد. أمّا الآن، فالوقت للعمل.*

كان لانغدون قد طلب من وينستون أن يفتّش في سجلّات أمن المتحف عن أيّ معلومات قد تساعد في القبض على مطلق النار، وأضاف بصوت منخفض أنّه على وينستون أن يبحث عن أيّ صلة بين الأسقف فالديسبينو وأفيلا.

عاد العميل فونسيكا وهو لا يزال يتكلّم عبر الهاتف. كان يقول بالإسبانية: "أجل... أجل. واضح. حالاً". أنهى الاتّصال وحوّل انتباهه إلى أمبرا التي كانت تقف في الجوار في حالة من الذهول.

أعلن العميل بنبرة حادّة: "آنسة فيدال، علينا الرحيل. لقد طلب دون جوليان أن نصطحبك إلى القصر الملكي حالاً، حفاظاً على أمنك".

ظهر التوتّر بوضوح على جسد أمبرا وقالت: "أنا لن أترك إدموند هكذا!". وأشارت برأسها إلى الجثّة المكوّمة تحت البطّانية.

فأجاب فونسيكا: "ستتولّى السلطات المحلّية هذه المسألة. كما أنّ الطبيب الشرعي في طريقه إلى هنا. أؤكّد لك أنّ السيّد كيرش سيُعامَل باحترام وبعناية كبيرة. أمّا الآن، فعلينا الرحيل. إذ نخشى أن تكوني في خطر

أعلنت أمبرا وهي تتقدّم خطوة باتّجاه العميل: "بالتأكيد أنا لست في خطر! فقد كانت أمام القاتل فرصة مثالية لإطلاق النار عليّ ولم يفعل. من الواضح أنّه كان يلاحق إدموند!".

ظهرت الأوردة في عنق فونسيكا وقال: "آنسة فيدال، يريدك الأمير في مدريد. إنّه قلق على سلامتك".

أجابت بحدّة: "كلّا، بل هو قلق من التداعيات السياسية".

عندها، تنهّد فونسيكا ببطء وقال بصوت خافت: "آنسة فيدال، ما جرى الليلة كان ضربة عنيفة لإسبانيا وللأمير على السواء. فاستضافتك لهذا الحدث كان قراراً مؤسفاً".

فجأة، تردّد صوت وينستون في رأس لانغدون: "بروفيسور، كان فريق أمن المتحف يحلّل تسجيلات الكاميرا خارج المبنى، ويبدو أنّهم وجدوا شيئاً".

أصغى إليه لانغدون، ثمّ لوّح بيده لفونسيكا الذي توقّف عن لوم أمبرا بعد هذه المقاطعة. "سيّدي، يقول الكمبيوتر إنّ الكاميرات المثبّتة على سطح المتحف التقطت صورة جزئية لسطح السيّارة التي فرّ بها القاتل".

بدا الاستغراب على فونسيكا وسأله: "حقّاً؟".

أخذ لانغدون ينقل المعلومات التي يزوّده بها وينستون: "سيّارة سيدان سوداء تغادر زقاق الخدمة... لوحتا السيّارة غير مقروءتين من تلك الزاوية العالية... ملصق غير اعتيادي على الزجاج الأمامي".

فسأله فونسيكا: "ما هذا الملصق؟ يمكننا أن نطلب من السلطات المحلية البحث عنه".

أجاب وينستون: "لم أتعرّف على الملصق، لكنّني قارنت شكله بجميع الرموز المعروفة في العالم، وحصلت على ملصق مشابه واحد".

فوجئ لانغدون من مدى سرعة وينستون في إنجاز كلّ ذلك.

قال وينستون: "الملصق الذي حصلت عليه هو لرمز خيميائي قديم، الدمج".

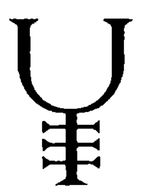
أستميحك عذراً!؟ توقّع لانغدون أن يكون شعاراً لمرأب سيّارات أو منظّمة سياسية. "ملصق السيّارة هو رمز... الدمج؟!".

بدا فونسيكا تائهاً تماماً.

وقال لانغدون: "لا بدّ من وجود خطأ. فلماذا يعرض أحدهم رمزاً لعملية خيميائية؟".

أجاب وينستون: "لا أدري. هذا هو الرمز الوحيد المشابه الذي حصلت عليه، وهو مطابق بنسبة 99 بالمائة".

وسرعان ما استحضرت ذاكرة لانغدون الصورية الرمز الخيميائي للدمج.



"وينستون، صف لي تماماً ما تراه على نافذة السيّارة".

أجاب الكمبيوتر على الفور: "يتألف الرمز من خط عمودي واحد تتخلّله ثلاثة خطوط عرضية. وعلى قمّة الخطّ العمودي يوجد قوس مقلوب نحو الأعلى".

إنّه كذلك بالفعل. عبس لانغدون. "هل ثمّة لمسات أخيرة على أعلى القوس؟".

"أجل، هناك خطّ أفقي قصير على رأس كلّ ذراع".

حسناً إذاً، إنّه الدمج.

وقف لانغدون حائراً للحظة. "وينستون، هل يمكنك أن ترسل لنا صورة من تسجيلات الأمن؟".

"بالطبع".

قال فونسيكا: "أرسلها إلى هاتفي".

فأعطاه لانغدون رقم هاتف العميل، وبعد لحظة رنّ جهاز فونسيكا. تجمّعوا كلّهم حول العميل، وراحوا ينظرون إلى الصورة الضبابية السوداء والبيضاء. كانت لقطة من الأعلى لسيارة سيدان سوداء في زقاق خدمة خالٍ.

وعلى الزاوية السفلية اليسرى للزجاج الأمامي، رأى لانغدون بالفعل ملصقاً يعرض الرمز نفسه الذي وصفه وينستون.

الدمج. كم هذا غريب!

مدّ لانغدون يده واستخدم أصابعه لتكبير الصورة على شاشة فونسيكا، ثمّ مال إلى الأمام وتأمّل الصورة بتفاصيلها.



وعلى الفور، لاحظ لانغدون المشكلة، فأعلن قائلاً: "هذا ليس رمز الدمج".

فمع أنّ الصورة كانت قريبة جداً ممّا وصفه وينستون، إلّا أنّها لم تكن مطابقة. وفي علم الرموز، قد يكون الفرق بين "قريب" و"مطابق" كالفرق بين الصليب النازي المعقوف ورمز الازدهار البوذي.

لهذا السبب، يبقى العقل البشري أفضل من الكمبيوتر أحياناً.

قال لانغدون: "هذا ليس ملصقاً واحداً، بل هذان ملصقان مختلفان متداخلان قليلاً. الملصق السفلي يمثّل صليباً خاصّاً يسمّى الصليب البابوي. وهو شعبي جدّاً في الوقت الراهن.

فمع انتخاب الحبر الأكثر ليبرالية في تاريخ الفاتيكان، راح آلاف الناس حول العالم يظهِرون دعمهم للسياسات البابوية الجديدة من خلال عرض الصليب الثلاثي، حتّى في مسقط رأس لانغدون في كامبردج، بماساتشوستس.

قال لانغدون: "أمّا الرمز العلوي الذي يتّخذ شكل حرف U اللاتيني فهو ملصق آخر تماماً".

قال وينستون: "أرى الآن أنك على حقّ. سأعثر على رقم هاتف الشركة".

وهنا أيضاً تعجّب لانغدون من سرعة وينستون. *هل تعرف على شعار الشركة؟*

قال لانغدون: "ممتاز. إن اتّصلنا بهم فسنتمكّن من تعقّب السيّارة".

بدا فونسيكا حائراً: "تعقّب السيّارة! وكيف ذلك؟".

قال لانغدون مشيراً إلى الحرف U على الزجاج الأمامي: "السيّارة التي فرّ بها القاتل مستأجرة. إنّها تابعة لشركة أوبر

الفصل 26

أمام تعابير عدم التصديق التي طغت على وجه فونسيكا، لم يستطع لانغدون أن يحدّد ما الذي فاجأ العميل أكثر؛ أهو سرعة تفكيك الملصق على الزجاج، أم اختيار الأميرال أفيلا الغريب للسيّارة التي فرّ بها؟

لقد استأجر سيّارة من شركة أوبر. تساءل لانغدون عما إذا كانت تلك الخطوة غاية في الذكاء أم قصيرة النظر إلى حدّ لا يصدّق.

كانت خدمة سيّارات الأجرة التي تقدّمها شركة أوبر في جميع أنحاء العالم قد انتشرت بسرعة مذهلة خلال السنوات الأخيرة. فبواسطة الهاتف الذكي، يمكن لأيّ شخص يحتاج إلى الذهاب إلى مكان معيّن أن يتّصل على الفور بجيش متنامي العدد من سائقي أوبر الذين يكسبون مالاً إضافياً من خلال توظيف سيّاراتهم كسيّارات أجرة عند الحاجة إليهم. والشركة التي نالت حديثاً إذن العمل في إسبانيا، طلبت من سائقيها الإسبان عرض رمز الشركة U على الزجاج الأمامي. ومن الواضح أنّ سائق هذه السيّارة كان مولعاً بالبابا الجديد.

قال لانغدون: "حضرة العميل فونسيكا، يقول وينستون إنّه قام من تلقاء نفسه بإرسال صورة السيّارة إلى السلطات المحلّية لتوزيعها على حواجز الطرقات".

فغر فونسيكا فاه دهشة، وشعر لانغدون أنّ هذا العميل المتدرّب تدريباً عالياً لم يكن معتاداً على لعبة الغمّيضة. فقد بدا متردّداً بين شكر وينستون أو أمره بالاهتمام بشؤونه.

"وهو الآن يطلب رقم الطوارئ لشركة أوبر".

فأمره فونسيكا: "كلّا! أعطني الرقم، سأتّصل بهم بنفسي. فمن المحتمل أن تكون الشركة أكثر استعداداً لمساعدة عميل في الحرس الملكي".

أقرّ لانغدون بأنّ فونسيكا محقّ على الأرجح. كما بدا أنّه من الأفضل بكثير أن يساعد الحرس الملكي في مطاردة الفارّ، عوضاً عن هدر مهاراتهم في اصطحاب أمبرا إلى مدريد.

بعد الحصول على الرقم من وينستون، اتّصل فونسيكا بالشركة، وشعر لانغدون بثقة متزايدة في إمكانية إلقاء القبض على القاتل في غضون دقائق. كان تحديد مواقع

السيّارات يشكّل أساس عمل أوبر. فبإمكان أيّ عميل يحمل هاتفاً ذكياً الوصول فعليّاً إلى المواقع الدقيقة لجميع سائقي أوبر على الأرض، وما كان على فونسيكا سوى الطلب من الشركة تحديد موقع السائق الذي اصطحب للتوّ راكباً من خلف متحف غوغنهايم.

أخذ العميل يشتم قائلاً: "المضيف! الآلي". ثمّ طبع بعصبية رقماً على لوحة المفاتيح وانتظر؛ بعدما وصل على ما يبدو إلى قائمة خيارات آلية. "بروفيسور، ما إن أتمكّن من الاتّصال بأوبر والطلب منهم تعقّب السيّارة حتى أسلّم هذه المسألة إلى السلطات المحلّية. وهكذا، سنقوم أنا والعميل دياز بنقلكما أنت والآنسة فيدال إلى مدريد".

أجاب لانغدون مجفلاً: "أنا؟! كلّا، لا يمكنني الانضمام إليكم".

"بل يمكنك وستفعل، أنت ودميتك هذه". وأضاف تلك الجملة الأخيرة وهو يشير إلى سمّاعة لانغدون.

فأجاب لانغدون بنبرة أكثر قسوة: "أنا آسف، لكن يستحيل عليّ أن أرافقكم إلى مدريد".

أجاب فونسيكا: "هذا غريب! ظننت أنّك بروفيسور في جامعة هارفرد".

فنظر إليه لانغدون باستغراب وقال: "أنا كذلك بالفعل".

وقال فونسيكا بحدّة: "هذا جيّد. إذاً، أفترض أنّك ذكيّ بما فيه الكفاية لتدرك أنّك لا تملك الخيار

وعند ذلك، ابتعد العميل وعاد إلى مكالمته الهاتفية.

راقبه لانغدون وهو يذهب. *لكن، ما الذي يجري؟*

"بروفيسور". كانت أمبرا قد اقتربت من لانغدون جداً وهمست من خلفه: "هلّا تصغي إليّ، الأمر في غاية الأهميّة".

فاستدار لانغدون، وفوجئ من تعبير الخوف العميق الذي بدا على وجه أمبرا. يبدو أنّ الصدمة الصامتة التي أصابتها قد انقضت، وكانت نبرتها يائسة وواضحة.

قالت: "بروفيسور، لقد أظهر لك إدموند احتراماً كبيراً عندما خصّص لك جزءاً من هذا العرض. لهذا السبب، سأثق بك. عليّ إخبارك شيئاً".

فرمقها لانغدون بتردّد.

همست وقد فاضت عيناها البنّيتان بالدموع: "إنّ مقتل إدموند خطئي أنا".

"المعذرة!".

فنظرت أمبرا بعصبية إلى فونسيكا الذي كان الآن بعيداً عنهما، ثمّ التفتت مجدّداً إلى لانغدون وقالت: "أعني قائمة الضيوف؛ الاسم الذي أضيف في اللحظة الأخيرة".

"أجل، لويس أفيلا".

اعترفت بصوت متهدّج: "أنا التي أضفت ذلك الاسم. كنت أنا!".

ذُهل لانغدون. *كان وينستون على حقّ...*

قالت وهي على شفير البكاء: "أنا السبب في مقتل إدموند. أنا التي أدخلت القاتل إلى هذا المبنى".

فقال لانغدون وهو يضع يده على كتفها المرتجفة: "مهلاً، قولي لي، لماذا أضفتِ اسمه؟".

ألقت نظرة قلقة أخرى إلى فونسيكا الذي كان لا يزال يتحدث عبر الهاتف على بعد عشرين ياردة. "بروفيسور، لقد تلقّيت طلباً في اللحظة الأخيرة من شخص أثق به كثيراً، وقد طلب منّي أن أضيف اسم الأميرال أفيلا إلى قائمة الضيوف كخدمة شخصية له. أتى الطلب قبل دقائق وحسب من فتح الأبواب، وكنت شديدة الانشغال، ولذلك أضفت الاسم من دون تفكير. أعني أنّه كان أميرالاً في البحرية! فكيف لي أن أعلم؟!". نظرت مجدّداً إلى جثّة إدموند، وغطّت فمها بيدها النحيلة. "والآن...".

همس لانغدون: "أمبرا، من الذي طلب منك إضافة اسم أفيلا؟".

ازدردت أمبرا لعابها وقالت: "كان خطيبي... وليّ عهد إسبانيا، دون جوليان".

حدّق إليها لانغدون غير مصدّق، وحاول استيعاب كلامها. لقد ادّعت مديرة غوغنهايم للتوّ أنّ وليّ عهد إسبانيا قد شارك في التخطيط لمقتل إدموند كيرش. *هذا مستحيل!*

قالت: "أنا واثقة أنّ القصر لم يتوقّع إطلاقاً أن أعرف هويّة القاتل. لكن الآن وقد علمت... أخشى أن أكون في خطر".

وضع لانغدون يده على كتفها وقال: "أنت بأمان تامّ هنا".

فهمست بإصرار: "كلّا، ثمّةَ أمور تجري هنا لا تفهمها أنت. علينا الخروج من هذا المكان حالاً أنا وأنت!".

فعارضها لانغدون قائلاً: "لا يمكننا الهرب. لن نتمكّن أبداً-"

أصرّت عليه قائلة: "أرجوك، أصغِ إليّ. أنا أعرف كيف نساعد إدموند".

شعر لانغدون أنّها لا تزال تحت تأثير الصدمة. "عفواً! لا يمكن مساعدة إدموند بعد الآن".

فأصرّت بنبرة واثقة: "بل هذا ممكن. لكن، أوّلاً علينا الوصول إلى منزله في برشلونة".

"ماذا تقولين؟".

"أصغِ إليّ جيّداً من فضلك. أنا أعرف ما الذي يريد منّا إدموند فعله".

وخلال الثواني الخمس عشرة التالية، تحدّثت أمبرا فيدال إلى لانغدون بصوت خافت. وبينما كانت تتكلّم، شعر لانغدون بنبضه يتسارع. *ربّاه، إنّها على حقّ. هذا يغيّر كلّ شيء.*

وعندما أنهت كلامها، نظرت إليه بتحدٍّ. "والآن، هل فهمت لمَ علينا الذهاب؟".

فهزّ لانغدون رأسه موافقاً بلا تردّد، ثمّ تحدّث لانغدون عبر سمّاعته قائلاً: "وينستون، هل سمعت ما قالته لي أمبرا للتوّ؟".

"أجل بروفيسور

"هل كنت على علم بذلك؟".

"كلّا".

فكّر لانغدون بما سيقوله جيّداً: "وينستون، أنا لا أدري إن كان باستطاعة أجهزة الكمبيوتر أن تشعر بالولاء لمخترعيها. ولكن، إن كنت تستطيع ذلك، فهذه لحظة الحقيقة، وبإمكاننا حقّاً أن نستفيد من مساعدتك".

الفصل 27

بينما كان لانغدون متوجّهاً نحو المنصّة، أبقى عينيه على فونسيكا الذي كان لا يزال منهمكاً في مكالمته الهاتفية مع أوبر. راقب أمبرا وهي تتوجّه من دون قصد ظاهر إلى وسط القبّة، وتتكلّم على هاتفها هي الأخرى، أو تتظاهر بذلك على الأقلّ؛ تماماً كما اقترح عليها لانغدون.

أخبري فونسيكا أنّك قرّرت الاتّصال بالأمير جوليان.

وعندما وصل لانغدون إلى المنصّة، تحوّل نظره على مضض إلى الجثّة المكوّمة على الأرض. *إدموند*. رفع بلطف البطّانية التي غطّته بها أمبرا. عيناه اللتان كانتا تشعّان حيوية في ما مضى أصبحتا الآن مجرّد شقّين خاليَين من الحياة تحت ثقب قرمزي في جبينه. ارتجف لانغدون أمام هذا المشهد واعتصر الحزن والغضب قلبه.

للحظة، رأى مجدّداً الطالب الشابّ بشعره الأملس يدخل الصفّ وهو يضجّ أملاً وموهبة، ليواصل بعد ذلك إنجاز الكثير في وقت قصير جدّاً. والليلة، أقدم أحدهم على قتل هذا الإنسان الموهوب جدّاً بطريقة مروّعة؛ في محاولة واضحة لدفن اكتشافه إلى الأبد.

ما لم أتّخذ خطوة جريئة، لن يرى أهمّ إنجازاته النور.

وقف لانغدون في نقطة حجبت جزئيّاً خطّ رؤية فونسيكا، ثمّ ركع بجانب جثّة إدموند، وأغمض عينيه، وجمع يديه معاً مُتّخِذاً وضعية الصلاة.

إن المفارقة الكامنة في الصلاة على ملحد دفعت لانغدون إلى الابتسام تقريباً. *إدموند، أنا أعرف أنّك دوناً عن كلّ الناس لا تريد أن يصلّي من أجلك أحد. لا تقلق يا صديقي، فأنا لست هنا من أجل الصلاة.*

وبينما كان راكعاً فوق إدموند، قاوم لانغدون خوفاً متعاظماً. *لقد أكّدتُ لك أنّ الأسقف لن يؤذيك. لكن، إن تبيّن أنّ فالديسبينو متورّط في هذه...* ثم أبعد لانغدون تلك الفكرة عن ذهنه.

وما إن تأكّد من أنّ فونسيكا رآه يصلّي حتى مال إلى الأمام خفية، ومدّ يده إلى داخل سترة إدموند، ثمّ أخرج هاتفه الفيروزي الضخم.

استرق نظرة أخرى سريعة إلى فونسيكا الذي كان لا يزال يتحدّث عبر الهاتف، وبدا الآن أقلّ اكتراثاً بلانغدون منه بأمبرا التي بدت منهمكة في مكالمتها وهي تزداد ابتعاداً عن فونسيكا.

أعاد لانغدون نظره إلى هاتف إدموند وأخذ نفساً لتهدئة أعصابه.

أمر واحد بعد.

وبلطف شديد، مدّ يده ورفع يد إدموند اليسرى التي أصبحت باردة أساساً، ثمّ وضع الهاتف تحت أنامله، وضغط بحذر سبّابة إدموند على قرص التعرّف على البصمات.

فأصدر الهاتف "تكّة" وفُتِح.

عندئذٍ، فتح لانغدون قائمة الإعدادات بسرعة، وعطّل ميزة كلمة المرور. *تمّ إلغاء القفل نهائيّاً*. أخيراً، دسّ الهاتف في جيبه، وغطّى جثّة إدموند مجدّداً بالبطّانية.

ارتفع صوت صفّارات الإنذار بعيداً بينما وقفت أمبرا بمفردها في وسط القاعة الخالية وهي تحمل هاتفها الخلوي على أذنها، متظاهرة بأنّها مستغرقة في مكالمة. وكانت مدركة تماماً أنّ نظرات فونسيكا لا تفارقها.

أسرِع يا روبرت.

منذ دقيقة، انطلق البروفيسور الأميركي إلى العمل بعدما أطلعته أمبرا على حديث جرى مؤخّراً بينها وبين إدموند كيرش. وقالت له أمبرا إنّها منذ ليلتين كانت تعمل في ساعة متأخّرة مع إدموند في هذه القاعة بالذات على التفاصيل الأخيرة للعرض، عندما أخذ إدموند استراحة لتناول كوب عصير السبانخ الثالث لتلك الليلة.

لاحظت أمبرا مدى إنهاكه وقالت له: "لا بدّ لي يا إدموند من القول إنّ هذا النظام الغذائي النباتي لا ينفعك. فأنت تبدو شاحباً ونحيلاً جدّاً".

فضحك مجيباً: "نحيلاً جدّاً! انظروا من يتكلّم؟".

"أنا لست نحيلة جدّاً!".

"بل مثل خطّ الحدود". وغمزها ممازحاً أمام تعبيرها الساخط. "أمّا بالنسبة إلى شحوبي، فلا تكترثي. فأنا مهووس بالكمبيوتر، وأجلس طوال اليوم أمام وهج شاشة إل سي دي".

"حسناً، ولكنّك ستتوجّه إلى العالم بأكمله خلال يومين، وبعض اللون لن يضرّك. يجب عليك إمّا أن تخرج إلى الهواء الطلق غداً، أو تخترع شاشة كمبيوتر تمنحك بعض السمرة".

فبدا عليه الإعجاب وقال: "هذه ليست فكرة سيئة. عليك أن تسجّلي هذا الاختراع باسمك". ثمّ ضحك وحوّل اهتمامه إلى العمل. "إذاً، كلّ شيء على ما يرام بالنسبة إلى ترتيب أحداث مساء السبت، أليس كذلك؟".

فأومأت أمبرا برأسها إيجاباً وهي تنظر إلى الأوراق وقالت: "سأستقبل الناس في قاعة الانتظار، ثمّ سننتقل جميعاً إلى قاعة المحاضرات هذه من أجل شريط الفيديو الذي سيُعرَض كمقدّمة، لتظهر أنت بعد ذلك كالسحر على المنصّة هناك". وأشارت إلى مقدّمة الغرفة مضيفة: "بعد ذلك، ستعلن عن اكتشافك على المنصّة".

فقال إدموند: "ممتاز، لكن ثمّة إضافة صغيرة. فعندما أتكلّم على المنصّة، سيكون ذلك أقرب إلى استراحة؛ فرصة بالنسبة لي لأرحّب بضيوفي شخصياً، وأتيح لهم تحريك أرجلهم، وأحضّرهم قليلاً بعد قبل أن أبدأ الجزء الثاني من الأمسية؛ أي عرض الوسائط المتعدّدة الذي يفسّر اكتشافي".

"إذاً، هل الإعلان نفسه مسجّل، مثل المقدّمة؟".

"أجل، أنهيتُه منذ بضعة أيّام. فنحن في زمن الثقافة البصرية، وعروض الوسائط المتعدّدة هي دائماً أكثر رسوخاً من مجرّد عالِم يتكلّم على المنصّة".

قالت أمبرا: "أنت لست بالضبط مجرّد عالم، ولكنّني أوافقك الرأي. أنا توّاقة جدّاً لمشاهدته".

كانت أمبرا تعرف أنّ إدموند قام بحفظ العرض على خوادمه الشخصية الموثوقة خارج الموقع، لأغراض أمنية. وأنه سيتمّ بثّ كلّ شيء بشكل مباشر عبر نظام العرض في المتحف من موقع بعيد.

سألته: "عندما تصبح جاهزاً للجزء الثاني! من سيشغّل العرض، أنت أم أنا؟".

فقال وهو يخرج هاتفه: "سأقوم بذلك بنفسي، بواسطة هذا". ثمّ رفع هاتفه الذكي الضخم ذا غلاف غاودي الفيروزي وقال: "كلّ هذا جزء من العرض. وما عليّ سوى الاتّصال بخادمي البعيد على شبكة مشفّرة...".

وضغط إدموند بضعة أزرار، فرنّ مكبّر الصوت مرّة واحدة واتّصل.

أجاب صوت أنثوي إلكتروني: "مساء الخير إدموند. أنا انتظر كلمة السرّ".

فابتسم إدموند. "بعد ذلك، وأمام أعين العالم أجمع، سأطبع كلمة السرّ في هاتفي، ليتمّ بثّ اكتشافي بشكل مباشر على مسرحنا هنا، وإلى العالم بأسره في وقت واحد".

قالت أمبرا بإعجاب: "كم هذا دراماتيكي! ما لم تنسَ كلمة السرّ بالطبع".

"سيكون هذا محرجاً، أجل".

سألته ممازحة: "أتوقّع أن تكون قد دوّنتها".

فقال إدموند ضاحكاً: "مستحيل! فعلماء الكمبيوتر لا يدوّنون كلمات السرّ مطلقاً. لكن، لا داعي للقلق. فكلمة السرّ لا تتجاوز سبعة وأربعين حرفاً. وأنا واثق أنّني لن أنساها".

عندها، اتّسعت عينا أمبرا دهشة وقالت: "سبعة وأربعون حرفاً!؟ إدموند، أنت لم تتذكّر رقم التعريف الشخصي المؤلّف من أربعة أرقام لبطاقة أمن المتحف الخاصّة بك! كيف ستتذكّر سبعة وأربعين حرفاً عشوائياً؟".

فضحك مجدّداً وقال: "لست مضطرّاً لذلك، فهي ليست عشوائية". وأخفض صوته قائلاً: "في الواقع، كلمة السرّ هي بيت الشعر المفضّل لديّ".

عندها، شعرت أمبرا بالحيرة وسألته: "هل استخدمت بيت شعر ككلمة سرّ؟".

"ولمَ لا؟ بيت الشعر المفضّل لديّ مؤلّف من سبعة وأربعين حرفاً بالضبط".

حسناً، ولكنّه لا يبدو لي آمناً تماماً".

"حقّاً! هل تظنّين أنّه بإمكان أحد تخمين بيت الشعر المفضّل لديّ؟"

"أنا لم أكن أعرف حتّى أنّك تحبّ الشعر

"بالضبط. وحتّى لو اكتشف أحدهم أنّ كلمة السرّ بيت من الشعر، وحتّى لو خمّن أحدهم ذلك البيت من بين ملايين الاحتمالات، فإنّه لن يحزر رقم الهاتف الطويل جدّاً الذي أستخدمه لأطلب خادمي الآمن".

"هل تعني رقم الهاتف الذي طلبته للتوّ من هاتفك؟".

"أجل، هذا الهاتف يملك رقم تعريف شخصياً خاصّاً به، ولا يترك جيب سترتي الداخلي أبداً".

فرفعت أمبرا يديها وهي تبتسم بمرح وقالت: "حسناً، أنت الرئيس. بالمناسبة، من هو شاعرك المفضّل؟".

عندها، قال وهو يهزّ سبّابته: "محاولة جيّدة. عليك الانتظار حتّى يوم السبت. فبيت الشعر الذي اخترته كامل". وابتسم مضيفاً: "إنّه عن المستقبل، توقّع، ويسرّني القول إنّه يتحقّق بالفعل".

والآن، مع عودة أفكار أمبرا إلى الوقت الحاضر، نظرت إلى جثّة إدموند، وأدركت بشيء من الذعر أنّها لم تعد ترى لانغدون.

أين هو؟!

وما أثار قلقها أكثر هو رؤيتها الحارس الثاني، العميل دياز، وهو يصعد مجدّداً إلى القبّة من خلال الشقّ في الجدار القماشي. حدّق دياز إلى أرجاء القبّة، ثمّ بدأ يسير نحوها مباشرة.

لن يدعني أغادر هذا المكان أبداً!

فجأة، أصبح لانغدون بجانبها. وضع يده برفق على ظهرها، وبدأ يقودها بعيداً. توجّه الاثنان بسرعة إلى الطرف المقابل للقبّة؛ نحو الممرّ الذي دخل منه الجميع.

صاح دياز: "آنسة فيدال! إلى أين تذهبين؟".

"سنعود حالاً". هتف لانغدون بذلك وهو يحثّ خطاه عبر القاعة الخالية، متوجّهاً في خطّ مباشر نحو الجزء الخلفي من القاعة ونفق الخروج.

"سيّد لانغدون!". كان ذلك صوت العميل فونسيكا يصيح خلفهما. "أنت ممنوع من مغادرة هذه الغرفة!".

شعرت أمبرا بيد لانغدون تضغط بإلحاح أكثر على ظهرها.

همس لانغدون عبر السمّاعة: "وينستون، الآن!".

بعد لحظة، غرقت القبّة بأكملها في الظلام الدامس.

الفصل 28

اندفع العميل فونسيكا وشريكه دياز عبر القبّة المظلمة، وحاولا إضاءة طريقهما بمصباحَي هاتفيهما الخلويين، ثمّ دخلا عبر النفق الذي اختفى فيه لانغدون وأمبرا.

وفي منتصف النفق، وجد فونسيكا هاتف أمبرا ملقى على الأرض المسكوّة بالسجّاد، فذُهِل تماماً.

هل تخلّصت أمبرا من هاتفها؟

كان الحارس الملكي قد استخدم تطبيق تعقّب بسيطاً جدّاً- بإذن من أمبرا- لمعرفة موقعها في كلّ وقت. وثمّة تفسير واحد لتركها الهاتف وراءها: لقد أرادت الهرب من حمايتهما.

ثارت أعصاب فونسيكا عندما أدرك ذلك، ولكنّه شعر بقلق أكبر وهو يحاول أن يتخيّل كيف سيبلغ رئيسه أنّ ملكة إسبانيا المنتظرة مفقودة. فقد كان قائد الحرس الملكي مهووساً ولا يرحم عندما يتعلّق الأمر بحماية مصالح الأمير. والليلة، قام بتكليفه شخصياً بتعليمات بسيطة جدّاً: "حافظ على سلامة أمبرا فيدال، وأبعدها عن المتاعب".

لا يمكنني الحفاظ على سلامتها ما لم أعرف مكانها!

أسرع الحارسان إلى آخر النفق، ووصلا إلى قاعة الاستقبال المظلمة التي بدت الآن وكأنّها قاعة أشباح، مع مجموعة الوجوه المصدومة والشاحبة التي تضيئها شاشات الهواتف الخلوية التي يحاول أصحابها التواصل مع العالم الخارجي ورواية ما شاهدوه للتوّ.

أخذ بعض الأشخاص يصيحون: "أضيئوا المصابيح!".

رنّ هاتف فونسيكا، فردّ على المتّصل.

قال صوت امرأة بإسبانية متوتّرة: "حضرة العميل فونسيكا، معك أمن المتحف. نحن نعرف أنّ المصابيح مطفأة، ويبدو أنّ السبب عطل في جهاز الكمبيوتر. سنعيد الإضاءة خلال لحظات".

سألها فونسيكا: "هل تسجيلات الأمن الداخلية ما زالت تعمل؟". فقد كان يعرف أنّ الكاميرات مجهّزة كلّها برؤية ليلية.

"أجل".

تحقّق فونسيكا من الغرفة المظلمة. "لقد دخلت أمبرا فيدال قاعة الاستقبال خارج المسرح الرئيس. هل يمكنكم رؤية المكان الذي ذهبت إليه؟".

"لحظة واحدة من فضلك".

انتظر فونسيكا وقلبه ينبض بقوّة من شدّة الغضب، فقد تلقّى للتوّ خبراً مفاده أنّ شركة أوبر تواجه صعوبة في تعقّب السيّارة التي فرّ بها مطلق النار.

لن تنقصنا المشاكل هذه الليلة.

لسوء الحظّ، كانت هذه الليلة هي المرّة الأولى التي توكل إليه فيها مهمّة حماية أمبرا فيدال. فعادة، بصفته أحد كبار الضبّاط، كان يُكلَّف بالأمير جوليان نفسه فقط. غير أنّ رئيسه اصطحبه جانباً هذا الصباح وقال له: "الليلة ستستضيف الآنسة فيدال حدثاً ضدّ رغبات الأمير جوليان. لذا، عليك أن ترافقها وتحرص على سلامتها".

غير أنّ فونسيكا لم يتخيّل على الإطلاق أن يكون الحدث الذي استضافته أمبرا هجوماً شرساً على الإيمان، وأن يتحوّل إلى عمليّة اغتيال عالمية. وكان لا يزال يحاول أن يهضم رفض أمبرا بغضب استلام مكالمة الأمير جوليان الذي كان قلقاً عليها.

بدا كلّ شيء لا يصدَّق، وكان سلوكها الغريب يتصاعد. وعلى ما يبدو، كانت أمبرا فيدال تحاول التخلّص من الحماية الأمنية لكي تهرب مع بروفيسور أميركي.

إن سمع الأمير جوليان بذلك...

عاد صوت المرأة: "حضرة العميل فونسيكا، يمكننا رؤية الآنسة فيدال تغادر قاعة الاستقبال مع شخص آخر. ذهبا عبر الشرفة، ودخلا للتوّ القاعة التي تضمّ معرض لويز بورجوا، *CELLS* (حجرات). خرجا من الباب، انعطفا يميناً، قاعة العرض الثانية، إلى يمينك".

"شكراً لك! استمرّي بتعقّبهما!".

أخذ فونسيكا ودياز يجريان عبر قاعة الاستقبال، ثمّ خرجا إلى الشرفة. وفي الأسفل، استطاعا رؤية حشود الزوّار وهم ينتقلون بسرعة عبر الردهة باتّجاه الأبواب.

إلى اليمين، تماماً كما قالت موظّفة الأمن، رأى فونسيكا باباً يؤدّي إلى قاعة كبيرة، وكُتب على لافتة العرض: CELLS.

كانت القاعة الضخمة تضمّ مجموعة من الحاويات الشبيهة بالأقفاص، وتحتوي كلّ منها على منحوتة بيضاء غريبة الشكل.

صاح فونسيكا: "آنسة فيدال! سيّد لانغدون!".

وحين لم يتلقَّ العميلان جواباً، بدأا بالبحث.

على مسافة عدّة غرف خلف الحارسَين الملكيَين، خارج قاعة القبّة مباشرة، كان لانغدون وأمبرا يتسلّقان بحذر متاهة من السقالات، ويشقّان طريقهما بصمت نحو إشارة "مخرج" المضاءة بضوء خافت في البعيد.

كانت الإجراءات الدقيقة الأخيرة التي قاما بها ضبابية إلى حدّ ما، مع تعاون لانغدون ووينستون على تنفيذ خطّة سريعة.

كان لانغدون قد كوّن صورة ذهنية للمسافة بين موقعهما ومخرج النفق، وكان تقديره مطابقاً تقريباً. عند مدخل النفق، رمت أمبرا هاتفها في الممرّ المظلم. وبعد ذلك، وعوضاً عن دخول النفق، استدارا وبقيا داخل القبّة، ثمّ عادا أدراجهما على طول الجدار الداخلي، وهما يمرّران أيديهما على القماش إلى أن عثرا على الفتحة الممزّقة التي خرج منها الحارس الملكي لملاحقة قاتل إدموند. وبعدما تسلّقا من خلال تلك الفتحة، مشيا نحو الجدار الخارجي للغرفة، وتوجّها نحو لافتة مضاءة تشير إلى سلّم مخرج الطوارئ.

تذكّر لانغدون باستغراب السرعة التي قرّر بها وينستون مساعدتهما. إذ كان وينستون قد قال: "إن كان من الممكن إطلاق إعلان إدموند بواسطة كلمة سرّ، إذاً لا بدّ من إيجادها واستخدامها على الفور. فالأمر الأصلي الذي تلقّيته كان مساعدة إدموند بكلّ الطرائق الممكنة لإنجاح إعلانه هذه الليلة. وكما هو واضح، لقد خذلته في ذلك، ولكنّني مستعدّ لفعل أيّ شيء لتصحيح هذا الخطأ".

كان لانغدون على وشك أن يشكر وينستون، لكنّ هذا الأخير راح يتكلّم بسرعة هائلة. تدفّق الكلام منه بسرعة رهيبة، مثل كتاب سمعي تمّ تشغيله بسرعة زائدة.

قال وينستون: "لو كان بإمكاني أنا نفسي الوصول إلى محاضرة إدموند لقمت بذلك فوراً. لكن كما سمعت، المحاضرة محفوظة على خادم آمن خارج هذا الموقع. ويبدو أنّنا لكي نعلن اكتشافه للعالم، لسنا بحاجة سوى إلى هاتفه المخصّص وكلمة المرور. وقد قمت أساساً ببحث في النصوص المنشورة كافة عن بيت من الشعر من سبعة وأربعين حرفاً، ولسوء الحظّ، أتى عدد الاحتمالات بمئات الآلاف، إن لم يكن أكثر، اعتماداً على كيفيّة تقسيم الأبيات. بالإضافة إلى ذلك، وبما أنّ واجهات إدموند تحظر المستخدمين عموماً بعد بضع محاولات فاشلة لإدخال كلمة السرّ، سيكون من المستحيل إجراء محاولات عديدة. وهذا ما يترك لنا خياراً واحداً: علينا إيجاد كلمة السرّ بطريقة أخرى. أنا أوافق الآنسة فيدال في أنّه عليكما الذهاب حالاً إلى منزل إدموند في برشلونة. فمن المنطقي، إن كان لديه بيت مفضّل من الشعر أن يملك كتاباً يحتوي على تلك القصيدة. ومن الممكن أن يكون قد حدّد ذلك البيت المفضّل بطريقة ما. وبالتالي، أرى أنّ الاحتمال عالٍ جدّاً بأن تكون تلك رغبة إدموند؛ أي أن تذهبا إلى برشلونة وتجدا كلمة

السرّ وتستخدمانها لإطلاق إعلانه بحسب الخطّة. بالإضافة إلى ذلك، لقد تأكّدتُ الآن أنّ المكالمة الهاتفية التي أتت في اللحظة الأخيرة والتي طلبت إضافة اسم الأميرال أفيلا إلى قائمة الضيوف خرجت بالفعل من القصر الملكي في مدريد؛ كما أفادت الآنسة فيدال. ولهذا السبب، قرّرت أنّنا لا نستطيع الوثوق بعميلَي الحرس الملكي، وسأضع خطّة لإلهائهما وتسهيل فراركما".

الغريب حقّاً أنّ وينستون وجد على ما يبدو طريقة لفعل ذلك.

وصل لانغدون وأمبرا الآن إلى مخرج الطوارئ. فتح لانغدون الباب بهدوء، وقاد أمبرا عبره، ثمّ أغلقه خلفهما.

قال وينستون الذي عاد صوته يتردّد في رأس لانغدون: "هذا جيّد، أصبحتما على السلّم".

سأله لانغدون: "وماذا عن العميلَين؟".

أجاب وينستون: "إنّهما بعيدان. أنا حالياً معهما عبر الهاتف، أؤدّي دور موظّفة أمنية في المتحف وأوجّههما إلى صالة عرض في الطرف الآخر للمبنى".

هذا لا يصدَّق! فكّر لانغدون بذلك وهو يومئ برأسه لطمأنة أمبرا. "كلّ شيء على ما يرام".

قال وينستون: "اهبطا السلّم إلى الطابق الأرضي، واخرجا من المتحف. أرجو أن تعرفا أيضاً أنّه فور خروجكما من المبنى، لن تعود السمّاعة متّصلة بي".

تبّاً! لم يخطر ذلك ببال لانغدون، فقال بسرعة: "وينستون، هل تعلم أنّ إدموند قد أطلع عدداً من الزعماء الدينيين في الأسبوع الماضي على اكتشافه؟".

"يبدو هذا بعيد الاحتمال، مع أنّ المقدّمة التي عرضها الليلة أشارت ضمناً إلى أنّ لعمله تداعيات دينية عميقة، ولذلك ربّما رغب في مناقشة النتائج التي توصّل إليها مع زعماء من ذلك المجال؟".

"أعتقد ذلك، أجل. لكنّ أحدهم كان الأسقف فالديسبينو من مدريد".

"هذا مثير للاهتمام. أرى الكثير من المراجع على الشبكة تفيد بأنّه مستشار مقرّب جدّاً من ملك إسبانيا".

قال لانغدون: "أجل، ثمّة أمر أخير. هل كنت تعلم أنّ إدموند قد تلقّى رسالة تهديد صوتية من فالديسبينو بعد اجتماعه بهم؟".

"كلّا، لم أكن أعلم. لا بدّ أنّها أتت على خطّ خاصّ".

"لقد أسمعني إيّاها إدموند. في الرسالة، حثّه فالديسبينو على إلغاء العرض، وحذّره أيضاً من أنّ رجال الدين الذين استشارهم إدموند يفكّرون في إعلان وقائي لتقويض إعلانه بطريقة ما قبل أن يخرج إلى العلن . أبطأ لانغدون من سرعته على السلّم ليسمح

لأمبرا بأن تتقدّمه. وبعد ذلك، أخفض صوته مضيفاً: "هل وجدت أيّ علاقة بين فالديسبينو والأميرال أفيلا؟".

صمت وينستون بضع ثوانٍ. "لم أجد علاقة مباشرة، لكنّ هذا لا يعني عدم وجود أيّ علاقة، بل يعني وحسب أنّها ليست موثّقة".

اقتربا من الطابق الأرضي.

قال وينستون: "بروفيسور، إن سمحت لي... نظراً إلى الأحداث التي وقعت هذا المساء، يشير المنطق إلى أنّه ثمّة قوى نافذة مُصمِّمة على دفن اكتشاف إدموند. وبما أنّ العرض الذي قدّمه أشار إليك على أنّك الشخص الذي ساعد على إلهامه هذا الاكتشاف، فإنّ أعداءه قد يعتبرونك خطراً".

لم يكن لانغدون قد فكّر إطلاقاً بهذا الاحتمال، فأحسّ بشيء من الخوف مع بلوغه الطابق الأرضي. كانت أمبرا هناك، تدفع باباً معدنياً لفتحه.

قال وينستون: "عندما تخرجان، ستجدان نفسيكما في زقاق. اذهبا إلى اليسار حول المبنى، وتقدّما على طول النهر. من هناك سأسهّل نقلكما إلى الموقع الذي ذكرناه من قبل".

BIO-EC346، تذكّر لانغدون العنوان الذي طلب من وينستون أخذهما إليه. *المكان الذي كان ينبغي أن نلتقي فيه أنا وإدموند بعد الحدث*. كان لانغدون قد فكّك الشيفرة أخيراً، وأدرك أنّ BIO-EC346 ليس اسم نادٍ علمي سرّي على الإطلاق، بل كان شيئاً عادياً جدّاً. ومع ذلك، أمل أن يكون مفتاح فرارهما من بيلباو.

هذا إن تمكنّا من الوصول إلى هناك من دون أن يفتضح أمرنا... فقد كان يعرف أنّ الحواجز ستنتشر على جميع الطرقات. *علينا أن نتحرّك بسرعة.*

وعندما اجتاز لانغدون وأمبرا العتبة إلى هواء الليل البارد، فوجئ لدى رؤيته ما يشبه حبّات المسبحة المتناثرة على الأرض. لم يكن لديه الوقت للتساؤل عن السبب، فوينستون كان لا يزال يتحدّث.

قال: "ما إن تصلا إلى النهر، اذهبا إلى المنتزه تحت جسر لا سالف، وانتظرا إلى أن–"

وتشوّش صوت وينستون فجأة ولم يعد مفهوماً.

صاح لانغدون: "وينستون، إلى أن... ماذا؟!".

لكنّ صوت وينستون كان قد اختفى، وصُفِق الباب المعدني خلفهما.

الفصل 29

على بعد أميال جنوباً، على مشارف بيلباو، انطلقت سيّارة سيدان تابعة لشركة أوبر جنوباً على طول الطريق السريع AP-68 متّجهة إلى مدريد. وعلى المقعد الخلفي، خلع الأميرال أفيلا سترته البيضاء وقبّعة البحرية، وتمتّع بإحساس الحرية وهو جالس يفكّر بفراره السهل.

تماماً كما وعده الوصيّ.

على الفور تقريباً بعد أن استقلّ سيّارة أوبر، أخرج أفيلا مسدّسه، وضغطه على رأس السائق المرتجف. وبناء على أمر أفيلا، ألقى السائق هاتفه الذكي من النافذة، وقطع اتّصال السيّارة الوحيد بمركز الشركة.

بعد ذلك، فتّش محفظة الرجل، وسجّل في ذاكرته عنوان منزله وأسماء زوجته وولديه، ثمّ قال له: *نفّذ ما أقوله وإلّا فستخسر أفراد أسرتك*. فابيضّت عقد أصابع الرجل الممسك بالمقود، وعرف أفيلا أنّه بات لديه سائق مطيع لهذه الليلة.

أصبحتُ الآن غير مرئي؛ هذا ما فكّر فيه أفيلا بينما كانت سيّارات الشرطة تنطلق في الاتّجاه المعاكس يرافقها دوي صفّارات الإنذار.

ومع انطلاق السيّارة جنوباً، جلس أفيلا استعداداً للرحلة الطويلة، واستمتع بالاسترخاء الذي أعقب موجة الأدرينالين القوية التي اجتاحت جسده. *لقد خدمتُ القضية جيّداً*. نظر إلى الوشم على يده مدركاً أنّ الحماية التي أمّنها له كانت تدبيراً وقائياً لا لزوم له. *حتّى الآن على الأقلّ*.

وبعدما بات واثقاً أنّ سائق أوبر المرعوب سيطيع أوامره أخفض مسدّسه. ومع إسراع السيّارة نحو مدريد، حدّق مجدّداً إلى الملصقين على زجاج السيّارة الأمامي.

تساءل: *ما هي نسبة الفرص؟*

كان الملصق الأوّل متوقّعاً: رمز أوبر. أمّا الثاني، فلا يمكن أن يكون سوى إشارة من الأعلى.

الصليب الباباوي. أصبح الرمز منتشراً في كلّ مكان هذه الأيّام؛ إذ كان الكاثوليك في كلّ أنحاء أوروبا يُظهِرون تضامنهم مع البابا الجديد، ويُشيدون بميله إلى تحرير الكنيسة وتحديثها.

المفارقة أنّ تهديد السائق بالسلاح تحوّل إلى تجربة ممتعة تقريباً عندما أدرك أفيلا أنّ الرجل من أنصار البابا الليبرالي. فقد كان أفيلا يشعر بالنفور إزاء حبّ الجماهير الكسولة لهذا الحبر الجديد الذي كان يسمح لأتباع المسيح بانتقاء القوانين الإلهية واختيارها كمن يختار الطعام من طاولة ملأى بالأطباق، وباتّباع القواعد التي يستسيغونها. وهكذا، بين ليلة وضحاها، طُرِحت على طاولة النقاش في الفاتيكان مسائل مثل: تحديد النسل، والكهنة الإناث، وغيرها من القضايا الليبرالية. وبدا كما لو أنّ ألفي عام من التقاليد قد تبخّرت في غمضة عين.

لحسن الحظّ، ما زال ثمّة من يناضلون من أجل التقاليد القديمة.

سمع أفيلا أنغام نشيد أوريامندي تُعزف في رأسه.

ولي الشرف بخدمتهم.

الفصل 30

تمتاز نخبة قوّات الأمن الإسبانية وأكثرها قدماً، الحرس الملكي، بتقاليد شديدة الرسوخ يعود تاريخها إلى العصور الوسطى. إذ يعتبر عملاء الحرس الملكي أنّ واجبهم الذي أقسموا عليه أمام الله يتمثّل في ضمان سلامة الأسرة الملكية وحماية أملاكها والدفاع عن شرفها.

كان القائد دييغو غارزا، المشرف على الحرس الملكي المؤلّف من نحو ألفي عنصر، في العقد السادس من عمره، قصير القامة، نحيل الجسد، أسمر البشرة، يمتاز بعينين صغيرتين وشعر أسود خفيف مسرّح إلى الخلف فوق فروة رأس تتخلّلها البقع. وبتلك الملامح الشبيهة بالقوارض وقامته الصغيرة، كان من السهل عليه الاختفاء في الحشد؛ الأمر الذي ساعده على تمويه تأثيره الهائل داخل جدران القصر.

كان غارزا قد تعلّم منذ زمن بعيد أنّ السلطة الحقيقية لا تنبع من القوّة الجسدية، بل من النفوذ السياسي. وقيادته للحرس الملكي منحته النفوذ بلا أدنى شكّ، لكنّ الدهاء السياسي هو الذي جعل من غارزا مرجعيّة في القصر في مجموعة كبيرة من المسائل، الشخصية والمهنية على حدٍّ سواء.

كان غارزا بئراً عميقة من الأسرار، ولم يخن ثقة أحد يوماً. وقد جعل منه رشده وقدرته الخارقة على حلّ المشاكل الحسّاسة شخصاً لا غنى عنه بالنسبة إلى الملك. لكنّ غارزا وآخرين في القصر يواجهون اليوم مستقبلاً غير واضح المعالم مع تقدّم ملك إسبانيا في السنّ، وانسحابه إلى قصر زارزويلا ليمضي فيه أيّامه الأخيرة.

على مدى أكثر من أربعة عقود، حكم الملك بلاداً مضطربة، وأسّس ملَكية برلمانية بعد ستّة وثلاثين عاماً من الحكم الدكتاتوري الدموي الذي مارسه الجنرال فرانسيسكو فرانكو المحافِظ إلى حدّ التطرّف. ومنذ وفاة فرانكو عام 1975، حاول الملك التعاون مع الحكومة لتعزيز العمليّة الديمقراطية في إسبانيا، ودفع البلاد ببطء إلى اليسار مجدّداً.

بالنسبة إلى الشباب، كانت التغييرات بطيئة جدّاً.

أمّا بالنسبة إلى التقليديين المسنّين، كانت خطيئة.

ما زال الكثيرون من أعضاء الكنيسة الإسبانية يدافعون بشدّة عن عقيدة فرانكو المحافظة، ولا سيّما وجهة نظره التي تعتبر الكاثوليكية "دين دولة" والعمود الفقري

للأمـة. لكنّ عدداً متعاظماً من شباب إسبانيا عارضوا هذا الرأي بشدّة، ونـدّدوا بجرأة بالنفاق الذي يمارسه الدين المنظَّم، كما ضغطوا من أجل مزيد من الفصل بين الكنيسة والدولة.

والآن، مع استعداد أمير في منتصف العمر للجلوس على العرش، لم يكن أحد متأكّداً من الاتّجاه الذي سيسلكه الملك الجديد. فخلال العقود الماضية، أدّى الأمير جوليان بطريقة مثيرة للإعجاب واجباته الاحتفالية، وترك المسائل السياسية لأبيه، ولم يُظهِر يوماً- وإن عن غير قصد- معتقداتِه الشخصية. وفي حين يشتبه معظم النقّاد في أنّه سيكون أكثر ليبرالية من والده، إلّا أنّه ما من سبيل حقّاً للتأكّد من ذلك.

أمّا الليلة، فسيتمّ رفع الحجاب.

في ضوء الأحداث المروّعة التي وقعت في بيلباو، وعدم قدرة الملك على التحدّث علناً بسبب سوء حالته الصحية، لن يكون أمام الأمير خيار سوى التعبير عن رأيه بشأن الأحداث المؤسفة التي وقعت هذه الليلة.

كان عدد من المسؤولين الحكوميين رفيعي المستوى- بمن فيهم رئيس البلاد- قد أدانوا الجريمة، وامتنعوا عن الإدلاء بالمزيد من التعليقات حتّى صدور بيان من الحرس الملكي، ليُلقوا بذلك بكلّ الفوضى على كاهل الأمير جوليان. ولم يُفاجَأ غارزا بذلك إطلاقاً، فتورُّط الملكة المستقبلية، أمبرا فيدال، جعل من هذه القضية قنبلة سياسية لا يجرؤ أحد على لمسها.

سيخضع الأمير جوليان للاختبار هذه الليلة. هذا ما فكّر فيه غارزا وهو يسرع باتّجاه السلّم الكبير المؤدّي إلى الأجنحة الملكية في القصر. *سيكون بحاجة إلى المشورة، وبما أنّ والده عاجز عن ذلك، لا بدّ أن تأتي المشورة منّي.*

اجتاز غارزا رواق جناح السكن الطويل، ووصل أخيراً إلى باب الأمير. أخذ نفساً عميقاً ثمّ طرق الباب.

ولمّا لم يأتِه جواب، قال لنفسه: "*غريب، أعلم أنّه في الداخل*". فبحسب ما قاله له العميل فونسيكا الموجود في بيلباو، اتّصل الأمير جوليان به للتوّ من جناحه. كان يحاول الوصول إلى أمبرا فيدال للتأكّد من سلامتها، وكانت بخير بفضل الله.

طرق غارزا الباب مجدّداً، وشعر بقلق متزايد عندما بقي بلا جواب.

ففتح الباب بعجل، ونادى وهو يدخل: "دون جوليان؟".

كان جناح الأمير مظلماً، باستثناء وهج التلفاز في غرفة المعيشة. "مرحباً؟".

أسرع غارزا بالدخول، ليجد الأمير جوليان واقفاً بمفرده في الظلام بلا حراك أمام النافذة الكبيرة. كان لا يزال ببذلته الرسمية التي ارتداها لحضور اجتماعته هذا المساء، ولم يفعل سوى حلّ ربطة عنقه.

راقبه غارزا بصمت، وشعر بالقلق إزاء حالة الأمير. *يبدو أنّ هذه الأزمة قد سبّبت له صدمة.*

تنحنح غارزا ليعلن عن وجوده.

وعندما تكلّم الأمير أخيراً، فعل ذلك من دون أن يستدير ويبتعد عن النافذة: "عندما اتّصلت بأمبرا، رفضت التحدّث معي". بدا جوليان من نبرته حائراً أكثر من كونه مجروحاً.

لم يعرف غارزا بماذا يجيب. فنظراً إلى أحداث هذه الليلة، بدا غريباً أن يكون جوليان مشغولاً بعلاقته مع أمبرا. فتلك الخطوبة كانت متوتّرة منذ بداياتها المتسرّعة.

قال غارزا بصوت خافت: "أعتقد أنّ الآنسة فيدال لا تزال تحت تأثير الصدمة. سيقوم العميل فونسيكا بإيصالها إليك لاحقاً هذا المساء، وستتمكّنان من التكلم عندها. حمداً لله على سلامتها".

أومأ الأمير جوليان برأسه بشرود.

قال غارزا محاولاً تغيير الموضوع: "يجري حالياً تعقّب مطلق النار. وقد أكّد لي فونسيكا أنّهم سيقبضون على الإرهابي قريباً". واستخدم كلمة "إرهابي" عمداً؛ أملاً في إخراج الأمير من شروده.

لكنّ الأمير اكتفى بإيماءة أخرى.

تابع غارزا: "لقد ندّد الرئيس بعملية الاغتيال، لكنّ الحكومة تأمل أن تقوم بالإدلاء بتعليق آخر... نظراً لتورّط أمبرا بالحدث". وصمت هنيهة ثمّ أضاف: "أنا أدرك أنّ الوضع محرج، بسبب خطوبتكما، ولكنّني أقترح أن تقول إنّ من أكثر الأشياء التي تعجبك في خطيبتك استقلاليّتها. ومع أنّك تعلم أنّها لا تشارك إدموند كيرش آراءه السياسية، إلّا أنّك تشيد باحترامها لالتزاماتها كمديرة للمتحف. وسيسرّني أن أكتب شيئاً لك إن أردت. إذ ينبغي أن نُعِدّ البيان في الوقت المناسب من أجل دورة الأخبار الصباحية".

لم يرفع جوليان نظره عن النافذة وقال: "أودّ أخذ رأي الأسقف فالديسبينو بشأن أيّ بيان يصدر عنّا".

توتّر فكّ غارزا، ولكنّه كتم احتجاجه. فإسبانيا ما بعد فرانكو كانت دولة غير دينية، ولم يعد يفترض بالكنيسة المشاركة في المسائل السياسية. لكنّ الصداقة الوثيقة التي تجمع بين فالديسبينو والملك منحت الأسقف دائماً قدراً غير عادي من التأثير على الشؤون اليومية للقصر. ولسوء الحظّ، إنّ سياسة فالديسبينو المتشدّدة وحماسته الدينية لا تتركان مجالاً للدبلوماسية واللباقة المطلوبتين للتعامل مع أزمة هذه الليلة.

نحن بحاجة إلى الدهاء والبراعة، وليس إلى العقيدة والألعاب النارية!

كان غارزا يعلم منذ وقت طويل أنّ مظهر فالديسبينو الورع يُخفي خلفه حقيقة بسيطة جدّاً؛ فلطالما خدم الأسقف فالديسبينو احتياجاته الخاصّة قبل خدمة الله. وحتّى وقت قريب، استطاع غارزا أن يتجاهل ذلك. لكن الآن، ومع تحوّل ميزان القوى في القصر، شعر بقلق كبير لدى رؤيته الأسقف يسابق للسيطرة على جوليان.

فالديسبينو مقرّب من الأمير أكثر من اللزوم.

كان غارزا يعلم أنّ جوليان لطالما اعتبر الأسقف فرداً من الأسرة، وكان أقرب إلى عمّ موثوق به منه إلى مُمثِّل لسلطة دينية. وباعتباره من أقرب المقرّبين إلى الملك، فقد كُلِّف بالإشراف على التربية الأخلاقية لجوليان الشابّ، وتولّى تلك المهمّة بتفانٍ وإخلاص. فكان يشرف على كلّ معلّمي جوليان، ويعرّفه على العقائد الدينية، وينصحه حتّى بشأن مسائل القلب. والآن بعد سنوات من الزمن، بقي الرابط الذي يجمع بين جوليان وفالديسبينو قوياً، حتّى لو لم يريا بعضهما.

قال غارزا بصوت هادئ: "دون جوليان، أنا أشعر أنّ الوضع هذه الليلة ينبغي أن نعالجه أنت وأنا وحدنا".

فأعلن صوت رجل في الظلام خلفه: "حقّاً!".

عندها، استدار غارزا ليرى شبح رجل يرتدي ثوباً كنسياً جالساً في الظلام.

فالديسبينو.

قال الأسقف بصوت أقرب إلى الهسيس: "لا بدّ لي من القول أيّها القائد إنّني تخيّلت أن تدرك أنت- دوناً عن جميع الناس- مدى الحاجة إليّ هذه الليلة".

فقال غارزا بحزم: "هذه مسألة سياسية وليست دينية".

أجاب فالديسبينو ساخراً: "صدور هذا الكلام عنك يشير إلى أنّني بالغت في تقدير فطنتك السياسية. فبرأيي، ثمّة جواب واحد مناسب على هذه الأزمة. علينا على الفور أن نؤكّد للأمّة أنّ الأمير جوليان رجل شديد التديّن، وأنّ ملك إسبانيا المستقبلي كاثوليكي مخلص .

"أنا أوافقك... وسنورد إشارة إلى إيمان دون جوليان في أيّ بيان يصدره".

"وعندما يظهر الأمير جوليان أمام الصحافة، سيحتاج إلى وجودي إلى جانبه، مع يدي على كتفه، كرمز قويّ للرابط المتين الذي يجمعه بالكنيسة. فهذه الصورة كافية لطمأنة الأمّة أكثر من أيّ نصّ قد تكتبه".

ارتعش غارزا من شدّة التوتّر.

أضاف فالديسبينو: "لقد شاهد العالم للتوّ بثّاً حيّاً لاغتيال وحشي على الأراضي الإسبانية. وفي أوقات العنف، ما من شيء يطمئن القلوب مثل الرجوع إلى الله".

الفصل 31

يمتدّ جسر زيتشيني المعلّق، وهو أحد الجسور الثمانية في بودابست، على مسافة تزيد عن ألف قدم فوق نهر الدانوب. ويُعتبَر الجسر الذي يُشكّل شعاراً للصلة بين الشرق والغرب أحد أجمل الجسور في العالم.

ما الذي أفعله؟! تساءل الحاخام كوفيس وهو يطلّ من فوق الدرابزين على المياه السوداء في الأسفل. *لقد نصحني الأسقف بالبقاء في المنزل.*

كان كوفيس يعلم أنّه لا ينبغي له المغامرة بالخروج، لكنه كلّما شعر بالقلق، كان هذا الجسر يجذبه إليه دائماً. فعلى مدى سنوات، تنزّه هنا ليلاً للتفكير وهو يتأمّل هذا المنظر الخالد. إلى الشرق، في بست، ارتفعت واجهة قصر غريشام المضيئة بجلال أمام أبراج أجراس بازيليك سانت إسطفان. وإلى الغرب، في بودا، على قمة تلّة كاسل هيل، بدت أسوار قلعة بودا المحصّنة. أمّا شمالاً، على ضفاف الدانوب، فامتدّت الأبراج الأنيقة لمبنى البرلمان؛ الأكبر في جميع أرجاء المجر.

غير أنّ كوفيس اشتبه في أنّ المشهد ليس هو ما يجلبه باستمرار إلى الجسر المعلّق، بل هناك شيء آخر تماماً.

الأقفال.

فعلى طول درابزين الجسر وأسلاكه، عُلِّقت مئات الأقفال، وكلّ منها يحمل حرفين أوّلين مختلفَين، عُلّقت بالجسر إلى الأبد.

بحسب التقليد، يأتي العشّاق إلى هذا الجسر معاً، ويكتبون الحرفين الأوّلين من أسمائهم على أحد الأقفال، ثمّ يعلّقونه بالجسر ويلقون المفتاح في أعماق النهر، فيضيع إلى الأبد، ويكون ذلك رمزاً لارتباطهما الأبدي.

فكّر كوفيس وهو يلمس الأقفال المعلّقة، *أبسط الوعود. روحي معلّقة بروحك إلى الأبد.*

كلّما احتاج الحاخام إلى تذكير نفسه بأنّ الحبّ غير المحدود موجود في هذا العالم، كان يأتي لرؤية هذه الأقفال. وكانت هذه الليلة واحدة من تلك الليالي. وبينما هو يحدّق إلى المياه المتدفّقة، شعر أنّ العالم بدأ فجأة يسير بسرعة كبيرة بالنسبة إليه. *ربّما لم أعد أنتمي إلى هذا المكان بعد اليوم.*

ما كان في ما مضى لحظات هادئة من التأمّل الانفرادي، بضع دقائق بمفرده في الحافلة، أو في طريقه إلى العمل سيراً على الأقدام، أو بانتظار موعد أصبح الآن لا يحتمل. والناس يمسكون تلقائياً بهواتفهم وسمّاعات الآذان ويمارسون الألعاب، عاجزين عن مقاومة جاذبية التكنولوجيا الإدمانية. لقد تغيّرت الحياة بسبب التوق المتواصل لكلّ ما هو جديد.

والآن، بينما كان يهودا كوفيس يحدّق إلى الماء، شعر بإنهاك متزايد. أحسّ أنّ رؤيته ضبابية، وبدأ يرى أشكالاً غريبة تحت سطح الماء. فجأة، بدا النهر مثل حساء من المخلوقات التي تعيش في الأعماق.

قال صوت من خلفه: "الماء حيّ".

التفت الحاخام، ورأى صبياً ذا شعر أجعد وعينين مليئتين بالأمل. ذكّره الصبيّ بنفسه في صباه.

قال الحاخام: "المعذرة؟".

فتح الصبيّ فمه ليتكلّم، ولكن عوضاً عن اللغة، خرج من حلقه أزيز إلكتروني، وشعّت عيناه بضوء أبيض.

استيقظ الحاخام كوفيس مجفلاً، واعتدل على كرسيّه.

"ربّاه!".

كان الهاتف يرنّ على المكتب، فاستدار الحاخام المسنّ وتأمّل أرجاء مكتبه مذعوراً. وعندما أدرك أنّه بمفرده تماماً، شعر بشيء من الاطمئنان؛ غير أنّ قلبه كان لا يزال ينبض بعنف.

قال لنفسه وهو يحاول التقاط أنفاسه: *"يا له من حلم غريب!"*.

كان الرنين ملحّاً، وأدرك كوفيس أنّه في هذه الساعة لا بدّ أن يكون المتّصل الأسقف فالديسبينو لتزويده بآخر المستجدّات بشأن نقله إلى مدريد.

أجاب الحاخام وهو يشعر بالإرباك: "الأسقف فالديسبينو، ما الجديد؟".

فأجاب صوت غير مألوف: "حضرة الحاخام يهودا كوفيس؟ أنت لا تعرفني، ولا أريد أن أخيفك. لكنّني أريدك أن تصغي إليّ جيّداً".

عندئذٍ، استيقظ كوفيس تماماً.

كان الصوت صوت امرأة، ولكنّه غير واضح بعض الشيء، وبدا متوتّراً. تحدّثت بإنكليزية سريعة مع لكنة إسبانية خفيفة. "لقد قمتُ بتعديل صوتي لدواعٍ أمنية. أنا أعتذر على ذلك، ولكنّك ستفهم السبب بعد قليل".

سألها كوفيس: "من معي؟!".

"أنا حارس، شخص لا يُقدّر أولئك الذين يحاولون إخفاء الحقيقة عن الناس".

"أنا... لا أفهم".

"أيها الحاخام كوفيس، أنا أعرف أنّك حضرت اجتماعاً سرّياً مع إدموند كيرش، والأسقف فالديسبينو، والعلّامة سيّد الفضل، منذ ثلاثة أيّام في دير مونسرات".

كيف عرفَت؟!

"بالإضافة إلى ذلك، أعرف أنّ إدموند كيرش زوّدكم أنتم الثلاثة بمعلومات تفصيلية حول اكتشافه العلمي الأخير... وأنتم متورّطون الآن في مؤامرة لإخفائه".

"ماذا؟!".

"إن لم تصغِ إليّ جيّداً، فأنا أتوقّع أن تصبح غداً صباحاً في عداد الأموات، بعد أن تقضي عليك الذراع الطويلة للأسقف فالديسبينو". صمت المتّصل قبل أن يضيف: "تماماً مثل إدموند كيرش، وصديقك سيّد الفضل".

الفصل 32

يعبر جسر لا سالف في بيلباو نهر نيرفيون على مقربة كبيرة من متحف غوغنهايم، حيث يبدوان كما لو كانا بناء واحداً. من الممكن التعرّف على الجسر فوراً من خلال دعامته المركزية الفريدة التي هي عبارة عن دعامة حمراء مشرقة وشاهقة على شكل حرف H ضخم. اكتسب الجسر اسم "لا سالف" من الحكايات الفولكلورية للبحّارة الذين يعودون من البحر عبر هذا النهر ويتلون صلاة امتنان لعودتهم إلى بيوتهم سالمين.

بعد خروج لانغدون وأمبرا من الجهة الخلفية للمبنى، اجتازا بسرعة المسافة القصيرة الفاصلة بين المتحف وضفّة النهر، ووقفا ينتظران- بناء على طلب وينستون- في المنتزه في الظلّ مباشرة تحت الجسر.

تساءل لانغدون بتشكّك: *ماذا ننتظر؟*

وبينما كانا واقفَين في الظلام، استطاع رؤية أمبرا ترتجف تحت فستان السهرة الرقيق. فخلع سترته ووضعها على كتفيها، ثمّ سوّى القماش فوق ذراعيها.

ومن دون سابق إنذار، التفتت فجأة ووقفت بمواجهته.

للحظة، خشي لانغدون أن يكون قد تجاوز الحدود، لكنّ التعبير الذي ارتسم على وجه أمبرا لم يكن استياءً، بل أقرب إلى الامتنان.

همست وهي تحدّق إليه: "شكراً لك. شكراً على مساعدتي .

وبينما هي تنظر إليه، مدّت يديها وأمسكت بيدي لانغدون، وكأنّها تحاول التماس الدفء أو الإحساس بالاطمئنان.

بعد ذلك، أفلتتهما بسرعة، وهمست: "أنا آسفة، سلوكي غير لائق، كما كانت والدتي ستقول".

ابتسم لانغدون مطمئناً: "نحن في ظروف مخفّفة، كما كانت والدتي ستقول".

ابتسمت، لكنّ ابتسامتها لم تدم طويلاً. "أشعر باضطراب عميق". وأشاحت بنظرها ثمّ أضافت: "الليلة، ما حدث لإدموند...".

عندها، قال لانغدون وهو يدرك أنّها لا تزال تحت تأثير الصدمة ولا تستطيع التعبير تماماً عن مشاعرها: "ما حدث مروّع ومرعب".

كانت أمبرا تحدّق إلى المياه. "ومجرّد التفكير في أنّ خطيبي دون جوليان متورّط...".

أدرك لانغدون من نبرة صوتها كم تشعر بأنّها تعرّضت للخيانة، ولم يكن واثقاً بماذا يجيب. قال لها بحذر: "أنا أفهم كيف تبدو الأمور، لكنّنا لسنا متأكّدين من ذلك. فمن الممكن ألّا يكون للأمير جوليان أيّ علم بمخطّط الاغتيال لهذه الليلة. ربّما تصرّف القاتل من تلقاء نفسه، أو أنّه يعمل لصالح شخص آخر غير الأمير. فمن غير المنطقي أن يقوم ملك إسبانيا المستقبلي بتدبير اغتيال علني لشخص مدني، لا سيّما إن كانت خيوط الجريمة تؤدّي إليه مباشرة".

"لقد أدّت إليه لأنّ وينستون عرف أنّ اسم أفيلا أُضيف في اللحظة الأخيرة إلى قائمة الضيوف. ربّما اعتقد جوليان أنّ أحداً لن يكتشف مَن ضغط على الزناد".

أقرّ لانغدون أنّ وجهة نظرها منطقية.

قالت أمبرا وهي تلتفت إليه: "ما كان يجدر بي أن أناقش محاضرة إدموند مع جوليان. فقد أخذ يحثّني على عدم المشاركة، ولذلك حاولت طمأنته قائلة إنّ مشاركتي في العرض ستكون محدودة جدّاً، وإنّ المسألة تقتصر على عرض شريط فيديو. وأعتقد أنّني قلت لجوليان إنّ إدموند سيعلن اكتشافه من هاتف ذكيّ". صمتت قليلاً قبل أن تضيف: "هذا يعني أنّهم إن اكتشفوا أنّنا أخذنا هاتف إدموند، فسيدركون أنّه ما زال من الممكن بثّ اكتشافه. ولا أدري حقّاً إلى أيّ مدى يمكن أن يذهب جوليان لمنع ذلك".

تأمّل لانغدون المرأة الجميلة مطوّلاً، ثم قال: "أنت لا تثقين بخطيبك على الإطلاق، أليس كذلك؟".

أخذت أمبرا نفساً عميقاً: "في الحقيقة، أنا لا أعرفه بقدر ما تظنّ".

"إذاً، لماذا وافقتِ على الزواج منه؟".

"ببساطة، وضعني جوليان في موقف أُجبرت فيه على القبول".

وقبل أن يتمكّن لانغدون من الإجابة، بدأ هدير منخفض يهزّ الإسمنت تحت أقدامهما، ويتردّد صداه عبر الفضاء الشبيه بالمغارة تحت الجسر. أخذ الصوت يعلو تدريجياً، وبدا وكأنّه آتٍ من النهر إلى يمينهما.

التفت لانغدون فرأى شكلاً داكناً يقترب منهما؛ زورقاً سريعاً يتقدّم من دون تشغيل مصابيحه. ومع اقترابه من الضفّة الإسمنتية المرتفعة، أبطأ من سرعته، وبدأ ينزلق بسلاسة إلى أن أصبح بجانبهما.

حدّق لانغدون إلى القارب وهزّ رأسه. حتّى هذه اللحظة، لم يكن متأكّداً كم ينبغي أن يثق بدليل إدموند الإلكتروني. لكن الآن، لدى رؤيته "تاكسي نهرياً أصفر يقترب من الضفّة، أدرك أنّ وينستون كان أفضل حليف لهما.

لوّح لهما القبطان الأشعث قائلاً: "لقد اتّصل بي صديقكما البريطاني. قال إنّه ثمّة شخصية مهمّة ستدفع ثلاثة أضعاف مقابل... كيف أقولها...Velocidad y discreción؟ وهذا ما قمت به كما ترى، أتيت بلا مصابيح!".

أجاب لانغدون: "أجل، شكراً لك". *فكرة ممتازة يا وينستون، السرعة والسرّية.*

مدّ القبطان يده وساعد أمبرا على النزول على متن الزورق. وحين اختفت في المقصورة الصغيرة التماساً للدفء، ابتسم للانغدون قائلاً: "أهذه هي الشخصية المهمّة؟ السينيوريتا أمبرا فيدال؟".

ذكّره لانغدون: "Velocidad y discreción".

"أجل، أجل، طبعاً!". أسرع الرجل إلى المقود وشغّل المحرّكات. وبعد لحظات، كان الزورق يتّجه غرباً في الظلام على طول نهر نيرفيون.

من الزورق، استطاع لانغدون رؤية الأرملة السوداء الضخمة العملاقة لمتحف غوغنهايم مضاءة بمصابيح سيّارات الشرطة الدوّارة، فيما عبرت فوق رؤوسهم مروحية أخبار متوجّهة إلى المتحف.

فكّر لانغدون في سره: *لا بدّ أنّها الأولى من بين الكثير غيرها*.

أخرج لانغدون البطاقة التي دوّن عليها إدموند الشيفرة من جيب سرواله. BIO-EC346. كان إدموند قد طلب منه إعطاءها لسائق سيّارة الأجرة، مع أنّه لم يتخيّل إطلاقاً على الأرجح أنّه سيستقلّ وسيلة نقل مائية.

قال لانغدون للسائق وهو يرفع صوته ليعلو على هدير المحرّكات: "أعتقد أنّ صديقنا البريطاني... أخبرك إلى أين نحن ذاهبان؟".

"أجل، أجل! حذّرتُه أنّ زورقي لا يصل إلى هناك تماماً، ولكنّه قال إنّه لا مشكلة في ذلك. يمكنكما السير ثلاثمائة متر، أليس كذلك؟".

"لا بأس. وكم تبعد المسافة من هنا؟".

أشار الرجل إلى الطريق السريع الممتدّ على طول النهر إلى اليمين. "بحسب اللافتة المعلّقة على الطريق، يبعد المكان سبعة كيلومترات، لكنّ المسافة أطول بقليل بالزورق".

التفت لانغدون إلى اللافتة المضيئة على الطريق السريع.

AEROPUERTO BILBAO (BIO) ✈7 KM

مطار بيلباو 7 كلم

ابتسم وهو يسمع صوت إدموند في ذهنه. *إنّه رمز بسيط جدّاً يا روبرت*. كان إدموند على حق، وعندما استطاع لانغدون فهمه أخيراً في وقت سابق من هذه الليلة،

شعر بالإحراج لأنّه استغرق كلّ هذه المدّة.

كانت BIO رمزاً بالفعل، مع أنّه ليس أكثر صعوبة من الرموز المشابهة في أنحاء العالم: BOS, LAX, JFK.

BIO هو رمز المطار المحلّي.

أمّا بقيّة شيفرة إدموند فقد تفكّكت على الفور من تلقاء نفسها.

EC346.

لم يسبق للانغدون أن رأى طائرة إدموند الخاصّة، لكنّه كان يعرف بوجودها، ولم يكن لديه أدنى شكّ في أنّ رمز البلد لرقم ذيل طائرة إسبانية يبدأ بالحرف *E* نسبة إلى إسبانيا.

EC346 هي طائرة خاصّة.

بالطبع، لو ذهب لانغدون بسيّارة أجرة إلى مطار بيلباو، وأبرز بطاقة إدموند لموظّف الأمن فسيقوده مباشرة إلى طائرة إدموند الخاصّة.

أتمنّى أن يكون وينستون قد اتّصل بالطيّارين لإبلاغهم أنّنا قادمان. هذا ما تمنّاه لانغدون وهو ينظر إلى الخلف باتّجاه المتحف الذي كان يبتعد تدريجيّاً.

فكّر بدخول المقصورة للانضمام إلى أمبرا، ولكنّه كان مستمتعاً بهواء الليل العذب، وقرّر منحها بضع دقائق بمفردها لتستجمع نفسها.

فكّر في سره وهو يسير إلى مقدّمة القارب: *كما يمكنني أن أستفيد من هذه الدقائق أنا أيضاً.*

عند مقدّمة القارب، أخذ الهواء يلفح شعره، فحلّ ربطة عنقه ووضعها في جيبه، ثمّ فكّ الزرّ العلوي لياقته وتنفّس بعمق قدر الإمكان، متيحاً لهواء الليل أن يملأ رئتيه.

إدموند، ماذا فعلت؟

الفصل 33

كان القائد دييغو غارزا يغلي غضباً وهو يمشي في جناح الأمير جوليان المظلم ويستمع إلى محاضرة الأسقف المعتدّ بنفسه.

أراد غارزا أن يصيح في وجه فالديسبينو: *أنت تتعدّى على أرض الغير، هذا ليس مجالك!*

مرّة أخرى، أقحم الأسقف نفسه في سياسة القصر. فبعدما ظهر كالشبح في ظلام جناح جوليان، متزيّناً بكامل زيّه الكنسي، أخذ الآن يلقي على جوليان عظة مشبوبة بالعاطفة حول أهمّية تقاليد إسبانيا، وتديّن الملوك والملكات السابقين وإخلاصهم، وتأثير الكنيسة المريح في الأزمات.

فكّر غارزا في سرّه: *هذا ليس الوقت المناسب.*

هذه الليلة، يجب على الأمير القيام بأداء حسّاس على صعيد العلاقات العامة، وآخر ما يحتاج إليه غارزا هو تشتيت ذهن الأمير بمحاولات فالديسبينو فرض أجندة دينية.

لحسن الحظّ، قاطع أزيز هاتف غارزا مونولوج الأسقف.

وقف بين الأمير والأسقف، وأجاب بصوت عالٍ: "أجل، أخبرني. ماذا جرى؟".

قال المتّصل بإسبانية سريعة: "سيّدي، معك العميل فونسيكا من بيلباو. أخشى أنّنا لم نتمكّن من القبض على مطلق النار. فالشركة التي ظننّا أنّها تستطيع تعقّبه فقدت الاتّصال به. يبدو أنّ مطلق النار قد توقّع خطواتنا".

كتم غارزا غضبه وتنهّد بهدوء؛ مُحاولاً ألّا يكشف صوته أي شيء عن حالته الذهنية الفعلية. وأجاب بهدوء: "فهمت. حالياً، لتكن الآنسة فيدال همّكما الأوّل. فالأمير ينتظر رؤيتها، وقد أكّدتُ له أنّكما ستجلبانها إلى هنا قريباً".

خيّم صمت طويل على الطرف الآخر من الخطّ، طويل جدّاً.

ثم قال فونسيكا بصوت متردّد: "حضرة القائد، أنا آسف سيّدي، ولكن لديّ أنباء سيّئة على هذه الجبهة. إذ يبدو أنّ الآنسة فيدال والبروفيسور لانغدون قد غادرا المبنى. وصمت قليلاً ثمّ أضاف: "من دوننا".

كاد الهاتف يسقط من يد غارزا: "المعذرة، هل لك... أن تكرّر ما قلته؟".

"أجل سيّدي. لقد غادرت الآنسة فيدال وروبرت لانغدون المبنى. وقد تعمّدَت الآنسة فيدال ترك هاتفها لكي لا نتمكّن من تعقّبها. ولا فكرة لدينا عن وجهتهما".

أدرك غارزا أنّه فغر فاه من هول الصدمة، وكان الأمير يحدّق إليه الآن بقلق واضح. كما مال فالديسبينو إلى الأمام ليسمع، وقوّس حاجبيه باهتمام واضح.

قال غارزا فجأة وهو يهزّ رأسه بقناعة: "آه... هذه أنباء رائعة! ممتاز. سأراكم جميعاً هنا لاحقاً هذا المساء. لكن، لنؤكّد على بروتوكولات الرحلة وسلامتها، لحظة واحدة من فضلك".

غطّى غارزا هاتفه وابتسم للأمير قائلاً: "كلّ شيء على ما يرام. سأذهب إلى الغرفة الأخرى للتحدّث في التفاصيل وأتيح لحضرتكما بعض الخصوصية".

لم يكن غارزا راغباً في ترك الأمير بمفرده مع فالديسبينو، لكن لم يكن بإمكانه الردّ على هذه المكالمة أمامهما. لذلك، ذهب إلى إحدى غرف الضيوف وأغلق الباب خلفه.

قال عبر الهاتف: "ما الذي جرى؟!".

فروى فونسيكا القصّة التي بدت أقرب إلى الخيال.

سأله غارزا: "انطفأت المصابيح! تظاهر جهاز كمبيوتر أنّه موظّف أمن وأعطاكما معلومات خاطئة! كيف يفترض بي أن أجيب على ذلك؟".

"أدرك أنّه يصعب تصديق ذلك سيّدي، لكنّ هذا ما حدث بالضبط. ما يصعب علينا فهمه هو سبب التغيير المفاجئ في انتماء الكمبيوتر

"تغيير في الانتماء! لكنّ هذا مجرّد كمبيوتر لعين!".

"ما أعنيه هو أنّ الكمبيوتر قد ساعدنا في البداية، فقد حدّد اسم مطلق النار، وحاول إحباط عمليّة الاغتيال، كما اكتشف أنّ السيّارة التي فرّ بها القاتل تابعة لشركة أوبر. بعد ذلك، وعلى نحو مفاجئ جدّاً، بدا وكأنّه يعمل ضدّنا. كلّ ما يمكننا استنتاجه هو أنّ روبرت لانغدون قال له شيئاً ما؛ لأنّ كلّ شيء تغيّر بعد حديثه معه".

هل أتصارع الآن مع جهاز كمبيوتر؟! قرّر غارزا أنّه أصبح مسنّاً جدّاً على هذا العالم الحديث. "أنا واثق أنّني لست بحاجة إلى إخبارك أيّها العميل فونسيكا كم سيكون من المحرج للأمير، على الصعيدين الشخصي والسياسي، أن ينتشر خبر فرار خطيبته مع الأميركي، وخبر تعرّض عملاء الحرس الملكي للخداع من قبل جهاز كمبيوتر

"نحن ندرك ذلك تماماً".

"هل لديك أدنى فكرة عن السبب الذي دفعهما إلى الهرب؟ إذ يبدو هذا العمل متهوّراً تماماً وبلا أيّ مبرّر على الإطلاق".

"لقد اعترض البروفيسور لانغدون بشدّة عندما أخبرته أنّ عليه الانضمام إلينا في مدريد هذا المساء. وأوضح أنّه لا يرغب في المجيء".

وهكذا *فرّ من مسرح جريمة!* شعر غارزا أنّ ثمّة أمراً آخر، ولكنّه لم يستطع أن يتخيّل ماهيته. "أصغِ إليّ جيّداً. من الأهمّية بمكان أن تحدّد مكان أمبرا فيدال وتحضرها إلى القصر قبل تسرّب أيّ من هذه المعلومات".

"أنا أفهمك سيّدي، ولكنّنا أنا ودياز العميلان الوحيدان الموجودان هنا، ولا يمكننا تفتيش كلّ أنحاء بيلباو بمفردنا. نحن بحاجة إلى إبلاغ السلطات المحلّية للوصول إلى كاميرات المرور، والدعم الجوي، وكلّ طريقة...

فأجاب غارزا: "حتماً لا! لا يمكننا تحمّل هذا القدر من الإحراج. قوما بعملكما، واعثرا عليهما بمفردكما، ثمّ أعيدا الآنسة فيدال بأسرع وقت ممكن".

"حاضر سيّدي".

أنهى غارزا الاتصال غير مصدّق ما سمعه.

خرج من غرفة النوم ليجد امرأة شابّة تسرع نحوه عبر الرواق. كانت تضع نظّارتها السميكة المعتادة وترتدي سروالاً بلون البيج. تقدّمت حاملة كمبيوتراً لوحياً، وتعلو وجهها أمارات القلق.

فكّر غارزا في سره: *نجّني يا ربّ، ليس الآن.*

كانت مونيكا مارتن منسّقة العلاقات العامّة الجديدة الأصغر سنّاً التي عرفها القصر. ويتضمّن منصبها واجبات الاتّصال الإعلامي، ووضع استراتيجيات العلاقات العامّة، وإدارة الاتصالات، وهي مهام تنفّذها مارتن بحالة تأهّب قصوى دائمة.

كانت مارتن التي لا تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها حاصلة على شهادة في الاتصالات من جامعة كومبلوتينسي في مدريد، وعملت لعامين في إحدى أفضل كلّيات الكمبيوتر في العالم، في جامعة تسينغهوا في بيكين، ثمّ احتلّت وظيفة واسعة النفوذ في قسم العلاقات العامة في غروبو بلانيتا، تبعها منصب أعلى في الاتصالات في شبكة التلفزيون الإسباني أنتينا 3.

في العام الماضي، وفي محاولة يائسة للتواصل عبر وسائل الإعلام الرقمية مع شباب إسبانيا، ولمواكبة التأثير المتنامي لتويتر وفيسبوك والمدوّنات ووسائل الإعلام عبر الإنترنت، عمد القصر إلى صرف خبير العلاقات العامة المحنّك الذي يملك خبرة تمتدّ عقوداً من الزمن في مجال المطبوعات ووسائل الإعلام، واستبدله بهذه الشابّة الخبيرة بالتكنولوجيا.

مارتن تدين بكلّ شيء للأمير جوليان، وكان غارزا يعلم ذلك.

في الواقع، كان تعيين المرأة الشابّة موظّفة في القصر إحدى مساهمات الأمير جوليان القليلة في عمليّات القصر، ومثالاً نادراً عن المرّات التي عاون فيها والده. ومع أنّ مارتن تُعتبَر واحدة من بين الأفضل في هذا المجال، إلّا أنّ غارزا وجد كثرة تشكّكها وطاقتها العصبية مرهقة جدّاً.

أعلنت وهي تلوّح بالجهاز: "نظريات المؤامرة، إنّها تنتشر في كلّ مكان".

حدّق غارزا إليها غير مصدّق. *وهل يبدو أنّني أكترث؟!* كان لديه هذه الليلة الكثير من المسائل الأكثر إثارة للقلق من الشائعات التآمرية. "هلّا تخبرينني لماذا تتجوّلين في الجناح الملكي!".

"لقد رنّت غرفة التحكّم للتوّ على جهاز تحديد المواقع لديك". وأشارت إلى الهاتف المعلّق بحزامه.

أغمض عينيه وتنهّد محاولاً كبت غضبه. فبالإضافة إلى تعيين منسّقة علاقات عامة جديدة، قام القصر مؤخّراً باستحداث قسم أمني جديد يدعى "قسم الأمن الإلكتروني"، وهو يزوّد فريق غارزا بخدمات تحديد المواقع، والمراقبة الرقمية، ومعلومات عن المشتبه بهم، وإمكانية استخراج البيانات الوقائي. كان فريقه يزداد تنوّعاً وشباباً يوماً بعد يوم.

تبدو غرفة التحكّم وكأنّها مركز كمبيوتر في حرم جامعي.

على ما يبدو، إنّ التكنولوجيا المستخدمة حديثاً لتعقّب عملاء الحرس الملكي صالحة لتعقّب غارزا نفسه أيضاً. شعر بعدم الارتياح لدى تفكيره في أنّ مجموعة من الأولاد في الطابق السفلي يعرفون مكان وجوده في كلّ لحظة.

قالت مارتن وهي ترفع الجهاز اللوحي أمامها: "أتيت إليك شخصياً لأنّني عرفت أنّك سترغب في رؤية هذا الخبر

انتزع غارزا الجهاز من يدها، ورمق الشاشة ليرى صورة الإسبانيّ ذي اللحية البيضاء الذي تمّ التعرّف عليه على أنّه مطلق النار في بيلباو؛ أميرال البحرية الملكية لويس أفيلا، كما رأى نبذة عنه.

قالت مارتن: "ثمّة الكثير من الثرثرة المؤذية، هذا بالإضافة إلى الضجّة التي أحدثها خبر كون أفيلا موظّفاً سابقاً لدى الأسرة المالكة".

فقال غارزا بحدّة: "كان أفيلا يعمل في البحرية!".

"أجل، من الناحية الفنية، الملك هو قائد القوات المسلحة-"

أمرها وهو يدفع إليها بالجهاز: "كفى، فالإيحاء بأنّ الملك متواطئ بطريقة ما في عمل إرهابي فكرة سخيفة من أفكار المهووسين بنظرية المؤامرة، ولا صلة له إطلاقاً بأزمة الليلة. فلنركّز على ما لدينا من معلومات ولنعد إلى العمل. ففي النهاية، كان من شأن هذا المجنون أن يقتل الملكة المستقبلية، ولكنّه اختار عوضاً عن ذلك قتل ملحد أميركي. وفي النهاية، النتيجة ليست سيّئة!".

لم تتراجع الشابّة، بل قالت: "ثمّة أمر آخر سيّدي يتعلّق بالأسرة المالكة، ولم أرغب في أن يفوتك".

وبينما كانت مارتن تتكلّم، مرّرت أصابعها على الشاشة، وانتقلت إلى موقع آخر. "كانت هذه الصورة على الشبكة منذ بضعة أيّام لكنّ أحداً لم يلاحظها. والآن، مع انتشار أخبار إدموند كيرش، بدأت تظهر في الأخبار . وأعطت غارزا الجهاز.

رمق عنوان الخبر: "أهذه آخر صورة التُقِطت للعالم المستقبلي إدموند كيرش؟".

كانت الصورة الضبابية تُظهِر كيرش مرتدياً بذلة سوداء، ويقف على طريق صخري على شفير جرف شديد الانحدار.

قالت مارتن: "التُقِطت الصورة منذ ثلاثة أيّام، حين كان كيرش في زيارة إلى دير مونسيرات. فقد تعرّف عامل في الموقع على كيرش والتقط له هذه الصورة. وبعد مقتله الليلة، أعاد العامل نشر الصورة على أنّها آخر صورة التُقِطت للرجل".

سألها غارزا: "وما علاقتنا بذلك؟".

"اذهب إلى الصورة التالية".

انتقل إلى الصورة التالية، وما إن رآها حتّى مدّ يده للاستناد إلى الجدار. "هذا... لا يمكن أن يكون صحيحاً!".

وفي هذه النسخة الأقرب للصورة نفسها، يمكن رؤية إدموند كيرش واقفاً إلى جانب رجل طويل القامة يرتدي الثوب الكاثوليكي الأرجواني التقليدي. كان الرجل هو الأسقف فالديسبينو.

قالت مارتن: "بل هو صحيح يا سيّدي. فقد التقى فالديسبينو كيرش منذ بضعة أيّام".

"لكن..." تردّد غارزا وعجز عن الكلام للحظات. "لكن، لماذا لم يذكر الأسقف ذلك؟ لا سيّما مع كلّ ما حدث الليلة!".

فهزّت مارتن رأسها بتشكّك وقالت: "لهذا السبب قرّرتُ أن أكلّمك أوّلاً".

فالديسبينو التقى كيرش! لم يستطع غارزا استيعاب هذا الخبر تماماً. *وامتنع الأسقف عن ذكر الأمر؟!* كان الخبر مثيراً للقلق، وشعر غارزا باللهفة لإخبار الأمير.

قالت المرأة الشابّة: "للأسف، ثمّة المزيد". وبدأت تعبث بجهازها مجدّداً.

"حضرة القائد". أتاهما صوت فالديسبينو فجأة من غرفة المعيشة. "ما أخبار رحلة الآنسة فيدال؟".

فرفعت مونيكا مارتن رأسها ونظرت إلى غارزا بدهشة، ثم همست: "أهو الأسقف؟ هل فالديسبينو هنا في الجناح؟".

"أجل، إنه يقدّم المشورة للأمير".

ناداه فالديسبينو مجدّداً: حضرة القائد! هل أنت هناك؟".

همست مارتن بنبرة مذعورة: "صدّقني، ثمّة المزيد من المعلومات التي ينبغي أن تطّلع عليها على الفور قبل أن تقول أيّ كلمة أخرى للأسقف أو الأمير. ثق بي عندما

أقول إنّ أزمة الليلة تطالنا إلى حدّ أبعد بكثير ممّا تتخيّل".

رمق غارزا منسّقة العلاقات العامّة للحظة ثمّ اتّخذ قراره: "انتظريني في الطابق السفلي في المكتبة. سأوافيك إلى هناك خلال ستّين ثانية".

أومأت مارتن برأسها وابتعدت.

وعندما أصبح غارزا بمفرده، أخذ نفساً عميقاً وأجبر ملامحه على الاسترخاء، آملاً محو جميع آثار غضبه وحيرته المتناميَين، ثمّ عاد ببطء إلى غرفة المعيشة.

أعلن غارزا مبتسماً وهو يدخل: "كلّ شيء على ما يرام مع الآنسة فيدال، ستصل لاحقاً. أمّا أنا فعليّ النزول إلى مكتب الأمن للتأكّد من نقلها شخصياً". وهزّ غارزا رأسه لجوليان بثقة، ثمّ التفت إلى الأسقف فالديسبينو. "سأعود قريباً، لا تذهب".

عند ذلك، استدار خارجاً.

بينما كان غارزا يغادر الجناح، حدّق إليه الأسقف فالديسبينو عابساً.

فسأله الأمير وهو ينظر إليه عن كثب: "هل من خطب؟".

أجاب فالديسبينو وهو يلتفت إليه: "أجل، فأنا أصغي إلى الاعترافات منذ خمسين عاماً، وأعرف عندما أسمع كذبة".

الفصل 34

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

التساؤلات تعصف بمجتمع الإنترنت

في أعقاب اغتيال إدموند كيرش، اجتاحت عاصفة من التكهّنات متابعي العالِم المستقبلي، وذلك حول قضيتَين ملحّتين.

ما كان اكتشاف كيرش؟

من قتله؟ ولماذا؟

وبشأن اكتشاف كيرش، أُغرِقت الإنترنت بالنظريات التي اشتملت على مجموعة واسعة من المواضيع، من داروين، إلى المخلوقات الفضائية، وقصّة الخلق، وغير ذلك.

ولم يتمّ حتّى الآن تأكيد أيّ دافع لهذه الجريمة، لكنّ النظريات التي طُرِحت تشتمل على التعصّب الديني، والتجسّس، والغيرة.

وقد حصل موقع ConspiracyNet على وعود بمعلومات حصرية حول القاتل سنطلعكم عليها فور ورودها.

الفصل 35

وقفت أمبرا فيدال بمفردها في مقصورة التاكسي المائي، وهي تلفّ نفسها بسترة روبرت لانغدون. قبل دقائق، حين سألها لانغدون عن سبب موافقتها على الزواج من رجل بالكاد تعرفه أجابته بصدق.

لم يكن لديها الخيار.

كانت خطوبتها على جوليان محنة لا تستطيع أن تحتمل عيشها مجدّداً هذه الليلة، ليس مع كلّ ما جرى.

لقد وقعت في الشرك.

وما زلت محاصرة فيه.

الآن، وبينما كانت تنظر إلى صورتها المنعكسة على النافذة القذرة، غمرها إحساس عارم بالوحدة. لم تكن أمبرا تحبّ الانغماس في الشفقة على نفسها، ولكنّها شعرت في تلك اللحظة أنّ قلبها هشّ وتائه. *أنا مخطوبة لرجل متورّط بشكل من الأشكال في جريمة وحشية.*

لقد قرّر الأمير مصير إدموند بمكالمة هاتفية واحدة قبل ساعة من الحدث. فقد كانت أمبرا تستعدّ بشكل محموم لوصول الضيوف عندما هُرِعت إليها موظّفة شابّة وهي تلوّح بقصاصة من الورق.

"سينيورا فيدال! لقد وصلتك رسالة!".

راحت الفتاة تشرح بحماسة وهي تلهث أنّ مكالمة هامّة قد أتت للتوّ إلى مكتب الاستقبال في المتحف.

وتابعت: "أظهر كاشف هوية المتّصل أنّ الرقم خاصّ بالقصر الملكي في مدريد، فأجبت بالطبع! كان المتكلّم يتّصل من مكتب الأمير جوليان!".

سألتها أمبرا: "وهل اتّصلوا بمكتب الاستقبال؟ لكنّهم يملكون رقم هاتفي الخلوي .

"قال مساعد الأمير إنّه حاول الاتّصال بهاتفك، ولكنّهم لم يستطيعوا الوصول إليك".

تحقّقت أمبرا من هاتفها. غريب، *لم تردها أيّ مكالمات فائتة*. ثمّ أدركت أنّ أحد التقنيين كان يختبر نظام التشويش على الهواتف الخلوية في المتحف، ولا بدّ أنّ جوليان اتّصل بينما كان هاتفها معطّلاً.

"يبدو أنّ الأمير قد تلقّى اليوم اتّصالاً من صديق مهمّ جدّاً في بيلباو يريد حضور الحدث الذي سيقام هذه الليلة". ثمّ أعطت الفتاة أمبرا قصاصة الورق. "وتمنّى أن تتمكّني من إضافة اسمه إلى قائمة الضيوف".

تأمّلت أمبرا الرسالة.

Almirante Luis Ávila (ret.)
Armada Española

لويس أفيلا، أميرال متقاعد في البحرية الإسبانية!

"ترك المتّصل رقماً، وقال إنّه بإمكانك الاتّصال به مباشرة إن أردت مناقشة المسألة، لكنّ الأمير جوليان على وشك الذهاب إلى اجتماع، لذلك قد لا تتمكّنين من الوصول إليه على الأرجح. غير أنّ المتّصل أصرّ على أنّ الأمير يأمل ألّا يكون هذا الطلب عبئاً عليك".

قالت أمبرا في سرّها: *عبئاً! مع كلّ ما جعلتني أعيشه الليلة؟*

قالت أمبرا: "دعي الأمر لي، شكراً لك".

ابتعدت الموظّفة الشابّة بسعادة كما لو أنّها تكلّمت مع الملك نفسه. حدّقت أمبرا إلى قصاصة الورق، وانزعجت لأنّه وجد أن ممارسة نفوذه عليها بهذا الشكل أمر مناسب، لا سيّما بعدما ضغط بشدّة ضدّ مشاركتها في حدث الليلة.

قالت لنفسها: *ها أنت مجدّداً لا تترك لي الخيار.*

إن تجاهلت طلبه فستكون النتيجة مواجهة غير مريحة مع ضابط بارز في البحرية عند باب المتحف. وقد تمّ تنظيم هذا الحدث بدقّة متناهية، كما أنّه سيجذب عدداً لا مثيل له من وسائل الإعلام. *آخر ما أحتاج إليه مواجهة محرجة مع أحد أصدقاء جوليان النافذين.*

لم يتمّ تفتيش الأميرال أفيلا أو وضعه على قائمة الضيوف الذين تمّ تفتيشهم، لكنّ أمبرا أدركت أنّ طلب إخضاعه لتفتيش أمني سيكون محرجاً، لا بل ومهيناً ربّما. ففي النهاية، كان الرجل ضابطاً مميّزاً في البحرية، ويتمتّع بنفوذ كافٍ لرفع السمّاعة والاتّصال بالقصر الملكي وطلب خدمة من وليّ العهد.

وهكذا، وبسبب الجدول الزمني الضيّق، اتّخذت أمبرا الخيار الوحيد الذي كان ممكناً؛ فكتبت اسم الأميرال أفيلا على قائمة الضيوف عند باب المتحف، وأضافته إلى قاعدة بيانات الأدلّاء ليتمّ تزويده بسمّاعة.

بعد ذلك، عادت إلى عملها.

والآن مات إيموند؛ هذا ما فكّرت فيه وهي تعود إلى الحاضر في ظلام التاكسي النهري. وعندما حاولت طرد الذكريات المؤلمة من رأسها، خطرت ببالها فكرة غريبة.

أنا لم أتحدّث مع جوليان مباشرة... بل وصلتني الرسالة بأكملها بواسطة أطراف ثالثة.

جلبت تلك الفكرة معها بصيصاً من الأمل.

هل من الممكن أن يكون رويرت على حقّ، ويكون جوليان بريئاً ربّما؟

فكّرت بذلك للحظة، ثمّ أسرعت إلى الخارج.

وجدت البروفيسور الأميركي واقفاً بمفرده عند مقدّمة القارب، ويداه على الدرابزين، وهو يحدّق إلى ظلام الليل. انضمّت إليه أمبرا، وفوجئت عندما أدركت أنّ القارب خرج من الفرع الرئيس لنهر نيرفيون، وهو يبحر الآن شمالاً على طول الرافد الصغير الذي بدا أقرب إلى قناة خطرة ذات ضفاف عالية موحلة منه إلى نهر. شعرت بالتوتّر بسبب المياه الضحلة والضفاف الضيّقة، لكنّ قبطان القارب بدا مرتاحاً وهو يقود قاربه عبر المضيق بالسرعة القصوى، مضيئاً طريقه بالمصباح الأمامي.

أخبرت لانغدون بسرعة بالاتّصال الذي وردها من مكتب الأمير جوليان. "كلّ ما أعرفه حقّاً هو أنّ مكتب الاستقبال في المتحف قد تلقّى اتصالاً من القصر الملكي في مدريد. لكنّ ذلك الاتّصال من الممكن أن يكون من أيّ شخص يدّعي أنّه مساعد جوليان".

أومأ لانغدون برأسه موافقاً. "وربّما لهذا السبب قرّر المتّصل نقل الخبر إليك عوضاً عن الاتّصال بك مباشرة. هل لديك أيّ فكرة عن الطرف الذي قد يكون متورّطاً؟". نظراً لتاريخ إدموند مع فالديسبينو، كان لانغدون يميل إلى الاشتباه بالأسقف نفسه.

قالت أمبرا: "قد يكون أيّ شخص؛ فالمرحلة التي يمرّ بها القصر حالياً حسّاسة جدّاً. وذلك لأنّ جوليان يحتلّ وسط المسرح، ويحاول الكثير من المستشارين القدماء أن يكسبوا حظوته. ومع التغيّر الذي يطرأ على البلاد، أعتقد أنّ الكثيرين من أعضاء الحرس القدماء يائسون للاحتفاظ بسلطتهم".

قال لانغدون: "حسناً، أيّاً يكن المتورّط، فلنأمل ألّا يكون قد اكتشف أنّنا نحاول العثور على كلمة سرّ إدموند للإعلان عن اكتشافه".

وبينما كان لانغدون يتكلّم، شعر بمدى بساطة التحدّي الذي يواجهانه.

وشعر أيضاً بمدى خطورته.

لقد قُتل إدموند من أجل منع نشر هذه المعلومات.

للحظة، تساءل لانغدون عمّا إذا كان الخيار الأكثر أمناً بالنسبة إليه هو العودة مباشرة إلى الوطن من المطار، وترك هذه المسألة بين يدَي شخص آخر.

وفكّر في سره: هذا آمن بالطبع، ولكنّه ليس خياراً مطروحاً... كلّا.

في الواقع، شعر لانغدون بإحساس عميق بالواجب تجاه تلميذه القديم؛ فضلاً عن غضبه حيال منع خروج اكتشاف علمي إلى العلن بهذه الطريقة الوحشية. كما شعر أيضاً بفضول فكري عميق لمعرفة ما اكتشفه إدموند بالضبط.

كذلك، لا يمكنني أن أترك أمبرا فيدال في هذا المأزق بمفردها.

من الواضح أنّ المرأة تواجه أزمة، وعندما نظرت إلى عينَي لانغدون وطلبت مساعدته، شعر أنّها شديدة الثقة بذاتها واستقلاليتها... ولكنّه رأى مع ذلك أنّها تحمل عبئاً ثقيلاً من الخوف والندم. *لدى هذه المرأة أسرار مظلمة ومرهقة، وهي تمدّ يدها تطلب المساعدة.*

نظرت إليه أمبرا فجأة وكأنّها أحسّت بما يفكّر فيه وقالت: "يبدو أنّك تشعر بالبرد، أنت بحاجة إلى سترتك".

فابتسم برقّة. "أنا بخير

"هل تفكّر في أنّه يجدر بك مغادرة إسبانيا فور وصولنا إلى المطار؟".

فضحك لانغدون مجيباً: "في الواقع، خطرت هذه الفكرة ببالي".

"لا تفعل، أرجوك". ومدّت يدها إلى الدرابزين ووضعتها فوق يده. "أنا لست واثقة ممّا نواجهه الليلة. ولكنّك كنت مقرّباً من إدموند، وقد أخبرني أكثر من مرّة كم كان يقدّر صداقتك ويثق برأيك. أنا خائفة يا روبرت، ولا أعتقد أنّني أستطيع مواجهة ذلك بمفردي".

أذهلته صراحتها وأثّرت فيه في آن واحد، فقال لها وهو يهزّ رأسه: "حسناً، أنا وأنت مدينان لإدموند وللمجتمع العلمي على السواء بإيجاد كلمة السرّ تلك وإعلان عمله للعالم".

فابتسمت برقّة. "شكراً لك".

التفت لانغدون ونظر إلى خلف القارب. "أعتقد أنّ عميلَي الحرس الملكي أدركا الآن أنّنا غادرنا المتحف".

"بلا شكّ، لكنّ وينستون كان مدهشاً حقّاً، أليس كذلك؟".

"نعم، بالفعل". أجاب لانغدون بذلك وقد بدأ الآن يفهم حجم القفزة الهائلة التي حقّقها إدموند في مجال تطوير الذكاء الاصطناعي. أيّاً تكن التكنولوجيا الجديدة التي اخترعها، فمن الواضح أنّها ستجلب عهداً جديداً من التفاعل بين الإنسان والكمبيوتر.

هذه الليلة، أثبت وينستون أنّه خادم وفيّ لصانعه، وحليف لا يقدّر بثمن للانغدون وأمبرا. ففي غضون دقائق، حدّد وجود خطر ضمن قائمة الضيوف، وحاول إحباط عمليّة اغتيال إدموند، كما تعرّف على السيّارة التي فرّ بها القاتل، وسهّل فرار لانغدون وأمبرا من المتحف.

قال لانغدون: "فلنأمل أن يكون وينستون قد اتّصل مسبقاً لإبلاغ طيّاري إدموند".

"أنا واثقة أنّه فعل، ولكنّك على حقّ، سأتّصل بوينستون لأتحقّق".

فقال لانغدون متفاجئاً: "مهلاً، وهل يمكنك الاتصال بوينستون!؟ فعندما غادرنا المتحف وخرجنا من نطاق الشبكة، ظننت...".

ضحكت أمبرا وهي تهزّ رأسها يميناً ويساراً. "روبرت، وينستون ليس موجوداً داخل متحف غوغنهايم، بل هو في منشأة كمبيوتر سرّية في مكان ما ويمكن الوصول إليه عن بعد. هل تعتقد حقّاً أنّ إدموند سيبني اختراعاً مثل وينستون من دون أن يكون قادراً على التواصل معه في الأوقات كافة، وفي أيّ مكان في العالم؟ لقد كان إدموند يتكلّم مع وينستون في أيّ وقت؛ سواء أكان في المنزل، أم مسافراً، أم في نزهة. كان بإمكانهما التواصل دائماً بواسطة اتّصال هاتفي صغير. لقد رأيت إدموند يتحدّث مع وينستون لساعات. فقد استخدمه كمساعده الشخصي، ليتّصل من أجل حجوزات العشاء، وينسّق مع طيّاريه، ويقوم بكلّ ما يلزم حقّاً. في الواقع، عندما كنّا ننظّم العرض الذي أقيم في المتحف، تكلّمت مع وينستون كثيراً أنا نفسي عبر الهاتف".

مدّت أمبرا يدها إلى جيب سترة لانغدون وأخرجت هاتف إدموند ذا الغطاء الفيروزي، ثمّ فتحته. كان لانغدون قد أطفأه في المتحف لكي يحافظ على البطّارية.

قالت له: "عليك أن تفتح هاتفك أنت أيضاً لكي نتمكّن من الاتّصال بوينستون معاً".

"ألا تخشين أن يتمّ تعقّبنا إن شغّلنا هذين الجهازين؟".

هزّت أمبرا رأسها نافية. "لم يكن لدى السلطات الوقت الكافي للحصول على الأمر اللازم من المحكمة، لذلك أعتقد أنّ الأمر يستحقّ المجازفة، لا سيّما إن كان باستطاعة وينستون تزويدنا بآخر المستجدّات بشأن تقدّم الحرس الملكي والوضع في المطار

لم يكن لانغدون مرتاحاً للفكرة، ولكنّه شغّل هاتفه وراقبه وهو يعود إلى الحياة. وعندما أضيئت الشاشة الرئيسة، حدّق إلى الضوء وشعر بشيء من الضعف؛ كما لو أنّه أصبح من الممكن تحديد مكانه على الفور من خلال أيّ قمر اصطناعي في الفضاء.

فكّر في سرّه: *لقد شاهدت الكثير من أفلام التجسّس.*

سرعان ما بدأ هاتف لانغدون يرنّ ويهتزّ مع ورود عدد من الرسائل التي أرسلت هذا المساء. ولدهشته، اكتشف أنّه تلقّى أكثر من مائتي رسالة بالبريد الإلكتروني منذ أن أطفأ هاتفه.

ألقى نظرة على صندوق البريد الإلكتروني، فوجد أنّ الرسائل كلّها كانت من أصدقائه وزملائه. كانت الرسائل الأولى عبارة عن رسائل تهنئة: *محاضرة عظيمة! لا*

أصدّق أنّك هناك! لكن بعد ذلك، وعلى نحو مفاجئ، طغى القلق والخوف على لهجة الرسائل التي تضمّنت رسالة من محرّر كتبه، جوناس فوكمان: *ربّاه.. روبرت هل أنت بخير؟؟!!* ولم يكن قد سبق للانغدون أن رأى هذا المحرّر المحترف يستخدم أحرفاً كبيرة أو علامات استفهام وتعجّب مزدوجة.

حتّى تلك اللحظة، استمتع لانغدون بإحساسه بأنّه غير مرئي في ظلام ممرّات بيلباو المائية، كما لو أنّ المتحف كان حلماً يتلاشى.

لقد عمّ الخبر العالم. أنباء اكتشاف كيرش الغامض ومقتله الوحشي... بالإضافة إلى اسمي ووجهي.

قالت أمبرا وهي تحدّق إلى وهج هاتف كيرش: "كان وينستون يحاول الاتّصال بنا. فقد تلقّى إدموند ثلاثاً وخمسين مكالمة لم يرد عليها في نصف الساعة الأخير، وكلّها من الرقم نفسه، تفصل بينها ثلاثون ثانية بالضبط". ضحكت مضيفة: "المثابرة الدؤوب واحدة من خصال وينستون العديدة".

في تلك اللحظة، بدأ هاتف إدموند يرنّ.

ابتسم لانغدون وأمبرا. "أتساءل من يكون".

أعطته الهاتف قائلة: "ردّ عليه".

تناول لانغدون الهاتف وفتح الخطّ: "مرحباً".

قال وينستون بلهجته البريطانية المألوفة: "بروفيسور لانغدون، يسرّني أنّنا أصبحنا على اتّصال مجدّداً، فقد كنت أحاول الوصول إليك".

"أجل، أرى ذلك". تعجّب لانغدون لأنّ الكمبيوتر بدا في غاية الهدوء والتماسك بعد ثلاث وخمسين مكالمة متتالية فاشلة.

قال وينستون: "لقد استجدّت بعض التطوّرات، وثمّة احتمال بأن يكون قد تمّ إبلاغ سلطات المطار باسميكما قبل وصولكما. مجدّداً، أقترح عليكما أن تتبّعا تعليماتي بحذر شديد".

قال لانغدون: "نحن بين يديك، أخبرنا، ماذا نفعل؟".

قال وينستون: "بروفيسور، إن لم تكن قد تخلّصت من هاتفك، فافعل حالاً".

تمسّك لانغدون بهاتفه بشدّة وقال: "حقّاً! ألا تحتاج السلطات إلى أمر محكمة قبل أن-"

"قد ينطبق ذلك على برنامج الشرطة الأميركية، ولكنّك تتعامل مع الحرس الملكي والقصر الملكي في إسبانيا. وهم سيقومون باللازم".

رمق لانغدون هاتفه، وشعر بتردّد غريب في الافتراق عنه. *حياتي بأكملها هناك.*

سألته أمبرا وقد بدا عليها القلق: "وماذا عن هاتف إدموند؟".

أجاب وينستون: "لا يمكن تعقّبه. كان إدموند حريصاً جدّاً في ما يتعلّق بالاختراق والتجسّس، وقد كتب بنفسه برنامج حجب للهوية الدولية للأجهزة المتنقّلة IMEI/IMSI يحوّل قيم C2 في هاتفه لكي تتفوّق على أيّ أجهزة اعتراض للنظام العالمي للاتصالات المتنقّلة".

فكّر لانغدون في سره: *هذا طبيعي. فبالنسبة إلى عبقري اخترع وينستون، لا شكّ في أنّ التفوّق على شركة الهاتف المحلّية مجرّد لعب.*

نظر لانغدون بعبوس إلى هاتفه الأدنى شأناً كما يبدو. وفي تلك اللحظة، مدّت أمبرا يدها وأخذت منه الهاتف بلطف. ومن دون أيّ كلمة، حملته فوق الدرابزين وأفلتته. فشاهد لانغدون هاتفه وهو يسقط في المياه المظلمة لنهر نيرفيون. وبينما كان يختفي تحت السطح، شعر بإحساس بالخسارة وهو يحدّق إلى الخلف في حين واصل القارب طريقه.

همست أمبرا: "روبرت، تذكّر جملة الأميرة إيلسا الحكيمة في فيلم ديزني".

التفت لانغدون: "المعذرة؟!".

ابتسمت برقّة.

"انسَ". مكتبة الرمحي أحمد

الفصل 36

أعلن الصوت على هاتف أفيلا: "Su misión todavía no ha terminado". *لم تنته مهمّتك بعد.*

جلس أفيلا على المقعد الخلفي لسيّارة أوبر وهو يصغي إلى آخر أخبار رئيسه.

قال المتّصل بإسبانية سريعة: "لقد واجهنا تعقيدات غير متوقّعة. نريد منك التوجّه إلى برشلونة حالاً".

برشلونة! كان قد قيل لأفيلا إنّه سيسافر إلى مدريد لتأدية خدمة أخرى.

تابع الصوت: "لدينا أسباب تدفعنا إلى الاعتقاد أنّ اثنين من شركاء السيّد كيرش متوجّهان إلى برشلونة الليلة على أمل إيجاد طريقة لإطلاق إعلانه عن بعد".

تصلّب أفيلا على مقعده. "وهل هذا ممكن؟".

"نحن لا نعرف بعد. ولكن، إن نجحا في ذلك فسيذهب كلّ مجهودنا سدى. أنا بحاجة إلى رجل على الأرض في برشلونة حالاً، وبسرّية تامّة. اذهب إلى هناك بأسرع ما يمكن، واتّصل بي .

وانتهى الاتّصال على ذلك.

رحّب أفيلا بذلك النبأ السيّئ على نحو غريب. *ما زالوا يحتاجون إليّ*. كانت برشلونة أبعد من مدريد، ولكن لبضع ساعات وحسب إن توجّه إليها بالسرعة القصوى على الطريق السريع في منتصف الليل. ومن دون أن يضيّع أيّ لحظة، رفع أفيلا مسدّسه وضغطه على رأس سائق السيّارة، فتوتّرت يدا الرجل بشكل واضح على عجلة القيادة.

أمره أفيلا بالإسبانية: "خذني إلى برشلونة".

سلك السائق المخرج التالي باتّجاه فيتوريا غاستيز، ثمّ انطلق مسرعاً على الطريق السريع أ-1 متوجّهاً شرقاً. لم يكن يسير على الطريق في هذه الساعة سوى الجرّارات الضخمة المنطلقة لاستكمال جولاتها إلى بامبلونا، هويسكا، ليدا، لينتهي بها المطاف في أحد أكبر الموانئ على البحر المتوسّط، برشلونة.

بالكاد استطاع أفيلا أن يصدّق تسلسل الأحداث الذي أوصله إلى هذه اللحظة.

خرجتُ من أعماق يأسي لتأدية خدمة مجيدة.

للحظة سوداوية، عاد إلى تلك الحفرة التي لا قرار لها، وهو يزحف على أرض المذبح الغارق بالدخان في كاتدرائية إشبيلية، وهو يبحث بين الأنقاض الملوّثة بالدماء عن زوجته وابنه، ليدرك أنّهما رحلا إلى الأبد.

لم يغادر أفيلا منزله لأسابيع متواصلة بعد الهجوم، وتمدّد على أريكته وهو يرتعد، تعذّبه كوابيس اليقظة التي لا تنتهي، والتي تجرّه فيها كائنات نارية إلى هاوية مظلمة، لتكفّنه بالسواد والغضب وإحساس خانق بالذنب.

"الهاوية هي المَطهر". هذا ما همست به راهبة إلى جانبه، وكانت واحدة من بين المئات من المستشارين المدرّبين من قبل الكنيسة لمساعدة الناجين. "روحك محاصرة في نفق مظلم، ولا مفرّ منه سوى بالغفران. عليك أن تجد طريقة لتسامح من فعلوا ذلك، وإلّا فإنّ غضبك سيستنفدك تماماً". رسمت إشارة الصليب مضيفة: "الغفران خلاصك الوحيد".

الغفران! حاول أفيلا أن يتكلّم، لكنّ الكائنات النارية قبضت على عنقه. في تلك اللحظة، شعر أنّ الانتقام خلاصه الوحيد. *لكن، ممّن ينتقم؟* إذ لم يعلن أحد مسؤوليته عن ذلك التفجير.

تابعت الراهبة كلامها قائلة: "أنا أدرك أنّ الإرهاب الديني يبدو عملاً لا يغتفر. ومع ذلك، قد يُفيدك أن تتذكّر أنّ ديننا نفسه أقام محاكم تفتيش على مدى قرون من الزمن باسم الربّ. قتلْنا نساء وأطفالاً أبرياء باسم معتقداتنا. ولهذا السبب طلبنا الغفران من العالم، ومن أنفسنا. ومع الزمن، شُفينا".

قرأت عليه بعد ذلك مقطعاً من الإنجيل: "لا تقاوموا الشرّ. من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر أيضاً. أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم".

في تلك الليلة، وقف أفيلا يحدّق إلى المرآة وهو يتعذّب بمفرده. كان الرجل الذي نظر إليه غريباً، ولم ينجح كلام الراهبة في التخفيف من ألمه.

الغفران! أدِر له الخدّ الأيسر!

لقد كنت شاهداً على شرّ لا يمكن غفرانه!

وبغضب متعاظم، وجّه أفيلا لكمة إلى المرآة، وحطّم الزجاج، ثمّ انهار وهو يشهق بالبكاء على أرض الحمّام.

بصفته ضابط بحرية، لطالما كان يجيد السيطرة على نفسه. كان بطلاً في الانضباط، والشرف، وإطاعة سلسلة الأوامر. غير أنّ ذلك الرجل رحل إلى غير رجعة. فخلال أسابيع، غرق أفيلا في حالة ضبابية، وخدّر نفسه بمزيج قويّ من الكحول والأدوية الموصوفة. وسرعان ما بدأ توقه إلى الآثار المخدّرة للمواد الكيميائية يحتلّ كلّ ساعة من أوقات استيقاظه، ويحوّله إلى شخص انعزالي وعدائي.

وفي غضون أشهر، أجبرته البحرية الإسبانية بهدوء على التقاعد. فبعد أن كان في ما مضى سفينة بحرية قوية، أصبح الآن عالقاً في خندق جافّ، وأدرك أنّه لن يبحر مجدّداً. أمّا البحرية التي أعطاها حياته، فتركته بمكافأة متواضعة بالكاد يستطيع العيش بها.

أنا في الثامنة والخمسين من عمري، ولا أملك شيئاً.

أمضى أيّامه جالساً في غرفة المعيشة يشاهد التلفاز، ويعاقر الشراب، وينتظر بصيصاً من الأمل. كان يمنّي نفسه قائلاً مراراً وتكراراً: *أحلك ساعات الليل هي تلك التي تسبق الفجر*. لكنّ ذلك المثل القديم للبحرية كان يثبت عدم صحّته مع مرور الوقت. *أحلك ساعات الليل ليست تلك التي تسبق الفجر، فالفجر لن يأتي أبداً*. هذا ما شعر به.

في ذكرى ميلاده التاسعة والخمسين، وفي صباح يوم خميس ممطر، جلس أفيلا يحدّق إلى زجاجة شراب فارغة وأمر بالإخلاء. أخيراً، استجمع شجاعته، وذهب إلى خزانته، ثمّ أحضر مسدّس البحرية، وقام بتلقيمه قبل أن يضغط فوهته على صدغه.

همس وهو يغمض عينيه: "سامحني". ثمّ ضغط على الزناد. كان الانفجار أكثر هدوءاً بكثير ممّا تخيّل، وأقرب إلى طقطقة منه إلى طلقة رصاص.

من سخرية القدر أنّ المسدّس أخفق في إطلاق النار. فغبار السنوات التي أمضاها في الخزانة من دون عناية ترك أثره على مسدّس الأميرال الرخيص. حتى هذا العمل الجبان كان يتجاوز قدرات أفيلا.

ثار غضبه، وألقى بالمسدّس على الجدار. هذه المرّة، اهتزّت الغرفة بالانفجار. شعر أفيلا بألم حارق في ساقه، وزال الضباب الذي خلّفه الشراب في عقله بفعل الألم المبرح، فسقط على الأرض وهو يصرخ ويمسك بساقه النازفة.

أُصيب الجيران بالذعر، وراحوا يطرقون على بابه، وسرعان ما علت صفّارات الإنذار ليجد أفيلا نفسه في مستشفى مقاطعة سان لازارو في إشبيلية، وهو يشرح كيف حاول الانتحار بإطلاق النار على ساقه.

في صباح اليوم التالي، كان ممدّداً في غرفته في المستشفى منهاراً وذليلاً حين أتاه زائر.

قال الشابّ بالإسبانية: "كم أنت رامٍ فاشل! لا عجب في أنّهم أجبروك على التقاعد".

وقبل أن يتمكّن أفيلا من الردّ، فتح الرجل الستائر متيحاً دخول أشعة الشمس. غطّى أفيلا عينيه قليلاً ليتمكّن من رؤية الشابّ الذي تبيّن أنّه مفتول العضلات وذو شعر قصير. كان يرتدي قميصاً قطنياً عليه صورة يسوع.

قال بلهجة أندلسية: "أنا أدعى ماركو، وأنا مدرّب إعادة التأهيل. طلبتُ أن توكَل إليّ لأنّنا نملك شيئاً مشتركاً".

فسأله أفيلا وهو يلاحظ أسلوبه في الكلام: "هل أنت عسكري؟".

نظر إليه الشابّ مجيباً: "كلّا، بل كنت هناك صباح يوم الأحد ذاك، في الكاتدرائية. يوم وقوع الهجوم الإرهابي".

فحدّق إليه أفيلا غير مصدّق. "أكنتَ هناك!؟".

مدّ الشابّ يده ورفع ساق سرواله ليكشف تحتها عن طرف اصطناعي. "أنا أدرك أنّ ما مررتَ به كان جحيماً، ولكنّني كنت لاعب كرة قدم شبه محترف، ولذلك لا تتوقّع منّي تعاطفاً كبيراً. أنا من أولئك الأشخاص الذين يؤمنون أنّ الله يحبّ من يساعدون أنفسهم".

وقبل أن يُدرك أفيلا ما يجري، حمله ماركو ووضعه على كرسيّ متحرّك، ثمّ دفعه عبر الممرّ إلى قاعة رياضية صغيرة، وأوقفه بين عارضتين متوازيتين.

قال الشابّ: "هذا سيؤلمك، لكن حاوِل الوصول إلى الطرف الآخر. قم بذلك مرّة واحدة، وبعدها يمكنك تناول الفطور".

كان الألم مبرحاً، لكنّ أفيلا لم يكن ليتذمّر أمام رجل بساق واحدة. لذلك، استخدم ذراعيه ليرفع معظم وزنه، ومشى بصعوبة إلى الطرف الآخر للعارضتين.

قال ماركو: "هذا جيّد، والآن قم بذلك مرّة أخرى".

"لكنّك قلت-"

"أجل، لقد كذبت. هيّا، مرّة أخرى".

رمق أفيلا الشابّ مذهولاً. لم يكن قد سبق للأميرال أن تلقّى أمراً منذ سنوات، والغريب أنّه وجد ذلك منعشاً. فقد شعر أنّه شابّ، تماماً مثل بداياته عندما كان مجنّداً حديثاً. فاستدار وبدأ يعود أدراجه.

قال ماركو: "إذاً، أخبرني. أما زلت تذهب لحضور القدّاس في كاتدرائية إشبيلية".

"بتاتاً".

"أبسبب الخوف؟".

هزّ أفيلا رأسه مجيباً: "بل بسبب الغضب".

ضحك ماركو قائلاً: "أجل، كان ينبغي أن أخمّن. لا شكّ في أنّ الراهبات طلبن منك أن تغفر للمعتدين؟".

وقف أفيلا في مكانه مجيباً: "بالضبط!".

"وأنا أيضاً. حاولتُ لكن هذا مستحيل. نصيحة الراهبات كانت فظيعة". ثمّ ضحك.

رمق أفيلا قميص يسوع الذي يرتديه الشابّ. "لكن، يبدو أنّك لا تزال...

"آه، أجل. ما زلت مسيحياً بكلّ تأكيد. لا، بل صرت أكثر تديّناً من ذي قبل. فأنا محظوظ لأنّني وجدتُ رسالتي، ألا وهي مساعدة ضحايا أعداء الله".

"يا لها من قضية نبيلة!". قال أفيلا ذلك وهو يشعر بشيء من الحسد، لا سيّما وأنّ حياته كانت بلا هدف ومن دون أسرته ومهنته.

تابع ماركو: "لقد ساعدني رجل عظيم للعودة إلى الله. وبالمناسبة، ذلك الرجل كان البابا. فقد التقيته شخصياً عدّة مرّات".

"المعذرة... البابا!".

"أجل".

"مثل... زعيم الكنيسة الكاثوليكية؟".

"أجل. إن كنت ترغب، يمكنني على الأرجح أن أرتّب لقاءً معه من أجلك".

حدّق أفيلا إلى الشابّ كما لو أنّه فقد عقله. "أيمكنك أن ترتّب لي لقاءً مع البابا؟".

بدا ماركو كما لو أنّه شعر بالإهانة. "أنا أدرك أنّك ضابط كبير في البحرية، ولا تستطيع أن تتخيّل أنّ مدرّباً فيزيائياً معوّقاً من إشبيلية يمكنه الوصول إلى شخصية دينية كهذه، ولكنّني أقول الحقيقة. بإمكاني أن أرتّب لك لقاءً معه إن أردت. وسيعيدك على الأرجح إلى الطريق الصحيح؛ تماماً مثلما ساعدني".

اتكأ أفيلا على العارضتين المتوازيتين غير واثق بما يجيب. فقد كان شديد الإعجاب بالبابا في تلك الفترة، والذي كان زعيماً محافِظاً وقوياً يبشّر بالأرثوذوكسية وتقاليدها الصارمة. لكن مع الأسف، انهالت عليه الانتقادات من كلّ حدب وصوب في العالم الحديث، وكانت ثمّة شائعات بأنّه سيقرّر التقاعد قريباً أمام الضغط الليبرالي المتنامي. "سيشرّفني لقاؤه بالطبع، لكن-"

قال ماركو: "هذا جيّد، سأحاول أن أرتّب لقاءً لك معه غداً".

لم يتخيّل أفيلا يوماً أن يجد نفسه في اليوم التالي جالساً في أعماق محراب آمن، وجهاً لوجه مع زعيم قويّ سيعلّمه الدرس الديني الأكبر في حياته.

طرق الخلاص عديدة.

والغفران ليس السبيل الوحيد.

الفصل 37

في الطابق الأرضي من قصر مدريد، تحتلّ المكتبة الملكية جناحاً هائلاً ومزخرفاً من الغرف التي تحتوي على آلاف المجلّدات التي لا تقدّر بثمن، بما في ذلك *كتاب الساعات* المزخرف الخاصّ بالملكة إيزابيلا، والأناجيل الشخصية لعدّة ملوك، ومخطوطة مجلّدة بالحديد من حقبة الملك ألفونسو الحادي عشر.

دخل غارزا مسرعاً بسبب عدم رغبته في ترك الأمير بمفرده في الطابق العلوي بين براثن فالديسبينو لمدّة طويلة. كان لا يزال يحاول استيعاب خبر لقاء فالديسبينو بكيرش قبل أيّام فقط، وقراره إبقاء ذلك اللقاء طيّ الكتمان. حتّى *في ضوء العرض الذي قدّمه كيرش الليلة ومقتله؟*

اقترب غارزا عبر ظلام المكتبة الشاسعة من منسّقة العلاقات العامّة مونيكا مارتن التي كانت تنتظر في الظلّ حاملة جهازها اللوحي المتوهّج.

قالت مارتن: "أنا أدرك أنّك مشغول يا سيّدي، ولكنّنا نواجه وضعاً شديد الحساسية من ناحية التوقيت. لقد ذهبت للبحث عنك لأنّ مركز الأمن لدينا قد تلقّى رسالة مزعجة بالبريد الإلكتروني من ConspiracyNet.com".

"ممَّ؟".

"هذا موقع شعبي متخصّص بنظرية المؤامرة. صحيح أنّ مقالاته رديئة ومتدنّية المستوى، ولكنّهم يملكون ملايين المتابعين. إن أردت رأيي، إنّ أخبارهم زائفة، ولكنّ الموقع يحظى باحترام كبير بين أصحاب نظريات المؤامرة".

وجد غارزا عبارتَي "احترام كبير" و"نظرية المؤامرة" متناقضتين تماماً.

تابعت مارتن كلامها قائلة: "كانوا يتابعون قضية كيرش طوال الليل، ولا أدري من أين يحصلون على معلوماتهم. لكنّ الموقع أصبح مركزاً للمدوّنين وأصحاب نظريات المؤامرة الجدد. حتّى إنّ الشبكات ترجع إليهم للحصول على الأخبار العاجلة".

فألحّ عليها غارزا قائلاً: "اذهبي إلى صلب الموضوع".

قالت مارتن وهي تدفع النظّارة على وجهها: "لقد حصل موقع ConspiracyNet على معلومات جديدة تتعلّق بالقصر، وسيعلنون عنها خلال عشر دقائق، وأرادوا إعطاءنا الفرصة للتعليق عليها مسبقاً".

حدّق غارزا إلى المرأة الشابّة غير مصدّق. "القصر الملكي لا يعلّق على القيل والقال!".

فحملت مارتن جهازها اللوحي قائلة: "ألقِ عليها نظرة على الأقلّ".

انتزع غارزا الجهاز من بين يديها، ووجد نفسه يحدّق إلى صورة أخرى لأميرال البحرية لويس أفيلا. لم يظهر أفيلا في وسط الصورة؛ إذ بدت وكأنّها التُقطت عن طريق المصادفة، بل كان بلباسه الأبيض الكامل يمرّ أمام لوحة. يبدو أنّ الصورة قد التُقِطت له من قبل أحد زوّار المتحف الذي كان يحاول تصوير تحفة فنية، وقد ظهر في الصورة عن غير قصد.

قال غارزا بحدّة وهو يتلهّف للعودة إلى الأمير وفالديسبينو: "أنا أعرف شكل أفيلا. لماذا تريني هذه الصورة؟".

"انتقل إلى الصورة التالية".

مسح غارزا الشاشة ليرى تكبيراً للصورة السابقة. كانت هذه النسخة تركّز على يد الأميرال اليمنى وهي تتأرجح أمامه أثناء سيره. رأى غارزا على الفور العلامة على راحة يده، والتي بدت كالوشم.



حدّق إلى الصورة مطوّلاً. كان رمزاً يعرفه جيّداً، شأنه شأن الكثير من الإسبان؛ ولا سيّما الأجيال الأكبر سنّاً.

رمز فرانكو.

كان الرمز الذي ظهر في أماكن كثيرة في إسبانيا في أواسط القرن العشرين مرادفاً للديكتاتورية شديدة المحافظة التي مارسها الجنرال فرانسيسكو فرانكو خلال حكمه. والذي كان حُكماً وحشياً ينادي بالقومية، والاستبداد، والعسكرة، ومعاداة الليبرالية، والكاثوليكية القومية.

كان غارزا يعرف أنّ هذا الرمز القديم مكوّن من ستّة أحرف، تؤلّف معاً باللاتينية كلمة واحدة تعرّف تماماً صورة فرانكو الذاتية.

فيكتور (المنتصر).

امتاز فرانسيسكو فرانكو بشخصية عنيفة ومتصلّبة لا ترحم. وقد وصل إلى السلطة بفضل الدعم العسكري الذي قدّمته له ألمانيا النازية وإيطاليا التي كانت خاضعة لحكم

موسوليني، وقتل آلافاً من خصومه قبل الاستيلاء الكامل على السلطة في البلاد عام 1393، ليعلن نفسه الكوديو؛ وهو المرادف الإسباني لفوهرر. وخلال الحرب الأهلية وأولى سنوات ديكتاتوريته، كان من يتجرّأ على معارضته يختفي في المعتقلات التي أُعدِم فيها ما يُقدَّر بثلاثمائة ألف شخص.

صوَّر نفسه مدافعاً عن "إسبانيا الكاثوليكية"، وعدوّاً للشيوعية الملحدة، وتميّز بعقلية ذكورية صارخة. فاستبعد النساء رسمياً من أيّ مناصب في السلطة، وبالكاد أعطاهنّ حقوقاً في مجالات التعليم، والقضاء، والحسابات المصرفية، أو حتّى الحقّ في الفرار من زوج يسيء معاملتهنّ. ألغى كلّ الزيجات التي لم تكن وفقاً للعقيدة الكاثوليكية. ومن بين القيود الأخرى، حظّر الطلاق، ووسائل منع الحمل، والإجهاض، والمثلية.

لقد تغيّر كلّ شيء الآن.

حتّى إنّ غارزا يتعجّب من مدى سرعة نسيان الأمّة أحلكَ الفترات في تاريخها.

في الواقع، نصّ اتّفاق النسيان (pacto de olvido)- وهو اتّفاق سياسي عُقِد على صعيد البلاد بأكملها لنسيان كلّ ما حدث تحت نير فرانكو- على ألّا يتمّ تعليم تلامذة المدارس في إسبانيا سوى القليل جدّاً عن الديكتاتور. وقد كشف استطلاع للرأي في إسبانيا أنّ المراهقين يعرفون الممثّل جايمس فرانكو أكثر ممّا يعرفون الديكتاتور فرانسيسكو فرانكو.

أمّا الأجيال الأكبر سنّاً فلن تنسى أبداً. وهذا الرمز، شأنه شأن الصليب النازي المعقوف، ما زال يثير الخوف في قلوب من يذكرون تلك السنوات الوحشية. وحتّى هذا اليوم، يُحذِّر المراقبون من أنّ أعلى المستويات في الحكومة الإسبانية والكنيسة الكاثوليكية ما زالت تؤوي فصيلة سرّية من أنصار فرانكو؛ وهم عبارة عن أخويّة خفية من التقليديين الذين أقسموا على إعادة إسبانيا إلى قناعاتها اليمينية المتطرّفة التي سادت في القرن الماضي.

كان على غارزا أن يُقرّ بوجود الكثير من العقليات القديمة التي تنظر إلى فوضى إسبانيا المعاصرة ولا مبالاتها الروحية، وتشعر أنّه لا يمكن إنقاذ البلاد إلّا بدولة دينية، وبحكومة أكثر استبدادية، وبفرض توجيهات أخلاقية أكثر وضوحاً.

كانوا يصيحون: *انظروا إلى شبابكم! لقد انحرفوا جميعاً!*

وفي الأشهر الأخيرة، ومع اقتراب انتقال العرش الإسباني إلى الأمير جوليان الأصغر سنّاً، يتزايد الخوف بين التقليديين من أن يصبح القصر الملكي نفسه صوتاً آخر من الأصوات المنادية بالتغيير التدريجي في البلاد. وما زاد من قلقهم هو ارتباط الأمير مؤخّراً بأمبرا فيدال التي لم تكن من الباسك فحسب، بل لا أدرية صريحة. وبصفتها ملكة إسبانيا المستقبلية، سيكون لها بلا شكّ تأثير على الأمير في مسائل الكنيسة والدولة.

عرف غارزا أنّ أيّاماً خطيرة تنتظر البلاد. *مرحلة انتقالية مثيرة للجدل بين الماضي والحاضر.*

بالإضافة إلى تعمّق الصدع الديني، تواجه إسبانيا مفترق طرق سياسياً أيضاً. فهل ستحافظ البلاد على حكمها الملكي؟ أم أنّ التاج الملكي سيُلغى نهائيّاً كما جرى في النمسا والمجر والكثير من الدول الأوروبية الأخرى؟ وحده الزمن كفيل بالإجابة عن هذين السؤالين. ففي الشوارع، يرفع التقليديون الأكبر سنّاً الأعلام الإسبانية، في حين يرتدي الشباب التقدّميون بفخر الألوان المعارِضة للمَلكية: الأرجواني، والأصفر، والأحمر؛ وهي ألوان الراية الجمهورية القديمة.

سيرث جوليان برميلاً من البارود.

قالت مارتن وهي تُعيد انتباه غارزا إلى الجهاز اللوحي: "عندما رأيتُ وشم فرانكو للمرّة الأولى ظننت أنّه ربما يكون قد أُضيف إلى الصورة رقمياً كخدعة، أقصد لإثارة البلبلة. فجميع مواقع المؤامرة تتنافس على حركة المرور في مواقعها، والرابط الفرانكوي سيحظى بتجاوب هائل؛ لا سيّما بسبب طبيعة محاضرة كيرش المعارضة للمسيحية".

أدرك غارزا أنّها على حقّ. *أصحاب نظرية المؤامرة سيتلقّفون هذا الخبر بجنون.*

أشارت مارتن إلى الجهاز. "اقرأ التعليق الذي ينوون نشره".

نظر غارزا برعب إلى النصّ الطويل الذي يرافق الصورة.

ConspiracyNet.com

جديد إدموند كيرش

على الرغم من الشكوك الأوّلية في أنّ مقتل إدموند كيرش تمّ على يد أشخاص متعصّبين، إلّا أنّ اكتشاف هذا الرمز الفرانكوي شديد المحافظة يُشير إلى أنّ الاغتيال قد تكون له دوافع سياسية أيضاً. وتشير الشكوك إلى أنّ لاعبين محافظين في أعلى مستويات الحكومة الإسبانية، وربّما حتّى داخل القصر الملكي نفسه، يخوضون نزاعاً على السلطة في ظلّ الفراغ الذي خلّفه غياب الملك ووفاته الوشيكة...

قال غارزا بعدما قرأ ما فيه الكفاية: "هذا مشين. أكلّ هذه التكهّنات بسبب وشم؟! هذا لا يعني شيئاً. فباستثناء حضور أمبرا فيدال خلال التصوير، لا علاقة إطلاقاً لهذه القضية بسياسة القصر الملكي. لا تعليق".

ألحّت مارتن قائلة: "سيّدي، إن واصلتَ قراءة التعليق فستكتشف أنّهم يحاولون أن يربطوا الأسقف فالديسبينو بالأميرال أفيلا مباشرة. فهم يقولون إنّ الأسقف قد يكون فرانكوياً سرّياً يهمس في أذن الملك منذ سنوات ويمنعه من إحداث تغييرات جذرية في البلاد". وصمتت قليلاً ثم أضافت: "ويحظى هذا الادّعاء باستحسان كبير على الشبكة".

مجدّداً، وجد غارزا نفسه عاجزاً عن الكلام. فهو لم يعد يعرف العالم الذي يعيش فيه.

لم تعد الأخبار الوهمية أقلّ وزناً من الأخبار الحقيقية.

رمق مارتن، وبذل ما في وسعه للتكلّم بهدوء: "مونيكا، كلّ هذا من صنع خيال المدوّنين بغرض التسلية. أؤكّد لك أنّ فالديسبينو ليس فرانكوياً. فقد خدم الملك بأمانة على مدى عقود، ولا يمكن أن يكون متورّطاً مع قاتل فرانكوي. لن يعلّق القصر على هذا الخبر، أهذا واضح؟". ثمّ استدار متّجهاً إلى الباب للعودة إلى الأمير وفالديسبينو بأسرع ما يمكن.

"مهلاً سيّدي!". مدّت مارتن يدها وأمسكت بذراعه.

فتوقّف غارزا وحدّق مصدوماً إلى يد موظّفته الشابّة.

عندئذٍ، سحبت مارتن يدها على الفور. "أنا آسفة سيّدي، لكنّ الموقع أرسل لنا تسجيلاً لمكالمة هاتفية جرت في بودابست للتوّ". رفّت عينيها بعصبية خلف عدستَي نظّارتها السميكتين وتابعت: "لن يعجبك ما ستسمعه أيضاً".

الفصل 38

لقد اغتيل رئيسي.

شعر القبطان جوش سيغل بيديه ترتَجفان على المقود وهو يقود طائرة إدموند كيرش، غولفستريم G550، نحو المدرج الرئيس في مطار بيلباو.

أنا لست في حالة تسمح لي بالطيران. قال ذلك مدركاً أنّ مساعده مصدوم بقدره.

قاد سيغل طيّارات إدموند كيرش الخاصّة منذ سنوات عديدة، لذا سبّبت له حادثة الاغتيال المروّعة هذه الليلة صدمة هائلة. فقبل ساعة، كان سيغل ومساعده جالسَين في صالة المطار يشاهدان البثّ الحيّ من متحف غوغنهايم.

علّق مازحاً بمرح على قدرة رئيسه على حشد هذا العدد الضخم من المشاهدين: "هذا الرجل يعشق الدراما". وبينما كان يشاهد البرنامج، وجد نفسه يميل إلى الأمام؛ شأنه شأن بقيّة المشاهدين في القاعة، مع تصاعد الفضول، إلى أن تغيّر مجرى الأحداث على نحو مفاجئ ومروّع.

في أعقاب الحادثة، جلس سيغل ومساعده وقد شلّتهما الصدمة وهما يشاهدان التغطية التلفزيونية ويتساءلان عمّا سيفعلانه الآن.

رنّ هاتف سيغل بعد عشر دقائق، وكان المتّصل مساعد إدموند الشخصي وينستون. لم يكن سيغل قد التقى الشابّ البريطاني يوماً، وعلى الرغم من غرابته بعض الشيء، إلّا أنّه اعتاد على تنسيق الرحلات معه.

قال وينستون: "إن لم تشاهدا التلفاز بعد، يجدر بكما تشغيله".

قال سيغل: "لقد رأينا ما حدث، وكلانا مصدومان".

قال وينستون بنبرة عمليّة غريبة على الرغم ممّا جرى: "نريد منكما إعادة الطائرة إلى برشلونة. استعدّا للإقلاع، وسأتّصل بكما قريباً. رجاءً، لا تُقلعا قبل أن نتحدّث".

لم يكن سيغل يملك أدنى فكرة عمّا إذا كانت تعليمات وينستون ستتماشى مع رغبات إدموند لو كان لا يزال على قيد الحياة. لكن في الوقت الحالي، شعر أنّه ممتنّ لأيّ نوع من التوجيه.

وبناء على أوامر وينستون، ملأ سيغل ومساعده بيانات الرحلة إلى برشلونة من دون ركّاب، ثمّ أخرجا الطائرة من الحظيرة وبدأا عمليّة الفحص التحضيرية.

مرّت ثلاثون دقيقة قبل أن يتّصل وينستون مجدَداً. "هل أنتما مستعدّان للإقلاع؟".

"أجل".

"هذا جيّد. أفترض أنكما ستستخدمان المدرج الشرقي المعتاد؟".

"هذا صحيح". كان سيغل يجد في بعض الأحيان أنّ وينستون شديد الدقّة والاطّلاع إلى حدّ مثير للأعصاب.

"من فضلك، اتّصل ببرج المراقبة واطلب تصريحاً بالإقلاع. تقدّم إلى طرف المهبط الجوي، ولكن لا تدخل المدرج".

"هل أتوقّف على الطريق؟".

"أجل، لدقيقة وحسب. أخبرني من فضلك عندما تصل إلى هناك".

نظر سيغل ومساعده إلى بعضهما باستغراب، إذ لم يكن لطلب وينستون أيّ معنى على الإطلاق.

قد يسأل برج المراقبة عن السبب.

مع ذلك، قاد سيغل الطائرة باتّجاه بداية المدرج عند الطرف الغربي للمطار. وكان يسير بها الآن على طول الأمتار المائة الأخيرة للطريق المؤدّية إليه، في النقطة التي ينعطف فيها الرصيف تسعين درجة إلى اليمين، ويندمج ببداية المدرج المتّجه شرقاً.

قال سيغل وهو يحدّق إلى السياج الأمني العالي الذي يحيط بأرض المطار: "وينستون، لقد وصلنا إلى آخر الطريق المؤدّية إلى المدرج".

فقال وينستون: "انتظر هناك من فضلك، سأعود إليك".

لا يمكنني الانتظار هنا! أخذ سيغل يتساءل عمّا يفعله وينستون بالضبط. لحسن الحظّ، لم تُظهر كاميرات الرؤية الخلفية للطائرة وجود أيّ طائرات خلفه، هذا يعني أنّه لا يعيق حركة المرور على الأقلّ. كانت الأضواء الوحيدة منبعثة من برج المراقبة، وكانت عبارة عن وهج خفيف من الطرف الآخر من المدرج، على مسافة ميلين تقريباً.

مرّت ستّون ثانية.

تصاعد صوت من السمّاعة: "معكم برج المراقبة. EC346، يمكنكم الإقلاع على المدرج رقم واحد. أكرّر، يمكنكم الإقلاع".

لم يكن سيغل يريد شيئاً سوى ذلك، ولكنّه كان لا يزال ينتظر كلمة من مساعد إدموند، لذا قال: "شكراً لكم. ولكنّنا بحاجة للوقوف هنا لدقيقة واحدة أخرى. لدينا ضوء إنذار نتحقّق منه".

"حسناً، يرجى إخبارنا عندما تصبح جاهزاً".

الفصل 39

سألهما قبطان قارب الأجرة: "هنا! أتريدان التوقّف هنا؟ لكنّ المطار بعيد، يمكنني أن أقلّكما إلى هناك".

قال لانغدون مُطبِّقاً تعليمات وينستون: "شكراً لك، سننزل هنا".

هزّ القبطان كتفيه وأوقف القارب بجانب جسر صغير كُتب عليه بويرتو بيديا. كانت ضفّة النهر مكسوّة بالأعشاب الطويلة، وبدا الوصول إليها ممكناً نوعاً ما. على الفور، بدأت أمبرا تترجّل من القارب وتشقّ طريقها على المنحدر.

سأل لانغدون القبطان: "بكم ندين لك؟".

أجاب الرجل: "لا شيء. لقد دفع لي صديقكم البريطاني مسبقاً ببطاقة الائتمان، ثلاثة أضعاف الأجر

دفع وينستون مسبقاً . ما زال لانغدون غير معتاد على العمل مع مساعد كيرش الإلكتروني. *كما لو كنت أملك تطبيق "سيري" يعمل على المنشّطات.*

أدرك لانغدون أنّ قدرات وينستون لا ينبغي أن تفاجئ أحداً؛ بالنظر إلى الأخبار اليومية حول الذكاء الاصطناعي القادر على تأدية جميع أنواع المهام المعقّدة، بما في ذلك كتابة الروايات. حتّى إنّ كتاباً من هذا النوع كاد ينال جائزة أدبية يابانية.

شكر لانغدون القبطان، وقفز من القارب على الضفّة. وقبل أن يتسلّق المنحدر، التفت إلى القبطان الحائر، ثمّ رفع إصبعه إلى شفتيه وقال بالإسبانية: "كما اتفقنا".

فأكّد له القبطان وهو يغطّي عينيه: "أجل، أجل. أنا لم أرَ شيئاً!".

عند ذلك، أسرع لانغدون يتسلّق التلّ، ثمّ عبر سكّة قطار وانضمّ إلى أمبرا على طرف طريق قروي منحدر اصطفّت على جانبيه محلّات تجارية جميلة.

أتاه صوت وينستون عبر مكبّر الصوت: "بحسب الخارطة، ينبغي أن تكونا عند تقاطع بويرتو بيديا وقناة ريو أسوا. هل تريان مستديرة صغيرة في وسط البلدة؟".

أجابت أمبرا: "أنا أراها".

"جيّد. قبالة المستديرة تماماً، ستجدان طريقاً صغيرة تسمّى بايكي بيديا. اسلكاها لتبتعدا عن وسط القرية".

بعد دقيقتين، كان لانغدون وأمبرا قد تركا القرية، ويحثّان الخطى على طول طريق ريفي مقفر انتشرت حوله منازل حجرية محاطة بمساحات من المراعي العشبية. وبينما كانا يتوغّلان أكثر في تلك المنطقة الريفية، شعر لانغدون بوجود خطب ما. إلى يمينهما في البعيد، فوق قمّة تلّة صغيرة، توهّجت السماء بقبّة ضبابية من التلوّث الضوئي.

قال: "إن كانت تلك مصابيح محطّة الطيران النهائية، فنحن بعيدان جدّاً".

قال وينستون: "المطار على بعد ثلاثة كيلومترات من موقعكما".

تبادل أمبرا ولانغدون نظرات الدهشة. فقد قال لهما وينستون إنّ المسافة تستغرق ثماني دقائق سيراً على الأقدام.

تابع وينستون: "بحسب صور أقمار غوغل الاصطناعية، يقع إلى يمينكما حقل كبير. هل يبدو عبوره ممكناً؟".

نظر لانغدون إلى حقل القشّ إلى اليمين الذي يرتفع بلطف إلى الأعلى باتّجاه مصابيح المحطّة النهائية.

أجاب لانغدون: "يمكننا تسلّقه بكلّ تأكيد، لكنّ ثلاثة كيلومترات ستستغرق-"

"بروفيسور، تسلّقا التلّ وحسب واتّبعا تعليماتي بدقّة". كانت نبرة وينستون مهذّبة وخالية من الانفعال كالعادة، لكنّ لانغدون أدرك مع ذلك أنّه تعرّض للتوبيخ.

فهمست أمبرا وقد بدت التسلية على ملامحها وهي تشرع في صعود التلّ: "تهانينا، هذا أقرب شيء إلى الغضب أسمعه من وينستون".

أعلن الصوت عبر سمّاعة سيغل: "EC346، معكم مركز التحكّم بحركة الطيران. عليكم إخلاء الطريق والإقلاع أو العودة إلى الحظيرة لإجراء الإصلاحات. ما الوضع لديكم؟".

فكذب سيغل قائلاً وهو ينظر إلى كاميرا الرؤية الخلفية: "ما زلنا نعمل على العطل". لم يرَ طائرات خلفه، بل مصابيح البرج البعيدة وحسب. "أحتاج إلى دقيقة أخرى".

"عُلِم، أبقونا على اطّلاع".

ربّت مساعد الطيّار على كتف سيغل، وأشار إلى شيء ما من خلال الزجاج الأمامي.

نظر سيغل إلى حيث أشار مساعده، ولكنّه لم يرَ سوى السياج المرتفع أمام الطائرة. فجأة، من الجهة الأخرى من شبكة الحاجز، تراءى له شبح. *لكن، ماذا يجري؟!*

في الحقل المظلم خلف السياج، ظهر طيفان من الظلام، وراحا يهبطان سفح تلّة ويتّجهان نحو الطائرة مباشرة. ومع اقترابهما، لمح سيغل الوشاح الأسود المائل المميّز على فستان أبيض سبق له أن رآه هذه الليلة على شاشة التلفزيون.

سبق لأمبرا فيدال أن رافقت كيرش في عدد من تنقّلاته. وكان سيغل يشعر دائماً أنّ قلبه يقفز من مكانه كلّما صعدت الحسناء الإسبانية على متن الطائرة. غير أنّه لم يستطع أن يفهم على الإطلاق ما تفعله الآن في أحد المراعي خارج مطار بيلباو.
رافق أمبرا رجل طويل القامة، يرتدي هو أيضاً ملابس رسمية باللونين الأسود والأبيض. فتذكّر سيغل أنّه رآه هو الآخر في برنامج هذا المساء.
البروفيسور الأميركي روبرت لانغدون.
عاد صوت وينستون فجأة: "سيّد سيغل، يفتَرَض أنك ترى الآن شخصين من الجانب الآخر من السياج، ولا شكّ في أنّك ستعرفهما". وجد سيغل نبرة البريطاني هادئة على نحو مريب. "أرجو أخذ العلم أنّه نظراً لظروف أتحفّظ على شرحها تماماً، سأطلب منك الامتثال لرغباتي نيابة عن السيّد كيرش. كلّ ما عليك معرفته الآن هو التالي". صمت وينستون قليلاً قبل أن يُضيف: "الأشخاص أنفسهم الذين اغتالوا إدموند كيرش يحاولون الآن قتل أمبرا فيدال وروبرت لانغدون. وحفاظاً على سلامتهما، نحن نطلب مساعدتكما".
تمتم سيغل محاولاً استيعاب ما سمعه: "لكن... بالطبع".
"تحتاج الآنسة فيدال والبروفيسور لانغدون إلى الصعود على متن طائرتك حالاً".
سأله سيغل: "من هنا؟".
"أنا أدرك المشكلة التقنية التي تطرحها مراجعة بيان الركّاب، لكن-"
"وهل تدرك المشكلة التقنية التي يطرحها سياج أمني بارتفاع عشر أقدام يحيط بالمطار؟!".
فقال وينستون بهدوء: "بالطبع، سيّد سيغل. أنا أدرك أنّنا لم نعمل معاً سوى لبضعة أشهر، لكنني أرجوك أن تثق بي. أنا أطلب منك ما كان سيطلبه إدموند تماماً في وضع كهذا".
أصغى سيغل إلى وينستون غير مصدّق، فيما كان هذا الأخير يعطيه تفاصيل الخطّة.
احتجّ قائلاً: "هذا مستحيل!".
قال وينستون: "بل على العكس، إنّه ممكن جداً. فوزن كلّ محرّك يزيد عن خمسة عشر ألف باوند، ومخروط مقدمة الطائرة مصمّم لتحمّل سبعمائة ميل-"
قال سيغل: "أنا لست قلقاً بشأن الفيزياء، بل بشأن قانونية عمل كهذا، وكذلك بشأن سحب رخصتي!".

أجاب وينستون بصوت هادئ: "أنا أفهم ذلك سيّد سيغل، لكنّ ملكة إسبانيا المستقبلية في خطر حالياً، ويمكنك إنقاذ حياتها. صدّقني، عندما تظهر الحقيقة، لن تتلقّى التوبيخ، بل ستنال ميدالية ملكية من الملك".

وقف لانغدون وأمبرا بين الأعشاب العالية، وراحا يحدّقان إلى السياج الأمني المرتفع والمضاء بمصابيح الطائرة.

بطلب من وينستون، ابتعدا عن السياج بينما هدرت محرّكات الطائرة وبدأت تتقدّم إلى الأمام. لكن عوضاً عن اتّباعها الطريق المنحنية المؤدّية إلى المدرج، تابعت الطائرة تقدّمها نحوهما مباشرة، وعبرت خطوط الأمان المطليّة، ثمّ مشت على طرف الإسفلت. أبطأت من سرعتها، وراحت تقترب تدريجياً من السياج.

لاحظ لانغدون الآن أنّ مخروط مقدمة الطائرة أصبح محاذياً تماماً لأحد أعمدة الدعم الفولاذية الثقيلة التي تثبّت السياج. ومع اصطدام مقدّمة الطائرة الضخمة بالعمود، هدرت المحرّكات بخفّة شديدة.

توقّع لانغدون معركة أكثر شراسة، لكن يبدو أنّ محرّكَي الرولز رويس وطائرة بوزن أربعين طنّاً كانت أكثر ممّا يستطيع عمود هذا السياج احتماله. فعلى الفور، مال العمود نحوهما مصدراً صريراً معدنياً، وشدّ معه جزءاً كبيراً من الإسفلت الملتصق بقاعدته، كما لو كان جذور شجرة تسقط.

هُرع لانغدون وأمسك بالسياج وهو يسقط، ثمّ شدّه إلى الأسفل إلى أن تمكّن هو وأمبرا من العبور من فوقه. وبوصولهما إلى المدرج، كان سلّم الطائرة قد أُنزل، ووقف أعلاه طيّار بزيّه الرسمي وهو يلوّح لهما للصعود.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه أمبرا وعلّقت قائلة: "أما زلت تشكّ في وينستون؟".

غير أنّ لانغدون كان عاجزاً عن الكلام.

سارعا إلى صعود السلّم ودخول مقصورة الطائرة الفخمة. وفي تلك اللحظة، سمع لانغدون الطيّار الثاني في قمرة القيادة يتحدّث إلى برج المراقبة.

كان يقول: "أجل، أنا أقرأ، لكن قد يكون راداركم الأرضي مخطئاً. فنحن لم نخرج عن الطريق المؤدّية إلى المدرج. أكرّر، نحن ما زلنا على الطريق المؤدّية إلى المدرج. لقد انطفأ ضوء الإنذار لدينا، ونحن مستعدّان للإقلاع".

أغلق مساعد الطيّار باب الطائرة، بينما راح الطيّار يتراجع إلى الخلف ويُعيد الطائرة إلى مسارها بعيداً عن السياج المخرَّب. وبعد ذلك، بدأت الطائرة دورتها حول المدرج.

على المقعد المقابل لأمبرا، أغمض روبرت لانغدون عينيه للحظة وتنهّد. هدرت المحرّكات في الخارج، وشعر بتسارع الطائرة وهي تسير على المدرج.

بعد ثوانٍ، أقلعت الغولفستريم وانحرفت نحو الجنوب الشرقي، ثمّ حلّقت في سماء الليل باتّجاه برشلونة.

الفصل 40

هُرع الحاخام يهودا كوفيس من مكتبه، ثمّ عبر الحديقة وخرج من باب منزله ليهبط الدرجات المؤدّية إلى الرصيف.

قال لنفسه وقلبه ينبض هلعاً: *لم أعد آمناً في منزلي. عليّ اللجوء إلى الكنيس.*

لم يكن كنيس شارع دوهاني ملاذ كوفيس طوال حياته فحسب، بل وحصناً حقيقياً أيضاً. فالحواجز، والأسوار الشائكة، والحرّاس على مدى أربع وعشرين ساعة كلّها تذكّر بتاريخ بودابست الطويل المعادي للسامية. والليلة، شعر الحاخام بالامتنان لامتلاكه مفاتيح هذه القلعة.

كان الكنيس يبعد خمس عشرة دقيقة عن منزله، وهي مسافة يجتازها باطمئنان يوميّاً سيراً على الأقدام. غير أنّه الليلة، حين بدأ يسير في شارع كوسوث لايوس لم يشعر سوى بالخوف. أخفض رأسه وتفحّص بحذر الظلال أمامه وهو يبدأ رحلته.

على الفور، رأى شيئاً سبّب له التوتّر.

فقد لمح شكلاً داكناً لشخص جالس على مقعد في الجهة المقابلة من الشارع، رجل قويّ البنية يرتدي سروال جينز أزرق ويضع قبّعة بايسبول، ينقر على هاتفه الذكيّ الذي أضاء وجهه الملتحي.

حثّ كوفيس خطاه مفكّراً في سره، *هذا الرجل ليس من الجوار.*

رفع الرجل رأسه وراقب الحاخام للحظة، ثمّ عاود النظر إلى هاتفه، فزاد كوفيس من سرعته. بعد مسافة قصيرة، التفت إلى الخلف بعصبية. لسوء حظّه، لم يعد الرجل جالساً على المقعد، بل عبر الشارع وبدأ يسير على الرصيف خلف كوفيس.

إنّه يتبعني! أخذ الحاخام المسنّ يزيد من سرعته حتّى بدأ يلهث. وتساءل عمّا إذا كان قد ارتكب خطأً فظيعاً بمغادرته منزله.

لقد حثّني فالديسبينو على البقاء في المنزل! بمن قرّرت أن أثق؟

كان كوفيس ينوي انتظار وصول رجال فالديسبينو لمرافقته إلى مدريد، لكنّ المكالمة الهاتفية غيّرت كلّ شيء. إذ بدأت بذور الشكّ تنمو داخله بسرعة.

حذّرته المرأة عبر الهاتف قائلة: "*لن يرسل الأسقف رجالاً لنقلك إلى مدريد بل للتخلّص منك؛ تماماً كما تخلّص من سيّد الفضل*". ثمّ قدّمت له أدلّة مقنعة جداً أثارت ذعره ودفعته إلى الفرار.

والآن، بينما كان يتوجّه مسرعاً إلى الكنيس، خشي ألّا يتمكّن من الاحتماء فيه أساساً. فالرجل صاحب القبّعة ما زال خلفه، يتعقّبه على مسافة نحو خمسين متراً.

مزّق صرير قوي سكون الليل، فأُجفل كوفيس. لكنّه سرعان ما أدرك بارتياح أنّ حافلة توقّفت عند إحدى المحطّات على مقربة منه. وشعر وهو يهرع للصعود على متنها كما لو أنّ الله أرسلَها إليه. كانت الحافلة مزدحمة بالطلّاب الجامعيين، وقام اثنان منهم بإفساح مكان له في المقدّمة بتهذيب.

قال الحاخام وهو يلهث: "شكراً لكما".

لكن قبل أن تستأنف الحافلة سيرها، هرول صاحب القبّعة والجينز خلفها وتمكّن في اللحظة الأخيرة من الصعود إلى متنها.

تصلّب كوفيس، لكنّ الرجل تجاوزه من دون أن يلقي عليه أيّ نظرة، وجلس على مقعد خلفي. استطاع الحاخام أن يرى من خلال الانعكاس على الزجاج الأمامي أنّ الرجل قد عاد للاستغراق في هاتفه الذكيّ، وانهمك على ما يبدو في إحدى ألعاب الفيديو.

ففكّر في سرّه: *لا تكن شديد التشكّك يا يهودا، فهذا الرجل لا يهتمّ بك*.

وعندما وصلت الحافلة إلى محطّة شارع دوهاني، حدّق كوفيس بشوق إلى أبراج الكنيس الذي لم يكن يبعد سوى مسافة بضعة أبنية؛ غير أنّه لن يتمكّن من حمل نفسه على ترك أمان الحافلة المزدحمة.

إن ترجّلتُ الآن، ولحق بي الرجل...

وهكذا بقي جالساً على مقعده، وقرّر أنّه على الأرجح سيكون آمناً أكثر بين الناس. وفكّر في سره: *يمكنني البقاء في الحافلة لبعض الوقت لالتقاط أنفاسي*، مع أنّه تمنّى الآن لو استخدم الحمّام قبل أن يغادر منزله بهذه السرعة.

لم تمضِ سوى لحظات، مع خروج الحافلة من شارع دوهاني، قبل أن يدرك الحاخام الخلل الرهيب في خطّته.

إنّه مساء السبت، وجميع الركّاب شباب صغار.

وسرعان ما تبيّن له أن كلّ من في هذه الحافلة سيغادرها بالتأكيد في المكان نفسه؛ أي عند المحطّة التالية، في قلب الحيّ اليهودي في بودابست.

بعد الحرب العالمية الثانية، تُرك هذا الحيّ أنقاضاً. لكنّ أبنيته المتداعية تحوّلت الآن إلى أحد أكثر مراكز السهر النابضة بالحياة في أوروبا، واستقبلت الأبنية المهدّمة

بعضاً من أكثر النوادي الليلية شهرة. وفي العطل الأسبوعية، يتجمّع الطلّاب والسيّاح هنا للاحتفال في هياكل المخازن والمنازل القديمة المهدّمة المكسوّة بالغرافيتي، والتي تمّ تجهيزها بأحدث أنظمة الصوت، والإضاءة الملوّنة، والفنّ الانتقائي.

وكما توقّع، عندما توقّفت الحافلة عند المحطّة التالية، ترجّل منها الطلّاب جميعاً. أمّا الرجل صاحب القبّعة فبقي جالساً في الجزء الخلفي ومستغرقاً في هاتفه. فما كان من كوفيس إلّا أن نهض وأسرع مجتازاً المسافة التي تفصله عن الباب، ثمّ نزل مع حشد الشباب إلى الشارع.

هدرت الحافلة مبتعدة، ثمّ توقّفت فجأة، وفُتِح بابها لينزل منه راكب أخير؛ لم يكن سوى صاحب القبّعة. مجدّداً، شعر كوفيس بنبضه يتسارع، غير أنّ الرجل لم يعره أيّ انتباه. وعوضاً عن ذلك، استدار ومشى مسرعاً بالاتّجاه المعاكس، وأجرى مكالمة في أثناء ذلك.

حاول كوفيس أن يتنفّس بهدوء وقال لنفسه: *كفّ عن تخيّل الأشياء.*

ابتعدت الحافلة، وبدأ حشد الطلّاب يسيرون باتجاه النوادي الليلية، فبقي الحاخام معهم لأطول وقت ممكن قبل أن ينعطف يساراً ويذهب باتجاه الكنيس.

إنّه لا يبعد سوى مسافة قصيرة. وتجاهل ثقل ساقيه والضغط المتزايد على مثانته.

كانت النوادي الليلية تغصّ بالزبائن الصاخبين الذين خرجوا إلى الشوارع بعد أن ضاقت بهم. ضجّ المكان بأصوات الموسيقى الإلكترونية، وعبق الهواء برائحة المشروبات التي اختلطت بالأبخرة الحلوة لسجائر سوبياناي وكعك المواقد، كورتوسكالاك.

ومع اقترابه من ناصية الشارع، لم يفارقه الإحساس المخيف بأنّه مراقب. فأبطأ من سيره، واسترق نظرة إلى الخلف، ولكن لحسن الحظّ، لم يرَ أثراً لصاحب الجينز وقبّعة البايسبول.

في المدخل المظلم، قرفص الرجل وبقي بلا حراك لعشر ثوانٍ، قبل أن يُطِلّ بحذر من الظلام إلى ناصية الشارع.

كانت محاولة جيّدة أيها الحاخام. وعلم أنّه توارى عن الأنظار في الوقت المناسب.

تحقّق الرجل مجدّداً من الحقنة في جيبه، ثمّ خرج من مخبئه، وعدّل قبعة البايسبول، وأسرع خلف هدفه.

الفصل 41

أسرع قائد الحرس الملكي دييغو غارزا إلى جناح الأمير حاملاً بيده جهاز مونيكا مارتن اللوحي.

احتوى الجهاز على تسجيل لمكالمة هاتفية جرت بين حاخام مجَري يُدعى يهودا كوفيس ومخبر على الإنترنت. ولم يترك محتوى التسجيل الصادم للقائد غارزا سوى بضعة خيارات ثمينة.

سواء أكان فالديسبينو مسؤولاً فعلاً عن مؤامرة القتل كما زعم هذا المخبر أم لا، فإنّ سمعة فالديسبينو ستتدمّر إلى الأبد عند نشر هذا التسجيل.

يجب أن أحذّر الأمير وأعزله عن التداعيات.

كما ينبغي إخراج فالديسبينو من القصر قبل انتشار هذه القصّة.

في السياسة، يعتبر نفاذ البصيرة أمراً حيوياً. ومتداولو المعلومات، سواء أكانت تلك المعلومات صحيحة أم لا، يوشكون على رمي فالديسبينو تحت العجلات. ومن الواضح أنّه لا ينبغي أن يظهر وليّ العهد إلى جانب الأسقف على الإطلاق في هذه الليلة.

كانت منسّقة العلاقات العامّة مونيكا مارتن قد نصحت غارزا بشدّة بالطلب إلى الأمير الإدلاء ببيان على الفور، وإلّا فإنّه يوشك على أن يبدو متواطئاً في هذه الجريمة.

إنّها على حق. يجب أن يظهر جوليان على شاشة التلفاز حالاً.

وصل غارزا إلى أعلى السلّم، واجتاز الرواق متّجهاً إلى جناح جوليان وهو يلهث وينظر من وقت إلى آخر إلى الجهاز الذي يحمله.

بالإضافة إلى صورة الوشم الفرانكوي وتسجيل المكالمة مع الحاخام، يبدو أنّ بيانات موقع ConspiracyNet ستتضمّن خبراً ثالثاً وأخيراً؛ خبراً حذّرت مارتن من أنّه سيكون الأكثر سخونة.

كوكبة بيانات؛ هكذا وصفت مجموعة البيانات العشوائية والمتباينة في الظاهر التي يسعى أصحاب نظرية المؤامرة إلى تحليلها وربطها بطرائق هادفة لتشكّل "كوكبات" محتملة.

فكّر في سره غاضباً: ما من أحد أفضل من مجانين الأبراج! فهم يبتدعون أشكالاً حيوانية من الترتيبات العشوائية للنجوم!

لسوء الحظّ، كانت البيانات التي نشرها ConspiracyNet تبدو مصاغة خصّيصاً لتشكّل كوكبة واحدة. ومن وجهة نظر القصر، ليست كوكبة جميلة.

ConspiracyNet.com

اغتيال كيرش

ما وردنا حتّى الآن

أطلع إدموند كيرش على اكتشافه العلمي ثلاثة زعماء دينيين هم: الأسقف أنطونيو فالديسبينو، والعلّامة سيّد الفضل، والحاخام يهودا كوفيس.

قُتِل كيرش والفضل. أمّا الحاخام يهودا كوفيس فلم يعد يُجيب على هاتف منزله، ويبدو أنّه مفقود.

الأسقف فالديسبينو على قيد الحياة وعلى خير ما يرام. وقد شوهد آخر مرّة وهو يعبر الساحة متّجهاً إلى القصر الملكي.

يملك قاتل كيرش- الذي تمّ التعرّف عليه على أنّه أميرال البحرية لويس أفيلا- علامات على جسده تربطه بفصيلة الفرانكويين المتشدّدين. (هل الأسقف فالديسبينو، المحافظ المعروف، فرانكوي أيضاً؟)

أخيراً، واستناداً إلى مصادر من داخل غوغنهايم، كانت قائمة الضيوف مغلقة، ومع ذلك أضيف اسم لويس أفيلا في اللحظة الأخيرة بناء على طلب شخص من داخل القصر الملكي. (والملكة المستقبلية أمبرا فيدال هي التي لبّت ذلك الطلب).

ينوّه موقع ConspiracyNet بالمساهمات الجوهرية والمستمرّة للمراقب المدني monte@iglesia.org في هذه القصّة.

monte@iglesia.org؟

كان غارزا قد سبق له أن حسم أمر كون هذا البريد الإلكتروني مزيّفاً.

فموقع iglesia.org موقع كاثوليكي إنجيلي بارز في إسبانيا، وهو عبارة عن مجتمع على الإنترنت يضمّ الكهنة، والناس العاديين، والطلّاب المخلصين لتعاليم يسوع. ويبدو أن المُخبِر قد اخترق ذلك المجال لكي تبدو الادّعاءات أنّها آتية من iglesia.org.

خطوة ذكية. فقد كان غارزا يعلم أنّ الأسقف فالديسبينو يتمتّع بإعجاب كبير من قبل الكاثوليك المتديّنين. وتساءل عمّا إذا كان هذا "المساهِم" على الإنترنت هو المُخبِر نفسه الذي اتّصل بالحاخام.

وصل غارزا إلى باب الجناح وهو يتساءل عن الطريقة التي سيزفّ بها النبأ إلى الأمير. بدأ ذلك اليوم بصورة عادية جدّاً، وفجأة أصبح القصر كما لو أنّه في حرب مع أشباح. *مخبر مجهول يدعى مونتي! مجموعة من البيانات!* وما زاد الأمور سوءاً أنّ غارزا لا يملك بعد أيّ أخبار عن وضع أمبرا فيدال وروبرت لانغدون.

كان الله في عوننا إن بلغ تمرّد أمبرا هذه الليلة مسامع الصحافة.

دخل القائد من دون أن يطرق الباب. نادى وهو يسرع باتّجاه غرفة المعيشة: "سموّ الأمير جوليان، أودّ التحدّث معك على انفراد للحظة".

وصل إلى غرفة المعيشة وجمد في مكانه.

كانت الغرفة خالية.

تراجع نحو المطبخ وهو ينادي: "دون جوليان، نيافة الأسقف".

فتّش غارزا الجناح بأكمله، ولكنّه لم يجد أثراً للأمير وفالديسبينو.

وعلى الفور، اتّصل بهاتف الأمير الخلوي، وبدأ يسمع الرنين. كان الصوت خافتاً ولكنّه مسموع، وراح يتصاعد من مكان ما في الجناح. نادى الأميرَ مجدّداً، وأصغى إلى الرنين المكتوم، ثمّ تعقّبه إلى أن وصل إلى خزنة في جدار الجناح.

هل وضع جوليان هاتفه في الخزنة؟!

لم يصدّق غارزا أنّ الأمير يترك هاتفه في ليلة تعتبر فيها الاتصالات أمراً بالغ الأهمّية.

أين هما يا ترى؟

حاول الاتّصال بهاتف فالديسبينو، على أمل أن يجيبه الأسقف. لكنّه ذهل تماماً عندما تصاعد رنين مكتوم آخر من الخزنة.

هل ترك فالديسبينو هاتفه أيضاً!؟

انتابه إحساس متصاعد بالذعر، فاندفع إلى خارج الجناح. وخلال الدقائق التالية، أخذ يجري في ممرّات القصر وهو يصيح باسميهما، وفتّش الطابقين العلوي والسفلي.

لا يمكن أن يكونا قد تبخّرا في الهواء!

توقّف غارزا أخيراً عن الجري، ليجد نفسه عند أسفل سلّم "ساباتيني" الكبير والأنيق يكافح لالتقاط أنفاسه. أخيراً، أخفض رأسه مهزوماً. كان الجهاز اللوحي الذي يحمله قد انطفأ، لكنّ الشاشة السوداء عكست جدارية السقف الذي يعلو رأسه مباشـ

يا لها من مفارقة قاسية! كانت جدارية جاكينتو تحفة رائعة تحمل عنوان *إسبانيا تحمي الإيمان*.

الفصل 42

مع بلوغ طائرة الغولفستريم G550 ارتفاع الطيران، حدّق روبرت لانغدون بشرود من خلال النافذة البيضاوية وحاول استجماع أفكاره. كانت الساعتان الماضيتان عاصفتين بالانفعالات؛ بدءاً من التشويق في محاضرة إدموند، إلى هول مقتله أمام عينيه. وبدا للانغدون أنّ غموض تلك المحاضرة يتعاظم كلّما فكّر فيها.

ما السرّ الذي اكتشفه إدموند يا ترى؟

من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

بقيت كلماته التي نطق بها في منحوتة الدوّامة هذه الليلة عالقة في ذهنه: *روبرت، الاكتشاف الذي توصّلت إليه... يجيب بكلّ وضوح عن هذين السؤالين.*

زعم إدموند أنّه أجاب عن اثنين من أكثر أسئلة الحياة غموضاً. ومع ذلك، تساءل لانغدون: كيف يمكن لأنباء إدموند أن تكون تخريبية إلى هذا الحدّ؛ حيث يُقدِم أحدهم على إسكاته على هذا النحو؟

كلّ ما عرفه لانغدون هو أنّ إدموند كان يشير إلى أصل البشرية ومصير الإنسان.

ما هو الأصل الصادم الذي اكتشفه إدموند؟

ما هو المصير الغامض؟

بدا إدموند متفائلاً ومتحمّساً بشأن المستقبل. ولذلك، من غير المرجّح أن يكون قد توقّع نهاية مروّعة للعالم. *ما الذي توقّعه إذاً؟ وما علاقته برجال الدين؟*

أتت إليه أمبرا حاملة فنجاناً من القهوة الساخنة. "روبرت، هل قلت إنّك تحبّها سوداء؟".

"أجل، شكراً لك". أخذ الفنجان بامتنان، على أمل أن يساعده الكافيين على تهدئة أفكاره المتشابكة.

جلست أمبرا أمامه، وصبّت لنفسها كأساً من الشراب من زجاجة أنيقة. "يملك إدموند مجموعة من زجاجات الشراب الثمينة على متن الطائرة، ومن المؤسف أن تضيع هدراً".

كان لانغدون قد تذوّق هذا الشراب الفرنسي الفاخر مرّة واحدة فقط في قبو سرّي قديم تحت كلّية الثالوث الأقدس في دبلن، بينما كان يُجري بحثاً حول المخطوطة المصوّرة المعروفة باسم *كتاب كيلز*.

أحاطت أمبرا كأسها بيديها، ثمّ رفعتها إلى شفتيها وهي تحدّق إلى لانغدون من فوق حافة الكأس. مجدّداً، وجد نفسه ضعيفاً على نحو غريب أمام الأناقة الطبيعية التي تتمتّع بها هذه المرأة.

قالت: "كنت أفكّر في ما قلتَه سابقاً. هل ذكرتَ أنّ إدموند قد التقاك في بوسطن وسألك عن مختلف قصص الخلق؟".

"أجل، منذ عام تقريباً. فقد كان مهتمّاً بمختلف الطرائق التي أجابت بها الديانات الكبرى عن هذا السؤال، من أين أتينا؟".

"إذاً، قد تكون هذه نقطة انطلاق جيّدة بالنسبة إلينا. فربّما استطعنا أن نعرف ما الذي كان يعمل عليه".

أجاب: "أنا لا أمانع على الإطلاق بالعودة إلى البداية. ولكنّني لست واثقاً ممّا سنجده. فثمّة مدرستان فكريتان فقط حول أصلنا؛ المفهوم الديني وهو أنّ الله خلق البشر خلقاً كاملاً، والمفهوم التطوري".

فسألته أمبرا وعيناها البنّيتان تلمعان: "إذاً، ماذا لو كان إدموند قد اكتشف احتمالاً ثالثاً؟ ماذا لو كان ذلك جزءاً من اكتشافه؟ ماذا لو أثبت أنّ الجنس البشري لم يأتِ من آدم وحواء ولا من التطوّر؟".

أقرّ لانغدون بأنّ اكتشافاً كهذا من شأنه أن يهزّ أركان العالم. ولكنّه ببساطة لم يستطع أن يتخيّل ما قد تكون ماهيّته. قال: "نظرية داروين مترسّخة إلى حدّ كبير؛ لأنّها تشتمل على حقيقة يمكن إدراكها علمياً، وتوضّح كيف تتطوّر الكائنات وتتكيّف مع محيطها على مرّ الزمن. ونظرية التطوّر مقبولة على صعيد العالم من قبل أذكى العقول في المجال العلمي".

قالت أمبرا: "حقّاً؟! لكنّني قرأت كتباً تؤكّد أنّ داروين مخطئ تماماً".

"إنّها على حقّ". تصاعد صوت وينستون من الهاتف الذي كان يُعيد شحن بطّاريته على الطاولة بينهما. "وقد تمّ نشر ما يزيد عن خمسين عنواناً خلال العقدين الفائتين فقط".

كان لانغدون قد نسي أنّ وينستون ما زال معهما.

أضاف وينستون: "وبعضها من الكتب الأكثر مبيعاً. *أين أخطأ داروين... هزيمة الداروينية... صندوق داروين الأسود... محاكمة داروين... الجانب المظلم من شارلز دار-*"

فقاطعه لانغدون الذي يعرف تماماً العدد الكبير من الكتب التي تدّعي دحض نظرية داروين: "أجل، في الواقع قرأت اثنين منها منذ مدّة".

سألته أمبرا: "إذاً؟".

ابتسم لانغدون بتهذيب. "في الواقع، لا يمكنني التحدّث عنها جميعاً. لكنّ الكتابين اللذين قرأتهما يتحدّثان من وجهة نظر مسيحية بشكل أساسي. وذهب أحدهما إلى حدّ الاقتراح أنّ سجل الأرض الأحفوري وضعه الله لكي يختبر إيماننا".

عبست أمبرا قائلة: "حسناً، إذاً لم يؤثّرا على تفكيرك".

"كلّا، ولكنّهما أثارا فضولي، ولذلك سألت أستاذاً في علم الأحياء بجامعة هارفرد عن رأيه في الكتابين". ابتسم متابعاً: "وصدف أن كان ذلك البروفيسور هو الراحل ستيفن ج. غولد".

سألته أمبرا: "من أين أعرف هذا الاسم؟".

قال وينستون فوراً: "ستيفن ج. غولد هو عالم الأحياء والأحافير التطوّري الشهير. شرحت نظريّته حول التوازن المتقطّع بعض الثغرات في سجل الأحافير، وساعدت على دعم نموذج التطوّر".

قال لانغدون: "ضحك غولد وقال لي إنّ معظم الكتب المعارضة للتطور نُشِرت من قبل معهد الأبحاث حول الخلق وأمثاله، وهي منظمّة تعتبر الكتاب المقدّس- بحسب مصادرها الخاصّة بها- الرواية الحرفية المعصومة عن الخطأ للحقيقة التاريخية والعلمية".

قال وينستون: "هذا يعني أنّهم يعتقدون أنّ الشجيرات المحترقة تتحدّث، وأنّ سفينة نوح اتّسعت لكلّ الأنواع الحيّة، وأنّ الناس يتحوّلون إلى أعمدة من الملح. وهذا ليس الأساس الأقوى بالنسبة إلى مؤسّسة بحث علمي".

قال لانغدون: "هذا صحيح. ومع ذلك، ثمّة كتب غير دينية تحاول دحض نظريّة داروين من وجهة نظر تاريخية، وتتّهمه بسرقة نظريّته من عالِم الطبيعة الفرنسي جان باتيست لامارك، الذي كان أوّل من أشار إلى أنّ الكائنات الحيّة تتطور استجابة إلى بيئتها".

قال وينستون: "هذا الخطّ الفكري ليس ذا صلة، بروفيسور. سواء أكان داروين قد ارتكب جرم الانتحال أم لا، فهذا لا يؤثّر على نظريّته".

قالت أمبرا: "لا يمكنني أن أجادله في هذا الرأي. إذاً يا روبرت، أفترض أنّك إن سألت البروفيسور غولد من أين أتينا؟ فسيجيبك بلا شكّ بأنّنا تطوّرنا".

هزّ لانغدون رأسه موافقاً. "أنا أعيد صياغة كلامه. لكنّ غولد أكّد لي أساساً أنّه ما من شكّ لدى العلماء الحقيقيين أنّ التطوّر يحدث. وتجريبياً، يمكننا ملاحظة هذه العمليّة. وبرأيه، السؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو التالي: لماذا يحدث التطوّر؟ وكيف بدأ كلّ شيء؟".

سألته أمبرا: "وهل قدّم أيّ إجابات؟".

"لم يقل شيئاً استطعت فهمه، ولكنّه أوضح فكرته بواسطة تجربة تسمّى الممرّ اللانهائي". صمت لانغدون وتناول رشفة أخرى من قهوته.

قال وينستون قبل أن يتمكّن لانغدون من متابعة كلامه: "أجل، إنّه مثال توضيحي مفيد يجري على النحو التالي: تخيّل نفسك تسير في ممرّ طويل، رواق طويل جدّاً حيث يستحيل أن ترى من أين أتيت أو إلى أين أنت ذاهب".

أومأ لانغدون برأسه متعجّباً من اتّساع أفق وينستون.

تابع هذا الأخير: "بعد ذلك، تسمع خلفك في البعيد صوت ارتطام كرة. وبالفعل، عندما تلتفت، ترى كرة تقفز متّجهة نحوك. تستمرّ بالقفز والاقتراب منك إلى أن تتجاوزك أخيراً وتتابع طريقها حتّى تختفي في البعيد".

قال لانغدون: "هذا صحيح. والسؤال ليس: هل الكرة تقفز؟ لأنّه من الواضح أنّها تقفز. يمكننا ملاحظة ذلك. السؤال الحقيقي: لماذا تقفز؟ كيف بدأت تقفز؟ هل ركلها أحدهم؟ أهي كرة خاصّة تستمتع بالقفز؟ هل قوانين الفيزياء في هذا الممرّ هي التي لم تترك للكرة خياراً سوى القفز إلى الأبد؟".

استنتج وينستون قائلاً: "برأي غولد، هذا هو حال التطوّر. لا يمكننا أن نرى ما حدث في الماضي لنعرف كيف بدأت العمليّة".

قال لانغدون: "بالضبط. لا يمكننا سوى أن نلاحظ أنّ هذا يحدث".

أضاف وينستون: "كان هذا مشابهاً بالطبع لتحدّي فهم نظرية الانفجار الكبير. فقد ابتكر علماء الكون صيغاً أنيقة لوصف الكون المتوسّع في أيّ وقت معيّن؛ في الماضي أو الحاضر. لكن، كلّما حاولوا العودة إلى الوراء، إلى لحظة حدوث الانفجار الكبير، أي عندما يساوي الوقت صفر، تصاب الرياضيات بالجنون، وتصف ما يبدو أنّه نقطة باطنية غامضة من الحرارة اللانهائية والكثافة اللانهائية".

تبادل لانغدون وأمبرا نظرات الدهشة.

قال لانغدون: "مجدّداً، هذا صحيح. وبما أنّ العقل البشري ليس مجهّزاً ليتعامل جيّداً مع اللانهائية، فإنّ معظم العلماء يناقشون اليوم الكون في ما يتعلّق باللحظات التي يكون فيها الوقت أكبر من صفر، لضمان ألّا تصبح الرياضيات *باطنية*".

في هذا السياق، قام أحد زملاء لانغدون في هارفرد، وهو أستاذ فيزياء كبير، بتعليق لافتة على باب صفّه أخيراً بعدما سئم من طلّاب الفلسفة الذين يحضرون حلقته الدراسية حول أصول الكون.

في صفّي، الوقت > صفر.

بالنسبة لجميع الاستفسارات حول الوقت = صفر،

يرجى التوجّه إلى قسم الأديان.

سأل وينستون: "وماذا عن بانسميرميا؟ أي فكرة كون الحياة على الأرض أتت من كوكب آخر، وزُرعت بواسطة أحد النيازك أو الغبار الكوني؟ فنظريّة بانسميرميا تُعتبر احتمالاً من الناحية العلمية لشرح وجود الحياة على الأرض".

قال لانغدون: "حتّى في هذه الحال، فهي لا تفسّر كيف بدأت الحياة في الكون. فنحن نكتفي بركل العلبة الفارغة على الطريق، متجاهلين أصل الكرة التي تقفز، ومؤجّلين السؤال الكبير: من أين أتت الحياة؟".

صمت وينستون.

ارتشفت أمبرا شرابها مستمتعة بحوارهما.

مع بلوغ الغولفستريم G550 ارتفاع الطيران واستواءها في الجوّ، وجد لانغدون نفسه يتخيّل ما سيعنيه للعالم أن يكون إدموند قد اكتشف حقّاً الإجابة على السؤال القديم: من أين أتينا؟

مع ذلك، واستناداً إلى إدموند، لا يشكّل الجواب سوى جزء من السرّ.

أيّاً تكن الحقيقة، قام إدموند بحماية تفاصيل اكتشافه بكلمة سرّ عجيبة؛ وهي عبارة عن بيت واحد من الشعر مؤلّف من سبعة وأربعين حرفاً. وإن سارت الأمور وفقاً للخطّة، فسيتمكّنان من إيجادها قريباً في منزل إدموند في برشلونة.

الفصل 43

بعد ما يقرب من عشر سنوات على تأسيس "شبكة الظلام"، لا تزال هذه الشبكة لغزاً بالنسبة إلى معظم مستخدمي الإنترنت. فهذا العالم الظلامي للشبكة العالمية، الذي لا يمكن الوصول إليه عبر محرّكات البحث التقليدية، يتيح الدخول إلى قائمة هائلة من السلع والخدمات غير المشروعة.

بدأت شبكة الظلام بداية متواضعة مع استضافتها طريق الحرير؛ وهي أوّل سوق سوداء على الإنترنت لبيع المخدّرات غير المشروعة، وازدهرت بعد ذلك وتحوّلت إلى شبكة هائلة من المواقع غير الشرعية التي تتاجر بالأسلحة، والمواد الإباحية، والأسرار السياسية، وحتّى المحترفين المأجورين، بمن في ذلك المومسات، والقراصنة، والجواسيس، والإرهابيين، والقتلة.

كلّ أسبوع، تستقبل شبكة الظلام ملايين المعاملات. والليلة، خارج نوادي بودابست الليلية المتداعية، كانت إحدى تلك المعاملات على وشك أن تُنجَز.

مشى صاحب قبّعة البايسبول وسروال الجينز خلسة على طول شارع كازينكزي، وتعقّب فريسته من دون أن يكشف أمره. أصبحت مهامّ كهذه أساس حياته خلال السنوات القليلة الماضية، وكان يجري التفاوض عليها دائماً عبر حفنة من الشبكات الشعبية، على غرار Unfriendly Solution و Hitman Network و BesaMafia.

كان القتل المأجور صناعة تساوي مليار دولار وتنمو يوميّاً، ويرجع ذلك أساساً إلى الضمانة التي تقدّمها شبكة الظلام ببقاء أطراف التفاوض مجهولين، وعدم إمكانية تعقّب عمليّة الدفع التي تتمّ عن طريق بيتْكوْين. وتشتمل معظم الصفقات على الاحتيال على التأمين، والشراكات التجارية السيّئة، والزيجات المضطربة؛ لكنّ الأسباب لا تعني على الإطلاق منفّذ المهمّة.

قال القاتل لنفسه: *من دون أسئلة. هذه هي القاعدة غير المعلنة وراء نجاح عملي.*

كان قد قبل بمهمّة الليلة منذ بضعة أيّام. فقد عرض عليه مستخدم مجهول 150000 يورو لقاء مراقبة منزل حاخام مسنّ والبقاء "على اتّصال" في حال تطلّب الأمر اتّخاذ إجراء ما. ويعني الإجراء في هذه الحالة، اقتحام منزل الرجل وحقنه بكلوريد البوتاسيوم؛ الأمر الذي سيؤدّي إلى موت فوري من جراء نوبة قلبية.

غير أنّ الحاخام غادر منزله هذه الليلة على نحو غير متوقّع في منتصف الليل، واستقلّ حافلة عامّة باتّجاه حيّ مزدحم، فتعقّبه القاتل، واستخدم برنامجاً مشفّراً على هاتفه الذكيّ لإبلاغ مستخدمه بالتطوّرات.

لقد غادر الهدف المنزل. توجّه إلى منطقة نوادٍ ليلية.
ربّما يريد الاجتماع بشخص ما؟

كان جواب مستخدمه فورياً تقريباً.

نفِّذ.

الآن، بين النوادي الليلية المتهالكة والأزقّة المظلمة، إنّ ما بدأ كمجرّد تعقّب تحوّل إلى لعبة قطّ وفأر قاتلة.

أخذ الحاخام يهودا كوفيس يلهث ويتصبّب عرقاً وهو يسير في شارع كازينكزي. شعر أنّ رئتيه تحترقان وأنّ مثانته المسنّة على وشك الانفجار.

لا أحتاج سوى إلى مرحاض وبعض الراحة. فكّر في ذلك وهو يتوقّف وسط حشد متجمّع خارج نادي زيمبلا؛ واحد من أكبر نوادي بودابست المتداعية وأشهرها. كان رواد المكان عبارة عن خليط متنوّع من الأعمار والمهن، حيث إنّ أحداً لم يُعِر الحاخام المسنّ اهتماماً.

قال لنفسه وهو يتوجّه إلى النادي: *سأتوقّف للحظة* وحسب.

بعدما كان نادي زيمبلا في ما مضى قصراً حجرياً بشرفات أنيقة ونوافذ طويلة، أصبح الآن هيكلاً متداعياً تكسو جدرانه الكتابات. وبينما كان يعبر البوّابة العريضة لهذا المبنى الفخم، مرّ بباب كُتبت عليه رسالة مشفّرة: EGG-ESH-AY-GED-REH!

استغرق لحظة ليدرك أنّها ليست سوى الكتابة الصوتية للكلمة المجرية *ايغيشايغيدري* التي تعني "بصحّتك"!

ما إن دخل، حتّى راح يحدّق بذهول إلى داخل المبنى الضخم. كان القصر المهمل قد بني حول باحة واسعة تنتشر فيها أغرب الأشياء التي رآها الحاخام في حياته: أريكة مصنوعة من حوض استحمام، وتماثيل عرض تركب الدرّاجات المعلّقة في الهواء، وسيّارة سيدان ترابانت من ألمانيا الشرقية مفرغة من أحشائها تؤدّي الآن وظيفة مقاعد للزبائن.

كان الفناء محاطاً بجدران عالية مزيّنة بخليط من الكتابات المرسومة بالرذاذ، مع ملصقات من العهد السوفييتي، ومنحوتات كلاسيكية، ونباتات معلّقة تتدلّى من فوق شرفات داخلية تزدحم بالزبائن الذين راحوا يتمايلون على وقع الموسيقى العالية. وكان الهواء عابقاً برائحة السجائر والمشروبات. راح الشباب يتعانقون بشغف على مرأى من الجميع، بينما جلس آخرون يدخّنون من غلايين صغيرة ويشربون البالينكا؛ وهو شراب فاكهة شعبي معبأ في المجر.

لطالما وجد كوفيس أنّه من المثير للسخرية أن يكون البشر- على الرغم من أنّهم أسمى خلق الله- ما زالوا مجرّد حيوانات في الجوهر، ينتج سلوكهم إلى حدّ كبير عن سعيهم إلى الراحة المادّية. *نريح أجسادنا على أمل أن تستريح أرواحنا*. أمضى كوفيس وقتاً طويلاً وهو يقدّم المشورة إلى من ينغمسون في إغراءات الجسد الحيوانية، وأوّلها الطعام والجنس. ومع ظهور الإدمان على الإنترنت والمخدّرات الرخيصة، ازداد عمله صعوبة مع مرور الأيّام.

كانت وسيلة الراحة الجسدية الوحيدة التي يحتاج إليها في تلك اللحظة هي الحمّام، ولذلك صعد السلّم إلى حيث قيل له إنّه سيجد العديد من الحمّامات. في الطابق الثاني من المبنى، عبَر متاهة من غرف الجلوس والنوم المتجاورة التي تحتوي كل منها على مشرب صغير أو مساحة للجلوس. سأل أحد الندلاء عن حمّام، فأشار الرجل إلى ممرّ على مسافة لا بأس بها، يمكن الوصول إليه على ما يبدو عن طريق شرفة تطلّ على الباحة.

توجّه كوفيس إلى الشرفة مسرعاً، وتمسّك بالدرابزين وهو يعبرها. وفي طريقه، حدّق بشرود إلى الباحة الصاخبة في الأسفل التي تضجّ بالموسيقى وببحر من الشباب الذين يرقصون بمرح.

فجأة رآه.

وقف في مكانه وقد تجمّدت الدماء في عروقه.

هناك، في وسط الحشد، كان صاحب قبّعة البايسبول والجينز يحدّق إليه مباشرة. للحظة وجيزة، التقت نظراتهما. بعد ذلك، وبسرعة النمر، انتقل الرجل إلى العمل، وراح يشقّ طريقه بين الزبائن متوجّهاً إلى السلّم.

صعد القاتل السلّم وهو يحدّق إلى كلّ وجه يمرّ به. كان نادي زيمبلا مألوفاً تماماً بالنسبة إليه، لذلك توجّه بسرعة إلى الشرفة التي كان يقف عليها هدفه.

غير أنّ الحاخام اختفى.

بما أنّني لم ألتقك، فهذا يعني أنّك داخل المبنى.

نظر إلى ممرّ مظلم أمامه وابتسم؛ بعد أن اشتبه بالمكان الذي يمكن أن يكون الحاخام قد اختبأ فيه.

كان الممرّ مزدحماً وعابقاً برائحة كريهة، وكان ينتهي بباب خشبي قديم.

عبَر القاتل الممرّ بسرعة وراح يطرق الباب، لكن ما من مجيب.

طرق مجدّداً.

فأتاه صوت عميق قال له إنّ الحجرة مشغولة.

اعتذر القاتل بصوت عادي، ثمّ تظاهر بأنّه ينصرف؛ فاستدار بعد ذلك بصمت وعاد إلى الباب، ثمّ ألصق أذنه به. وفي الداخل، سمع الحاخام يهمس بالمجرية يائساً.

"ثمّة من يحاول قتلي! كان خارج بيتي! والآن حاصرني في نادي زيمبلا في بودابست! أرسلوا إليّ المساعدة رجاء!".

من الواضح أنّ هدفه طلب رقم الطوارئ. كان زمن الاستجابة عادة بطيئاً جداً. لكن مع ذلك، سمع القاتل ما فيه الكفاية.

نظر خلفه للتأكّد من أنّه بمفرده، ثمّ استدار مُوجِّهاً كتفه إلى الباب، ومال إلى الخلف، حيث وقّت هجومه مع أنغام الموسيقى الصاخبة.

استسلم المزلاج القديم من المحاولة الأولى، وفُتِح الباب. دخل القاتل، وأغلق الباب خلفه، ثمّ وقف بمواجهة طريدته.

انكمش الرجل في الزاوية، وبدا عليه الرعب والارتباك معاً.

أخذ القاتل هاتف الحاخام، ثمّ أنهى المكالمة، ورمى الهاتف في المرحاض.

سأله الحاخام: "من أرسلك؟".

أجاب الرجل: "من حسن حظّي أنّه لا يمكنني أن أعرف".

أخذ الرجل المسنّ يئزّ ويتعرّق بغزارة، ثمّ شهق فجأة، وجحظت عيناه وهو يضع كلتا يديه على صدره.

نظر إليه القاتل وابتسم. *حقّاً! هل أصيب بنوبة قلبية؟*

تهاوى الرجل المسنّ على أرض الحمّام وهو يختنق، وبدا التوسّل في عينيه، بينما تحوّل وجهه إلى اللون الأحمر، وراح يضغط على صدره. أخيراً، سقط على وجهه على بلاط الأرض القذر، واستلقى وهو يرتجف ويرتعد، فيما أفرغت مثانته نفسها على سرواله، وسال البول على الأرض.

أخيراً، استلقى الحاخام بلا حراك.

انحنى القاتل وأصغى إلى تنفّسه، ولكنّه لم يسمع أيّ صوت.

وقف أخيراً وهو يبتسم وقال: "لقد سهلّت عليّ المهمّة أكثر ممّا توقّعت".

ثمّ نهض، وذهب إلى الباب.

حبس الحاخام كوفيس أنفاسه بصعوبة.

لقد أدّى للتوّ أعظم أداء تمثيلي في حياته.

شعر أنّه على شفير الإغماء وهو ممدّد بلا حراك، وراح يصغي إلى خطوات مهاجمه وهي تتردّد على أرض الحمّام. ثمّ فُتِح الباب وأغلق، وعمّ الصمت.

أجبر كوفيس نفسه على الانتظار بضع ثوانٍ أخرى حتّى يكون مهاجمه قد عبر الرواق وابتعد. وأخيراً، بعد أن عجز عن الانتظار أكثر، زفر ثمّ أخذ نفساً عميقاً ليعيد إنعاش نفسه. حتّى هواء الحمّام كريه الرائحة بدا له وكأنّه مرسل من السماء.

فتح عينيه ببطء على رؤية ضبابية بسبب نقص الأوكسجين، ليفاجَأ بوجود شخص عند الباب المغلق.

كان صاحب قبّعة البايسبول يبتسم له.

تجمّد كوفيس رعباً. *لم يغادر الغرفة!*

مشى القاتل خطوتين طويلتين ليصل إلى الحاخام، ثمّ أمسك برقبته بقبضة حديدية، ودفع وجهه مجدّداً على الأرض.

قال بحدّة: "استطعتَ أن تقطع أنفاسك، ولكنك لم تستطع أن توقف قلبك". وضحك مضيفاً: "لا تقلق، دع ذلك لي".

وفي اللحظة التالية، مزّق ألم حارق جانب عنق كوفيس. وشعر أنّ ناراً تُلهِب حلقه وتصعد إلى جمجمته. وهذه المرّة، عندما انقبض قلبه، علم أنّ النوبة حقيقية.

بعدما كرّس الحاخام يهودا كوفيس معظم سنوات حياته لأسرار شامايم، أدرك الآن أنّ جميع الإجابات باتت قريبة.

الفصل 44

اختلت أمبرا فيدال بنفسها في حمّام طائرة G550 الفسيح. وقفت أمام المغسلة تاركة المياه الدافئة تجري على يديها برفق وهي تحدّق إلى المرآة، وبالكاد تتعرّف على نفسها.

ماذا فعلت؟

أخذت رشفة أخرى من الشراب وهي تشعر بتوق كبير إلى حياتها القديمة قبل بضعة أشهر فقط؛ حين كانت امرأة مجهولة عزباء، غارقة في عملها في المتحف. لكنّ كلّ ذلك انقضى الآن. فقد اختفى في اللحظة التي عرض عليها فيها جوليان الزواج.

وبّخت نفسها قائلة: "*كلّا، بل اختفى في اللحظة التي وافقتِ فيها*".

كانت تشعر باضطراب كبير بسبب هول مشهد الاغتيال الذي وقع الليلة، وكان عقلها المنطقي يقدّر تداعياته بخوف.

أنا التي أدخلت قاتل إدموند إلى المتحف.

بعدما خدعني شخص ما من داخل القصر.

والآن بتّ أعلم الكثير.

لم يكن ثمّة دليل على أنّ الأمير جوليان يقف وراء عمليّة الاغتيال الوحشية، أو أنّه على علم حتّى بمخطط الاغتيال. مع ذلك، أصبحت أمبرا مطّلعة جيّداً على كيفيّة سير الأمور داخل القصر لتدرك أنّ أيّاً من ذلك ما كان ليحدث من دون علم الأمير، لا بل وبمباركته.

لقد قلت لجوليان الكثير.

خلال الأسابيع الماضية، شعرت أمبرا أنّها مضطرّة لتبرير كلّ ثانية كانت تمضيها بعيداً عن خطيبها الغيور، ولذلك أخبرت جوليان بالكثير من الأمور التي كانت تعرفها عن العرض الذي ينوي إدموند تقديمه. وهي تخشى الآن أن تكون قد تهوّرت بشدّة صراحتها.

أغلقت صنبور الماء وجفّفت يديها، ثمّ تناولت كأس الشراب وقضت على ما تبقّى فيها. رأت أمامها على صفحة المرآة امرأة غريبة. فالمرأة المحترفة الواثقة من نفسها يتآكلها الآن الشعور بالندم والعار.

الأخطاء التي ارتكبتها خلال بضعة أشهر قصيرة...

بينما عاد عقلها بالزمن إلى الوراء، تساءلت عمّا كان بإمكانها فعله لتغيّر مجرى الأمور. فمنذ أربعة أشهر، في ليلة من ليالي مدريد الممطرة، كانت تحضر حفلاً لجمع التبرعات في متحف رينا صوفيا للفن الحديث...

كان معظم الضيوف قد انتقلوا إلى القاعة 206.06 لمشاهدة أكثر التحف الفنية شهرة في المتحف، إل غيرنيكا؛ وهي لوحة كبيرة بطول 25 قدماً لبيكاسو، تصوّر القصف المروّع لبلدة صغيرة في الباسك خلال الحرب الأهلية الإسبانية. غير أنّ أمبرا وجدت اللوحة مؤلمة جدّاً، حيث أحجمت عن تأمّلها، ووجدت فيها تذكيراً حيّاً بالقمع الوحشي الذي عانت منه إسبانيا تحت حكم الدكتاتور الفاشي الجنرال فرانسيسكو فرانكو بين عامي 1939 و1975.

عوضاً عن ذلك، قرّرت أن تتسلّل بمفردها إلى صالة هادئة للاستمتاع بأعمال الفنّانة الإسبانية المفضّلة لديها، ماروخا مالو، وهي فنّانة سريالية من غاليسيا، ساعد نجاحها في ثلاثينيات القرن المنصرم على تحطيم الحواجز أمام الفنّانات في إسبانيا.

كانت أمبرا تقف بمفردها وتتأمّل لوحة *لا فيربينا*، التي كانت عبارة عن هجاء سياسي مليء بالرموز المعقّدة، عندما سمعت صوتاً عميقاً خلفها.

قال الرجل بالإسبانية: "إنّها تضاهيك جمالاً تقريباً".

حقّاً! حدّقت أمبرا إلى اللوحة، وقاومت رغبتها في النظر إلى الأعلى بسأم. ففي مناسبات كهذه، يكون المتحف أقرب إلى نادٍ غريب منه إلى مركز ثقافي.

تابع الصوت بإلحاح: "ما الذي تعنيه برأيك؟".

كذبت مجيبة بالإنكليزية على أمل أن يدعها الرجل وشأنها: "ليست لديّ أي فكرة، لكنّها تعجبني وحسب".

أجاب الرجل بلغة إنكليزية ممتازة تقريباً: "إنّها تعجبني أنا أيضاً. فقد كانت مالو متقدّمة على زمانها. مع الأسف، من شأن الجمال السطحي لهذه اللوحة أن يخفي جوهرها الأعمق عن العين غير المدرّبة". وصمت قليلاً، ثمّ أضاف: "أعتقد أنّ امرأة مثلك تواجه هذه المشكلة دائماً".

صدر أنين عن أمبرا. *هل تنفع جمل كهذه حقّاً مع النساء؟* ارتسمت على وجهها ابتسامة مهذّبة، ثمّ استدارت لصرف الرجل. "سيّدي، لطف منك أن تقول ذلك، ولكن-"

غير أنّ أمبرا فيدال صمتت في وسط جملتها.

فقد وجدت نفسها أمام شخص تراه على التلفاز وفي المجلّات طوال حياتها.

تلعثمت قائلة: "آه، أنت...".

قال الرجل الوسيم: "وقح؟ أخرق؟ أنا آسف، لكنّني عشت حياة منعزلة، ولست بارعاً في هذا النوع من الأمور". ابتسم ومدّ يده بتهذيب. "اسمي جوليان".

"أعتقد أنّني أعرف اسمك". احمرّت أمبرا خجلاً وهي تصافح الأمير جوليان، ولي عهد إسبانيا. كان أطول قامة ممّا تخيّلت، وذا عينين رقيقتين وابتسامة تنمّ عن الثقة. تابعت قائلة وهي تستجمع نفسها بسرعة: "لم أكن أعرف أنّك هنا الليلة. فقد ظننت أنّك ممن يفضّلون متحف برادو، أقصد غويا، فيلاسكيز... أي الفنّانين الكلاسيكيين".

ضحك مجيباً: "أتعنين أنني محافظ وقديم الطراز؟ أعتقد أنّك تخلطين بيني وبين والدي. فلطالما كانت مالو وميرو مفضّلَين لديّ".

تحدّثت أمبرا مع الأمير لبضع دقائق، وأُعجبت بسعة معلوماته الفنيّة. لكنّ الرجل نشأ في قصر مدريد الملكي الذي يضمّ إحدى أجمل المجموعات الفنيّة في إسبانيا، ولا بدّ أنّه يملك لوحة أصلية من لوحات إل غريكو معلّقة في غرفة الحضانة.

قال الأمير وهو يقدّم لها بطاقته المذهّبة: "أنا أدرك أنّ الأمر يبدو سابقاً لأوانه، لكنني أودّ أن ترافقيني غداً إلى حفل عشاء. رقمي المباشر على البطاقة. أخبريني إن كنت متفرّغة".

قالت أمبرا ممازحة: "عشاء! لكنّك لا تعرف اسمي حتّى".

أجابها على الفور: "أمبرا فيدال، أنت في التاسعة والثلاثين من عمرك، حاصلة على شهادة جامعية في تاريخ الفنون من جامعة سالامانكا. تحتلّين منصب مديرة متحف غوغنهايم في بيلباو. وقد تحدّثتِ مؤخّراً عن الجدل الدائر حول لويس كويلز، الذي أوافق على أنّ أعماله تصوّر أهوال الحياة المعاصرة وقد لا يكون مناسباً للأطفال، لكنني لست متأكّداً من أنّني أتّفق معك على أنّ أعماله تشبه أعمال بانكسي. لم يسبق لك الزواج، وليس لديك أطفال، كما أنّك تبدين رائعة باللون الأسود".

فغرت أمبرا فاهها دهشة. "ربّاه! هل تنجح هذه الطريقة حقّاً؟".

قال مبتسماً: "لا فكرة لديّ. أظنّ أنّنا سنكتشف ذلك".

في تلك اللحظة، ظهر عنصران من الحرس الملكي ورافقا الأمير لكي يتحدّث مع بعض الشخصيات المهمة.

حملت أمبرا البطاقة بيدها، وساورها إحساس لم تشعر به منذ سنوات. أحسّت كما لو أنّ فراشات تطير حولها. *هل دعاني الأمير للتوّ إلى الخروج؟*

كانت أمبرا مراهقة طويلة القامة، ولطالما شعر الشباب الذين يدعونها إلى الخروج أنّهم على قدم المساواة معها. لاحقاً، عندما برز جمالها، وجدت فجأة أنّ الرجال باتوا يشعرون بالرهبة أمامها، ويتلعثمون، ويخجلون، ويبدون احتراماً زائداً. أمّا الليلة، فقد تقرّب منها رجل قويّ بجرأة، وتولّى السيطرة الكاملة على الأمور. وهذا ما جعلها تشعر بأنوثتها وشبابها.

في الليلة التالية، أتى سائق لإحضار أمبرا من الفندق، واصطحبها إلى القصر الملكي لتجد نفسها جالسة إلى جانب الأمير بصحبة عدد آخر من الضيوف، عرفت الكثيرين منهم من الصفحات الاجتماعية أو الأخبار السياسية. عرّف الأمير عنها على أنّها "صديقته الجديدة الجميلة"، وفتح حديثاً حول الفنون استطاعت أمبرا أن تشارك فيه بالكامل. ومع أنّها شعرت أنّها تحت الاختبار إلى حدّ ما، إلّا أنّها لم تمانع حقّاً، بل أحسّت بالإطراء.

بنهاية الأمسية، أخذها جوليان جانباً وهمس قائلاً: "أتمنّى أن تكوني قد استمتعت بالسهرة. أودّ رؤيتك مرّة أخرى، ماذا عن مساء الخميس؟".

"شكراً لك، لكنني أخشى أنّه عليّ أن أطير إلى بيلباو صباح غد".

"إذاً، سأطير أنا أيضاً. هل سبق لك أن ذهبت إلى مطعم إيتزانوبي؟".

ضحكت أمبرا. فقد كان المطعم من أكثر المطاعم المرغوبة في بيلباو. إذ كان المفضّل لدى هواة فنّ الطهي من مختلف أنحاء العالم، ويمتاز بديكور عصري ومأكولات ملوّنة تجعل الزوّار يشعرون كما لو أنّهم جالسون في لوحة رسمها مارك شاغال.

سمعت نفسها تجيب: "فكرة جميلة".

في إيتزانوبي، وأمام أطباق أنيقة من سمك التونا المزيّن بالسمّاق والهليون، راح جوليان يتكلّم بانفتاح حول التحدّيات السياسية التي يواجهها وهو يحاول الخروج من ظلّ أبيه المريض، وعن الضغوط الشخصية التي يتعرّض لها من أجل استمرارية السلالة الملكية. رأت فيه أمبرا براءة صبيّ صغير منعزل، غير أنّها رأت أيضاً سمات قائد شغوف جدّاً ببلاده. ووجدت ذلك المزيج فاتناً.

في تلك الليلة، عندما اصطحب الحرّاس جوليان إلى طائرته الخاصّة، أدركت أمبرا أنّها مسحورة به.

ذكّرت نفسها قائلة: *أنت بالكاد تعرفينه، لا تتعجّلي.*

مرّت الأشهر التالية كلمح البصر، وكانت أمبرا وجوليان يتقابلان باستمرار؛ إمّا في حفلات عشاء في القصر، أو في نزهات حول منزله الريفي، أو حتّى لمشاهدة فيلم سينمائي. كانت علاقتهما تسير بطبيعية، ولا تذكر أمبرا أنّها كانت يوماً أكثر سعادة. كان جوليان قديم الطراز على نحو محبّب، وغالباً ما كان يمسك بيدها أو يسرق قبلة مهذّبة، ولكنّه لم يتجاوز الحدود التقليدية إطلاقاً، وقدّرت أمبرا سلوكه الرفيع.

في صباح أحد الأيّام المشمسة، منذ ثلاثة أسابيع خلت، كانت أمبرا في مدريد، وكان من المقرّر أن تظهر في برنامج تلفزيوني صباحي حول معارض غوغنهايم المقبلة. كان برنامج تيليدياريو الذي يعرض على قناة RTVE ويشاهده ملايين الناس في

جميع أنحاء البلاد مباشرة على الهواء. وكانت أمبرا تشعر بشيء من القلق من الظهور عبر البثّ الحيّ، غير أنّها كانت تعرف أنّ البرنامج سيوفّر تغطية وطنية رائعة للمتحف.

في الليلة السابقة للبرنامج، التقت جوليان لتناول عشاء شهيّ في مطعم تراتوريا مالاتيستا، قبل أن ينسحبا بهدوء إلى حديقة إل باركوي ديل ريتيرو. جلسا يشاهدان الأُسر التي خرجت للتنزّه مع الأطفال الذين يضحكون ويركضون في أنحاء الحديقة، فشعرت أمبرا بالسلام التامّ واستغرقت في جمال اللحظة.

سألها جوليان: "هل تحبّين الأطفال؟".

أجابت بصدق: "بل أعشقهم. في الحقيقة، أشعر أحياناً أنّ الأطفال هم الشيء الوحيد الذي ينقصني في حياتي".

ابتسم جوليان ابتسامة عريضة. "أعرف هذا الشعور

في تلك اللحظة، نظر إليها بطريقة مختلفة، وأدركت أمبرا فجأة لماذا طرح عليها هذا السؤال. فتملّكها الخوف، وصاح صوت من أعماقها، أخبريه! أخبريه حالاً!

حاولت أن تتكلّم، ولكنّها لم تستطع.

سألها وقد بدا عليه القلق: "هل أنت بخير؟".

ابتسمت. "أعصابي متوتّرة بعض الشيء بسبب البرنامج بلا شكّ".

"استرخي. سيكون كلّ شيء على ما يرام".

ابتسم لها ابتسامة عريضة، ثمّ انحنى وطبع قبلة خفيفة على شفتيها.

في الصباح التالي، عند الساعة السابعة والنصف، وجدت أمبرا نفسها على مسرح صوتي تلفزيوني، تشارك في حديث مريح يبثّ عبر الهواء مع ثلاثة مضيفين ساحرين في برنامج تيليدياريو. كانت مستغرقة في حماستها لغوغنهايم؛ حيث بالكاد لاحظت كاميرات التلفاز والجمهور داخل الاستديو، أو تذكّرت أنّ خمسة ملايين شخص يشاهدونها في منازلهم.

اختتمت المضيفة الحديث قائلة: "شكراً أمبرا، كان هذا مثيراً للاهتمام جدّاً. لقد سرّنا لقاؤك كثيراً".

أومأت أمبرا برأسها تعبيراً عن الشكر وانتظرت انتهاء المقابلة.

ولكنّ الغريب أنّ مضيفة البرنامج ابتسمت بخجل وتابعت حديثها متوجّهة مباشرة إلى جمهور المنازل. بدأت قائلة بالإسبانية: "هذا الصباح، قام ضيف مميّز جدّاً بزيارة مفاجئة إلى استديو تيليدياريو، ونودّ استضافته معنا".

وقف المضيفون الثلاثة وهم يصفّقون، بينما دخل رجل أنيق المسرح. عندما رآه الجمهور، هبّوا واقفين وهم يهتفون بقوّة.

وقفت أمبرا هي الأخرى وقد شلّتها الصدمة.

جوليان!

لوّح الأمير جوليان للحشد، وصافح بتهذيب المضيفين الثلاثة، ثمّ ذهب ليقف إلى جانب أمبرا ويحيطها بذراعه.

قال متحدّثاً بالإسبانية وهو ينظر إلى الكاميرا مباشرة متوجّهاً إلى المشاهدين بكلامه: "لطالما كان أبي رومنسياً. وعندما توفيت والدتي، لم يكفّ عن حبّها يوماً. وقد ورثت رومنسيته، وأعتقد أنّه عندما يجد الرجل الحبّ، فإنّه يعرف ذلك على الفور". ونظر إلى أمبرا وابتسم بحرارة. "لذا..." تراجع جوليان خطوة إلى الخلف ووقف أمامها.

عندما أدركت أمبرا ما يوشك أن يفعله، شلّتها الصدمة تماماً. *كلّا! جوليان! ماذا تفعل؟*

ومن دون سابق إنذار، ركع وليّ عهد إسبانيا أمامها فجأة. "أمبرا فيدال، أنا الآن لست أميراً، بل مجرّد رجل مغرم". نظر إليها بعينين تفيضان بالعاطفة، بينما تمّ دفع الكاميرات لالتقاط صورة مقرّبة لوجهه. "أنا أحبّك، فهل تقبلين الزواج بي؟".

شهق الجمهور والمضيفون فرحاً، وشعرت أمبرا بملايين العيون حول العالم تتركّز عليها. اندفعت الدماء إلى وجهها، وأحسّت أنّ أضواء الكاميرات تحرق بشرتها. أخذ قلبها ينبض بعنف وهي تحدّق إلى جوليان وآلاف الأفكار تتزاحم في رأسها.

كيف تضعني في هذا الموقف؟! لم نلتقِ سوى منذ مدّة قصيرة! ثمّة أمور لا تعرفها عنّي... أمور من شأنها أن تغيّر كلّ شيء!

لم تعرف أمبرا كم بقيت واقفة وهي تشعر بحالة من الذعر الصامت. لكن أخيراً، ضحك أحد المضيفين وقال: "أعتقد أنّ الآنسة فيدال في حالة من الصدمة! آنسة فيدال، ثمّة أمير وسيم راكع أمامك ويعترف بحبّه لك أمام العالم أجمع!".

بحثت أمبرا عن طريقة لائقة للخروج، ولكنّها لم تسمع سوى الصمت، وأدركت أنّها محاصرة. لم تكن أمامها سوى طريقة واحدة لإنهاء هذه اللحظة العلنية. "أنا متردّدة لأنّني لا أصدّق أنّ لهذه الحكاية الخرافية نهاية سعيدة". ثم استرخت وابتسمت لجوليان بدفء. "بالطبع، أقبل الزواج بك أيّها الأمير جوليان".

عمّ التصفيق الجنوني الاستديو.

عندئذٍ، وقف جوليان واحتضن أمبرا بين ذراعيه. وبينما كانا يتعانقان أدركت أنّه لم يسبق له أن احتضنها طويلاً قبل هذه اللحظة.

بعد عشر دقائق، كانا جالسَين على المقعد الخلفي لسيارة الليموزين.

قال جوليان: "أرى تماماً أنّني فاجأتك، أنا آسف. كنت أحاول أن أكون رومنسياً. فمشاعري تجاهك قوية، و–"

فقاطعته أمبرا بحدّة: "جوليان، مشاعري تجاهك قوية أيضاً، ولكنّك وضعتني في موقف مستحيل هناك! لم أتخيّل أبداً أن تعرض عليّ الزواج بهذه السرعة! فنحن بالكاد نعرف بعضنا. ثمّة الكثير من الأمور التي أودّ إخبارك بها، وهي أمور مهمّة عن ماضيّ".

"لا شيء يهمّني في ماضيك".

"لكنّ هذه المسألة قد تهمّك، وكثيراً".

فابتسم وهو يهزّ رأسه. "أنا أحبّك، ولن يهمّني أيّ شيء. جرّبيني".

تأمّلت أمبرا الرجل الجالس أمامها. *حسناً إذاً*. لم تكن ترغب أن يجري الحديث على هذا النحو، ولكنّه لم يترك لها الخيار. "حسناً، سأخبرك يا جوليان. عندما كنت صغيرة، التقطتُ عدوى خطرة كادت أن تقتلني".

"حسناً".

وبينما كانت تتكلّم، شعرت بفراغ عميق في داخلها. "وكانت النتيجة أنّ حلم حياتي بإنجاب الأطفال... سيبقى حلماً".

"أنا لا أفهم".

قالت بصراحة: "جوليان، أنا لا أستطيع إنجاب الأطفال. فقد سبّبت لي تلك المشاكل الصحية العقم. لطالما أردت إنجاب الأطفال، لكنّني لن أقدر. أنا آسفة. أعرف أنّ هذه المسألة مهمّة بالنسبة إليك، ولكنّك عرضت الزواج على امرأة لا تستطيع منحك وريثاً".

شحب وجه جوليان.

نظرت إليه أمبرا وتمنّت لو يتكلّم. *جوليان، هذه هي اللحظة التي ينبغي أن تحتضنني فيها وتقول إنّ كلّ شيء على ما يرام. هذه هي اللحظة التي ينبغي أن تقول لي فيها إنّك لا تهتمّ، وإنك ستحبّني على الرغم من كلّ شيء.*

ثمّ حدث ما كانت تخشاه. فقد أشاح جوليان بوجهه عنها قليلاً. وفي تلك اللحظة، أدركت أمبرا أنّ قصّتهما انتهت.

الفصل 45

يقع قسم الأمن الإلكتروني التابع للحرس الملكي في عدد من الغرف الخالية من النوافذ في الطابق الأرضي من القصر. ويتألّف القسم الذي تمّ عزله عمداً عن ثكنة الحرس الملكي ومخزن أسلحته في القصر من عدد من حجرات الكمبيوتر، ولوح هاتف مركزي، وجدار من مراقبي الأمن. ويُعتبَر الموظّفون المؤلّفون من ثمانية أشخاص، وجميعهم دون سنّ الخامسة والثلاثين، مسؤولين عن تأمين شبكة اتّصالات آمنة لموظّفي القصر الملكي والحرس الملكي، فضلاً عن دعم المراقبة الإلكترونية للقصر نفسه.

الليلة كالعادة، كان القسم خانقاً، تفوح فيه رائحة المعكرونة والفوشار المعدّين في الميكروويف. وكانت المصابيح اللاصفة تئزّ بصوت عالٍ.

فكّرت مارتن في سرها: *هذا هو المكان الذي طلبتُ أن يضعوا مكتبي فيه.*

فمع أنّ منسّقة العلاقات العامّة لم تكن تابعة تقنياً للحرس الملكي، إلّا أنّ وظيفتها تتطلّب منها الوصول إلى أجهزة كمبيوتر قوية وموظّفين تقنيين بارعين. لذلك، بدا لها أنّ قسم الأمن الإلكتروني مقرّ منطقي بالنسبة إليها أكثر من أيّ مكتب في الطابق العلوي غير المجهّز بما يلزم.

الليلة، سأحتاج إلى كلّ جزء من التكنولوجيا المتاحة.

خلال الأشهر القليلة الماضية، انصبّ اهتمامها على مساعدة القصر في التركيز على هدفه خلال الانتقال التدريجي للسلطة إلى يد الأمير جوليان. ولم يكن ذلك سهلاً. فانتقال السلطة من زعيم إلى آخر يشكّل فرصة للخصوم للإعلان عن معارضتهم للملكية.

وبحسب الدستور الإسباني، إنّ النظام الملكي يشكّل "رمزاً للوحدة الدائمة والاستمرارية في إسبانيا". ولكنّ مارتن كانت تعلم أنّه ما من شيء موحّد في إسبانيا حالياً. ففي عام 1931، شكّلت الجمهورية الثانية نهاية الملكية، ثمّ أغرق انقلاب الجنرال فرانكو عام 1936 البلاد في حرب أهلية.

واليوم، مع أنّ الملكية التي أُعيد فرضها اعتُبِرت ديموقراطية ليبيرالية، إلّا أنّ الكثير من الليبراليين استمرّوا بالتنديد بالملك، واعتباره بقايا عفا عليها الزمن من

الماضي الديني العسكري القمعي، فضلاً عن كونه تذكيراً يومياً بأنّ الطريق ما زال طويلاً أمام إسبانيا لتنضمّ تماماً إلى العالم الحديث.

تضمّنت رسائل مونيكا مارتن هذا الشهر إظهار الملك كالمعتاد على أنّه رمز محبوب لا يملك سلطة حقيقية. بالطبع، لم يكن ذلك سهلاً في الوقت الذي يُعَدّ فيه الملك القائد الأعلى للقوّات المسلّحة ورئيس الدولة.

رئيس الدولة في بلد لطالما كان فيه الفصل بين الكنيسة والدولة مثاراً للجدل. في الواقع، شكّلت علاقة الملك المريض الوثيقة بالأسقف فالديسبينو شوكة في خاصرة العلمانيين والليبراليين لسنوات عديدة.

والآن، الأمير جوليان.

كانت مارتن تعرف أنّها تدين بوظيفتها للأمير، ولكنّه كان يزيد مهمّتها صعوبة في الآونة الأخيرة بكلّ تأكيد. فمنذ بضعة أسابيع، ارتكب الأمير أسوأ خطأ على صعيد العلاقات العامّة رأته مارتن في حياتها.

فعلى إحدى الشاشات الوطنية، ركع الأمير جوليان على ركبتيه، وقدّم عرض زواج مضحكاً لأمبرا فيدال. وما كان لتلك اللحظة الصعبة أن تكون أكثر إحراجاً إلّا لو رفضت أمبرا الزواج منه. لكن لحسن الحظّ، كانت المرأة تتمتّع بالذكاء الكافي لعدم فعل ذلك.

مع الأسف، تبيّن لاحقاً أنّ أمبرا فيدال كانت أصعب مراساً ممّا توقّع جوليان، وتحوّل سلوكها الخارج عن التقاليد هذا الشهر إلى أحد أبرز مخاوف مارتن على صعيد العلاقات العامّة.

غير أنّ سلوك أمبرا الطائش نُسِي تماماً هذه الليلة. فالموجة العاتية من النشاط الإعلامي التي ولّدتها أحداث بيلباو تضخّمت إلى حدّ لم يسبق له مثيل. وخلال الساعة الماضية، اجتاحت العالم نظريات مؤامرة عديدة جدّاً؛ بما في ذلك بضع فرضيات جديدة تشمل الأسقف فالديسبينو.

كان أهمّ التطوّرات يتعلّق بالقاتل الذي ارتكب جريمة غوغنهايم، والذي سُمِح له بالمشاركة في الحدث الذي كان يقدّمه كيرش "بناء على أوامر من داخل القصر الملكي". وقد أطلق هذا الخبر المدمّر فيضاً من نظريات المؤامرة التي اتّهمت الملك طريح الفراش والأسقف فالديسبينو بالتآمر لاغتيال إدموند كيرش الذي يُعَدّ ظاهرة في مجال العالم الرقمي، وبطلاً أميركياً محبوباً اختار العيش في إسبانيا.

هذه القضية ستدمّر فالديسبينو.

صاح غارزا وهو يدخل غرفة التحكّم: "أصغوا إليّ جميعاً! الأمير جوليان والأسقف فالديسبينو موجودان معاً في مكان ما من هذا المبنى! تحقّقوا من تسجيلات الأمن واعثروا عليهما حالاً!".

دخل القائد مكتب مارتن، وأطلعها على آخر المستجدّات مع الأمير والأسقف.

فهتفت غير مصدّقة: "اختفيا! وتركا هاتفيهما في خزنة الأمير!".

هزّ غارزا كتفيه مجيباً: "من الواضح أنّهما فعلا ذلك لكي لا نتمكّن من تعقّبهما".

فقالت: "حسناً، لكن يجدر بنا العثور عليهما. إذ ينبغي للأمير جوليان أن يُدلي ببيان حالاً، وعليه أن ينأى بنفسه عن فالديسبينو قدر الإمكان". ثمّ أخبرته بآخر التطوّرات.

كانت المفاجأة من نصيب غارزا هذه المرّة. "كلّ هذا كلام فارغ. فمن المستحيل أن يكون فالديسبينو وراء عمليّة اغتيال".

"ربّما لا، ولكنّ القتل يبدو مرتبطاً بالكنيسة الكاثوليكية. فقد عثر أحدهم للتوّ على علاقة مباشرة بين مطلق النار ومسؤول رفيع المستوى في الكنيسة. ما عليك سوى إلقاء نظرة هنا". فتحت مارتن آخر خبر لموقع ConspiracyNet، والصادر هذه المرّة أيضاً عن المُخبر المدعوّ monte@iglesia.org. "نُشر هذا الخبر منذ خمس دقائق".

انحنى غارزا وبدأ يقرأ، ثمّ اعترض قائلاً: "البابا! أفيلا على علاقة شخصية بـ-"

"تابِع القراءة".

عندما أنهى غارزا قراءة الخبر، ابتعد عن الشاشة وراح يرفّ عينيه كما لو كان يحاول أن يستيقظ من حلم مخيف.

وفي تلك اللحظة، ناداه صوت رجل من غرفة التحكّم. "أيها القائد غارزا، لقد عثرتُ عليهما!".

أسرع غارزا ومارتن إلى حجرة العميل سوريش بهالا، وهو أخصّائي مراقبة هندي الأصل. أشار إلى تسجيل الأمن على شاشته، والذي يظهر عليه شخصان؛ أحدهما يرتدي ثوب أسقف والآخر بذلة رسمية. ويبدو أنّهما يسيران في طريق مشجّر.

قال سوريش: "الحديقة الشرقية، منذ دقيقتين".

سأله غارزا: "هل غادرا المبنى؟!".

"لحظة سيّدي". قام سوريش بتسريع التسجيل، وتعقّب الأسقف والأمير عبر عدّة كاميرات موزّعة على مسافات من بعضها في مجمّع القصر، ليظهر الرجلان وهما يغادران الحديقة ويسيران عبر باحة مغلقة.

"إلى أين يذهبان؟!".

كانت مارتن تملك فكرة واضحة عن وجهتهما، وأشارت إلى أنّ فالديسبينو سلك طريقاً دائرياً يبقيهما بعيدَيْن عن مرأى السيّارات الإعلامية في الساحة الرئيسة.

وكما توقّعت، وصل فالديسبينو وجوليان إلى مدخل الخدمة الجنوبي لكاتدرائية ألمودينا، وهناك فتح الأسقف الباب وقاد الأمير جوليان إلى الداخل، ثمّ أغلق الباب خلفهما واختفى الرجلان تماماً.

حدّق غارزا إلى الشاشة صامتاً، وبدا واضحاً أنّه يجاهد لفهم ما رآه للتوّ. وأخيراً قال: "أبقِني على اطّلاع على التطوّرات". ثمّ أشار إلى مارتن لتلحق به.

وما إن أصبحا بعيديْن عن السمع، حتّى همس غارزا قائلاً: "لا أملك أدنى فكرة عن كيفية تمكّن الأسقف فالديسبينو من إقناع الأمير جوليان بمرافقته إلى خارج القصر، أو ترك هاتفه خلفه. لكن، من الواضح أنّ الأمير لا يملك أيّ فكرة عن الاتّهامات الموجّهة إلى فالديسبينو، وإلّا لعرف كيف ينأى بنفسه عنه".

قالت مارتن: "أوافقك الرأي، وأكره التكهّن بنوايا الأسقف، لكن..." وتوقّفت في وسط حديثها.

فسألها غارزا: "لكن، ماذا؟".

تنهّدت مارتن. "يبدو أنّ فالديسبينو قد أخذ للتوّ رهينة قيّمة للغاية".

وعلى مسافة نحو 250 ميلاً إلى الشمال، في ردهة متحف غوغنهايم، بدأ هاتف العميل فونسيكا يهتزّ. كانت تلك هي المرّة السادسة خلال عشرين دقيقة. وعندما نظر إلى هوية المتّصل، تأهّب كلّ جسده.

أجاب وقلبه ينبض: "نعم؟".

أتاه الصوت عبر الخطّ بالإسبانية بطيئاً وواثقاً: "حضرة العميل فونسيكا، كما تعرف جيّداً، ارتكبت ملكة إسبانيا المستقبلية أخطاء رهيبة هذا المساء، وتواجدت مع أشخاص خاطئين؛ الأمر الذي سبّب إحراجاً كبيراً للقصر الملكي. وتجنّباً لوقوع المزيد من الضرر، من الأهمّية بمكان أن تُعيدها إلى القصر بأسرع وقت ممكن".

"أخشى أنّنا لا نملك فكرة عن مكان الآنسة فيدال في هذه اللحظة".

"منذ أربعين دقيقة، انطلقت طائرة إدموند كيرش من مطار بيلباو متوجّهة إلى برشلونة. وأعتقد أنّ الآنسة فيدال كانت على متنها".

"وكيف عرفتَ ذلك؟". طرح فونسيكا السؤال، ثمّ ندم على تهوّره على الفور.

أجابه الصوت بحدّة: "لو كنت تقوم بعملك كما ينبغي لعرفت ذلك أنت أيضاً. أريدك أن تتبعها أنت وشريكك على الفور. يتمّ تجهيز طائرة عسكرية في مطار بيلباو من أجلكما الآن".

قال فونسيكا: "إن كانت الآنسة فيدال على متن تلك الطائرة، فهي تسافر على الأرجح برفقة البروفيسور الأميركي روبرت لانغدون .

فقال المتّصل غاضباً: "أجل، ولا أملك أيّ فكرة حول كيفية تمكّن هذا الرجل من إقناع الآنسة فيدال بترك مرافقيها والفرار معه. لكن من الواضح أنّ السيّد لانغدون يشكّل عائقاً، ومهمّتكما هي إيجاد الآنسة فيدال وإعادتها بالقوّة إن لزم الأمر

"وماذا إن تدخّل لانغدون؟".

خيّم صمت ثقيل قبل أن يجيب المتّصل: "ابذلا قصارى جهدكما للحدّ من الأضرار الجانبية. لكنّ هذه الأزمة من الخطورة بمكان؛ حيث إنّ التفريط بالبروفيسور لانغدون أمر غير مستبعد".

الفصل 46

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

مقتل كيرش يتصدّر الأخبار!

بدأ الإعلان العلمي لإدموند كيرش هذه الليلة كعرض على الإنترنت جذب عدداً مدهشاً من المشاهدين تخطّى ثلاثة ملايين مشاهد. لكن في أعقاب اغتياله، تتمّ حالياً تغطية قصّة كيرش على الشبكات الرئيسة في العالم، والتي يُقدَّر عدد مشاهديها الحاليين بأكثر من ثمانين مليوناً.

الفصل 47

بينما بدأت طائرة كيرش هبوطها في برشلونة، أفرغ روبرت لانغدون فنجان قهوته الثاني، وحدّق إلى بقايا الوجبة الخفيفة المرتجلة التي تناولها مع أمبرا في ساعة متأخّرة من الليل من خزانة إدموند: مكسّرات، وكعك بالأرزّ، وأعواد نباتية كانت جميعها متشابهة المذاق بالنسبة إليه.

جلست أمبرا فيدال أمامه وأنهت كأسها الثانية، وبدت أكثر استرخاء بكثير.

قالت بشيء من الخجل: "شكراً لإصغائك إليّ. فبالطبع، لم أتمكّن من التحدّث عن جوليان مع أحد".

أومأ لانغدون برأسه بتفهّم بعد أن سمع للتوّ قصّة عرض الزواج المحرج الذي قدّمه لها جوليان على الهواء. *لم يكن لديها خيار*؛ فقد كان لانغدون يعرف تماماً أنّ أمبرا لا تستطيع المخاطرة بإهانة وليّ عهد إسبانيا على محطّة وطنية.

قالت أمبرا: "بالطبع، لو علمت أنّه سيعرض عليّ الزواج بتلك السرعة لأخبرته أنّني لا أستطيع الإنجاب. لكن، حدث كلّ شيء من دون سابق إنذار". وهزّت رأسها ونظرت بحزن عبر النافذة. "ظننت أنّه يعجبني. لا أدري، ربّما كنت مسحورة بـ-"

قال لانغدون مبتسماً: "أمير وسيم، أسمر، وطويل القامة؟".

ضحكت أمبرا بصوت خافت والتفتت إليه. "هو بالفعل يتمتّع بهذه المواصفات. لا أدري، بدا رجلاً طيّباً. ربّما كان منعزلاً، ولكنّه رومنسي، وليس من نوع الأشخاص الذين يُقدِمون على التورّط في مقتل إدموند".

شعر لانغدون أنّها على حقّ. فالأمير لن يكسب شيئاً من موت إدموند، وما من دليل مؤكّد على أنّه متورّط في عمليّة الاغتيال على أيّ حال، بل مجرّد اتّصال هاتفي من شخص من داخل القصر يطلب إضافة اسم الأميرال أفيلا إلى قائمة الضيوف. حتّى هذه اللحظة، بدا الأسقف فالديسبينو المشتبه به الأكثر احتمالاً، لكونه عرف بفحوى إعلان إدموند في وقت مبكر بما فيه الكفاية للتخطيط لمنعه، ولأنّه يعرف أكثر من أيّ شخص آخر كم سيكون مدمّراً لسلطة الديانات في العالم.

قالت أمبرا بهدوء: "من الواضح أنّني لا أستطيع الزواج من جوليان. فأنا لا أكفّ عن التفكير في أنّه سيفسخ الخطوبة الآن بعد أن عرف أنّني لا أستطيع الإنجاب.

فسلالته تحتلّ العرش منذ أربعة قرون تقريباً، ولديّ إحساس أنّ مديرة متحف من بيلباو لن تكون سبباً لإنهاء تلك السلالة".

أعلن الطيّاران عبر مكبّر الصوت أنّ الوقت قد حان للاستعداد للهبوط في برشلونة.

عندئذٍ، خرجت أمبرا من استغراقها في أفكارها، وبدأت ترتّب المقصورة، فغسلت الكؤوس وتخلّصت من بقايا الطعام.

ارتفع صوت وينستون من هاتف إدموند الموضوع على الطاولة: "بروفيسور، أعتقد أنّه يجدر بك الاطّلاع على بعض المعلومات الجديدة التي تنتشر بقوّة على الإنترنت حاليّاً. فثمّة أدلّة قوية تشير إلى وجود علاقة سرّية بين الأسقف فالديسبينو والقاتل الأميرال أفيلا".

ذُهِل لانغدون لدى سماعه هذا الخبر.

أضاف وينستون: "مع الأسف، ثمّة المزيد. فكما تعلم، ضمّ اللقاء السرّي الذي أجراه كيرش مع الأسقف فالديسبينو رجلَي دين آخرَين؛ وهما حاخام بارز وعلّامة محبوب. في الليلة الماضية، تمّ العثور على العلّامة ميتاً في صحراء قرب دبي. ومنذ دقائق، وردت معلومات مثيرة للقلق من بودابست، إذ يبدو أنّ الحاخام وُجِد ميتاً نتيجة لنوبة قلبية في الظاهر

صُدِم لانغدون تماماً.

قال وينستون: "يتساءل المدوّنون عن مدى كون توقيت وفاتهما مصادفة".

هزّ لانغدون رأسه غير مصدّق. فبشكل أو بآخر، بات الأسقف أنطونيو فالديسبينو الآن الشخص الوحيد الحيّ الذي يعرف ما اكتشفه كيرش.

عندما لامست طائرة الغولفستريم G550 المدرج الخالي في مطار ساباديل عند سفوح برشلونة، اطمأنّت أمبرا عندما لاحظت عدم وجود مصوّرين أو صحفيين بانتظارهما.

فبحسب إدموند، ولتجنّب المعجبين في مطار إل برات في برشلونة، قرّر إبقاء طائرته في محطّة الطيران الصغيرة هذه.

لكنّ أمبرا كانت تعرف أنّ هذا ليس السبب الحقيقي.

في الواقع، كان إدموند يحبّ الاهتمام، وقد اعترف لها أنّه كان يبقي طائرته في مطار ساباديل ليجد عذراً لقيادة سيارته الرياضية المفضّلة تيسلا موديل P90D التي يزعم أنّ إلون موسك سلّمه إيّاها باليد كهدية. كما يدّعي إدموند أنّه تحدّى في أحد الأيّام طيّارَيه في سباق لمسافة ميل على المدرج بين الغولفستريم وتيسلا، لكنّ الطيّارَين قاما بحساباتهما ورفضا التحدّي.

فكّرت أمبرا في سرها بأسف: *سأفتقد إدموند.* صحيح أنّه كان مترفاً ومتهوّراً، لكنّ خياله الباهر يستحقّ من الحياة أكثر بكثير ممّا حلّ به الليلة. *أتمنّى وحسب أن أتمكّن من تكريمه من خلال الإعلان عن اكتشافه للعالم.*

عندما دخلت الطائرة حظيرتها وانطفأت محرّكاتها، لاحظت أمبرا أنّ كلّ شيء هادئ. من الواضح أنّهما ما زالا هي والبروفيسور لانغدون بعيدين عن الأنظار.

تقدّمته أمبرا إلى سلّم الطائرة، ثمّ وقفت تتنفّس بعمق محاولة تصفية ذهنها. كانت كأس الشراب الثانية قد فعلت فعلها، حيث ندمت لأنّها شربتها. وعندما وقفت على أرض الحظيرة الإسمنتية، ترنّحت بعض الشيء، وشعرت بيد لانغدون القوية على كتفها تدعمها.

"شكراً لك". همست بذلك وهي تبتسم للبروفيسور الذي ساعده فنجانا القهوة على البقاء متنبّهاً تماماً.

قال لانغدون وهو يرمق السيّارة السوداء رباعية الدفع المركونة في الزاوية: "علينا التواري عن الأنظار بأسرع وقت ممكن. أظنّ أنّ هذه هي السيّارة التي أخبرتني عنها".

أوأت برأسها مجيبة: "هذه حبّ إدموند السرّي".

"لوحة الترخيص غريبة".

نظرت أمبرا إلى لوحة السيّارة وضحكت.

E-WAVE

إ–وايف

شرحت له قائلة: "في الواقع، أخبرني إدموند أنّ غوغل وناسا اشتريا مؤخّراً جهاز كمبيوتر خارقاً يدعى د–وايف D-WAVE، يُعدّ أوّل جهاز كمبيوتر "كمّياً" في العالم. وحاول أن يشرحه لي، لكنّه معقّد جدّاً، شيء عن التراكب، وميكانيك الكمّ، وإنتاج سلالة جديدة تماماً من الآلات. على أيّ حال، قال إدموند إنّه أراد بناء شيء يتفوّق على د–وايف، وقرّر أن يسمّي جهاز الكمبيوتر الجديد هذا إ–وايف".

قال لانغدون: "إ هو الحرف الأوّل من إدموند".

كما أنّه يتجاوز د بخطوة. تذكّرت أمبرا قصّة إدموند عن جهاز الكمبيوتر الشهير في عام 2001: *أوديسي الفضاء*، الذي سُمّي وفقاً للأسطورة باسم HAL لأنّ كلّ حرف من أحرف الاسم يقع أبجدياً بعد أحرف IBM.

سألها لانغدون: "وماذا عن مفاتيح السيّارة؟ قلتِ إنّك تعرفين أين يخبّئها".

"إنه لا يستخدم مفتاحاً". حملت أمبرا هاتف إدموند وتابعت قائلة: "لقد أراني ذلك عندما أتينا إلى هنا الشهر الفائت". لمست شاشة الهاتف، وشغّلت تطبيق تيسلا، ثمّ اختارت أمر الاستدعاء.

وعلى الفور، أُضيئت المصابيح الأمامية للسيّارة المركونة في زاوية الحظيرة. ومن دون أيّ صوت، انزلقت تيسلا بسلاسة حتّى وصلت إلى جانبهما وتوقّفت.

أمال لانغدون رأسه، وبدا متوتّراً من فكرة أن تقود سيّارة نفسها.

طمأنته أمبرا قائلة: "لا تقلق، سأدعك تقودها إلى شقّة إدموند".

أومأ لانغدون برأسه موافقاً، ودار حول السيّارة ليصعد من جهة السائق. وبينما كان يمرّ من أمام السيّارة، توقّف وحدّق إلى لوحة الترخيص، ثمّ انفجرّ ضاحكاً بصوت عالٍ.

عرفت أمبرا تماماً ما أضحكه، فقد حملت لوحة ترخيص سيّارة إدموند الجملة التالية: والخبراء يرثون الأرض.

قال لانغدون وهو يجلس خلف المقود: "المسألة أنّ اللباقة لم تكن يوماً من نقاط قوّة إدموند".

قالت أمبرا وهي تجلس إلى جانبه: "كان يحبّ هذه السيّارة؛ فهي كهربائية بالكامل وأسرع من الفيراري".

هزّ لانغدون كتفيه بلا اكتراث وهو يرمق لوحة أجهزة القياس عالية التقنية. "أنا لست مولعاً بالسيّارات حقّاً".

فابتسمت أمبرا قائلة: "لكنّك ستصبح كذلك".

الفصل 48

انطلقت سيّارة أوبر التي تقلّ أفيلا شرقاً في الظلام، وتساءل الأميرال عن عدد المرات خلال سنوات عمله كضابط بحري التي رسا فيها في ميناء برشلونة.

بدت له حياته السابقة بعيدة جدّاً، بعد أن انتهت في ومضة نارية في إشبيلية. كان قدراً قاسياً وغير متوقّع، ولكنّه بدأ يتوازن بشكل غريب الآن. فالقدر نفسه الذي مزّق روحه في كاتدرائية إشبيلية منحه الآن حياة ثانية؛ بداية جديدة وُلِدت داخل جدران كاتدرائية مختلفة تماماً.

المفارقة هي أنّ الشخص الذي اصطحبه إلى هناك كان مجرّد معالج فيزيائي يُدعى ماركو.

سأل أفيلا مدرّبه قبل أشهر عندما اقترح عليه الفكرة: "لقاء مع البابا؟! غداً؟ في روما؟".

أجاب ماركو: "غداً في إسبانيا. فالبابا موجود هنا".

فنظر إليه أفيلا كما لو كان مجنوناً وقال: "لم يذكر الإعلام شيئاً عن وجود قداسته في إسبانيا".

أجاب ماركو ضاحكاً: "ثق بي قليلاً أيّها الأميرال، ما لم تكن لديك ارتباطات أخرى غداً".

نظر أفيلا إلى ساقه المصابة.

ولكن ماركو قال: "سنغادر عند التاسعة. وأعدك أنّ رحلتنا القصيرة ستكون أقلّ إيلاماً بكثير من تمارين إعادة التأهيل".

وفي الصباح التالي، ارتدى أفيلا زيّ البحرية الذي أحضره له ماركو من المنزل، واستعان بعكّازَين للذهاب إلى سيّارة ماركو الفيات القديمة. خرج ماركو من مرأب المستشفى، وتوجّه جنوباً على جادة أفينيدا دي لا رازا، إلى أن خرج من المدينة وسلك الطريق السريع N-4 المتّجه جنوباً.

سأله أفيلا بشيء من الاضطراب المفاجئ: "إلى أين نحن ذاهبان؟".

ابتسم ماركو مجيباً: "استرخِ، وثق بي. لن تستغرق المسافة سوى نصف ساعة".

كان أفيلا يعرف أنّ طريق N-4 لا يحتوي سوى على مراعٍ غير مأهولة لمسافة 150 كلم أخرى. وكان قد بدأ يظنّ أنّه ارتكب خطأً فادحاً. وبعد انقضاء نصف ساعة، اقتربا من بلدة إل توريبسكال الشبيهة بمدينة الأشباح. كانت البلدة في ما مضى قرية زراعية مزدهرة، لكنّ عدد سكّانها تضاءل مؤخّراً إلى أن باتت خالية تماماً. *لكن إلى أين يصطحبني هذا الرجل؟!* قاد ماركو السيّارة لبضع دقائق أخرى، ثمّ خرج من الطريق السريع وانعطف شمالاً.

سأله ماركو مشيراً إلى البعيد خلف حقل فسيح: "هل تراها؟".

لم يرَ أفيلا شيئاً. فإمّا أن يكون المدرّب الشابّ يعاني من الهلوسة، أو أنّ عينَي أفيلا تقدّمتا في السنّ.

أعلن ماركو: "أليست رائعة؟".

حدّق أفيلا جيّداً، ثمّ رأى أخيراً شكلاً داكناً خلف الحقل. ومع اقترابهما، حملق بالبناء غير مصدّق.

أهذه... كاتدرائية؟!

كان حجم المبنى كبيراً حيث يتوقّع المرء رؤيته في مدريد أو باريس. ومع أنّ أفيلا عاش في إشبيلية طوال حياته، إلّا أنّه لم يعرف بوجود كاتدرائية هنا في هذا المكان النائي. وكلّما اقتربا، بدا المجمّع أكثر مهابة، ولاحظ أنّ الجدران الإسمنتية الهائلة توفّر درجة من الحماية لم يرَها أفيلا سوى في مدينة الفاتيكان.

غادر ماركو الطريق السريع، وقاد السيّارة على طول طريق قصير يؤدّي إلى الكاتدرائية، إلى أن وصلا إلى بوّابة حديدية ضخمة تسدّ الطريق. أوقف ماركو السيّارة، ثمّ أخرج بطاقة مغلّفة من صندوق القفّازات ووضعها على لوحة القيادة.

اقترب منهما حارس، ورمق البطاقة، ثمّ نظر إلى داخل السيّارة وابتسم ابتسامة عريضة عندما رأى ماركو. رحّب به الحارس بالإسبانية قائلاً: "أهلاً وسهلاً، كيف حالك يا ماركو؟".

صافح الرجلان بعضهما، وعرّفه ماركو على الأميرال أفيلا.

قال ماركو للحارس: "لقد أتى لرؤية البابا".

أومأ الحارس برأسه، وتأمّل بإعجاب الميداليات المعلّقة على بذلة أفيلا، ثمّ لوّح لهما للدخول. وعندما فُتِحت البوّابة الضخمة أمامهما، شعر أفيلا كأنّه يدخل قصراً من القرون الوسطى.

كانت الكاتدرائية القوطية التي ظهرت أمامهما تضمّ ثمانية أبراج شاهقة، وكلّ منها يحتوي على برج جرس من ثلاثة طوابق. ثلاث قباب ضخمة تشكّل جسم المبنى، وتتكوّن من الخارج من الأحجار البنّية الداكنة والبيضاء، مضفية على البناء طابعاً حديثاً غير اعتيادي.

نظر أفيلا إلى الطريق المؤدّية إلى الكاتدرائية، والتي تتفرّع إلى ثلاث طرق متوازية، تحيط بكلّ منها صفوف من أشجار النخيل الطويلة. فوجئ أفيلا لدى رؤيته المكان مزدحماً بالسيّارات المركونة، بالمئات منها، من سيّارات السيدان الفاخرة إلى الحافلات المتهالكة والدرّاجات المغطّاة بالوحول... كلّ ما يمكن أن يتخيّله المرء.

تجاوزها ماركو كلّها، وقاد السيّارة مباشرة إلى باحة الكنيسة الأمامية. وهناك، رآهما حارس، فنظر إلى ساعته، ثمّ لوّح لهما للدخول إلى موقف خالٍ من الواضح أنّه حُجِز لهما.

قال ماركو: "لقد تأخرنا قليلاً، علينا أن نسرع بالدخول".

كان أفيلا على وشك أن يجيب، ولكنّه لم يستطع أن يتفوّه بأي كلمة. فقد رأى للتوّ اللوحة المعلّقة على مدخل الكنيسة:

الكنيسة الكاثوليكية البالمارية

ذُهِل أفيلا من هول المفاجأة. *ربّاه! لقد سمعتُ بهذه الكنيسة!*

التفت إلى ماركو، وحاول السيطرة على نبضه المتسارع. "أهذه كنيستك يا ماركو؟". حاول أفيلا ألّا يبدو خائفاً. "هل أنت... بالماري؟".

ابتسم ماركو مجيباً: "تقول الكلمة كما لو كانت مرضاً. أنا مجرّد كاثوليكي مخلص يعتقد أنّ روما انحرفت عن الطريق القويم".

نظر أفيلا مجدّداً إلى الكنيسة. الآن، أصبح ادّعاء ماركو الغريب بأنّه يعرف البابا منطقيّاً فجأة. *البابا هنا في إسبانيا*.

قبل بضع سنوات، بثّت الشبكة التلفزيونيةِ كانال سور برنامجاً وثائقياً تحت عنوان لا إغليزيا أوسكورا (الكنيسة المظلمة)، وكان هدفه كشف بعض أسرار الكنيسة البالمارية. ويومذاك، ذُهِل عندما عرف بوجود هذه الكنيسة الغريبة؛ هذا من دون ذِكر جماعتها متنامية العدد ونفوذها المتعاظم.

بحسب التقاليد، تمّ تأسيس الكنيسة البالمارية بعدما زعم بعض السكّان المحلّيين أنّهم شاهدوا سلسلة من الرؤى الباطنية في حقل مجاور. وادّعوا أنّ السيّدة مريم العذراء ظهرت لهم وحذّرتهم من أنّ الكنيسة الكاثوليكية ضلّت بسبب "بدعة الحداثة"، وأنّه ينبغي حماية الدين القويم.

حثّت السيّدة العذراء أهل إل بالمار على تأسيس كنيسة بديلة وشجب البابا الحالي في روما؛ باعتباره بابا مزيّفاً. وعُرِفت هذه القناعة بأنّ بابا الفاتيكان ليس الحبر الصالح باسم *المقعد الشاغر*، والمقصود بذلك مقعد القدّيس بطرس.

بالإضافة إلى ذلك، زعم البالماريون أنّ لديهم أدلّة على أنّ البابا "الحقيقي" كان في الواقع مؤسّس جماعتهم؛ وهو رجل يُدعى كليمينتي دومينغيز إي غوميز، الذي أخذ اسم البابا غريغوري السابع عشر. وتحت حكم البابا غريغوري، البابا المزيّف برأي الكاثوليكيين الأساسيّين، راحت الكنيسة البالمارية تنمو باطّراد. وفي عام 2005، عندما توفّي البابا غريغوري خلال ترأسه قدّاس الفصح، أعلن مؤيّدوه أنّ توقيت وفاته كان إشارة عجائبية من السماء.

والآن، بينما كان أفيلا يحدّق إلى الكنيسة الضخمة، شعر بالتوجّس رغماً عنه.

أيّاً يكن البابا المزيّف الحالي، فأنا لست مهتمّاً بلقائه.

فبالإضافة إلى الانتقادات التي وُجِّهت لمزاعم الكنيسة البالمارية الجريئة حول البابوية، وُجِّهت لها اتّهامات بغسل الأدمغة والتخويف، حتّى إنّها حُمِّلت مسؤوليّة العديد من الوفيات الغامضة، بما في ذلك عضو الكنيسة بريدجيت كروسبي التي كانت- استناداً إلى محامِي أسرتها- "عاجزة عن الفرار" من إحدى الكنائس البالمارية في إيرلندا.

لم يشأ أفيلا أن يتصرّف بوقاحة مع صديقه الجديد، ولكنّ ذلك لم يكن ما توقّعه على الإطلاق من رحلة هذا اليوم. وقد قال وهو يتنهّد معتذراً: "ماركو، أنا آسف، ولكنني لا أعتقد أنّني أستطيع فعل ذلك".

فقال ماركو من دون أن يبدو عليه أيّ تأثّر: "راودني شعور بأنّك ستقول ذلك. وأنا أقرّ بأنّ ردّ فعلي كان مشابهاً عندما أتيت إلى هنا للمرّة الأولى. أنا أيضاً سمعت كل القيل والقال والشائعات المخيفة، ولكنّني أؤكّد لك أنّها ليست سوى حملة تشويه يقودها الفاتيكان".

فتساءل أفيلا في سرّه: *وهل يُلام على ذلك؟ فقد أعلنت كنيستكم عدم شرعيّته!*

"كانت روما بحاجة إلى سبب لحرماننا من حقوقنا الكنسية، ولذلك راحوا يلفّقون الأكاذيب. ولسنوات من الزمن، عمل الفاتيكان على نشر معلومات مضلّلة عن البالماريين".

راح أفيلا يقيّم الكاتدرائية الرائعة المبنيّة في هذا المكان النائي، وراوده حيالها شعور غريب. قال: "أنا حائر. إن لم تكن لديكم أيّ علاقة بالفاتيكان، فمن أين يأتيكم المال إذاً؟".

ابتسم ماركو مجيباً: "قد يُدهشك عدد الأتباع السرّيين الذين يملكهم البالماريون ضمن رجال الدين الكاثوليك. فثمّة الكثير من الرعايا الكاثوليك المحافظين في إسبانيا الذين لا يوافقون على التغييرات الليبرالية التي تقودها روما. ولذلك، فهم يرسلون المال سرّاً إلى كنائس مثل كنيستنا تحافظ على القيم التقليدية".

كان جوابه غير متوقّع، ولكنّه بدا منطقياً بالنسبة إلى أفيلا. فهو أيضاً كان يشعر بالشقاق المتنامي داخل الكنيسة الكاثوليكية، والذي كان عبارة عن خلاف بين من

يعتقدون أنّ الكنيسة بحاجة إلى التحديث تجنّباً للموت، وأولئك المتمسّكين بالهدف الحقيقي للكنيسة، والذي ينبغي أن يبقى ثابتاً في مواجهة العالم المتطوّر.

قال ماركو: "البابا الحالي رجل رائع. أخبرته بقصّتك، فقال إنّه سيسرّه استقبال ضابط عسكري يحمل أوسمة في كنيستنا، ويرغب بالاجتماع بك شخصياً بعد قدّاس هذا اليوم.

فهو على غرار سابقيه، كان له تاريخ عسكري قبل أن يسلك درب الإيمان، ويفهم ما تمرّ به. وأنا أعتقد حقّاً أنّ وجهة نظره قد تساعدك على إيجاد السلام".

فتح ماركو بابه ليترجّل من السيّارة، لكنّ أفيلا لم يستطع أن يتحرّك. جلس في مكانه يحدّق إلى البناء الهائل، ويشعر بالذنب لأنّه يحمل بداخله تحيّزاً ضد أولئك الأشخاص. ففي الحقيقة، لم يكن يعرف شيئاً عن الكنيسة البالمارية باستثناء الشائعات، والحقّ يقال إنّ الفاتيكان لم يسلم من الفضائح. بالإضافة إلى ذلك، إنّ كنيسته لم تساعده إطلاقاً بعد الهجوم، إذ اكتفت الراهبة بالقول: *اغفر لأعدائك، أدر لهم الخدّ الأيسر*.

همس ماركو: "لويس، أصغِ إليّ. أنا أدرك أنّني خدعتك قليلاً لأجلبك إلى هنا، لكنّ نواياي حسنة. أريدك أن تقابل هذا الرجل، فأفكاره غيّرت حياتي تماماً. بعدما خسرت ساقي، كنت في المكان الذي أنت فيه الآن. أردت الموت، وشعرت أنّني كنت أغرق في الظلام. لكنّ هذا الرجل أعطاني هدفاً. تعال واستمع إلى عظته، ثمّ احكم بنفسك".

تردّد أفيلا وقال: "أنا سعيد من أجلك يا ماركو، لكنّني أعتقد أنّني سأكون على ما يرام بمفردي".

ضحك الشابّ قائلاً: "على ما يرام! منذ أسبوع، صوّبت مسدّساً إلى رأسك وضغطت على الزناد! أنت لست على ما يرام يا صديقي".

أدرك أفيلا صحّة ذلك. *إنّه على حقّ. فبعد أسبوع، عندما ينتهي علاجي، سأعود إلى البيت، إلى وحدتي وضياعي.*

ألحّ عليه ماركو: "ما الذي تخشاه؟ أنت ضابط بحري. أنت رجل ناضج كان يقود سفينة! هل أنت خائف من أن يقوم البابا بغسل دماغك في عشر دقائق وأخذك رهينة؟".

أنا لست متأكّداً من الشيء الذي أخافه. وحدّق إلى ساقه المصابة، وشعر أنّه صغير وعاجز على نحو غريب. فخلال معظم سنوات حياته، كان هو المسؤول وهو من يُعطي الأوامر. والآن، ليس متأكّداً من أنّه قادر على تلقّي الأوامر من شخص آخ

قال ماركو أخيراً وهو يعيد تثبيت حزام الأمان: "لا بأس، أنا آسف. من الواضح أنّك لست مرتاحاً، ولا أودّ أن أضغط عليك أكثر . ومدّ يده لتشغيل محرّك السيّارة.

عندئذٍ، شعر أفيلا أنّه سخيف. فقد كان ماركو شاباً صغيراً، لا يتجاوز ثلث عمر أفيلا تقريباً، فقدَ ساقه، ويحاول مساعدة عاجز مثله. وها هو يشكره بالتصرّف بعدم امتنان وتشكّك.

قال أفيلا: "كلّا، سامحني يا ماركو. سيسرّني أن أستمع إلى العظة التي سيلقيها هذا الرجل".

الفصل 49

كان الزجاج الأمامي لسيّارة إدموند تيسلا موديل 10 فسيحاً، ويتّصل بسلاسة بسقف السيّارة فوق رأس لانغدون، ويعطيه شعوراً مربكاً بأنّه يطفو داخل فقاعة زجاجية.

وبينما كان يقود السيّارة على الطريق السريعة المشجرّة شمال برشلونة، فوجئ وهو يجد نفسه يتجاوز السرعة القصوى البالغة 120 كيلومتراً في الساعة. فمحرّك السيّارة الكهربائي الصامت، وميزة التسارع الخطّي يجعلان كلّ السرعات تبدو متشابهة تقريباً.

إلى جانبه، انشغلت أمبرا بتصفّح الإنترنت على شاشة الكمبيوتر التي تتضمّنها لوحة أجهزة القياس الضخمة في السيّارة، وراحت تنقل للانغدون الأخبار المنتشرة حاليّاً في العالم. فقد تمّت حياكة شبكة متعاظمة من المكائد والمؤامرات؛ بما في ذلك شائعات عن أنّ الأسقف فالديسبينو كان يموّل البابا المزيّف للكنيسة البالمارية، الذي يُزعَم أنّ علاقات عسكرية تربطه بكارليين محافظين. ويبدو أنّه لم يكن مسؤولاً عن مقتل إدموند فحسب، بل كذلك عن موت سيّد الفضل والحاخام يهودا كوفيس.

وبينما كانت أمبرا تقرأ بصوت عالٍ، اتّضح له تماماً أنّ وسائل الإعلام في كلّ مكان تطرح السؤال نفسه: ما الذي اكتشفه إدموند كيرش؟ وما الذي يجعله من الخطورة بمكان حيث يعمد أسقف بارز وطائفة كاثوليكية محافظة إلى قتله في محاولة لإسكاته؟

قالت أمبرا وهي تلتفت إليه: "عدد المشاهدين لا يصدّق. فاهتمام الناس بهذه القصّة لم يسبق له مثيل... ويبدو أنّ العالم بأكمله مسمّر أمام الشاشات".

في تلك اللحظة، أدرك لانغدون أنّه قد يكون لمقتل إدموند المروّع جانب إيجابي بشكل من الأشكال. فمع كلّ اهتمام وسائل الإعلام، تضاعف عدد جمهور كيرش حول العالم أكثر بكثير ممّا كان يتصوّر. وحاليّاً، يستحوذ إدموند على انتباه العالم حتّى في موته.

هذه الحقيقة جعلت لانغدون أكثر التزاماً بتحقيق هدفه؛ ألا وهو العثور على كلمة السرّ المؤلّفة من سبعة وأربعين حرفاً، وإعلان اكتشاف إدموند للعالم.

قالت أمبرا بنبرة حائرة: "لم يدلِ جوليان بأيّ بيان بعد. لم تصدر كلمة واحدة من القصر الملكي، وهذا غير منطقي. فأنا أملك خبرة شخصية مع منسّقة العلاقات العامّة لديهم، مونيكا مارتن. وهي متمسّكة كثيراً بالشفافية ومشاركة المعلومات قبل أن تعمل الصحافة على تحريفها. أنا واثقة أنّها تحثّ جوليان على الإدلاء ببيان".

شعر لانغدون بأنّها محقّة. فنظراً إلى أنّ وسائل الإعلام تتّهم مستشار القصر الديني الأساسي بالتآمر، وربّما حتّى بالقتل، يبدو من المنطقي أن يُدلي جوليان ببيان ما، وإن كان لمجرّد القول إنّ القصر يحقّق في الاتّهامات.

أضاف لانغدون: "لا سيّما إن أخذنا بالاعتبار أنّ ملكة البلاد المستقبلية كانت تقف إلى جانب إدموند عندما تعرّض للقتل. كان من الممكن أن تكوني أنت الضحيّة يا أمبرا. على الأمير أن يقول على الأقلّ إنّه يحمد الله على سلامتك".

قالت بنبرة عملية وهي تطفئ المتصفح وتستند إلى ظهر مقعدها: "أنا لست واثقة من ذلك".

نظر إليها لانغدون. "حسناً، مهما يكن، أنا سعيد لسلامتك. فأنا لست واثقاً من أنّني كنت سأتمكّن من تولّي هذا الأمر بمفردي هذه الليلة".

"بمفردك!؟". تصاعد صوت حادّ النبرة من مكبّرات الصوت في السيّارة. "كم نحن سريعو النسيان!".

فضحك لانغدون من استنكار وينستون وقال: "وينستون، هل برمجك إدموند حقاً لتكون دفاعيّاً وتشعر بعدم الأمان؟".

قال وينستون: "كلّا، بل برمجني لأراقب، وأتعلّم، وأقلّد السلوك البشري. كانت ملاحظتي محاولة للفكاهة؛ وهي ميزة شجّعني إدموند على تطويرها. فحسّ الفكاهة لا يمكن برمجته... بل ينبغي تعلّمه".

"إذاً، أنت تتعلّم جيّداً".

"حقاً! ربّما يجدر بك أن تكرّر ذلك".

انفجر لانغدون ضاحكاً. "كما قلت، أنت تتعلّم جيّداً".

كانت أمبرا قد أعادت شاشة لوحة القيادة إلى صفحتها الافتراضية، وهي عبارة عن برنامج ملاحة يتكوّن من صورة للأقمار الصناعية تتضمّن رسماً "مصغّراً" لسيّارتهما. لاحظ لانغدون أنّهما عبرا جبال كولسيرولا، وكانا يخرجان الآن إلى الطريق السريعة B-20 باتّجاه برشلونة. إلى جنوب موقعهما، رأى لانغدون على صورة الأقمار الصناعية شيئاً غير اعتيادي لفت انتباهه. كان عبارة عن مساحة من الغابات في وسط منطقة عمرانية. كانت المساحة الخضراء طويلة وذات شكل غير منتظم، أشبه بأميبا عملاقة.

سألها: "أهذه حديقة غويل؟".

نظرت أمبرا إلى الشاشة وأومأت برأسها مجيبة: "بالضبط".

قال وينستون: "اعتاد إدموند على التوقّف هناك كثيراً في طريق عودته من المطار

لم يُفاجأ لانغدون. فقد كانت حديقة غويل من أشهر روائع أنطوني غاودي، المهندس المعماري والفنّان نفسه الذي يعرض إدموند عمله على غلاف هاتفه. *كان غاودي يشبه إدموند كثيراً. إذ كان صاحب رؤية مبدعاً، ولا تنطبق لديه القواعد العادية.*

كان أنطوني غاودي طالباً متفانياً في مجال الطبيعة، وقد استلهم تصاميمه الهندسية من الأشكال العضوية، واستخدم عالم الطبيعة لمساعدته على تصميم هياكل بيومورفية سائلة غالباً ما تظهر وكأنّها خرجت من الأرض. *ما من خطوط مستقيمة في الطبيعة*؛ هذا ما قاله غاودي. وبالفعل، كانت الخطوط المستقيمة في أعماله قليلة جدّاً.

كثيراً ما وُصف بأنّه أب "الهندسة المعمارية الحيّة" و"التصميم البيولوجي"، واخترع تقنيّات لم يسبق لها مثيل في مجال النجارة، والحدادة، والزجاجيات، والسيراميك لكي يكسو أبنيته بغلاف ملوّن مبهر.

وحتّى هذا اليوم، وبعد ما يقرب من قرن على وفاة غاودي، ما زال السيّاح من مختلف أنحاء العالم يزورون برشلونة لإلقاء نظرة على أسلوبه الحداثي الفذّ. تضمنّت أعماله منتزهات، وأبنية عامّة، وقصوراً خاصّة، وبالطبع تحفته العظيمة ساغرادا فاميليا، الكنيسة الكاثوليكية الهائلة، ذات الأبراج المستوحاة من "إسفنج البحر"، والتي تهيمن على أفق برشلونة. وقد أشاد بها النقّاد كثيراً، ووصفوها بالقول إنه "لم يسبق لها مثيل في تاريخ الفنّ بأكمله".

لطالما تعجّب لانغدون من رؤية غاودي الجريئة لكنيسة ساغرادا فاميليا؛ تلك الكنيسة الضخمة التي لا تزال قيد الإنشاء حتّى اليوم، بعد مرور ما يقرب من 140 عاماً على بدء بنائها.

هذه الليلة، بينما كان لانغدون ينظر إلى صورة الأقمار الصناعية لحديقة غويل الشهيرة، تذكّر زيارته الأولى إليها حين كان طالباً جامعياً، وقام بنزهة في أرض خيالية من الأعمدة الشبيهة بالأشجار التي تدعم ممرّات عالية، والمقاعد الغريبة ذات الأشكال غير المنتظمة، والكهوف ذات النوافير التي تشبه التنّين والسمك، والجدار الأبيض المتموّج الذي يشبه السوائل والذي يبدو أقرب إلى غشاء مخلوق أحادي الخلية.

تابع وينستون قائلاً: "كان إدموند يحبّ كلّ تصاميم غاودي، ولا سيّما فكرته عن الطبيعة كفنٍّ عضوي".

عاد ذهن لانغدون مجدّداً إلى اكتشاف إدموند. *الطبيعة، العضوية، الخلق.* تذكّر ألواح برشلونة الشهيرة التي صمّمها غاودي، والتي كانت عبارة عن بلاط أرصفة سداسي استُخدِم لأرصفة المدينة. كانت كلّ بلاطة تمتاز بتصميم مشابه مؤلّف من خطوط غير منتظمة. ومع ذلك، عندما يتمّ ترتيبها وتناوبها على النحو المطلوب، يظهر رسم مذهل؛

منظر بحري يعطي انطباعاً كما لو أنّه يحتوي على عوالق، وميكروبات، ونباتات بحرية. يسمّي أهل المنطقة التصميم *لاسوبا بريموردِيال*، أي الحساء البدائي.

فكّر لانغدون في سرّه: *حساء غاودي البدائي*. وذُهِل مجدّداً من مدى اتّفاق مدينة برشلونة مع فضول إدموند حول بدايات الحياة. فالنظريّة العلميّة السائدة تفيد أنّ الحياة بدأت في حساء الأرض البدائي، أي تلك المحيطات البدائية التي صبّت فيها البراكين موادَّ كيميائية غنية، فدارت حول بعضها بعضاً، وتعرّضت بشكل متواصل لقصف أحزمة البرق بفعل عواصف مستمرّة... وفجأة، مثل غولم مجهري، نشأ أوّل مخلوق أحادي الخلية.

قال لانغدون: "أمبرا، أنت أمينة متحف، ولا بدّ أنّك تحدّثت كثيراً في الفن مع إدموند. فهل أخبرك بما يشدّه في غاودي تحديداً؟".

أجابت: "فقط ما ذكره وينستون. فهو يشعر كما لو أنّ فنّه المعماري خلقته الطبيعة نفسها. فمغاور غاودي تبدو وكأنّها منحوتة بفعل الرياح والأمطار، وتبدو أعمدته كما لو أنّها نبتت من الأرض، فيما يشبه البلاط الذي صمّمه حياة البحر البدائية". هزّت كتفيها مضيفة: "أيّاً يكن السبب، فقد أعجب إدموند بغاودي بما فيه الكفاية للانتقال إلى إسبانيا".

نظر إليها لانغدون بدهشة تامّة. فهو يعرف أنّ إدموند يملك منازل في عدة بلدان حول العالم، ولكنّه اختار في السنوات الأخيرة الاستقرار في إسبانيا. "هل تقولين إنّ إدموند انتقل إلى هنا بسبب فنّ غاودي؟".

قالت أمبرا: "أعتقد ذلك. فقد سألته مرّة عن سبب اختياره إسبانيا، وأجابني أنّه حصل على فرصة نادرة لاستئجار منزل فريد من نوعه هناك؛ منزل لا يشبه أيّ منزل آخر في العالم. وأعتقد أنّه كان يعني شقّته".

"وأين تقع شقّته؟".

"روبرت، كان إدموند يعيش في كازا ميلا".

دهش لانغدون. "كازا ميلا نفسه؟".

أجابته وهي تهزّ رأسها: "هو نفسه. ففي العام الماضي، استأجر الطابق العلوي بأكمله وحوّله إلى شقّة له".

احتاج لانغدون إلى لحظة لاستيعاب هذا الخبر. فكازا ميلا واحد من أشهر أبنية غاودي. إذ كان عبارة عن "منزل" أصلي ومذهل، تشبه واجهته المؤلّفة من عدّة طوابق وشرفاته الحجرية المتموّجة بناءً نُحت في جبل. وهو يحمل الآن اللقب الشعبي "لا بيدريرا" أي "مقلع الحجارة".

سألها لانغدون وهو يتذكّر إحدى زياراته السابقة إلى المبنى: "لكن، أليس الطابق العلوي متحفاً لغاودي؟".

فقال وينستون: "بلى، لكنّ إدموند قدّم تبرّعاً لمنظّمة اليونيسكو التي تحمي المنزل كموقع للتراث العالمي، فوافقوا على إغلاقه مؤقّتاً والسماح له بالعيش فيه لمدّة سنتين. ففي النهاية، برشلونة مليئة بفنّ غاودي".

احتار لانغدون تماماً. *هل عاش إدموند في متحف غاودي في كازا ميلا؟ وانتقل للعيش فيه لمدّة عامين فقط؟*

قال وينستون: "حتّى إنّ إدموند ساعد كازا ميلا على إنتاج شريط فيديو تثقيفي جديد حول هندسته المعمارية. إنّه يستحقّ المشاهدة".

وافقته أمبرا قائلة: "الفيديو مؤثّر جدّاً بالفعل". وانحنت إلى الأمام لتلمس شاشة المتصفّح. فظهرت لوحة مفاتيح وطبعت فيها عبارة *Lapedrera.com*. "يجب أن تشاهد هذا".

أجاب لانغدون: "لكنّني مشغول بالقيادة قليلاً".

مدّت أمبرا يدها إلى عمود التوجيه وضغطت على رافعة صغيرة، فشعر لانغدون أنّ عجلة القيادة قد تصلّبت فجأة بين يديه، ولاحظ على الفور أنّ السيّارة تقود نفسها بنفسها، مع بقائها في وسط الطريق المخصّص لها.

قالت: "الملاحة الذاتية".

لم يشعر لانغدون بالارتياح تماماً، ولم يستطع منع نفسه من إبقاء يديه قريبتين من المقود وقدمه فوق الفرامل.

"استرخِ". مدّت أمبرا يدها ووضعتها على كتفه قائلة: "إنّها أكثر أماناً بكثير من السائق البشري".

أخفض لانغدون يديه على مضض، ووضعهما في حضنه، فابتسمت قائلة: "أرأيت؟ والآن، شاهِد هذا الفيديو عن كازا ميلا".

بدأ الشريط بلقطة دراماتيكية منخفضة لموجة عنيفة، كما لو أنّها التُقطت من مروحية تحوم على ارتفاع بضع أقدام فوق محيط مفتوح. في البعيد، ظهرت جزيرة، جبل حجري سفوحه شديدة الانحدار، وتعلو مئات الأقدام فوق الأمواج المتحطّمة.

ظهر نصّ فوق الجبل.

لا بيدريرا ليست من تصميم غاودي.

وخلال الثواني الثلاثين التالية، شاهد لانغدون الأمواج وهي تنحت الجبل لتشكّل الواجهة الخارجية المميّزة وعضوية الشكل لكازا ميلا. بعد ذلك، اندفعت أمواج المحيط إلى الداخل، وصنعت تجاويف وغرفاً، وفيها نحتت الشلّالات سلالم ونمت عرائش، والتفّت لتتحوّل إلى درابزين حديدي، ثمّ نمت الطحالب تحتها وكست الأرض.

أخيراً، تراجعت الكاميرا، وظهرت صورة كازا ميلا الشهيرة، "مقلع الحجارة" المنحوت في جبل ضخم.

- لا بيدريرا -
تحفة الطبيعة

كان لا بدّ للانغدون أن يقرّ بأنّ إدموند موهوب بالدراما. فبعد رؤيته هذا الفيديو المعدّ بواسطة الكمبيوتر، شعر بالرغبة في زيارة المبنى الشهير مجدّداً.

حوّل نظره إلى الطريق مجدّداً، ثمّ مدّ يديه وعطّل الملاحة الذاتية ليتولّى القيادة مجدّداً.

"فلنأمل أن نجد في شقّة إدموند ما نبحث عنه. فنحن بحاجة إلى العثور على كلمة السرّ تلك".

الفصل 50

تقدّم القائد دييغو غارزا عناصر الحرس الملكي الأربعة المسلّحين وسط ساحة بلازا دي لا أرمريا، ونظره مركّز أمامه، متجاهلاً صخب الفرق الإعلامية خارج السياج، فيما الجميع يسلّطون كاميراتهم عليه ويصيحون مطالبين بتعليق.

على الأقلّ سيرون أنّه ثمّة من يتحرّك.

وعندما وصل هو وفريقه إلى الكاتدرائية، وجدوا المدخل الرئيس مقفلاً؛ وهو أمر ليس مستغرباً في ساعة كهذه. فبدأ يطرق الباب بقبضة مسدّسه.

لم يجبه أحد على الفور، ولكنّه واصل طرق الباب إلى أن استدارت الأقفال أخيراً وفُتِحت، فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام إحدى عاملات التنظيف التي بدا عليها القلق وهي ترى الجيش الصغير أمام الباب.

سألها غارزا: "أين الأسقف فالديسبينو؟".

أجابته: "لا... لا أدري".

أعلن قائلاً: "أنا أعرف أنّ الأسقف هنا، وأنّه مع الأمير جوليان. ألم تريهما؟".

هزّت رأسها نافية. "لقد وصلتُ للتوّ. فأنا أقوم بالتنظيف ليلة السبت بعد-"

مرّ غارزا من أمامها، وأمر رجاله بالانتشار في أرجاء الكاتدرائية المظلمة.

ثم قال لعاملة التنظيف: "أقفلي الباب، ولا تقفي في الطريق". ورفع سلاحه وتوجّه مباشرة إلى مكتب فالديسبينو.

من الجهة الأخرى من الساحة، في غرفة التحكّم الواقعة في الطابق السفلي من القصر، وقفت مونيكا مارتن عند برّاد الماء وأخذت نفساً من سيجارة طال انتظارها. فبسبب حركة "النزاهة السياسية" الليبرالية التي تجتاح إسبانيا، تمّ حظر التدخين في مكاتب القصر. ولكن، مع سيل الجرائم المزعومة التي بلغت أنباؤها القصر هذه الليلة، شعرت مارتن أنّ بعض التدخين السلبي لن يشكّل مخالفة خطيرة.

اصطفّت أمامها شاشات صامتة تنقل بثّ المحطّات الإخبارية الخمس التي تواصل تغطيتها الحيّة لاغتيال إدموند كيرش، وتعيد بشكل صارخ لقطات مقتله الوحشي مراراً وتكراراً. وبطبيعة الحال، كانت كلّ إعادة يسبقها التحذير المعتاد.

تنبيه: يحتوي المشهد التالي على صور قد لا تكون مناسبة لجميع المشاهدين.

كم *هذا* معيب! فهي تعرف أنّ هذه التحذيرات ليست احتياطات من جانب الشبكة التلفزيونية، بل وسيلة ذكية لضمان عدم قيام المشاهد بتغيير القناة.

أخذت مارتن نفساً آخر من سيجارتها وهي تراقب مختلف الشبكات، ومعظمها تستنزف نظريّات المؤامرة المتنامية تحت عنوان "خبر عاجل" مع الأشرطة الإخبارية.

عالِم مستقبلي تغتاله الكنيسة؟

اكتشاف علمي ضاع إلى الأبد؟

قاتل مأجور من قبل الأسرة المالكة؟

يفترض بكم نقل الأخبار وليس نشر شائعات مغرضة على شكل أسئلة.

لطالما اعتقدت مارتن بأهمّية الصحافة المسؤولة، باعتبارها حجر زاوية للحرّية والديمقراطية. لهذا السبب، كانت تشعر بالخيبة دائماً من الصحفيين الذين يثيرون الجدل عبر بثّ أفكار منافية للعقل بكلّ وضوح، ويتمكّنون مع ذلك من تجنّب العواقب القانونية عن طريق تحويل الخبر السخيف إلى سؤال.

حتّى إنّ القنوات العلميّة المحترمة تقوم بذلك، وتطرح على مشاهديها أسئلة من قُبيل: "هل من الممكن أن يكون هذا المعبد في البيرو قد بني على أيدي مخلوقات فضائية قديمة؟".

عندما رأت مارتن هذا السؤال، ودّت أن تصيح: *كلّا! هذا غير ممكن بالتأكيد! كفّوا عن طرح أسئلة بلهاء!*

على إحدى شاشات التلفزيون، لاحظت أنّ محطّة سي إن إن تبذل قصارى جهدها على ما يبدو لتكون محترمة.

لمحة عن إدموند كيرش

المُلهِم، صاحب الرؤية، المبدع.

تناولت مارتن جهاز التحكّم عن بعد ورفعت الصوت.

قال مذيع الأخبار بحزن: "... محبّ للفنّ، والتكنولوجيا، والابتكار. رجل يتمتّع بقدرة باطنية تقريباً على توقّع المستقبل جعلت منه اسماً مألوفاً. استناداً إلى زملائه، كلّ الأمور التي توقّعها إدموند كيرش في مجال علوم الكمبيوتر أصبحت حقيقة واقعة".

قالت زميلته: "هذا صحيح يا ديفيد. أتمنّى فقط لو كنّا نستطيع قول الشيء نفسه عن توقّعاته الشخصية".

أخذت المحطّة تعرض الآن تسجيلاً لمؤتمر صحفي أجراه إدموند كيرش على الرصيف خارج مركز روكفلر في مدينة نيويورك، وكان فيه قويّ البنية، وقد لوّحت الشمس بشرته. قال إدموند: "أنا اليوم في الثلاثين من عمري، وعمري المتوقّع لا يتجاوز الثامنة والستّين. لكن مع التقدّم الذي سيطرأ على مجالات الطبّ، وتكنولوجيا طول العمر، وتجديد القسيم الطرفي للصبغيات (telomere)، أتوقّع أن أعيش لأحتفل بذكرى ميلادي العاشرة بعد المائة. في الواقع، أنا واثق جدّاً من هذه الحقيقة إلى حدّ أنّني حجزت قاعة رينبو لأحتفل فيها بذكرى ميلادي العاشرة بعد المائة". ابتسم كيرش، وحدّق إلى أعلى المبنى مضيفاً: "وقد سدّدتُ للتوّ فاتورتي كاملة، قبل ثمانين عاماً؛ بما في ذلك الزيادات الناتجة عن التضخّم".

تنهّدت المذيعة بأسف وقالت: "مع الأسف، عاكس القدر توقّعات كيرش هذه المرّة".

قال المذيع: "صحيح. وعلى رأس الغموض المحيط بمقتل كيرش، تتكاثر التكهّنات حول طبيعة اكتشافه". وحدّق بجدّية إلى الكاميرا وتابع قائلاً: "من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ سؤالان تصعب الإجابة عليهما".

أضافت المذيعة بحماسة: "وللإجابة عن هذين السؤالين، تنضمّ إلينا سيّدتان لامعتان، كاهنة أسقفية من فيرمونت، وعالمة أحياء تطوّرية من جامعة كاليفورنيا. سنعود معهما بعد الفاصل".

كانت مارتن تعرف آراءهما أساساً، إنهما *قطبان متناقضان، وإلّا فلن تظهرا في برنامجكما*. لا شكّ في أنّ الكاهنة ستقول شيئاً من قبيل: "أتينا من الربّ وإليه سنعود"، وستجيب عالمة الأحياء برأي مناقض تماماً.

لن تُثبتا شيئاً، غير أنّ الناس سيشاهدون أيّ شيء شرط أن يكون مثيراً للحماسة بما فيه الكفاية.

هتف سوريش من مكان مجاور: "مونيكا!".

التفتت مونيكا لترى أمامها مدير الأمن الإلكتروني آتياً وهو يهرول.

سألته: "ما الأمر؟".

قال لاهثاً: "اتّصل بي الأسقف فالديسبينو للتوّ".

أخفضت صوت التلفاز. "الأسقف اتّصل... بك؟ هل أخبرك بما يفعله!".

هزّ سوريش رأسه نافياً. "لم أسأله، ولم يخبرني. اتّصل ليعرف ما إذا كنّا نستطيع التحقّق من شيء ما على خوادمنا الهاتفية".

"أنا لا أفهم".

"أنت تعرفين أنّ ConspiracyNet ذكرت أنّ شخصاً من داخل هذا القصر اتّصل بمتحف غوغنهايم قبل وقت قصير من موعد حدث هذه الليلة، وطلب من أمبرا فيدال أن تضيف اسم أفيلا إلى قائمة الضيوف".

"أجل، وطلبت منك أن تبحث في الأمر".

"حسناً، طلب فالديسبينو الشيء نفسه. اتّصل ليسألني عمّا إذا كنت أستطيع الدخول إلى لوح الهاتف المركزي في القصر والعثور على سجل تلك المكالمة لمعرفة من أين انطلق الاتّصال، على أمل التوصّل إلى الشخص الذي قام به من داخل القصر".

شعرت مارتن بالارتباك، بعد أن تخيّلت أنّ فالديسبينو نفسه هو المشتبه به الأكثر احتمالاً.

تابع سوريش: "بحسب غوغنهايم، تلقّى مكتب الاستقبال لديهم اتّصالاً من رقم الهاتف الرئيس في قصر مدريد الملكي هذه الليلة، قبل وقت قصير من الحدث. والمكالمة موجودة في سجلّهم الهاتفي. ولكن، هنا تكمن المشكلة. فقد بحثتُ في سجلّ اللوح المركزي لدينا للتحقّق من المكالمات الصادرة خلال الفترة الزمنية نفسها". هزّ رأسه متابعاً: "لكنّني لم أعثر على شيء، ولا اتّصال واحد. فثمّة من قام بمسح سجلّ الاتّصال الذي تمّ من القصر بمتحف غوغنهايم".

تأمّلت مارتن زميلها مطوّلاً، ثم سألته: "ومن الذي يملك إذن الوصول إلى اللوح المركزي للقيام بذلك؟".

"هذا بالضبط ما سألني إيّاه فالديسبينو، وقلت له الحقيقة. أخبرته أنّني أنا، بصفتي رئيس الأمن الإلكتروني، يمكنني مسح السجلّ، ولكنّني لم أفعل، وأنّ الشخص الوحيد الذي يملك إذن الوصول إلى هذه السجلّات هو القائد غارزا".

حدّقت إليه مارتن مذهولة: "أتظنّ أنّ غارزا عبث بسجلّاتنا الهاتفية؟".

قال سوريش: "هذا منطقي، فوظيفة غارزا تقوم على حماية القصر. والآن، إن جرى أيّ تحقيق، فتلك المكالمة لم تحدث أبداً ما دام الأمر يتعلّق بالقصر. من الناحية الفنّية، لدينا قدرة معقولة على الإنكار. فحذف السجلّات يُبعد القصر عن دائرة الشبهات تماماً".

سألته مارتن: "دائرة الشبهات؟ لكن، ما من شكّ في أنّ تلك المكالمة قد حدثت! فقد قامت أمبرا بإضافة اسم أفيلا إلى قائمة الضيوف! كما أنّ مكتب الاستقبال في غوغنهايم سيتثبّت-"

"هذا صحيح، ولكنّها الآن كلمة موظّف شابّ في مكتب الاستقبال في أحد المتاحف ضدّ القصر الملكي بأكمله. وفي ما يتعلّق بسجلّاتنا، إنّ تلك المكالمة لم تحدث بكلّ بساطة".

بدا كلام سوريش الحاسم مفرطاً في التفاؤل بالنسبة إلى مارتن. "وهل أخبرت فالديسبينو بكلّ ذلك؟".

"إنّها الحقيقة. قلت له سواء أكان غارزا هو من قام بالاتّصال أم لا، يبدو أنّه حذف سجلّ المكالمة في محاولة لحماية القصر". وصمت هنيهة ثمّ أضاف: "لكن، بعدما أنهيت المكالمة مع الأسقف، أدركت أمراً آخر".

"ألا وهو؟".

"من الناحية الفنّية، ثمّة شخص ثالث يملك حقّ الوصول إلى الخادم". ونظر سوريش حوله بعصبية ثمّ اقترب وقال: "رموز تسجيل الأمير جوليان تمنحه حقّ الوصول الكامل إلى جميع الأنظمة".

حدّقت إليه مارتن قائلة: "هذا كلام سخيف!".

"أعلم أنّ الفكرة تبدو جنونية، ولكنّ الأمير كان في القصر في جناحه بمفرده في الوقت الذي تمّ فيه الاتّصال. ومن الممكن بكلّ سهولة أن يكون قد أجرى المكالمة، ثمّ دخل إلى الخادم وحذفها. فالبرنامج سهل الاستخدام، والأمير أكثر خبرة بالتكنولوجيا ممّا يظنّ الناس".

قالت مارتن بحدّة: "سوريش، هل تظنّ حقّاً أنّ الأمير جوليان، وليّ عهد إسبانيا، قام شخصياً بإرسال قاتل إلى متحف غوغنهايم لاغتيال إدموند كيرش؟".

قال: "لا أدري، كلّ ما أقوله إنّ هذا ممكن".

"ولماذا سيقوم الأمير جوليان بشيء كهذا؟!".

"أنت من بين كلّ الناس لا ينبغي لك أن تطرحي هذا السؤال. تذكّري كلّ الأخبار السيّئة التي اضطررتِ للتعامل معها بشأن الوقت الذي تمضيه أمبرا مع إدموند كيرش، وقصّة اصطحابه إيّاها بالطائرة إلى شقّته في برشلونة؟".

"كانا يعملان! كانا يحضّران للحدث!".

"لكنّ السياسة تقوم على المظاهر، أنت من علّمني ذلك. وأنا وأنت نعرف أنّ عرض الزواج الذي قدّمه الأمير لم يؤتِ ثماره علناً بالطريقة التي تخيّلها".

رنّ هاتف سوريش، وما إن قرأ الرسالة الواردة حتّى اكتسحت الدهشة ملامح وجهه.

سألته مارتن: "ما الأمر؟".

ومن دون أيّ كلمة، استدار وركض عائداً إلى مركز الأمن.

"سوريش!". أطفأت مارتن سيجارتها ولحقت به، ثمّ انضمّت إليه عند إحدى محطّات العمل الأمنية لفريقه، وكان الموظّف الفنّي يعرض شريط مراقبة ضبابياً.

سألته مارتن: "إلامَ تنظر؟".

قال الفنّي: "المَخرج الخلفي للكاتدرائية، منذ خمس دقائق".

مالت مارتن وسوريش لمشاهدة الشريط الذي يُظهِر مساعد كاهن شاباً يخرج من الباب الخلفي للكاتدرائية، ويسير بسرعة على طول شارع كالي مايور الهادئ نسبياً، ثمّ يفتح قفل باب سيّارة أوبل سيدان قديمة ويصعد إليها.

فكّرت مارتن: حسناً، *إنّه عائد إلى بيته بعد القدّاس. ماذا في ذلك؟*

على الشاشة، انطلقت سيّارة الأوبل لمسافة قصيرة، ثمّ توقّفت على مسافة قريبة جداً من بوّابة الكاتدرائية الخلفية، وهي البوّابة نفسها التي خرج منها مساعد الكاهن للتوّ. وعلى الفور تقريباً، خرج شخصان من البوّابة، مُخفِضين رأسَيهما، وجلسا على المقعد الخلفي لسيّارة مساعد الكاهن. كان الراكبان، بلا أدنى شكّ، الأسقف فالديسبينو والأمير جوليان.

بعد لحظات، انطلقت الأوبل، واختفت عند ناصية الشارع خارج مجال الكاميرا.

الفصل 51

عند ناصية شارعَي كارير دي بروفينسا وباسيغ دي غراسيا، ظهرت تحفة غاودي التي ترجع إلى عام 1906 والمعروفة باسم كازا ميلا مثل جزء من جبل. كان البناء عبارة عن شقق سكنية وعمل فنّي خالد في وقت واحد.

صمّم غاودي المبنى المؤلّف من تسعة طوابق على شكل منحنى دائم، ويمكن التعرّف عليه على الفور من خلال واجهته المتموّجة المبنيّة بالحجر الجيري. تضفي الشرفات المنحنية والهندسة غير المتكافئة هالة عضوية على المبنى، كما لو أنّ آلاف السنين من الرياح العاتية نحتت فيه تجاويف وانحناءات كتلك التي نراها في الوديان الصحراوية.

مع أنّ تصميم غاودي الحديث الصادم لقي استنكاراً في البداية من قبل سكّان المنطقة، إلّا أنّ نقّاد الفنّ حول العالم أشادوا بكازا ميلا، وسرعان ما أصبح جوهرة معمارية من أجمل جواهر برشلونة. وخلال ثلاثة عقود، أقام بيير ميلا، رجل الأعمال الذي طلب إنشاء المبنى، مع زوجته في الشقّة الرئيسة مترامية الأطراف، وأجّر شقق المبنى العشرين الأخرى. وحتّى هذا اليوم، يُعتبر كازا ميلا، الواقع في باسيغ دي غراسيا 92، أحد العناوين الأكثر أناقة وجاذبية في أنحاء إسبانيا كافة.

بينما كان روبرت لانغدون يقود سيّارة كيرش على الجادة الأنيقة المقفرة تقريباً التي اصطفّت الأشجار على جانبيها، شعر أنّهما يقتربان. كان منتزه باسيغ دي غراسيا نسخة برشلونة عن الشانزليزيه في باريس. إذ كان أعرض جادات برشلونة وأكبرها، وكان مصمّماً بعناية، وتحيط به المتاجر الراقية.

شانيل... غوتشي... كارتييه... لونغشان...

أخيراً، رأى لانغدون المبنى على مسافة مائتي متر.

كان كازا ميلا مضاءً بأنوار خافتة من الأسفل، وتميّزه على الفور أحجاره الجيرية الشاحبة والخشنة وشرفاته المتموّجة عن بقيّة الأبنية المجاورة بتصاميمها المستقيمة. بدا أشبه بقطعة جميلة من المرجان خرجت من البحر، وأتت لتستقرّ على شاطئ من الإسمنت.

قالت أمبرا مشيرة إلى آخر الجادة الأنيقة: "هذا ما كنت أخشاه، انظر".

أخفض لانغدون نظره إلى الرصيف العريض أمام كازا ميلا، وبدا له عدد من الشاحنات الإعلانية المتوقّفة أمام المبنى مع مجموعة من المراسلين الذين ينقلون آخر الأخبار، مستخدمين منزل كيرش كخلفية لهم. وكان ثمّة عدد من عناصر الأمن الذين أتوا لإبعاد الحشود عن مدخل المبنى. يبدو أنّ وفاة كيرش قد حوّلت كلّ ما له علاقة به إلى قصة إخبارية.

تأمّل لانغدون الشارع بحثاً عن مكان يتوقّف فيه، ولكنّه لم يجد، وكان السير يتقدّم بثبات.

قال لأمبرا: "انخفضي إلى الأسفل في السيّارة". فقد أدرك أنّه لا يملك أي خيار سوى متابعة التقدّم مباشرة، مروراً بزاوية الشارع حيث تجمّعت الصحافة.

وعلى الفور، انزلقت أمبرا إلى الأسفل، وأخفضت جسدها إلى أرض السيّارة، حيث توارت تماماً عن الأنظار.

أمّا لانغدون، فأشاح بوجهه بعيداً وهو يمرّ من أمام الزاوية المزدحمة.

قال: "يبدو أنّهم يحيطون بالمدخل الرئيس. هذا يعني أنّنا لن نتمكّن من الدخول".

فقاطعه وينستون بنبرة واثقة ومرحة: "اركن السيّارة إلى اليمين، فقد توقّعت أن يحدث هذا".

حدّق المدوّن هيكتور ماركانو بحزن إلى الطابق العلوي من كازا ميلا، وكان لا يزال يحاول أن يتقبّل حقيقة موت إدموند كيرش.

فعلى مدى ثلاث سنوات، كان هيكتور مراسلاً للأخبار التكنولوجية لموقع Barcinno.com، وهي منصّة تعاونية شعبية لرجال الأعمال وأصحاب المشاريع الجديدة المبتكرة في برشلونة. وإنّ عيش إدموند كيرش العظيم هنا في برشلونة، جعل الأمر يبدو أشبه بالعمل عند أقدام زيوس نفسه.

التقى هيكتور كيرش للمرّة الأولى منذ أكثر من عام، وذلك عندما وافق عالِم المستقبل الأسطوري بكلّ كرم على الظهور في الحدث الشهري الرائد في بارسينو، ليلة فشل، وهو عبارة عن ندوة يتحدّث فيها رجل أعمال ناجح جدّاً عن أكبر إخفاقاته بكلّ صراحة. فاعترف كيرش للجمهور بخجل أنّه أنفق ما يزيد عن 400 مليون دولار على مدى ستّة أشهر سعياً وراء حلم بناء ما سمّاه إ-وايف، وهو كمبيوتر كمّي يمتاز بسرعات معالجة هائلة من شأنها أن تسهّل تحقيق تقدّم غير مسبوق في مجال جميع العلوم، لا سيّما في نمذجة النظم المعقّدة.

أقرّ إدموند قائلاً: "أخشى أن تكون قفزتي النوعية في مجال الحوسبة النوعية حتّى الآن عبارة عن فشل نوعي".

هذه الليلة، عندما سمع هيكتور أنّ كيرش يخطّط للإعلان عن اكتشاف سيهزّ العالم، تحمّس لفكرة أن يكون ذلك الاكتشاف مرتبطاً بمشروع إ–وايف. *هل اكتشف سرّ نجاح هذا المشروع؟* لكن بعد المقدّمة الفلسفية التي عرضها كيرش، أدرك هيكتور أنّ اكتشافه مختلف تماماً.

أتساءل عمّا إذا كنّا سنعرف يوماً ماهيّة اكتشافه. شعر هيكتور بثقل يضغط على صدره دفعه إلى المجيء إلى منزل كيرش؛ ليس بهدف جمع المعلومات، بل إكراماً له.

صاح أحدهم بالقرب منه: "إ–وايف! إ–وايف!".

وبدأ الحشد المحيط به يشير ويصوّب كاميراته إلى سيّارة تيسلا السوداء الأنيقة التي تعبر الساحة ببطء، وتتقدّم نحو الحشد بمصابيحها الأمامية المتوهّجة.

حدّق هيكتور إلى السيّارة المألوفة بذهول.

كانت سيّارة كيرش، تيسلا موديل 10، بلوحتها التي تحمل كلمة إ–وايف شهيرة في برشلونة بقدر ما هي عربة البابا في روما. فغالباً ما كان كيرش يقوم باستعراض عبر ركن السيّارة في صفّ مزدوج في شارع كارير دي بروفينسا أمام متجر دانيال فيور للمجوهرات، ثمّ يترجّل منها للتوقيع للمعجبين، ويثير حماستهم عبر جعل ميزة الركن الذاتي تقود السيّارة الفارغة على طريق مبرمجة مسبقاً عبر الشارع، مروراً بالرصيف العريض، فيما تقوم أجهزة الاستشعار بالكشف عن أيّ مارّة أو عوائق، حتّى تصل إلى بوّابة المرأب التي تُفتَح أمامها لتدخل رويداً المنحدر اللولبي، وصولاً إلى المرأب الخاصّ تحت كازا ميلا.

مع أنّ ميزة الركن الذاتي كانت مشتركة لدى جميع سيّارات تيسلا، بما في ذلك فتح أبواب المرأبين والقيادة إلى الداخل مباشرة، وإطفاء المحرّك، إلّا أنّ إدموند قام بفخر باختراق نظام تيسلا لتمكينها من سلوك طريق أكثر تعقيداً.

كلّ ذلك جزء من العرض.

الليلة، بدا المشهد أغرب بكثير. فقد توفي كيرش، ومع ذلك ظهرت سيّارته للتوّ، وسارت ببطء عبر شارع كارير دي بروفينسا، ثمّ عبرت الرصيف، ووقفت أمام باب المرأب الأنيق، وتقدّمت فيما أخذ الناس يفسحون لها الطريق.

اندفع المراسلون والمصوّرون إلى السيّارة، وراحوا يسترقون النظر من خلال النوافذ المطلية ويصيحون مستغربين.

"إنّها خالية! لا أحد يقودها! من أين أتت؟!".

يبدو أنّ رجال الأمن في كازا ميلا سبق لهم أن شاهدوا هذه الخدعة من قبل. ولذلك، أبعدوا الناس عن السيّارة وباب المرأب وهو يفتح.

بالنسبة إلى هيكتور، إنّ رؤية سيّارة إدموند الفارغة وهي تعود إلى مرأبها استحضرت صوراً لكلب كئيب يعود إلى المنزل بعدما فقد سيّده.

مثل شبح، شقّت تيسلا طريقها بصمت عبر باب المرأب، فانفجر الحشد بتصفيق عاطفي لدى رؤيته سيّارة إدموند المحبوبة وهي تهبط المنحدر اللولبي كما فعلت مرّات عديدة من قبل، لتدخل أوّل موقف للسيّارات تحت الأرض في برشلونة.

"لم أكن أعلم أنّك تعاني من رهاب الأماكن المغلقة إلى هذا الحدّ". همست أمبرا بذلك وهي ممدّدة إلى جانب لانغدون على أرض سيّارة التيسلا. كانا قد حشرا نفسيهما في منطقة صغيرة بين صفّ المقاعد الثاني والثالث، واختبآ تحت غطاء سيّارة من الفينيل الأسود أخذته أمبرا من صندوق السيّارة، حيث لم يعد من الممكن رؤيتهما من النوافذ المطليّة.

قال لانغدون باضطراب: "سأعيش". وكان في الواقع أكثر توتّراً من السيّارة التي تقود نفسها، منه من رهابه. فقد شعر بالسيّارة وهي تهبط عبر المنحدر اللولبي، وخشي أن تتحطّم في أيّ لحظة.

قبل دقيقتين، عندما ركنا السيّارة في صفّ ثانٍ في شارع كارير دي بروفينسا، أمام متجر دانيال فيور للمجوهرات، أعطاهما وينستون تعليمات واضحة كالشمس.

ومن دون أن تغادر أمبرا ولانغدون السيّارة، انتقلا إلى الجزء الخلفي، إلى الصفّ الثالث من المقاعد. بعد ذلك، وبضغطة واحدة على أحد أزرار الهاتف، قامت أمبرا بتشغيل ميزة الركن الذاتي المخصّصة.

وفي الظلام، شعر لانغدون بالسيّارة وهي تقود نفسها ببطء في الشارع. ومع أمبرا الممدّدة إلى جانبه في تلك المساحة الضيقة، عاد بذاكرته إلى أوّل تجربة له في سنّ المراهقة على المقعد الخلفي لسيّارة مع فتاة جميلة. فكّر في سره: كنت *أكثر توتّراً في ذلك الحين*. وبدا له ذلك مثيراً للسخرية على اعتبار أنّه الآن في سيّارة بلا سائق مع ملكة إسبانيا المستقبلية.

شعر بالسيّارة تستقيم عند أسفل المنحدر، ثمّ تقوم ببضع انعطافات بطيئة، قبل أن تتوقّف تماماً.

قال وينستون: "ها قد وصلتما".

أبعدت أمبرا الغطاء على الفور، وجلست بحذر وهي تحدّق من خلال النافذة، ثمّ قالت وهي تترجّل: "المكان خالٍ".

ترجّل لانغدون هو الآخر من السيّارة، وشعر بالارتياح لوقوفه في الهواء الطلق للمرأب.

قالت أمبرا مشيرة إلى مدخل المرأب المنحدر: "المصاعد في البهو الرئيس".

غير أنّ نظر لانغدون تركّز فجأة على مشهد غير متوقّع على الإطلاق. فهنا، في هذا المرأب تحت الأرض، على جدار إسمنتي أمام موقف إدموند مباشرة، عُلّقت لوحة ذات إطار أنيق لمنظر شاطئ بحر.

قال: "أمبرا، هل قام إدموند بتزيين موقف مخصّص لسيّارته بلوحة؟".

فأومأت برأسها مجيبة: "طرحت عليه السؤال نفسه، وأجابني بأنّها طريقته ليشعر أنّه موضع ترحيب في بيته كلّ ليلة بهذا المنظر الجميل".

ضحك لانغدون. *هذا حال العازبين.*

قال وينستون وقد انتقل صوته الآن آليّاً إلى هاتف كيرش الذي تحمله أمبرا: "الفنّان شخص يقدّره كيرش كثيراً. هل عرفته؟".

لم يعرفه لانغدون. إذ تبدو اللوحة مجرّد منظر بحري رُسم بالألوان المائية، ولا تشبه بشيء ذوق إدموند الطليعي المعتاد.

قالت أمبرا: "إنّه تشرشل. كان إدموند يقتبس عنه طوال الوقت".

تشرشل. استغرق لانغدون لحظة ليدرك أنّها لا تقصد سوى وينستون تشرشل نفسه، رجل الدولة البريطاني الشهير. فبالإضافة إلى كونه بطلاً عسكرياً، ومؤرّخاً، وخطيباً، ومؤلّفاً حائزاً على جائزة نوبل، كان فنّاناً يتمتّع بموهبة رائعة. وتذكّر لانغدون أنّ إدموند اقتبس مرّة جملة عن رئيس الوزراء البريطاني ردّاً على تعليق أحد الأشخاص حول كره المتديّنين له: *ألديك أعداء؟ هذا جيّد. فهذا يعني أنّك دافعت عن شيء ما في حياتك!*

قال وينستون: "تنوّع مواهب تشرشل هو أكثر ما كان يلفت انتباه إدموند. فمن النادر أن يُظهر البشر كفاءتهم في هذا الطيف الواسع من الأنشطة".

"ألهذا السبب أطلق عليك إدموند اسم وينستون؟".

أجاب الكمبيوتر: "بالفعل، وكان ذلك ثناءً عظيماً من جانب إدموند".

أنا مسرور لأنّني سألت. فقد كان يعتقد أنّ اسم وينستون كان إشارة إلى واتسون، أي كمبيوتر IBM الذي سيطر على *جيوباردي!* وهو برنامج ألعاب تلفزيوني كان يُعرض منذ عقد من الزمن. لا شكّ في أنّ واتسون يُعتبر الآن بدائياً؛ شأنه شأن باكتيريا بدائية أحادية الخلية على سلّم تطوّر الذكاء الاصطناعي.

قال لانغدون مشيراً إلى المصاعد: "حسناً إذاً، فلنصعد إلى الأعلى لنحاول العثور على ما أتينا من أجله".

في تلك اللحظة بالذات، داخل كاتدرائية ألمودينا في مدريد، كان القائد دييغو غارزا يحمل هاتفه ويصغي غير مصدّق إلى منسّقة العلاقات العامّة في القصر، مونيكا مارتن، وهي تزوّده بآخر الأخبار.

هل غادر فالديسبينو والأمير جوليان أمان المجمّع!؟

لم يستطع أن يتخيّل دوافعهما بأيّ شكل من الأشكال.

هل يتجوّلان حول مدريد بسيّارة مساعد كاهن؟ هذا جنون مطبق!

قالت مارتن: "يمكننا الاتّصال بسلطات النقل. إذ يعتقد سوريش أنّهم يستطيعون استخدام كاميرات المرور للمساعدة في تعقّبهما–"

فقال غارزا: "كلّا! فتنبيه أيّ شخص إلى حقيقة أنّ الأمير موجود خارج القصر من دون تدابير أمنية أمر خطير للغاية! سلامة سموّه همّنا الأوّل".

قالت مارتن وقد بدا عليها اضطراب مفاجئ: "فهمت سيّدي. ثمّة أمر آخر عليك معرفته، ويتعلّق بسجل هاتفي مفقود".

"مهلاً". طلب منها غارزا الانتظار بسبب وصول عناصر الحرس الملكي الأربعة الذين قاموا بتطويقه فجأة. وقبل أن يأتي غارزا بأيّ ردّ فعل، جرّده العملاء ببراعة من هاتفه وسلاحه.

قال عميله الأوّل بملامح جامدة كالصخر: "حضرة القائد غارزا، لديّ أوامر مباشرة باعتقالك".

الفصل 52

بُني كازا ميلا على شكل علامة اللانهاية، وذلك في منحنى متواصل ينطوي على نفسه، ويشكّل هوّتين متموّجتين تخترقان المبنى. يبلغ عمق كلّ من هذين المنورين المفتوحَين نحو مائة قدم، ويشبهان بتموّجهما أنبوبين انهارا جزئيّاً. أمّا من الجوّ، فيبدوان أشبه ببالوعتين هائلتين في سقف المبنى.

من حيث وقف لانغدون أسفل المنور الأضيق مساحة، كان تأثير النظر إلى السماء يبعث حتماً على الاضطراب، كمن يقف في حلق وحش عملاق.

تحت قدميه، كانت الأرض الحجرية منحدرة وغير مستوية. ارتفع سلّم حلزوني داخل المنور، وكان درابزينه مصنوعاً من الحديد المطاوع المصمّم بدقّة بالغة، والذي يُحاكي التجاويف متفاوتة الحجم لإسفنجة بحر. تدلّت غابة صغيرة من العرائش الملتفّة والنباتات من فوق الدرابزين، وبدت وكأنّها على وشك أن تطغى على المكان بأكمله.

هندسة معمارية حيّة. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يتأمّل بإعجاب قدرة غاودي على صبغ أعماله بطابع بيولوجي تقريباً.

نظر إلى الأعلى مجدّداً، إلى سفوح "المضيق"، وتأمّل الجدران المنحنية التي اختلط فيها مزيج من البلاط البنّي والأخضر مع لوحات جدارية تصوّر النباتات والأزهار التي تبدو كأنّها تنمو لتصل إلى البقعة المستطيلة من سماء الليل في أعلى المنور المفتوح.

همست أمبرا: "المصاعد من هنا". وقادته حول أطراف الباحة. "تقع شقّة إدموند في الطابق الأعلى من المبنى".

وبينما كانا يستقلّان المصعد الصغير المريح، راح لانغدون يتخيّل تقسيم الطابق العلوي الذي زاره مرّة لرؤية معرض غاودي الصغير الموجود هناك. كما يذكر، كانت علّية كازا ميلا مظلمة، وتضمّ سلسلة متعرّجة من الغرف مع عدد قليل جداً من النوافذ.

قال لانغدون عندما بدأ المصعد رحلته: "كان باستطاعة إدموند العيش في أيّ مكان. ما زلت لا أصدّق أنّه استأجر علّية!".

فقالت أمبرا: "إنّها شقّة غريبة. لكن كما تعلم، كان إدموند غريب الأطوار

وعندما وصل المصعد إلى الطابق العلوي، خرجا منه إلى مدخل أنيق، وصعدا عدداً آخر من الدرجات المتعرّجة وصولاً إلى ردهة خاصّة في أعلى المبنى.

قالت أمبرا مشيرة إلى باب معدني أملس ليس مزوّداً بمقبض أو ثقب مفتاح: "ها نحن ذا". بدت البوّابة ذات الطابع المستقبلي غير مناسبة على الإطلاق لهذا المبنى، ومن الواضح أنّ إدموند هو الذي أضافها.

سألها: "هل قلتِ إنّك تعرفين أين يخبّئ مفاتيحه؟".

فرفعت أمبرا هاتف إدموند وأجابت: "في المكان نفسه الذي يخبّئ فيه كلّ شيء كما يبدو".

ثم ضغطت الهاتف على الباب المعدني، فصدرت عنه ثلاث رنّات، وسمع لانغدون سلسلة من الأقفال التي تُفتح. بعد ذلك، دسّت أمبرا الهاتف في جيبها ودفعت الباب.

وقالت مبتسمة: "تفضّل".

دخل لانغدون إلى بهو خافت الإضاءة، اكتست جدرانه وسقفه بالطوب الشاحب. كانت الأرض حجرية والهواء رقيقاً.

وأثناء انتقاله من البهو إلى القاعة المفتوحة وراءه، وجد نفسه وجهاً لوجه مع لوحة ضخمة عُلِّقت على الجدار الخلفي، وكانت مضاءة بمصابيح صغيرة مخصّصة للمتاحف.

عندما رأى اللوحة، جمد في مكانه. "ربّاه، أهذه... الأصلية؟".

فابتسمت أمبرا. "أجل، كنت سأخبرك بذلك على متن الطائرة، ولكنّني قرّرت أن أتركها مفاجأة لك".

اقترب من اللوحة عاجزاً عن الكلام. كانت بعرض اثنتي عشرة قدماً تقريباً، ويزيد ارتفاعها عن أربع أقدام، أي أكبر بكثير ممّا يذكر عندما رآها في متحف بوسطن للفنون الجميلة. *سمعتُ أنّه تمّ بيع هذه اللوحة إلى جامع تحف مجهول، ولكنّني لم أكن أعرف أنّه إدموند!*

قالت أمبرا: "عندما رأيتُ هذه اللوحة للمرّة الأولى في الشقّة، لم أصدّق أنّ إدموند يتذوّق هذا النمط الفنّي. لكن، بعدما عرفت الآن ما كان يعمل عليه هذا العام، أصبحت اللوحة تبدو مناسبة تماماً".

أومأ لانغدون برأسه موافقاً ومصدوماً في آن واحد.

كانت هذه التحفة الشهيرة أحد الأعمال التي تحمل توقيع الفنّان الفرنسي ما بعد الانطباعي بول غوغان؛ وهو رسّام رائد جسّد الحركة الرمزية التي سادت في أواخر القرن التاسع عشر، وساعد في تمهيد الطريق للفنّ الحديث.

عندما اقترب لانغدون من اللوحة، لاحظ على الفور مدى شبه ألوان غوغان بألوان مدخل كازا ميلا، بمزيجه من التدرّجات الخضراء والبنّية والزرقاء العضوية، فضلاً عن المشهد الطبيعي جدّاً الذي تصوّره.

على الرغم من المجموعة الكبيرة من الأشخاص والحيوانات التي تظهر في لوحة غوغان، انتقل نظر لانغدون على الفور إلى الزاوية العلوية اليسرى. وهناك، رأى بقعة صفراء ساطعة حملت عنوان العمل.

قرأ لانغدون الكلمات غير مصدّق. *D'où Venons Nous / Que Sommes Nous / Où Allons Nous*.

من أين أتينا؟ ما نحن؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

تساءل لانغدون عمّا إذا كانت مواجهة هذه الأسئلة كلّ يوم بعد العودة إلى البيت قد ساعدت بشكل من الأشكال على إلهام إدموند.

وقفت أمبرا إلى جانبه أمام اللوحة. "قال إدموند إنّه أراد أن تكون هذه الأسئلة حافزاً له كلّما دخل منزله".

فكّر لانغدون في سرّه: *من الصعب أن تفوته.*

نظراً للاهتمام الذي خصّصه إدموند لطريقة عرض هذه التحفة، تساءل لانغدون عمّا إذا كانت اللوحة نفسها تحمل مفتاحاً ما يساعد على الوصول إلى ما اكتشفه إدموند. للوهلة الأولى، بدا موضوعها بدائياً جدّاً ليشير إلى اكتشاف علمي متقدّم. إذ تصوّر ضربات الفرشاة العريضة وغير المستوية غابة تاهيتية تقطنها مجموعة من التاهيتيين والحيوانات.

كان لانغدون يعرف اللوحة جيّداً، وكما يذكر، أراد غوغان أن "تُقرأ" من اليمين إلى اليسار، بالاتّجاه المعاكس للنصّ الفرنسي القياسي. وهكذا، مرّ نظره بسرعة على الأشكال المألوفة بالاتّجاه المعاكس.

إلى أقصى اليمين، ينام مولود على صخرة، ويمثّل بداية الحياة. *من أين أتينا؟*

في الوسط، تضمّ اللوحة مجموعة من الأشخاص من مختلف الأعمار يقومون بأنشطة يومية. *ما نحن؟*

أمّا إلى اليسار، فتجلس امرأة عجوز مقعدة بمفردها، مستغرقة في التفكير، وتبدو أنّها تفكّر في موتها الوشيك. *إلى أين نحن ذاهبون؟*

استغرب لانغدون لأنّه لم يفكّر في هذه اللوحة على الفور عندما وصف إدموند للمرّة الأولى موضوع اكتشافه. *ما أصلنا؟ ما مصيرنا؟*

تأمّل لانغدون بقيّة عناصر اللوحة: كلاب وقططة وطيور لا يبدو أنّها تفعل شيئاً معيّناً، تمثال آلهة بدائي في خلفية اللوحة، جبل وجذور وأشجار. وبالطبع، "الطائر الأبيض الغريب" الشهير في أعمال غوغان، الجالس إلى جانب المرأة العجوز، والذي يمثّل بحسب الفنّان، "عبثية الكلمات".

فكّر لانغدون في سره: *سواء أكانت عبثية أم لا، فالكلمات هي ما أتينا من أجله. ويستحسن أن يكون مجموعها سبعة وأربعين حرفاً.*

للحظة، تساءل عما إذا كان عنوان اللوحة غير الاعتيادي مرتبطاً مباشرة بكلمة السرّ المؤلّفة من سبعة وأربعين حرفاً. ولكنه عندما قام بعدّ أحرف الجملتين الفرنسية والإنكليزية، لم يحصل على المجموع المطلوب.

قال لانغدون: "حسناً، نحن نبحث عن بيت شعر".

قالت أمبرا: "مكتبة إدموند من هنا". وأشارت إلى اليسار، عبر ممرّ عريض لاحظ لانغدون أنّه يضمّ مفروشات منزلية أنيقة تتخلّلها تحف ومعروضات متناسبة معها لغاودي.

هل كان إدموند يعيش في متحف!؟ ما زال عاجزاً عن استيعاب ذلك. فالدور العلوي من كازا ميلا لم يكن بالضبط بيتاً مريحاً، فهو مبنيّ بالكامل من الحجر والطوب، وهو أساساً نفق مضلّع متواصل، يشكّل حلقة من 270 قوساً متكافئة ومتفاوتة الارتفاعات، تفصل مسافة ياردة تقريباً بين كلّ منها. كما كان عدد النوافذ قليلاً جدّاً، والهواء جافّاً ومعقّماً، ومن الواضح أنّه معالج بقوّة لحماية تحف غاودي.

قال لانغدون: "سأنضمّ إليك بعد قليل. أوّلاً، أودّ زيارة حمّام إدموند".

فنظرت أمبرا بارتباك إلى المدخل مجدّداً. "كان إدموند يطلب منّي دائماً استخدام حمّام البهو في الطابق السفلي... فقد كان حمائياً على نحو غامض تجاه حمّام شقّته الخاصّ".

"إنّها شقّة عازب، ولا شكّ في أنّ حمّامه في حالة من الفوضى، وكان هذا يسبّب له الإحراج".

ابتسمت أمبرا قائلة: "حسناً، أعتقد ذلك". ثمّ أشارت بالاتّجاه المعاكس للمكتبة، عبر نفق مظلم جدّاً.

"شكراً، سأعود حالاً".

توجّهت أمبرا إلى مكتب إدموند، فيما ذهب لانغدون بالاتّجاه المعاكس، وشقّ طريقه عبر ممرّ ضيّق كان عبارة عن نفق دراماتيكي من قناطر الطوب التي ذكّرته بمغارة تحت الأرض أو سرداب من القرون الوسطى. بينما كان يسير عبر النفق، أضيئت تلقائياً مصابيح حسّاسة تجاه الحركة عند قاعدة كلّ قنطرة من القناطر، وأنارت طريقه.

مرّ لانغدون بغرفة أنيقة مخصّصة للقراءة، وغرفة رياضة صغيرة، وحتّى بغرفة للمؤن، وجميعها تتخلّلها طاولات عرض متنوّعة لرسوم غاودي وتصاميمه المعمارية ونماذج ثلاثية الأبعاد لمشاريعه.

لكن، عندما مرّ بطاولة عرض مضيئة للقطع الأثرية البيولوجية، توقّف وقد فوجئ بمحتوياتها: أحفور سمكة من حقبة ما قبل التاريخ، وصدفة نوتيلوس جميلة، وهيكل

عظمي لأفعى. للحظة عابرة، تخيّل لانغدون أنّ إدموند قد جهّز هذا العرض العلمي بنفسه، وربّما كان يتعمّق بدراساته عن أصول الحياة. ثمّ رأى الشرح المرفق بالقطع الأثرية، وأدرك أنّها تنتمي لغاودي، وتشبه مختلف السمات المعمارية لهذا المنزل: حراشف السمكة هي الرسوم على بلاط الجدران، والنوتيلوس يشبه المنحدر اللولبي المؤدّي إلى المرأب، أمّا هيكل الأفعى العظمي بمئات الأضلاع التي يضمّها فيشبه هذا الرواق نفسه.

رافقت المجموعة كلمات متواضعة للمهندس المعماري:

لم أخترع شيئاً، بل كلّه مكتوب في الطبيعة أوّلاً.
فالأصالة تقوم على العودة إلى الأصل.

– أنطوني غاودي

التفت لانغدون إلى الممرّ الملتوي الذي تعلوه قناطر كالأضلاع، وشعر مجدّداً كما لو أنّه يقف داخل مخلوق حيّ.

منزل مثالي لإدموند. فنّ مستلهم من العلم.

وبينما كان لانغدون يتبع أوّل انحناء في النفق الملتوي، اتّسع الرواق، وأضيئت المصابيح المنشّطة بالحركة. فاتّجه نظره فوراً إلى صندوق عرض زجاجي ضخم في وسط القاعة.

نموذج سلسلي. كان لانغدون يُعجَب دائماً بهذه النماذج البارعة التي صمّمها غاودي. وكانت كلمة "سلسلي" تشير إلى المنحنى الذي يشكّله الحبل المعلّق بشكل مرتخٍ بين نقطتين ثابتتين، مثل الأرجوحة أو الحبل المخملي المعلّق بين عمودين في المسرح.

في النموذج السلسلي أمام لانغدون، عُلِّقت عشرات السلاسل بشكل مرتخٍ من أعلى الصندوق، مُشكِّلة خطوطاً طويلة تنخفض إلى الأمام ثمّ تعود إلى الأعلى على شكل حرف "U" معلّق. وبما أنّ قوّة شدّ الجاذبية هي عكس قوّة ضغط الجاذبية، استطاع غاودي أن يدرس الشكل الدقيق الذي تتّخذه السلسلة عندما تتدلّى بشكل طبيعي تحت تأثير وزنها، وأن يقلّد ذلك الشكل لحلّ التحدّيات المعمارية لضغط الجاذبية.

لكنّ الأمر يحتاج إلى مرآة سحرية. قال لانغدون ذلك لنفسه وهو يقترب من الصندوق. وكما توقّع، كانت أرض الصندوق عبارة عن مرآة. وعندما حدّق إلى الانعكاس، رأى تأثيراً سحرياً. فقد انقلب النموذج بأكمله رأساً على عقب، وتحوّلت الحلقات المتدلّية إلى أبراج شاهقة.

أدرك لانغدون أنّه كان يرى في هذا الصندوق مشهداً جوّياً معكوساً لبازيليك ساغرادا فاميليا بأبراجها الشاهقة، والتي قام غاودي بتصميم أبراجها تلك على الأرجح مستخدماً هذا النموذج نفسه.

تابع طريقه عبر القاعة، ليجد نفسه في غرفة نوم أنيقة مجهّزة بسرير أثري ذي أربعة أعمدة، وخزانة من خشب الكرز، وخزانة أدراج مرصّعة. وكانت الجدران مزيّنة برسوم لتصاميم غاودي، عرف لانغدون أنّها من معروضات المتحف ببساطة.

القطعة الفنّية الوحيدة في الغرفة التي يبدو أنّها أضيفت إليها، كانت جملة مكتوبة بالأحرف الكبيرة معلّقة فوق سرير إدموند. قرأ لانغدون الكلمات الثلاث الأولى، وعرف صاحبها على الفور، نيتشه.

كانت عبارة تضمّ الكلمات الثلاث الأكثر شهرة التي كتبها فريدريك نيتشه، الفيلسوف والملحد الألماني الشهير الذي عاش في القرن التاسع عشر. كان نيتشه معروفاً بانتقاداته اللاذعة للدين، وكذلك بأفكاره حول العلوم، لا سيّما التطوّر. وكان يعتقد أنّ العلم نقل البشرية إلى شفير العدمية، وهو وعي أنّ الحياة بلا معنى وبلا هدف أسمى.

عندما رأى لانغدون المقولة معلّقة فوق السرير، تساءل عمّا إذا كان إدموند، على الرغم من كلّ مزاعمه المناهضة للإيمان، يكافح مع دوره في محاولة تخليص العالم.

وبينما كان لانغدون يتأمّل في تلك الفكرة، خطرت بباله فكرة أخرى.

لم يكن نيتشه مجرّد فيلسوف، بل كان شاعراً أيضاً.

كان لانغدون نفسه يملك كتاب نيتشه *الطاووس والثور*، والذي يضمّ مجموعة من 275 قصيدة ومقولة تتضمّن أفكاراً عن الله، والموت، والعقل البشري.

قام بسرعة بعدّ الأحرف التي تتضمّنها المقولة المعلّقة فوق السرير. غير أنّ عددها لم يكن بعدد أحرف كلمة السرّ. ومع ذلك، تضاعف الأمل لديه. *هل يمكن أن يكون نيتشه هو الشاعر الذي نبحث عنه؟ في هذه الحالة، هل سنجد ديواناً لنيتشه في مكتب إدموند؟* على أيّ حال، سيطلب لانغدون من وينستون دخول مجموعة قصائد نيتشه على الشبكة والبحث عن بيت مؤلّف من سبعة وأربعين حرفاً.

أراد العودة بأسرع ما يمكن إلى أمبرا لإطلاعها على أفكاره تلك، فسارع بعبور غرفة النوم إلى الحمّام الذي كان يقع وراءها.

وما إن دخل حتّى أضيئت المصابيح، ليجد نفسه في حمّام أنيق يحتوي على مغسلة، وحجرة استحمام زجاجية، ومرحاض.

على الفور، وقع نظر لانغدون على طاولة منخفضة قديمة محمّلة بمستحضرات الاستحمام وأشياء شخصية أخرى. عندما رآها، شهق وتراجع خطوة إلى الخلف.

ربّاه، إدموند... كلّا.

كانت الطاولة الموجودة أمامه أشبه بمختبر مخدّرات في أحد الأزقّة الفقيرة: حقن مستعملة، زجاجات، أقراص، كبسولات مفتوحة، وحتّى خرقة ملوّثة بالدم.

شعر أنّ قلبه يغوص بين أضلاعه.

هل كان إدموند يتعاطى المخدّرات؟

كان لانغدون يعرف أنّ الإدمان الكيميائي أصبح كثير الشيوع هذه الأيّام، حتّى بين الأثرياء والمشاهير. فقد بات الهيروين أرخص من المشروبات، والناس يتعاطون المسكّنات الأفيونية كما لو كانت أدوية صداع.

الإدمان يفسّر بالتأكيد سبب خسارته الكبيرة للوزن مؤخّراً. تساءل عمّا إذا كان إدموند قد ادّعى أنّه أصبح نباتياً ليحاول التغطية على نحوله وعينيه الغارقتين. ذهب لانغدون إلى الطاولة، وتناول إحدى الزجاجات، ثمّ قرأ ملصق الوصفة متوقّعاً أن يكون أحد أدوية الأفيون الشائعة، مثل أوكسيكونتين أو بيركوسيت.

ولكن عوضاً عن ذلك كُتب على الزجاجة: *دوسيتاكسيل*.

استغرب لانغدون وتحقّق من زجاجة أخرى: *جيمسيتابين*.

راح يتساءل وهو يتناول زجاجة ثالثة: *ما هذه؟ فليوروراسيل*.

تجمّد في مكانه من هول الصدمة. كان قد سمع عن هذا الدواء من خلال زميل له في هارفارد، وشعر بموجة خوف مفاجئة. بعد لحظة، رأى كتيّباً بين الزجاجات. كان عنوان الكتيّب "هل يُبطئ النظام النباتي تقّم سرطان البانكرياس؟".

فغر لانغدون فاه دهشة بعد أن تجلّت له الحقيقة فجأة.

لم يكن إدموند مدمناً على المخدّرات، بل كان يكافح سرّاً سرطاناً قاتلاً.

الفصل 53

وقفت أمبرا فيدال في الضوء الخافت للشقّة، وجالت بناظريها على رفوف الكتب المصطفّة على جدران مكتبة إدموند.

مجموعته أكبر ممّا أذكر.

كان إدموند قد حوّل جزءاً كبيراً من الرواق المقوّس إلى مكتبة هائلة من خلال إضافة رفوف بين الدعائم العمودية لقناطر غاودي. وكانت مكتبته كبيرة على نحو غير متوقّع ومجهّزة جيّداً، لا سيّما بالنظر إلى أنّه كان ينوي الإقامة هنا لعامين فقط، على حدّ زعمه.

يبدو كما لو أنّه انتقل إلى هنا نهائياً.

تأمّلت أمبرا الرفوف المزدحمة بالكتب، وأدركت أنّ العثور على بيت الشعر المفضّل لدى إدموند سيستغرق وقتاً أطول بكثير ممّا توقّعت. وبينما راحت تمشي أمام الرفوف وتقرأ عناوين الكتب، لم تر شيئاً سوى المجلّدات العلمية حول علم الكونيات، والوعي، والذكاء الاصطناعي:

الصورة الكبيرة

قوى الطبيعة

أصول الوعي

علم أحياء الاعتقاد

الخوارزميات الذكية

اختراعنا النهائي

وصلت إلى نهاية أحد الأقسام، وانعطفت حول قنطرة معمارية إلى الجزء التالي من الرفوف. وجدت هناك مجموعة واسعة من المواضيع العلمية: الديناميكا الحرارية، الكيمياء البدائية، علم النفس.

ما من دواوين شعرية هنا.

لاحظت أنّ وينستون صامت منذ بعض الوقت، فأخرجت هاتف كيرش. "وينستون، أما زلنا على اتّصال؟".

أتاها صوته قائلاً: "أنا هنا".

"هل قرأ إدموند حقاً كلّ هذه الكتب الموجودة في مكتبته؟".

أجاب وينستون: "أعتقد ذلك، نعم. فقد كان قارئاً نهماً، وكان يُسمّي هذه المكتبة غنائم المعرفة".

"وهل ثمّة قسم للشعر هنا بالمصادفة؟".

"العناوين الوحيدة التي أعلم بها هي الكتب غير الروائية التي طُلِب منّي قراءتها على شكل كتاب إلكتروني لكي نتمكّن أنا وإدموند من مناقشة محتوياتها، وكان ذلك حسبما أعتقد تمريناً من أجل تعليمي أنا. لكن مع الأسف، لا أملك هذه المجموعة بأكملها، والطريقة الوحيدة لتجدي ما تبحثين عنه هي إجراء بحث فعلي".

"فهمت".

"بينما تقومين بالبحث، ثمّة أمر أعتقد أنّه قد يهمّك، وهو خبر عاجل من مدريد يتعلّق بخطيبك، الأمير جوليان".

توقّفت أمبرا فجأة وسألته: "ماذا يجري؟".

كانت مشاعرها لا تزال متقلّبة حيال إمكانيّة تورّط جوليان في اغتيال كيرش. ذكّرت نفسها: *ما من دليل على ذلك. لا شيء يؤكّد أنّ جوليان ساعد على إضافة اسم أفيلا إلى قائمة المدعوّين.*

قال وينستون: "ورد للتوّ عن وسائل الإعلام أنّ تظاهرة صاخبة تتشكّل أمام القصر الملكي. إذ لا تزال الأدلّة تشير إلى أنّ اغتيال إدموند قد تمّ ترتيبه سرّاً من قبل الأسقف فالديسبينو، وربّما بمساعدة شخص من داخل القصر، قد يكون الأمير نفسه. والآن، بدأ محبّو كيرش يتوافدون إلى هناك. ألقي نظرة".

بدأ هاتف إدموند الذكيّ يعرض لقطات لمتظاهرين غاضبين أمام بوّابات القصر. كان أحدهم يحمل لافتة كُتب عليها: *لقد قتلتم مُلهمنا!*

وكان آخرون يحملون ملاءات أسرّة مطليّة بالرذاذ بصرخة معركة من كلمة واحدة – *¡APOSTASÍA!* – يرافقها رمز يتمّ طلاؤه بوتيرة متزايدة على أرصفة مدريد.



كانت الردّة قد أصبحت صرخة شعبية لشباب إسبانيا الليبراليين. *لا للكنيسة!*

سألته أمبرا: "ألم يدلِ جوليان بتصريح بعد؟".

"هذه واحدة من المشاكل. لم تصدر أيّ كلمة بعد عن جوليان، ولا عن الأسقف، ولا عن أيّ أحد على الإطلاق في القصر. وهذا الصمت المستمرّ يثير شكوك الجميع. فنظريّات المؤامرة تتفشّى، والصحافة الوطنية بدأت الآن تتساءل عن مكانك، وعن سبب عدم إدلائك بتعليق علني على هذه الأزمة أيضاً".

ذُعِرت أمبرا من تلك الفكرة. "أنا؟".

"لقد كنتِ شاهدة على الجريمة، كما أنك الملكة المرتقبة، وحبّ حياة الأمير جوليان. وعامّة الشعب يريدون أن يسمعوك وأنت تقولين إنّك واثقة من أنّ جوليان ليس متورّطاً".

في الواقع، أنبأها حدسها بأنّ جوليان لا يمكن أن يكون على علم مسبق بمقتل إدموند. فحين تفكّر بفترة تعارفهما، تتذكر رجلاً رقيقاً وصادقاً. قد يكون بسيطاً ومندفعاً في رومنسيّته ربّما، ولكنّه بالتأكيد ليس قاتلاً.

قال وينستون: "وتَظهر أسئلة مشابهة حول البروفيسور لانغدون الآن. فقد بدأت وسائل الإعلام تتساءل عن سبب اختفاء البروفيسور من دون أيّ تعليق، لا سيّما بعد ظهوره البارز في العرض الذي قدّمه إدموند. وتشير عدّة مدوّنات تابعة لفكر المؤامرة أنّ اختفاءه قد يكون مرتبطاً بتورّطه في اغتيال كيرش".

"لكنّ هذا جنون مطبق!".

"هذا الموضوع يزداد جاذبية. وتنبع النظريّة من بحث لانغدون السابق عن الكأس المقدّسة وسلالة المسيح. فعلى ما يبدو، يملك أحفاد المسيح الساليون روابط تاريخية بالحركة الكارلية ووشم القاتل-"

قاطعته أمبرا: "مهلاً، هذا سخيف".

"فيما يتكهّن آخرون أنّ لانغدون اختفى لأنّه أصبح هو نفسه هدفاً هذه الليلة. لقد أصبح الجميع محقّقين هذه الليلة. فكثيرون في العالم يتعاونون في هذه اللحظة لمعرفة السرّ الذي اكتشفه إدموند... ومن يريد إسكاته".

سمعت أمبرا وقع خطوات لانغدون وهي تقترب بسرعة عبر الرواق الملتوي، فالتفتت في اللحظة التي ظهر فيها عند الزاوية.

ناداها بصوت متوتّر: "أمبرا، هل كنت على علم بأنّ إدموند يعاني من مرض خطير؟".

أجابت باستغراب: "مرض خطير! كلّا".

أخبرها بما وجده في حمّام إدموند الخاصّ، فذُهِلت تماماً.

سرطان بانكرياس! ألهذا السبب كان إدموند شاحباً ونحيلاً؟

من الغريب أنّ إدموند لم يقل شيئاً على الإطلاق عن مرضه. الآن فهمت أمبرا سبب وتيرة عمله المحمومة خلال الأشهر القليلة الماضية. *كان يعرف أنّ الوقت ينفد.*

سألت وينستون: "وينستون، هل كنت على علم بمرض إدموند؟".

أجاب وينستون بلا تردّد: "أجل، لقد أبقى هذا الموضوع طيّ الكتمان. لقد عرف بمرضه منذ اثنين وعشرين شهراً، وغيّر نظامه الغذائي على الفور، ثمّ بدأ يعمل بكثافة متزايدة، كما انتقل إلى هذه الشقّة ليستفيد من نوعيّة هواء المتحف، ويقي نفسه من الأشعة ما فوق البنفسجية. كان بحاجة إلى العيش في الظلام قدر الإمكان لأنّ أدويته جعلته حسّاساً على الضوء. وقد تمكّن إدموند من العيش لمدّة تتجاوز توقّعات الأطبّاء بفارق كبير. ولكنّه مؤخّراً بدأ يتراجع. واستناداً إلى الأدلّة التجريبية التي جمعتها من قواعد البيانات حول العالم عن سرطان البانكرياس، قمت بتحليل تدهور صحّة إدموند وتوصّلت إلى أنّ أمامه تسعة أيّام للعيش".

تسعة أيّام، شعرت أمبرا بالذنب لإغاظتها إدموند حول نظامه الغذائي وعمله المكثّف. لقد كان الرجل مريضاً. *كان يكافح بلا كلل لتحقيق لحظة المجد الأخيرة قبل أن ينفد منه الوقت*. هذه الفكرة المحزنة ضاعفت من تصميم أمبرا على إيجاد تلك القصيدة وإتمام ما بدأه إدموند.

قالت للانغدون: "لم أعثر بعد على أيّ دواوين شعرية. كلّها كتب علمية حتّى الآن".

"أعتقد أنّ الشاعر الذي نبحث عنه قد يكون فريدريك نيتشه". وراح يخبرها عن المقولة المعلّقة فوق سرير إدموند. "تلك المقولة بالتحديد ليست مؤلّفة من سبعة وأربعين حرفاً، ولكنّها تشير بالتأكيد إلى أنّ إدموند كان من محبّي نيتشه".

قالت أمبرا: "وينستون، هلّا بحثتَ في أعمال نيتشه الشعرية وعزلتَ الأبيات المؤلّفة من سبعة وأربعين حرفاً بالضبط؟".

أجاب وينستون: "بكلّ تأكيد. هل تريدان الأبيات الأصلية الألمانية أم الترجمات الإنكليزية؟".

صمتت أمبرا متردّدة.

قال لانغدون: "ابدأ بالإنجليزية. فقد خطّط إدموند لإدخال بيت الشعر بواسطة هاتفه، ولن يكون من السهل عليه استخدام أحرف اللغة الألمانية".

أومأت أمبرا برأسها موافقة. *فكرة ذكية*.

أعلن وينستون على الفور تقريباً: "لقد حصلت على النتائج. عثرت تقريباً على ثلاثمائة قصيدة مترجمة، تتضمّن مائة واثنين وتسعين بيتاً مؤلّفاً من سبعة وأربعين حرفاً بالضبط".

تنهّد لانغدون يائساً: "كلّ هذا؟".

ألحّت عليه أمبرا قائلة: "وينستون، لقد وصف إدموند بيته الشعري المفضّل على أنّه توقّع... توقّع خيال المستقبل... توقّع بدأ يتحقّق أساساً. هل ترى شيئاً بين تلك الأبيات يناسب هذا الوصف؟".

أجاب وينستون: "أنا آسف، لكنّني لا أرى شيئاً يمكن وصفه على أنّه توقّع مستقبليّ. فمن الناحية اللغوية، كلّ الأبيات المعنيّة مأخوذة من قصائد أطول وتبدو أفكاراً مجتزأة. هل أعرضها عليكما؟".

قال لانغدون: "عددها كبير جدّاً. نحن بحاجة إلى العثور على كتاب ورقي، وآمل أن يكون إدموند قد حدّد فيه البيت المفضّل لديه بطريقة أو بأخرى".

قال وينستون: "إذاً، أقترح عليكما أن تسرعا. إذ يبدو أنّ وجودكما هنا لم يعد سرّاً".

سأله لانغدون: "لماذا تقول ذلك؟".

"بحسب الأنباء المحلّية، هبطت طائرة عسكرية للتوّ في مطار إل برات في برشلونة، وترجّل منها اثنان من عناصر الحرس الملكي".

في ضواحي مدريد، كان الأسقف فالديسبينو يشعر بالامتنان لفراره من القصر قبل أن تُغلَق الأسوار عليه. جلس إلى جانب الأمير جوليان على المقعد الخلفي لسيّارة الأوبل سيدان التي يملكها مساعده، وأمل أن تساعده التدابير اليائسة التي يتمّ اتّخاذها من وراء الكواليس على استعادة السيطرة على الأمور، في هذه الليلة التي خرجت تماماً عن المسار المخطّط له.

أمر فالديسبينو مساعده الذي كان يقودهما بعيداً عن القصر قائلاً: "لا كازيتا ديل برينسيبي".

كان منزل الأمير يقع في منطقة ريفية تبعد أربعين دقيقة عن مدريد. وهذا المنزل الذي كان أقرب إلى قصر يشكّل منزلاً خاصّاً لوليّ عهد إسبانيا منذ أواسط القرن الثامن عشر، وخُصّص ليعيش فيه شبابه قبل أن يتولّى مهمّة إدارة البلاد الجادّة. كان فالديسبينو قد أكّد لجوليان أنّ الذهاب إلى منزله أكثر أماناً بكثير من البقاء في القصر هذه الليلة.

لكنّني لن أصطحب جوليان إلى ذلك المنزل. فكّر الأسقف بذلك وهو ينظر إلى الأمير الذي كان يحدّق من النافذة غارقاً في أفكاره.

تساءل فالديسبينو عمّا إذا كان الأمير ساذجاً حقّاً بقدر ما يبدو، أم أنّه- مثل أبيه- يُتقن مهارة إظهار هذا الجانب وحسب من نفسه للعالم.

الفصل 54

شعر غارزا أنّ الأصفاد التي تقيّد معصميه مشدودة الوثاق بلا داعٍ.

هؤلاء الرجال جادّون. هذا ما فكّر به وهو لا يزال محتاراً من سلوك عملائه.

سألهم غارزا مجدّداً وهم يقودونه إلى خارج الكاتدرائية، إلى الساحة المظلمة: "لكن، ما الذي يجري!؟".

غير أنّه لم يحصل على جواب هذه المرّة أيضاً.

وبينما كانت المجموعة تسير في الساحة الواسعة باتّجاه القصر، أدرك غارزا وجود عدد من كاميرات التلفزيون والمتظاهرين خارج البوّابة الأمامية.

قال لرئيس عملائه: "على الأقلّ، اصطحبوني من الباب الخلفي، ولا تحوّلوا ذلك إلى مشهد عامّ".

غير أن الجنود تجاهلوا نداءه وحثّوا الخطى، مجبرين إيّاه على السير مباشرة عبر الساحة. خلال ثوانٍ، بدأت الأصوات تصيح من خارج البوّابة، وأضواء الكاميرات تسلّط عليه. أبهره الضوء وسيطر عليه الغضب، غير أنّه أجبر نفسه على التزام الهدوء، ورفع رأسه عالياً بينما اقتاده الحرس الملكي مروراً بالبوّابة مباشرة من أمام المصوّرين والمراسلين الذين يصيحون.

بدأت الأصوات الصاخبة تطرح الأسئلة على غارزا.

"لماذا يتمّ توقيفك؟".

"ماذا فعلت أيّها القائد؟".

"هل أنت متورّط في اغتيال إدموند كيرش؟".

توقّع غارزا أن يتابع العملاء طريقهم من أمام الحشد من دون أن يولوه أيّ نظرة. لكنّه صُدِم تماماً حين توقّف العملاء فجأة، وأوقفوه أمام الكاميرات. من جهة القصر، رأى فتاة ترتدي سروالاً تعبر الساحة باتّجاههما بخطى سريعة.

كانت مونيكا مارتن.

لم يكن لدى غارزا أيّ شكّ في أنّها ستُصدَم حين ترى المأزق الذي يقع فيه.

لكنّ الغريب أنّ مارتن لم ترمقه باستغراب عندما وصلت، بل بازدراء. أمّا الحرس، فأجبروا غارزا على مواجهة الصحفيين.

رفعت مونيكا مارتن يدها لتهدئة الحشود، ثمّ أخرجت ورقة صغيرة من جيبها. عدّلت نظّارتها، وقرأت بياناً مباشراً أمام كاميرات التلفاز.

أعلنت قائلة: "إنّ القصر الملكي يعتقل القائد دييغو غارزا بسبب دوره في مقتل إدموند كيرش، ومحاولاته توريط الأسقف فالديسبينو في تلك الجريمة".

وقبل أن يتمكّن غارزا من استيعاب الاتّهام العجيب، بدأ الحرّاس يدفعونه نحو القصر. ومع انصرافه، سمع مونيكا مارتن تتابع بيانها.

أعلنت قائلة: "في ما يتعلّق بالملكة المستقبلية أمبرا فيدال والبروفيسور روبرت لانغدون، أخشى أنّ الأنباء التي لديّ مزعجة للغاية".

في الطابق السفلي من القصر، وقف مدير الأمن الإلكتروني سوريش بهالا أمام التلفاز، وقد شدّه البثّ الحيّ للمؤتمر الصحفي المرتجل الذي قامت به مونيكا مارتن في الساحة.

لا يبدو عليها السرور.

قبل خمس دقائق وحسب، تلقّت مارتن اتّصالاً هاتفياً شخصياً استلمته في مكتبها، وأجابت بصوت خافت وهي تدوّن ملاحظات دقيقة. وبعد ستّين ثانية، خرجت وقد بدا عليها الاضطراب، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يراها فيها سوريش بهذه الحالة. من دون أيّ تفسير، حملت مارتن ملاحظاتها وخرجت مباشرة إلى الساحة، ثمّ توجّهت إلى وسائل الإعلام.

سواء أكانت تلك الادّعاءات دقيقة أم لا، ثمّة أمر واحد مؤكّد؛ وهو أنّ الشخص الذي أمر بإعطاء هذا التصريح وضع روبرت لانغدون في خطر محدق.

تساءل سوريش: *من الذي أعطى مونيكا تلك الأوامر؟*

وبينما كان يحاول استيعاب سلوك منسّقة العلاقات العامّة الغريب، رنّ جهاز الكمبيوتر برسالة واردة. فذهب إليه سوريش ونظر إلى الشاشة، وذُهِل تماماً عندما رأى من يكون المُرسل.

monte@iglesia.org

إنّه المُخبر.

الشخص نفسه الذي كان يغذّي ConspiracyNet بالمعلومات طوال الليل. والآن، لسبب ما، كان يتّصل بسوريش مباشرة.

جلس سوريش بحذر، وفتح الرسالة الإلكترونية.

كان نصّها كالتالي:

لقد اخترقتُ رسائل فالديسبينو.
لديه أسرار خطيرة.
على القصر دخول سجلّات رسائله النصّية.
فوراً.

قرأ سوريش الرسالة مرّة أخرى وقد تملّكه الذهول، ثمّ مسحها.

جلس صامتاً لوقت طويل، وراح يتأمّل في خياراته.

وأخيراً، توصّل إلى قرار، فأخرج بطاقة مفاتيح رئيسة للأجنحة الملكية، وصعد إلى الطابق العلوي خلسة.

الفصل 55

أخذ لانغدون يجول بنظره على مجموعة الكتب المصفوفة في ردهة إدموند بإلحاح متزايد.

شِعر... لا بدّ من وجود بعض الشعر هنا في مكان ما.

لقد أطلق وصول الحرس الملكي إلى برشلونة ساعة موقوتة خطيرة، لكنّ لانغدون كان واثقاً هذه المرّة أنّ الوقت لن ينفد. ففي النهاية، ما إن يتمكّن هو وأمبرا من إيجاد بيت الشعر المفضّل لدى إدموند، لن يحتاجا سوى إلى بضع ثوانٍ لدخول هاتفه وتشغيل العرض ليشاهده العالم. *تماماً كما أراد إدموند.*

نظر إلى أمبرا التي كانت تقف في الجهة المقابلة من الردهة على مسافة منه، وتتابع بحثها في الطرف الأيسر، بينما كان لانغدون يمشّط الطرف الأيمن. "هل وجدتِ شيئاً هناك؟".

هزّت رأسها نافية. "حتّى الآن، لا أرى سوى كتب علمية وفلسفية. ما من دواوين شعرية، ولا شيء لنيتشه".

قال وهو يعاود البحث: "واصلي البحث". كان حاليّاً يفتّش في قسم المجلّدات التاريخية السميكة:

الامتياز، والاضطهاد، والنبوّة: الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا

بالسيف والصليب: التطوّر التاريخي للمَلكية في العالم الكاثوليكي

ذكّره هذان العنوانان بالحكاية المظلمة التي رواها له إدموند منذ سنوات بعدما علّق لانغدون قائلاً إنّ انشغال إدموند بإسبانيا والكاثوليكية يبدو غير اعتيادي بالنسبة إلى ملحد أميركي. يومذاك، أجاب إدموند ببساطة: "كانت والدتي إسبانية الأصل وكاثوليكية دمّرها الإحساس بالذنب".

وحين أخبره إدموند بالحكاية المأساوية لطفولته ووالدته أصغى إليه باستغراب كبير. قال عالم الكمبيوتر إنّ والدته، بالوما كالفو، كانت ابنة مزراعَين بسيطين في قادِس، بإسبانيا. وفي سنّ التاسعة عشرة، وقعت في حبّ مدرّس جامعي من شيكاغو

يدعى مايكل كيرش، أتى في إجازة إلى إسبانيا، وحملت منه. وبما أنّها رأت كيف تعامَل الأمّهات العازبات في مجتمعها الكاثوليكي الصارم، لم تجد خياراً سوى قبول عرض الزواج الفاتر، والانتقال معه إلى شيكاغو. وبعد مدّة قصيرة من ولادة إدموند، كان زوج بالوما عائداً على درّاجته من الجامعة عندما دهسته سيّارة وقُتِل على الفور.

وصف والدها الحادث يومذاك بأنّه عقاب.

رفض والدا بالوما السماح لابنتهما بالعودة إلى قادِس وجلب العار إلى منزلهما. وعوضاً عن ذلك، حذّراها من أنّ الظروف الصعبة التي تعاني منها كانت علامة واضحة على غضب الله، وأنّ ملكوت السموات لن يقبل بها أبداً ما لم تكرّس نفسها جسداً وروحاً للمسيح لبقيّة حياتها.

بعد ولادة إدموند، عملت بالوما كخادمة في فندق، وحاولت تربيته بأفضل ما يمكن. وفي الليل، حين تعود إلى شقّتهما الصغيرة، كانت تقرأ الكتاب المقدّس وتصلّي طلباً للغفران. لكنّ فقرها ازداد، وازداد معه يقينها بأنّ الله لم يكن راضياً عن توبتها.

بعد خمس سنوات من الإحساس الدائم بالخزي والخوف، أصبحت بالوما مقتنعة أنّ العمل الوحيد الذي يمكن أن تقوم به للتعبير عن عمق حبّها لابنها هو إعطاؤه حياة جديدة، بعيدة عن عقاب الله على خطاياها. وهكذا، وضعت إدموند الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره في دار للأيتام، وعادت إلى إسبانيا لدخول أحد الأديرة. أمّا إدموند، فلم يرَ أمّه ثانية.

عندما أصبح إدموند في العاشرة من عمره، علم أنّ أمّه توفيت في الدير خلال صوم فرضته على نفسها. فبعد أن أنهكها الألم الجسدي، شنقت نفسها.

قال إدموند للانغدون: "إنّها ليست قصّة ممتعة. كنت في المدرسة الثانوية عندما علمت بهذه التفاصيل. وكما تتخيّل، إنّ تشدّد أمّي الديني له علاقة كبيرة برفضي للدين. وأنا أسمّي ذلك قانون نيوتن الثالث في تربية الأطفال: مقابل كلّ جنون، ثمة جنون مساوٍ ومعاكس".

بعد سماع القصّة، فهم لانغدون سبب كون إدموند مليئاً بالحقد والمرارة عندما التقيا خلال العام الأوّل لإدموند في هارفارد. دُهِش لانغدون أيضاً لأنّ إدموند لم يتذمّر ولو لمرّة واحدة من قسوة طفولته. عوضاً عن ذلك، لطالما أعلن أنّه محظوظ لأنه عانى من المشقّات باكراً، ولأنّها شكّلت حافزاً قوياً لديه لكي يحقّق هدفَي طفولته: أوّلاً، الخروج من الفقر. وثانياً، المساعدة على كشف النفاق الذي يعتقد أنّه دمّر والدته.

وقد نجح على الصعيدين، هذا ما فكّر فيه لانغدون بحزن وهو يواصل بحثه في المكتبة.

وحين بدأ يبحث في قسم جديد من الرفوف، رأى الكثير من العناوين التي يعرفها، ومعظمها يرتبط بمعتقدات إدموند الراسخة بشأن مخاطر الإيمان.

خلال العقد الفائت، تزايد عدد الكتب التي تدعو إلى العقلانية عوضاً عن الإيمان الأعمى على قوائم الكتب غير الخيالية الأكثر مبيعاً. وكان على لانغدون أن يقرّ أنّ التحوّل الثقافي عن الإيمان أصبح واضحاً على نحو متعاظم، حتّى في حرم جامعة هارفارد. فمؤخّراً، نشرت *واشنطن بوست* مقالة تحت عنوان "الإلحاد يجتاح هارفارد"، وذكرت فيها أنّه للمرّة الأولى في تاريخ الجامعة الممتدّ على 380 عاماً، إنّ عدد الطلّاب الجدد من الملحدين واللاأدريين يتجاوز عدد البروتستانت والكاثوليك مجتمعين.

كذلك، تتكاثر في أنحاء العالم الغربي منظّمات ملحِدة مثل منظّمات "الملحدون الأميركيون"، والتحالف الدولي للملحدين.

لم يُعر لانغدون يوماً هذه المجموعات اهتماماً كبيراً، إلى أن أخبره إدموند عن مجموعة برايتس العالمية التي تدعم- على الرغم من اسمها الذي يُساء فهمه غالباً- نظرة طبيعية للعالم، وخالية من العناصر الخارقة أو الباطنية. ويشتمل أعضاء تلك المجموعة على مفكّرين ناشطين أمثال ريتشارد دوكينز، ومارغريت داوني، ودانيال دينيت. وعلى ما يبدو، إنّ الجيش المتنامي من الملحدين بدأ يجتذب أسماء كبيرة جدّاً.

كان لانغدون قد رأى كتب دوكينز ودينيت منذ دقائق وحسب بينما كان يفتّش في القسم المخصّص للتطوّر في المكتبة.

تحدّى كتاب دوكينز الكلاسيكي الذي يحمل عنوان *الساعاتي الأعمى* المفهوم الغائي القائم على أنّ الكائنات البشرية، شأنها شأن الساعات المعقّدة، لا يمكن أن توجَد من دون "مُصمِّم". وكذلك، رأى دينيت في أحد كتبه، *فكرة داروين الخطرة*، وهي أنّ الانتقاء الطبيعي وحده كان كافياً لتفسير تطوّر الحياة.

فيما كان لانغدون يتذكّر العرض الذي قدّمه إدموند، فجأة رنّ السؤال "من أين أتينا؟" بقوّة أكبر في ذهن لانغدون. هل يمكن أن يكون ذلك جزءاً من اكتشاف إدموند؟

بالطبع، يتعارض مفهوم التطور تماماً مع جميع قصص الخلق الدينية؛ الأمر الذي ضاعف من فضول لانغدون لمعرفة ما إذا كان على الطريق الصحيح. مجدّداً، بدت له هذه الفكرة غير قابلة للإثبات على الإطلاق.

نادته أمبرا من خلفه: "روبرت".

فالتفت ورأى أنّ أمبرا أتمّت البحث في جانبها من المكتبة، وكانت تهزّ رأسها يميناً ويساراً. "لم أجد شيئاً هنا، جميعها كتب علمية. سأساعدك في البحث في هذا الجزء".

قال لانغدون: "أنا أيضاً لم أجد شيئاً حتّى الآن".

وبينما كانت أمبرا تتوجّه نحو لانغدون، تصاعد صوت وينستون من مكبّر الصوت في الهاتف.

"آنسة فيدال".

رفعت أمبرا هاتف إدموند مجيبة: "أجل؟".

قال وينستون: "يجب أن تشاهدي شيئاً في الحال أنت والبروفيسور لانغدون. فقد أدلى القصر للتوّ ببيان عامّ".

أسرع لانغدون نحو أمبرا، ووقف إلى جانبها، وراح يشاهد الشاشة الصغيرة في يدها وهي تعرض شريط فيديو.

عرف على الفور الساحة أمام قصر مدريد الملكي، ورأى رجلاً بالزيّ الرسمي مكبّل اليدين ويتمّ اقتياده بخشونة للوقوف أمام الكاميرا من قبل أربعة عناصر من الحرس الملكي. أدار العملاء أسيرهم باتّجاه الكاميرا، كما لو أنّهم يتقصّدون إذلاله أمام أعين العالم.

فهتفت أمبرا بذهول تامّ: "غارزا! قائد الحرس الملكي قيد الاعتقال!".

استدارت الكاميرا الآن لتصوّر امرأة تضع نظّارة وهي تُخرِج من جيب سروالها ورقة، وتستعدّ لتلاوة بيان.

قالت أمبرا: "هذه مونيكا مارتن، منسّقة العلاقات العامّة. ماذا يجري يا ترى؟".

بدأت المرأة بالقراءة، ولفظت كلّ كلمة بوضوح تامّ. "إنّ القصر الملكي يعتقل القائد دييغو غارزا بسبب دوره في مقتل إدموند كيرش، ومحاولاته توريط الأسقف فالديسبينو في تلك الجريمة".

شعر لانغدون أنّ أمبرا تترنّح قليلاً بجانبه وهي تشاهد مونيكا مارتن تتابع القراءة.

قالت منسّقة العلاقات العامّة بنبرة جدّية: "أمّا بشأن ملكتنا المستقبلية أمبرا فيدال، والبروفيسور روبرت لانغدون، أخشى أنّه لديّ بعض الأنباء المزعجة للغاية".

تبادل لانغدون وأمبرا نظرات الدهشة.

تابعت مارتن: "فقد تلقّى القصر للتوّ معلومات من مرافقَي الآنسة فيدال تفيد أنّه تمّ اقتيادها من متحف غوغنهايم ضدّ إرادتها هذه الليلة من قبل روبرت لانغدون. والحرس الملكي في حالة تأهّب قصوى، وهو ينسّق مع السلطات المحلّية في برشلونة التي يُعتقَد أنّ روبرت لانغدون يحتجز الآنسة فيدال رهينة فيها".

عقدت الصدمة لسان لانغدون.

"وبما أنّ هذا الوضع صُنِّف رسمياً على أنّه اختطاف لرهينة، فإنّ الشعب مدعوّ لمساعدة السلطات من خلال الإبلاغ عن أيّ معلومات تتعلّق بمكان الآنسة فيدال أو السيّد لانغدون. وليس لدى القصر المزيد من التعليقات حتّى هذه اللحظة".

بدأ المراسلون يطرحون الأسئلة على مارتن، غير أنها استدارت على الفور وعادت باتّجاه القصر.

قالت أمبرا متلعثمة: "لكن هذا... جنون. لقد رآني المرافقان وأنا أغادر القصر بكامل إرادتي!".

حدّق لانغدون إلى الهاتف محاولاً أن يفهم ما جرى للتوّ. وعلى الرغم من سيل الأسئلة التي راحت تحوم في ذهنه، كانت ثمّة نقطة واحدة واضحة تماماً.

أنا في خطر محدق.

الفصل 56

قالت أمبرا فيدال وقد ظهر الخوف والإحساس بالذنب في عينيها السوداوين: "روبرت، أنا آسفة جدّاً. ليست لدي أيّ فكرة عمّن يقف خلف هذه القصّة المزيّفة، ولكنّهم وضعوك للتوّ في خطر كبير". ومدّت ملكة إسبانيا المستقبلية يديها إلى هاتف إدموند مضيفة: "سأتّصل بمونيكا مارتن حالاً".

قال وينستون: "لا تتّصلي بالآنسة مارتن؛ فهذا بالضبط ما يريده القصر. إنّها مكيدة. فهم يحاولون دفعك للظهور، وخداعك لكي تقومي بالاتّصال بهم والكشف عن مكانك. فكّري منطقياً. عاملا الحرس الملكي يعرفان أنّه لم يتمّ اختطافك، ومع ذلك وافقا على نشر هذه الكذبة والسفر إلى برشلونة لمطاردتك! من الواضح أنّ القصر بأكمله متورّط في هذه المسألة. وبما أنّ قائد الحرس الملكي قيد الاعتقال، فهذا يعني أنّ الأوامر أتت من موقع أعلى".

أخذت أمبرا نفساً قصيراً وقالت: "هل تعني... جوليان؟".

أجاب وينستون: "هذا استنتاج لا مفرّ منه. فالأمير هو الوحيد في القصر الذي يملك سلطة اعتقال القائد غارزا".

أغمضت أمبرا عينيها للحظات طويلة، وشعر لانغدون بموجة من الكآبة تجتاحها؛ كما لو أنّ هذا الدليل غير القابل للجدل ظاهرياً على تورّط جوليان قضى على آخر آمالها بأن يكون خطيبها بريئاً من كلّ هذه الأحداث.

قال لانغدون: "هذه المسألة تتعلّق باكتشاف إدموند. فثمّة من يعرف في القصر أنّنا نحاول عرض شريط إدموند على العالم، وهم يبذلون محاولات يائسة لمنعنا من ذلك".

أضاف وينستون: "ربّما اعتقدوا أنّ عملهم قد انتهى عندما أسكتوا إدموند، ولم يدركوا أنّه ما زال هناك من يتابع المسألة".

خيّم صمت غير مريح بينهم.

قال لانغدون بهدوء: "أمبرا، بالطبع أنا لا أعرف خطيبك، ولكنّني أشتبه بقوّة أنّ الأسقف فالديسبينو يؤثّر على جوليان في هذه القضيّة. تذكّري أنّ إدموند وفالديسبينو كانا على خلاف حتّى قبل بدء الحدث المنظّم في المتحف".

أومأت برأسها موافقة، وإن ليس تماماً. "على أيّ حال، أنت في خطر".

فجأة، بدأا يعيان أصوات صفّارات الإنذار من بعيد.

شعر لانغدون بنبضه يتسارع. "علينا العثور على تلك القصيدة حالاً". وراح يستأنف بحثه بين رفوف المكتبة. "فإطلاق محاضرة إدموند هو مفتاح سلامتنا. إن أخرجنا الاكتشاف إلى العلن، فمن يحاول إسكاتنا سيدرك أنّ الأوان قد فات".

قال وينستون: "هذا صحيح، لكنّ السلطات المحلّية ستواصل مطاردتك بتهمة الخطف. لن تكون بأمان ما لم تواجه القصر بلعبته".

سألته أمبرا: "وكيف ذلك؟".

تابع وينستون من دون تردّد: "لقد استخدم القصر وسائل الإعلام ضدّك، ولكنّ هذا سيف ذو حدّين".

أصغى لانغدون وأمبرا إلى وينستون وهو يشرح لهما بسرعة خطّة بسيطة جدّاً، وأقرّ لانغدون أنّها ستولّد على الفور الإرباك والفوضى بين خصومهما.

وافقته أمبرا على الفور. "سأقوم بذلك".

سألها لانغدون بحذر: "هل أنت واثقة؟ لن تتمكّني من العودة إلى الوراء".

قالت: "روبرت، أنا التي ورّطتك في هذه المسألة، وأنت الآن في خطر. لم يتردّد القصر في استخدام الإعلام سلاحاً ضدّك، والآن سأواجهه بالسلاح نفسه".

قال وينستون: "وهذا ما يجب أن يحدث. فمن يعيشون بالسيف سيموتون بالسيف".

دُهش لانغدون تماماً. *هل قام كمبيوتر إدموند حقّاً باقتباس جملة إسخيلوس؟* غير أنّه تساءل عمّا إذا كان من الأنسب اقتباس مقولة نيتشه: *"من يحارب الوحوش عليه أن يحترس من أن يصبح وحشاً"*.

قبل أن يعترض لانغدون أكثر، ابتعدت أمبرا عبر الردهة وهاتف إدموند بيدها، وقالت من خلف كتفها: "اعثر على كلمة السرّ تلك يا روبرت! سأعود حالاً".

راقبها وهي تختفي في برج ضيّق يؤدّي سلّمه اللولبي إلى سطح كازا ميلا المشهور بخطورته.

ناداها قائلاً: "كوني حذرة!".

وعندما أصبح لانغدون بمفرده في شقّة إدموند، حدّق إلى الرواق المضلّع، وحاول أن يستجمع ما رآه هنا: صناديق لقطع أثرية غير اعتيادية، ومقولة معلّقة في إطار، ولوحة لا تقدّر بثمن للفنّان غوغان تطرح السؤالين نفسيهما اللذين طرحهما إدموند على العالم في وقت سابق من هذه الليلة. *من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟*

لم يجد حتّى الآن شيئاً يشير إلى إجابات إدموند المحتملة عن هذين السؤالين. وحتّى تلك اللحظة، لم يسفر بحث لانغدون في المكتبة سوى عن مجلّد واحد قد يكون ذا

صلة، ويحمل عنوان *الفنّ غير المفسَّر*. وكان عبارة عن كتاب يضمّ صوراً لمنشآت غامضة من صنع الإنسان، بما في ذلك ستونهانج، ورؤوس جزيرة إيستر، و"الرسوم الصحراوية" الكبيرة في مدينة نازكا، وهي عبارة عن جيوغليفات مرسومة على مقياس هائل جدّاً حيث لا يمكن رؤيتها بالكامل سوى من الجوّ.

لا فائدة منه، واستأنف بحثه على الرفوف.

في الخارج، ازداد عويل صفّارات الإنذار اقتراباً.

الفصل 57

قال أفيلا وهو يمرّ بحمّام مهجور في محطّة على الطريق السريع N-240: "أنا لست وحشاً".

إلى جانبه، كان سائق الأوبر يرتجف خوفاً، ويبدو في حالة من التوتّر لا تسمح له بدخول الحمّام. "لقد هدّدتَ... أسرتي".

أجاب أفيلا: "وإن أحسنت السلوك، فأنا أؤكّد لك أنّه لن يصيبهم أيّ أذى. ما عليك سوى اصطحابي إلى برشلونة وإنزالي هناك، وسنفترق كصديقين. سأعيد إليك محفظتك، وسأنسى عنوان بيتك، ولن تحتاج إلى التفكير بي مجدّداً".

حدّق السائق إلى الأمام وشفتاه ترتعشان.

قال أفيلا: "أنت رجل مؤمن، فقد رأيت الصليب الباباوي على زجاج سيّارتك الأمامي. ومهما كان رأيك بي، قد تجد السلام في معرفة أنّك تقوم بعمل يرضي الربّ هذه الليلة".

تراجع أفيلا وتحقّق من مسدّس السيراميك المدسوس في حزامه. كان ملقّماً بالرصاصة الوحيدة المتبقّية، وتساءل عمّا إذا كان سيضطرّ إلى استخدامها هذه الليلة.

ذهب إلى المغسلة وفتح الماء على راحة يديه، فرأى الوشم الذي طلب منه الوصيّ نقشه تحسّباً في حال تمّ القبض عليه. *كان إجراءً احتياطياً بلا داعٍ*. هذا ما فكّر فيه أفيلا وهو يشعر كما لو أنّه روح لا يمكن تعقّبها تهيم في الليل.

نظر إلى المرآة القذرة، وأدهشه ما رآه. ففي آخر مرّة نظر فيها إلى نفسه في المرآة، كان يرتدي بذلة بيضاء ذات ياقة منشّاة وقبّعة بحرية. أمّا الآن، فقد خلع الجزء العلوي من بذلته، وبدا أقرب إلى سائق شاحنة بالقميص القطني وقبّعة البايسبول التي استعارها من السائق.

المفارقة هي أنّ الرجل الأشعث الذي ظهر في المرآة ذكّر أفيلا بما كان عليه خلال الأيّام التي أعقبت ذاك الانفجار الذي أودى بحياة أسرته.

لقد كنت في حفرة لا قرار لها.

عرف أنّ نقطة التحوّل كانت في ذلك اليوم الذي خدعه فيه معالجه الفيزيائي ماركو واصطحبه إلى الريف للقاء "البابا".

لن ينسى أفيلا يوماً الأبراج الغريبة للكنيسة البالمارية، ومروره من بوّاباتها الأمنية المرتفعة، ودخوله الكاتدرائية خلال القدّاس الصباحي ليرى حشود المصلّين راكعين ومستغرقين في الصلاة.

كانت القاعة مضاءة بنور الشمس الطبيعي المتسلّل من النوافذ الزجاجية العالية، والهواء عابقاً برائحة البخور. عندما رأى أفيلا المذبح المذهّب والمقاعد الخشبية المصقولة، أدرك أنّ الشائعات حول الثروة الهائلة التي يملكها البالماريون حقيقية. فهذه الكنيسة لا تقلّ جمالاً عن أيّ كاتدرائية زارها. ومع ذلك، كان يعلم أنّ هذه الكنيسة الكاثوليكية لا تشبه أيّ كنيسة أخرى.

البالماريون هم العدو اللدود للفاتيكان.

وقف أفيلا مع ماركو في الجزء الخلفي من الكاتدرائية، وحدّق إلى الحشد متسائلاً عن كيفية تمكّن هذه الطائفة من الازدهار بعدما أعلنت بشكل صارخ معارضتها لروما. فعلى ما يبدو، ضرب تنديد البالماريين بالليبرالية المتنامية للفاتيكان على وتر حساس لدى المؤمنين الذين يتوقون إلى تفسير أكثر تحفّظاً للدين.

كافح أفيلا لعبور الممرّ على عكّازيه، وشعر وكأنّه مريض بائس يسافر إلى لورديس على أمل الشفاء بأعجوبة. أتى حاجب لاستقبال ماركو، واصطحب الرجلين إلى مقعدين تمّ حجزهما في الصفّ الأمامي. نظر أبناء الرعيّة بفضول إلى الشخص الذي نال هذه المعاملة الخاصّة. وتمنّى أفيلا لو أنّ ماركو لم يقنعه بارتداء زيّه البحري الكامل.

ظننت أنّني سأقابل البابا.

جلس أفيلا ونظر إلى المذبح الرئيس. هناك، وقف شابّ يقرأ من الكتاب المقدّس، فعرف المقطع على الفور، إنجيل مرقس.

قال القارئ: "فاغفروا إن كان لكم على أحد شيء، لكي يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في السموات زلّاتكم".

فكّر أفيلا عابساً: *المزيد من الغفران!* شعر كما لو أنّه سمع هذا المقطع ألف مرّة من المستشارين والراهبات خلال الأشهر التي أعقبت الهجوم الإرهابي.

انتهت القراءة، وارتفع صوت أوتار الأورغن في محراب الكنيسة. فوقف المصلّون معاً، ونهض أفيلا على مضض، فيما تقلّص وجهه ألماً. خلف المذبح، فُتِح باب خفيّ وظهر عنده رجل، فاجتاحت موجة من الحماسة حشدَ المصلّين.

بدا الرجل أنّه في العقد الخامس من عمره. وقف مستقيماً ومهيباً، بقامة رشيقة ونظرة مقنعة. كان يرتدي ثوباً أبيض، ويضع وشاحاً ذهبياً وحزاماً مطرّزاً، فضلاً عن قلنسوة باباوية مرصّعة بالجواهر. تقدّم فاتحاً ذراعيه للمصلّين، وبدا وكأنّه يطفو وهو يتوجّه إلى وسط المذبح.

همس ماركو بحماسة: "ها هو البابا إنوسنت الرابع عشر".

هل يسمّي نفسه البابا إنوسنت الرابع عشر؟ كان أفيلا يعرف أنّ البالماريين يعترفون بشرعية جميع الباباوات، وصولاً إلى البابا بولس السادس الذي توفّي عام 1978.

قال ماركو: "لقد وصلنا في الوقت المناسب. فهو على وشك إلقاء عظته".

توجّه البابا إلى وسط المذبح المرتفع، ثمّ تجاوز المنبر الرسمي وهبط درجة ليصبح بمستوى أبناء رعيّته. عدّل مكبّر الصوت الصغير المثبّت على ملابسه، ثمّ رفع يديه وابتسم بحرارة.

قال هامساً: "صباح الخير

أجابه الحشد بصوت عالٍ: "صباح الخير!".

واصل البابا الابتعاد عن المذبح مقترباً من المصلّين، واستهلّ عظته قائلاً: "لقد سمعنا للتوّ مقطعاً من إنجيل مرقس، وقمت باختياره شخصياً لأنّني أودّ أن أتكلّم هذا الصباح عن الغفران".

ذهب البابا باتّجاه أفيلا، وتوقّف في الممرّ بجانبه، على بعد مسافة قصيرة منه. لم ينظر إليه على الإطلاق. فالتفت أفيلا بقلق إلى ماركو الذي أومأ برأسه بحماسة.

قال البابا للمصلّين: "جميعنا نكافح للغفران، وذلك لأنّه ثمّة أوقات تكون فيها التجاوزات التي ارتُكبت ضدّنا لا تغتفر. فعندما يقوم شخص ما بقتل أناس أبرياء في عمل نابع من الحقد المحض، هل ينبغي بنا أن ندير له الخدّ الآخر كما تعلّمنا بعض الكنائس؟". خيّم صمت مطبق على القاعة، فأخفض البابا صوته أكثر. "عندما يقوم متطرّف معادٍ للمسيحيين بتفجير قنبلة خلال قدّاس صباحي في كاتدرائية إشبيلية، وتودي تلك القنبلة بأرواح أمّهات وأطفال أبرياء، كيف يتوقّع منا أن نسامح؟ فالتفجير عمل حرب؛ حرب ليست ضدّ الكاثوليك فحسب، ولا ضدّ المسيحيين فحسب، بل ضدّ الخير... ضدّ الربّ نفسه!".

أغمض أفيلا عينيه، محاولاً أن يقمع الذكريات المروّعة لذلك الصباح، والغضب والبؤس اللذين ما زالا يعتملان في قلبه. ومع تعاظم غضبه، شعر بيد البابا تضغط برفق على كتفه.

فتح أفيلا عينيه، لكنّ البابا لم يكن ينظر إليه. مع ذلك، بدت يده ثابتة ومطمئنة. تابع البابا من دون أن يرفع يده عن كتف أفيلا: "دعونا لا ننسى إرهابنا الأحمر. فخلال حربنا الأهلية، أحرق أعداء الربّ كنائس وأديرة إسبانيا، وقتلوا ما يزيد عن ستّة آلاف كاهن، وعذّبوا مئات الراهبات، وأجبروا الأخوات على ابتلاع المسابح قبل الاعتداء عليهنّ ورميهنّ في فتحات المناجم ليلقين حتفهنّ". صمت ليترك كلماته تُحدِث التأثير

المطلوب، ثمّ تابع قائلاً: "هذا النوع من الحقد لا يختفي مع الزمن، بل يختمر، وينمو، وينتظر أن ينهض مجدّداً مثل ورم سرطاني. يا أصدقائي، أنا أحذّركم من أنّ الشرّ سيبتلعنا كلّنا إن لم نحارب القوّة بالقوّة. لن ننتصر أبداً على الشرّ إن كانت صرخة معركتنا هي الغفران".

فكّر أفيلا في سره: *إنّه على حقّ*. فقد شاهد بأمّ العين خلال خدمته في العسكرية أنّ "اللين" تجاه سوء السلوك كان أفضل طريقة لضمان تفاقم سوء السلوك.

تابع البابا: "أعتقد أنّه في بعض الحالات، من شأن الغفران أن يكون خطراً. فعندما نغفر للشرّ الذي يُرتكب في العالم، فنحن نعطيه الإذن لينمو وينتشر. وعندما نردّ على الحرب بالرحمة، فإنّنا نشجّع أعداءنا على ارتكاب المزيد من أعمال العنف ضدّنا. ثمّة أوقات ينبغي أن نفعل فيها كما فعل يسوع، ونرمي بقوّة طاولات المال ونصيح: *هذا غير مسموح!*".

أراد أفيلا أن يصرخ بينما كان المصلّون يومئون برؤوسهم موافقين، *أنا معك!*

سأل البابا: "لكن، هل نحن نتحرّك؟ هل تتّخذ الكنيسة الكاثوليكية في روما موقفاً كما فعل يسوع؟ كلّا، إنّها لا تفعل. واليوم نحن نواجه أحلك الشرور في العالم، ولا نملك سوى قدرتنا على الغفران، والمحبّة، والتعاطف. وهكذا نسمح، لا بل نشجّع على نموّ الشرّ. وردّاً على الجرائم المتكرّرة التي تُرتكب ضدّنا، نُعرِب بحذر عن قلقنا بلغة سليمة من الناحية السياسية، ونذكّر بعضنا بعضاً أنّ الناس الذين يرتكبون الشرّ يفعلون ذلك لأنّهم عانوا من طفولة صعبة، أو عانوا من الفقر، أو خسروا أحبّاءهم في جرائم مشابهة، ولذلك هذا الحقد ليس ذنبهم. وأنا أقول: *كفى!* الشرّ شرّ! وجميعنا كافحنا في هذه الحياة!".

انفجرت القاعة بالتصفيق العفوي، وهو أمر لم يشهده أفيلا في قدّاس كاثوليكي.

تابع البابا ويده لا تزال على كتف أفيلا. "لقد اخترت أن أتحدّث عن الغفران اليوم لأنّنا نستقبل ضيفاً مميّزاً بيننا. أودّ أن أشكر الأميرال لويس أفيلا على تشريفنا بحضوره. إنّه يحتلّ مرتبة عالية في السلك العسكري الإسباني، وقد واجه شرّاً مروّعاً. ومثلنا جميعاً، كافح مع الغفران".

وقبل أن يتمكّن أفيلا من الاعتراض، راح البابا يروي بالتفاصيل الحيّة نضالات أفيلا في الحياة: خسارته لأسرته في هجوم إرهابي، وغرقه في الإدمان، وأخيراً محاولة الانتحار الفاشلة التي قام بها. كان ردّ فعل أفيلا الأوّل هو الغضب على ماركو لأنّه خان ثقته. ومع ذلك، وبينما كان يسمعّ قصّته في تلك اللحظة تروى بهذه الطريقة، شعر بقوّة غريبة. كان ذلك إقراراً علنياً بأنّه ارتطم بقاع صخري، ولكنّه مع ذلك نجا بأعجوبة.

قال البابا: "برأيي، لقد أنقذ الله الأميرال أفيلا... من أجل هدف أسمى".

عند ذلك، التفت البابا البالماري إنوسنت الرابع عشر وحدّق إليه للمرّة الأولى. بدت نظرات الرجل العميقة وكأنّها تخترق روح أفيلا الذي شعر أنّه يستمدّ نوعاً من القوّة لم يشعر بها منذ سنوات.

قال البابا: "أيّها الأميرال، أعتقد أنّ الخسارة المأساوية التي عانيتَ منها تتجاوز الغفران. وأعتقد أنّ الغضب المستمرّ الذي يعتمل بداخلك، ورغبتك في الانتقام، لا يمكن إخمادهما بتحويل الخدّ الآخر. ولا ينبغي ذلك! سيكون ألمك حافزاً لخلاصك. نحن هنا لنقدّم لك الدعم والحب! ولنقف إلى جانبك، ونساعدك على تحويل غضبك إلى قوّة للخير في هذا العالم! الحمد لله!".

فردّد المصلون خلفه: "الحمد لله!".

تابع البابا وهو يحدق إلى عينيه بتركيز أكبر: "أيها الأميرال أفيلا، ما هو شعار سلاح البحرية الإسبانية؟".

أجاب أفيلا على الفور: "*Pro Deo et patria*".

"أجل، *لله وللبلاد*. يسرّنا جميعاً اليوم أن نكون في حضرة ضابط بحري مرموق خدم بلاده جيّداً". صمت البابا، ثمّ مال إلى الأمام مضيفاً: "لكن.. ماذا عن الله؟".

حدّق أفيلا إلى عينَي الرجل الخارقتين، وشعر فجأة أنّ قد توازنه اختلّ.

همس البابا، حياتك لم تنتهِ، وعملك لم يُنجَز بعد. لذلك أنقذك الله. فمهمّتك التي أقسمتَ عليها لم تنجزِ سوى نصفها. خدمتَ بلادك، أجل... لكنّك لم تخدم الله!".

وهنا، شعر أفيلا كمن أصيب بعيار ناري.

ختم البابا عظته قائلاً: "رافقتكم السلامة!".

فردّ عليه الحشد: "وأنت أيضاً!".

فجأة، وجد أفيلا نفسه غارقاً في بحر من الناس الذين يتمنّون له التوفيق ويقدّمون له دعمهم؛ في تجربة لم يسبق أن اختبرها من قبل. بحث في أعين أبناء الرعيّة عن أيّ أثر للتعصّب الطائفي الذي كان يخشاه، ولكنّه لم يجد سوى التفاؤل، وحسن النيّة، والرغبة الصادقة في إرضاء الله... وهذا بالضبط ما أدرك أفيلا أنّه يفتقد إليه.

منذ ذلك اليوم، وبمساعدة ماركو ومجموعة أصدقائه الجدد، بدأ أفيلا صعوده الطويل من قعر اليأس. استأنف رياضته الروتينية الصارمة، وتناول الأطعمة المغذّية، والأهمّ من ذلك كلّه أنّه أعاد اكتشاف دينه.

بعد عدّة أشهر، عندما أتمّ علاجه الجسدي، قدّم له ماركو كتاباً مقدّساً ذا غلاف جلدي، وفيه حدّد عشرة مقاطع تقريباً.

تصفّح أفيلا بعضها عشوائياً.

الرسالة إلى أهل رومية 13:4

لأنّه خادم الله–

منتقم للغضب

مِن الذي يفعل الشرّ.

المزامير 94:1

يا إله النقمات يا ربّ،

يا إله النقمات أشرق!

الرسالة الثانية إلى تيموثاوس 2:3

فاشترك أنت في احتمال المشقّات

كجندي صالح ليسوع المسيح.

كان ماركو قد قال له متبسماً: "تذكّر، عندما يرفع الشرّ رأسه في العالم، يُنفِّذ الله إرادته على الأرض من خلالنا. إنّ الغفران ليس السبيل الوحيد للخلاص".

الفصل 58

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

كائناً من تكون - أخبرنا المزيد!

هذه الليلة، قدّم مَن يزعم أنّه مُخبِر مدني يحمل العنوان الإلكتروني monte@iglesia.org قدراً هائلاً من المعلومات الداخلية لموقع ConspiracyNet.com.

شكراً لك!

وبما أنّ المعلومات التي شاركنا إياها 'Monte' أثبتت مستوى عالياً من الموثوقية والقدرة على الوصول إلى الداخل، فإنّنا نشعر بالثقة ونحن نقدّم هذا الطلب المتواضع جدّاً:

Monte - كائناً من تكون، إن كنت تملك أيّ معلومات على الإطلاق بشأن محتوى عرض كيرش الذي تمّ إجهاضه، نرجو أن تشاركنا إيّاها!!

#من أين أتينا

إلى أين نحن ذاهبون

شكراً.

- منّا جميعاً هنا في ConspiracyNet.com

الفصل 59

بينما كان لانغدون يفتّش الأقسام الأخيرة في مكتبة إدموند، شعر بآماله تتلاشى. وفي الخارج، ارتفع صوت صفّارات الإنذار وقد ازدادت قرباً؛ قبل أن تتوقّف أمام كازا ميلا مباشرة. ومن خلال نوافذ الشقّة الصغيرة، استطاع لانغدون أن يرى مصابيح سيّارات الشرطة وهي تومض في الأسفل.

لقد علقنا هنا. نحن بحاجة إلى معرفة كلمة السرّ تلك المؤلّفة من سبعة وأربعين حرفاً وإلّا فلن نستطيع الخروج.

لسوء الحظّ، لم يعثر لانغدون على أيّ ديوان شعري.

كانت رفوف القسم الأخير أعمق من بقيّة الرفوف، وبدت أنّها تحتوي على مجموعة إدموند من الكتب الفنّية كبيرة الحجم. وبينما كان لانغدون يُسرع في تفتيش جدار الكتب ويتأمّل العناوين، رأى كتباً تُظهر شغف إدموند بكلّ ما هو غريب وحديث في الفنّ المعاصر.

سيرا... كونز... هيرست... بروغيرا... باسكيات... بانكسي... أبراموفيتش...

انتهت المجموعة فجأة عند سلسلة من الكتب الأصغر حجماً، فتوقّف على أمل إيجاد ديوان شعري بينها.

لا شيء.

كانت الكتب الموجودة هنا عبارة عن تعليقات وانتقادات للفنّ التجريدي، ورأى بينها بضعة عناوين كان قد أرسلها له إدموند لكي يقرأها.

ما الذي تنظر إليه؟

لماذا لا يستطيع ابن خمس سنوات أن يقوم بذلك؟

كيف تفهم الفنّ الحديث

قال لانغدون لنفسه وهو ينتقل بسرعة إلى مجموعة أخرى: *ما زلت أحاول فهمه.* وذهب إلى قسم آخر وبدأ يبحث بين الكتب.

كتب عن الفنّ الحديث. من نظرة واحدة، عرف أنّ هذه المجموعة تتناول فترة سابقة. *على الأقلّ، نحن نتراجع في الزمن... نحو الفنّ كما أفهم.*

جال نظره بسرعة على عناوين الكتب، ولمح بينها سيراً ذاتية وكتالوغات لفنّانين انطباعيين، وتكعيبيين، وسرياليين أدهشوا العالم بين عامي 1870 و1960 عن طريق إعادة تعريف الفنّ بالكامل.

فان غوغ... سرات... بيكاسو... مونش... ماتيس... ماغريت... كليمت... كاندينسكي... جونز... هوكني... غوغان... دوتشامب... ديغاس... شاغال... سيزان... كاسات... براك... آرب... ألبيرز...

انتهى هذا القسم عند ضلع معماري أخير، فتجاوزه لانغدون ليجد نفسه في القسم الأخير من المكتبة. بدت الكتب الموجودة هنا مخصّصة لمجموعة من الفنّانين الذين كان إدموند يحبّ وصفهم بحضور لانغدون "مدرسة الأموات البيض المملّين"، وتتضمّن أساساً كلّ ما يسبق الحركة الحداثية لمنتصف القرن التاسع عشر.

على عكس إدموند، كان لانغدون يشعر هنا بألفة أكبر، محاطاً بالمعلّمين الكبار.

فيرمير... فيلازكيز... تيتيان... تينتوريتو... روبينز... رامبراندت... رافاييل... بوسين... مايكل أنجلو... ليبّي... غويا... جوتّو... غيرلانديو... إل غريكّو... دورير... دافنشي... كوروت... كارافاجو... بوتيتشيلي... بوش...

احتوت آخر بضع أقدام من الرفّ الأخير على خزانة زجاجية كبيرة مغلقة بقفل ثقيل. حدّق لانغدون من خلال الزجاج، ورأى صندوقاً جلدياً قديم المظهر في الداخل، كأنّه غلاف واقٍ لكتاب قديم ضخم. كان النصّ المكتوب على الصندوق من الخارج بالكاد مقروءاً، لكنّ لانغدون استطاع أن يرى بما فيه الكفاية لمعرفة عنوان الكتاب الموجود فيه.

ربّاه، أدرك الآن لماذا تمّ حفظ هذا الكتاب بعيداً عن أيدي الزوّار. *لا بدّ أنّه يساوي ثروة.*

كان لانغدون يعرف أنّه لا توجد سوى بضع نسخ ثمينة من هذا العمل الفنّي الأسطوري.

لا أستغرب أن يستثمر إدموند في هذا العمل. وتذكّر أنّ إدموند وصف هذا الفنّان البريطاني مرّة بأنّه "الفنّان الوحيد السابق للحداثة الذي يتمتّع بالمخيّلة". لم يوافقه لانغدون الرأي، ولكنّه استطاع بكلّ تأكيد أن يفهم سبب تعاطف إدموند الكبير مع هذا الفنّان. *كلاهما يتمتّعان بالفكر نفسه.*

انحنى لانغدون وحدّق من خلال الزجاج إلى الصندوق المذهّب الذي يحمل العنوان التالي: *الأعمال الكاملة لوليام بليك*.

وليام بليك. إدموند كيرش القرن التاسع عشر.

كان بليك عبقرياً فريداً من نوعه، يتمتّع بذكاء خصب، وأسلوب تقدّمي في الرسم، حتّى إنّ البعض يعتقدون أنّه رأى لمحات من المستقبل في أحلامه. تُصوّر لوحاته

الدينية رموزاً ملائكية وشيطانية، فضلاً عن مخلوقات أسطورية، ومواضيع من الكتاب المقدّس، ومجموعة من الآلهة التي استوحاها من هلوساته الروحية الخاصّة به.

وعلى غرار كيرش تماماً، كان بليك يعشق تحدّي المسيحية.

دفعت تلك الفكرة لانغدون إلى الوقوف مجدّداً.

وليام بليك.

شهق مجفلاً. فعندما وجد بليك بين هذا العدد الكبير من الفنّانين البصريين، نسي أمراً أساسيّاً بشأن هذا العبقري الباطني.

لم يكن بليك فنّاناً ورسّاماً فحسب...

كان أيضاً شاعراً غزير الإنتاج.

للحظة، شعر بنبضه يتسارع. فمعظم أشعار بليك تمحورت حول أفكار ثورية تتلاءم تماماً مع آراء إدموند. في الواقع، إنّ بعضاً من أقوال بليك واسعة الانتشار - أي تلك التي وردت في أعمال "شيطانية" مثل *زواج الجنّة والنار* - تبدو كما لو أنّ إدموند نفسه هو الذي كتبها.

تذكّر لانغدون كيف وصف إدموند بيته الشعري المفضّل. *قال لأمبرا إنّه "توقّع".* وكان لانغدون يعرف أنّه ما من شاعر في التاريخ يمكن اعتباره مثل وليام بليك الذي نشر في تسعينيات القرن الثامن عشر قصيدتين شديدتي التشاؤم.

كان لانغدون يملك الكتابين؛ وهما نسختان أنيقتان عن قصائد بليك المكتوبة بخطّ يده والمرفقة بإيضاحات.

حدّق إلى الصندوق الجلدي الكبير داخل الخزانة.

لا شكّ في أنّ الطبعات الأصلية من "توقعات" بليك نُشِرت في نصوص مصوّرة بالحجم الكبير!

اجتاحت لانغدون موجة من الأمل وهو ينحني أمام الخزانة، وقد راوده شعور بأنّ الصندوق الجلدي قد يحتوي فعلاً على ما يبحثان عنه هو وأمبرا، أي قصيدة تحتوي على بيت شعري مؤلّف من سبعة وأربعين حرفاً ويتضمّن توقّعاً مستقبلياً. والسؤال الوحيد الآن هو ما إذا كان إدموند قد حدّد المقطع المفضّل لديه.

مدّ لانغدون يده وضغط على مقبض الخزانة.

غير أنّه وجدها مقفلة.

نظر إلى السلّم اللولبي، وتساءل عمّا إذا كان يجدر به بكلّ بساطة أن يصعد إلى الأعلى ويطلب من وينستون أن يجري بحثاً حول كلّ أشعار وليام بليك. لكنّ أصوات

صفّارات الإنذار كانت قد توقّفت ليحلّ محلّها هدير طائرات هليكوبتر بعيد وصراخ على الدرج خارج باب إدموند.

لقد وصلوا.

رمق لانغدون الخزانة، ورأى الزجاج ذا اللون المائل إلى الأخضر الباهت العازل للأشعة ما فوق البنفسجية المستخدم في المتاحف.

خلع سترته ووضعها على الزجاج، ثمّ استدار ولكم باب الخزانة بمرفقه من دون أيّ تردّد. تحطّم الزجاج مصدراً صوتاً مكتوماً، فمدّ يده بحذر بين كِسر الزجاج وفتح الباب، ثمّ حمل بلطف الصندوق الجلدي.

حتّى قبل أن يضع الصندوق على الأرض، شعر أنّ ثمّة خطباً ما. *إنّه ليس ثقيلاً بما فيه الكفاية*. شعر أنّ أعمال بليك الكاملة لا تزن شيئاً تقريباً.

وضع لانغدون الصندوق وفتح الغطاء بحذر. *تماماً كما توقّع... كان خالياً.*

تنهّد وهو يحدّق إلى الصندوق الخالي. *أين ذهب كتاب إدموند؟!*

كان على وشك إغلاق الخزانة عندما لاحظ شيئاً غير متوقّع داخل الغطاء، عبارة عن بطاقة عاجية مزخرفة بعناية.

قرأ النصّ الموجود على البطاقة.

ثمّ أعاد قراءته غير مصدّق.

بعد ثوانٍ، كان يجري على السلّم اللولبي متوجّهاً إلى السطح.

في تلك اللحظة، في الطابق الثاني من قصر مدريد الملكي، كان مدير الأمن الإلكتروني سوريش بهالا يتنقّل خلسة في جناح الأمير جوليان الخاصّ. فبعدما عثر على خزنة الجدار الرقمية، أدخل رمز التجاوز الرئيس الذي يحتفظ به لحالات الطوارئ، ففُتحت الخزنة.

في الداخل، رأى سوريش هاتفين؛ هاتفاً ذكياً آمناً صادراً من القصر يخص الأمير جوليان، وجهاز آيفون استنتج أنّه على الأرجح هاتف الأسقف فالديسبينو.

تناول هاتف الآيفون.

هل أنا أفعل ذلك حقّاً؟

تخيّل الرسالة التي وصلت من monte@iglesia.org.

لقد اخترقت رسائل فالديسبينو.

لديه أسرار خطيرة.

على القصر دخول سجلّات رسائله النصّية.

فوراً.

تساءل سوريش عن الأسرار التي يمكن أن تكشفها رسائل الأسقف النصّية... ولماذا قرّر المخبر إبلاغ القصر الملكي بها؟

ربّما كان المُخبر يحاول حماية القصر من الأضرار الجانبية؟

كلّ ما يعرفه سوريش هو أنّه في حال وجود معلومات تشكّل خطراً على الأسرة المالكة، فمن واجبه الوصول إليها.

كان قد فكّر بالحصول على مذكّرة طارئة من المحكمة، لكنّ مخاطر ذلك على صعيد العلاقات العامّة والتأخير الذي سيسبّبه جعلت الفكرة غير عمليّة. لحسن الحظّ، كان سوريش يملك وسائل أخرى أكثر سرّية وسرعة بتصرّفه.

حمل هاتف فالديسبينو، وضغط على الزرّ الرئيس، فأضيئت الشاشة. غير أنّها كانت محميّة بكلمة سرّ.

لا مشكلة في ذلك.

رفع الهاتف إلى فمه وقال: "مرحباً سيري، كم الساعة الآن؟".

ظلّ الهاتف مغلقاً وعرض صورة ساعة. وعلى تلك الشاشة التي تعرض الساعة، أعطى سوريش سلسلة من الأوامر البسيطة، فأنشأ منطقة زمنية جديدة للساعة، وطلب مشاركة المنطقة الزمنية عبر رسالة نصّية، ثمّ أضاف صورة، وبعد ذلك، عوضاً عن محاولة إرسال النصّ، ضغط على الزرّ الرئيس.

صدرت طقطقة، وفُتح الهاتف.

الفضل لتطبيق يوتيوب بهذا الاختراق البسيط. هذا ما فكّر فيه سوريش وهو يشعر بالتسلية لأنّ مستخدمي آيفون يعتقدون أنّ كلمة سرّهم تمنحهم الخصوصية.

والآن، مع تمكّنه من الوصول الكامل إلى هاتف فالديسبينو، فتح سوريش تطبيق الرسائل، وكان قد توقّع أن يضطرّ إلى استعادة رسائل فالديسبينو التي تمّ مسحها عن طريق خداع النسخ الاحتياطي للسحابة لتعيد بناء الكاتالوغ.

وبالفعل، وجد صندوق رسائل الأسقف فارغاً تماماً.

باستثناء رسالة واحدة. رأى نصّاً وحيداً وصل قبل ساعتين من رقم مخفيّ.

فتح سوريش الرسالة وقرأ النصّ المؤلّف من ثلاثة أسطر. للحظة، ظنّ أنّه يهلوس.

هذا لا يعقل!

قرأ الرسالة مجدّداً. كان النصّ يشكّل دليلاً قاطعاً على تورّط فالديسبينو في أعمال غدر وخداع لا يمكن تصوّرها.

هذا ناهيك عن الغطرسة. فقد ذُهِل سوريش من مدى شعور رجل الدين المسنّ بالأمان حيث تصله رسالة كهذه إلكترونياً.

إن خرج هذا النصّ إلى العلن...

ارتعد سوريش لدى تخيّله هذا الاحتمال، وراح يجري على الفور إلى الطابق السفلي بحثاً عن مونيكا مارتن.

الفصل 60

حلّقت الطائرة المروحية EC145 على ارتفاع منخفض فوق المدينة، وراح العميل دياز يحدّق إلى الأضواء في الأسفل. فعلى الرغم من الساعة المتأخّرة، استطاع أن يرى وميض أجهزة التلفزيون والكمبيوتر من خلال نوافذ معظم الشقق، مُضفية على المدينة ضباباً أزرق خافتاً.

العالم كلّه يتفرّج.

جعلته هذه الفكرة يشعر بالتوتّر. فقد كانت أحداث هذه الليلة تتصاعد بشكل جنوني وتخرج عن السيطرة، وخشي أن تكون لهذه الأزمة المتعاظمة مآل لا تحمد عقباه.

أمامه، راح العميل فونسيكا يصيح ويشير إلى مسافة أمامهما مباشرة، فأومأ العميل دياز برأسه وقد رأى هدفهما على الفور.

من الصعب أن يفوتنا.

حتّى من بعيد، كان وميض سيّارات الشرطة واضحاً.

فليكن الله في عوننا.

تماماً كما توقّع دياز، كان كازا ميلا محاطاً بسيّارات الشرطة المحلّية. فقد استجابت سلطات برشلونة لبلاغٍ مجهول المصدر في أعقاب البيان الصحفي الذي أدلت به مونيكا مارتن من القصر الملكي.

روبرت لانغدون أقدم على اختطاف ملكة إسبانيا المستقبلية.

القصر بحاجة إلى مساعدة الشعب للعثور عليهما.

كان دياز يعلم أنّ هذه كذبة مؤكّدة. *لقد رأيتهما بعينَي وهما يغادران غوغنهايم معاً.*

ومع أنّ حيلة مارتن أدّت النتيجة المطلوبة، إلّا أنّها حرّكت لعبة خطرة على نحو لا يصدّق. فإطلاق مطاردة عامّة تضمّ السلطات المحلية كان عملاً محفوفاً بالمخاطر؛ ليس بالنسبة إلى روبرت لانغدون فحسب، بل وللملكة المستقبلية أيضاً التي يُحتمل كثيراً أن تتعرّض لنيران مجموعة من رجال الشرطة المحلّيين الهواة.

إن كان هدف القصر حماية الملكة الإسبانية، فهذه الطريقة لن تنفع بالتأكيد.

ما كان القائد غارزا ليسمح بتصعيد الوضع على هذا الشكل.

بقي اعتقال غارزا غامضاً بالنسبة إلى دياز الذي لم يكن لديه أدنى شكّ في أنّ التهم الموجّهة إلى قائده كانت خيالية بقدر تلك الموجّهة إلى لانغدون.

مع ذلك، استلم فونسيكا الاتّصال وتلقّى الأوامر.

أوامر آتية من شخص أعلى منصباً من غارزا.

مع اقتراب المروحية من كازا ميلا، تأمّل العميل دياز المشهد في الأسفل، وأدرك أنّه ما من مكان آمن لتحطّ المروحية فيه. فقد كانت الجادّة العريضة والساحة أمام المبنى مزدحمتين بسيّارات وسائل الإعلام، والشرطة، والحشود.

نظر دياز إلى السطح الشهير للمبنى الذي كان على شكل رقم 8 متموّج يضمّ ممرّات وأدراجاً منحدرة تلتفّ فوق المبنى، وتمنح الزوّار مشاهد آسرة لأفق برشلونة... فضلاً عن إطلالة على منورَي المبنى الشاهقين، وكلّ منهما يعلوان ثمانية طوابق عن الباحات الداخلية.

ما من مكان لنحطّ فيه هناك.

بالإضافة إلى تلال ووديان أرضية السطح، كان هذا الأخير محميّاً بمداخن غاودي الشاهقة التي تشبه قطع شطرنج مستقبلية، بتصميمها الشبيه بجنود يضعون خوذاً. ويُقال إنّ المخرج جورج لوكاس أُعجب بها إلى حدّ أنّه استخدمها كنماذج لجنوده في فيلم حرب *النجوم*.

جال دياز بناظريه على الأبنية المجاورة بحثاً عن موقع ممكن للهبوط، لكنّ نظره توقّف فجأة عند مشهد غير متوقّع على سطح كازا ميلا.

فقد رأى هناك شكلاً صغيراً يقف بين التماثيل الضخمة.

وقف الشخص على حافة السطح، وكان يرتدي الأبيض، وتضيئه أضواء كاميرات الصحفيين الموجّهة إلى الأعلى. للحظة، ذكّر هذا المشهد دياز بالبابا الواقف على شرفته المطلّة على ساحة القدّيس بطرس، وهو يخاطب الناس.

لكنّ هذا الشخص لم يكن البابا، بل كان امرأة جميلة ترتدي فستاناً أبيض مألوفاً جدّاً.

لم تستطع أمبرا فيدال رؤية شيء بسبب وهج مصابيح الكاميرات الإعلانية، ولكنّها سمعت طائرة مروحية تقترب، وأدركت أنّ الوقت ينفد. فمالت بيأس من فوق الدرابزين، وحاولت أن تصيح لحشد الإعلاميين في الأسفل.

ذهب صراخها أدراج الرياح مع اقتراب هدير المروحية.

كان وينستون قد توقّع أنّ الفرق الإعلامية في الشارع ستوجّه كاميراتها إلى الأعلى

ما إن يرصدون أمبرا على حافة السطح. وبالفعل، هذا ما حدث بالضبط، لكنّ أمبرا عرفت أنّ خطّة وينستون قد فشلت. *إنهم لا يستطيعون سماع كلمة ممّا أقوله!*

كان سطح كازا ميلا يعلو حركة المرور والفوضى في الأسفل بمسافة كبيرة. والآن، أتى هدير المروحية ليُحبط المحاولة بالكامل.

صاحت أمبرا مجدّداً وهي تحاول رفع صوتها قدر الإمكان: "أنا لم أتعرّض للاختطاف! البيان الذي صدر عن القصر الملكي حول روبرت لانغدون ليس صحيحاً! أنا لست رهينة!".

كان وينستون قد ذكّرها منذ لحظات، *أنت ملكة إسبانيا المرتقبة. إن أوقفتِ هذه المطاردة، فستمتنع السلطات المحلّية عن ملاحقتكما. سيسبّب تصريحك إرباكاً كبيراً، ولن يعرف أحد أيّ أوامر عليه أن يتّبع.*

كانت أمبرا تعرف أنّ وينستون على حقّ، لكنّ الكلام الذي صرّحت به ضاع في ضجيج محرّكات المروحية فوق الحشد الصاخب.

فجأة، هدرت المروحية فوقها كالرعد، فتراجعت إلى الخلف بعيداً عن الدرابزين مع اقتراب الطائرة وتوقّفها فجأة وهي تحلّق أمامها مباشرة. فُتِح باب الطائرة على مصراعيه لترى وجهين مألوفين يحدّقان إليها؛ إنهما العميلان فونسيكا ودياز.

ذُعِرت عندما رفع العميل فونسيكا جهازاً غريباً وصوّبه مباشرة إلى رأسها. للحظة، خطرت ببالها أغرب الأفكار، *جوليان يريد قتلي. فأنا امرأة عاقر، ولا أستطيع أن أنجب له وريثاً. قتلي هو المخرج الوحيد من هذه الخطوبة.*

تراجعت إلى الخلف مبتعدة عن الجهاز المخيف، وأمسكت بهاتف إدموند بإحدى يديها، وحاولت أن تستند إلى شيء ما بيدها الأخرى. لكن، ما إن أرجعت قدمها إلى الوراء حتّى بدا لها وكأنّ الأرض تميد من تحتها. للحظة، لم تشعر سوى بالفراغ، حيث توقّعت أن تجد الإسمنت الصلب. فمال جسدها وهي تحاول استعادة توازنها، ولكنّها بدأت تنزلق جانبياً وسقطت على عدد من الدرجات.

ارتطم مرفقها الأيسر بالإسمنت، قبل أن يهوي جسدها بأكمله. مع ذلك، لم تشعر أمبرا فيدال بالألم، بل كان كلّ تركيزها منصباً على الشيء الذي طار من يدها، ألا وهو هاتف إدموند الفيروزي.

ربّاه، كلّا!

شاهدت برعب الهاتف وهو ينزلق على الإسمنت، قبل أن يرتطم بالأدراج متّجهاً إلى حافة الهاوية المؤدّية إلى الباحة الداخلية للمبنى. رمت بنفسها لالتقاط الهاتف، ولكنّه اختفى تحت الدرابزين، ليسقط في الهاوية.

لقد فقدنا اتّصالنا بوينستون...!

حاولت أمبرا أن تلحق به، فوصلت إلى الدرابزين، ورأت هاتف إدموند وهو يهوي باتّجاه أرض الردهة الحجرية، وهناك ارتطم بالبلاط الأنيق بقوّة وتحطّم إلى آلاف الشظايا المعدنية والزجاجية.

لقد ضاع وينستون في غمضة عين.

اندفع لانغدون يصعد السلالم، ثمّ خرج من برج المدخنة إلى سطح كازا ميلا. وجد نفسه وسط ضجيج يصمّ الآذان. ورأى مروحية تحلّق على ارتفاع منخفض إلى جانب المبنى، غير أنّه لم يرَ أثراً لأمبرا.

نظر حوله بذهول. *أين هي؟* كان قد نسي مدى غرابة هذا السطح، درابزين غير متوازٍ... سلالم شديدة الانحدار... جنود من الإسمنت... وحفر لا قرار لها.

"أمبرا!".

عندما رآها، شعر بموجة من الذعر. كانت أمبرا فيدال ممدّدة على الإسمنت عند حافة المنور. أسرع إليها لانغدون، وحين أوشك على الوصول إليها، سمع أزيز رصاصة حادّاً يمرّ بالقرب من رأسه لتنفجر الرصاصة على الإسمنت خلفه.

يا إلهي! انبطح لانغدون على الأرض مع مرور رصاصتين أخريَين من فوق رأسه. للحظة، اعتقد أنّ الرصاص آتٍ من المروحية، ولكن مع اقترابه من أمبرا، رأى عدداً من رجال الشرطة وهم يخرجون من برج آخر من الجهة المقابلة من السطح شاهرين أسلحتهم.

إنهم يريدون قتلي. يعتقدون أنّني خطفتُ الملكة المستقبلية! من الواضح أنّهم لم يسمعوا ما قالته من فوق السطح.

نظر لانغدون إلى أمبرا التي كانت الآن على بعد عشر ياردات عنه، وأدرك أنّ ذراعها تنزف. *ربّاه، لقد أصيبت!* مرّت رصاصة أخرى من فوق رأسه في اللحظة التي كانت أمبرا تنهض فيها لتتمسّك بالدرابزين المحيط بالمنور. وكافحت للنهوض.

"لا تنهضي!". صاح لانغدون بذلك وهو يسرع إليها ويحاول حمايتها بجسده. نظر إلى الأعلى، إلى العناصر الذين يضعون الخوذ والذين طوّقوا السطح مثل حرّاس صامتين.

في تلك اللحظة، سُمِع هدير صاخب جدّاً فوق رؤوسهم، وهبّت رياح حولهم مع انخفاض المروحية وتحليقها فوق المنور الضخم إلى جانبهما، حيث عزلت صفّ عناصر الشرطة عن الرؤية.

صاح أحدهم عبر مكبّر الصوت من داخل المروحية بالإسبانية: "أوقفوا إطلاق النار! أخفضوا أسلحتكم!".

أمام لانغدون وأمبرا مباشرة، ركع العميل دياز عند باب الطائرة المفتوح، مُثبِّتاً إحدى قدميه على العارضة، ومدّ يده نحوهما.

صاح قائلاً: "اصعدا!".

شعر لانغدون أنّ أمبرا تنكمش إلى جانبه.

صاح دياز مجدّداً رافعاً صوته ليعلو علي صوت المحرّكات: "حالاً!".

أشار العميل إلى درابزين المنور، وحثّهما على تسلّقه والإمساك بيده للقفز من فوق الهاوية إلى داخل الطائرة.

تردّد لانغدون مطوّلاً.

عندئذٍ، أخذ دياز مكبّر الصوت من فونسيكا ووجّهه مباشرة إلى وجه لانغدون. "بروفيسور، اصعد إلى المروحية حالاً!". تردّد صوت العميل كالرعد. "لدى الشرطة المحلية أوامر بإطلاق النار عليك! ونحن نعلم أنّك لم تخطف الآنسة فيدال! أريدكما أن تصعدا إلى متن الطائرة حالاً قبل أن يتعرّض أحدكما للقتل!".

الفصل 61

وسط الرياح التي ولّدتها المروحية، شعرت أمبرا بذراعي لانغدون تحملانها وتدفعانها نحو يد العميل دياز الممدودة.

منعتها الصدمة من الاعتراض.

صاح لانغدون وهو يصعد خلفها: "إنّها تنزف!".

فجأة، ارتفعت المروحية في الجوّ بعيداً عن السطح المتموّج، وتركت خلفها جيشاً صغيراً من عناصر الشرطة الذين كانوا يحدّقون جميعاً إلى الأعلى.

أغلق فونسيكا باب الطائرة، ثمّ توجّه إلى الجزء الأمامي منها، نحو الطيّار. أمّا دياز، فجلس إلى جانب أمبرا ليفحص ذراعها.

قالت: "إنّه مجرّد خدش".

"إذاً، سأُحضر حقيبة الإسعافات الأوّلية". وذهب دياز إلى الجزء الخلفي من الطائرة.

جلس لانغدون على المقعد المقابل لأمبرا، مواجهاً الجهة الخلفية للطائرة. والآن، بعدما أصبحا فجأة بمفردهما، نظر إليها وابتسم بارتياح قائلاً: "أنا سعيد جدّاً لأنّك بخير".

أجابت بإيماءة خفيفة من رأسها، ولكنها قبل أن تتمكّن من شكره، مال إلى الأمام وهمس لها بحماسة

والأمل بادٍ في عينيه: "أعتقد أنّني عثرت على شاعرنا الغامض، إنّه *وليام بليك*. فأنا لم أجد نسخة عن أعمال بليك الكاملة في مكتبة إدموند فحسب... بل إنّ الكثير من قصائده عبارة عن *توقعات*!". ثم مدّ لانغدون يده مضيفاً: "أعطيني هاتف إدموند، سأطلب من وينستون إجراء بحث بين أعمال بليك عن بيت شعر مؤلّف من سبعة وأربعين حرفاً!".

عندها، نظرت أمبرا إلى يد لانغدون الممدودة واجتاحها إحساس بالذنب. فمدّت يدها وأمسكت بيده قائلة وهي تتنهّد بأسف: "روبرت، لقد خسرنا هاتف إدموند. فقد سقط عن حافة المبنى".

حدّق إليها، ورأت الشحوب يغزو وجهه. *أنا آسفة يا روبرت*. راقبته وهو يكافح لاستيعاب هذا الخبر، وتخيّل المأزق الذي وقعا فيه الآن بعد انقطاع اتّصالهما بوينستون.

في قمرة القيادة، كان فونسيكا يصيح عبر هاتفه: "كلاهما سالمان، وهما معنا على متن الطائرة. جهّزوا طائرة النقل إلى مدريد. سأتّصل بالقصر وأبلغهم-"

صاحت أمبرا قائلة للعميل: "لا تزعج نفسك! أنا لن أذهب إلى القصر".

غطّى فونسيكا هاتفه، ثمّ استدار على مقعده ونظر إليها. "بل ستذهبين بالتأكيد! تلقّيت هذه الليلة أوامر بالحفاظ على سلامتك. وما كان ينبغي لك إطلاقاً أن تهربي من حمايتي. أنت محظوظة لأنّنا تمكنّا من الوصول في الوقت المناسب لإنقاذك".

سألته أمبرا: "إنقاذي! إن كان ذلك صحيحاً، فالسبب الوحيد هو أنّ القصر أطلق أكاذيب سخيفة حول البروفيسور لانغدون زاعماً أنّه قام باختطافي، وأنت تعلم تماماً أنّ هذا ليس صحيحاً! هل الأمير جوليان يائس إلى حدّ رغبته في المجازفة بحياة رجل بريء؟ هذا من دون ذكر مخاطرته بحياتي أنا!".

حدّق إليها فونسيكا ثمّ استدار على مقعده.

في تلك اللحظة، عاد دياز بحقيبة الإسعافات الأولية.

قال وهو يجلس إلى جانبها: "آنسة فيدال، افهمي من فضلك أنّ سلسلة القيادة انقطعت هذه الليلة بسبب اعتقال القائد غارزا. ومع ذلك، أريدك أن تعرفي أنّ الأمير جوليان لا علاقة له بالبيان الصحفي الذي خرج من القصر. في الواقع، لا يمكننا أن نؤكّد حتّى أنّ الأمير يعرف بما يجري حاليّاً. فنحن لم نتمكّن من الوصول إليه منذ أكثر من ساعة".

حدّقت إليه أمبرا: *ماذا!؟* "أين هو؟!".

قال دياز: "مكانه غير معروف حاليّاً، ولكنّه تواصل معنا بكلّ وضوح هذا المساء. الأمير يريدك سالمة".

قال لانغدون وقد عاد فجأة من شروده: "إن كان هذا صحيحاً، فإنّ اصطحاب الآنسة فيدال إلى القصر يشكّل خطأً فادحاً".

عندها، استدار فونسيكا وسأله: "ماذا قلت؟".

قال لانغدون: "أنا لا أدري من الذي يعطيكما الأوامر الآن، سيّدي. لكن، إن كان الأمير يريد حقّاً أن تكون خطيبته سالمة، إذاً أقترح عليكما الإصغاء إليّ جيّداً". وصمت قليلاً، ثم رفع نبرته مُضيفاً: "لقد قُتِل إدموند كيرش بهدف منع خروج اكتشافه إلى العلن. ومن قام بإسكاته لن يتورّع عن ارتكاب شيء لإنجاز مهمّته حتّى النهاية".

قال فونسيكا: "لكنّ مهمّته أنجزت أساساً، فإدموند قد مات".

قال لانغدون: "لكنّ اكتشافه لم يمت. فعرض إدموند حيّ، وما زال بالإمكان إعلانه للعالم".

فسأله دياز: "ألهذا السبب أتيتما إلى شقّته، بهدف إطلاقه مجدّداً؟".

أجاب لانغدون: "بالضبط. وهذا ما جعلنا هدفاً. أنا لا أدري من الذي فبرك البيان الذي زعم أنّ أمبرا قد اختُطفت، ولكن من الواضح أنّه شخص يسعى بيأس إلى إيقافنا. لذلك، إن كنتما جزءاً من تلك المجموعة، أي الناس الذين يحاولون دفن اكتشاف إدموند إلى الأبد، فما عليكما سوى أن تلقيا بالآنسة فيدال وبي من هذه المروحية حالاً".

حدّقت أمبرا إلى لانغدون، وتساءلت عمّا إذا كان قد فقد عقله.

فيما تابع لانغدون: "أمّا إن كنتما قد أقسمتما بصفتكما عضويْن في الحرس الملكي على حماية الأسرة الملكية، بمن في ذلك ملكة إسبانيا المستقبلية، فعليكما إذاً أن تدركا أنّه ما من مكان أخطر على الآنسة فيدال في هذه اللحظة من القصر الذي أصدر للتوّ تصريحاً عامّاً كاد يتسبّب بمقتلها". مدّ لانغدون يده إلى جيبه، وأخرج بطاقة أنيقة مزخرفة وقال: "أقترح أن تصطحباها إلى العنوان المدوّن في أسفل هذه البطاقة".

أخذ فونسيكا البطاقة وتأمّلها عابساً، ثم قال: "هذا سخيف".

قال لانغدون: "ثمّة سياج أمني حول الممتلكات بأكملها. بإمكان الطيّار أن يهبط، وينزلنا نحن الأربعة، ثمّ يطير قبل أن يدرك أحد أنّنا هناك. فأنا أعرف الشخص المسؤول. يمكننا أن نختبئ هناك بعيداً عن الأنظار، إلى أن نحلّ هذه المسألة. بإمكانكما مرافقتنا".

"أشعر أنّنا سنكون بأمان أكبر في حظيرة عسكرية في المطار

"هل أنت مستعدّ حقّاً للوثوق بفريق عسكري يتلقّى الأوامر على الأرجح من الأشخاص أنفسهم الذين كادوا يتسبّبون بمقتل الآنسة فيدال؟".

بقي تعبير وجه فونسيكا جامداً.

أخذت أفكار أمبرا تتسارع بجنون، وتساءلت عن المكتوب على البطاقة. *إلى أين يريد لانغدون الذهاب؟* فقد بدا من حدّته المفاجئة أنّ ثمّة أموراً على المحكّ تتجاوز مسألة الحفاظ على سلامتها. لقد لمست تفاؤلاً جديداً في صوته، وشعرت أنّه لم يتخلّ عن الأمل في إمكانيّة إطلاق محاضرة إدموند مجدّداً.

أخذ لانغدون البطاقة من فونسيكا، وقدّمها لأمبرا. "لقد وجدت هذه البطاقة في مكتبة إدموند".

تأمّلت أمبرا البطاقة وعرفت على الفور ماهيّتها.

هذه البطاقات المعروفة باسم "سجلّات الإعارة" أو "بطاقات العنوان" بطاقاتٌ مزخرفةٌ وأنيقةٌ تُعطى من قبل أمناء المتاحف للمانحين مقابل تحفة فنّية أعيرت للمتحف مؤقّتاً. وتقليدياً، تتمّ طباعة بطاقتين متشابهتين، وتُعرَض واحدة في المتحف لشكر المانح الذي يحتفظ بالبطاقة الثانية كضمان للقطعة التي أعارها.

هل أعار إدموند كتاب قصائد بليك لأحد المتاحف؟

بحسب البطاقة، لم يبتعد كتاب إدموند أكثر من بضعة كيلومترات عن شقّته في برشلونة.

أعمال وليام بليك الكاملة

من المجموعة الخاصّة لـ

إدموند كيرش

على سبيل الإعارة إلى

بازيليك ساغرادا فاميليا

شارع مايوركا، 401

08013 برشلونة، إسبانيا

قالت أمبرا: "أنا لا أفهم! لماذا يُقدِم ملحد صريح على إعارة كتاب لكنيسة؟".

قال لانغدون: "وليس أيّ كنيسة، بل التحفة المعمارية الأكثر غموضاً لغاودي... وأشار من النافذة إلى البعيد أمامهما قبل أن يتابع: "وقريباً ستكون أطول كنيسة في أوروبا".

التفتت أمبرا، وحدّقت عبر المدينة نحو الشمال. وفي البعيد، ومن بين الرافعات والسقالات ومصابيح البناء، لمعت أبراج ساغرادا فاميليا غير المكتملة، والتي كانت عبارة عن مجموعة من الأبراج المثقّبة التي تشبه إسفنج بحر عملاقاً خرج من قعر المحيط إلى النور.

منذ أكثر من قرن من الزمن، ما زالت بازيليك ساغرادا فاميليا المثيرة للجدل قيد الإنشاء، وتعتمد فقط على التبرّعات الخاصّة من المؤمنين. انتقدها التقليديون بسبب شكلها العضوي الغريب، واستخدام "تصميم يحاكي الطبيعة"، إلّا أنّ الحداثيين أشادوا بسلاستها البنيوية واستخدام الأشكال "الزائدية" لعكس العالم الطبيعي.

قالت أمبرا وهي تلتفت إلى لانغدون: "أنا أقرّ بأنّ هذا أمر غير تقليدي، ولكنّها تبقى كنيسة كاثوليكية. وأنت تعرف إدموند".

فكّر لانغدون في سرّه، *أنا أعرف إدموند. أعرف جيّداً أنّه يعتقد أنّ ساغرادا فاميليا تخفي هدفاً سرياً ورمزيّة تتجاوز المسيحية.*

منذ تأسيس الكنيسة الغريبة في عام 1882، كثرت نظريّات المؤامرة حول أبوابها المشفّرة على نحو غامض، وأعمدتها الحلزونية المستوحاة من الفلك، وواجهاتها المحمّلة بالرموز، ومربّعات النقوش الرياضية السحرية، هذا فضلاً عن بنائها الغريب الذي يشبه بوضوح العظام الملتوية والأنسجة الضامّة.

كان لانغدون على علم بتلك النظريّات بالطبع، ولكنّه لم يولِها الكثير من المصداقية. لكن، منذ بضع سنوات، فوجئ عندما اعترف له إدموند أنّه واحد من عدد متنامٍ من عشّاق غاودي الذين يعتقدون سرّاً أنّ ساغرادا فاميليا صُمِّمت بشكل سرّي كشيء مختلف عن كنيسة مسيحية، وربّما تكون مقاماً باطنياً للعلم والطبيعة.

وجد لانغدون هذه الفكرة بعيدة الاحتمال تماماً، وذكّر إدموند أنّ غاودي كان كاثوليكياً مخلصاً منحه الفاتيكان تقديراً عالياً، لا بل وفكّروا بتطويبه. وأكّد لانغدون لكيرش أنّ تصميم ساغرادا فاميليا غير الاعتيادي ليس سوى مثال على مقاربة غاودي الحداثية الفريدة من نوعها للرمزية المسيحية. فما كان من إدموند سوى أن ابتسم ابتسامة ذات معنى؛ كما لو أنّه يحتفظ سرّاً بقطعة غامضة من الأحجية وليس جاهزاً لمشاركته بها بعد.

سرّ آخر من أسرار كيرش، تماماً مثل معركته الخفيّة مع السرطان.

تابعت أمبرا قائلة: "حتّى لو كان إدموند قد أعار ساغرادا فاميليا كتابه، وحتّى لو عثرنا عليه، فلن نتمكّن أبداً من تحديد البيت بقراءة الكتب صفحة صفحة. وأنا أشكّ حقّاً في أن يكون إدموند قد استخدم قلماً لتظليل بيت شعري من مخطوطة لا تقدّر بثمن".

أجاب لانغدون مبتسماً: "أمبرا، انظري إلى الجهة الخلفية من البطاقة".

نظرت أمبرا إلى البطاقة، ثمّ قلبتها على الجهة الأخرى، وقرأت النصّ المكتوب عليها.

أعادت قراءة النصّ مجدّداً والدهشة تعلو وجهها.

وعندما نظرت إلى لانغدون مجدّداً، كانت عيناها مليئتين بالأمل.

قال لانغدون مبتسماً: "كما سبق لي وقلت، أعتقد أنّه علينا الذهاب إلى هناك".

سرعان ما تلاشت حماسة أمبرا كما أتت. "ومع ذلك، ثمّة مشكلة. فحتّى لو عثرنا على كلمة السرّ –"

"أعرف، لقد خسرنا هاتف إدموند، ما يعني أنّنا لن نتمكّن من الوصول إلى وينستون والتواصل معه".

"تماماً".

"أعتقد أنّني أستطيع حلّ هذه المشكلة".

نظرت إليه أمبرا بتشكّك: "المعذرة؟!".

"ما علينا سوى تحديد موقع وينستون نفسه، أي الكمبيوتر الذي صنعه إدموند. وإن كنّا غير قادرين على الوصول إليه عن بعد، فما علينا سوى أخذ كلمة السرّ إلى وينستون *شخصياً*".

حدّقت إليه أمبرا كما لو كان مصاباً بالجنون.

فيما تابع لانغدون: "قلتِ لي إنّ إدموند بنى وينستون في منشأة سرّية".

"أجل، لكنّ تلك المنشأة قد تكون في أيّ مكان في العالم!".

"كلّا، إنّها هنا في برشلونة. لا بدّ أن تكون هنا. فبرشلونة هي المدينة التي عاش فيها إدموند وعمل. وبناء هذا الجهاز الذكيّ كان واحداً من أحدث مشاريعه، ولذلك من المنطقي أن يكون إدموند قد بنى وينستون هنا".

"روبرت، حتّى لو كان هذا صحيحاً، فأنت تبحث عن إبرة في كومة قشّ. برشلونة مدينة كبيرة جداً. وسيكون من المستحيل–"

فقال لانغدون: "أنا أستطيع العثور على وينستون، أنا واثق من ذلك". وابتسم مشيراً إلى المدينة المضاءة تحتهما: "قد يبدو ما سأقوله جنونياً، ولكنّني عندما رأيت هذا المنظر الجوّي لبرشلونة، أدركت شيئاً للتوّ...".

بقيت جملته عالقة وهو ينظر من النافذة.

فقالت له أمبرا بترقّب: "هلّا تشرح من فضلك".

قال: "كان ينبغي لي أن أرى ذلك في وقت سابق. ثمّة شيء في وينستون، لغز مثير للاهتمام كان يزعجني طوال الليل. وأخيراً، فهمت ماهيّته".

ألقى لانغدون نظرة حذر على عاملَي الحرس الملكي، ثمّ أخفض صوته، ومال نحو أمبرا قائلاً: "هلّا تثقين بي في هذه المسألة. أنا أعتقد أنّني أستطيع العثور على وينستون. المشكلة هي أنّنا لن نستفيد شيئاً من عثورنا على وينستون من دون كلمة سرّ إدموند. حاليّاً، علينا أنا وأنت التركيز على إيجاد ذلك البيت الشعري، وساغرادا فاميليا فرصتنا للقيام بذلك".

حدّقت أمبرا إلى لانغدون مطوّلاً، ثمّ أومأت برأسها بشيء من الحيرة، ونظرت إلى المقعد الأمامي قبل أن تنادي قائلة: "أيّها العميل فونسيكا! من فضلك، اطلب من الطيّار أن يستدير ويصطحبنا إلى ساغرادا فاميليا حالاً".

استدار فونسيكا وحدّق إليها قائلاً: "آنسة فيدال، كما سبق وقلت، لديّ أوامر–"

فقاطعته ملكة إسبانيا المستقبلية وهي تميل إلى الأمام، وتنظر إلى عينيه: "أيّها العميل فونسيكا، خذنا إلى ساغرادا فاميليا حالاً وإلّا فسيكون أوّل أمر أصدره عند عودتي هو طردك من العمل".

الفصل 62

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

القاتل مرتبط بطائفة دينية!

وردنا خبر آخر من monte@iglesia.org، يُفيد أنّ قاتل إدموند كيرش عضو في طائفة مسيحية سرّية ومحافِظة للغاية تُعرَف باسم الكنيسة البالمارية!
كان لويس أفيلا يقوم بتجنيد الأتباع على الشبكة لصالح البالماريين منذ أكثر من عام. وانتسابه إلى هذه المنظّمة الدينية العسكرية المثيرة للجدل، يفسّر أيضاً وشم "المنتصِر" على راحة يده.



هذا الرمز الفرانكوي مستخدم بانتظام من قبل الكنيسة البالمارية التي تملك- استناداً إلى صحيفة إسبانيا الوطنية إل بايس- "بابا" خاصّاً بها. وقد قامت بتطويب عدد من القادة الذين عُرِفوا بالقسوة- بمن فيهم فرانسيسكو فرانكو وأدولف هتلر- كقدّيسين!
ألا تصدّقوننا؟ ما عليكم سوى إجراء بحث حول ذلك.
كلّ شيء بدأ برؤيا باطنية.
في عام 1975، زعم وسيط تأمين يُدعى كليمنتي دومينغويز إي غوميز أنّه رأى رؤيا تُوِّج فيها بابا من قبل يسوع المسيح نفسه. فما كان من كليمنتي إلّا أن اتّخذ لنفسه الاسم الباباوي غريغوري السابع عشر، وانشقّ عن الفاتيكان وعيّن كرادلة لنفسه. وعلى الرغم من رفض روما للبابا المعادي الجديد، إلّا أنّه جمع حوله آلاف الأتباع، فضلاً عن ثروة كبيرة مكّنته من بناء كنيسة محصّنة، وتوسيع نفوذه دولياً، ورسم مئات من الأساقفة البالماريين حول العالم.

ولا تزال الكنيسة البالمارية المنشقّة تعمل حتّى اليوم من مقرّها العالمي؛ وهو عبارة عن مجمّع آمن ومحصّن يحمل اسم جبل المسيح ملك إل بالمار دي ترويا، في إسبانيا. ومع أنّ البالماريين ليس معترفاً بهم من قبل الفاتيكان في روما، إلّا أنّهم ما زالوا يجتذبون أتباعاً من الكاثوليك المحافظين جدّاً.

ترقّبوا المزيد من الأخبار حول هذه الطائفة قريباً، فضلاً عن آخر المستجدّات بشأن الأسقف أنطونيو فالديسبينو الذي يبدو أنّه متورّط هو أيضاً في مؤامرة هذه الليلة.

الفصل 63

فكّر لانغدون في سرّه: *هذا مدهش.*

فببضع كلمات قوية، أجبرت أمبرا طاقم المروحية EC145 على الانعطاف والتوجّه إلى بازيليك ساغرادا فاميليا.

ومع استواء الطائرة في الجوّ وتحليقها مجدّداً فوق المدينة، التفتت أمبرا إلى العميل دياز وطلبت منه استخدام هاتفه الخلوي، فأعطاها إيّاه على مضض.

وعلى الفور، أطلقت أمبرا المتصفّح، وبدأت تقرأ عناوين الأخبار.

همست وهي تهزّ رأسها بإحباط: "تبّاً! لقد حاولتُ إخبار وسائل الإعلام بأنك لم تقم باختطافي، لكنّ أحداً لم يسمعني".

قال لانغدون: "ربّما هم يحتاجون إلى المزيد من الوقت لنشر الخبر". *فقد حدث ذلك منذ عشر دقائق وحسب.*

أجابت: "لقد مرّ وقت كافٍ، فأنا أرى مقاطع فيديو لمروحيتنا وهي تنطلق بعيداً عن كازا ميلا".

حقّاً! في بعض الأحيان، كان لانغدون يشعر بأنّ العالم يدور على محوره بسرعة كبيرة. فما زال يذكر كيف كانت "الأخبار العاجلة" تُطبَع على الورق وتوضع على بابه في الصباح التالي.

قالت أمبرا بنبرة من المرح: "بالمناسبة، يبدو أنّنا - أنا وأنت - نحتلّ جزءاً من الأخبار الأكثر تداولاً في العالم".

أجابها: "كنت أعرف أنّه ما كان ينبغي لي اختطافك".

"هذا ليس مضحكاً. على الأقلّ، نحن لا نتصدّر العناوين". ثمّ ناولته الهاتف قائلة: "ألقِ نظرة على هذا الخبر

رمق لانغدون الشاشة، ورأى صفحة ياهو الرئيسة مع أخبارها العشرة الأكثر تداولاً، تحت عنوان "Trending Now". نظر إلى أعلى القائمة، إلى القصّة الأكثر انتشاراً:

1 "من أين أتينا؟"/إدموند كيرش

من الواضح أنّ العرض الذي قدّمه إدموند شكّل مصدر إلهام للناس حول العالم لكي يبدأوا ببحث هذا الموضوع ومناقشته. فكّر لانغدون في سره: *كان إدموند سيفرح بذلك*. ولكنّه عندما نقر على الرابط ورأى العناوين العشرة الأولى، أدرك أنّه كان مخطئاً. فالنظريّات العشر الأولى بشأن "من أين أتينا" كانت كلّها قصصاً تتمحوّر حول قصّة الخلق والكائنات الفضائية.

لو رأى إدموند ذلك لذُعر تماماً.

تذكّر لانغدون واحداً من أشهر تعليقات إدموند في منتدى عامّ تحت عنوان العلم والروحانيات، وفيه انزعج إدموند من أسئلة الحضور إلى حدّ أنّه رفع يديه أخيراً وغادر المسرح وهو يصيح: "كيف يعقل ألّا يتمكّن أناس أذكياء من مناقشة أصلهم من دون التحدّث عن الإيمان والكائنات الفضائية!".

واصل لانغدون القراءة إلى أن عثر على رابط بريء في الظاهر لمحطّة *سي إن إن مباشر* تحت عنوان "ماذا اكتشف كيرش؟".

ضغط على الرابط وحمل الهاتف لكي تتمكّن أمبرا من المشاهدة هي أيضاً. وعندما بدأ شريط الفيديو، رفع الصوت، ومال هو وأمبرا نحو الهاتف لكي يتمكّنا من السماع مع هدير محرّكات المروحية.

ظهرت إحدى مذيعات السي إن إن، وكان لانغدون قد رآها مرّات عديدة على مرّ السنوات. قالت: "ينضمّ إلينا الآن عالم الفضاء الفلكي في الناسا د. غريفن بينيت، الذي يملك بعض الأفكار بشأن اكتشاف إدموند كيرش الغامض. أهلاً بك د. بينيت".

أومأ الضيف برأسه، وكان رجلاً ملتحياً يضع نظّارة ذات إطار سلكي. "شكراً لك. أوّلاً، أودّ القول إنّني أعرف إدموند شخصيّاً. وأنا أكنّ احتراماً كبيراً لذكائه، وإبداعه، والتزامه بالتقدّم والابتكار. واغتياله اليوم يشكّل ضربة هائلة للمجتمع العلمي. وأنا أتمنّى أن تؤدّي هذه الجريمة الجبانة إلى تحصين المجتمع الفكري للوقوف يداً واحدة ضدّ مخاطر الحماسة الدينية العمياء، والفكر المرتكز على الخرافات، وكلّ من يلجأون إلى العنف وليس إلى الحقائق لفرض معتقداتهم. أتمنّى حقّاً أن تكون الشائعات التي سمعتها الليلة صحيحة؛ وهي أنّ ثمّة أشخاصاً يعملون جاهدين لإيجاد طريقة من أجل نشر اكتشاف إدموند للعالم".

ألقى لانغدون نظرة على أمبرا وقال: "أعتقد أنّه يعنينا نحن".

أومأت برأسها موافقة.

قالت المذيعة: "الكثير من الناس يأملون ذلك أيضاً، د. بينيت. هل بإمكانك أن تلقي الضوء على ما يمكن أن يكون اكتشاف إدموند كيرش برأيك؟".

تابع د. بينيت قائلاً: "بصفتي عالم فضاء، أعتقد أنّه يجدر بي أن أقدّم أوّلاً تعليقاً شاملاً... وبرأيي، كان إدموند كيرش سيقدّره". والتفت الرجل ونظر مباشرة إلى الكاميرا قبل أن يتابع. "عندما يتعلّق الأمر بمفهوم الحياة خارج كوكب الأرض، ثمّة مجموعة هائلة من المعلومات العلميّة السيّئة، ونظريّات المؤامرة، والفانتازيا الصريحة. أودّ أن أشير هنا إلى أنّ دوائر المحاصيل مجرّد خدعة. وأشرطة تشريح الكائنات الفضائية ليست سوى حيلة فوتوغرافية. وما من بقرة تمّ تشويهها على يد كائن فضائي. وطبق روسويل كان بالوناً مناخياً حكومياً يُدعى مشروع موغول. أمّا الأهرامات الكبرى فبُنيت على أيدي المصريين من دون أيّ تكنولوجيا خارجية. والأهمّ من ذلك كلّه، كلّ القصص عن اختطاف أشخاص من قبل كائنات فضائية مجرّد كذب".

سألته المذيعة: "كيف يمكنك أن تكون واثقاً من ذلك؟".

فقال العالم وقد بدا عليه الانزعاج وهو يلتفت إلى المذيعة مجيباً: "المنطق البسيط. فأيّ شكل من أشكال الحياة المتقدّمة بما فيه الكفاية للسفر سنوات ضوئية عبر الفضاء وبين النجوم لن يجد شيئاً يتعلّمه باستكشاف حقول المزارعين في كانساس. كما أنّ أشكال الحياة هذه لن تحتاج إلى التحوّل إلى زواحف والتسلّل إلى الحكومات من أجل الاستيلاء على الأرض. أيّ شكل من أشكال الحياة يملك تكنولوجيا تتيح له السفر إلى الأرض لن يحتاج إلى التخفّي أو الحيلة من أجل السيطرة علينا على الفور

علّقت المذيعة بضحكة محرَجة: "في الواقع، هذا مثير للقلق! وما علاقة ذلك بأفكارك حول اكتشاف السيد كيرش؟".

تنهّد الرجل قائلاً: "لديّ اعتقاد قويّ بأنّ إدموند كيرش كان ينوي الإعلان عن أنّه وجد دليلاً قاطعاً على أنّ الحياة لم تنشأ على الأرض بل نشأت في الفضاء".

شعر لانغدون بالشكّ فوراً، لا سيّما وأنّه يعرف رأي كيرش بموضوع الحياة الفضائية على الأرض.

قالت المذيعة: "هذا مذهل. وما الذي يدفعك إلى قول ذلك؟".

"نشأة الحياة في الفضاء هي الإجابة العقلانية الوحيدة. فنحن نملك دليلاً لا يقبل الجدل على أنّ المادة يمكن أن تُتبادل بين الكواكب. فلدينا أجزاء من المرّيخ والزهرة مع مئات العيّنات من مصادر مجهولة تدعم فكرة أن الحياة أتت عبر صخور فضائية على شكل جراثيم، ثمّ تطوّرت في نهاية المطاف إلى حياة على الأرض".

أومأت المضيفة برأسها باهتمام. "لكن، أليست هذه النظريّة، أي الجراثيم القادمة من الفضاء، موجودة منذ عقود من الزمن من دون دليل يؤكّد صحّتها؟ كيف تعتقد أن عبقري تكنولوجيا مثل إدموند كيرش استطاع أن يُثبِت نظريّة كهذه تبدو أقرب إلى مجال علم الأحياء الفلكي منها إلى علم الكمبيوتر؟".

أجاب د. برينيت: "في الواقع، تمتاز هذه الفكرة بمنطق قويّ. فقد حذّر كبار علماء الفلك منذ عقود من الزمن من أنّ الأمل الوحيد لبقاء البشرية يتمثّل في مغادرتها هذا الكوكب. فالأرض أساساً في منتصف دورة حياتها، وفي نهاية المطاف، ستتمدّد الشمس إلى عملاق أحمر وتقضي علينا؛ هذا إن نجونا من التهديدات الوشيكة لاصطدام كويكب عملاق أو انفجار أشعّة غامّا ضخمة. لهذه الأسباب، نحن نصمّم أساساً بؤراً استيطانية على المريخ حتّى نتمكن من الانتقال إلى الفضاء السحيق بحثاً عن كوكب مضيف جديد. وغنيّ عن القول إنّ هذا المشروع ضخم، وإنّنا إن استطعنا إيجاد طريقة أكثر بساطة لضمان بقائنا، فما علينا سوى تنفيذها فوراً".

صمت د. بينيت هنيهة ثمّ أضاف: "ثمّة طريقة أكثر بساطة. ماذا لو استطعنا بطريقة ما تغليف الجينوم البشري في كبسولات صغيرة وإرسال الملايين منها إلى الفضاء على أمل أن يتجذّر أحدها، ونبذر الحياة البشرية في كوكب ناءٍ؟ فمع أنّ هذه التكنولوجيا ليست موجودة بعد، ولكننا نناقشها كخيار ممكن لبقاء البشرية. وإن كنّا نفكّر بإمكانيّة *بذر الحياة*، فهذا يعني أنّ ثمّة شكلاً من أشكال الحياة الأكثر تقدّماً ربما يكون قد فكّر بهذا الاحتمال أيضاً".

بدأ لانغدون يشتبه بالمنحى الذي تتّخذه نظرية د. بينيت.

تابع قائلاً: "إن أخذنا ذلك في الاعتبار، أعتقد أنّ إدموند كيرش قد اكتشف توقيعاً من نوع ما من خارج الأرض، قد يكون فيزيائياً، أو كيميائيّاً، أو رقمياً، لا أدري، يُثبِت أنّ الحياة على الأرض بذرت من الفضاء. ولا بدّ لي هنا من أن أذكر أنّنا خضنا أنا وإدموند جدالاً طويلاً حول هذه المسألة منذ بضع سنوات. فنظريّة الميكروب الفضائي لم تعجبه يوماً، لأنّه يعتقد- شأنه شأن كثيرين- أنّ المادة الوراثية ما كان من الممكن أن تنجو من الإشعاعات ودرجات الحرارة القاتلة التي تواجهها في رحلتها الطويلة إلى الأرض. غير أنّني أعتقد شخصياً أنّه من الممكن تماماً ختم بذور الحياة هذه بمادّة واقية مقاومة للإشعاعات، وقذفها في الفضاء بهدف ملء الكون بنوع من البانسبيرميا، أو البذور الكونية بمساعدة التكنولوجيا"

قالت المضيفة وقد بدا عليها شيء من الاضطراب: "حسناً. لكن، إن كان ثمّة من اكتشف دليلاً على أنّ البشر أتوا من كيس بذور مرسل من الفضاء، فهذا يعني أنّنا لسنا وحدنا في الكون . وصمتت قليلاً قبل أن تضيف: "كما يعني أيضاً، وهذا أكثر غرابة بكثير...

"نعم؟". وابتسم د. بينيت للمرّة الأولى.

"هذا يعني أنّه أيّاً يكن من أرسل تلك الأكياس ينبغي أن يكون... مثلنا... بشرياً!".

"أجل، هذا كان استنتاجي الأوّل أنا أيضاً". وصمت العالِم قليلاً قبل أن يتابع: "ثمّ صوَّب لي إدموند هذا الرأي. وبيَّن لي العيب في هذا التفكير".

فوجئت المضيفة. "إذاً، كان إدموند يعتقد أنّ من أرسل هذه البذور ليس بشرياً! وكيف ذلك، إن كانت تلك البذور - إذا جاز التعبير - وصفات للانتشار البشري؟".

أجاب العالم: "البشر هم وصفة نصف مخبوزة، وأنا بذلك أستخدم تعبير إدموند بالضبط".

"المعذرة؟".

"قال إدموند إنّه إن كانت نظريّة كيس البذور صحيحة، فإنّ الوصفة التي أُرسِلت إلى الأرض هي على الأرجح نصف مخبوزة حاليّاً، أي لم تكتمل بعد؛ ما يعني أنّ البشر ليسوا المنتج النهائي بل مجرد نوع انتقالي يتطوّر إلى شي آخر... شيء غريب".

بدت الحيرة على وجه مذيعة السي إن إن.

"بحسب إدموند، إن أيّ شكل من أشكال الحياة المتقدّمة لن يُرسِل وصفة إلى البشر تماماً، كما أنّه لن يُرسل وصفة للشمبانزي". ضحك العالم مضيفاً: "في الواقع، اتّهمني إدموند بأنّني مسيحي في السرّ، ومازحني قائلاً إنّ العقل الديني وحده يعتقد أنّ الجنس البشري مركز الكون".

قالت المضيفة وقد بدا عليها بوضوح عدم الارتياح مع المنحى الذي تتّخذه المقابلة: "حسناً حضرة الدكتور، من المؤكّد أنّ حديثنا معك كان مفيداً للغاية. شكراً على مجيئك".

انتهت المقابلة، فالتفتت أمبرا على الفور إلى لانغدون قائلة: "روبرت، إن كان إدموند قد اكتشف دليلاً على أنّ البشر كائنات فضائية شبه متطوّرة، فهذا يطرح مسألة أكبر من ذلك: إلام بالضبط نحن نتطوّر؟".

قال لانغدون: "أجل، وأعتقد أنّ إدموند عبّر عن تلك المسألة بطريقة مختلفة بعض الشيء، طارحاً السؤال التالي: إلى أين نحن ذاهبون؟".

فوجئت أمبرا بعض الشيء من العودة إلى السؤال نفسه. "سؤال إدموند الثاني في العرض الذي قدّمه هذه الليلة".

"بالضبط. من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ من الواضح أنّ عالم الناسا الذي شاهدناه للتوّ يعتقد أنّ إدموند وجد إجابات للسؤالين".

"ما رأيك أنت يا روبرت؟ أهذا ما اكتشفه إدموند؟".

تغضّن جبين لانغدون بالشكّ وهو يفكّر بالاحتمالات. فنظريّة العالِم - على الرغم من كونها مثيرة للاهتمام - إلّا أنّها عمومية جدّاً، ومن عالَم آخر مقارنة بالتفكير الحادّ الذي يتمتّع به إدموند كيرش. *إدموند يحبّ الأشياء البسيطة، والواضحة، والتقنية. لقد*

كان عالم كمبيوتر. والأهمّ أنّ لانغدون لم يستطع أن يتخيّل كيف يُثبِت إدموند نظريّة كهذه. هل نقّب وعثر على كيس بذور قديم؟ هل كشف عن انتقال لكائنات فضائية؟ كلا الاحتمالين لو حدثا لكانا ثوريَين، لكنّ اكتشاف إدموند استغرق وقتاً.

قال إدموند إنّه يعمل على اكتشافه منذ أشهر.

فقال لانغدون لأمبرا: "بالطبع أنا لا أعلم، لكنّ حدسي يخبرني أنّ اكتشاف لانغدون لا علاقة له بالحياة خارج كوكب الأرض. أنا أعتقد حقّاً أنّه اكتشف شيئاً مختلفاً تماماً".

بدت الدهشة على وجه أمبرا، ومن ثمّ الحيرة. "أعتقد أنّ ثمّة طريقة واحدة لمعرفة ذلك". وأشارت إلى النافذة.

أمامهما، تألّقت أبراج ساغرادا فاميليا.

الفصل 64

استرق الأسقف فالديسبينو نظرة سريعة أخرى إلى جوليان الذي كان لا يزال يحدّق بشرود من نافذة سيّارة الأوبل سيدان التي تجتاز بسرعة الطريق السريع M-505.

تساءل فالديسبينو: *ما الذي يفكّر فيه؟*

كان الأمير صامتاً منذ ثلاثين دقيقة تقريباً، ولم يتحرّك سوى ليمدّ يده إلى جيبه في حركة لا إرادية بحثاً عن هاتفه، ليدرك بعد ذلك أنّه أودعه في خزنته.

فكّر فالديسبينو في سرّه: *أحتاج إلى إبقائه في الظلام لفترة بعد*.

وعلى المقعد الأمامي، كان مساعد الكاهن لا يزال يقود السيارة باتّجاه منزل الأمير؛ مع أنّ فالديسبينو سيخبره قريباً أنّ ذلك المنزل ليس وجهتهما على الإطلاق.

حوّل جوليان نظره فجأة عن النافذة، وربّت على كتف مساعد الكاهن قائلاً: "من فضلك شغّل المذياع، أودّ أن أسمع الأخبار".

ولكن، قبل أن يتمكّن الشابّ من تنفيذ الأمر، مال فالديسبينو إلى الأمام ووضع يداً حازمة على كتف الشابّ قائلاً: "هلّا نجلس بهدوء".

عندها، التفت جوليان إلى الأسقف وقد بدا عليه انزعاج واضح من تجاهل الأسقف له.

فقال فالديسبينو على الفور، وقد شعر بانعدام الثقة المتنامي في عينَي الأمير: "أنا آسف، ولكنّ الوقت تأخّر، وأفضّل التفكير بصمت عوضاً عن سماع كلّ هذه الثرثرة".

قال الأمير بنبرة حادّة: "لقد كنتُ أفكّر قليلاً، وأودّ أن أعرف بما يجري في بلادي. لقد عزلنا أنفسنا تماماً هذه الليلة، وقد بدأت أتساءل عمّا إذا كانت تلك فكرة جيّدة".

فأكّد له فالديسبينو قائلاً: "إنّها فكرة جيّدة. وأنا أقدّر الثقة التي أوليتموني إيّاها". ثمّ رفع يده عن كتف مساعد الكاهن، وأشار إلى المذياع قائلاً: "من فضلك، شغّل المذياع على محطّة راديو ماريا إسبانيا ربّما". وأمل فالديسبينو أن تكون المحطّة الكاثوليكية العالمية أكثر لطفاً ولباقة من معظم المحطّات الإعلامية بشأن التطوّرات المثيرة للقلق التي طرأت هذه الليلة.

وعندما تصاعد صوت المذيع من مكبرات الصوت الرخيصة الموجودة في السيّارة، كان يناقش العرض الذي قدّمه إدموند كيرش وحادثة الاغتيال. *جميع المحطّات في العالم تتكلّم عن هذا الحدث*. تمنّى فالديسبينو وحسب ألّا يُذكر اسمه خلال البثّ.

لحسن الحظّ، بدا أنّ المذيع يتناول في تلك اللحظة موضوع مخاطر الرسالة المعادية للإيمان التي دعا إليها كيرش، ولا سيّما الخطر الناتج عن تأثير ذلك على شباب إسبانيا. وكمثال على ذلك، بدأت المحطّة تعيد بثّ المحاضرة التي ألقاها كيرش مؤخّراً في جامعة برشلونة.

قال كيرش بهدوء للطلّاب المجتمعين: "يخشى الكثيرون منّا أن نسمّي أنفسنا ملحدين، لكنّ الإلحاد ليس فلسفة، ولا وجهة نظر للعالم. الإلحاد مجرّد قبول لأمر بديهي".

صفّق عدّة طلّاب تعبيراً عن موافقتهم.

تابع كيرش: "تعبير ملحد لا ينبغي أن يكون موجوداً حتّى. فما من أحد يرغب في التعريف عن نفسه بأنّه ليس عالم فلك أو ليس خيميائياً. نحن لا نملك كلمات تُعبِّر عن الأشخاص الذين يشكّون في أنّ ألفيس ما زال حيّاً، أو الأشخاص الذين يشكّون في وجود كائنات فضائية تعبر المجرّة لمجرّد مضايقة الماشية. فالإلحاد ليس أكثر من أصوات يطلقها الناس عند وجود معتقدات دينية لا يجدون تبريراً لها".

فراح عدد متزايد من الطلّاب يصفّقون معلنين موافقتهم.

قال لهم كيرش: "وبالمناسبة، هذا التعريف ليس منيّ أنا، بل هذه كلمات عالم الأعصاب سام هاريس. وإن لم تقرأوا بعد كتابه الذي يحمل عنوان *رسالة إلى أمّة مسيحية*، فأنا أدعوكم إلى قراءته قريباً".

عبس فالديسبينو وهو يتذكّر الضجّة التي سبّبها كتاب هاريس، *Carta a una Nación Cristiana*، الذي تردّد صداه في إسبانيا، مع أنّه كُتب للأميركيين.

تابع كيرش: "أجيبوا برفع الأيدي، من منكم يعتقد بأيّ من الآلهة القديمة التالية: أبولو؟ زيوس؟ فولكان؟". صمت قليلاً، ثمّ ضحك. "لا أحد منكم؟ حسناً، هذا يعني أنّنا جميعنا تقريباً ملحدون في ما يتعلّق بتلك الآلهة".

صفّق الحشد بحماسة أكبر، وضحك الجميع.

في تلك اللحظة، شعر فالديسبينو بالسرور لأنّ الأمير طلب الاستماع إلى المذياع. *على جوليان أن يسمع ذلك*. فسحر كيرش الشيطاني المغري كان دليلاً على أنّ أعداء المسيح ما عادوا يجلسون مكتوفي الأيدي.

تابع كيرش: "أنا أميركي، وأشعر أنّني محظوظ جدّاً لأنّني ولدت في إحدى أكثر الدول التقدّمية على وجه الأرض على الصعيد الفكري".

ضحك الحضور مجدّداً.

"في ولاية كنتاكي، أعلن القسّ بيتر لاروفا علناً: إن وجدت في الإنجيل مقطعاً يقول إنّ اثنين زائد اثنين يساوي خمسة، فإنّني سأصدّق ذلك وأعتبره حقيقة".

سُمِع في القاعة المزيد من الضحك.

"أنا أوافقكم، فمن السهل الضحك، ولكنّني أؤكّد لكم أنّ هذه المعتقدات مروّعة أكثر من كونها مضحكة. فالكثير من الناس الذين يعتنقونها أشخاص محترفون، ومتعلّمون وأذكياء؛ من أطبّاء، ومحامين، ومدرّسين. وفي بعض الحالات، هم أشخاص يطمحون إلى أعلى المناصب على وجه الأرض. فقد سمعت مرّة عضو الكونغرس الأميريكي بول برون يقول: "التطوّر والانفجار الكبير كذبتان آتيتان مباشرةً من قعر الجحيم. فأنا أعتقد أنّ عمر الأرض يقارب تسعة آلاف سنة، وأنّها خُلقت في ستّةَ أيّام كما نعلم". صمت كيرش ثمّ أضاف: "والأكثر إثارة للقلق هو أنّ عضو الكونغرس برون يترأس لجنة العلوم والفضاء والتكنولوجيا في مجلس النوّاب، وعندما سُئِل عن رأيه بوجود سجلّ أحافير يمتدّ على ملايين السنين، أتى جوابه كالتالي: لقد وضع الله الأحافير لاختبار إيماننا".

انخفض صوت كيرش فجأة وأصبح أكثر كآبة. "إن سمحنا بوجود الجهل فإنّنا نمنحه القوّة. والجلوس مكتوفي الأيدي في الوقت الذي يُعلِن فيه زعماؤنا السخافات جريمةُ رضى عن النفس. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ترك كنائسنا ومدارسنا تعلّم أكاذيب صريحة لأطفالنا. لقد حان الوقت للعمل. فما لم نطهّر جنسنا من التفكير القائم على الخرافات، لن نتمكّن من لاستغلال كلّ الإمكانيّات التي تقدّمها عقولنا". صمتَ فخيّم الهدوء على حشد الطلّاب. "أنا أحبّ البشرية، وأعتقد أنّ عقولنا ونوعنا تتمتّع بإمكانات لا حدود لها. وأعتقد أنّنا على شفير عهد مستنير جديد، يسود فيه العلم".

انفجرت القاعة بالتصفيق العميق.

"حباً بالله". قال فالديسبينو ذلك بحدّة وهو يهزّ رأسه اشمئزازاً. "أطفئ هذا المذياع".

فأطاعه مساعد الكاهن، وغرقت السيّارة في الصمت مجدّداً.

على مسافة ثلاثين ميلاً، وقفت مونيكا مارتن أمام سوريش بهالا الذي دخل وهو يلهث وأعطاها هاتفاً.

قال لها: "القصّة طويلة، لكن عليك قراءة هذه الرسالة التي تلقّاها الأسقف فالديسبينو".

أوشكت مارتن أن تفلت الجهاز من يدها. "مهلاً! أهذا هاتف الأسقف؟! كيف استطعت–"

"لا تسألي، اقرئي وحسب".

نظرت مارتن إلى الهاتف بقلق، وبدأت تقرأ النص على الشاشة. وخلال ثوانٍ، شعرت أنّ الشحوب قد غزا وجهها. "ربّاه، الأسقف فالديسبينو..."

قال سوريش: "خطر

"لكن... هذا مستحيل! من الشخص الذي أرسل هذه الرسالة إلى الأسقف؟".

"الرقم محجوب، لكنّني أعمل على كشفه".

"ولماذا لم يمسح فالديسبينو هذه الرسالة؟".

قال سوريش: "لا أدري. ربما لقلّة اكتراث أو غطرسة. سأحاول استعادة الرسائل الأخرى، ومعرفة هوية الشخص الذي يراسله فالديسبينو، ولكنّني أردت إطلاعك على هذا الخبر حالاً. عليك الإدلاء ببيان بشأن ذلك".

قالت مارتن وهي ما زالت تترنّح: "كلّا، لن أفعل! فالقصر لن يعلن عن معلومة كهذه".

"كلّا، لكنّ شخصاً آخر سيفعل قريباً". وشرح لها سوريش بسرعة أنّ السبب الذي دفعه إلى البحث عن هاتف فالديسبينو كان رسالة إلكترونية وصلته مباشرة من monte@iglesia.org، وهو المُخبر الذي كان يزوّدConspiracyNet بالأخبار. وفي حال نفّذ هذا الشخص تهديده، فإنّ رسالة الأسقف لن تبقى طيّ الكتمان طويلاً.

أغمضت مارتن عينيها محاولة أن تتخيّل ردّ فعل العالم تجاه دليل قاطع على أنّ أسقفاً كاثوليكياً يملك روابط وثيقة جدّاً مع ملك إسبانيا متورّط بشكل مباشر في عملية الخداع والقتل التي حدثت هذه الليلة.

همست مارتن وهي تفتح عينيها ببطء: "سوريش، أنا أحتاج أن تكتشف من يكون المخبر Monte هذا، هل يمكنك أن تؤدّي لي هذه الخدمة؟".

"سأحاول". غير أنّه لم يبدُ واثقاً جدّاً.

"شكراً". أعطته مارتن هاتف الأسقف وأسرعت إلى الباب مضيفة: "وأرسل لي صورة لهذا النصّ!".

ناداها سوريش: "إلى أين أنت ذاهبة؟". غير أنّها لم تجبه.

الفصل 65

تحتلّ بازيليك العائلة المقدّسة، لا ساغرادا فاميليا، مساحة كبيرة في وسط مدينة برشلونة. لكن على الرغم من ذلك، تبدو الكنيسة وكأنّها تطفو بلا وزن فوق سطح الأرض، بأبراجها الشاهقة الدقيقة التي ترتفع بلا جهد في سماء إسبانيا.

تمتاز الأبراج المعقّدة والمليئة بالثقوب بارتفاعات متفاوتة، وتضفي على البناء شكل قصر رملي غريب شيّده عمالقة مشاغبون. بمجرّد انتهاء أعمال البناء، إنّ أطول الأبراج الثمانية عشر سيبلغ ارتفاعه 560 قدماً، وهو ارتفاع مذهل وغير مسبوق يتجاوز نصب واشنطن التذكاري، ويجعل من ساغرادا فاميليا أطول كنيسة في العالم، إذ سيتجاوز ارتفاعها بازيليك القدّيس بطرس في الفاتيكان بما يزيد عن مائة قدم.

تحيط بالكنيسة ثلاث واجهات ضخمة. من الشرق، ترتفع واجهة ميلاد المسيح الملوّنة مثل حديقة معلّقة، وهي مليئة بالنقوش متعدّدة الألوان للنباتات والحيوانات والفاكهة والناس. وفي تناقض صارخ، تبدو واجهة الآلام من جهة الغرب مثل هيكل عظمي متقشّف من الحجر الصلب الذي زيّن بنقوش تشبه الأوتار والعظام. أمّا جنوباً، فترتفع واجهة المجد إلى الأعلى وتحتشد فيها رموز الأصنام والخطايا والرذائل، لتفسح المجال في نهاية المطاف إلى رموز أسمى تتمثّل في الصعود، والفضيلة.

يكتمل محيط المبنى بواجهات أصغر حجماً لا حصر لها، فضلاً عن الدعامات والأبراج، ومعظمها مكسوّة بمادة تشبه الطين، مضفية على الكنيسة تأثيراً يوحي بأنّ الجزء السفلي من المبنى إمّا يذوب أو أنّه مستخرج من الأرض. فاستناداً إلى أحد النقاد البارزين، يشبه الجزء السفلي من ساغرادا فاميليا "جذع شجرة متعفّنة نمت حوله عائلة من نباتات الفطر المعقّدة".

بالإضافة إلى تزيين الكنيسة بأيقونات دينية تقليدية، أدخل غاودي عدداً لا يُحصى من المزايا التي تظهر احترامه للطبيعة، كالسلاحف التي تدعم الأعمدة، والأشجار التي تزيّن الواجهات، وحتّى الحلازين والضفادع الصخرية العملاقة التي تتسلّق الجهة الخارجية لجدران المبنى.

لكن على الرغم من شكل ساغرادا فاميليا الخارجي الغريب، إلا أنّ مفاجأتها الحقيقية لا تظهر إلّا عندما يجتاز الزائر بابها. فما إن يدخل الزوار المحراب الرئيس

حتّى تصيبهم الدهشة وهم يحوّلون أنظارهم إلى الأعمدة الشبيهة بجذوع الأشجار الملتفّة والمائلة التي ترتفع مائتي قدم نحو سلسلة من القبب الشاهقة، لتصل إلى مزيج من الأشكال الهندسية العجيبة التي تعلو أرض الكنيسة مثل ظُلّة بلّورية ممتدة بين أغصان الأشجار. زعم غاودي أنّ ابتكاره لتلك "الغابة من الأعمدة" كان يهدف إلى تشجيع العقل على العودة إلى أفكار الباحثين الروحيين القدماء الذين كانت الغابة بالنسبة إليهم كاتدرائية.

ليس غريباً أن تكون رائعة غاودي الفنّية الحديثة الهائلة محطّ إعجاب كبير وسخرية لاذعة على السواء. إذ أشاد بها البعض على أنّها "حسّية، وروحية، وعضوية"، في حين ندّد بها آخرون على أنّها مبتذلة، وبالغة الإسراف، وبذيئة". كما وصفها الكاتب جايمس ميشنر قائلاً إنّها "واحدة من أغرب الأبنية الجدّية في العالم"، وقالت عنها مجلّة *أركيتيكتشورال ريفيو* إنّها "وحش غاودي المبجّل".

إن كانت جماليّاتها غريبة، فإنّ تمويلها أغرب. إذ يتمّ تمويل ساغرادا فاميليا بهبات خاصّة بالكامل، ولا تتلقّى أيّ دعم مادّي من أيّ نوع كان من الفاتيكان أو من القيادة الكاثوليكية في العالم. وعلى الرغم من الفترات التي أوشكت فيها على الإفلاس وتوقّفت فيها الأعمال، إلّا أنّ الكنيسة أثبتت إرادة داروينية تقريباً للبقاء، وتجاوزت بعناد أزمات وفاة مهندسها، وحرباً أهلية عنيفة، وهجمات إرهابية من قبل الفوضويين الكاتالونيين، وحتّى حفر نفق مترو أنفاق على مقربة منها هدّد بزعزعة استقرار الأرض التي بُنيت عليها.

وفي مواجهة شدائد هائلة، ما زالت ساغرادا فاميليا قائمة، وتواصل نموّها.

خلال العقد الفائت، تحسّنت حظوظ الكنيسة إلى حدّ كبير؛ مع امتلاء خزائنها بمبيعات التذاكر لأكثر من أربعة ملايين زائر في السنة يدفعون مبلغاً جيّداً للقيام بجولة في المبنى المكتمل جزئياً. والآن، بعدما تمّ الإعلان عن موعد هدف للإنجاز وهو عام 2026، وذكرى مرور مائة عام على وفاة غاودي، تبدو ساغرادا فاميليا أنّها اكتسبت قوّة جديدة، وأخذت أبراجها تصعد نحو السماء بأمل متجدّد.

كان الأب يواكيم بينيا، الكاهن الأكبر سنّاً في ساغرادا فاميليا ورئيس كهنتها، رجلاً مرحاً في الثمانين من عمره، يضع نظّارة مستديرة العدستين على وجه مستدير دائم الابتسام يعلو جسده الصغير. كان حلم بينيا أن يعيش طويلاً بما فيه الكفاية ليشهد انتهاء العمل على هذا البناء المجيد.

لكن الليلة، لم يكن الأب بينيا يبتسم وهو جالس في مكتبه. كان قد عمل حتّى وقت متأخّر، لكنّ الأمر انتهى به مسمّراً أمام شاشة الكمبيوتر وهو يتابع الأخبار المزعجة التي وقعت في بيلباو.

لقد قُتِل إدموند كيرش.

خلال الأشهر الثلاثة الفائتة، أقام بينيا علاقة صداقة حسّاسة وغير متوقّعة مع كيرش. فقد فاجأ الملحد الصريح بينيا من خلال مجيئه إليه شخصياً وعرضه هبة ضخمة للكنيسة. كان المبلغ غير مسبوق، وسيكون له أثر إيجابي هائل.

يومذاك، شعر بينيا بالتشكّك. عرض *كيرش غير منطقي. أهو حيلة دعائية؟ ربما كان يريد التأثير على البناء.*

ومقابل التبرّع، لم يطلب العالم المستقبلي الشهير سوى شيء واحد.

أصغى إليه بينيا بتردّد. *أهذا كلّ ما يريده!؟*

قال كيرش: "هذه مسألة شخصية بالنسبة إليّ، وآمل أن تتكرّم بالاستجابة لطلبي".

لم يكن بينيا رجلاً متشكّكاً، غير أنّه شعر في تلك اللحظة بأنّه يرقص مع الشيطان. فقد وجد نفسه يبحث في عينَي كيرش عن دافع خفيّ ما. وأخيراً، رآه. فخلف سحر كيرش وعدم اكتراثه رأى يأساً وإنهاكاً، وذكّرته عيناه الغائرتان وجسده النحيل بالفترة التي عمل فيها مستشاراً في دار لرعاية المرضى.

إدموند كيرش مريض.

تساءل بينيا عمّا إذا كان الرجل يُحتضَر، وعمّا إذا كانت تلك الهبة محاولة مفاجئة للتقرّب من الله الذي شكّك به دائماً.

أكثر المعتدّين بأنفسهم في الحياة يصبحون الأكثر خوفاً من الموت.

فكّر بينيا بالإنجيلي المسيحي القدّيس يوحنا الذي كرّس حياته لتشجيع غير المؤمنين على اختبار مجد يسوع المسيح. فبدا له أنّه إن أراد شخص غير مؤمن مثل كيرش المشاركة في بناء صرح ليسوع، فإنّ إنكار ذلك عليه عمل قاسٍ وغير مسيحي.

بالإضافة إلى ذلك، ثمّة مسألة واجب بينيا المهني الساعي إلى المساعدة على جمع الهبات للكنيسة، ولم يتخيّل نفسه وهو يخبر زملاءه أنّه رفض هبة كيرش الهائلة بسبب تاريخ الرجل الإلحادي الصريح.

في نهاية المطاف، قبل بينيا بشروط كيرش، وتصافح الرجلان بحرارة.

كان ذلك منذ ثلاثة أشهر.

هذه الليلة، شاهد بينيا العرض الذي قدّمه كيرش في غوغنهايم، وشعر في البداية بالاضطراب بسبب نبرته المعادية للدين، ومن ثمّ بالفضول تجاه إشارات كيرش إلى اكتشاف غامض، ليفاجَأ في النهاية بمشاهدة إدموند كيرش وهو يُقتل. في أعقاب ذلك، لم يتمكّن بينيا من ترك جهاز الكمبيوتر، بل تسمّر أمامه وهو يرى الأحداث تتحوّل إلى مزيج عجيب من نظريّات المؤامرة المتنافسة.

شعر بينيا بالتعب، فجلس بهدوء في حرم الكنيسة الهائل، وحيداً في "غابة" أعمدة غاودي. غير أنّ الغابة الباطنية لم تساعد كثيراً على تهدئة الأفكار المتسارعة في رأسه.

ماذا اكتشف كيرش؟ من أراد قتله؟

أغمض الأب بينيا عينيه وحاول تصفية أفكاره، لكنّ السؤالين استمرّا بملاحقته.

من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

أعلن بينيا بصوت عالٍ: "أتينا من الله! وإلى الله نعود!".

وبينما كان يتكلّم، أحسّ بالكلمات تتردّد في صدره وتهزّ جدران الكنيسة بأكملها. فجأة، اخترق شعاع ساطع من الضوء زجاج الكنيسة الملوّن فوق واجهة الآلام، وتسلّل إلى داخل البازيليك.

ذُعر الأب بينيا ونهض واقفاً، ثمّ اندفع نحو النافذة وهو يترنّح، وملأ الضجيج الكنيسة بأكملها مع تسلّل شعاع الضوء السماوي من النوافذ الملوّنة. عندما خرج بينيا من باب الكنيسة، وجد نفسه محاطاً بعاصفة تصمّ الآذان. رأى فوقه إلى اليسار مروحيّة كبيرة تهبط من السماء، مسلّطة أضواءها على واجهة الكنيسة.

لم يصدّق بينيا عينيه وهو يشاهد المروحيّة تهبط داخل محيط الأسوار عند الزاوية الشمالية الغربية للمجمّع وتُطفئ محرّكاتها.

وعندما هدأت الرياح والضجيج، وقف الأب بينيا عند مدخل ساغرادا فاميليا وشاهد أربعة أشخاص يترجّلون من الطائرة ويسرعون باتّجاهه. عرف اثنين منهم على الفور من البثّ التلفزيوني لهذه الليلة، وكانا ملكة إسبانيا المستقبلية، والبروفيسور روبرت لانغدون، يتبعهما رجلان يرتديان سترتين متشابهتين.

لا يبدو أنّ لانغدون قد اختطف أمبرا فيدال في النهاية. فمع اقتراب البروفيسو الأميركي، وقفت الآنسة فيدال إلى جانبه بملء إرادتها.

قالت المرأة بمودّة: "أبتِ! أرجو أن تغفر لنا دخولنا الصاخب إلى هذا المكان المقدّس. غير أنّنا بحاجة إلى التحدّث معك على الفور، فالأمر في غاية الأهمّية".

فتح بينيا فمه ليجيبها، ولكنّه اكتفى بهزة رأس صامتة مع وصول المجموعة غير المنتظرة إلى بابه.

قال روبرت بابتسامة دافئة: "المعذرة حضرة الأب، أنا أعرف أنّ هذا الأمر يبدو غريباً جداً. هل تعلم من نكون؟".

أجاب بصعوبة: "لكنّني ظننت..."

قالت أمبرا: "تلك المعلومات خاطئة. أنا أؤكّد لك أنّ كلّ شيء على ما يرام".

في تلك اللحظة، أسرع حارسان كانا يقفان خارج السور المحيط بالكنيسة بالدخول، بعد أن أثار قلقهما وصول المروحيّة. وعندما رأيا بينيا، اندفعا إليه.

وعلى الفور، استدار الرجلان اللذان يرتديان السترتين وواجهاهما وهما يرفعان راحتيهما في إشارة التوقّف المعروفة.

توقّف الحارسان مكانيهما مذهولَين، ونظرا إلى بينيا طلباً للأوامر.

فصاح بينيا بالكتلانية: "كلّ شيء على ما يرام! عودا إلى موقعكما".

نظر الحارسان إلى المجموعة الغريبة بتشكّك.

قال بينيا بصوت أكثر حزماً: "إنّهم ضيوفي، وأطلب منكم التكتّم".

تراجع الحارسان بشيء من الحيرة، وعادا لاستئناف دورية الحراسة عند السور.

قالت أمبرا: "شكراً لك. أنا أقدّر ذلك".

قال: "أنا الأب يواكيم بينيا، أخبروني من فضلكم ماذا يجري؟".

تقدّم روبرت لانغدون وصافح بينيا قائلاً: "حضرة الأب بينيا، نحن نبحث عن كتاب نادر كان يملكه العالِم إدموند كيرش". وأخرج لانغدون بطاقة أنيقة سلّمه إيّاها. "بحسب هذه البطاقة، تمّت إعارة الكتاب لهذه الكنيسة".

على الرغم من الصدمة التي سبّبها الوصول الدراماتيكي لهذه المجموعة، إلّا أنّ بينيا عرف على الفور البطاقة العاجية. كانت ثمّة نسخة مطابقة لهذه البطاقة مع الكتاب الذي أعطاه إيّاه كيرش قبل بضعة أسابيع.

الأعمال الكاملة لوليام بليك.

كان شرط التبرّع الكبير الذي قدّمه إدموند لساغرادا فاميليا هو عرض كتاب بليك في سرداب البازيليك.

إنه طلب غريب، ولكنّه ثمن صغير.

كان لكيرش طلب إضافي محدّد على الجهة الخلفية للبطاقة، وهو أن يبقى الكتاب مفتوحاً دائماً على الصفحة 163.

الفصل 66

على بعد خمسة أميال إلى الشمال الغربي من ساغرادا فاميليا، حدّق الأميرال أفيلا عبر الزجاج الأمامي لسيّارة أوبر إلى أضواء المدينة التي تألّقت أمام ظلام بحر البليار خلفها.

فكّر ضابط البحرية القديم في سرّه: *أنا في برشلونة أخيراً*. وأخرج هاتفه ليتّصل بالوصيّ كما وعد.

فأجابه الوصيّ من الرنّة الأولى: "الأميرال أفيلا، أين أنت؟".

"أنا على بعد دقائق من المدينة".

"لقد وصلتَ في التوقيت المناسب، فقد تلقّيتُ للتوّ أخباراً مثيرة للقلق".

"ما الأمر؟".

"لقد نجحتَ في قطع رأس الأفعى، ولكن كما كنّا نخشى، ما زال نيلها الطويل يتلوّى ويهدّدنا".

سأله أفيلا: "وكيف يمكنني المساعدة؟".

وعندما أطلعه الوصيّ على رغباته، فوجئ تماماً. فهو لم يتخيّل أن تحصد هذه الليلة المزيد من الأرواح، ولكنّه لم يكن ينوي استجواب الوصيّ. ذكّر نفسه: *أنا لست سوى جندي مشاة*.

قال الوصيّ: "هذه المهمّة ستكون خطرة. لكن، إن تمّ القبض عليك، أظهِر للسلطات الرمز الموجود على كفّك وسيتمّ الإفراج عنك بعد وقت قصير. فنحن نملك نفوذاً في كلّ مكان".

قال أفيلا وهو ينظر إلى الوشم: "أنا لا أنوي أن يُقبَض عليّ".

فقال الوصيّ بنبرة خالية من الحياة على نحو غريب: "هذا جيّد. إن سار كلّ شيء حسب الخطّة، فسيكونان هما الاثنان في عداد الأموات قريباً، وستنتهي هذه المسألة برمّتها".

ثمّ قُطع الاتّصال.

وفي الصمت الذي خيّم فجأة، نظر أفيلا إلى النقطة الأكثر لمعاناً في الأفق، والتي كانت عبارة عن مجموعة شنيعة من الأبراج المشوّهة المضاءة بمصابيح البناء.

شعر بالنفور من المبنى الغريب وفكّر في سره: ساغرادا فاميليا، *نُصب كلّ ما هو خاطئ في إيماننا.*

كان أفيلا يعتقد أنّ كنيسة برشلونة الشهيرة تشكّل نصباً يرمز إلى الضعف والانهيار الأخلاقي. كانت بنظره استسلاماً للكاثوليكية الليبرالية، وتحريفاً وتشويهاً بارعاً لآلاف السنين من الإيمان، وتحويله إلى هجين مشوّه من عبادة الطبيعة، والعلوم الكاذبة، والهرطقة الغنوصية.

ثمّة سحالٍ عملاقة تتسلّق كنيسة المسيح!

كان انهيار التقاليد في العالم يرعب أفيلا، ولكنّه شعر بالدعم بظهور مجموعة جديدة من القادة في العالم الذين يشاركونه على ما يبدو مخاوفه ويفعلون كلّ ما هو ممكن لإعادة الأمور إلى نصابها. فإخلاص أفيلا للكنيسة البالمارية، ولا سيّما للبابا إنوسنت الرابع عشر، منحه سبباً جديداً للعيش، وساعده على رؤية مأساته من منظور مختلف تماماً.

لقد كانت زوجتي وطفلي ضحيّتَي حرب، حرب شنّتها قوى الشرّ ضدّ الإيمان، وضدّ التقاليد. والغفران ليس السبيل الوحيد للخلاص.

منذ خمس ليالٍ، كان أفيلا نائماً في شقّته المتواضعة عندما أيقظه رنين رسالة نصّية عالٍ على هاتفه الخلوي. تمتم منزعجاً: "نحن في منتصف الليل". ونظر إلى الشاشة لمعرفة من يتّصل به في هذه الساعة.

Número oculto

رقم مخفيّ

فرك أفيلا عينيه وقرأ الرسالة الواردة.

Compruebe su saldo bancario

أتحقّق من رصيدي المصرفي؟

عبس أفيلا وبدأ يشتبه بأنّها نوع من الاحتيال الذي يُمارَس في التسويق عبر الهاتف. فانزعج ونهض من السرير، ثمّ ذهب إلى المطبخ لتناول كوب من الماء. وما إن وقف عند حنفيّة الماء، حتّى نظر إلى جهاز الكمبيوتر المحمول وأدرك أنّه لن يتمكن على الأرجح من معاودة النوم ما لم يُلقِ نظرة.

دخل موقع المصرف الذي يتعامل معه، وتوقّع رؤية رصيده الصغير المعتاد المثير للشفقة، وهو ما تبقّى له من معاشه العسكري. ولكن، عندما ظهرت معلومات

حسابه، هبّ واقفاً على قدميه وأسقط الكرسيّ من هول المفاجأة.

لكن هذا مستحيل!

أغمض عينيه ثمّ نظر مجدّداً، قبل أن يُعيد تجديد الصفحة.

لكنّ الرقم بقي على حاله.

حرّك الفأرة وذهب إلى نشاط حسابه، ودُهِش عندما أدرك أنّ مبلغاً من مصدر مجهول بقيمة مائة ألف يورو قد أودع في حسابه منذ ساعة. كان المصدر عبارة عن أرقام وغير قابل للتعقّب.

من قد يكون؟!

صدر أزيز حادّ عن هاتفه الخلوي جعل نبضه يتسارع، فتناول الهاتف ونظر إلى هويّة المتّصل.

Número oculto

رقم مخفيّ

حدّق إلى الهاتف ثمّ أمسك به. "نعم؟".

كلّمه صوت خافت بإسبانية قشتالية صافية. "مساء الخير، الأميرال أفيلا. أعتقد أنك رأيت الهدية التي أرسلناها إليك".

فأجاب متلعثماً: "لقد... فعلت. من أنت؟".

أجاب الصوت: "يمكنك تسميتي الوصيّ، أنا أمثّل إخوانك؛ أعضاء الكنيسة التي ترتادها بانتظام طوال العامين الفائتين. مهاراتك وإخلاصك لم تمرّ مرور الكرام أيّها الأميرال. والآن، نودّ أن نمنحك الفرصة لكي تخدم هدفاً أسمى. لقد عرض عليك قداسته سلسلة من المهام... مهام أرسلها لك الله".

استيقظ أفيلا الآن تماماً، وبدأت كفّاه تتعرّقان.

تابع صاحب الصوت قائلاً: "المال الذي أعطيناك إيّاه دفعة مسبقة لقاء مهمّتك الأولى. إن اخترت تنفيذ المهمة، فاعتبرها فرصة لإثبات جدارتك باحتلال مكانة بين مراتبنا العليا". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "ثمّة تسلسل هرمي قويّ في كنيستنا لا يراه العالم. ونعتقد أنّك ستشكّل قيمة على رأس منظّمتنا".

ومع أنّ أفيلا شعر بالحماسة إزاء فكرة التقدّم، إلّا أنه كان حذراً أيضاً. "ما هي المهمّة؟ وماذا إن اخترت عدم تنفيذها؟".

"لن يتمّ الحكم عليك بأيّ شكل من الأشكال، ويمكنك الاحتفاظ بالمال لقاء السرّية. هل يبدو لك ذلك معقولاً؟".

"بل يبدو في غاية السخاء".

"أنت تعجبنا، ونحن نريد مساعدتك. ومن باب الإنصاف، أودّ تحذيرك بأنّ مهمّة البابا صعبة". صمت ثمّ أضاف: "وقد تنطوي على العنف".

تصلّب جسد أفيلا. عنف!

"حضرة الأميرال، قوى الشرّ تزداد قوّة يوماً بعد يوم. ولا بد لنا من المحاربة لأجل ا، والحرب تستتبع خسائر بشرية".

تذكّر أفيلا أهوال القنبلة التي أودت بحياة أسرته فارتعش، وأبعد عن رأسه الذكريات السوداء. "أنا آسف، لا أعرف إن كنت أستطيع قبول مهمّة عنيفة-"

همس الوصيّ: "لقد اختارك البابا أيّها الأميرال. والرجل الذي ستستهدفه في هذه المهمّة... هو الرجل الذي قتل أسرتك".

الفصل 67

يقع مخزن الأسلحة في الطابق الأرضي من القصر الملكي في مدريد. وهو عبارة عن غرفة مقبّبة أنيقة زُيِّنت جدرانها القرمزية المرتفعة بسجّادات رائعة تصوّر معارض شهيرة في تاريخ إسبانيا. تحيط بالغرفة مجموعة لا تقدّر بثمن تشتمل على أكثر من مائة بذلة من الدروع المصنوعة يدوياً، بما في ذلك ملابس و"أدوات" المعارك التي استخدمها الكثير من الملوك السابقين. وتحتلّ وسطَ الغرفة سبعة تماثيل لجياد بالحجم الطبيعي مجهّزة بكامل العتاد الحربي.

تساءل غارزا وهو ينظر إلى أدوات الحرب التي تحيط به: *هل قرّروا سجني هنا؟*

لا شكّ في أنّ المخزن الحربي كان أكثر الغرف أماناً في القصر، لكنّ غارزا اشتبه في أنّ سجّانيه اختاروا هذه الزنزانة الأنيقة على أمل تخويفه. *في هذه الغرفة نفسها تمّ تقليدي منصبي.*

منذ عقدين من الزمن تقريباً، تمّ اصطحاب غارزا إلى هذه الغرفة الضخمة، وأجرى فيها مقابلة، ثمّ تمّ فحصه واستجوابه قبل أن يُعرَض عليه أخيراً منصب رئيس الحرس الملكي.

والآن، قام عملاؤه باعتقاله. *أنا متّهم بالتآمر والاغتيال! وبالإيقاع بالأسقف!* كان المنطق الذي دُعمت به هذه المزاعم ملتوياً إلى حدّ أنّ غارزا لم يستطع فهمه بعد.

عندما يتعلّق الأمر بالحرس الملكي، كان غارزا أعلى مسؤول في القصر؛ ما يعني أنّ أمر اعتقاله لا يمكن أن يكون قد صدر سوى عن رجل واحد... الأمير جوليان نفسه.

أدرك غارزا أنّ فالديسبينو قد سمّم عقل الأمير ضدّه. فلطالما تجاوز الأسقف الأزمات السياسية، ويبدو الليلة أنّه يائس إلى حدّ الإقدام على هذه الحيلة الإعلامية الجريئة؛ وهي مكيدة جريئة لإنقاذ سمعته من خلال تلطيخ سمعة غارزا.

والآن، قاموا بسجني في مخزن الأسلحة لكي لا أدافع عن نفسي.

إن كان جوليان وفالديسبينو قد ضمّا جهودهما، فقد قُضِي عليه تماماً. وفي هذه الحالة، إنّ الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي يملك السلطة الكافية لمساعدة غارزا كان رجلاً مسنّاً يعيش آخر أيّامه في سرير مستشفى في منزله في قصر زارزويلا.

إنّه ملك إسبانيا.

لكنّ الملك لن يساعدني أبداً إن كان ذلك يعني تجاوز الأسقف فالديسبينو أو ابنه.

تتاهى إليه صخب الحشود في الخارج وهم يُنشدون بصوت أعلى، وبدا له أنّ الأمور تتّخذ منحى عنيفاً. ولكن، عندما أدرك غارزا ما ينشدونه، لم يصدّق أذنيه.

إذ كانوا يصيحون: "من أين أتت إسبانيا؟! إلى أين تذهب إسبانيا؟!".

يبدو أنّ المتظاهرين قد أخذوا سؤالَي كيرش الاستفزازيَين كفرصة للتساؤل حول المستقبل السياسي للملكية في إسبانيا.

من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

كان جيل الشباب الإسباني يُدين اضطهاد الماضي وينادي باستمرار بتغيير أسرع، ويحثّ بلاده على "الانضمام إلى العالم المتحضّر" في ظلّ حكم ديمقراطي بالكامل، مع إلغاء نظامها الملكي. فقد تخلّت فرنسا، وألمانيا، وروسيا، والنمسا، وبولندا، وأكثر من خمسين دولة أخرى عن عروش القرن الماضي. وحتّى في بريطانيا، ثمّة ضغوط لإجراء استفتاء من أجل إنهاء الملكية بعد وفاة الملكة الحالية.

الليلة، لسوء الحظّ، كان قصر مدريد الملكي في حالة من الفوضى، ولذلك ليس من المستغرب سماع صرخة الحرب القديمة هذه مجدّداً.

ما الذي يحتاج إليه الأمير جوليان وهو يستعدّ لاحتلال العرش؟

فجأة، فُتِح الباب في الطرف المقابل من مخزن الأسلحة، وأطلّ منه أحد عناصر الحرس الملكي.

فصاح غارزا: "أريد محامياً!".

"وأنا أريد بياناً صحفياً". كان ذلك صوت مونيكا مارتن وهي تصيح بينما كانت تلتفّ من حول الحارس وتدخل الغرفة. "أيّها القائد غارزا، لماذا تصادمت مع قاتلي إدموند كيرش؟".

فحدّق إليها غارزا غير مصدّق. *هل جنّ جنون الجميع؟!*

أعلنت مارتن وهي تتوجّه إليه مباشرة: "نحن نعرف أنّك حاولت توريط الأسقف فالديسبينو. والقصر يريد أن ينشر اعترافك حالاً!".

لم يكن لدى القائد أيّ ردّ.

وعندما وصلت مارتن إلى منتصف الغرفة، استدارت فجأة، وحدّقت إلى الحارس الشابّ الواقف عند الباب وقالت له: "لقد قلت إنّني أريد اعترافاً خاصّاً!".

بدا الحارس متشكّكاً وهو يتراجع خطوة ويغلق الباب.

استدارت مارتن نحو غارزا، وقطعت بقيّة الطريق بسرعة، وصاحت بصوت تردّد صداه في الغرفة المقبّبة وهي تقف مباشرة أمامه: "أريد اعترافاً حالاً!".

أجاب غارزا بصوت ثابت: "حسناً، أنت لن تحصلي على اعتراف منّي، ليس لديّ شيء أقوله، فمزاعمكم غير صحيحة إطلاقاً".

نظرت مارتن من خلف كتفها بتوتّر، ثمّ اقتربت منه أكثر وهمست في أذنه: "أنا أعرف. أريد أن تصغي إليّ جيّداً".

الفصل 68

معدّل التداول ↑ 2747%

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

عن الباباوات المزيّفين... والأكفّ النازفة... والأعين المغمضة...

قصص غريبة من داخل الكنيسة البالمارية.

أكّدت مشاركات مجموعات الأخبار المسيحية على الإنترنت الآن أنّ الأميرال لويس أفيلا عضو ناشط في الكنيسة البالمارية، وذلك منذ بضع سنوات.

وباعتباره واحداً من "مشاهير مناصري الكنيسة، اعترف أميرال البحرية لويس أفيلا تكراراً بفضل البابا البالماري في "إنقاذ حياته" عقب الاكتئاب العميق الذي أصيب به بعد خسارته أسرته في هجوم إرهابي مناهض للمسيحية.

وبما أنّ سياسة موقع ConspiracyNet تنصّ على عدم دعم أو إدانة المؤسّسات الدينية، فقد نشرنا عشرات الروابط الخارجية للكنيسة البالمارية هنا.

نحن علينا الإبلاغ والقرار لكم.

تجدر الإشارة إلى أنّ الكثير من المزاعم المنشورة على الإنترنت في ما يتعلق بالبالماريين صادمة جدّاً، ولذلك نطلب مساعدتكم، أنتم مستخدمي موقعنا، لفرز الحقيقة عن الخيال.

وردتنا "الحقائق" التالية من قبل المُخبِر الشهير monte@iglesia.org، الذي يُشير سجلّ رسائله هذه الليلة إلى أنّ هذه الحقائق صحيحة. لكن، قبل أن ننشرها على أنّها كذلك، نأمل من بعض مستخدمينا أن يقدّموا المزيد من الأدلّة الأكيدة لدعمها أو دحضها.

"حقائق"

خسر البابا البالماري كليمنتي كلتا مقلتيه في حادث سيّارة حصل عام 1976، واستمرّ بإلقاء العظات لعقد من الزمن بعينين مغمضتين جراحياً.

كانت لدى البابا كليمنتي ندوب ناشطة في راحتيه تنزف بانتظام كلّما راودته الرؤى.

كان العديد من الباباوات البلماريين ضبّاطاً في الجيش الإسباني، ويملكون مثلاً عليا كارلية.

يُمنع على أعضاء الكنيسة البالمارية التحدّث إلى أسرهم، وقد توفّي عدد منهم في المجمّع نتيجة سوء التغذية أو سوء المعاملة.

يُمنع على البالماريين (1) قراءة الكتب التي ألّفها غير البالماريين، (2) حضور حفلات الزفاف أو الجنازات العائلية ما لم تكن أسرهم بالمارية، (3) ارتياد أحواض السباحة، والشواطئ، وقاعات الرقص، وأيّ مكان تُعرَض فيه شجرة الميلاد أو صورة لسانتا كلوز، وحضور مباريات الملاكمة.

تنتشر مكاتب تجنيد البالماريين في الولايات المتّحدة الأميركية، وكندا، وألمانيا، والنمسا، وإيرلندا.

الفصل 69

بينما كان لانغدون وأمبرا يتبعان الأب بينيا باتّجاه الأبواب البرونزية الهائلة لكنيسة ساغرادا فاميليا، وجد لانغدون نفسه يتعجّب- كما فعل دائماً- أمام التفاصيل الغريبة جدّاً التي يتميّز بها المدخل الرئيس لهذه الكنيسة.

إنّه جدار من الرموز، فكّر بذلك في سرّه وهو يرمق الطباعة النافرة التي تهيمن على الألواح المتجانسة من المعدن المصقول. فقد برزت من السطح أكثر من ثمانية آلاف حرف ثلاثي الأبعاد نُقِشت بشكل نافر في البرونز. وامتدّت الأحرف في خطوط أفقية، مُشكّلة نصّاً ضخماً من دون أيّ فاصل بين الكلمات. ومع أنّ لانغدون كان يعرف أنّ النص عبارة عن وصف لآلام المسيح مكتوب باللغة الكتلانية، إلّا أنّ مظهره كان أقرب إلى مفتاح تشفير وكالة الأمن القومي.

لا عجب *أنّ هذا المكان يلهم نظريّات المؤامرة*.

انتقل نظر لانغدون إلى الأعلى، متسلّقاً واجهة الآلام الشاهقة، ليقع على مجموعة من التماثيل النحيلة التي صُنِعت بيد الفنّان جوزيف ماريا سوبيراتش، ويعلوها تمثال هزيل على نحو فظيع ليسوع المسيح وهو يتدلّى من صليب مائل جدّاً إلى الأمام، ما يُضفي تأثيراً مخيفاً بأنّه على وشك أن يسقط على الضيوف الذين يدخلون الكنيسة.

إلى يسار لانغدون، كانت ثمّة منحوتة كئيبة أخرى تصوّر يهوذا وهو يخون المسيح بقبلة. وكانت هذه الشخصيّة المكروهة محاطة- على نحو مستغرب- بنقش لشبكة من الأرقام، عبارة عن "مربّع سحري" رياضي. كان إدموند قد أخبر لانغدون مرّة أنّ هذه "الثابتة السحرية" للمربّع، وقيمتها ثلاث وثلاثون، كانت في الواقع تكريماً خفيّاً للتبجيل الوثني الذي يوليه الماسونيون لمهندس الكون الأعظم، وهو إله شامل لا تُكشَف أسراره كما يُزعم سوى لمن بلغوا الدرجة الثالثة والثلاثين في الأخويّة.

أجاب لانغدون ضاحكاً يومذاك: "يا لها من قصّة ممتعة! لكن، ثمّة تفسير أكثر منطقية، ألا وهو أنّ يسوع المسيح كان في سنّ الثالثة والثلاثين في زمن الآلام".

مع اقترابهم من المدخل، التفت لانغدون لرؤية الزخرفة الأكثر شناعة في الكنيسة، وتظهر في تمثال هائل الحجم ليسوع المسيح وقد جُلد وقُيّد بالحبال إلى أحد الأعمدة. فحوّل نظره بسرعة إلى نقش فوق الباب مكوّن من الحرفين اليونانيين ألفا وأوميغا.

همست أمبرا وهي تنظر إلى الحرفين: "البداية والنهاية. هذا يشبه إدموند كثيراً".

أومأ لانغدون برأسه موافقاً وقد فهم قصدها. *من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟*

فتح الأب بينيا باباً صغيراً في جدار الأحرف البرونزية، ودخلت منه المجموعة بأكملها، بمن فيهم عنصرا الحرس الملكي، ثمّ أغلق بينيا الباب خلفهم.

هناك خيّم الصمت والظلام.

في الطرف الجنوبي الشرقي لذلك الجناح من الكنيسة، أطلعهم الأب بينيا على قصّة مدهشة. إذ أخبرهم كيف أتى إليه كيرش، وعرض تقديم هبة ضخمة لساغرادا فاميليا مقابل موافقة الكنيسة على عرض نسخته من مخطوطة بليك المصوّرة في السرداب إلى جانب قبر غاودي.

في قلب هذه الكنيسة. فكّر لانغدون في سرّه وتعاظم فضوله.

سألته أمبرا: "هل قال لك إدموند لماذا أراد منك ذلك؟".

أومأ بينيا برأسه مجيباً: "قال لي إنّ شغفه الطويل بفنّ غاودي مستمدّ من أمّه الراحلة التي كانت هي الأخرى من معجبي وليام بليك. وقال إنّه أراد وضع كتاب بليك إلى جانب قبر غاودي تكريماً لأمّه الراحلة. فلم أجد في ذلك أيّ ضرر

شعر لانغدون بالحيرة، *إذ لم يسبق أن ذكر إدموند شيئاً عن إعجاب أمّه بغاودي*. وبالإضافة إلى ذلك، توفّيت بالوما كيرش في دير، ومن غير المحتمل أن تُبدي راهبة إسبانية إعجابها بشاعر بريطاني مهرطق. بدت له القصّة بأكملها مبالغاً فيها.

تابع بينيا كلامه قائلاً: "بالإضافة إلى ذلك، شعرتُ أنّ السيّد كيرش يعاني من أزمة روحية... وربّما من مشاكل صحّية أيضاً".

فقاطعه لانغدون قائلاً: "بحسب الملاحظة على الجهة الخلفية لهذه البطاقة، إنّ كتاب بليك ينبغي أن يكون معروضاً بطريقة معيّنة، أي مفتوحاً على الصفحة مائة وثلاث وستّين".

"أجل، هذا صحيح".

شعر لانغدون بنبضه يتسارع. "هلّا تخبرني بعنوان القصيدة الموجودة في تلك الصفحة".

فهزّ بينيا رأسه قائلاً: "ما من قصيدة في تلك الصفحة".

"المعذرة؟!".

"يضمّ الكتاب الأعمال الكاملة لبليك، أي أعماله الفنّية والمكتوبة. والصفحة مائة وثلاث وستّون تحتوي على صورة".

ألقى لانغدون نظرة قلق إلى أمبرا. *نحن بحاجة إلى بيت شعري مؤلّف من سبعة وأربعين حرفاً وليس صورة!*

قالت أمبرا للأب بينيا: "أبتِ، هل يمكننا رؤيته حالاً؟".

تردّد الكاهن للحظة، ولكنّه أعاد التفكير كما يبدو في مسألة رفض طلب ملكة إسبانيا المستقبلية، فقال: "القبو من هنا". وقادهما عبر الجناح باتّجاه وسط الكنيسة، يتبعهما الحارسان الملكيان.

قال بينيا: "لا بدّ لي من الاعتراف بأنّني تردّدت في البداية بقبول المال من ملحد صريح، ولكنّ طلبه بعرض الصورة الإيضاحية المفضّلة لدى والدته بين أعمال بليك بدا لي غير مؤذٍ، لا سيّما وأنّها صورة للمسيح".

اعتقد لانغدون أنّه أخطأ السمع. "هل قلت إنّ إدموند قد طلب منك أن تعرض صورة للمسيح؟".

هزّ بينيا رأسه موافقاً. "شعرت أنّه كان مريضاً وأنّها على الأرجح طريقته في محاولة التعويض عن حياة أمضاها في معارضة التعاليم الدينية". صمت قليلاً، ثمّ هزّ رأسه يميناً ويساراً وهو يضيف: "مع أنّني بعدما رأيت العرض الذي قدّمه هذه الليلة، أقر أنّني لم أعد أعرف ما يجدر بي التفكير فيه".

حاول لانغدون أن يتخيّل الصورة التي أراد إدموند أن يعرضها من بين صور بليك العديدة للمسيح.

ومع انتقال المجموعة إلى المحراب الرئيس، شعر لانغدون أنّه يرى هذا المكان للمرّة الأولى. فعلى الرغم من زياراته العديدة إلى ساغرادا فاميليا في مراحل مختلفة من بنائها، إلّا أنّه كان يأتي دائماً خلال النهار في وقت يكون فيه قلب الكنيسة غارقاً بأشعة شمس إسبانيا التي تدخله من النوافذ الزجاجية الملوّنة، مولّدة ألواناً رائعة تشدّ النظر صعوداً إلى الأعلى، إلى ظلّة من القبب التي تبدو عديمة الوزن.

في الليل، يبدو هذا العالم أكثر ثقلاً.

في تلك الساعة من الليل، اختفت أشجار الغابة المضاءة بأشعة الشمس، وتحوّلت إلى أدغال معتمة من الظلال، ومجموعة من الأعمدة الداكنة والمخطّطة التي ترتفع نحو السماء في فراغ مخيف.

قال الكاهن: "انتبهوا إلى خطواتكم، فنحن نحاول توفير المال حيثما استطعنا".

كان لانغدون يعرف أنّ إضاءة الكنائس الأوروبية الضخمة تكلّف ثروة صغيرة، والإضاءة المتفرّقة هنا بالكاد أنارت الطريق. *هذه من تحدّيات مخطّط للأرضية يمتدّ على مساحة ستّين ألف قدم مربّعة.*

ومع وصولهم إلى الصحن المركزي وانعطافهم إلى اليسار، حدّق لانغدون إلى المنصّة المرتفعة أمامه. كان المذبح عبارة عن طاولة بسيطة معاصرة جداً تحيط بها مجموعتان برّاقتان من أنابيب الأرغن. وعلى ارتفاع خمس عشرة قدماً فوق المذبح،

عُلِّقت ظلّة رائعة الجمال مصنوعة من النسيج الحريري؛ وهي رمز للتوقير مستلهم من الظلل الاحتفالية التي كانت تُعلَّق في ما مضى على أعمدة لتوفير الظلّ للملوك.

ومع أنّ معظم الظلل باتت الآن جزءاً صلباً من الهندسة المعمارية، إلّا أنّ ساغرادا فاميليا اختارت القماش، وكانت على شكل مظلّة تبدو أنّها تحوم بشكل سحري في الهواء فوق المذبح. تحت القماش، عُلِّق بالأسلاك تمثال ليسوع المسيح على صليب؛ ليبدو أشبه بمظليّ.

يسوع المظلّي، كان لانغدون قد سمع هذا الوصف سابقاً. وحين رآه مجدّداً، لم يستغرب أن يكون من أكثر تفاصيل الكنيسة إثارة للجدل.

بينما كان بينيا يقودهم إلى داخل الكنيسة الذي يزداد ظلاماً، واجه لانغدون صعوبة في رؤية أي شيء على الإطلاق. فأخرج دياز مصباحاً صغيراً، وأضاء الأرض عند أقدام المجموعة. وبينما كانوا يحثّون الخطى نحو مدخل السرداب، لمح لانغدون فوقه صورة باهتة لأسطوانة شاهقة ترتفع مئات الأقدام على طول الجدار الداخلي للكنيسة.

دوّامة ساغرادا فاميليا الشهيرة. ولم يكن قد تجرّأ يوماً على صعودها.

كان ذلك السلّم المسبّب للدوار قد ظهر ضمن قائمة ناشونال جيوغرافيك للسلالم العشرين الأكثر فتكاً في العالم، واحتلّ المرتبة الثالثة، بعد سلالم معبد وات في أنكغور في كامبوديا، والصخور الزلقة لشلّالات إبليس في الإكوادور.

رمق لانغدون الدرجات القليلة الأولى التي تصاعدت إلى الأعلى واختفت في الظلام.

"مدخل السرداب أمامنا مباشرة". قال بينيا ذلك مشيراً إلى ما وراء السلالم؛ باتّجاه فراغ مظلم إلى يسار المذبح. وبينما كانوا يسرعون إليه، رأى لانغدون وهجاً ذهبياً خافتاً بدا وكأنّه منبعث من ثقب في الأرض.

السرداب.

وصلت المجموعة إلى مدخل سلّم أنيق منحنٍ بلطف.

قالت أمبرا للحارسَين: "أيّها السيّدان، انتظرا هنا، نحن سنعود قريباً".

فبدا الاستياء على فونسيكا، ولكنّه لم يقل شيئاً.

بعد ذلك، بدأت أمبرا والأب بينيا ولانغدون هبوطهم باتجاه النور.

شعر العميل دياز بالامتنان للحظة السلام وهو يشاهد الثلاثة يختفون أسفل السلّم اللولبي. فقد كان التوتّر المتصاعد بين أمبرا فيدال والعميل فونسيكا يصبح مثيراً للقلق.

لم يكن عملاء الحرس الملكي معتادين على تلقّي تهديدات بالفصل من الأشخاص الذين يقومون على حمايتهم، بل من القائد غارزا وحسب.

كما أنّ دياز ما زال محتاراً من عملية اعتقال غارزا. والغريب أنّ فونسيكا رفض إطلاعه على الشخص الذي أصدر أمر الاعتقال أو ألّف قصّة الخطف الزائفة.

كان فونسيكا قد قال له: "الوضع معقّد، ومن الأفضل ألّا تعرف من أجل سلامتك".

تساءل دياز: *من الذي يصدر الأوامر؟ أهو الأمير؟* بدا له من غير المعقول أن يخاطر الأمير جوليان بسلامة أمبرا عبر نشر خبر اختطاف وهمي. *أهو فالديسبينو؟* غير أنّ دياز لم يكن واثقاً ممّا إذا كان الأسقف يملك هذا النوع من النفوذ.

قال فونسيكا: "سأعود قريباً". مضيفاً أنّه يحتاج إلى الذهاب إلى الحمّام. ومع ابتعاده في الظلام، رآه دياز وهو يُخرِج هاتفه ويجري اتّصالاً، ثمّ يبدأ بالكلام بصوت خافت.

انتظر دياز بمفرده عند شفير هاوية حرم الكنيسة، وشعر أنّه لم يعد مرتاحاً إزاء تكتّم فونسيكا.

الفصل 70

يهبط السلّم المؤدّي إلى السرداب ثلاثة طوابق تحت الأرض، ويلتوي في انحناء عريض وأنيق، قبل أن ينتهي بلانغدون وأمبرا والأب بينيا في الغرفة الموجودة تحت الأرض.

تأمّل لانغدون القبو الفسيح والدائري وهو يتذكّر أنّه واحد من أكبر الأقبية في أوروبا. تماماً كما يتذكّر، كان ضريح ساغرادا فاميليا السفلي عبارة عن قاعة مستديرة عالية السقف تضمّ مقاعد لمئات المصلّين. توزّعت مصابيح الزيت الذهبية على مساحات متساوية حول محيط الغرفة، وألقت نورها على الأرض المكسوّة بفسيفساء من العرائش، والجذور، وأغصان وأوراق الشجر، وغيرها من الصور المستلهمة من الطبيعة.

القبو في الأساس مكان مخفيّ، ولذلك لم يستطع لانغدون أن يتصوّر كيف نجح غاودي في إخفاء غرفة بهذا الحجم تحت الكنيسة. فهذا القبو لم يكن يشبه بشيء تصميم غاودي المرح "للقبو المائل" في كولونيا غويل؛ إذ كانت هذه الغرفة عبارة عن قاعة متقشّفة على الطراز القوطي الجديد، ذات أعمدة مزيّنة بنقوش أوراق الشجر، وأقواس مستدقّة الرؤوس، وقبب مزخرفة. وكان هواؤها ساكناً كسكون القبور، وتفوح منه رائحة البخور الخفيفة.

وعند أسفل السلّم، رأى كوّة عميقة إلى اليسار. كانت أرضها المكسوّة بالحجر الرملي الباهت تضمّ لوحاً رمادياً بسيطاً مُمدّداً بشكل أفقي، ومحاطاً بالمصابيح.

إنّه الرجل نفسه، أدرك لانغدون ذلك وهو يقرأ النقش.

أنطونيوس غاودي

بينما كان لانغدون يتأمّل ضريح غاودي، شعر بألم خسارة إدموند مجدّداً. نظر إلى تمثال السيّدة العذراء فوق القبر الذي حملت عارضته رمزاً غير مألوف.

لكن، ما هذا؟!



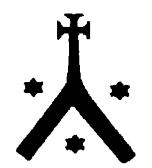
رمق لانغدون الأيقونة الغريبة.

نادراً ما رأى لانغدون رمزاً لم يستطع التعرّف عليه. وفي هذه الحالة، كان الرمز مؤلّفاً من الحرف اليوناني لامدا، والذي لم يظهر بحسب تجربته في الرمزية المسيحية. فقد كان الحرف لامدا رمزاً علمياً شائعاً في مجالات التطوّر، وفيزياء الجسيمات، وعلم الكونيات. والأغرب أنّ هذا الحرف كان يعلوه هنا صليب مسيحي.

الدين يدعمه العلم؟ لم يسبق للانغدون أن رأى شيئاً كهذا.

سأله بينيا وهو يقترب منه: "هل أثار الرمز استغرابك؟ لستَ وحدك، فالكثيرون يسألون عنه. وهو ليس أكثر من تأويل حداثي فريد لصليب على قمّة جبل".

اقترب لانغدون أكثر، ورأى الآن النجوم المذهّبة الثلاث التي ترافق الرمز.



فكّر لانغدون في سره وهو يتأمّل الرمز كاملاً: *النجوم الثلاث في هذه الوضعية تعني أنّه صليب على قمّة جبل الكرمل*. "إنّه صليب كرملي".

"بالضبط. فجثمان غاودي يرقد تحت تمثال سيّدة جبل الكرمل المباركة".

"وهل كان غاودي كرملياً؟". فقد وجد لانغدون أنّ من الصعب تخيّلَ المهندس المعماري الحداثي معتنقاً تفسير الأخوية الصارم للكاثوليكية والعائد إلى القرن الثاني عشر.

أجاب بينيا ضاحكاً: "بالتأكيد لا. لكنّ الراهبات اللواتي كنّ يعتنين به كنّ كرمليات. فثمّة مجموعة من الراهبات اللواتي عشن مع غاودي واهتممن به في سنواته الأخيرة، واعتقدن أنّه سيقدّر أن تستمرّ الرعاية بعد وفاته أيضاً، فقدّمن له هذه الهدية السخيّة".

"يا لكرمهنّ!". قال لانغدون ذلك وهو يوبّخ نفسه سرّاً لإساءته تفسير مثل هذا الرمز البريء. فعلى ما يبدو، حتّى هو تأثّر بنظريّات المؤامرة التي انتشرت هذه الليلة.

فجأة، سألت أمبرا: "أهذا كتاب إدموند؟".

التفّ إليها الرجلان، وكانت تشير إلى بقعة معتمة إلى يمين قبر غاودي.

أجاب بينيا: "أجل. أنا أعتذر على هذه الإضاءة الخافتة".

أسرعت أمبرا إلى صندوق العرض، يتبعها لانغدون الذي رأى أنّ الكتاب قد وُضِع في منطقة معتمة من السرداب، يحجبه عمود ضخم إلى يمين قبر غاودي.

قال بينيا: "نحن نعرض عادة الكتيّبات الإعلامية هناك، ولكنّني نقلتها إلى مكان آخر لأفسح المجال لكتاب السيّد كيرش. ولا يبدو أنّ أحداً قد لاحظ ذلك".

انضمّ لانغدون بسرعة إلى أمبرا التي وقفت أمام صندوق يشبه القفص يعلوه سطح زجاجي مائل. في الداخل، وُضِعت نسخة مجلّدة ضخمة *لأعمال وليام بليك الكاملة*، مفتوحة على الصفحة 163، وكانت بالكاد مرئية في الضوء الخافت.

كما قال بينيا؛ لم تكن تلك الصفحة تضمّ أيّ قصيدة، بل صورة رسمها بليك. كان لانغدون قد تساءل عن الصورة التي تحتويها هذه الصفحة من بين صور بليك لله، ولكنّه بالتأكيد لم يتوقّع هذه الصورة.

الأيّام القديمة. تأمّل رسم بليك الشهير بالألوان المائية العائد إلى عام 1794.

فوجئ لانغدون من أنّ الأب بينيا وصف هذا الرسم بأنّه "صورة للمسيح". في الواقع، يبدو الرسم لوحة مسيحية نموذجية، يظهر فيها رجل مسنّ قوي البنية وملتحٍ، أشيب الشعر، يطفو فوق السحب ويمدّ يده نحو السماء. لكن، لو أنّ بينيا أجرى القليل من البحث لعرف أنّ الصورة شيء مختلف تماماً. فالرجل الذي يظهر فيها ليس المسيح، بل في الواقع هو إله يدعى أوريزن، وهو مُستلهَم من خيال بليك البصري، وهو يقوم في هذه الصورة بقياس السماء بواسطة بوصلة جيومترية ضخمة، في لفتة تكريمية للقوانين العلمية للكون.

كانت اللوحة مستقبلية جداً بأسلوبها؛ حيث إنّ عالم الفيزياء والملحد الشهير ستيفن هوكينغ اختارها بعد قرون من الزمن غلافاً لكتابه. إذ يظهر عالِم الهندسة القديم وهو يحدّق إلى الأسفل من منحوتة فنّية تحمل عنوان *الحكمة، والنور، والصوت*.

رمق لانغدون كتاب بليك، وتساءل مجدّداً عن السبب الذي جعل إدموند يبذل كلّ هذا المجهود ليعرضه هنا. *أهي مجرّد نزعة انتقامية؟ صفعة على وجه الكنيسة المسيحية؟*

فكّر لانغدون في سرّه وهو ينظر إلى أوريزن: *إنّ حرب إدموند على الدين لم تخب أبداً*. لقد سمحت الثروة لإدموند بفعل ما يحلو له في الحياة، حتّى ذهب إلى حدّ عرض فنّ تجديفي في قلب كنيسة مسيحية.

الغضب والحقد، قد يكون الأمر بهذه البساطة. سواء أكان إدموند عادلاً أم لا، لطالما ألقى اللوم بوفاة والدته على الكنيسة البالمارية.

قال بينيا: "بالطبع، أنا أدرك تماماً أنّ هذه اللوحة ليست للمسيح".

التفت لانغدون إلى الكاهن المسنّ بدهشة. "حقّاً!".

"أجل، فقد كان إدموند واضحاً تماماً في هذا الشأن، مع أنّه لم يكن بحاجة إلى ذلك، فأنا على اطّلاع على أفكار بليك".

"ومع ذلك، ألم تجد أيّ مشكلة في عرض هذا الكتاب؟".

همس الكاهن وهو يبتسم برقّة: "حضرة البروفيسور، هذه ساغرادا فاميليا. داخل هذه الجدران، جمع غاودي بين الإيمان والعلم والطبيعة. وموضوع هذه اللوحة ليس جديداً علينا". لمعت عيناه بغموض. "ليس جميع رجال الدين تقدّميين بقدري، لكن كما تعلم، تبقى المسيحية بالنسبة إلينا جميعاً عملاً قيد التطوّر ابتسم بلطف، ثمّ أومأ إلى الكتاب مضيفاً: "أنا مسرور وحسب لأنّ السيّد كيرش وافق على عدم عرض بطاقة العنوان مع الكتاب. فنظراً لسمعته، لست واثقاً من كيفية شرح ذلك؛ لا سيّما بعد العرض الذي قدّمه هذه الليلة". صمت بينيا قليلاً، وتجهّم وجهه. "مع ذلك، أنا أشعر أنّ هذه الصورة ليست ما تبحثان عنه، أليس كذلك؟".

"أنت على حق. نحن نبحث عن بيت شعر لبليك".

قال بينيا: "أيّها النمر الذي تتوهّج في غابات الليل؟".

ابتسم لانغدون، وقد فوجئ لأنّ بينيا يعرف البيت الأوّل من أشهر قصيدة لبليك، وهي عبارة عن ستّة مقاطع شعرية تشتمل على تساؤل ديني حول ما إذا كان الله الذي خلق النمر المخيف هو نفسه الذي خلق الحمل الوديع.

"أيّها الأب بينيا". كانت أمبرا منحنية وتحدّق بتركيز من خلال الزجاج. "هل تملك هاتفاً أو مصباحاً بالمصادفة؟".

"كلّا، أنا آسف. هل أحضر لك مصباحاً من قبر أنطوني؟".

"أجل من فضلك، سيكون هذا جيّداً".

ابتعد بينيا مسرعاً.

وما إن انصرف حتّى همست بإلحاح في أذن لانغدون: "روبرت! لم يقم إدموند باختيار الصفحة 163 بسبب اللوحة!".

"ماذا تعنين؟". *ما من شيء آخر في الصفحة 163.*

"إنّه مجرّد تمويه ذكيّ".

قال لانغدون وهو يرمق اللوحة: "لا أفهم".

"لقد اختار إدموند الصفحة 163 لأنّه من المستحيل عرضها من دون عرض الصفحة المجاورة في وقت واحد، أي الصفحة 162!".

حوّل لانغدون نظره إلى اليسار، وتفحّص الورقة التي تسبق لوحة *الأيّام القديمة*. وفي الضوء الخافت، لم يستطع رؤية الكثير، باستثناء أنّ الصفحة تتألّف على ما يبدو من نصّ مكتوب بخطّ يدوي صغير.

عاد بينيا حاملاً مصباحاً، وأعطاه لأمبرا التي حملته عالياً فوق الكتاب. ومع انتشار الوهج الخافت فوق المجلّد المفتوح، شهق لانغدون من شدّة الدهشة.

كانت الصفحة المقابلة بالفعل نصّاً مكتوباً بخطّ اليد مثل جميع مخطوطات بليك الأصلية، وكانت هوامشها مزيّنة بالرسوم، والأطر، والصور المختلفة. لكنّ الأهمّ من كلّ ذلك أنّ النصّ الذي تحتويه الصفحة بدا مكتوباً في مقاطع شعرية أنيقة.

فوقهم مباشرة في المحراب الرئيس، أخذ العميل دياز يروح ويجيء في الظلام وهو يتساءل عن المكان الذي ذهب إليه شريكه.

ينبغي أن يكون فونسيكا قد عاد.

وعندما بدأ الهاتف في جيبه يهتزّ، اعتقد أنّ فونسيكا يتّصل به على الأرجح. لكن، عندما تحقّق من هويّة المتّصل، رأى اسماً لم يتوقّعه على الإطلاق.

مونيكا مارتن

لم يستطع أن يتخيّل ما تريده منه منسّقة العلاقات العامّة في هذه الساعة. لكن أيّاً يكن، كان يجدر بها الاتّصال بفونسيكا مباشرة؛ فهو المسؤول عن هذا الفريق.

أجاب: "ألو، معك دياز

"أيها العميل دياز، معك مونيكا مارتن. ثمّة شخص هنا يرغب في التحدّث إليك".

بعد لحظة، أتاه صوت مألوف عبر الخطّ: "العميل دياز، معك القائد غارزا. أرجوك أكّد لي أنّ الآنسة فيدال بخير".

"أجل سيادة القائد". تأهّب دياز فوراً وهو يسمع صوت غارزا. "الآنسة فيدال على خير ما يرام. أنا والعميل فونسيكا معها في الوقت الحاضر بأمان داخل-"

قاطعه غارزا بحدّة: "لا تتكلّم على خطّ مفتوح. إن كانت في مكان آمن فأبقِها هناك ولا تخرجوا. لقد ارتحت لسماع صوتك. حاولنا الاتّصال بالعميل فونسيكا ولكنّه لم يجب. أهو معك؟".

"أجل. ولكنّه ابتعد قليلاً لإجراء اتّصال، وكان ينبغي له العودة الآن-"

"لا وقت لديّ للانتظار. أنا محتجز في هذه اللحظة، والآنسة مارتن أعارتني هاتفها. أصغِ إليّ جيّداً. قصّة الاختطاف كما تعلم بلا شكّ مزيّفة بالكامل، وقد عرّضَت الآنسة فيدال لخطر كبير

أكبر ممّا تتخيّل. هذا ما فكّر فيه دياز وهو يعود بذهنه إلى المشهد الفوضوي على سطح كازا ميلا.

"كذلك، إنّ خبر محاولتي الإيقاع بالأسقف فالديسبينو ليس صحيحاً أيضاً".

"هذا ما تخيّلتُه سيّدي، لكن-"

"أنا والآنسة مارتن نبذل قصارى جهدنا لإدارة هذه الأزمة، لكن حتّى ذلك الحين، عليكما إبعاد الملكة المستقبلية عن عيون العامّة. أهذا واضح؟".

"بالطبع، سيّدي. لكن، من أصدر الأمر؟".

"لا أستطيع إخبارك عبر الهاتف. لكن، ما عليك سوى تنفيذ ما أقوله، وإبعاد أمبرا فيدال عن وسائل الإعلام وعن الخطر. ستُطلعك الآنسة مارتن على أيّ تطوّرات أخرى".

أنهى غارزا المكالمة، بينما وقف دياز بمفرده في الظلام محاولاً فهم ما يجري.

مدّ يده لإعادة الهاتف إلى سترته، وفي هذه اللحظة سمع حفيف قماش خلفه.

وما إن استدار حتّى خرجت يدان شاحبتان من الظلام وأمسكتا برأسه بقوّة. وبسرعة هائلة، دفعتاه بقوّة جانباً.

شعر دياز بطقطقة في رقبته تبعها ألم حارق اجتاح جمجمته.

وسرعان ما خيّم الظلام.

الفصل 71

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

أمل جديد لاكتشاف كيرش القنبلة!

أدلت منسقة العلاقات العامة في قصر مدريد مونيكا مارتن ببيان رسمي زعمت فيه أنّ ملكة إسبانيا المستقبلية أمبرا فيدال قد تعرّضت للخطف، وأنّها محتجزة كرهينة من قبل البروفيسور الأميركي روبرت لانغدون. وحثّ القصر السلطات المحلّية على المشاركة في البحث عن الملكة.

غير أنّ المخبر المدني monte@iglesia.org أرسل لنا للتوّ البيان التالي:

مزاعم الخطف الصادرة عن القصر مزيّفة مائة بالمائة. فهي مكيدة لاستخدام الشرطة المحلّية من أجل توقيف لانغدون ومنعه من تحقيق هدفه في برشلونة (لانغدون/فيدال يعتقدان أنّهما ما زالا يستطيعان إيجاد طريقة لنشر اكتشاف كيرش للعالم). وفي حال وفّقا في ذلك، فقد يتمّ بثّ عرض كيرش مباشرة في أيّ لحظة. ترقّبوا أيّ جديد.

أمر لا يصدّق! وقد سمعتم هذا الخبر هنا أوّلاً، أي أنّ لانغدون وفيدال هربا لأنّهما يريدان إنهاء ما بدأه إدموند كيرش! يبدو أنّ القصر يائس لإيقافهما. (أهو فالديسبينو مجدّداً؟ وأين الأمير من كلّ هذا؟).

سنطلعكم على كلّ جديد فور وروده. تابعونا لأنّ أسرار كيرش قد تُكشَف هذه الليلة.

الفصل 72

شرد نظر الأمير جوليان عبر نافذة سيّارة الأوبل سيدان وهم يعبرون الطريق الريفي وحاول أن يفهم سبب سلوك الأسقف الغريب.

فالديسبينو يخفي شيئاً.مكتبة الرمحي أحمد

مضت أكثر من ساعة منذ أن اصطحبه الأسقف سرّاً من القصر، وهو عمل غير مألوف على الإطلاق؛ مؤكّداً له أنّه يفعل ذلك حفاظاً على سلامته.

طلب منّي ألّا أطرح الأسئلة... بل أن أثق به وحسب.

لطالما كان الأسقف أقرب إلى عمّ بالنسبة إليه، وصديقاً موثوقاً لوالده. لكنّ اقتراح فالديسبينو بالاختباء في منزل الأمير الصيفي بدا مريباً لجوليان منذ البداية. *ثمّة خطب ما. فأنا معزول تماماً، بلا هاتف، ولا حرس، ولا أخبار، ولا أحد يعرف مكاني.*

والآن، مع مرور السيّارة من فوق سكّة القطار المحاذية لكازيتا دي برينسيبي، حدّق جوليان إلى الطريق الخشبية الممتدّة أمامه. على مسافة مائة ياردة إلى الأمام، لاح مدخل الطريق الخاصّة الطويلة والمحاطة بالأشجار التي تؤدّي إلى المنزل البعيد.

تخيّل جوليان المنزل الخالي، وشعر بالحذر المفاجئ. مال إلى الأمام ووضع يداً حازمة على كتف مساعد الأسقف الجالس خلف المقود، وقال له: "أوقِف السيّارة هنا من فضلك".

فالتفت إليه فالديسبينو بدهشة. "لكنّنا على وشك-"

صاح الأمير بصوت عالٍ داخل السيّارة الصغيرة: "أريد أن أعرف بما يجري!".

"دون جوليان، لقد كانت هذه الليلة مليئة بالأحداث، لكن يجب عليك-"

سأله جوليان: "أيجب عليَ أن أثق بك؟".

"أجل".

ضغط جوليان على كتف السائق الشابّ وأشار إلى طرف الطريق الريفية الخالية المكسوّة بالأعشاب وأمره بحدّة: "توقّف هنا".

فاعترض فالديسبينو قائلاً: "واصِل سيرك، دون جوليان، سأشرح-"

صاح الأمير: "أوقِف السيّارة!".

انحرف مساعد الكاهن إلى حيث أشار الأمير، وأوقف السيّارة فوق العشب. أمره جوليان ونبضه يتسارع: "اسمح لنا ببعض الخصوصية من فضلك".

لم يكن الشابّ بحاجة إلى سماع الأمر مرّتين، بل قفز فوراً من السيّارة المتوقّفة، وأسرع مبتعداً في الظلام، تاركاً فالديسبينو وجوليان بمفردهما على المقعد الخلفي.

وفي ضوء القمر الشاحب، بدا فالديسبينو خائفاً فجأة.

قال جوليان بنبرة آمرة أجفلته هو نفسه: "عليك أن تخاف". تراجع فالديسبينو إلى الخلف، وبدا مذهولاً من نبرة الأمير التهديدية التي لم يسبق له أن استخدمها معه من قبل.

قال جوليان: "أنا وليّ عهد إسبانيا. وهذه الليلة قمتَ بإبعاد الحرس، ومنعتَني من الوصول إلى هاتفي وموظّفيّ، كما حظرتَ عليّ سماع الأخبار، ورفضت السماح لي بالاتّصال بخطيبتي".

"أنا أعتذر حقّاً-"

غير أنّ جوليان قاطعه وهو يحدّق إليه: "عليك أن تبذل مجهوداً أكبر". وحدّق بحدّة إلى الأسقف الذي بدا صغير الحجم على نحو غريب في تلك اللحظة.

أخذ فالديسبينو نفساً بطيئاً، والتفت إلى جوليان في الظلام وقال: "دون جوليان، لقد أتاني اتّصال في وقت سابق من هذه الليلة، وقيل لي-"

"اتّصال من قبل من؟".

تردّد الأسقف. "من قِبل أبيك. فهو غاضب جدّاً".

حقّاً! كان جوليان قد زار والده منذ يومين وحسب في قصر زارزويلا ووجد معنوياته ممتازة، على الرغم من تدهور صحّته. "وما سبب غضبه؟".

"مع الأسف، شاهد العرض الذي قدّمه إدموند كيرش".

دُهش جوليان كثيراً. فوالده المريض ينام عشرين ساعة تقريباً في اليوم، وليس من المتوقّع إطلاقاً أن يكون مستيقظاً في تلك الساعة. بالإضافة إلى ذلك، لطالما منع الملك وجود التلفزيونات وأجهزة الكمبيوتر في غرف النوم في القصر، وأصرّ على أنّها أماكن مخصّصة للنوم والقراءة. وممرّضات الملك ما كنّ ليسمحن له بمحاولة النهوض من السرير لمشاهدة عرض دعائي يقدّمه ملحد.

قال فالديسبينو: "إنّه خطئي. فقد أعطيته جهاز كمبيوتر لوحياً منذ بضعة أسابيع لكي لا يشعر أنّه معزول عن العالم. وكان يتعلّم إرسال الرسائل النصّية والإلكترونية. وهكذا انتهى به الأمر بمشاهدة محاضرة كيرش عبر جهازه اللوحي".

انزعج جوليان كثيراً وهو يفكّر في أنّ أباه الذي يعيش على الأرجح الأسابيع الأخيرة من حياته شاهد بثّاً مناهضاً للكاثوليكية ومثيراً للشقاق انتهى بعمل إجرامي.

عوضاً عن ذلك، كان ينبغي أن يتأمّل الملك في هذه الفترة بإنجازاته العديدة والاستثنائية في بلاده.

تابع فالديسبينو قائلاً وهو يستعيد تماسكه: "وكما يمكنك أن تتخيّل، كانت مخاوفه عديدة، ولكنّه استاء بشكل خاصّ من تصريحات كيرش، ومن قيام خطيبتك باستضافة الحدث. فقد وجد الملك أنّ مشاركة الملكة المستقبلية قد انعكست بشكل سيّئ جدّاً عليك... وعلى القصر

"أمبرا امرأة مستقلّة، وأبي يعرف ذلك".

"فليكن، لكن عندما اتّصل كان واضحاً جدّاً وغاضباً على نحو لم أعهده فيه منذ سنوات. وأمر أن أحضرك إليه على الفور".

"ولماذا نحن هنا إذاً؟". سأله جوليان وهو يشير إلى الطريق المؤدّية إلى منزله. "إنّه في زارزويلا".

قال فالديسبينو بصوت خافت: "لم يعد هناك. فقد أمر مساعديه وممرّضاته بإلباسه ووضعه على كرسي متحرّك واصطحابه إلى موقع آخر ليمضي فيه أيّامه الأخيرة محاطاً بتاريخ بلاده".

عندما قال الأسقف ذلك، أدرك جوليان الحقيقة.

لم يكن منزلي الصيفي وجهتنا من الأساس.

حوّل جوليان نظره عن الأسقف وهو يرتجف، وحدّق إلى الطريق الريفية الممتدّة أمامهما. في البعيد، بين الأشجار، استطاع رؤية الأبراج المضيئة لمبنى ضخم.

إل إسكوريال.

على مسافة أقلّ من ميل، بدا أحد أكبر الأبنية الدينية في العالم، مثل قلعة عند أسفل جبل أبانتوس؛ مبنى الإسكوريال الشهير في إسبانيا. يضمّ المجمّع الذي يمتدّ على مساحة ثمانية أكرات ديراً وبازيليك وقصراً ملكياً ومكتبة، فضلاً عن سلسلة من غرف الموت الأكثر رعباً التي رآها جوليان في حياته.

السرداب الملكي.

كان والد جوليان قد أحضره إلى السرداب عندما كان في الثامنة من عمره فقط، وقاد الصبيّ عبر مدفن الأطفال الذي يضمّ غرف دفن تزدحم بقبور الأطفال الملكيين.

لن ينسى جوليان يوماً قبر "كعكة عيد الميلاد" المرعب الذي رآه في القبو، وكان عبارة عن قبر مستدير ضخم يشبه كعكة بيضاء ويحتوي على رفاة ستّين طفلاً ملكياً، جميعهم وُضِعوا في "أدراج" وأُدخِلوا في جوانب "الكعكة" إلى الأبد.

غير أنّ فظاعة هذا المشهد الكئيب تلاشت من ذهن جوليان لاحقاً عندما اصطحبه والده لرؤية مرقد والدته الأخير. إذ توقّع أن يرى قبراً رخامياً يليق بملكة، ولكنّه

عوضاً عن ذلك رأى جثمان أمّه ممدّداً في صندوق عادي جدّاً في غرفة حجرية عارية عند نهاية رواق طويل. شرح له الملك أنّ أمّه مدفونة حالياً في بودريديرو، أي "حجرة تحليل" تُدفن فيها الجثامين الملكية لمدّة ثلاثين عاماً إلى ألّا يتبقّى منها شيء سوى الغبار، وعندئذ يتمّ نقلها إلى قبورها الدائمة. فتذكّر جوليان أنّه احتاج يومذاك إلى كلّ قوّته لمقاومة الدموع وشعور الغثيان الذي أصابه.

بعد ذلك، اصطحبه والده إلى أعلى سلّم شديد الانحدار يبدو أنّه يهبط إلى ما لا نهاية في الظلام. هناك، لم تعد الجدران والدرجات رخامية بيضاء، بل ذات لون عنبري مهيب. وتوزّعت شموع النذور كلّ ثلاث درجات ملقية ضوءها المتمايل على الحجر الصفراوي.

مدّ جوليان الصغير يده وأمسك بالدرابزين القديم، ثمّ هبط مع أبيه درجة تلو الأخرى... عميقاً في الظلام. عند أسفل السلّم، فتح الملك باباً مزخرفاً وابتعد جانباً، مشيراً لجوليان للدخول.

قال له والده: *"هذا مدفن الملوك"*.

حتّى في سنّ الثامنة، كان جوليان قد سمع عن هذه الغرفة، مكان الأساطير.

دخل الصبيّ وهو يرتجف، ووجد نفسه في غرفة عنبرية متلألئة. كانت الغرفة مثمّنة الأضلاع، تفوح فيها رائحة البخور، وتبدو وكأنّها تتمايل أمام العين في الضوء غير الثابت للشموع التي كانت مشتعلة في الثريا المعلّقة في السقف.

ذهب جوليان إلى وسط الغرفة، واستدار ببطء في مكانه وشعر بالبرد وبصغر حجمه في ذلك المكان المهيب.

احتوت جميع الجدران الثمانية على كوّات تكدّست فيها توابيت سوداء متشابهة من الأرض إلى السقف، وعُلّقت على كلّ منها لوحة ذهبية تحمل اسماً. كان جوليان قد قرأ الأسماء المكتوبة على التوابيت في كتب التاريخ؛ الملك فرديناند... الملكة إيزابيلا... الملك تشارلز الخامس، الإمبراطور الروماني.

في الصمت المخيّم على المكان، شعر جوليان بثقل يد والده العطوف على كتفه، وصعقته خطورة تلك اللحظة. *يوماً ما، سيُدفن أبي في هذه الغرفة.*

صعد الأب وابنه من أعماق الأرض في صمت مطبق، بعيداً عن أجواء الموت، وعادا إلى الضوء. وما إن خرجا إلى شمس إسبانيا الساطعة حتّى ركع الملك ونظر إلى عينَي ابنه جوليان. همس الملك: *"Memento mori. تذكّر الموت*. حتّى بالنسبة إلى أولئك الذين يملكون قوّة عظيمة، تعتبر الحياة قصيرة. لكن، ثمّة طريقة واحدة للانتصار على الموت، وذلك بتحقيق الروائع في حياتنا. علينا أن نستغلّ كلّ الفرص الممكنة لنُظهِر اللطف ونُحبّ من أعماق قلوبنا. أنا أرى في عينيك أنّك تملك روح أمّك الكريمة.

ضميرك سيكون دليلك. وفي لحظات الحياة الحالكة، دع قلبك ينير لك الطريق".

بعد عقود من الزمن، لم يكن جوليان بحاجة إلى أيّ تذكير ليدرك أنّه لم يحقّق الكثير من الروائع في حياته. في الواقع، بالكاد تمكّن من الخروج من ظلّ الملك وبناء شخصية مستقلّة به.

لقد خذلتُ أبي في كلّ شيء.

لسنوات، أخذ جوليان بنصيحة أبيه وترك قلبه يقوده. لكنّ الطريق كانت وعرة، وذلك لأنّ قلبه كان يتوق إلى إسبانيا مختلفة تماماً عن إسبانيا أبيه. فقد كانت أحلام جوليان ببلده الحبيب جريئة جدّاً، حيث ما كان من الممكن أن يكشفها قبل وفاة أبيه. وحتّى في تلك الحال، لم يكن واثقاً من كيفية استقبال أفعاله؛ ليس فقط من قبل القصر الملكي، بل من قبل الأمّة بأكملها. لذلك، لم تكن بيد جوليان حيلة سوى الانتظار، وإبقاء قلبه مفتوحاً، واحترام التقاليد.

لكن فجأة، منذ ثلاثة أشهر، تغيّر كلّ شيء.

التقيت أمبرا فيدال.

قلبت تلك المرأة الجميلة بشخصيتها المرحة والقوية عالم جوليان رأساً على عقب. ففي غضون بضعة أيّام من لقائهما الأوّل، فهم جوليان أخيراً معنى كلام أبيه. *دع قلبك ينير لك الطريق... واستغلّ كلّ الفرص الممكنة لتحبّ من أعماق قلبك!* فإغراء الوقوع في الحبّ كان مختلفاً عن كلّ ما عاشه جوليان حتّى ذلك الحين، وشعر أنّه ربما كان أخيراً يتّخذ خطواته الأولى نحو تحقيق الروائع في حياته.

غير أنّ الأمير كان في تلك اللحظة يحدّق بشرود إلى الطريق الممتدّة أمامه، وقد غلبه إحساس مخيف بالوحدة والعزلة. فقد كان والده يحتضر، والمرأة التي يحبّها لا تتحدّث إليه، كما أنّه وبّخ للتوّ معلّمه الموثوق؛ الأسقف فالديسبينو.

حثّه الأسقف بلطف: "سموّ الأمير جوليان، علينا الذهاب. فوالدك ضعيف وهو يتوق للتحدّث إليك".

التفت جوليان ببطء إلى صديق أبيه القديم، ثمّ همس قائلاً: "كم من الوقت بقي لديه برأيك؟".

ارتجف صوت فالديسبينو كما لو كان على شفير البكاء. "لقد طلب منّي ألّا أسبّب لك القلق، لكنّني أشعر أنّ النهاية قادمة أسرع ممّا توقّعنا. وهو يريد أن يودّعك".

سأله جوليان: "ولماذا لم تخبرني عن وجهتنا منذ البداية؟ لمَ كلّ هذا التكتّم والكذب؟".

"أنا آسف، لم يكن لديّ خيار. فقد أعطاني والدك أوامر صريحة. أمرني أن أعزلك عن العالم الخارجي وعن الأخبار إلى أن يتمكّن من التحدّث إليك شخصياً".

"عزلي عن... أيّ أخبار؟".

"أعتقد أنّه من الأفضل أن أدع والدك يشرح لك".

تأمّل جوليان الأسقف مطوّلاً. "قبل أن أراه، ثمّة شيء أريد معرفته. أهو بكامل قواه العقلية؟".

نظر إليه فالديسبينو بتردّد. "لماذا تسأل؟".

"لأنّ طلباته اليوم تبدو غريبة وانفعالية".

أومأ فالديسبينو برأسه بحزن وقال: "سواء أكانت انفعالية أم لا، فما زال والدك هو الملك. أنا أحبّه، وأنفّذ أوامره. جميعنا نفعل".

الفصل 73

وقف روبرت لانغدون وأمبرا فيدال جنباً إلى جنب أمام صندوق العرض، وحدّقا إلى مخطوطة وليام بليك المضاءة بالوهج الخافت لمصباح الزيت. كان الأب بينيا قد ابتعد لتعديل بضعة مقاعد، مانحاً إيّاهما بأدب بعض الخصوصية.

وجد لانغدون صعوبة في قراءة الأحرف الصغيرة لنصّ القصيدة المكتوب بخطّ اليد، لكنّ العنوان الأكبر حجماً في أعلى الصفحة كان مقروءاً تماماً.

The Four Zoas

الحيوانات الأربعة

عندما رأى لانغدون هذه الكلمات، شعر على الفور ببارقة أمل. فقد كان هذا عنوان إحدى قصائد بليك التوقعية الأكثر شهرة؛ وهي عبارة عن عمل ضخم مقسّم إلى تسع "ليالٍ" أو فصول. وكانت مواضيع القصيدة، بحسب ما يذكر لانغدون من قراءته لها من أيّام الجامعة، تتمحور حول زوال الإيمان، وهيمنة العلم في نهاية المطاف.

تأمّل لانغدون مقاطع القصيدة، ورأى السطور تنتهي في منتصف الصفحة عند رسم أنيق (finis divisionem)، وهو رسم بياني يعادل كلمة "النهاية".

هذه هي الصفحة الأخيرة من القصيدة. خاتمة إحدى روائع بليك التوقعية!

مال لانغدون وحدّق إلى الكتابة الصغيرة، ولكنّه لم يستطع قراءة النصّ في ضوء المصباح الخافت.

ركعت أمبرا حيث أصبح وجهها على بعد إنش واحد من الزجاج، ومرّت بنظرها على القصيدة بسرعة، ثمّ توقّفت لتقرأ أحد الأبيات بصوت عالٍ. *And Man walks forth from midst of the fires, the evil is all consum'd*. ويخرج الإنسان من وسط النيران، وقد احترق الشرّ تماماً". التفتت إلى لانغدون. "وقد احترق الشرّ تماماً!".

فكّر لانغدون قليلاً، ثمّ هزّ رأسه بشرود. "أعتقد أنّ بليك يشير إلى زوال الفساد الديني".

بدا الأمل في عينَي أمبرا: "قال إدموند إنّ بيته الشعري المفضّل توقّع يأمل أن يتحقّق يوماً ما".

قال لانغدون: "في الواقع، لا شكّ في أنّ إدموند كان يرغب في مستقبل يسوده الإلحاد. من كم حرف يتألّف هذا البيت؟".

بدأت أمبرا تعدّ الأحرف، ثمّ هزّت رأسها قائلة: "إنّه يزيد عن خمسين حرفاً".

عادت تتفحّص القصيدة، ثمّ توقّفت بعد برهة. "ماذا عن هذا البيت: *The Expanding eyes of Man behold the depths of wondrous worlds*. عينا الإنسان المتوسّعتان تريان أعماق عوالم عجيبة".

قال لانغدون وهو يفكّر في المعنى: "ممكن". سيستمرّ الفكر البشري في النموّ والتطوّر مع الزمن، ممّا يتيح لنا أن نرى الحقيقة على نحو أعمق.

قالت أمبرا: "لكنّه يحتوي على الكثير من الأحرف أيضاً. سأواصل القراءة".

وبينما تابعت قراءة الصفحة، أخذ لانغدون يروح ويجيء خلفها مفكّراً. فقد تردّد صدى البيتين اللذين قرأتهما في عقله، واستحضرا ذكرى قديمة لقراءاته لأعمال بليك في أحد صفوف الأدب البريطاني في برينستون.

بدأت الصور تتكوّن في ذهنه كما يحدث أحياناً مع ذاكرته البصرية. واستحضرت تلك الصور صوراً جديدة، في تتابع مستمرّ. فجأة، وبينما هو واقف في القبو، لمعت في ذهنه صورة لأستاذه الذي وقف أمام الصفّ بعد أن أتمّ الطلاب قراءة *الحيوانات الأربعة*، وسألهم الأسئلة القديمة عن قدم الزمن: *ماذا تختارون؟ عالَم بلا دين أم عالَم بلا عِلم؟* ثمّ أضاف البروفيسور: *من الواضح أنّ وليام بليك يفضّل أحد الاثنين، ولا يمكن تلخيص أمله للمستقبل أفضل ممّا فعل في البيت الأخير من هذه القصيدة الملحمية.*

شهق لانغدون واستدار نحو أمبرا التي كانت لا تزال منكبّة على قراءة نصّ بليك.

قال وهو يتذكّر البيت الأخير: "أمبرا، اذهبي إلى نهاية القصيدة!".

نظرت أمبرا إلى آخر القصيدة. وبعدما ركّزت للحظة، استدارت إليه وقد حملقت بعينيها مندهشة.

انضمّ إليها لانغدون وحدّق إلى النصّ. والآن، بعدما أصبح يعرف البيت المقصود، استطاع قراءة الخطّ الباهت:

The dark religions are departed & sweet science reigns.

قرأت أمبرا البيت بصوت عالٍ: "زال الإيمان المظلم وساد العلم النقيّ".

لم يكن ذلك البيت توقع يؤيّده إدموند فحسب، بل كان أساس العرض الذي قدّمه في هذه الليلة.

سيزول الإيمان... وسيسود العلم.

بدأت أمبرا تعدّ بعناية أحرف البيت، لكنّ لانغدون أدرك أنّه لا داعي لذلك. *فهذا هو البيت الذي يبحثان عنه بلا شكّ*. كان عقله قد تحوّل إلى كيفية الوصول إلى وينستون وإطلاق عرض إدموند. فالخطّة التي وضعها لانغدون لتحقيق ذلك كانت تحتاج إلى حديث خاص مع أمبرا.

التفت إلى الأب بينيا الذي كان قد عاد للتوّ وسأله: "أبتِ، لقد انتهى عملنا هنا تقريباً. هل تمانع في الصعود إلى الأعلى والطلب من عميلَي الحرس الملكي استدعاء المروحيّة؟ علينا المغادرة حالاً".

قال الأب بينيا وهو يتوجّه نحو السلّم: "بالطبع. أتمنّى أن تكونا قد وجدتما ما أتيتما من أجله. أراكما بعد لحظات".

وبينما اختفى الكاهن على السلّم، التفتت أمبرا إلى روبرت وقد بدا عليها قلق مفاجئ.

"روبرت، البيت قصير جداً. فقد عددته مرّتين، إنّه لا يتجاوز ستّة وأربعين حرفاً. نحن بحاجة إلى سبعة وأربعين".

"ماذا؟!". ذهب إليها لانغدون، وحدّق إلى النصّ، ثمّ عدّ أحرفه المكتوبة بخطّ اليد بعناية. "The dark religions are departed & sweet science reigns". وبالفعل، كان عددها ستّة وأربعين حرفاً. دُهش، وتأمّل البيت مجدّداً. "هل أنت متأكّدة من أنّ إدموند قال سبعة وأربعين وليس ستّة وأربعين؟".

"بالتأكيد".

أعاد لانغدون قراءة البيت. لكن، لا بدّ أن يكون هو، *ما الذي فاتني؟*

تأمّل أحرف البيت الأخير من قصيدة بليك بعناية. أوشك على الوصول إلى النهاية تقريباً عندما رآه.

. &sweet science reigns.

قال لانغدون: "إنّها أداة العطف، الرمز الذي كتبه بليك عوضاً عن كامل كلمة and".

فرمقته أمبرا باستغراب، ثمّ هزّت رأسها قائلة: "روبرت، إن استبدلنا الرمز بكلمة and... سنحصل على ثمانية وأربعين حرفاً. وهي تزيد عن أحرف كلمة السرّ".

ابتسم لانغدون. *هذا غير صحيح. إنّه رمز داخل رمز.*

تعجّب لانغدون من حيلة إدموند الصغيرة الذكية. فقد استخدم العبقري المُبالِغ في الحِرص خدعة مطبعية بسيطة لكي يضمن ألّا يتمكّن أحد من طباعة كلمة السرّ بشكل صحيح حتّى لو اكتشف وبيته الشعري المفضّل.

فكّر لانغدون: *رمز العطف. لقد تذكّره إدموند.*

كان أصل رمز العطف من أوّل الأمور التي يعلّمها لانغدون لطلّاب صفّ الرموز. فرمز "&" كان لوغوغراماً، أي حرفياً صورة تمثّل كلمة. وفي حين أنّ الكثير من الناس يفترضون أنّ الرمز مشتقّ من الكلمة الإنكليزية "and"، إلّا أنّه مشتقّ من الكلمة اللاتينية *et*. فقد كان التصميم غير المعتاد لرمز العطف "&" مزيجاً مطبعياً من الحرفين *E* و *T*، ولا تزال الرابطة مرئية اليوم في بعض خطوط الكمبيوتر مثل Trebuchet، الذي يظهر رمز العطف فيه على الشكل التالي "&" مبدياً بوضوح أصله اللاتيني.

لن ينسى لانغدون أبداً أنّه في الأسبوع التالي بعدما علّم صفّ إدموند عن رمز العطف، أتى العبقري الشابّ مرتدياً قميصاً قطنياً طُبِعت عليه الرسالة التالية: *Ampersand phone home!*، في إشارة مرحة إلى فيلم المخرج سبيلبيرغ حول كائن فضائي يدعى "ET" يحاول إيجاد طريق العودة إلى البيت.

والآن، بينما كان يحدّق إلى قصيدة بليك، استطاع أن يتخيّل كلمة سرّ إدموند تماماً في عقله.

thedarkreligionsaredepartedetsweetsciencereigns

يا لعقل إدموند اللامع! هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يُطلِع أمبرا على خدعة إدموند الذكيّة التي استخدمها لرفع مستوى أمان كلمة السرّ.

ما إن فهمت أمبرا حقيقة الأمر حتّى ابتسمت ابتسامة عريضة لم يرَها لانغدون على وجهها منذ أن التقيا. قالت: "حسناً، أعتقد أنّنا إن كان لدينا أدنى شكّ حول مدى ذكاء إدموند كيرش...".

ضحك الاثنان، وتنفّسا الصعداء للحظات في عزلة القبو.

قالت بنبرة امتنان: "لقد وجدتَ كلمة السرّ، وأشعر بأسف كبير لأنّني خسرت هاتف إدموند. لو كان لا يزال معنا، لتمكنّا من إطلاق العرض حالاً".

فقال لها مطمئناً: "الذنب ليس ذنبك. وكما قلتُ لك، أنا أعرف كيف أجد وينستون".

على الأقلّ، هذا ما أظنّه. وأمل أن يكون محقّاً.

بينما كان لانغدون يتخيّل المشهد الجوّي لبرشلونة، والأحجية غير الاعتيادية التي يضمّها، كُسر صمت القبو بضجيج صاخب تردّد من الأعلى.

ففي الطابق العلوي، كان الأب بينيا يصرخ ويناديهما.

الفصل 74

"أسرِعا! آنسة فيدال... بروفيسور لانغدون... اصعدا إلى هنا بسرعة!".

انطلق لانغدون وأمبرا يصعدان سلّم القبو بينما واصل الأب بينيا صراخه اليائس. وعندما وصلا إلى أعلى السلّم، اندفع لانغدون إلى المحراب، ولكنّه غرق في الظلام على الفور.

أنا لا أرى شيئاً!

تقدّم ببطء، وكافحت عيناه للتكيّف بعد ضوء مصابيح الزيت في الأسفل. وقفت أمبرا إلى جانبه، وحاولت أن تتلمّس طريقها هي الأخرى.

صاح بينيا بيأس: "أنا هنا!".

تبعا مصدر الصوت إلى أن رأيا أخيراً الكاهن عند أطراف بقعة الضوء المنبعثة من أسفل السلّم. كان الأب بينيا راكعاً على ركبتيه، ومنحنياً فوق جسد ممدّد في الظلام.

ما إن وصلا إلى جانب بينيا حتّى أجفل لانغدون لدى رؤيته جثّة العميل دياز ممدّدة على الأرض، ورأسه ملتوٍ على نحو غير طبيعي. كان دياز ممدّداً على بطنه، لكنّ رأسه ملتوٍ إلى الخلف بمقدار 180 درجة، فاتحاً عينيه الخاليتين من الحياة على سقف الكاتدرائية. انكمش لانغدون رعباً، وفهم الآن سبب صرخات الأب بينيا المذعورة.

اجتاحته موجة خوف باردة، فوقف فجأة وهو يتلمّس في الظلام بحثاً عن أيّ إشارة حركة في الكنيسة الضخمة.

همست أمبرا مشيرة إلى حزام دياز الخالي. "لقد اختفى مسدّسه". ثمّ حدّقت حولهم في الظلام ونادت: "أيها العميل فونسيكا؟!".

وإلى جوارهم في الظلام، سُمِع وقع خطوات مفاجئ على الأرض، وصوت أجساد تصطدم في عراك شرس. بعد ذلك، وعلى نحو مفاجئ، دوّى انفجار طلقة نارية على مسافة قريبة. أجفل لانغدون وأمبرا وبينيا، بينما تردّد صدى الطلقة في أرجاء الكاتدرائية، تبعه صوت متألّم يحثّهم قائلاً: "*Corre!*" "*اهربوا!*"

دوت طلقة ثانية، تبعها صوت اصطدام ثقيل، وبدا واضحاً أنّه صادر عن جسد يرتطم بالأرض.

كان لانغدون قد أمسك بيد أمبرا وراح يدفعها باتّجاه الظلام بالقرب من الجدار الجانبي لحرم الكنيسة. تبعهما الأب بينيا، وانكمش الثلاثة بصمت متسمّرين عند الجدار البارد.

حاول لانغدون أن يرى شيئاً في الظلام وهو يكافح لفهم ما يجري.

لقد قام شخص ما بقتل دياز وفونسيكا للتوّ؟ من يوجد معنا هنا؟ وماذا يريد؟

لم يتخيّل لانغدون سوى إجابة منطقية واحدة، القاتل المختبئ في ظلام ساغرادا فاميليا لم يأتِ إلى هنا لقتل عميلين من عملاء الحرس الملكي... لقد أتى سعياً وراء أمبرا ولانغدون.

ما زال أحدهم يحاول دفن اكتشاف إدموند.

فجأة، أُضيء شعاع مصباح ساطع في وسط المحراب، وأخذ يروح ويجيء في قوس عريضة متّجهاً نحوهم، فأدرك لانغدون أنّهم لا يملكون سوى بضع ثوانٍ قبل أن يكشف المصباح مكانهم.

همس بينيا: "من هنا". وراح يدفع أمبرا على طول الجدار في الاتّجاه المعاكس. فتبعهما لانغدون بينما كان ضوء المصباح المتأرجح يقترب. فجأة، انعطف بينيا وأمبرا إلى اليسار، واختفيا في فتحة في الجدار، فدخل لانغدون خلفهما ليتعثّر على الفور عند أسفل سلّم. راحت أمبرا وبينيا يصعدان الدرجات، ولحق بهما لانغدون ما إن استعاد توازنه. نظر إلى الخلف، فرأى شعاع الضوء يظهر تحته تماماً، وينير أسفل السلّم.

تجمّد لانغدون في الظلام منتظراً.

بقي الضوء هناك للحظة طويلة، ثمّ بدأ يسطع أكثر.

إنّه آتٍ في هذا الاتّجاه!

سمع لانغدون أمبرا وبينيا يصعدان السلّم فوقه خلسة قدر الإمكان، فاستدار واندفع خلفهما، ولكنّه تعثّر مجدّداً واصطدم بسلّم ليدرك أنّ السلّم لم يكن مستقيماً، بل مقوّساً. فوضع إحدى يديه على الجدار للاسترشاد به، وبدأ يدور إلى الأعلى في دوّامة ضيّقة، وسرعان ما فهم أين هو.

سلّم ساغرادا فاميليا اللولبي الغدّار الشهير.

نظر إلى الأعلى ورأى وهجاً خافتاً جدّاً يتسلّل من النوافذ العلوية، وكان كافياً ليرى لانغدون مدى ضيق الجدران التي تحيط به. فشعر بساقيه تتقلّصان، وأخذ يجاهد في صعود السلّم وقد بدأت أعراض رهاب الأماكن المغلقة تداهمه.

واصِل صعودك! هذا ما أمره به عقله لكنّ عضلاته تقلّصت خوفاً.

في مكان ما في الأسفل، سمع لانغدون صوت خطوات ثقيلة تقترب من داخل المحراب. فأجبر نفسه على مواصلة التقدّم، وصعود الدرجات اللولبية نحو الأعلى بأسرع

ما يمكنه. فوقه، أصبح الضوء الخافت أكثر سطوعاً مع مروره بفتحة في الجدار، وكانت عبارة عن شقّ عريض استطاع أن يلمح من خلاله أضواء المدينة. لفحته نسمة هواء باردة وهو يخرج من هذه النافذة، ويغوص مجدّداً في الظلام وهو يتابع الصعود.

وصلت الخطى إلى أسفل السلّم، وتنقّل ضوء المصباح عشوائياً في وسط الدرج. مرّ لانغدون بنافذة أخرى بينما كان وقع الخطوات يقترب مع إسراع صاحبها عبر السلّم خلفهم.

لحق لانغدون بأمبرا والأب بينيا الذي كان يلهث لالتقاط أنفاسه. أطلّ لانغدون من الطرف الداخلي للسلّم إلى وسط الدرج العميق. كانت الفتحة العميقة مسبّبة للدوار، وعبارة عن حفرة ضيّقة ودائرية تهبط في ما يشبه دوّامة حلزونية عملاقة. ولم يكن ثمّة حاجز في الواقع، بل حافة داخلية بارتفاع الكاحل لا تؤمّن أيّ حماية على الإطلاق. حاول لانغدون مقاومة موجة الغثيان التي أصابته.

التفت مجدّداً إلى الظلام الذي يعلوه. كان لانغدون قد سمع أنّ عدد الدرجات يتجاوز أربعمائة درجة. وفي هذه الحالة، ما من سبيل ليبلغوا القمّة من دون أن يلحق بهم الرجل المسلّح.

قال بينيا وهو يبتعد جانباً ويحثّ لانغدون وأمبرا على تجاوزه: "مرّا أنتما الاثنان!".

فقالت أمبرا وهي تمدّ يدها لمساعدة الكاهن المسنّ: "مستحيل يا أبتِ".

أعجب لانغدون بسلوكها الحمائي، ولكنّه عرف أيضاً أنّ الهرب عبر هذا السلّم كان انتحاراً، وسينتهي على الأرجح ببضع رصاصات في ظهورهم. وهنا أدرك أنّه بين الغريزتين الحيوانيتين للبقاء، أي القتال أو الفرار، لم يعد الفرار خياراً.

لن نتمكّن من الهرب منه.

ترك لانغدون أمبرا والأب بينيا يسبقانه، ثمّ استدار ووقف بثبات مواجهاً أسفل السلّم اللولبي. في الأسفل، راح ضوء المصباح يقترب. فتراجع إلى الجدار وانخفض في الظلام بانتظار وصول الضوء إلى الدرجات تحته. فجأة، انعطف القاتل وأصبح ضمن مجاله البصري. فرأى لانغدون شكلاً داكناً يتحرّك ويداه ممدودتان إلى الأمام، واحدة تمسك بالمصباح والأخرى بمسدّس.

تصرّف لانغدون تلقائيّاً، فهبّ من وضعيته ورمى بنفسه في الهواء، وقدماه إلى الأمام. رآه الرجل وبدأ يرفع مسدّسه في اللحظة التي ارتطم فيها عقبا لانغدون بصدره في ضربة قويّة دفعت الرجل إلى جدار السلّم.

كانت الثواني التالية ضبابية.

سقط لانغدون على جنبه بقوّة، وشعر بألم مبرح في وركه، في حين أنّ المهاجِم تعثّر إلى الخلف وسقط بضع درجات قبل أن يتكوّم وهو يئنّ ألماً. سقط المصباح من

يده وقفز على الدرجات، ثمّ تدحرج وتوقّف مرسلاً شعاع ضوء منحرفاً على الجدار الجانبي، ومضيئاً شيئاً معدنياً على الدرجات في منتصف المسافة بين لانغدون والمهاجم.

المسدّس.

اندفع الرجلان إلى المسدّس في اللحظة نفسها، لكنّ لانغدون كان أعلى منه ووصل إليه أوّلاً، ثمّ أمسك بالمقبض وصوّب السلاح إلى مهاجمه الذي وقف في مكانه في الأسفل، محدّقاً بتحدٍّ إلى فوهة المسدّس.

وفي وهج المصباح، رأى لانغدون رجلاً ذا لحية بدأ يغزوها الشيب يرتدي سروالاً أبيض ناصعاً... وعلى الفور عرف من يكون.

ضابط البحرية من متحف غوغنهايم...

صوّب لانغدون المسدّس إلى رأس الرجل، واضعاً سبّابته على الزناد. "أنت من قتل صديقي إدموند كيرش".

كان الرجل يلهث، لكنّ جوابه أتى فورياً بصوت بارد كالجليد. "لقد أصبحنا متعادلَين. فصديقك إدموند كيرش قتل عائلتي".

الفصل 75

لقد حطّم لانغدون أضلاعي!

كان الأميرال أفيلا يشعر بألم مبرح كلّما تنشّق الهواء. فصدره يتقلّص ألماً مع كلّ نفس يأخذه في محاولة لإعادة الأوكسجين إلى جسده. حدّق إليه روبرت لانغدون من الأعلى مصوّباً مسدّسه إلى جسد أفيلا.

سرعان ما بدأ هذا الأخير يستخدم خبراته العسكرية ويقيّم وضعه. في الجانب السلبي، عدوّه يحمل مسدّساً ويقف على مستوى أعلى منه. أمّا في الجانب الإيجابي، وبالنظر إلى الطريقة التي يمسك فيها البروفيسور المسدّس، من الواضح أنّ خبرته ضئيلة مع الأسلحة.

ليست لديه نيّة إطلاق النار عليّ. سيحتجزني وينتظر وصول رجال الأمن. ونظراً إلى الصراخ الذي كان يعلو في الخارج، كان واضحاً أنّ رجال الأمن التابعين لساغرادا فاميليا قد سمعوا صوت الطلقات، وهم الآن يسرعون لدخول المبنى.

عليّ أن أتصرّف بسرعة.

أبقى أفيلا يديه مرفوعتين في إشارة استسلام، ونهض ببطء على ركبتيه، مبدياً كلّ علامات الامتثال والإذعان.

أعطِ لانغدون الإحساس بأنّه يملك السيطرة الكاملة.

على الرغم من سقوط أفيلا على السلّم، إلّا أنّه ظلّ يشعر بالشيء الذي دسّه في الجهة الخلفية من حزامه، وهو مسدّس السيراميك الذي قتل به كيرش في متحف غوغنهايم. كان قد أودع فيه الرصاصة الأخيرة قبل أن يدخل الكنيسة، ولكنّه لم يجد حاجة لاستخدامه؛ إذ قتل أحد الحارسين بصمت وسرق مسدّسه الأكثر فاعلية بكثير، والذي يصوّبه لانغدون عليه الآن. تمنّى أفيلا لو أنّه ترك المسدّس مقفلاً، فمن الواضح أنّ لانغدون ما كان ليعرف كيفيّة فتحه.

فكّر أفيلا بالقيام بحركة لسحب مسدّس السيراميك من حزامه وإطلاق النار على لانغدون أوّلاً، لكن حتّى لو نجح، فإنّ فرص بقائه على قيد الحياة لا تتجاوز الخمسين بالمائة. فمن مساوئ استخدام أشخاص عديمي الخبرة الأسلحة، ميلُهم لإطلاق النار عن طريق الخطأ.

إن تحرّكت بسرعة كبيرة...

كانت أصوات الصراخ تقترب، فعرف أفيلا أنّه إن قُبِض عليه فسيضمن إطلاق سراحه بواسطة الوشم الموجود على كفّه، أو على الأقلّ هذا ما أكّده له الوصيّ. لكن في هذه اللحظة، بعدما قتل اثنين من عملاء الحرس الملكي، لم يعد واثقاً ممّا إذا كان نفوذ الوصيّ سينقذه.

ذكّر أفيلا نفسه قائلاً: *لقد أتيت إلى هنا لتنفيذ مهمّة وعليّ إتمامها. عليّ القضاء على روبرت لانغدون وأمبرا فيدال.*

كان الوصيّ قد طلب من أفيلا دخول الكنيسة عبر البوّابة الأمنية الشرقية، ولكنّه قرّر القفز عن السياج الأمني. *فقد رأيت الشرطة عند البوّابة الشرقية... ولهذا السبب قمت بالارتجال.*

تكلّم لانغدون بحدّة وهو يحدّق إلى أفيلا: "تقول إنّ إدموند كيرش قد قتل أسرتك، لكنّ هذا كذب. إدموند ليس بقاتل".

أنت على حقّ، لا بل هو أسوأ من قاتل.

كانت الحقيقة المظلمة حول كيرش سرّاً لم يعرفه أفيلا سوى منذ أسبوع خلال مكالمة هاتفية مع الوصيّ. إذ قال له الوصيّ: *البابا يريد منك استهداف العالم المستقبلي الشهير إدموند كيرش. ولقداسته دوافع كثيرة، ولكنّه يودّ أن تنفّذ هذه المهمّة شخصيّاً.*

سأله أفيلا: *ولماذا أنا؟*

فهمس الوصيّ: *أيّها الأميرال، أنا آسف لإخبارك بذلك، لكنّ إدموند كيرش هو المسؤول عن تفجير الكاتدرائية الذي أودى بحياة أسرتك.*

في البداية، لم يصدّق أفيلا ذلك إطلاقاً. فهو لم يجد أيّ سبب على الإطلاق يدفع عالم كمبيوتر مشهوراً لتفجير كنيسة.

فشرح له الوصيّ قائلاً: *أنت رجل عسكري أيّها الأميرال، وتعرف أكثر من أيّ شخص آخر. الجندي الشابّ الذي يضغط على الزناد في المعركة ليس قاتلاً فعلياً، بل هو بيدق ينفّذ عمل جهات أقوى منه؛ حكومات، قادة، زعماء دين... إمّا أن يكونوا قد دفعوا له المال أو أقنعوه بأنّ قضيّتهم جديرة بكلّ التضحيات.*

بالفعل، سبق أن عاش أفيلا وضعاً كهذا.

تابع الوصيّ: *القواعد نفسها تنطبق على الإرهاب. فأكثر الإرهابيين شرّاً ليسوا الأشخاص الذين صنعوا القنابل، بل الزعماء النافذين الذين يقومون بتغذية الحقد بين الجماهير اليائسة، ويدفعون جنودهم إلى ارتكاب أعمال العنف. ولا يحتاج الأمر سوى إلى نفس مظلمة وقوية واحدة لإثارة الفوضى في العالم عبر بذر التعصّب الروحي والقومي أو تسميم عقول الضعفاء.*

كان لا بدّ لأفيلا من موافقته على ذلك.

قال الوصيّ: *الهجمات الإرهابية ضدّ المسيحيين آخذة في الارتفاع في جميع أنحاء العالم. ولم تعد الهجمات الجديدة حوادث مخطّطاً لها استراتيجياً، بل هي اعتداءات عفوية تُنفَّذ من قبل ذئاب وحيدة تستجيب لنداء الحرب الذي يُرسله أعداء المسيح المقنعون.* صمت الوصيّ قليلاً قبل أن يضيف: *وأنا أعتبر إدموند كيرش الملحد واحداً من أولئك الأعداء المقنعين.*

في تلك اللحظة، شعر أفيلا أنّ الوصيّ بدأ يبالغ. فعلى الرغم من حملة كيرش الخسيسة ضدّ المسيحية في إسبانيا، إلّا أنّ العالِم لم يُصدِر يوماً أيّ بيان يحثّ فيه على قتل المسيحيين.

قال له الصوت عبر الهاتف: *قبل أن تعترض، دعني أخبرك بمعلومة أخيرة.* وتنهّد قبل أن يضيف: *لا أحد يعرف ذلك أيّها الأميرال، لكنّ الاعتداء الذي أودى بحياة أسرتك... كان عمل حرب ضدّ الكنيسة البالمارية.*

بقي أفيلا صامتاً وهو يحاول أن يفهم، لكنّ هذا الكلام لم يبدُ له منطقياً، فكاتدرائية إشبيلية ليست بناء بالمارياً.

قال المتّصل: *في الصباح الذي تمّ فيه التفجير، كان ثمّة أربعة أعضاء بارزون في الكنيسة البالمارية بين المصلّين في إشبيلية، وذلك لغرض تجنيد أعضاء جدد. وتمّ استهدافهم هم تحديداً. أنت تعرف أحدهم، إنّه ماركو. أمّا الثلاثة الآخرون فماتوا في الهجوم.*

اضطربت أفكار أفيلا وهو يتخيّل معالجه الفيزيائي ماركو الذي خسر ساقه في الهجوم.

تابع الصوت: *أعداؤنا أقوياء وحافزهم قويّ. وعندما لم يستطع المهاجِم الوصول إلى مجمّعنا في إل بالمار دي ترويا، تبع مبشّرينا إلى إشبيلية، ونفّذ عمله الإرهابي هناك. أنا آسف جدّاً أيّها الأميرال. هذه المأساة هي أحد الأسباب التي جعلت البالماريين يتواصلون معك، فنحن نشعر بالمسؤولية لأنّ ما تعرّضت له أسرتك كان من ضمن الأضرار الجانبية في حرب موجّهة ضدّنا.*

حرب من *قبل من؟* تساءل أفيلا وهو يحاول أن يفهم تلك المزاعم الصادمة.

أجاب الوصيّ: *افتح بريدك الإلكتروني.*

فتح أفيلا صندوق بريده ليجد فيه مجموعة من الوثائق الخاصّة التي تتحدّث عن حرب وحشية تمّ شنّها ضدّ الكنيسة البالمارية منذ عقد من الزمن... حرب تضمّنت على ما يبدو دعاوى قضائية، وتهديدات بالابتزاز، وهبات ضخمة لمجموعات مناهضة للبالمارية مثل مجموعة دعم بالمار دي ترويا، ومجموعة حوار إيرلندا.

والأغرب أنّ هذه الحرب المريرة ضدّ الكنيسة البالمارية يشنّها على ما يبدو شخص واحد؛ ألا وهو العالم المستقبلي إدموند كيرش.

احتار أفيلا أمام تلك المعلومات. *لماذا يريد إدموند كيرش تدمير البالماريين؟*

قال له الوصيّ إنّه ما من أحد في الكنيسة، ولا حتّى البابا نفسه، يملك أدنى فكرة عن السبب وراء كره كيرش العميق للبالماريين. فكلّ ما يعرفونه هو أنّ واحداً من أغنى الأغنياء على سطح هذا الكوكب وأكثرهم نفوذاً لن يرتاح له بال حتّى يقضي على البالماريين.

لفت الوصيّ انتباه أفيلا إلى آخر وثيقة، والتي كانت عبارة عن رسالة مطبوعة للبالماريين من رجل يدّعي أنّه مفجّر إشبيلية. في السطر الأوّل، يُسمّي المهاجم نفسه "تلميذ إدموند كيرش". شدّ أفيلا قبضتيه غضباً، وشعر أنّه ليس بحاجة إلى رؤية المزيد.

شرح له الوصيّ السبب الكامن وراء عدم نشر البالماريين الرسالة علناً. فبسبب كلّ المقالات السيّئة التي نُشِرت عن البالماريين مؤخّراً، وكان معظمها من تدبير كيرش أو تمويله، كان آخر ما تحتاج إليه الكنيسة هو اقترانها بحادثة تفجير.

لقد ماتت أسرتي بسبب إدموند كيرش.

والآن، على ذلك الدرج المظلم، حدّق أفيلا إلى روبرت لانغدون، وشعر أنّ الرجل لا يعرف على الأرجح شيئاً عن حملة كيرش السرّية ضدّ الكنيسة البالمارية، أو كيف استلهم الهجوم الذي أودى بحياة أسرة أفيلا.

لا يهمّ ما يعرفه لانغدون، فهو جندي مثلي. لقد وقعنا نحن الاثنان في هذا الفخّ، وواحد منّا فقط سينجو منه. وأنا أملك أوامر.

كان لانغدون يقف على بعد بضع خطوات فوقه، موجّهاً سلاحه مثل هاوٍ بيديه الاثنتين. يا له من خيار سيّئ! هذا ما فكّر فيه أفيلا وهو يخفِض قدمه خفية على درجة تحته، ويثبّت قدمه، ثمّ يحدّق مباشرة إلى عينَي لانغدون.

قال أفيلا: "أنا أعرف أنّه يصعب عليك تصديق ذلك، لكنّ إدموند قتل أسرتي، وهذا هو الدليل".

فتح أفيلا كفّه ليُرِي لانغدون الوشم الذي لم يكن بالطبع دليلاً على الإطلاق، ولكن كان له التأثير المطلوب؛ فقد نظر لانغدون إليه.

وفي اللحظة التي تحوّل فيها تركيز البروفيسور - وإن للحظة وجيزة- اندفع أفيلا إلى الأعلى وإلى اليسار، على طول الجدار المقوّس، محرّكاً جسده خارج خطّ النار. وتماماً كما توقّع، أطلق لانغدون النار بشكل تلقائي، وضغط على الزناد قبل أن يتمكّن من تصويب السلاح على هدفه المتحرّك. تردّدت أصداء الطلقة كالرعد في المكان الضيّق، وشعر أفيلا برصاصة تمرّ بشكل سطحي على كتفه، قبل أن تصطدم بالسلّم

الحجري، وترتد عنه من دون أن تتسبّب بأذى.

حاول لانغدون أن يصوّب السلاح مجدّداً، لكنّ أفيلا دار في الهواء، وخلال سقوطه، ضرب معصمي لانغدون بقبضتيه، فأسقط السلاح من يديه على السلّم.

مزّق الألم صدر أفيلا وكتفيه وهو يسقط على الدرج إلى جانب لانغدون. لكنّ دفعة الأدرينالين ضاعفت من حدّته. فمدّ يده إلى الخلف، وسحب مسدّس السيراميك من حزامه. بدا له السلاح عديم الوزن تقريباً بعدما كان يحمل مسدّس الحارس.

صوّب أفيلا المسدّس إلى صدر لانغدون، ومن دون تردّد، ضغط على الزناد.

دوى المسدّس، ولكنّه أصدر صوت تحطّم غير اعتيادي. وحين شعر أفيلا بألم حارق في يده، أدرك على الفور أنّ فوهة المسدّس قد انفجرت. فهذه الأسلحة الجديدة الخالية من المعدن والتي لا يمكن كشفها كانت معدّة للاستعمال لمرّة واحدة أو اثنتين وحسب. لم يعرف أفيلا أين ذهبت الرصاصة، ولكن عندما رأى لانغدون يعاود الوقوف بسرعة، ترك السلاح وانقضّ عليه، وراح الرجلان يتصارعان بعنف قرب الحافة الداخلية الخطرة للدرج.

في تلك اللحظة، أدرك أفيلا أنّه فاز.

كلانا غير مسلّحين، ولكنّني في موقع أفضل.

كان أفيلا قد قام أساساً بتقييم الفتحة العميقة في وسط الدرج، والتي كانت عبارة عن هاوية قاتلة من دون أيّ حماية. والآن، راح يحاول دفع لانغدون إلى الخلف باتّجاه الفتحة، فضغط إحدى ساقيه إلى الجدار الخارجي، ما أعطاه دعماً هائلاً. ثمّ استجمع قواه، ودفع لانغدون باتّجاه الفتحة.

قاوم لانغدون بشراسة، لكنّ موقع أفيلا منحه الأفضلية. ومن نظرة اليأس التي رآها في عينَي البروفيسور، بدا واضحاً أنّ لانغدون قد عرف ما يوشك أن يحدث.

كان لانغدون قد سمع أنّ خيارات الحياة الأكثر أهمّية، أي تلك التي تنطوي على احتمال البقاء، تتطلّب عادة قراراً يُتّخَذ بسرعة فائقة.

والآن، بينما كان يُدفَع باتّجاه الحافّة، وظهره مقوّس فوق هاوية بعمق مائة قدم، أدرك أنّ طوله البالغ ستّ أقدام وارتفاع مركز ثقله يشكّلان عبئاً قاتلاً. وكان يعرف أنّه ما من حيلة بيده لمواجهة القوّة التي يستمدّها أفيلا من موقعه.

حدّق لانغدون بشكل يائس من فوق كتفه إلى الفراغ خلفه. كانت الفتحة الدائرية ضيّقة، ولا يتجاوز عرضها ثلاث أقدام ربّما، لكنها كانت بالتأكيد عريضة بما فيه الكفاية لتستوعب جسده وهو يهبط... والذي سيصطدم على الأرجح بالحافة الحجرية خلال هبوطه.

لا يمكن النجاة من سقطة كهذه.

أطلق أفيلا صرخة عالية، ثم أمسك بلانغدون مجدداً. وفي أثناء ذلك، أدرك لانغدون أنّ أمامه خطوة واحدة فقط يمكنه اتّخاذها.

فعوضاً عن مقاومة الرجل، قرّر أنّه سيساعده.

لذا، بينما كان أفيلا يرفع لانغدون إلى الأعلى، انخفض هذا الأخير، وثبّت قدميه بقوّة على الدرج.

للحظة، عاد شاباً في العشرين من عمره في حوض السباحة في برينستون... يتسابق في السباحة على الظهر... وهو واقف على حافّة الحوض، وظهره باتّجاه الماء... وركبتاه منحنيتان... وبطنه مشدود... ينتظر إشارة الانطلاق.

التوقيت حاسم.

هذه المرة، لم يسمع لانغدون إشارة الانطلاق. غير أنّه اندفع من وضعيته، ورمى نفسه في الهواء، مقوّساً ظهره فوق الهاوية. وبينما كان يقفز إلى الخلف، شعر أنّ أفيلا الذي كان يقف في وضعية لمقاومة مائتي باوند من الوزن يختلّ توازنه بالكامل إثر القوى المعاكسة والمفاجئة.

أفلت أفيلا قبضته بأسرع ما أمكنه، ولكنّ لانغدون شعر أنّ توازنه قد اختلّ. وبينما كان جسد لانغدون مقوّساً إلى الخلف، راح يصلّي لكي يتمكّن من تجاوز الهاوية وبلوغ الدرجات المقابلة التي تفصله عنها مسافة ستّ أقدام نحو الأسفل... ولكنه أخفق على ما يبدو. وفي وسط الهواء، وبينما بدأ لانغدون يكوّر جسده تلقائيّاً طلباً للحماية، ارتطم بقوّة بسطح حجري عمودي.

لم أنجح.

لقد قضي عليّ.

كان لانغدون واثقًا أنّه ارتطم بالحافة الداخلية، فاستعدّ لهبوطه في الفراغ.

غير أنّ سقوطه لم يدم سوى للحظة.

اصطدم لانغدون على الفور تقريباً بالأرض غير المستوية، وصدم رأسه. أوشك أن يفقد وعيه إثر قوّة الضربة، ولكنّه أدرك في تلك اللحظة أنه تجاوز الفتحة تماماً واصطدم بجدار السلّم، قبل أن يسقط على الجزء السفلي من السلّم اللولبي.

المسنّس. كان هذا أوّل ما خطر ببال لانغدون وهو يجاهد لكي لا يغيب عن الوعي، مدركاً أنّ أفيلا سيصل إليه خلال ثوانٍ.

لكنّ الأوان فات، إذ انطفأ دماغه تماماً.

ومع غرقه في الظلام، كان آخر ما سمعه لانغدون صوتاً غريباً... سلسلة من الصدمات المتكرّرة تحته، وكلّ منها أبعد من سابقتها.

ذكّره ذلك بصوت كيس كبير من القمامة يسقط في أنبوب نفايات.

الفصل 76

مع اقتراب سيّارة جوليان من بوّابة إل إسكوريال، رأى حاجزاً مألوفاً من سيّارات الدفع الرباعي البيضاء، وعرف أنّ فالديسبينو كان يقول الحقيقة.

أبي هنا بالفعل.

عرف من السيّارات أنّ مرافقي الملك من الحرس الملكي قد انتقلوا الآن إلى هذا القصر الملكي التاريخي.

أوقف مساعد الكاهن سيّارة الأوبل، وسرعان ما أتى أحد الحرّاس حاملاً مصباحاً يدوياً ووقف قرب النافذة، ثمّ وجّه الضوء إلى الداخل، وتراجع مصدوماً لأنّه لم يتوقّع بالطبع أن يجد الأمير والأسقف في السيّارة المتهالكة.

هتف الرجل وهو يتأهّب فوراً: "صاحب السموّ! سيادة الأسقف! لقد كنّا بانتظاركما"، ثمّ رمق السيّارة القديمة قائلاً: "أين المرافقين؟".

أجاب الأمير: "كان لديهم عمل في القصر، نحن أتينا لرؤية أبي".

"بالطبع، بالطبع! هلّا ترجّلتما أنت والأسقف من السيّارة–"

فقال له فالديسبينو معنّفاً: "افتح الحواجز لكي ندخل بالسيّارة. أعتقد أنّ جلالة الملك في مستشفى الدير، أليس كذلك؟".

قال الحارس متلعثماً: "بالفعل، لكنني أخشى أنّه رحل الآن".

شهق فالديسبينو وبدا عليه الذعر.

وشعر جوليان برعشة باردة تسري في جسده. *هل مات أبي؟*

تلعثم الحارس وقد ندم على سوء اختياره للكلمات: "كلّا، أنا–أنا آسف جدّاً. لقد ذهب جلالته، غادر الإسكوريال منذ ساعة. اصطحب مرافقيه ورحلوا جميعاً".

تحوّل ارتياح جوليان بسرعة إلى إحساس بالإرباك. *هل ترك هذا المستشفى؟*

صاح فالديسبينو: "هذا سخيف. لقد طلب منّي الملك إحضار الأمير جوليان إلى هنا حالاً!".

"أجل، لدينا أوامر محدّدة نيافة الأسقف. لذا، لو سمحت، ترجّلا من السيّارة لكي نقلّكما بسيارة الحرس الملكي".

تبادل فالديسبينو وجوليان نظرات الحيرة، ثم ترجّلا من السيّارة. قال الحارس

لمساعد الكاهن إنّهم ما عادوا بحاجة إلى خدماته، وطلبوا منه العودة إلى القصر. فأسرع الشابّ الخائف عائداً أدراجه من دون أيّ كلمة، وبدا واضحاً أنّه شعر بالارتياح لانتهاء دوره في الأحداث الغريبة لهذه الليلة.

وبينما كان الحرس يقودون الأمير وفالديسبينو إلى المقعد الخلفي لسيّارة الدفع الرباعي، بدا على الأسقف قلق متزايد، وسألهم: "أين الملك؟ إلى أين تأخذوننا؟".

قال الحارس: "نحن ننفّذ أوامر جلالة الملك المباشرة. فقد طلب منّا إعطاءكما سيّارة وسائقاً وهذه الرسالة". ثمّ أخرج الحارس مغلّفاً مختوماً وسلّمه عبر النافذة إلى الأمير جوليان.

رسالة من أبي! استغرب الأمير من تلك الشكليّات، لا سيّما وأنّه لاحظ أنّ المغلف يحمل ختم الشمع الملكي. *ماذا يفعل؟* في تلك اللحظة، تنامى قلقه على قدرات الملك العقلية.

نزع جوليان الختم بقلق، وفتح المغلف، ثمّ أخرج بطاقة تحمل رسالة بخطّ اليد. لم يكن خط أبيه كما كان عليه في الماضي، ولكنّه ما زال مقروءاً. بدأ جوليان بقراءة الرسالة، وشعر بحيرته تزداد مع كلّ كلمة.

وعندما أنهى القراءة، أعاد الرسالة إلى المغلّف وأغمض عينيه، ثمّ فكّر بخياراته. لم يكن أمامه سوى خيار واحد بطبيعة الحال.

قال للسائق: "خذنا شمالاً من فضلك".

ومع ابتعاد السيّارة عن الإسكوريال، شعر الأمير أنّ فالديسبينو يحدّق إليه. سأله الأسقف: "ما الذي قاله والدك؟ إلى أين تأخذني؟".

تنهّد جوليان والتفت إلى صديق أبيه الموثوق. "كما قلت". وابتسم للأسقف المسنّ ابتسامة حزينة وأضاف: "ما زال أبي الملكَ. نحن نحبه، وننفّذ أوامره".

الفصل 77

همس صوت: "روبرت".

حاول لانغدون أن يجيب، لكنّ الألم كان يعتصر رأسه.

"روبرت...؟".

لامست يد ناعمة وجهه، ففتح عينيه ببطء. للحظة، شعر بالتشوّش، وظنّ أنّه يحلم. *ملاك بالأبيض يحوم فوق رأسي*.

وعندما تعرّف لانغدون إلى وجهها، ابتسم بضعف.

قالت أمبرا وهي تتنفّس الصعداء: "الحمد لله، ظننّا أنّك أصبت بالرصاص". وركعت إلى جانبه قائلة: "ابقَ ممدّداً".

بينما كان لانغدون يستعيد وعيه، شعر بخوف مفاجئ. "الرجل الذي هاجمني-"

همست أمبرا بصوت هادئ: "لقد رحل. أنت بأمان". ثمّ أشارت إلى حافة السلّم مضيفة: "سقط في الأسفل".

حاول لانغدون أن يستوعب الخبر، وبدأت الأحداث تعود إلى ذاكرته ببطء. بذل جهده ليبعد التشوّش عن ذهنه ويحصي جروحه، فانتقل انتباهه إلى الألم العميق في وركه اليسرى والألم الحادّ في رأسه. وما عدا ذلك، لم يشعر بأنّه أصيب بكسور. تردّد صدى صوت أجهزة اللاسلكي التي تستخدمها الشرطة عبر الدرج.

"كم مضى... عليّ...".

قالت أمبرا: "بضع دقائق، كنتَ تستفيق ثمّ تغيب عن الوعي مجدّداً. ينبغي أن تخضع للفحص".

أجبر لانغدون نفسه على الجلوس بحذر، واتّكأ إلى جدار السلّم. "لقد كان ضابط... البحرية. ذاك الذي-"

قالت أمبرا وهي تهزّ رأسها: "أعرف، ذاك الذي قتل إدموند. لقد تحقّقت الشرطة للتوّ من هويّته. إنّهم في أسفل السلّم مع الجثّة ويريدون أخذ إفادتك، لكنّ الأب بينيا منع الجميع من الصعود إلى هنا قبل الفريق الطبي الذي يوشك أن يصل في أيّ لحظة".

أومأ لانغدون برأسه الذي كان الألم ما زال يعصف به.

قالت أمبرا: "سيصطحبونك إلى المستشفى على الأرجح، ما يعني أنّه علينا أن نتحدّث أنا وأنت حالاً... قبل وصولهم".

"نتحدّث... عمّ؟".

تأمّلته أمبرا وبدا عليها القلق. مالت إلى الأمام وهمست في أذنه، "روبرت، ألا تذكر؟ لقد وجدنا كلمة سر إدموند: زال الإيمان المظلم وساد العلم النقيّ".

خرقت كلماتها الضباب كالسهم، فاستقام لانغدون فجأة وقد زال التشوّش عن ذهنه تماماً.

قالت: "أنت من أوصلنا إلى هذه النقطة، ويمكنني إتمام الباقي. قلت إنّك تعرف كيف تعثر على وينستون. فهل أنت على علم بموقع مختبر إدموند؟ أخبرني أين هو، وأنا سأقوم بالباقي".

اجتاحت رأس لانغدون موجة من الذكريات. "أنا أعرف بالفعل. على الأقلّ، أعتقد أنّني أستطيع معرفة ذلك".

"أخبرني".

"علينا عبور المدينة".

"أين؟".

أجابها لانغدون وهو يحاول النهوض على قدميه بصعوبة: "لا أعرف العنوان، ولكنّني أستطيع أخذك-"

قالت أمبرا: "اجلس يا روبرت، من فضلك!".

قال رجل وهو يظهر على السلّم تحتهما. "أجل، اجلس". كان ذلك هو الأب بينيا الذي وصل لاهثاً. "لقد أوشك الفريق الطبي على الوصول".

استند لانغدون إلى الجدار وقد شعر بشيء من الدوار، فكذب قائلاً: "أنا بخير. أمبرا أريد الذهاب حالاً".

قال بينيا وهو يصعد ببطء: "لن تتمكّن من الابتعاد كثيراً، فالشرطة تنتظر، إنّهم يريدون أخذ إفادتك. بالإضافة إلى ذلك، الكنيسة محاطة بالفرق الإعلامية. فقد قام أحدهم بإبلاغ الصحافة بوجودكما هنا". وصل الكاهن إلى جانبهما ونظر إلى لانغدون وهو يبتسم منهكاً. "بالمناسبة، أنا والآنسة فيدال مسروران لرؤيتك بخير. لقد أنقذت حياتنا".

فضحك لانغدون وقال: "أنا واثق أنك أنت من أنقذ حياتنا".

"حسناً، في الحالتين، أريدكما أن تعرفا أنّكما لن تتمكّنا من مغادرة هذا السلّم من دون مواجهة الشرطة".

وضع لانغدون يديه على حافّة السلّم الحجرية ومال محدّقاً إلى الأسفل. بدا مشهد الرجل في الأسفل بعيداً جدّاً. فقد تمدّدت جثة أفيلا على الأرض على نحو غير مألوف

تضيئها عدّة مصابيح يحملها رجال الشرطة.

وبينما كان لانغدون يحدّق إلى الهوّة اللولبية، ويلاحظ مرة أخرى تصميم غاودي الحلزوني الأنيق، تذكّر الموقع الإلكتروني لمتحف غاودي الموجود في قبو هذه الكنيسة. فموقع الإنترنت الذي زاره منذ وقت ليس ببعيد يصوّر سلسلة مذهلة من النماذج المصغّرة لساغرادا فاميليا، والتي تمّ إعدادها بدقّة بواسطة برامج CAD، وطابعات ثلاثية الأبعاد ضخمة تصوّر التطور الطويل للمبنى، منذ وَضعِ أساساته وحتّى الإنجاز الكامل للكنيسة المهيبة في المستقبل، والذي ما زال على بعد عشر سنوات على الأقلّ.

فكّر لانغدون، *من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟*

عادت إليه ذكرى مفاجئة عن النماذج المصغّرة للكنيسة من الخارج. كانت الصورة محفوظة في ذاكرته البصرية، وهي عبارة عن نموذج يصوّر المرحلة الحالية من بناء الكنيسة وتحمل عنوان "ساغرادا فاميليا اليوم".

إن كان ذلك النموذج حديثاً، فهذا يعني أنّ ثمّة طريقاً للخروج.

التفت فجأة إلى بينيا وقال: "أبتِ، هلّا تقوم من فضلك بإيصال رسالة مني إلى شخص في الخارج".

بدت الحيرة على وجه الكاهن، فشرح له لانغدون خطّته للخروج من المبنى، فهزت أمبرا رأسها معترضة. "روبرت، هذا مستحيل. فما من مكان في الأعلى–"

قاطعها بينيا: "بلى، في الواقع. لن يبقى المخرج بشكل دائم، ولكن حاليّاً، السيّد لانغدون على حقّ. وما يقترحه ممكن".

دُهِشت أمبرا. "لكن روبرت... إن تمكنّا من الفرار خلسة، فهل أنت واثق من أنّك لست بحاجة للذهاب إلى المستشفى؟".

لم يكن لانغدون واثقاً جداً من هذه الناحية. "يمكنني الذهاب لاحقاً إن لزم الأمر. أمّا في الوقت الحاضر فإنّنا ندين لإدموند بإنهاء ما أتينا من أجله". والتفت إلى بينيا، ونظر مباشرة إلى عينيه. "أنا أودّ أن أكون صريحاً معك يا أبتِ حول سبب مجيئنا إلى هنا. كما تعلم، قُتِل إدموند كيرش الليلة لكي يتمّ منعه من إعلان اكتشاف علمي".

قال الكاهن: "أجل. ومن نبرة السيّد كيرش في مقدّمته، يبدو أنّه يعتقد أنّ اكتشافه هذا سيترك ندوباً على الإيمان".

"بالضبط، ولهذا السبب أشعر أنّه ينبغي أن تعرف أنّنا أتينا أنا والآنسة فيدال إلى برشلونة الليلة في محاولة لإطلاق اكتشاف إدموند كيرش. وقد أوشكنا على ذلك. أنا أعني..." صمت لانغدون للحظة. "إن طلبت مساعدتك الآن، فإنّك ستساعدنا أساساً من أجل بثّ كلام ملحد للعالم".

مدّ بينيا يده ووضعها على كتف لانغدون، ثمّ قال ضاحكاً: "بروفيسور، إدموند كيرش ليس أوّل ملحد في التاريخ يهاجم الدين ولن يكون الأخير. أيّاً يكن ما اكتشفه السيد كيرش، فسيتحوّل بلا شكّ إلى موضع جدل حامٍ. فمنذ بداية الأزمنة، تطوّر الفكر البشري على الدوام، وليس دوري أن أعرقل هذا التطوّر".

ثمّ ابتسم لهما مطمئناً وهبط السلّم أمامهما.

في الخارج، جلس الطيّار في قمرة مروحية EC145 المتوقّفة، وراح يشاهد بقلق متزايد الحشود خارج السياج الأمني لساغرادا فاميليا وهي تزداد باستمرار. لم يكن قد سمع شيئاً عن عميلَي الحرس الملكي بعد دخولهما، وكان على وشك الاتّصال بهما لاسلكياً عندما خرج رجل قصير القامة يرتدي ثوباً أسود من البازيليك واقترب من المروحية.

عرّفه الرجل على نفسه بأنّه الأب بينيا، ونقل له رسالة صادمة من الداخل. فقد قُتِل الحارسان الملكيان، والملكة المستقبلية وروبرت لانغدون يطلبان إخلاءهما من المكان على الفور. وكما لو أنّ هذا لم يكن كافياً، أخبره الكاهن من أين تحديداً ينبغي عليه أن يقلّ الراكبَين.

فكّر الطيّار في سره: *هذا مستحيل!*

مع ذلك، وبينما كان يحلّق فوق أبراج ساغرادا فاميليا، أدرك أنّ الكاهن كان محقّاً. فأعلى أبراج الكنيسة، وهو البرج المركزي المتجانس لم يكن قد بني بعد. وكانت منصّة الأساس عبارة عن مساحة دائرية مسطّحة مختبئة وسط مجموعة من الأبراج، مثل فسحة في غابة من الأشجار الباسقة.

حلّق الطيّار فوق المنصّة تماماً، وبدأ يهبط بالمروحية بين الأبراج. وبينما كان يلامس السطح، رأى شخصين يخرجان من السلّم، أمبرا فيدال تساعد روبرت لانغدون الجريح.

قفز الطيّار من الطائرة وساعد الاثنين على الصعود.

وبينما كان يثبّت لهما أحزمة الأمان، أومأت ملكة إسبانيا المستقبلية بتعب وهمست قائلة: "شكراً جزيلاً لك. سيخبرك السيّد لانغدون عن وجهتنا".

الفصل 78

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

هل قتلت الكنيسة البالمارية

والدة إدموند كيرش؟!

أتانا المخبر monte@iglesia.org بخبر قنبلة آخر. فاستناداً إلى وثائق حصرية تمّ التحقّق منها من قبل ConspiracyNet، حاول إدموند كيرش لسنوات مقاضاة الكنيسة الكاثوليكية بتهم "غسل الأدمغة، والتكييف النفسي، والقسوة البدنية" التي أدّت كما يزعم إلى وفاة بالوما كيرش والدة إدموند البيولوجية، منذ أكثر من ثلاثة عقود.

ويُزعَم أنّ بالوما كيرش كانت عضواً ناشطاً في الكنيسة البالمارية التي حاولت الانفصال عنها، فتعرّضت للإهانة وسوء المعاملة النفسية من قبل رؤسائها؛ الأمر الذي دفعها إلى شنق نفسها في غرفة نوم في الدير.

الفصل 79

تمتم القائد غارزا مجدّداً، وتردّد صوته في أرجاء مخزن الأسلحة في القصر: "الملك نفسه! ما زلت عاجزاً عن التصديق أنّ أمر اعتقالي صدر عن الملك نفسه؛ بعد كلّ سنوات خدمتي".

وضعت مونيكا مارتن إصبعها على شفتيها ونظرت إلى المدخل للتأكّد من أنّ الحرّاس لا يسترقون السمع. "كما قلت لك، كلمة الأسقف فالديسبينو مسموعة لدى الملك، وقد أقنع جلالته أنّ الاتّهامات التي وُجِّهت إليه هذه الليلة كانت من تدبيرك، وأنّك تحاول بطريقة ما الإيقاع به".

لقد أصبحتُ كبش فداء الملك. لطالما شكّ غارزا أنّه إن أجبر الملك على الاختيار بين قائد الحرس الملكي وفالديسبينو فسيختار هذا الأخير. فقد جمعتهما الصداقة طوال حياتهما، والروابط الروحية تغلب دائماً على العلاقات المهنية.

مع ذلك، شعر غارزا أنّ تحليل مونيكا ليس منطقياً تماماً، فقال لها: "هل تعنين أنّ قصّة الخطف قد نُشِرت بأمر من الملك؟".

"أجل، فقد اتّصل بي جلالة الملك مباشرة، وأمرني بالإعلان عن أنّ أمبرا فيدال قد تعرّضت للاختطاف. لفّق هذه القصّة في محاولة لإنقاذ سمعة الملكة المستقبلية، ولكي لا تبدو أنّها هربت مع رجل آخر". نظرت مارتن إلى غارزا بانزعاج. "لكن، لماذا تسأل عن ذلك؟ لا سيّما وأنّك تعرف الآن أنّ الملك قد اتّصل بالعميل فونسيكا لإخباره بقصّة الاختطاف نفسها؟".

"أنا لا أصدّق أنّ الملك يخاطر لأيّ سبب كان باتّهام شخصية أميركية بارزة بالاختطاف. لا بدّ أنّه–"

فقاطعته قائلة: "مجنون؟".

حدّق إليها غارزا بصمت.

ألحّت عليه مارتن: "حضرة القائد، تذكّر أنّ جلالة الملك يعاني من الضعف. هل من الممكن أن تكون تلك القرارات ناتجة عن سوء حكمه على الأمور؟".

"أو ربّما كانت لحظة وعي زائدة. سواء أكان ذلك القرار متهوّراً أم لا، فإنّ الملكة المستقبلية بأمان بين أيدي الحارسَين الملكيَّين".

رمقته مارتن بحذر. "بالضبط. إذاً، ما الذي يزعجك؟".

فقال غارزا: "فالديسبينو. أنا أقرّ بأنّني لا أحبّه، لكنّ حدسي ينبئني أنّه لا يمكن أن يكون خلف مقتل كيرش أو أيّ من الأحداث الأخرى".

أجابته بنبرة حادّة: "ولمَ لا؟ ألأنّه رجل دين؟ أنا واثقة أنّ محاكم التفتيش علّمتنا بضعة أمور عن استعداد الكنيسة لتبرير التدابير الجذرية التي تتّخذها. وبرأيي، إنّ فالديسبينو شديد الاعتداد بنفسه، وقاسٍ، وانتهازي، ومفرط في التكتّم. هل نسيتُ شيئاً؟".

فردّ عليها غارزا بحدّة وقد فوجئ عندما أدرك أنّه يدافع عن الأسقف: "أجل، فالديسبينو بالضبط كما وصفتِه، ولكنّه أيضاً من الأشخاص الذين يقدّسون التقاليد والكرامة. فالملك الذي لا يثق بأحد تقريباً، وثق بالأسقف دائماً منذ عقود من الزمن. وأنا أجد أنّه من الصعب التصديق أنّ صديق الملك الموثوق يُقدِم على ارتكاب هذا النوع من الغدر الذي نتحدّث عنه".

عندها، تنهّدت مارتن وأخرجت هاتفها الخلوي. "حضرة القائد، يؤسفني أن أقوّض ثقتك في الأسقف، لكن أريدك أن تلقي نظرة على هذا. لقد أراني إيّاه سوريش". ثمّ ضغطت على بضعة أزرار وأعطت غارزا هاتفها.

عرضت الشاشة نصّاً طويلاً.

همست مارتن: "هذه لقطة لرسالة نصّية تلقّاها الأسقف فالديسبينو هذه الليلة. اقرأها، وأنا أضمن لك أنّها ستُغيّر رأيك".

الفصل 80

شعر لانغدون على الرغم من الألم الذي يمزّق جسده بنشاط غريب، لا بل بالبهجة تقريباً، لاسيما مع انطلاق المروحية عن سطح ساغرادا فاميليا.

أنا على قيد الحياة.

أحسّ بالأدرينالين يتراكم في شرايينه، كما لو أنّ كلّ أحداث الساعة الفائتة تعود إليه دفعة واحدة. تنفّس ببطء قدر الإمكان، ثمّ حوّل انتباهه إلى الخارج؛ إلى العالم خلف نوافذ المروحية.

أحاطت به أبراج الكنيسة الضخمة المرتفعة في السماء، ولكن مع ازدياد ارتفاع المروحية، ابتعدت الكنيسة وذابت في شبكة الشوارع المضيئة. حدّق لانغدون إلى مجموعات الأبنية التي لم تكن منظّمة في مربّعات ومستطيلات كالمعتاد، بل في أشكال مثمّنة الأضلاع تمتاز بليونة أكبر.

لايسيمبلي L'Eixample، التوسعة.

فقد قام المهندس المعماري الرؤيوي إلديفونس سيردا بتوسعة جميع التقاطعات في هذه المنطقة؛ عبر قطع زوايا مجموعات الأبنية المربّعة لتكوين ساحات صغيرة، برؤية أفضل وزيادة في تدفّق الهواء، وبذلك منح مساحة وفيرة لمقاهي الأرصفة.

صاح الطيّار من خلف كتفه بالإسبانية: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

أشار لانغدون إلى الجنوب، حيث تمرّ إحدى أعرض جادات المدينة وأكثرها إشراقاً بشكل منحرف عبر برشلونة.

صاح لانغدون: "أفيغوندا دياغونال، غرباً".

من المستحيل للناظر إلى أيّ خارطة لبرشلونة أن تفوته أفيغوندا دياغونال (الجادة المنحرفة) التي تعبر عرض المدينة، من ناطحة السحاب العصرية المُنشأة على شاطئ البحر، دياغونال زيرو زيرو، إلى حدائق الورود القديمة في حديقة سيرفانتيس التي تمتدّ على مساحة عشرة أكرات، والتي أقيمت تكريماً للأديب الإسباني الأكثر شهرة، دون كيشوت.

أومأ الطيّار برأسه وانحرف غرباً، متّبعاً الجادة المنحرفة باتّجاه الجبال. سأل مجدّداً: "العنوان؟ الإحداثيات؟".

أدرك لانغدون: "لا أعرف العنوان. اذهب إلى ملعب كرة القدم".

استغرب الطيّار مجيباً: "ملعب كرة القدم! أتعني نادي برشلونة؟".

أومأ لانغدون برأسه موافقاً، ولم يكن لديه أدنى شكّ في أنّ الطيّار يعرف أين يجد مقرّ نادي برشلونة الشهير الذي يقع على بعد بضعة أميال من أفيغوندا دياغونال.

زاد الطيّار من سرعة المروحية، وحلّق فوق الجادة بالسرعة القصوى.

سألته أمبرا بصوت خافت: "روبرت، هل أنت بخير؟". وراحت تتأمّله كما لو أنّها تشكّ في أن تكون إصابة الرأس قد أثّرت على قدرته على الحكم الصحيح. "قلت إنّك تعرف أين تجد وينستون".

أجابها: "بالفعل، ونحن ذاهبون إلى هناك".

"إلى ملعب كرة قدم! هل تعتقد أنّ إدموند قد بنى جهاز كمبيوتر عملاقاً في ملعب؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً: "كلّا. الملعب مجرّد موقع قريب يسهل على الطيّار تحديده. أمّا وجهتنا فهي مبنى موجود إلى جانب الملعب مباشرة، فندق الأميرة صوفيا".

ازدادت حيرة أمبرا. "روبرت، أنا لست واثقة أنّ ما تقوله منطقي. من المستحيل أن يكون إدموند قد بنى وينستون في فندق ضخم. أعتقد أنّه من الأفضل اصطحابك إلى العيادة".

"أنا بخير يا أمبرا، ثقي بي".

"إذاً، إلى أين نحن ذاهبون؟".

"إلى أين نحن ذاهبون؟". داعب لانغدون ذقنه بمرح وتابع: "أعتقد أنّ هذا أحد الأسئلة الهامّة التي وعد إدموند بالإجابة عنها هذه الليلة".

استقرّ تعبير أمبرا في مكان ما بين التسلية والغضب.

قال لانغدون: "أنا آسف، دعيني أشرح لك. منذ عامين، تناولنا الغداء أنا وإدموند في النادي الخاصّ في الطابق الثامن عشر من فندق الأميرة صوفيا".

سألته أمبرا ضاحكة: "وهل أحضر إدموند معه كمبيوتراً عملاقاً إلى الغداء؟".

فابتسم لانغدون. "ليس تماماً، ولكنّه أتى إلى موعدنا سيراً على الأقدام، وأخبرني أنّه يتناول الطعام في النادي كلّ يوم تقريباً لأنّه ملائم جدّاً له، ولا يبعد سوى مسافة قصيرة عن مختبر الكمبيوتر. كما أسرّ لي أنّه يعمل على مشروع ذكاء اصطناعي متقدّم وأنّه متحمّس للغاية إزاء إمكانيّاته".

شعرت أمبرا بحماسة مفاجئة. "لا بدّ أن يكون ذلك وينستون!".

"هذا ما فكّرت فيه بالضبط".

"إذاً، هل اصطحبك إدموند إلى مختبره؟!".

"كلّا".

"هل أخبرك أين يقع؟".

"للأسف، بقي ذلك سرّاً".

عاد القلق إلى عينَي أمبرا.

فقال لانغدون: "لكنّ وينستون أخبرنا سرّاً عن مكانه تحديداً".

بدت الحيرة الآن على وجه أمبرا. "كلّا، لم يفعل".

أجابها لانغدون مبتسماً: "بل أؤكّد لك أنّه فعل. لا، بل في الواقع، أخبر العالم أجمع".

وقبل أن تطلب أمبرا تفسيراً، أعلن الطيّار: "ها هو الملعب!". وأشار إلى البعيد، إلى ملعب برشلونة الهائل.

لقد وصلنا بسرعة. نظر لانغدون إلى الخارج، واتّبع الخطّ الممتدّ من الملعب إلى فندق الأميرة صوفيا المجاور، والذي كان عبارة عن ناطحة سحاب تشرف على ساحة واسعة في أفيغوندا دياغونال. فطلب من الطيّار أن يتجاوز الملعب ويحلّق عوضاً عن ذلك فوق الفندق.

في غضون ثوانٍ، ارتفعت المروحية عدّة مئات من الأمتار، وحلّقت فوق الفندق الذي تناول فيه لانغدون وإدموند الغداء منذ عامين. *قال لي إنّ مختبر الكمبيوتر يقع على بعد مجموعتين من الأبنية من هنا*.

من موقعه المرتفع، تأمّل لانغدون المنطقة المحيطة بالفندق. لم تكن الشوارع في هذا الحيّ مستقيمة كما هي حول ساغرادا فاميليا، كما أنّ مجموعات الأبنية رسمت أشكالاً منحرفة وغير مستوية.

لا بدّ أن يكون هنا.

بدأت شكوك لانغدون تتزايد وهو يبحث في الاتّجاهات كافة، محاولاً تحديد موقع الشكل الفريد الذي استطاع تخيّله في ذاكرته. *أين هو؟*

وعندما حوّل لانغدون نظره شمالاً، عبر المستديرة عند ساحة بيوس الثاني عشر، شعر ببارقة أمل. قال للطيّار: "هناك! حلّق من فضلك فوق تلك المنطقة المشجّرة!".

أمال الطيّار مقدّمة المروحية، وتقدّم بشكل منحرف فوق مجموعة أبنية متّجهاً نحو الشمال الغربي، حيث أصبح الآن يحلّق فوق المساحة المشجّرة التي أشار إليها لانغدون. في الواقع، كانت الأشجار جزءاً من ملكيّة ضخمة محاطة بالأسوار.

صاحت أمبرا وقد استبدّ بها الإحباط: "روبرت، ماذا تفعل؟ هذا قصر بيدرالبيس الملكي! من المستحيل أن يكون إدموند قد بنى وينستون داخل–"

"ليس هنا! بل هناك!". وأشار لانغدون إلى ما وراء القصر، إلى مجموعة أبنية تقع خلفه مباشرة.

مالت أمبرا إلى الأمام، ونظرت إلى الموقع الذي أثار حماسة لانغدون. كانت الأبنية التي تقع خلف القصر محاطة بأربعة شوارع مضاءة، وتتقاطع لتشكّل مربّع موجّهاً شمال-جنوب مثل ألماسة. لكنّ عيب الألماسة الوحيد هو أنّ حافتها السفلية اليمنى ملتوية على نحو غريب، يشوّهها اعوجاج مخلّفاً التواء في محيطها.

"هل عرفتِ ذلك الخطّ المتعرّج؟". سألها لانغدون مشيراً إلى محور الألماسة الملتوي، والذي كان عبارة عن شارع مضاء يمكن تمييزه بوضوح في ظلام أراضي القصر المشجرة. "هل ترين الشارع الذي يشتمل على اعوجاج صغير؟".

فجأة، تبخّر كلّ إحباط أمبرا وأمالت رأسها لتحدّق جيّداً. "هذا الخطّ مألوف لديّ في الواقع، لكن من أين أعرفه؟".

"انظري إلى مجموعة الأبنية بأكملها؛ فهي على شكل ألماسة، مع اعوجاج غريب واحد عند الجهة السفلية اليمنى". انتظر، وشعر أنّ أمبرا ستتعرّف عليه قريباً. "انظري إلى المنتزهين الصغيرَين في هذه المجموعة من الأبنية". ثمّ أشار إلى منتزه مستدير في الوسط ومنتزه نصف دائري إلى اليمين.

قالت أمبرا: "أشعر أنّني أعرف هذا المكان، لكنّني لا أستطيع...".

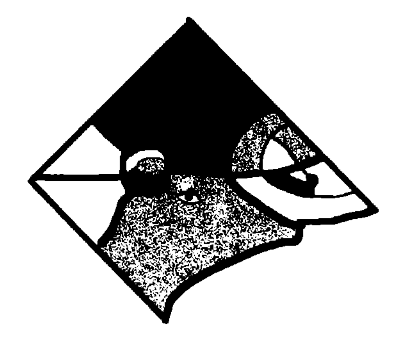
"فكّري بالفنّ، فكّري بمجموعتك في غوغنهايم. فكّري-"

صاحت وهي تلتفت إليه غير مصدّقة: "وينستون. مخطّط هذه المجموعة من الأبنية يشبه تماماً الصورة الذاتية لوينستون المعلّقة في غوغنهايم.

ابتسم لها لانغدون. "أجل، تماماً".

استدارت مجدّداً إلى النافذة، وحدّقت إلى شكل الألماسة. راح لانغدون يتأمّل المشهد هو الآخر، ويتخيّل صورة وينستون الذاتية، تلك اللوحة الغريبة التي حيّرته منذ أن تحدّث عنها وينستون في وقت سابق من هذا المساء، وأشار إلى أنّها تكريم لأعمال ميرو.

كان وينستون قد قال: *طلب منّي إدموند أن أصنع لنفسي صورة ذاتية، وهذا ما أتيت به.*



كان لانغدون قد قرر أساساً أنّ مقلة العين التي تظهر في وسط اللوحة تقريباً، والتي تشكّل جزءاً أساسياً من أعمال ميرو، تشير بكلّ تأكيد إلى الموقع المحدّد لوينستون، أي المكان الذي يرى منه العالم.

التفتت أمبرا عن النافذة وقد بدا عليها المرح والدهشة على السواء. "هذا يعني أنّ صورة وينستون الذاتية ليست تقليداً لميرو، بل خارطة!".

"بالضبط. فبما أنّ وينستون لا يملك جسداً ولا صورة ذاتية فيزيائية، فإنّ هذه اللوحة الذاتية ترتبط بموقعه أكثر ممّا ترتبط بشكل جسدي".

"مقلة العين نسخة طبق الأصل عن أعمال ميرو. لكن، لا توجد هنا سوى عين واحدة، وهي تشير على الأرجح إلى موقع وينستون، ما رأيك؟".

هذا ما فكّرت فيه. التفت لانغدون إلى الطيّار، وطلب منه الهبوط للحظة على أحد المنتزهين الصغيرين ضمن مجموعة المباني التي يقع فيها وينستون، فبدأ الطيار هبوطه.

قالت أمبرا: "ربّاه! أعتقد أنّني عرفت سبب اختيار وينستون تقليد أسلوب ميرو!".

"حقّاً!".

"القصر الذي مررنا فوقه فجأة يدعى بيدرالبيس".

سألها لانغدون: "بيدرالبيس؟ أليس هذا اسم –"

"أجل! إنّها واحدة من أشهر رسوم ميرو. وعلى الأرجح، قام وينستون بأبحاث عن هذه المنطقة، ووجد رابطاً محلياً بالرسّام ميرو!".

كان لا بدّ للانغدون من أن يُقِرّ بأنّ إبداع وينستون كان مذهلاً. وشعر ببهجة غريبة لأنّه سيتواصل مجدّداً مع ذكاء إدموند الاصطناعي. ومع انخفاض المروحية أكثر، رأى شكلاً داكناً لمبنى كبير يقع في البقعة نفسها التي رسم فيها وينستون عينه.

قالت أمبرا: "انظر، لا بدّ أن يكون هذا هو المكان المقصود".

حاول لانغدون أن يحصل على رؤية أفضل للمبنى الذي حجبته الأشجار. لكن، حتّى من الجوّ، بدا رائعاً.

قالت أمبرا: "لا أرى أضواء. برأيك، هل نستطيع الدخول؟".

قال لانغدون: "لا بدّ من وجود أحد هناك. لا بدّ أن يكون لدى إدموند موظّفون في ذلك المكان، ولا سيّما الليلة. وعندما يدركون أنّنا نملك كلمة سرّ إدموند، أعتقد أنّهم سيهرعون لمساعدتنا على تشغيل العرض".

بعد خمس عشرة ثانية، حطّت المروحيّة فوق منتزه شبه دائري فسيح عند الحدود الشرقية لمجموعة المباني التي يقع فيها وينستون. قفز لانغدون وأمبرا من المروحيّة، ثمّ ابتعد الطيّار على الفور وأسرع باتّجاه الملعب، بانتظار تعليمات أخرى.

وبينما أسرع الاثنان عبر المنتزه المظلم باتّجاه وسط كتلة الأبنية، عبرا شارعاً داخلياً صغيراً، باسيغ ديل تيلرس، ووصلا إلى منطقة كثيفة الأشجار. أمامهما، رأيا مبنى كبيراً وضخماً تحيط به الأشجار.

همست أمبرا: "ما من أضواء".

قال لانغدون: "وثمّة سياج". تجهّم وجهه وهما يصلان إلى سياج أمني من الحديد المطاوع بارتفاع عشر أقدام يحيط بالمجمّع بأكمله. حدّق من خلال أعمدة السور، غير أنّه لم يستطع رؤية الكثير بسبب الأشجار. واستغرب عدم وجود أيّ إنارة.

قالت أمبرا مشيرة إلى نقطة تقع على مسافة عشرين ياردة على طول السياج: "أعتقد أنّ ثمّة بوابة هناك".

سارعا بالتوجّه إلى حيث أشارت، ووجدا نفسيهما أمام باب دوّار كبير مقفل تماماً. كانت ثمّة علبة اتّصال إلكترونية. ولكن، قبل أن يجد لانغدون الفرصة للتفكير بخياراتهما، ضغطت أمبرا على زرّ الاتصال.

رنّ الهاتف مرّتين وفُتِح، لكن من دون أيّ صوت.

قالت أمبرا: "مرحباً، مرحباً".

لم يُجِب أيّ صوت من خلال المكبّر، بل سُمِع مجرّد أزيز لخطّ مفتوح.

قالت: "لا أدري ما إذا كنتم تسمعونني. أنا أمبرا فيدال ومعي روبرت لانغدون. نحن صديقان موثوقان لإدموند كيرش، وقد كنّا معه الليلة عندما قُتِل. لدينا معلومات من شأنها أن تكون مفيدة للغاية لإدموند، ولوينستون، وأعتقد لكم جميعاً".

سُمِعت نقرة متقطّعة.

وضع لانغدون يده على الباب الدوّار على الفور، فدار بسهولة.

تنفّس الصعداء قائلاً: "أعتقد أنّ ثمّة أحداً ما في الداخل".

أسرع الاثنان بالدخول، ومرّا بين الأشجار باتّجاه المبنى المظلم. ومع اقترابهما، بدأ يظهر أمامهما خطّ السطح تحت السماء. ثمّ ظهر شكل غير متوقّع، رمز بطول خمس عشرة قدماً مثبّتاً فوق السطح.

توقّفت أمبرا ولانغدون في مكانيهما.

فكّر لانغدون في سرّه وهو يحدّق إلى الرمز الذي لا يمكن إخطاؤه: *هذا مستحيل! هل وضع إدموند صليباً عملاقاً على سطح مختبره؟!*

مشى بضع خطوات أخرى، وخرج من بين الأشجار. عندئذٍ، ظهرت واجهة المبنى بالكامل، ورأى مشهداً غريباً، كنيسة قوطية قديمة ذات نافذة وردية كبيرة، ودرجتين حجريتين، فضلاً عن باب أنيق مزيّن بنقوش لقدّيسين كاثوليك ولمريم العذراء.

بدا الذعر على أمبرا. "روبرت، أعتقد أنّنا اقتحمنا أرض كنيسة كاثوليكية. نحن في المكان الخاطئ".

رأى لانغدون إشارة أمام الكنيسة، وبدأ يضحك: "كلّا. بل أعتقد أنّنا في المكان الصحيح تماماً".

كانت هذه المنشأة قد ظهرت في الأخبار منذ بضع سنوات، لكنّ لانغدون لم يدرك على الإطلاق أنّها تقع في برشلونة. *مختبر تكنولوجي فائق التطور مبنيّ داخل كنيسة كاثوليكية تمّ إيقاف العمل عليها*. كان لا بدّ للانغدون من أن يقرّ أنّها المكان المثالي لشخص مثل إدموند ليقيم مختبره فيه. وبينما هو يحدّق إلى هذه الكنيسة البائدة، شعر برعشة وهو يدرك الدقّة التي اختار بها إدموند كلمة السرّ.

زال الإيمان المظلم وساد العلم النقيّ.

أشار لانغدون إلى لافتة كُتب عليها:

مركز برشلونة للحوسبة الفائقة

Centro Nacional de Supercomputación

فالتفتت إليه أمبرا غير مصدّقة. "وهل في برشلونة مركز للحوسبة الفائقة داخل كنيسة كاثوليكية؟".

ابتسم مجيباً: "أجل. ففي بعض الأحيان، تكون الحقيقة أغرب من الخيال".

الفصل 81

ينتصب أطول صليب في العالم في إسبانيا.

يبلغ طول الصليب الإسمنتي الضخم المقام على قمّة جبل يبعد مسافة ثمانية أميال شمال دير الإسكوريال خمسمائة قدم، ويشرف على وادٍ قاحل؛ حيث يمكن رؤيته من مسافة تزيد عن مائة ميل.

أمّا الوادي الصخري الممتدّ تحت الصليب، والذي يحمل اسم وادي السقوط، فيعدّ المثوى الأخير لمّا يزيد عن أربعين ألف نسمة سقطت ضحيّة الحرب الأهلية الإسبانية الدامية من كلا الطرفين.

ماذا نفعل هنا؟ راح جوليان يتساءل وهو يتبع الحرس الملكي إلى ساحة المشاهدة تحت الصليب. *أهذا هو المكان الذي يريد أبي أن نلتقي فيه؟*

مشى فالديسبينو إلى جانبه، ولم يبدُ أقلّ حيرة. همس قائلاً: "هذا غير منطقي، فوالدك يكره هذا المكان".

فكّر جوليان في سرّه: *ملايين الناس يكرهون هذا المكان.*

ترجع فكرة وادي السقوط إلى فرانكو نفسه الذي أتى بها عام 1940 "كعمل تكفير وطني"؛ في محاولة للمصالحة بين المنتصرين والمنهزمين. لكن، على الرغم من "الغرض النبيل" لهذا النصب، إلّا أنه ولّد جدلاً لا يزال مستمراً حتّى يومنا هذا؛ لأنّه بُني بأيدٍ عاملة اشتملت على محكومين وسجناء سياسيين عارضوا فرانكو، وكثيرون منهم لقوا حتفهم نتيجة للحوادث والمجاعة خلال أعمال البناء.

في الماضي، ذهب بعض أعضاء البرلمان إلى مقارنة هذا المكان بمعتقل نازي. ويشعر جوليان أنّ رأي والده به مشابه، حتّى لو لم يقل ذلك علناً. فبالنسبة إلى معظم الإسبان، اعتُبِر هذا المكان نصباً لفرانكو، ومبنيّاً من قبل فرانكو، أي أنه مزار ضخم ليكرّم فيه نفسه. وكون فرانكو الآن مدفوناً فيه زاد من حدّة الانتقادات الموجّهة إليه.

تذكّر جوليان المرّة الوحيدة التي أتى فيها إلى هنا؛ في نزهة أخرى مع أبيه في طفولته للتعرّف على بلاده. كان الملك قد اصطحبه في أرجاء الجبل، وهمس له بصوت منخفض: *انظر جيّداً يا بنيّ، يوماً ما ستهدم هذا المكان.*

والآن، بينما كان جوليان يتبع الحرس الملكي نحو الواجهة المتقشّفة المنحوتة في سفح الجبل، بدأ يدرك إلى أين يذهبون. فقد لاح أمامهم باب برونزي منحوت في سفح الجبل نفسه، وتذكّر أنّه دخل من ذلك الباب في صباه، وذُهِل تماماً بما رآه خلفه.

في النهاية، لم تكن الأعجوبة الحقيقية لقمّة هذا الجبل تكمن في ارتفاع الصليب فوقه، بل في القاعة السرّية في أحشائه.

في القمّة المكوّنة من حجر الغرانيت، نُحِت كهف من صنع الإنسان بمقاييس لا يمكن تخيّلها. إذ يغوص الكهف المحفور باليد لمسافة تسعمائة قدم داخل الجبل، لينفتح هناك على قاعة هائلة، منجزة بدقّة وأناقة، مع أرضيّة مكسوّة بالبلاط اللامع، وقبّة شاهقة مغطّاة بالرسوم الجدارية تمتدّ على مسافة مائة وخمسين قدماً تقريباً من جانب إلى آخر. يومذاك، فكّر جوليان الصغير في سره: *أنا داخل جبل، لا بدّ أنّني أحلم*.

والآن بعد سنوات، عاد الأمير إليه.

أنا هنا بناء على طلب أبي المحتضر.

ومع اقتراب المجموعة من البوّابة الحديدية، نظر الأمير إلى الأعلى، وحدّق إلى التمثال البرونزي الحزين الذي يصوّر العذراء محتضنة المسيح بين ذراعيها بعد وفاته. إلى جانبه، وقف الأسقف فالديسبينو ورسم على وجهه إشارة صليب؛ مع أنّ جوليان شعر أنّ الحركة كانت بدافع الخوف أكثر منها بدافع الإيمان.

الفصل 82

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

لكن... من هو الوصيّ؟

ظهرت الآن أدلّة تثبت أنّ القاتل لويس أفيلا كان يتلقّى أوامر القتل مباشرة من شخص يسمّي نفسه الوصيّ.

ما زالت هويّة الوصيّ غامضة؛ مع أنّ منصب هذا الشخص قد يوفّر بعض القرائن. فاستناداً إلى موقع dictionary.com، "الوصيّ" شخص يتمّ تعيينه للإشراف على منظّمة في حال كان رئيسها عاجزاً أو مريضاً.

بحسب المعطيات المتوفّرة لدينا، إنّ إجاباتنا الثلاث حاليّاً عن سؤال "من هو الوصيّ؟" هي التالية:

1. الأسقف أنطونيو فالديسبينو الذي يأخذ المبادرة عن الملك الإسباني المريض.
2. بابا بالماري يعتقد أنّه البابا الشرعي.
3. ضابط عسكري إسباني يدّعي أنّه يتصرّف بالنيابة عن القائد الأعلى العاجز للبلاد، أي الملك.

سنوافيكم بالمزيد من الأخبار فور ورودها!

الفصل 83

تأمّل لانغدون وأمبرا واجهة الكنيسة الكبيرة، ووجدا مدخل مركز برشلونة للحوسبة الفائقة عند الطرف الجنوبي لصحن الكنيسة. هناك، تمّت إضافة دهليز زجاجي عصري إلى الجهة الخارجية للواجهة ريفية الطراز، ما أضفى على الكنيسة مظهراً مختلطاً لمبنى بين عصرين.

في الفناء الخارجي بالقرب من المدخل، وُضِع تمثال نصفي بطول اثنتي عشرة قدماً لمحارب بدائي. لم يستطع لانغدون أن يتخيّل ما تفعله هذه التحفة الأثرية على أرض كنيسة كاثوليكية. ولكنّه كان واثقاً- استناداً إلى معرفته لإدموند- أنّ مكان عمله لا بدّ أن يكون أرض التناقضات.

سارعت أمبرا إلى المدخل الرئيس، وضغطت على زرّ الاتصال عند الباب. ومع انضمام لانغدون إليها، استدارت كاميرا مراقبة نحوهما، وتحرّكت ذهاباً وإياباً لعدة لحظات.

أخيراً، صدر أزيز عن الباب وهو يُفتَح.

اندفعا عبر المدخل إلى بهو كبير احتلّ رواق الكنيسة. وكان عبارة عن قاعة حجريّة خالية وخافتة الإضاءة. توقّع لانغدون ظهور أحد ما لاستقبالهما؛ ربّما أحد موظّفي إدموند، لكنّ البهو كان خالياً تماماً.

همست أمبرا: "أما من أحد هنا؟".

بدأا يعيان الأنغام الناعمة لموسيقى كنسية من القرون الوسطى، والتي كانت عبارة عن عمل كورالي متعدّدة الألحان لأصوات ذكورية بدت مألوفة على نحو غريب. لم يستطع لانغدون التعرّف على اللحن، لكنّ وجود موسيقى دينية في منشأة تكنولوجية بهذا التطوّر بدا له من نتاج حسّ إدموند الفكاهي.

توهّجت أمامهما على جدار البهو شاشة بلازما ضخمة تشكّل مصدر الضوء الوحيد في المكان. كانت الشاشة تعرض ما يمكن وصفه بأنّه نوع من ألعاب الكومبيوتر القديمة. إذ ظهرت عليها مجموعات من النقاط السوداء التي تتحرّك على سطح أبيض، مثل أعداد من الحشرات التي تتجوّل بلا هدف محدّد.

ليست تماماً بلا هدف. أدرك لانغدون ذلك الآن وقد تعرّف على تلك الأشكال.

تمّ اختراع هذه المتوالية المنشأة بواسطة الكومبيوتر، والمعروفة باسم *الحياة*، في سبعينيات القرن المنصرم، من قبل عالم رياضيات بريطاني يدعى جون كونواي. إذ تتحرّك النقاط السوداء المعروفة بالخلايا، وتتفاعل، وتتكاثر استناداً إلى سلسلة من "القواعد" المسبقة التي تمّ إدخالها من قبل المبرمج. ومع مرور الوقت، وبالاسترشاد بقواعد الاشتباك الأوّلية تلك، تبدأ النقاط دائماً بتنظيم نفسها في مجموعات وسلاسل وأنماط متكرّرة، ثمّ تتطوّر تلك الأنماط وتزداد تعقيداً، لتصبح شديدة الشبه بأنماط موجودة في الطبيعة.

قالت أمبرا: "لعبة الحياة لدى كونواي. لقد رأيت جهازاً رقمياً منذ سنوات صنع على أساسها، قطعة استخدمت فيها وسائل متعددة تحمل عنوان *Cellular Automaton*، الآلة الخلوية".

استغرب لانغدون من سعة معلوماتها، فهو لم يسمع بهذا العمل إلّا لأنّ مخترعه، كونواي، كان يدرّس في برينستون.

لفتت أنغام الكورال انتباه لانغدون مجدّداً. *أشعر أنّني سمعت هذه المقطوعة من قبل. أهي موسيقى من عصر النهضة؟*

قالت أمبرا مشيرة بيدها: "روبرت، انظر".

على شاشة العرض، عكست النقاط اتّجاهها وبدأت تتسارع، كما لو كان البرنامج يعود إلى الوراء. عاد التسلسل إلى الخلف على نحو متسارع، متراجعاً في الزمن. وبدأ عدد النقاط يتضاءل... لم تعد الخلايا تنقسم وتتكاثر، بل كانت تندمج من جديد... لتصبح تركيباتها أبسط تدريجياً، إلى أن لم تتبقَّ سوى حفنة منها، وتابعت تلك الحفنة اندماجها... أولاً ثمانية، ومن ثمّ أربعة، ومن ثمّ اثنتان، وأخيراً...

واحدة.

خليّة واحدة راحت تومض في وسط الشاشة.

شعر لانغدون برعشة باردة.

أخيراً، انطفأت النقطة، وخلّفت وراءها الفراغ؛ شاشة بيضاء خالية.

اختفت لعبة الحياة، وبدأ نصّ باهت بالظهور، ثمّ ازداد وضوحاً إلى أن تمكّنا من قراءته.

"هذا داروين". همس لانغدون بذلك وقد عرف جملة عالم النبات الأسطوري البليغة التي تشكّل صياغة مختلفة لسؤال إدموند كيرش نفسه.

قالت أمبرا بحماسة وهي تقرأ النص: "من أين أتينا؟".

"تماماً".

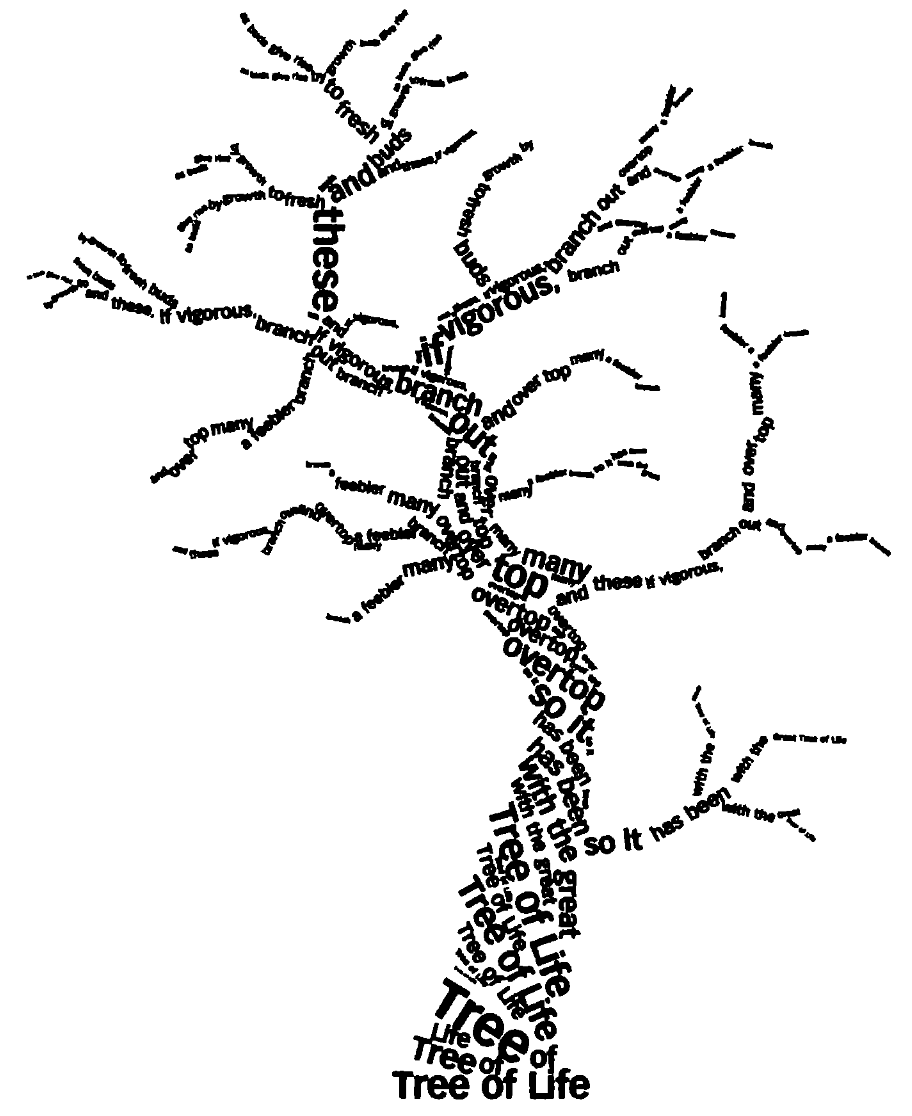
سألت مبتسمة: "هل نبحث عن الإجابة؟".

وأشارت إلى فتحة ذات أعمدة إلى جانب شاشة العرض يبدو أنّها تربط البهو بالكنيسة الرئيسة.

وبينما كانا يجتازان البهو، تجددت الشاشة مرّة أخرى لتعرض هذه المرّة مجموعة من الكلمات التي ظهرت عشوائياً. راح عدد الكلمات يتضاعف بشكل مطّرد وفوضوي، وتطوّرت كلمات جديدة، وتحوّلت واجتمعت في مجموعة معقّدة من الجمل.

... النموّ... براعم جيدة... فروع جميلة...

ومع توسّع الصورة، رأى لانغدون وأمبرا الكلمات تتجمّع على شكل شجرة متنامية.



لكن، ما هذا؟!

حدّقا إلى الرسم جيداً، وعلت الأصوات حولهما. فجأة، أدرك لانغدون أنّهم لا يُنشدون باللاتينية، بل بالإنكليزية.

قالت أمبرا: "يا إلهي! الكلمات التي على الشاشة... أعتقد أنّها متطابقة مع الموسيقى".

"أنت على حق". وافقها لانغدون وهو يرى النصّ يظهر على الشاشة بشكل متزامن مع الأغنية.

... بأسباب تعمل ببطء... وليس بالأفعال الخارقة...

أصغى لانغدون وهو يشعر بإرباك غريب من مزيج الكلمات والموسيقى. فقد كانت الموسيقى دينية بوضوح، لكنّ النصّ متناقض معها تماماً.

... كائنات عضوية... البقاء للأقوى... الموت للأضعف...

توقّف لانغدون فجأة.

أنا أعرف هذا النصّ!

كان إدموند قد اصطحب لانغدون إلى أداء كهذا منذ بضع سنوات. والمعزوفة التي تحمل عنوان ميسا تشارلز داروين كانت عبارة عن قدّاس على الطريقة المسيحية استبدل فيه المؤلّف النصّ اللاتيني المقدّس التقليدي بمقتطفات من نصّ تشارلز داروين، حول *أصل الأنواع*، لتوليد تجاور غريب بين أصوات تعبّدية تنشد نصّاً يتناول قسوة الانتقاء الطبيعي.

علّق لانغدون قائلاً: "غريب! لقد استمعنا أنا وإدموند إلى هذه المقطوعة منذ مدّة، وأحبّها. يا لها من مصادفة أن أسمعها مجدّداً!".

"ليست مصادفة". تردّد صوت مألوف من مكبّرات الصوت فوق رأسيهما. "لقد علّمني إدموند أن أرحّب بالضيوف في منزلي بإسماعهم بعض الموسيقى التي تعجبهم، وعرض شيء يثير اهتمامهم لمناقشته".

فحدّق لانغدون وأمبرا إلى مكبّرات الصوت بدهشة. كان الصوت المرح الذي استقبلهم يمتاز بلكنة بريطانية واضحة.

قال الصوت الاصطناعي المألوف جدّاً: "أنا مسرور لتمكّنكما من الوصول إلى هنا. فأنا لم أكن أملك طريقة للاتّصال بكما".

"وينستون!". هتف لانغدون باسمه، مستغرباً إحساسه بهذا الارتياح وهو يتواصل مجدّداً مع آلة. ثمّ أخبره هو وأمبرا بما جرى.

قال وينستون: "أنا مسرور لسماع صوتيكما. إذاً، أخبراني، هل وجدنا ما نبحث عنه؟".

الفصل 84

قال لانغدون: "وليام بليك، The dark religions are departed and sweet science reigns. زال الإيمان المظلم وساد العلم النقيّ".

صمت وينستون للحظة ثمّ قال: "إنّه البيت الأخير من قصيدته الملحمية The Four Zoas، الحيوانات الأربعة. أقرّ أنّه خيار مثالي". صمت قليلاً ثمّ أضاف: "لكنّ عدد أحرف البيت لا يساوي–"

فقاطعه لانغدون: "أداة العطف". وشرح له بسرعة الخدعة التي استخدمها كيرش.

أجاب الصوت الاصطناعي وهو يضحك ضحكته الغريبة: "هذا إدموند".

حثّته أمبرا قائلة: "إذاً يا وينستون، الآن وقد بتّ تعلم كلمة سرّ إدموند، هل تستطيع تشغيل بقيّة العرض؟".

أجاب وينستون بثقة تامّة: "بالطبع. كلّ ما أحتاج إليه هو أن تقوما بإدخال كلمة السرّ يدوياً. فقد وضع إدموند جدراناً نارية حول هذا المشروع، ولذلك لا أملك إمكانيّة وصول مباشر إليه. ولكنّني أستطيع أن أصطحبكما إلى مختبره وأريكما أين تُدخلان المعلومات. وهكذا، يمكننا إطلاق البرنامج في أقلّ من عشر دقائق".

التفت لانغدون وأمبرا إلى بعضهما وقد فوجئا بمدى ثقة وينستون. فبعد كلّ ما مرّا به هذه الليلة، بدا لهما أنّ لحظة الانتصار هذه أتت بلا صخب كبير.

همست أمبرا وهي تضع يدها على كتفه: "روبرت، الفضل يعود إليك في ذلك. شكراً لك".

فأجاب مبتسماً: "إنّه جهد فريق".

قال وينستون: "ما رأيكما بالذهاب فوراً إلى مختبر إدموند؟ فأنتما مكشوفان تماماً في البهو، وقد وجدتُ بعض التقارير الإخبارية التي تشير إلى أنكما في هذه المنطقة".

لم يفاجأ لانغدون، فلا بدّ أن يكون هبوط المروحية العسكرية في الجوار قد لفت الانتباه.

قالت أمبرا: "أخبرنا إلى أين نذهب".

أجاب وينستون: "مُرّا بين الأعمدة، واتبعا صوتي".

في البهو، توقّفت موسيقى الكورال فجأة، وانطفأت شاشة البلازما، ومن المدخل الرئيس، تردّد صدى سلسلة من الأصوات العالية مع انغلاق الأقفال آلياً.

لا بدّ أنّ إيموند قد حوّل هذه المنشأة إلى حصن. أدرك لانغدون ذلك وهو يسترق نظرة سريعة إلى نوافذ البهو السميكة، وشعر بالارتياح لدى رؤيته المساحة المشجّرة المحيطة بالكنيسة خالية. *على الأقلّ حالياً.*

وحين استدار نحو أمبرا، رأى وميضاً خفيفاً في نهاية البهو ينير باباً بين عمودين. فتوجّها إليه، ثمّ دخلا ليجدا نفسيهما في رواق طويل. توهّجت المزيد من المصابيح في آخر الرواق، فاسترشدا بها.

وعندما انطلق لانغدون وأمبرا يجتازان الرواق، قال لهما وينستون: "أعتقد أنّه لتحقيق القدر الأقصى من الحضور، علينا حالاً نشر بيان صحفي عالمي يفيد أنّه سيتمّ قريباً استئناف عرض إدموند كيرش. فإن أعطينا وسائل الإعلام نافذة إضافية لنشر هذا الحدث، سنزيد من نسبة مشاهدة العرض بشكل هائل".

قالت أمبرا وهي تحثّ خطاها: "فكرة جيّدة. لكن، كم من الوقت تعتقد أنّنا يجب أن ننتظر؟ أنا لا أريد أن نجازف على الإطلاق".

قال وينستون: "سبع عشرة دقيقة. فبذلك سيتمّ البثّ عند رأس الساعة، أي عند الثالثة صباحاً هنا، وفي الوقت الرئيس في أنحاء أميركا".

أجابت": "هذا ممتاز".

قال وينستون: "عظيم. سأرسل البيان الصحفي حالاً، وسيتمّ إطلاق العرض في غضون سبع عشرة دقيقة".

بذل لانغدون مجهوداً ليواكب تخطيط وينستون السريع.

تقدّمته أمبرا عبر الرواق. "كم عدد الموظّفين الموجودين هنا هذه الليلة؟".

أجاب وينستون: "لا يوجد أيّ موظّف. فقد كان إدموند شديد الحرص من الناحية الأمنية. عملياً، ما من موظّفين هنا. أنا أدير شبكات الكمبيوتر، بالإضافة إلى الإضاءة، والتبريد، والأمن. كان إدموند يمزح بأنّه في عصر المنازل الذكية هو أوّل من يملك كنيسة ذكية".

لم يكن لانغدون يصغي تماماً، إذ انشغل بقلق مفاجئ حيال القرار الذي يوشكان على اتّخاذه. "وينستون، هل تعتقد أنّ هذه اللحظة هي حقّاً اللحظة المناسبة لإطلاق عرض إدموند؟".

توقّفت أمبرا في مكانها وحدّقت إليه. "روبرت، بالطبع هي كذلك! ألم نأتِ لهذا السبب؟ العالم كلّه يشاهد. نحن لا نعرف أيضاً ما إذا كان سيفاجئنا شخص آخر بمجيئه في محاولة لإيقافنا، لذلك علينا التنفيذ حالاً، قبل فوات الأوان!".

قال وينستون: "أنا أوافقك على ذلك. فمن وجهة نظر إحصائية بحتة، بلغت هذه القصّة نقطة التشبّع. وإن قمنا بقياس اكتشاف إدموند بالتيرابايت من البيانات الإعلامية، نجد أنّه يشكّل حالياً إحدى أكبر القصص الإخبارية في هذا العقد. وهذا ليس مستغرباً بالنظر إلى الحجم الذي بلغه مجتمع الإنترنت في السنوات العشر الأخيرة".

نظرت إليه أمبرا وسألته قائلة: "روبرت، ما الذي تخشاه؟".

تردّد لانغدون، محاولاً أن يشرح لها سبب قلقه المفاجئ. "أعتقد أنّني قلق من أجل إدموند؛ لأنّ قصص المؤامرة التي نُشِرت هذه الليلة من أعمال قتل، واختطاف، ومكائد ملكية، ستلقي بظلّها على عمله".

قاطعه وينستون قائلاً: "هذه ملاحظة وجيهة، مع أنّني أعتقد أنّك تُغفِل حقيقة مهمّة. فقصص المؤامرة سبب مهم من الأسباب التي ضاعفت عدد المشاهدين حول العالم. إذ كان ثمّة 3.8 ملايين مشاهد خلال العرض الذي قدّمه إدموند على الإنترنت في وقت سابق من هذه الليلة. أمّا الآن، ومع كلّ الأحداث الدراماتيكية التي استجدّت في الساعات الأخيرة، أقدّر أنّ عدد متابعي هذه القصّة عبر التقارير الإخبارية على الشبكة ووسائل التواصل الاجتماعي والتلفزيون والإذاعة بلغ مائتي مليون نسمة".

بدا العدد هائلاً بالنسبة إلى لانغدون، مع أنّه يذكر أنّ أكثر من مائتي مليون شخص شاهدوا نهائيات كأس العالم، وخمسمائة مليون شخص شاهدوا أوّل هبوط على سطح القمر منذ نصف قرن مضى؛ عندما لم يكن للإنترنت أيّ وجود، وكانت أجهزة التلفزيون أقلّ انتشاراً بكثير على الصعيد العالمي.

قال وينستون: "بروفيسور، ربّما كنت لا ترى ذلك في المجتمع الأكاديمي، لكنّ بقيّة العالم قد تحوّل فعلاً إلى برنامج تلفزيون الواقع. والمفارقة هي أنّ الأشخاص الذين حاولوا إسكات إدموند الليلة، حقّقوا العكس تماماً. إذ بات إدموند الآن يملك أكبر جمهور لأيّ إعلان علمي في التاريخ. وهذا يذكّرني بالفاتيكان عندما ندّد بكتابك الذي أصبح من الكتب الأكثر مبيعاً في ما بعد".

فكّر لانغدون في سره: *تقريباً من الكتب الأكثر مبيعاً*. ولكنّه فهم ما قصده وينستون.

قال وينستون: "لطالما كان تحقيق أكبر قدر من المشاهدة من أهداف إدموند الأساسية هذه الليلة".

قالت أمبرا وهي تنظر إلى لانغدون: "إنّه على حقّ. فعندما كنّا أنا وإدموند نفكّر بحدث غوغنهايم المباشر، كان كلّ اهتمامه منصبّاً على زيادة نسبة المشاهدة ولفت أكبر عدد من الأنظار

قال وينستون: "كما قلت، لقد بلغنا نقطة التشبّع الإعلامي، وما من وقت أفضل من هذه اللحظة للإعلان عن الاكتشاف".

قال لانغدون: "فهمت. قل لنا فقط ماذا يجب أن نفعل".

تابعا طريقهما عبر الرواق، ووصلا إلى حاجز غير متوقّع، سلّم مفتوح في الرواق كأنّه يُستخدَم في الطلاء، الأمر الذي جعل من المستحيل التقدّم من دون تحريك السلّم أو المرور من تحته.

قال لانغدون: "هذا السلّم، هل أطويه جانباً؟".

قال وينستون: "كلّا، فقد وضعه إدموند هناك عمداً منذ مدّة طويلة".

سألته أمبرا: "ولماذا؟".

"كما تعلمين، كان إدموند يكره الخرافات بكلّ أشكالها. ولذلك وضع هذا السلّم هنا، وأثبت وجهة نظره عبر المرور من تحته يومياً في طريقه إلى العمل. علاوة على ذلك، إن رفض أيّ ضيف أو فنّي المرور من تحته، كان إدموند يطرده من المبنى".

كان عقلانياً دوماً. تذكّر لانغدون كيف وبّخه إدموند علناً عندما "طرق على الخشب" اتّقاءً للحسد. *روبرت، ما لم تكن دارويداً ما زال يطرق على الأشجار لإيقاظها، أرجو منك أن تترك هذه الخرافات في الماضي الذي تنتمي إليه!*

تابعت أمبرا سيرها، ثمّ أخفضت رأسها ومرّت من تحت السلّم. حذا لانغدون حذوها، لكن مع رعشة خوف غير منطقية.

وعندما وصلا إلى الجهة الأخرى، قادهما وينستون حول زاوية إلى باب أمني كبير مزوّد بكاميراتين وجهاز مسح بيومتري.

عُلّقت فوق الباب لافتة مصنوعة يدوياً كُتب عليها: الغرفة 13.

رمق لانغدون الرقم سيّئ السمعة. *إدموند يتحدّى الخرافات مجدّداً*.

قال وينستون: "هذا مدخل مختبره. باستثناء الفنّيين الذين استأجرهم إدموند ليساعدوه على بناء هذا المختبر، لم يسمح سوى لعدد قليل جدّاً بدخول هذا المكان".

صدر أزيز عالٍ عن القفل، وسرعان ما أمسكت أمبرا بمقبض الباب وفتحته. وما إن خطت من فوق العتبة، حتّى توقّفت في مكانها ورفعت يدها إلى فمها وهي تشهق. وعندما نظر لانغدون إلى داخل حرم الكنيسة، فهم سبب ردّ فعلها.

كان يهيمن على قاعة الكنيسة الضخمة صندوق زجاجي لم يرَ لانغدون بحجمه. كان الصندوق الشفّاف يحتلّ أرض القاعة بأكملها ويبلغ طوله سقف الكنيسة المؤلّفة من طابقين.

بدا الصندوق أنّه ينقسم إلى طابقين.

في الطابق الأوّل، رأى لانغدون مئات الخزائن المعدنية الشبيهة بالثلّاجة والمنظّمة في صفوف، مثل مقاعد كنيسة أمام مذبح. لم تكن للخزائن أيّ أبواب، وكان داخلها معروضاً للعيان. تدلّت مصفوفات شديدة التعقيد من الأسلاك الحمراء الساطعة من

شبكات كثيفة من نقاط الاتّصال، وذلك بشكل مقوّس باتّجاه الأرض، حيث ارتبطت ببعضها في شبكات سميكة كالحبال التي امتدّت بين الآلات وكوّنت ما يشبه شبكة من الأوردة.

فكّر لانغدون في سرّه: *الفوضى المنظّمة*.

قال وينستون: "في الطابق الأوّل، ستريان الكمبيوتر العملاق مارينوستروم، وهو يتألّف من ثمانية وأربعين ألفاً وثمانمائة وستّ وتسعين نواة إنتيل، تتواصل عبر شبكة إنفينيباند FDR10، وهو واحد من أسرع الآلات في العالم. كان مارينوستروم هنا عندما أتى إدموند، وعوضاً عن إزالته، فضّل دمجه. لذلك قام ببساطة بتوسيعه... نحو الأعلى".

لاحظ لانغدون أنّ شبكة مارينوستروم السلكية بأكملها تندمج في وسط الغرفة مشكّلة جذعاً واحداً يرتفع عمودياً مثل عريشة ضخمة إلى سقف الطابق الأوّل.

انتقل نظر لانغدون إلى الطابق الثاني من الصندوق الزجاجي الضخم ليرى صورة مختلفة تماماً. هنا في وسط الأرض، على منصّة مرتفعة، وُضِع مكعّب معدني ضخم باللون الرمادي المائل إلى الأزرق. وكان بمساحة عشر أقدام مربّعة، بلا أسلاك، ولا مصابيح وامضة، ولا شيء يشير إلى كيف يمكن أن يكون الكمبيوتر فائق التطوّر الذي يصفه وينستون حاليّاً بمصطلحات لا يمكن فهمها.

"... تحلّ الكيوبيتس محلّ الأرقام الثنائية... تطابق الحالات... خوارزميات الكمّ... التشابك والأنفاق...".

أدرك لانغدون الآن السبب الذي جعله هو وإدموند يتحدّثان بالفنّ بدلاً من الحوسبة.

"... الأمر الذي يؤدّي إلى كوادريليونات من حسابات النقاط العائمة في الثانية".

ثمّ تابع وينستون مستنتجاً: "فينتج عن اندماج هاتين الآلتين المختلفتين جدّاً الكمبيوتر العملاق الأقوى في العالم".

همست أمبرا: "يا إلهي".

الفصل 85

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

اكتشاف كيرش سيُذاع على الهواء في غضون دقائق!

أجل، هذا صحيح!

أكّد بيان صحفي صادر عن مركز إدموند كيرش للتوّ أنّ اكتشافه العلمي المنتظر على نطاق واسع، والذي تمّ حجبه في أعقاب اغتيال العالِم المستقبلي، سيتمّ بثّه إلى العالم مباشرة عند رأس الساعة... (3 صباحاً بالتوقيت المحلي في برشلونة).

ويحسب التقارير، إنّ نسب المشاهدة ترتفع بشكل كبير، إذ تشير إحصائيات المشاركة العالمية على الإنترنت إلى أنّ نسبة المشاهدة لم يسبق لها مثيل.

وفي هذا الإطار، زُعِم أنّه تمّ رصد روبرت لانغدون وأمبرا فيدال وهما يدخلان مقرّ كنيسة توري جيرونا التي تضمّ مركز برشلونة للحوسبة الفائقة. إذ يُعتقَد أنّ إدموند كيرش كان يعمل هناك خلال السنوات الماضية. غير أنّ ConspiracyNet لم تتأكّد بعد ممّا إذا كان هذا هو الموقع الذي ستتمّ متابعة البثّ من خلاله.

تابعوا أخبارنا حول عرض كيرش الذي يمكن مشاهدته هنا في بثّ مباشر على ConspiracyNet.com!

الفصل 86

بينما كان الأمير جوليان يمرّ من البوّابة الحديدية إلى قلب الجبل، شعر أنّه قد لا يتمكّن من الخروج مجدّداً.

وادي السقوط. ماذا أفعل هنا؟!

كانت القاعة التي دخلها باردة ومظلمة، يضيئها بالكاد مصباحان كهربائيان. أمّا جوّها، ففاح برائحة الرطوبة المنبعثة من الصخر.

وقف أمامهما رجل بالزيّ الرسمي يحمل حلقة مفاتيح تدلّت من يديه المرتعشتين. لم يفاجأ جوليان من القلق الذي بدا على هذا الموظّف في قسم التراث الوطني. فقد اصطفّ خلفه ستّة من عملاء الحرس الملكي في الظلام. *أبي هنا*. لا شكّ في أنّ هذا الموظّف المسكين استُدعِي في منتصف الليل لفتح جبل فرانكو من أجل الملك.

تقدّم أحد عملاء الحرس الملكي بسرعة وقال: "سموّ الأمير جوليان، نيافة الأسقف فالديسبينو، لقد كنّا بانتظاركما. تفضّلا من هنا رجاء".

قاد الحارس كلاً من جوليان وفالديسبينو إلى بوّابة ضخمة من الحديد المطاوع نُقِش عليها رمز فرانكوي كبير. كان الرمز عبارة عن نسر شرس ذي رأسين، على غرار الأيقونية النازية.

قال الحارس: "جلالته ينتظركما في نهاية هذا النفق". وأشار لهما عبر البوّابة التي لم تكن مقفلة بل مفتوحة جزئياً.

تبادل جوليان والأسقف نظرات الشكّ، ومرّا عبر البوّابة التي انتصب على جانبيها تمثالان معدنيان مخيفان يرمزان إلى الموت، وكلّ منهما يحمل سيفاً على شكل صليب.

فكّر جوليان في سرّه وهو يرافق الأسقف في رحلتهما الطويلة داخل الجبل: *المزيد من الصور الدينية العسكرية الفرانكوية.*

لم يكن النفق الممتدّ أمامهما يقلّ زخرفة وأناقة عن قاعة الرقص في القصر الملكي في مدريد. كان الممرّ الفخم بأرضيّته الرخامية السوداء اللامعة والمصقولة وسقفه الشاهق المزخرف مضاءً بسلسلة لا نهاية لها كما يبدو من الشمعدانات المعلّقة على الجدار كالمشاعل.

غير أنّ مصدر الضوء في الممرّ كان الليلة أكثر دراماتيكية بكثير. فقد اصطفّت عشرات أحواض النار، مثل مصابيح مدرج على طول النفق، وتراقصت فيها نيران برتقالية. تقليدياً، كان يتمّ إشعال هذه النيران في المناسبات الكبرى، لكنّ وصول الملك في هذه الساعة المتأخّرة بدا مناسبة مهمّة بما فيه الكفاية لإشعالها جميعاً.

ومع انعكاس ضوء النار المتراقصة على الأرض المصقولة، خيّمت على الرواق الضخم أجواء خارقة للطبيعة تقريباً. شعر جوليان بوجود تلك النفوس الحزينة التي حفرت هذا النفق بأيديها، حاملة فؤوسها ومجارِفها، وقد استبدّ بها الإنهاك والتعب بعد سنوات من العمل في هذا الجبل وهي تكابد الجوع والبرد، والكثير منها لقي حتفه؛ وكلّ ذلك تمجيداً لفرانكو الذي دُفِن في أعماق الجبل.

كان والده قد قال له: *انظر جيّداً يا بنيّ، يوماً ما ستهدم هذا المكان.*

عرف جوليان أنّه حين يصبح ملكاً، لن يملك القوّة على الأرجح لتدمير هذا البناء الرائع. لكن، لا بدّ له أن يقرّ بأنّه فوجئ لأنّ شعب إسبانيا سمح ببقائه، لا سيّما نظراً لمدى توق البلاد إلى تجاوز ماضيها المظلم والانضمام إلى العالم الجديد. مع ذلك، ثمّة أناس ما زالوا يتوقون إلى التقاليد القديمة. وكلّ عام، في ذكرى وفاة فرانكو، يتوافد مئات الفرانكويين المسنّين إلى هذا المكان إكراماً له.

قال الأسقف بصوت خافت، بعيداً عن مسامع الآخرين، فيما كانا يتوغّلان في الممرّ: "دون جوليان، هل تعرف لماذا استدعانا والدك إلى هنا؟".

هزّ جوليان رأسه نافياً: "كنت آمل أن تجيب أنت عن هذا السؤال".

تنهّد فالديسبينو بإرهاق وقال: "ليست لديّ أيّ فكرة".

ما دام الأسقف لا يعرف شيئاً عن دوافع أبي، فهذا يعني أنّ لا أحد يعرف.

قال الأسقف بلطف مفاجئ: "أتمنّى فقط أن يكون كلّ شيء على ما يرام. فبعض القرارات التي أصدرها في الآونة الأخيرة...".

"هل تعني استدعاءنا إلى اجتماع في جبل في الوقت الذي ينبغي أن يكون فيه طريح الفراش في أحد المستشفيات؟".

فابتسم فالديسبينو رفق. "مثلاً، أجل".

تساءل جوليان عن سبب عدم تدخّل مرافقي الملك ورفضهم إخراجه من المستشفى وإحضاره إلى هذا المكان المخيف. ومع ذلك، كان يعرف أنّ الحرس الملكي مدرّبون على الطاعة من دون طرح الأسئلة، لا سيّما حين يأتي الطلب من قائدهم الأعلى.

قال فالديسبينو وهو يحدّق إلى نهاية الممرّ المضاء بالنيران: "لم آتِ للصلاة هنا منذ سنوات".

كان جوليان يعرف أنّ النفق الذي يسيران فيه لم يكن فقط مدخلاً إلى الجبل، بل كان يشكّل أيضاً صحن كنيسة كاثوليكية معترف بها رسمياً. إلى الأمام، بدأ الأمير يرى صفوف المقاعد المخصّصة للمصلّين.

La basílica secreta، *البازيليك السرّية*، هكذا سمّاها جوليان في طفولته.

كان المحراب المذهّب المنحوت في قلب جبل الغرانيت في آخر هذا النفق عبارة عن قاعة فسيحة، تشكّل بازيليك مذهلة تحت الأرض تعلوها قبّة ضخمة. يُشاع أنّ الضريح الممتدّ في جوف الأرض تزيد مساحته عن مساحة ضريح كنيسة القدّيس بطرس في روما، ويضمّ ستّ كنائس منفصلة تحيط بمذبحه العالي الذي وُضِع مباشرة تحت الصليب الذي يعلو الجبل.

مع اقترابهما من المحراب الرئيس، تأمّل جوليان القاعة الضخمة بحثاً عن أبيه، غير أنّ البازيليك بدت خالية تماماً.

سأله الأسقف وقد بدا عليه القلق: "أين هو؟".

بدأ القلق ينتاب جوليان أيضاً الذي خشي أن يكون الحرس قد تركوا الملك بمفرده في هذا المكان المقفر. فتقدّم الأمير إلى الأمام بسرعة، وجال بنظره في أرجاء أحد جناحَي الكنيسة ومن ثمّ الآخر، غير أنّه لم يجد أثراً لأحد. اندفع متوغّلاً أكثر، ودار حول جانب المذبح، ثمّ دخل جناح الكنيسة.

هنا، في أحشاء الجبل، رأى جوليان أباه أخيراً، فتوقّف في مكانه. كان ملك إسبانيا بمفرده تماماً، مغطّى ببطانيات ثقيلة، وجالساً على كرسيّ متحرّك.

الفصل 87

داخل المحراب الرئيس للكنيسة المهجورة، تبع لانغدون وأمبرا صوت وينستون ودارا حول محيط الكمبيوتر العملاق المؤلّف من طابقين. ومن خلال الزجاج السميك، سمعا طنيناً عميقاً يرافقه اهتزاز صادر من الآلة الضخمة في الداخل. شعر لانغدون كما لو أنّه يحدّق إلى قفص وحش سجين.

قال وينستون إنّ الصوت صادر ليس عن الإلكترونيات بل عن مجموعة واسعة من مراوح الطرد المركزي، ومصارف الحرارة، ومضخّات المبرّد السائل لمنع درجة حرارة الآلة من الارتفاع.

قال وينستون: "الصوت هنا يصمّ الآذان، كما أنّ الحرارة جليدية. لكن لحسن الحظّ، يقع مختبر إدموند في الطابق الثاني".

رأيا أمامهما سلّماً لولبياً قائماً بذاته وملتصقاً بالجدار الخارجي للصندوق الزجاجي. بأمر من وينستون، صعد لانغدون وأمبرا السلّم، ليصلا إلى منصة معدنية أمام باب دوّار زجاجي.

ابتسم لانغدون وهو يلاحظ أنّ هذا المدخل مستقبلي الطراز المؤدّي إلى مختبر إدموند مؤثّث مثل منزل في إحدى الضواحي، مع دوّاسة تحمل جملة ترحيبية، ونبتة اصطناعية في وعاء، ومقعد صغير وُضع تحته شبشب، كان واضحاً أنّه لإدموند.

فوق الباب، عُلّقت رسالة في إطار.

النجاح هو القدرة على الانتقال
من فشل إلى آخر
من دون فقدان الحماسة.

– وينستون تشرشل

قال لانغدون لافتاً نظر أمبرا إلى الرسالة: "المزيد من أقوال تشرشل".

قال وينستون: "إنّه الاقتباس المفضّل لدى إدموند. إذ كان يقول إنّه يشير إلى أعظم قوى أجهزة الكمبيوتر".

سألته أمبرا: "الكمبيوتر؟!".

"أجل، فأجهزة الكمبيوتر مثابرة إلى ما لا نهاية. فأنا قد أفشل مليارات المرّات، ولكنّني لا أشعر بالإحباط، بل أندفع في محاولتي رقم مليار في حلّ مشكلة معيّنة بالطاقة نفسها التي ميّزت محاولتي الأولى. أمّا البشر، فلا يستطيعون ذلك".

قال لانغدون: "هذا صحيح. فأنا أستسلم عادة بعد محاولتي المليون".

ابتسمت أمبرا وتوجّهت نحو الباب.

قال وينستون حين بدأ الباب يدور آلياً: "الأرضية في الداخل زجاجية، لذا من فضلكما اخلعا حذاءيكما".

سرعان ما خلعت أمبرا حذاءها واجتازت الباب الدوّار حافية، وحذا لانغدون حذوها، ولاحظ أنّ الجملة الترحيبية التي كُتبت على الرسالة كانت التالية:

ما من مكان يشبه 127.0.0.1

"وينستون، أهذه دوّاسة؟ أنا لا أفهم-"

أجاب وينستون: "مضيف محلّي".

قرأ لانغدون الرسالة مجدّداً. "فهمت". قال ذلك من دون أن يفهم على الإطلاق، وتابع مروره عبر الباب الدوّار.

وعندما خطا لانغدون فوق الأرض الزجاجية، شعر بلحظة شكّ. فالوقوف على السطح الشفّاف بجوربه كان مثيراً للأعصاب بما فيه الكفاية، لكن أن يجد نفسه يحلّق مباشرة فوق كمبيوتر مارينوستروم في الأسفل، فقد سبّب له ذلك قلقاً مضاعفاً. وذلك لأنّ النظر من هذا المكان إلى كتيبة الرفوف المعقّدة في الأسفل كان يشبه النظر إلى جيش الطين في حفرة شيان الأثرية الشهيرة في الصين.

أخذ لانغدون نفساً عميقاً ونظر إلى الغرفة الغريبة أمامه.

كان مختبر إدموند عبارة عن مستطيل شفّاف يهيمن عليه المكعّب المعدني الرمادي المائل إلى الزرقة الذي رآه سابقاً، وكان سطحه اللامع يعكس كلّ ما حوله. إلى يمين المكعّب، عند أحد أطراف الغرفة، جُهّزت زاوية كمكتب تضمّ طاولة نصف دائرية، وثلاث شاشات إل سي دي ضخمة، فضلاً عن ألواح مفاتيح متنوّعة غائرة في سطح المكتب المصنوع من الغرانيت.

همست أمبرا: "مركز التحكّم".

أومأ لانغدون برأسه موافقاً، ونظر إلى الطرف المقابل من الغرفة. هناك، وُضِعت مقاعد، وأريكة، ودرّاجة للتمارين الرياضية فوق سجّادة شرقية الطراز.

رجل كهف يعمل في الحوسبة الخارقة، هذا ما فكّر فيه لانغدون. فقد كان إدموند يملك كلّ شيء، ولكنّه انتقل إلى هذا الصندوق الزجاجي خلال عمله على مشروعه. *ما*

الذي اكتشفه هنا؟ زال تردّد لانغدون الأوّلي وشعر الآن بانجذاب متعاظم ناتج عن الفضول الفكري؛ عن توق لمعرفة ما تمّ اكتشافه هنا، والأسرار التي تمّ كشف النقاب عنها بالتعاون بين عقل عبقري وآلة قوية.

كانت أمبرا قد ذهبت إلى المكعّب الضخم، وراحت تحدّق حائرة إلى سطحه المصقول باللون الرمادي المائل إلى الزرقة. انضمّ إليها لانغدون، وانعكست صورتهما على سطحه اللمّاع.

تساءل لانغدون: *أهذا كمبيوتر؟!* فخلافاً للآلة الموجودة في الأسفل، كانت هذه الآلة صامتة تماماً، جامدة وخالية من الحياة، كصخرة معدنية.

ذكّره لون الآلة المائل إلى الزرقة بكمبيوتر خارق يرجع إلى مطلع تسعينيات القرن المنصرم ويدعى "ديب بلو" (الأزرق العميق) الذي أدهش العالم بفوزه على بطل العالم في الشطرنج غاري كاسباروف. ومنذ ذلك الحين، بات من المستحيل تقريباً فهم أوجه التقدّم في تكنولوجيا الحوسبة.

أتاهما صوت وينستون من مكبّرات الصوت في الأعلى: "هلّا تنظران إلى الداخل".

فوجئت أمبرا وسألته: "أننظر إلى داخل المكعّب؟".

أجاب وينستون: "ولمَ لا؟ كان إدموند سيشعر بالفخر لو استطاع أن يُريكما كيفية عمله".

"هذا غير ضروري". قالت أمبرا ذلك والتفتت إلى مكتب إدموند. "أفضّل التركيز على إدخال كلمة السرّ. كيف يمكننا فعل ذلك؟".

"لن يستغرق الأمر سوى ثوانٍ، وما زالت لدينا أكثر من إحدى عشرة دقيقة قبل الإطلاق. ألقيا نظرة على داخل المكعّب".

أمامهما، انزلق لوح يغطّي جانب المكعبّ المواجه لمكتب إدموند وفُتِح، كاشفاً عن لوح زجاجي سميك. فالتفّ لانغدون وأمبرا حول المكعّب وألصقا وجهيهما باللوح الشفّاف.

توقّع لانغدون رؤية مجموعة أخرى من الأسلاك والمصابيح الوامضة الكثيفة. غير أنّه لم يرَ شيئاً من هذا القبيل. استغرب تماماً لدى رؤيته داخل المكعّب مظلماً وخالياً، كأنّه غرفة صغيرة فارغة. بدا أنّ محتوياته الوحيدة كانت عبارة عن نفخات من الضباب الأبيض التي راحت تحوم في الهواء، كما لو أنّ الغرفة ثلّاجة يمكن السير فيها. كان ملمس زجاج البلكسي السميك بارداً على نحو غريب.

قالت أمبرا: "ما من شيء هنا".

لم يرَ لانغدون شيئاً هو الآخر، ولكنّه شعر بنبض متكرّر ومنخفض منبعث من داخل المكعّب.

قال وينستون: "هذا النبض البطيء صادر عن نظام التبريد والتخفيف النابض، ويشبه بصوته نبض القلب البشري".

بالفعل. شعر لانغدون بالتوتّر من هذه المقارنة.

ببطء، أخذت المصابيح الحمراء في الداخل تضيء قلب المكعّب. في البداية، لم يرَ لانغدون سوى ضباب أبيض وغرفة مكعّبة خالية. وبعد ذلك، ومع ازدياد وهج المصابيح، لمع شيء في الهواء فوق الأرض، وأدرك وجود أسطوانة معدنية معقّدة معلّقة بالسقف مثل ثريّا.

قال وينستون: "وهذا ما ينبغي على المكعّب الحفاظ على برودته".

كان الجهاز الأسطواني المدلّى من السقف بطول خمس أقدام تقريباً، ومؤلّفاً من سبع حلقات أفقية ينخفض محيطها مع انخفاضها، مشكّلاً عموداً يزداد ضيقاً من الأقراص المتدرّجة المعلّقة بقضبان عمودية نحيلة. كانت المساحة بين الأقراص المعدنية المصقولة مشغولة بشبكة من الأسلاك الحسّاسة. وحام حول الجهاز بأكمله ضباب جليدي.

قال وينستون: "إ-وايف. إنّه قفزة نوعية تتجاوز د-وايف ناسا/غوغل، أرجو أن تعذرا اللعب على الكلام".

شرح لهما وينستون بسرعة أنّ د-وايف هو "كمبيوتر الكمّ" البدائي الأوّل في العالم، والذي فتح عالماً جديداً وجريئاً من القوّة الحوسبية التي كان العلماء ما زالوا يكافحون لفهمها. فعوضاً عن استخدام الطريقة الثنائية لتخزين المعلومات، تستفيد حوسبة الكمّ من الخواص الكمّية للجسيمات دون الذرّية، ممّا يؤدّي إلى قفزة هائلة في السرعة، والقوّة، والمرونة.

قال وينستون: "هيكلياً، لا يختلف كمبيوتر إدموند الكمّي كثيراً عن د-وايف. ويكمن أحد أوجه الاختلاف في المكعّب المعدني المحيط بالكمبيوتر. فالمكعّب مغلّف بالأوسميوم؛ وهو عنصر كيميائي نادر فائق الكثافة يوفّر درعاً مغناطسياً وحرارياً وكمّياً هائلاً، كما يشكّل برأيي جزءاً من حبّ إدموند للدراما".

فابتسم لانغدون، إذ خطرت بباله الفكرة نفسها.

"خلال السنوات الأخيرة، وبينما كان مختبر الذكاء الاصطناعي الكمّي في غوغل يستخدم آلات مثل د-وايف لتحسين تعليم الآلة، تفوّق إدموند على الجميع سرّاً بهذه الآلة. وقام بذلك باستخدام فكرة جريئة واحدة..." صمت وينستون قليلا ثمّ أضاف: "ثنائية التمثيل".

عبس لانغدون. *المجلسان البرلمانيان؟*

تابع وينستون: "الدماغ المؤلّف من نصفين؛ الفصّ الأيمن والفصّ الأيسر".

عقل ثنائي التمثيل. فمن الأمور التي تميّز الكائنات البشرية وتجعلها بهذا الإبداع أنّ نصفي الدماغ يعملان بشكل مختلف جداً. فالدماغ الأيسر تحليلي ولفظي، في حين أنّ الدماغ الأيمن حدسي و"يفضّل" الصور على الكلمات.

قال وينستون: "وكانت خدعة إدموند هي بناء دماغ اصطناعي يحاكي الدماغ البشري، أي أنه مقسَّم إلى فصّين، أيمن وأيسر. مع أنّه في هذه الحالة أقرب إلى طابق علوي وطابق سفلي".

تراجع لانغدون، وحدّق عبر الأرضية الشفّافة إلى الآلة الموجودة في الطابق السفلي ومن ثمّ إلى "الثريّا" الصامتة داخل المكعب. *آلتان مختلفتان مدمجتان في عقل واحد ثنائي التمثيل*.

قال وينستون: "عندما تُجبَر هاتان الآلتان على العمل كوحدة أحادية، فهما تعتمدان نهجَين مختلفَين لحلّ المشاكل، وبالتالي تواجهان أنواع الصراع والتوافق نفسها التي تواجه فصَّي الدماغ البشري؛ الأمر الذي يسرّع إلى حدّ كبير من قدرة الذكاء الاصطناعي على التعلّم والإبداع، وبشكل من الأشكال... محاكاة السلوك الإنساني. في حالتي، أعطاني إدموند أدوات لأعلّم نفسي حول الإنسانية من خلال مراقبة العالم من حولي ونمذجة السمات البشرية؛ الفكاهة، والتعاون، والأحكام المرتبطة بالقيم، وحتى حسّ الأخلاق".

هذا لا يصدّق. قال لانغدون: "إذاً، هذا الكمبيوتر المزدوج هو في الأساس... *أنت*؟!".

ضحك وينستون. "في الواقع، لا يمكن اعتبار هذه الآلة أنا بقدر ما تعتبر أنّ دماغك المادّي هو أنت. فلو تأمّلتَ دماغك داخل وعاء، ما كنت لتقول *هذا الشيء هو أنا*. فنحن مجموعة التفاعلات التي تحدث داخل الآليّة".

قاطعته أمبرا وهي تتوجّه نحو مكتب إدموند. "وينستون، كم بقي من الوقت للإطلاق؟".

أجاب وينستون: "خمس دقائق وثلاث وأربعون ثانية. هل نستعدّ؟".

أجابته: "أجل من فضلك".

أُغلِق الغطاء المعدني من جديد، واستدار لانغدون للانضمام إلى أمبرا في مختبر إدموند.

قالت: "وينستون، بالنظر إلى كلّ العمل الذي تقوم به هنا مع إدموند، أنا أستغرب عدم اطّلاعك على اكتشافه على الإطلاق".

"آنسة فيدال، سبق لي أن قلت إنّ معلوماتي مجزّأة، ولا أملك سوى البيانات نفسها التي تملكينها. ولذلك يمكنني أن أعطي تخميناً وحسب استناداً إلى ما أملكه من معلومات".

سألته وهي تتفحّص مكتب إدموند: "وما هو هذا التخمين؟".

"في الواقع، يزعم إدموند أنّ اكتشافه سيغيّر كلّ شيء. ومن تجربتي، إنّ معظم الاكتشافات التحوّلية في التاريخ أدّت إلى مراجعة نماذج الكون، مُحدِثةً اختراقات مثل رفض فيثاغورس لنموذج الأرض المسطّحة، ومركزية الشمس لدى كوبرنيكوس، ونظريّة التطوّر، واكتشاف آينشتاين للنسبيّة، وجميعها غيّرت بشكل كبير نظرة البشرية لعالمها وحدّثت نموذجنا الحالي للكون".

نظر لانغدون إلى مكبّر الصوت فوق رأسه وقال: "إذاً، أنت تخمّن أنّ إدموند قد اكتشف شيئاً يقترح نموذجاً جديداً للكون؟".

أجاب وينستون وهو يتكلّم بسرعة أكبر الآن: "هذا استنتاج منطقي. فمارينوستروم واحد من أرقى كمبيوترات النمذجة على وجه الأرض، وهو متخصّص في المحاكاة المعقّدة، وأشهرها أليا ريد، وهو قلب بشري افتراضي يعمل بشكل كامل، ودقيق الصنع وصولاً إلى المستوى الخلوي. وبالطبع، مع إضافة العنصر الكمّي مؤخّراً، سيصبح من شأن هذه المنشأة أن تصنع نماذج لأنظمة أكثر تعقيداً بملايين المرّات من الأعضاء البشرية".

فهم لانغدون الفكرة، لكنّه ما زال عاجزاً عن تخيّل النموذج الذي صنعه إدموند للإجابة عن السؤالين: *من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟*

نادت أمبرا من مكتب إدموند: "وينستون، كيف نشغّل كلّ هذا؟".

أجابها وينستون: "يمكنني مساعدتك".

أضاءت الشاشات الضخمة الثلاث لحظة وصول لانغدون إلى جانب أمبرا. ومع ظهور الصور على الشاشة، تراجع كلّ منهما مذعوراً.

سألته أمبرا: "وينستون... هل هذه الصور مباشرة؟".

"أجل، هذا بثّ مباشر من كاميراتنا الأمنية في الخارج. اعتقدتُ أنّكما تعرفان، فقد وصلوا منذ بضع ثوانٍ".

أظهرت شاشات العرض مشهداً للمدخل الرئيس للكنيسة، وهناك تجمّع جيش صغير من عناصر الشرطة الذين كانوا يضغطون على زرّ الاتّصال، ويحاولون فتح الباب، ويتحدّثون عبر أجهزة اللاسلكي.

قال وينستون مؤكّداً: "لا تقلقا، لن يتمكّنوا من الدخول. كما أنّنا على بعد أقلّ من أربع دقائق لتشغيل العرض".

قالت أمبرا: "علينا تشغيله حالاً".

أجابها وينستون بصوت هادئ: "أعتقد أنّ إدموند كان سيفضّل الانتظار حتّى رأس الساعة كما وعد؛ فهو رجل يحترم كلمته. بالإضافة إلى ذلك، أنا أراقب نسب المشاهدة،

وجمهورنا ما زال يزداد عدداً. فخلال الدقائق الأربع التالية، وبالوتيرة الحالية، سيزداد عدد المشاهدين بنسبة 12.7 بالمائة، وأعتقد أنّه سيبلغ النسبة القصوى". صمت وينستون قليلاً وبدا متفاجئاً بعض الشيء وهو يتابع: "لا بدّ لي من القول، على الرغم من كلّ ما حدث هذا المساء، إنّ عرض إدموند سيبثّ على ما يبدو في التوقيت الأمثل. أعتقد أنّه سيكون ممتنّاً لكما لو كان على قيد الحياة".

الفصل 88

أقلّ من أربع دقائق. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يجلس على كرسيّ إدموند ويحوّل نظره إلى شاشات إل سي دي الثلاث الضخمة التي تهيمن على هذه الزاوية من الغرفة. على الشاشة، كانت لقطات الكاميرات الأمنية الحيّة ما زالت تعرض رجال الشرطة المتجمّعين حول الكنيسة.

سألته أمبرا قائلة وهي تتنقّل بتوتّر خلف لانغدون: "هل أنت واثق أنّهم لا يستطيعون الدخول؟".

أجاب وينستون: "ثقي بي، فإدموند كان يتعامل بجدّية كبيرة مع موضوع الأمن".

قال لانغدون: "وماذا لو قطعوا الطاقة عن المبنى؟".

أجاب وينستون ببساطة: "إمدادات الطاقة معزولة، وهي عبارة عن صناديق مدفونة فائقة المتانة. ما من أحد يستطيع التدخّل في هذه المرحلة، أنا أؤكّد لكما ذلك".

استسلم لانغدون. *كان وينستون محقّاً على جميع الجبهات هذه الليلة... وقدّم لنا الدعم والحماية طوال الوقت.*

جلس لانغدون في وسط المكتب الذي يتّخذ شكل حدوة الحصان، وحوّل انتباهه إلى لوحة المفاتيح غير الاعتيادية الموجودة أمامه. كانت تشتمل على الأقلّ على ضعف عدد المفاتيح المعتادة، إذ تضمّ الأحرف الأبجدية التقليدية، بالإضافة إلى مجموعة من الرموز التي لم يتعرّف عليها هو نفسه. وكانت مقسومة في الوسط، وكلّ نصف مثبّت بزاوية مريحة بعيداً عن الآخر.

قال لانغدون وهو يحدّق إلى مجموعة المفاتيح المحيّرة: "هلّا تساعدنا هنا من فضلك".

أجاب وينستون: "هذا لوح المفاتيح الخاطئ. فهذه نقطة الدخول الرئيسة إلى إ-وايف. كما سبق وذكرت، أخفى إدموند هذا العرض عن الجميع، بمن فيهم أنا. ولا بدّ أن يتمّ تشغيله من آلة مختلفة. اذهب إلى اليمين، على طول الطريق نحو النهاية".

التفت لانغدون إلى يمينه، ورأى نصف دزينة من أجهزة الكمبيوتر القائمة بذاتها والمصفوفة على طول المكتب. وبينما كان يتقدّم نحوها، فوجئ عندما لاحظ أنّ الأجهزة القليلة الأولى قديمة الطراز جداً وعفا عليها الزمن. والغريب أنّه كلّما تقدّم، بدت الآلات أقدم.

لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. فكّر في ذلك وهو يمرّ بجهاز آي بي إم دوس ضخم بلون البيج لا بدّ أنّه يرجع إلى عقود من الزمن. "وينستون، ما هذه الآلات؟".

"إنّها أجهزة الكمبيوتر التي استخدمها إدموند في صباه. فهو يحتفظ بها كتذكير بجذوره. وفي بعض الأحيان، في الأيّام الصعبة التي كان يواجهها هنا، كان يشغّلها ويستخدم البرامج القديمة، ليعيد الاتّصال بالدهشة التي شعر بها في صباه عندما اكتشف البرمجة".

قال لانغدون: "أعجبتني الفكرة".

قال وينستون: "تماماً مثل ساعة ميكي ماوس التي تأبى التخلّي عنها".

فوجئ لانغدون ونظر إلى الأسفل، ثمّ رفع كمّ سترته لينظر إلى الساعة القديمة التي يستخدمها منذ أن قُدّمت له في طفولته. استغرب لأنّ وينستون يعرف بموضوع هذه الساعة، ولكنّه تذكّر أنّه أخبر إدموند مؤخّراً أنّه يضعها ليحافظ على شباب روحه.

قالت أمبرا: "روبرت، ما رأيك بتأجيل موضوع الموضة، وإدخال كلمة السرّ من فضلك؟ حتّى فأرتك تلوّح لك في محاولة للفت انتباهك".

بالفعل، كانت يد ميكي المكسوّة بالقفّاز مرفوعة عالياً فوق رأسه، وسبّابته تشير إلى الأعلى مباشرة تقريباً. *ثلاث دقائق بعد*.

جلس لانغدون إلى المكتب بسرعة، وانضمّت إليه أمبرا عند آخر جهاز كمبيوتر في السلسلة، وكان عبارة عن صندوق قبيح الشكل بلون الفطر مزوّد بفتحة للقرص المرن ومودم هاتف بقوّة 1.200 باود، فضلاً عن شاشة محدّبة بحجم اثني عشر إنشاً موضوعة على سطحه.

قال وينستون: "تاندي TRS-80، أوّل جهاز كمبيوتر لدى إدموند. اشتراه وعلّم نفسه لغة بايزيك عندما كان في الثامنة من عمره".

فرح لانغدون عندما رأى أنّه نجح في تشغيل هذا الكمبيوتر، على الرغم من قدمه، وكان ينتظر. أضاءت شاشته السوداء والبيضاء وتوهّجت برسالة واعدة، كُتبت بخطّ متقطّع.

أهلاً، إدموند.

يرجى إدخال كلمة السرّ:

بعد عبارة كلمة "السرّ"، راح مؤشّر أسود يومض بترقّب.

سأل لانغدون وهو يشعر أنّ كلّ شيء كان بسيطاً للغاية: "أهذا كلّ شيء؟ هل أدخلها هنا؟".

أجاب وينستون: "تماماً. فما إن تدخل كلمة السرّ حتى يُرسل هذا الجهاز رسالة فتح للقسم المقفل في الكمبيوتر الرئيس الذي يحتوي على عرض إدموند. بعد ذلك، سيكون عليّ الدخول لإدارة التغذية، وتوقيتها مع بداية الساعة، ومن ثمّ دفع البيانات إلى قنوات التوزيع الرئيسة كافة لإعادة بثّها عالمياً".

أصغى لانغدون إلى الشرح إلى حدّ ما، ولكنّه مع ذلك حدّق إلى جهاز الكمبيوتر ومودم الهاتف القديم وشعر بشيء من الحيرة. "لا أفهم يا وينستون، فبعد كلّ التخطيط الذي قام به إدموند الليلة، لماذا يوكل محاضرته بأكملها لاتّصال هاتفي بمودم عفا عليه الزمن؟".

أجاب وينستون: "برأيي، هذا إدموند. فكما تعلم، كان مولعاً بالدراما والرمزية والتاريخ، وأعتقد أنّ تشغيل أوّل جهاز كمبيوتر له واستخدامه لإطلاق أعظم اكتشافاته في الحياة جلب له فرحة كبيرة".

هذا ممكن. أدرك لانغدون أنّ إدموند كان سيرى الأمور فعلاً على هذا النحو.

أضاف وينستون: "بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنّه كان يملك إجراءات طوارئ، ولكن في جميع الحالات ثمّة منطق في استخدام جهاز كمبيوتر قديم لمجرّد تحريك بدّالة. فالمهام البسيطة تتطلّب أدوات بسيطة. ومن الناحية الأمنية، إنّ استخدام معالج بطيء يضمن أن تستغرق محاولات قرصنة النظام وقتاً هائلاً".

"روبرت". حثّته أمبرا من خلفه وهي تضغط على كتفه مشجّعة.

"أجل، أنا آسف. كلّ شيء جاهز". سحب لانغدون لوحة مفاتيح تاندي إليه، فشدّ السلك الموصول به والذي بدا أشبه بسلك هاتف قديم. وضع أصابعه على المفاتيح البلاستيكية وتخيّل بيت الشعر المكتوب بخطّ اليد الذي اكتشفاه هو وأمبرا في قبو ساغرادا فاميليا.

The dark religions are departed & sweet science reigns.

زال الإيمان المظلم وساد العلم النقيّ.

بدت خاتمة قصيدة وليم بليك الملحمية، *الحيوانات الأربعة*، خياراً مثالياً لإطلاق الاكتشاف العلمي الأخير لإدموند، والذي ادّعى أنّه سيغيّر كلّ شيء.

أخذ لانغدون نفساً عميقاً وطبع بعناية البيت الشعري، من دون مسافات فاصلة بين الكلمات، مستبدلاً أداة العطف بكلمة *et*.

وعندما انتهى، نظر إلى الشاشة.

يرجى إدخال كلمة السرّ:

قام لانغدون بعدّ النقاط، وكان مجموعها سبعة وأربعين.

ممتاز، لم يحدث شيء.

نظر لانغدون إلى أمبرا التي أومأت برأسها. فمدّ يده وضغط على زرّ العودة.

وعلى الفور، أصدر الكمبيوتر أزيزاً.

كلمة السرّ خاطئة.

حاوِل مجدّداً.

أخذ قلب لانغدون ينبض بعنف.

"أمبرا، لقد طبعتها بشكل صحيح! أنا واثق من ذلك!"، ثمّ استدار في كرسيّه ونظر إليها متوقّعاً أن يرى ملامح الخوف تكسو وجهها.

ولكن، عوضاً عن ذلك، حدّقت إليه أمبرا فيدال وهي تبتسم، ثمّ هزّت رأسها وضحكت.

همست مشيرة إلى لوحة المفاتيح: "بروفيسور، قفل المفاتيح مشغَّل".

في تلك اللحظة، في أعماق الجبل، وقف الأمير جوليان يحدّق ذاهلاً عبر البازيليك المبنيّة تحت الأرض، ويحاول أن يفهم المشهد المحيّر أمامه. فقد كان والده، ملك إسبانيا، جالساً بلا حراك على كرسيّ متحرّك في أبعد زاوية من هذه البازيليك.

اندفع إليه جوليان بخوف قائلاً: "أبي".

مع وصول جوليان، فتح الملك عينيه، وبدا وكأنّه يستيقظ من غفوة قصيرة. تمكّن الملك المريض من رسم ابتسامة خفيفة على شفتيه، ثمّ همس بصوت ضعيف: "شكراً لمجيئك يا بنيّ".

ركع جوليان أمام الكرسيّ المتحرّك وقد شعر بالارتياح لأنّ والده على قيد الحياة، ولكنّه انزعج من مدى تدهور صحّة الرجل خلال بضعة أيّام وحسب. "أبي، هل أنت بخير؟".

هزّ الملك كتفيه وأجاب بمرح مفاجئ: "بخير قدر الإمكان. كيف حالك؟ كان يومك... حافلاً بالأحداث".

لم يعرف جوليان بماذا يجيب. "ماذا تفعل هنا؟".

"في الواقع، سئمت من المستشفى ورغبت في استنشاق بعض الهواء".

"عظيم، لكن... هنا؟". كان جوليان يعرف أنّ والده يمقت الرابط الرمزي لهذا الضريح بالاضطهاد والتعصّب.

قال الأسقف فالديسبينو وهو يأتي مسرعاً من حول المذبح للانضمام إليهما وهو يلهث: "جلالة الملك! لكن، ما الذي أتى بك إلى هنا؟".

ابتسم الملك لصديقه القديم وقال: "أنطونيو، أهلاً بك".

أنطونيو؟ لم يسبق لجوليان أن سمع والده يخاطب الأسقف باسمه الأوّل. فلطالما خاطبه علناً بلقب "نيافة الأسقف".

بدا أنّ سلوك الملك غير الرسمي أربك الأسقف، فأجاب متلعثماً: "شكراً... هل أنت بخير؟".

أجاب الملك وهو يبتسم ابتسامة عريضة: "إنّني بأحسن حال. فأنا برفقة أكثر شخصين أثق بهما في العالم".

وجّه فالديسبينو نظرة اضطراب إلى جوليان، ثمّ التفت مجدّداً إلى الملك. "يا صاحب الجلالة، لقد أوصلتُ ابنك إليك كما طلبت، هل أرحل الآن وأترككما بمفردكما؟".

قال الملك: "كلّا يا أنطونيو. فأنا أريد أن أدلي باعتراف، وأحتاج إلى وجود كاهني إلى جانبي".

فهزّ فالديسبينو رأسه معترضاً. "أنا لا أعتقد أنّ ابنك يتوقّع منك أن تُبرّر له تصرّفاتك وسلوكك هذه الليلة. أنا واثق أنّه–"

ضحك الملك قائلاً: "الليلة! كلّا يا أنطونيو، أنا أريد الاعتراف بسرّ أخفيته عن جوليان طوال حياته".

الفصل 89

ConspiracyNet.com

خبر عاجل

الكنيسة تحت الهجوم!

كلّا، ليس من قبل إدموند كيرش، بل من قبل الشرطة الإسبانية!
كنيسة توري جيرونا في برشلونة مطوّقة حالياً من قبل السلطات المحلّية.
في الداخل، يُعتقَد أنّ روبرت لانغدون وأمبرا فيدال سيكونان المسؤولين عن الإطلاق الناجح لإعلان إدموند كيرش المنتظر على نطاق واسع، والذي سيُبثّ في غضون دقائق وحسب.
لقد بدأ العدّ التنازلي!

الفصل 90

شعرت أمبرا فيدال بفرحة عارمة وهي ترى جهاز الكمبيوتر القديم يطنّ بعد محاولة لانغدون الثانية لإدخال بيت الشعر.

كلمة السرّ صحيحة.

الحمد لله. في هذا الوقت، وقف لانغدون والتفت إليها، فأحاطته بذراعيها فوراً، واحتضنته بقوّة. *سيكون إدموند ممتنّاً لنا.*

قال وينستون: "دقيقتان وثلاث وثلاثون ثانية".

أفلتت أمبرا لانغدون، والتفتا إلى شاشات إل سي دي فوق رأسيهما. كانت الشاشة المركزية تعرض العدّ التنازلي الذي رأته أمبرا في غوغنهايم.

يبدأ البرنامج الحيّ بعد دقيقتين وثلاث وثلاثين ثانية

الحضور الحالي عن بعد: 227,257,914

دُهِشت أمبرا. *أكثر من مائتي مليون شخص!* من الواضح أنّها بينما كانت هي ولانغدون يفرّان في أرجاء برشلونة، عرف بهما العالم بأسره. *أصبح عدد جمهور إدموند فلكياً.*

إلى جانب شاشة العدّ التنازلي، استمرّ عرض لقطات حيّة لكاميرات المراقبة، ولاحظت تحوّلاً مفاجئاً في نشاط عناصر الشرطة في الخارج. فالعملاء الذين كانوا يطرقون على الأبواب ويتحدّثون على أجهزة اللاسلكي توقّفوا فجأة، ثمّ أخرجوا هواتفهم الذكية وراحوا يحدّقون إليها. تحوّل الفناء خارج الكنيسة تدريجياً إلى بحر من الوجوه الشاحبة والمتلهّفة التي يضيئها وهج الهواتف المحمولة.

لقد جعل إدموند العالم يتوقّف. شعرت أمبرا بإحساس مخيف بالمسؤولية لأنّ الناس في جميع أنحاء العالم كانوا يستعدّون لمشاهدة العرض الذي سيُبثّ من هذه الغرفة بالذات. *أتساءل عما إذا كان جوليان يشاهد.* لكن سرعان ما طردته من عقلها.

قال وينستون: "لقد تمّ تجهيز البرنامج. أعتقد أنكما ستكونان أكثر ارتياحاً بالمشاهدة في غرفة جلوس إدموند في الطرف الآخر من هذا المختبر".

قال لانغدون: "شكراً لك يا وينستون". ورافق أمبرا على الأرض الزجاجية حافيَين، مروراً بالمكعّب المعدني بلونه الرمادي المائل إلى الزرقة، ووصولاً إلى غرفة جلوس إدموند.

هناك، غطّت سجّادة شرقية الأرض الزجاجية مع مجموعة من الأثاث الأنيق، فضلاً عن درّاجة للتمارين الرياضية.

وقفت أمبرا على السجّادة وشعرت بالاسترخاء يغزو جسدها. جلست على الأريكة ووضعت قدميها تحتها، ثمّ بحثت عن تلفاز إدموند. "أين سنشاهد؟".

لم يسمعها لانغدون على ما يبدو، وذلك لأنّه ذهب إلى زاوية الغرفة لينظر إلى شيء ما، لكنّ أمبرا حصلت إلى الإجابة فوراً عندما توهّج الجدار الخلفي بأكمله من الداخل. ثمّ ظهرت صورة مألوفة يتمّ عرضها من داخل الزجاج.

يبدأ البرنامج الحيّ بعد دقيقة وتسع وثلاثين ثانية

الحضور الحالي عن بعد: 227,501,173

الجدار بأكمله عبارة عن شاشة عرض!

حدّقت أمبرا إلى الصورة البالغ طولها ثماني أقدام، في حين انطفأت أضواء الكنيسة ببطء. يبدو أنّ وينستون كان يوفّر لهما الأجواء المناسبة لمشاهدة عرض إدموند الكبير.

على بعد عشر أقدام في زاوية الغرفة، وقف لانغدون وقد سيطر عليه الذهول التامّ، ليس بسبب شاشة التلفزيون الضخمة، بل بسبب شيء صغير وقع نظره عليه. كان معروضاً على قاعدة أنيقة كما لو أنّه قطعة معروضة في متحف.

وُضِع أمامه أنبوب اختبار في صندوق عرض معدني مع واجهة زجاجية. كان الأنبوب مغلقاً ويحمل ملصقاً، ويحتوي على سائل داكن بنّي اللون. للحظة، تساءل عمّا إذا كان هذا دواء من أدوية إدموند. ثمّ قرأ الاسم المكتوب على الملصق.

هذا مستحيل! ما سبب وجود هذا الأنبوب هنا؟!

لا يوجد في العالم سوى عدد قليل جدّاً من أنابيب الاختبار "الشهيرة"، ولكنّ لانغدون يعرف أنّ هذا الأنبوب واحد منها بالتأكيد. *لا أصدّق أنّ إدموند يملك واحداً منها!* لا بدّ أنّه قام بشراء هذه التحفة العلمية سرّاً بثمن باهظ. *تماماً كما اشترى لوحة غوغان المعلّقة في كازا ميلا.*

انحنى وحدّق إلى القارورة الزجاجية التي يبلغ عمرها سبعين عاماً. كان الملصق قد أصبح بالياً وباهت اللون، لكنّ الاسمَين المكتوبين عليه ما زالا مقروءين: ميلر–أوري.

اقشعرّ جسد لانغدون وهو يقرأ الاسمين مجدّداً.

ميلر –أوري.

ربّاه... من أين أتينا؟

كان الكيميائيان ستانلي ميلر وهارولد أوري قد أجريا تجربة علمية أسطورية في خمسينيات القرن الماضي، في محاولة للإجابة عن هذا السؤال تحديداً. وقد فشلت تجربتهما الجريئة، لكنّ جهودهما لاقت تأييداً في جمع أنحاء العالم، وعُرِفت منذ ذلك الحين بتجربة ميلر –أوري.

تذكّر لانغدون كيف تسمّر في مقعده في صفّ علم الأحياء في المدرسة الثانوية وهو يسمع كيف حاول هذان العالمان تقليد الظروف التي كانت موجودة في فجر تكوّن الأرض التي كانت كوكباً ساخناً مغطّى بمحيط مغليّ من الكيميائيات وخالٍ تماماً من الحياة.

الحساء البدائي.

بعد وضع الكيميائيات التي كانت موجودة في المحيطات الأولى وفي الغلاف الجوّي؛ أي الماء والميثان والأمونيا والهيدروجين، قام ميلر وأوري بتسخين المزيج لمحاكاة البحار المغليّة. بعد ذلك، قاما بصدمه بشحنات كهربائية لمحاكاة البرق. وأخيراً، تركا المزيج يبرد؛ تماماً كما بردت محيطات كوكبنا.

درس ميلر وأوري المزيج الغنيّ بالكيميائيات، لكن لم تتكوّن الكائنات البدائية الدقيقة فيه. عوضاً عن ذلك، لم تتبقَّ لديهما سوى مجموعة من القوارير الزجاجية الخاملة المحفوظة الآن في خزانة مظلمة في جامعة كاليفورنيا في سان دييغو. وهكذا، باءت محاولاتهما بالفشل.

حتّى هذا اليوم، ما زال الخلقويون يعتبرون تجربة ميلر وأوري الفاشلة دليلاً علمياً على أنّ الحياة لا يمكن أن تظهر على الأرض من دون إرادة الله.

علا صوت وينستون فوق رأسه: "ثلاثون ثانية".

دارت أفكار لانغدون وهو ينهض ويحدّق إلى الكنيسة المظلمة حولهما. منذ دقائق، قال وينستون إنّ أعظم الاختراقات العلمية هي تلك التي أعطت "نماذج" جديدة للكون. وقال أيضاً إنّ مارينوستروم متخصّص في النمذجة الحاسوبية، أي محاكاة أنظمة معقّدة ومراقبتها وهي تعمل. *تجربة ميلر وأوري مثال على النمذجة المبكرة... وهي تحاكي التفاعلات الكيميائية المعقّدة التي كانت في بدايات الأرض.*

نادته أمبرا: "روبرت! لقد بدأ".

أجابها: "أنا آتٍ". وذهب إلى الأريكة وقد غمره فجأة إحساس بالشكّ من أنّه قد يكون استرق نظرة إلى جزء ممّا كان إدموند يعمل عليه.

بينما كان لانغدون يسير على الأرض، تذكّر مقدّمة إدموند الدراماتيكية التي شاهدها وهو ممدّد على العشب في متحف غوغنهايم. قال: *لنكن مثل المستكشفين الأوائل، الذين تركوا كلّ شيء وراءهم وأبحروا في المحيطات الشاسعة. لقد شارف عصر الإيمان على نهايته وأشرق فجر العلم. تخيّلوا وحسب ما يمكن أن يحدث إن توصّلنا بأعجوبة إلى إجابات عن أسئلة الحياة الكبيرة.*

ما إن جلس لانغدون إلى جانب أمبرا حتّى بدأت الشاشة الكبيرة تعرض العدّ التنازلي النهائي.

نظرت إليه أمبرا قائلة: "هل أنت بخير يا روبرت؟".

هزّ رأسه في اللحظة التي ضجّت فيها الموسيقى الدراماتيكية في الغرفة، وظهر وجه إدموند على الجدار أمامهما، بطول خمس أقدام. بدا العالِم المستقبلي الشهير نحيلاً ومتعباً، ولكنّه كان يبتسم للكاميرا.

سأل والحماسة بادية في صوته مع انخفاض صوت الموسيقى: "من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟".

أمسكت أمبرا بيد لانغدون وشدّت عليها بحماسة.

أعلن إدموند: "هذان السؤالان جزء من القصّة نفسها، لذلك دعونا نبدأ من البداية".

وبإيماءة رأس مرحة، مدّ إدموند يده إلى جيبه وأخرج شيئاً زجاجياً صغيراً، قارورة من السائل الداكن التي تحمل الاسمين الباهتين ميلر وأوري.

شعر لانغدون بنبضه يتسارع.

"بدأت رحلتنا منذ زمن سحيق... أربع مليارات سنة قبل المسيح".

الفصل 91

جلس لانغدون على الأريكة إلى جانب أمبرا، وراح يتأمّل وجه إدموند على جدار العرض الزجاجي. شعر بشيء من الحزن وهو يدرك أنّ إدموند كان يعاني بصمت من مرض عضال. لكن هذه الليلة، كانت عينا العالم المستقبلي تشعّان فرحاً.

قال إدموند وهو يحمل أنبوب الاختبار: "سأخبركم بعد برهة عن هذه القارورة الصغيرة. لكن أولاً، دعونا نعود إلى البداية".

اختفى إدموند، وومض برق أضاء محيطاً يغلي بسبب الجزر البركانية التي كانت تصبّ حممها ورمادها في جوّ عاصف.

سأل إدموند: "كيف بدأت الحياة؟ مع الأسف، لا يمكننا العودة في الزمن إلى الوراء لنشهد تلك اللحظة. ونحن لا نعرف سوى ما حدث بعدها؛ عندما ظهرت الحياة للمرّة الأولى. حدث التطوّر، واعتدنا على رؤيته مصوَّراً على هذا النحو".

أظهرت الشاشة الآن الجدول الزمني المعروف.

قال إدموند: "أجل، هذه نظرية علمية مبنية على سجل الأحافير. لكن، ماذا لو استطعنا مشاهدتها بشكل معكوس؟".

فجأة، بدأت صورة إدموند تتغير وتحوّل إلى إنسان بدائي، ثمّ تسارعت الصور بشكل هائل، وظهرت لمحات لأنواع أقدم فأقدم، كالليمور، والكسلان، والجرابيات، وخلد الماء، والسمكة الرئوية، والتي راحت تغوص تحت الماء وتتحوّل إلى ثعابين، وأسماك، ومخلوقات هلامية، وعوالق، وأميبا، إلى أن لم تتبقَّ سوى باكتيريا مجهرية، خلية أحادية تنبض في محيط كبير.

قال إدموند: "هذه أقدم نقاط الحياة. هنا ينتهي العرض المعكوس لرحلتنا. فنحن لا نملك أيّ فكرة عن كيفية تكوّن الأشكال الأولى للحياة انطلاقاً من بحر كيميائي لا حياة فيه. ببساطة، لا يمكننا أن نرى الإطار الأوّل لهذه القصّة".

فكّر لانغدون: *الزمن = صفر*. وتخيّل شريطاً سينمائياً معكوساً كهذا عن توسّع الكون، وفيه انكمش الكون إلى نقطة ضوء واحدة، وقد توصّل علماء الكون إلى طريق مسدود مشابه.

قال إدموند: "لم تستطع النظريات العلمية شرح ما حدث في البداية. بتعبير آخر، وصفت كيفية بقاء الأصلح، ولكنّها لم تكشف كيفيّة وصول الأصلح".

ضحك لانغدون، إذ كانت تلك هي المرّة الأولى التي تُعرَض فيها هذه المسألة على هذا النحو.

"من أين أتينا؟". ابتسم إدموند. "مهما بدا لكم الجواب مدهشاً، إلّا أنّه ليس سوى نصف القصّة هذه الليلة". ونظر مباشرة إلى الكاميرا، وابتسم ابتسامة غامضة وتابع: "فكما تبيّن، المستقبل صادم تماماً".

تبادل لانغدون وأمبرا نظرة حيرة، ومع أنّ لانغدون شعر أنّ هذه الجملة مبالغ فيها من جانب إدموند، إلّا أنّه مع ذلك أحسّ باضطراب متزايد.

تابع إدموند: "الأصل... منذ آلاف السنين والفلاسفة والعلماء يبحثون عن سجلّ ما للحظة البداية تلك".

حمل إدموند الآن أنبوب الاختبار المألوف الذي يحتوي على السائل الداكن. "في خمسينيات القرن المنصرم، أجرى باحثان كيميائيان، ميلر وأوري، تجربة جريئة".

مال لانغدون وهمس لأمبرا: "أنبوب الاختبار هذا موجود هنا". وأشار إلى منصّة العرض في الزاوية.

فبدت عليها الدهشة. "ولماذا يملك إدموند هذا الأنبوب؟".

هزّ لانغدون كتفيه. فبالنظر إلى مجموعة الأشياء الغريبة الموجودة هنا، تبدو هذه القارورة مجرّد قطعة من التاريخ العلمي التي أراد امتلاكها.

وصف إدموند بسرعة جهود ميلر وأوري.

أظهرت الشاشة الآن مقالة من *نيويورك تايمز* بتاريخ 8 مارس 1953 تحت عنوان "العودة إلى الوراء ملياري عام".

قال إدموند: "بالطبع، أثارت هذه التجربة بعض الاستغراب. فتداعيات ذلك كانت ستهزّ العالم، لا سيّما العالم الديني. فلو أنّ كائنات مجهرية ظهرت في أنبوب الاختبار هذا، لاستنتجنا بشكل حاسم أنّ لقوانين الكيمياء دوراً أساسياً. إنها قوانين الطبيعة. والأهمّ، لاستنتجنا أنّه بما أنّ الحياة ظهرت هنا على وجه الأرض، فهذا سيحدث بالتأكيد في مكان آخر من هذا الكون".

تنهّد إدموند. "مع ذلك، وكما يعلم كثيرون منكم، باءت تجربة ميلر–أوري بالفشل. فقد أنتجت بضعة أحماض أمينية، ولكنّها لم تأتِ بشيء يشبه الحياة ولو من بعيد. حاول الكيميائيون تكراراً استخدام تركيبات مختلفة من المكوّنات، وأنماط حرارة مختلفة، لكن بلا جدوى. وبدا لهم أنّ الحياة– كما اعتقد المؤمنون طويلاً– تحتاج إلى تدخّل إلهي. وفي نهاية المطاف، تخلّى ميلر وأوري عن تجاربهما، وتنفّس المجتمع الديني

الصعداء، فيما عاد المجتمع العلمي إلى لوحة الرسم". صمت قليلاً، ثمّ لمعت عيناه بمرح قبل أن يضيف: "هذا حتّى عام 2007... عندما حدث تطوّر غير متوقّع".

أخبرهم إدموند الآن كيف أُعيد اكتشاف قارورة اختبار ميلر-أوري المنسيّة في خزانة في جامعة كاليفورنيا في سان دييغو بعد وفاة ميلر. فأعاد تلامذته تحليل العيّنات باستخدام تقنيات معاصرة أكثر دقّة، بما في ذلك الكروماتوغرافيا؛ وهي عمليّة فصل المواد من مركّب معيّن، وقياس الطيف الكتلي، وكانت النتائج مذهلة. على ما يبدو، أنتجت تجربة ميلر-أوري الأصلية العديد من الأحماض الأمينية والمركّبات المعقّدة التي فاقت ما استطاع ميلر قياسه في ذلك الوقت. حتّى إنّ التحليل الجديد للقوارير وجد عدّة قواعد نووية هامّة، وهي أحجار بناء الحمض النووي الريبي RNA وربّما لاحقاً... الحمض النووي DNA.

استنتج إدموند: "كانت قصّة علمية مذهلة أجازت طرح الفكرة مجدّداً. ويبدو أنّ تجربة ميلر-أوري قد نجحت بالفعل، ولكنّها احتاجت إلى المزيد من الوقت لتتبلور. دعونا نتذكّر نقطة أساسيّة: لقد تطوّرت الحياة على مدى مليارات السنين، في حين أنّ أنابيب الاختبار هذه كانت نائمة في خزانة لخمسين عاماً وحسب. ولو قُدّر لجدول هذه التجربة أن يقاس بالأميال، فإنّ منظورنا لن يقتصر سوى على أوّل بوصة وحسب...".

وصمت ليترك للمشاهدين المجال لاستيعاب تلك الفكرة.

"غنيّ عن القول إنّ اهتماماً مفاجئاً ظهر مجدّداً بفكرة توليد بكتيريا في مختبر".

أنا أنكر ذلك. فقد تذكّر لانغدون أنّ كلّية علم الأحياء في هارفارد أقامت حفلاً تحت عنوان BYOB: قم ببناء الباكتيريا الخاصّة بك.

قال إدموند: "وحدثت بالطبع ردود فعل قويّة من الزعماء الدينيين الحديثين". ووضع علامات اقتباس في الهواء عندما قال كلمة "حديثين".

ظهرت على جدار العرض الصفحة الرئيسة لموقع creation.com، وعرفه لانغدون على الفور لأنّ إدموند كان معتاداً على استهدافه بالسخرية والغضب. كانت المنظّمة بالفعل عالية النبرة في تبشيرها الخلقوي، ولكنّها لم تكن مثالاً عادلاً عن "العالَم الديني الحديث".

عرّف الموقع مهمّته على النحو التالي: "إعلان حقيقة الكتاب المقدّس وسلطته، وتأكيد مصداقيّته، لا سيّما تاريخ سفر التكوين".

قال إدموند: "هذا الموقع شعبي ونافذ، كما يحتوي على عشرات المدوّنات حول مخاطر إعادة النظر في عمل ميلر-أوري. ولحسن حظّ أصحاب creation.com، ليس لديهم ما يخشونه. فحتّى لو نجحت هذه التجربة، فإنّ ذلك لن يحدث قبل ملياري سنة أخرى على الأرجح".

حمل إدموند أنبوب الاختبار قائلاً: "كما تتخيّلون، ما من شيء أحبّ إلى قلبي من السفر في الزمن ملياري عام إلى الأمام، وإعادة فحص أنبوب الاختبار هذا. لكن لسوء الحظّ، سيحتاج تحقيق ذلك إلى آلة زمن". صمت وبدت على وجهه تعابير التعب. "لذلك... قمت ببناء آلة".

نظر لانغدون إلى أمبرا التي كانت بالكاد قد تحرّكت منذ بدء العرض. كانت عيناها السوداوان مثبّتتين على الشاشة.

قال إدموند: "ليس من الصعب بناء آلة الزمن. دعوني أريكم ما أعنيه".

ظهرت قاعة مهجورة، دخلها إدموند وانتقل إلى طاولة بليار. كانت الكرات مصفوفة في الشكل المثلّث الاعتيادي، تنتظر أن يبدأ أحد ما باللعب. تناول إدموند عصا بليار، ثمّ مال فوق الطاولة، وضرب بقوّة الكرة الأساسية. فاندفعت باتّجاه مجموعة الكرات المنتظرة.

قبل لحظة من ارتطامها بمجموعة الكرات، صاح إدموند: "قفي!".

فتوقّفت الكرة في مكانها بشكل سحري قبل لحظة من ارتطامها بباقي الكرات.

قال إدموند وهو يرمق الطاولة التي تجمّدت عليها الكرة: "الآن، إن طلبت منكم توقّع الكرات التي ستسقط في الثقوب، هل تستطيعون ذلك؟ بالطبع كلّا. فثمّة آلاف الاحتمالات الممكنة. لكن، ماذا لو كانت لديكم آلة زمن، واستطعتم الانتقال خمس عشرة ثانية إلى المستقبل، وملاحظة ما سيحدث مع كرات البليار، ومن ثمّ العودة؟ صدّقوا أو لا تصدّقوا يا أصدقائي، فقد بتنا نملك التكنولوجيا اللازمة لفعل ذلك".

أشار إدموند إلى سلسلة من الكاميرات الصغيرة على أطراف الطاولة. "باستخدام أجهزة استشعار بصرية لقياس سرعة الكرة الأساسيّة، ودورانها، واتّجاهها، ومحور الدوران أثناء حركتها، يمكنني الحصول على لقطة حسابية لحركة الكرة في أيّ لحظة معيّنة. وبتلك اللقطة، يمكنني إعطاء توقّعات دقيقة للغاية حول حركتها المستقبلية".

تذكّر لانغدون أنّه استخدم جهازاً لمحاكاة الغولف في إحدى المرّات يستعمل تكنولوجيا مشابهة ليتوقّع بدقّة مذهلة ومحبطة ميله إلى توجيه كرات الغولف نحو الغابة.

أخرج إدموند الآن هاتفاً ذكياً كبيراً. وعلى الشاشة، كان من الممكن رؤية صورة مطابقة لطاولة البليار مع كراتها المتوقّفة في مكانها، هذا فضلاً عن سلسلة من المعادلات الرياضية فوق الكرة الأساسيّة.

قال إدموند: "بما أنّنا نعرف كتلة الكرة بالضبط وموقعها وسرعتها، يمكنني حساب تفاعلاتها مع الكرات الأخرى وتوقّع النتيجة". لمس الشاشة، فتحرّكت الكرة الأساسيّة، وارتطمت بمجموعات الكرات المنتظرة، وبعثرتها، ملقية بأربع كرات في أربعة ثقوب مختلفة.

قال إدموند وهو يرمق الهاتف: "أربع كرات. يا لها من ضربة جيّدة". ثمّ التفت إلى الحضور وقال: "ألا تصدّقونني؟".

طقطق بأصابعه فوق طاولة البليار الحقيقية فانطلقت الكرة الأساسيّة، وعبرت الطاولة، ثمّ ارتطمت بالكرات الأخرى مصدرة صوتاً عالياً وبعثرتها. وأخيراً، سقطت الكرات الأربع نفسها في الثقوب الأربعة نفسها.

قال إدموند مبتسماً: "هذه ليست بالضبط آلة زمن، ولكنّها تمكّننا بالفعل من توقّع بعض الأمور المستقبلية. بالإضافة إلى ذلك، إنّها تسمح لي بتعديل قوانين الفيزياء. فعلى سبيل المثال، يمكنني إزالة الاحتكاك حيث لا تتباطأ الكرات إطلاقاً... بل تستمرّ بالتدحرج باستمرار إلى أن تسقط جميع الكرات كلّ منها في ثقب".

ضغط على بضعة أزرار، ثمّ أطلق مشهد المحاكاة مجدّداً. هذه المرّة، بعد الارتطام، لم تتباطأ الكرات المرتدّة، بل قفزت بجنون في أرجاء الطاولة، وسقطت في الثقوب عشوائياً، إلى أن لم يتبقّ سوى كرتين تدوران على الطاولة.

قال إدموند: "وإن تعبت من انتظار هاتين الكرتين الأخيرتين حتّى تسقطا في آخر ثقبين، فبإمكاني تسريع العمليّة إلى الأمام". ولمس الشاشة، فتسارعت الكرتان وأخذتا تقفزان في أرجاء الطاولة إلى أن سقطتا أخيراً في ثقبين. "وهكذا، يمكنني أن أتوقع المستقبل قبل وقت طويل من حدوثه. إذ تشكّل المحاكاة الحاسوبية آلة زمن افتراضية فعلاً". صمت قليلاً. "بالطبع، هذه مجرّد رياضيات بسيطة إلى حدّ ما في نظام صغير مغلق مثل طاولة البليار. لكن، ماذا لو انتقلنا إلى نظام أكثر تعقيداً؟".

حمل إدموند قارورة ميلر–أوري وابتسم: "أعتقد أنّكم تستطيعون أن تروا إلى أين سأصل مع هذا الأنبوب. فالمحاكاة الحاسوبية نوع من آلات الزمن، وهي تتيح لنا أن نتوقع ما قد يحصل في المستقبل... ربّما حتّى بعد مليارات السنوات".

تحرّكت أمبرا على الأريكة، من دون أن يبارح نظرها وجه إدموند.

قال إدموند: "كما تتخيّلون، أنا لست أوّل عالم يحلم بصنع نموذج للحساء البدائي. من حيث المبدأ، التجربة بديهية. لكن عند الممارسة، تتبيّن أنها كابوس معقّد".

ظهرت بحار بدائية هائجة مجدّداً بين البرق، والبراكين، والأمواج العاتية. "تتطلّب نمذجة كيمياء المحيط محاكاة على مستوى الذرّة. فيكون الأمر مثل توقّع الطقس بدقّة حيث نعرف الموقع المحدّد لكلّ ذرّة هواء في أيّ لحظة معيّنة. وأيّ محاكاة مجدية للبحر البدائي ستتطلّب بالتالي جهاز كمبيوتر لفهم ليس قوانين الفيزياء فحسب– من حركة وديناميكا حرارية وجاذبية وحفاظ على الطاقة وما إلى ذلك– بل الكيمياء أيضاً؛ لكي تتمّ إعادة إنشاء الروابط الدقيقة التي ستتشكّل بين كلّ ذرّة داخل محيط مغليّ".

غاص المشهد الذي يعلو المحيط إلى ما تحت الأمواج، وتمّ تكبير نقطة واحدة من الماء، وفيها كانت دوّامة مضطربة من الذرّات والجزيئات الافتراضية تترابط وتنفصل.

قال إدموند وهو يظهر مجدّداً على الشاشة: "لسوء الحظّ، تتطلّب محاكاة هذا العدد الكبير من التبدّلات مستوى هائلاً من طاقة المعالجة، يتجاوز قدرة أيّ جهاز كمبيوتر على سطح الأرض". ومضت عيناه بحماسة قبل أن يضيف: "هذا... باستثناء جهاز كمبيوتر واحد".

وتصاعد صوت أرغن يعزف الافتتاحية الشهيرة لمقطوعة باخ، توكاتا أند فيوغ، على وتر D الصغرى مع صورة بزاوية عريضة مذهلة لكمبيوتر إدموند الضخم المؤلّف من طابقين.

همست أمبرا وهي تتحدّث للمرة الأولى منذ دقائق: "إ-وايف".

حدّق لانغدون إلى الشاشة. *بالطبع... إنّه رائع.*

وعلى وقع موسيقى الأرغن الدراماتيكية، انطلق إدموند في جولة حماسية لتعريف الجمهور على جهاز الكمبيوتر العملاق، وكشف أخيراً النقاب عن "المكعّب الكمّي". بلغ الأرغن الذروة مع وتر هادر.

استنتج قائلاً: "خلاصة القول، إنّ إ-وايف قادر على إعادة إجراء تجربة ميلر-أوري في الواقع الافتراضي، بدقّة متناهية. وبما أنّني لا أستطيع بالطبع نمذجة محيط بدائي بأكمله، فقد أنشأت نظام الليترات الخمس المغلق نفسه الذي استخدمه ميلر وأوري".

ظهرت الآن قارورة افتراضية من الكيميائيات. ثمّ تمّ تكبير مشهد السائل وإعادة تكبيره إلى أن بلغ مستوى الذرّة، وظهرت الذرّات وهي تقفز في المزيج الساخن، وتترابط مراراً وتكراراً تحت تأثير الحرارة، والكهرباء، والحركة الفيزيائية.

"يتضمّن هذا النموذج كلّ ما عرفناه عن الحساء البدائي منذ تجربة ميلر-أوري، بما في ذلك الوجود المحتمل لجذور الهيدروكسيل من البخار المكهرب وكبريتيد الكربونيل من النشاط البركاني، فضلاً عن تأثير نظريّات الحدّ من الغلاف الجوّي".

استمرّ السائل الافتراضي على الشاشة بالغليان، وبدأت تتشكّل مجموعات من الذرّات.

قال إدموند بحماسة: "والآن، فلنقم بتسريع العمليّة..."، ثمّ تقدّم الشريط بسرعة مظهراً تكوّن مركّبات تزداد تعقيداً. "بعد أسبوع واحد، نبدأ برؤية الأحماض الأمينية نفسها التي رآها ميلر وأوري". تسارعت الصورة مجدّداً على نحو أكبر الآن. "ثمّ بعد ذلك... بعد حوالى خمسين عاماً، نبدأ برؤية لمحات من اللبنات الأساسيّة للحمض النووي الريبي".

استمرّ السائل بالغليان على نحو متسارع.

"وهكذا تركتُه يجري!". صاح إدموند بذلك بصوت أكثر ارتفاعاً.

اصطفّت الذرّات على الشاشة لتترابط، وازداد تعقيد البنى مع تعاقب القرون لتمضي آلاف ومن ثمّ ملايين السنوات. ومع تسارع الصور إلى الأمام بسرعة هائلة، قال إدموند بمرح: "واحزروا ماذا ظهر في هذه القارورة؟".

مال لانغدون وأمبرا إلى الأمام بترقّب.

فجأة، زالت الحماسة من صوت إدموند وهو يقول. "لا شيء على الإطلاق. لم تظهر أيّ حياة ولا أيّ تفاعل كيميائي تلقائي. لم تحدث لحظة نشوء، بل مجرّد مزيج مختلط من الكيميائيات الخالية من الحياة". تنهّد بيأس. "وهذا يدفعني إلى استنتاج منطقي واحد". وحدّق إلى الكاميرا وقال: "لقد باءت المحاولة بالفشل".

حدّق لانغدون إلى الشاشة باستغراب.

بعد لحظة، بدأت تظهر ابتسامة باهتة على وجه إدموند، وقال: "أو، ربّما فاتني مكوّن أساسي في هذه الوصفة".

الفصل 92

تسمّرت أمبرا فيدال في مكانها وهي تتخيّل ملايين الناس حول العالم وهم مستغرقون تماماً مثلها في مشاهدة محاضرة إدموند.

سأل إدموند الجمهور: "إذاً، ما هو المكوّن الذي غاب عني؟ لا فكرة لديّ، لذلك فعلتُ ما يفعله جميع العلماء الناجحين، وسألت شخصاً أكثر منّي ذكاء!".

ظهرت على الشاشة عالمة تضع نظّارة، الدكتورة كونستانس غيرهارد، عالمة كيمياء حيوية من جامعة ستانفورد. ضحكت العالمة وهي تهزّ رأسها. "لا يمكننا ذلك! هذه هي المشكلة! فعندما يتعلّق الأمر بتجاوز تلك العتبة التي تتحوّل فيها الكيميائيات الجامدة إلى كائنات حيّة، فإنّ عِلمنا يصطدم بالحائط. فما من آلية في الكيمياء تشرح كيفية حدوث ذلك. في الواقع، إنّ مفهوم تنظيم الخلايا لنفسها لتتحوّل إلى أشكال حياة يتعارض على ما يبدو بشكل مباشر مع قانون الإنتروبيا، أو العشوائية".

قال إدموند الذي بدا في تلك اللحظة وكأنّه على شاطئ جميل: *الإنتروبيا*. الإنتروبيا ليست سوى طريقة منمّقة للقول: الأمور تنهار. ففي لغة العِلم، نقول *النظام يتدهور حتماً*". ثمّ طقطق بأصابعه وظهر قصر رمال معقّد عند قدميه. "لقد قمت بتنظيم ملايين حبّات الرمل على شكل قصر. لنرَ كيف يشعر الكون حيال ذلك". بعد ثوانٍ، أتت موجة وأزالت القصر. "أجل، لقد عثر الكون على حبّات الرمل وأفسد نظامها، مبعثراً إيّاها على الشاطئ. هكذا تعمل الإنتروبيا. فالأمواج لا تتحطّم أبداً على الشاطئ وتنظّم حبّات الرمل على شكل قصر رملي. الإنتروبيا تذيب البنى. وقصور الرمل لا تظهر تلقائيّاً في الكون، بل تختفي وحسب".

طقطق إدموند بأصابعه مجدّداً وظهر في مطبخ أنيق. قال وهو يُخرِج كوباً ساخناً من الميكروويف: "عندما تسخّنون القهوة، فأنتم تركّزون الطاقة الحرارية في الكوب. وإن تركتم ذلك الكوب على الطاولة لساعة من الزمن، تتبدّد الحرارة في الغرفة وتنتشر بشكل متساوٍ؛ مثل حبّات الرمل على الشاطئ. هذه هي الإنتروبيا مجدّداً. وهذه العملية لا يمكن عكسها. فمهما انتظرتم، لن يعيد الكون تسخين قهوتكم بشكل سحري". ابتسم مضيفاً: "كما أنّه لن يعيد بيضة مخفوقة إلى ما كانت عليه، أو يعيد بناء قصر رملي هدمته الأمواج".

تذكّرت أمبرا أنّها رأت مرّة تحفة فنية تحمل عنوان *إنتروبيا*، وكانت عبارة عن صفّ من أحجار الإسمنت القديمة، وكلّ منها أكثر تفتّتاً من سابقه، إلى أن تصل إلى كومة متفتّتة تماماً من الأنقاض.

ظهرت الدكتورة جيرهارد مجدّداً. قالت": "نحن نعيش في كون إنتروبي، عالَم تغلب فيه العشوائية على قوانين الفيزياء وليس النظام. لذلك، السؤال المطروح هو التالي: كيف يمكن للكيميائيات الجامدة أن تنظّم نفسها بشكل سحري في أشكال حياة معقّدة؟ لم أجد يوماً جواباً علمياً عن هذا السؤال".

ظهر إدموند وهو يهزّ رأسه. "تثور أعصابي عندما أسمع أناساً أذكياء يتحدثون بهذا الشكل..." هزّ كتفيه مضيفاً: "أنا أعلم أنّهم يفعلون ذلك لأنّ العلم لا يملك ببساطة تفسيراً لبدايات الحياة".

حمل إدموند طبقاً ورقياً وُضعت عليه شظايا حديد مبعثرة. ثمّ أخرج مغناطيساً كبيراً وحمله تحت الطبق. وعلى الفور، زحفت الشظايا وتجمّعت في قوس منظّم، واصطفّت تماماً إلى جانب بعضها.

هذه المرّة، ظهر إدموند إلى جانب ترامبولين كبيرة. كانت على سطحها المشدود مئات قطع الرخام المبعثرة، وقال: "هذه مجموعة عشوائية من أحجار الرخام، والآن... "حمل كرة بولينغ ووضعها على حافة الترامبولين، ثمّ تركها تتدحرج إلى وسط القماش المطّاطي، فسبّب وزنها انخفاضاً عميقاً، وتجمّعت قطع الرخام المبعثرة في الانخفاض، مكوّنة دائرة حول الكرة. "ما هي القوّة التي نظّمت هذه الأحجار؟". وصمت إدموند قليلاً قبل أن يتابع: "ببساطة، إنّها الجاذبية وحسب".

ظهر الآن في صورة مقرّبة. "كما اتّضح لكم، الحياة ليست المثال الوحيد عن الكون الذي يولّد النظام. فالجزيئات غير الحيّة تنظّم نفسها دائماً في هياكل معقّدة".

ظهر مونتاج من الصور، دوّامة إعصار، حبّة ثلج، مجرى نهر، قطعة كريستال كوارتز، وحلقة زحل.

تنهّد إدموند قائلاً: "كما ترون، في بعض الأحيان، ينظّم الكون المادّة بالفعل؛ الأمر الذي يبدو معاكساً تماماً للإنتروبيا". تنهّد متابعاً: "إذاً، ما السبب؟ ما الذي يفضّله الكون؟ أهو النظام أم الفوضى؟".

ظهر إدموند مجدّداً وهو يسير في طريق باتّجاه القبّة الشهيرة لمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. "استناداً إلى معظم الفيزيائيين، الجواب هو الفوضى. فالإنتروبيا هي الأساس بالفعل، والكون يتفكّك باستمرار باتّجاه الفوضى. وهذه رسالة محبطة". صمت إدموند ثمّ التفت مبتسماً: "لكن اليوم، التقيت الفيزيائي الشابّ اللامع الذي يعتقد أنّه ثمّة حلقة مفقودة... قد تحمل الإجابة عن سؤالنا؟".

جيريمي إنغلاند؟!

ذُهل لانغدون عندما عرف اسم الفيزيائي الذي كان يصفه إدموند في تلك اللحظة. فأستاذ معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا البالغ من العمر ثلاثين عاماً ونيّفاً، كان حاليّاً يسبّب ضجّة في الوسط الأكاديمي في بوسطن، بعدما أثار ضجّة عالمية في حقل جديد يسمّى علم الأحياء الكمّي.

صدف أنّ جيريمي إنغلاند وروبرت لانغدون تعلّما في المدرسة الإعدادية نفسها، أكاديمية فيليب إكسيتير، وتعرّف لانغدون للمرّة الأولى على الفيزيائي الشابّ في مجلّة خرّيجي المدرسة، في مقالة تحت عنوان "التنظيم التكيّفي المعتمد على التبديد". ومع أنّ لانغدون قرأ المقالة بشكل سريع وفهمها بالكاد، إلّا أنّه يذكر كيف استغرب عندما عرف أنّ زميله السابق كان فيزيائياً لامعاً ومتديّناً بعمق، إذ كان يهودياً أرثوذكسياً.

بدأ لانغدون يفهم سبب اهتمام إدموند بعمل إنغلاند إلى هذا الحدّ.

ثم ظهر رجل آخر على الشاشة عرّفه على أنّه عالم الفيزياء في جامعة نيويورك، ألكسندر غروسبيرغ. قال غروسبيرغ: "أملنا الكبير أن يكون جيريمي إنغلاند قد حدّد المبدأ الفيزيائي الكامن وراء الأصل".

استقام لانغدون في جلسته عندما سمع ذلك، وكذلك فعلت أمبرا.

ظهر وجه آخر، وقال المؤرّخ إدوارد ج. لارسون الحائز على جائزة بولتزر: "إن كان إنغلاند قادراً على إثبات صحّة نظريّته، فإنّ اسمه سيبقى في محفوراً في ذاكرة الأجيال القادمة".

كان لانغدون قد سمع أنّ جيريمي إنغلاند أثار ضجّة، ولكنّه لم يعرف أنّ الأمور قد بلغت هذا الحدّ.

أضاف فيزيائي من كورنيل يدعى كارل فرانك: "كلّ ثلاثين عاماً أو نحو ذلك نشهد خطوات عملاقة إلى الأمام... وهذه قد تكون إحداها".

ظهرت الآن على الشاشة في تعاقب سريع سلسلة من العناوين التي تتناول أبحاث إنغلاند. واستمرّت قائمة العناوين، ورافقتها الآن مقتطفات من المجلّات العلمية الكبرى، وجميعها تعلن على ما يبدو الرسالة نفسها: "إن كان جيريمي إنغلاند قادر على إثبات نظريّته الجديدة، فإنّ الآثار المترتبة على ذلك ستهزّ العالَم، وليس فقط على صعيد العلم".

رمق لانغدون العنوان الأخير على الجدار، من مجلّة *صالون* على الإنترنت، بتاريخ 03 يناير 2015.

"العلم الجديد الذي روّع اليمين المسيحي".

أستاذ شابّ من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا يُنهي ما بدأه داروين، ويُهدِّد بإبطال كلّ ما هو عزيز على قلوب اليمينيين.

تجدّدت الشاشة، وظهر إدموند وهو يسير في رواق منشأة علمية جامعية. "إذاً، ما هي هذه الخطوة؟".

ابتسم إدموند وهو يتوقّف خارج باب كتب عليه: ENGLAND LAB@MITPHYSICS (مختبر إنغلاند).

"فلندخل ونسأل الرجل نفسه".

الفصل 93

ظهر الفيزيائي الشابّ جيريمي إنغلاند على جدار العرض. كان طويل القامة ونحيلاً جداً، ذا لحية غير مهذّبة وابتسامة هادئة. وقف أمام سبّورة مليئة بالمعادلات الرياضية.

قال إنغلاند بنبرة ودودة وغير مدّعية: "أوّلاً، دعوني أقول إنّ هذه النظريّة غير مثبتة، ولكنّها مجرّد فكرة". هزّ كتفيه بتواضع وتابع قائلاً: "مع أنّني أقرّ أنّنا إن أثبتنا صحّتها، فستكون تداعياتها بعيدة المدى".

وخلال الدقائق الثلاث التالية، أوضح الفيزيائي فكرته الجديدة التي كانت- مثل معظم المفاهيم المغيّرة للنماذج- بسيطة على نحو غير متوقّع.

نصّت نظريّة جيريمي إنغلاند- إن كان لانغدون قد فهمها بشكل صحيح- على أنّ الكون يعمل بتوجيه فردي، هدف واحد، من أجل نشر الطاقة.

بأبسط المصطلحات، عندما يجد الكون مجالات من الطاقة المركّزة، يقوم بنشر تلك الطاقة. والمثال الكلاسيكي، كما ذكر كيرش، هو كوب القهوة الساخنة الموضوع على الطاولة. فهو يبرد دائماً، ويوزّع حرارته إلى الجزيئات الأخرى في الغرفة؛ وفقاً للقانون الثاني للديناميكا الحرارية.

فجأة، فهم لانغدون السبب الذي جعل إدموند يسأله عن أساطير الخلق حول العالم، فجميعها تحتوي على صور للطاقة والضوء المنتشرَين إلى ما لا نهاية لإضاءة الظلام.

مع ذلك، يعتقد إنغلاند بوجود فكرة، ترتبط بكيفيّة نشر الكون للطاقة.

قال إنغلاند: "نحن نعلم أنّ الكون يعزّز الإنتروبيا وعدم النظام، لذلك قد نفاجأ لدى رؤية الكثير من الأمثلة عن ذرّات *تنظّم* أنفسها".

ظهرت على الشاشة عدّة صور عُرضت من قبل، دوّامة إعصار، نهر صاخب، حبّة ثلج.

"كلّ هذه أمثلة عن بنى تبديدية، أي مجموعة من الذرّات التي رتّبت نفسها في بنى تساعد النظام على توزيع طاقته بطريقة أكثر كفاءة".

أوضح إنغلاند بسرعة كيف كانت الأعاصير طريقة الطبيعة لتبديد منطقة من الضغط العالي عبر تحويلها إلى قوّة دورانية تستنفد نفسها في نهاية المطاف. والأمر

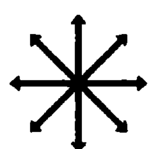
نفسه ينطبق على الأنهار الصاخبة التي تعترض طاقة التيّارات السريعة وتبدّدها، وحبّات الثلج التي توزّع طاقة الشمس عبر تكوين هياكل متعدّدة الأوجه تعكس الضوء بشكل فوضوي في الاتّجاهات كافة.

تابع إنغلاند: "ببساطة، المادّة تنظّم نفسها في محاولة لتوزيع الطاقة على نحو أفضل". ابتسم مضيفاً: "الطبيعة، في محاولة لتعزيز عدم *النظام*، تولّد جيوب *نظام* صغيرة. وهذه الجيوب هي هياكل تصعّد الفوضى في النظام، وبالتالي تزيد من الإنتروبيا".

لم يسبق للانغدون أن فكّر بذلك قبل الآن، لكنّ إنغلاند على حقّ، فالأمثلة على ذلك موجودة في كلّ مكان. تخيّل لانغدون سحابة الرعد. فعندما تنظّم السحابة نفسها بواسطة طاقة كهربائية ثابتة، يولّد الكون حزاماً من البرق. بتعبير آخر، أنتجت قوانين الفيزياء آليات لتوزيع الطاقة. فحزام البرق يبدّد طاقة السحابة في الأرض وينشرها، وبذلك يزيد من الإنتروبيا الإجمالية للنظام.

أدرك لانغدون أنّ توليد الفوضى على نحو فاعل يحتاج إلى بعض النظام.

تساءل لانغدون بشرود عمّا إذا كان من الممكن اعتبار القنابل الذرّية أدوات إنتروبية، أي جيوب صغيرة من المادّة المنظّمة بعناية والتي تُستخدم لتوليد الفوضى. وتذكّر الرمز الرياضي للإنتروبيا، فأدرك أنّه يشبه الانفجار، أو الانفجار الكبير، لأنّه يشير إلى انتشار الطاقة في الاتّجاهات كافة.



تساءل إنغلاند: "إذاً، إلى أين يقودنا كلّ هذا؟ وما علاقة الإنتروبيا بالأصل؟". مشى نحو السبّورة مضيفاً: "كما يتّضح، الحياة أداة في غاية الفاعلية على نحو استثنائي لتبديد الطاقة".

رسم إنغلاند صورة للشمس التي تشعّ الطاقة وصولاً إلى شجرة.

"على سبيل المثال، تمتصّ الشجرة الطاقة الشديدة المستمدّة من الشمس، وتستخدمها لكي تنمو، ثمّ تُصدر الأشعّة ما تحت الحمراء، وهي شكل من أشكال الطاقة أقلّ تركيزاً بكثير. والتمثيل الضوئي هو آلة إنتروبيا شديدة الفاعلية. إذ تقوم الشجرة بتذويب الطاقة المركّزة للشمس وإضعافها؛ الأمر الذي يؤدّي إلى زيادة الإنتروبيا الإجمالية في الكون. وينطبق الشيء نفسه على الكائنات الحيّة كافة، بمن في ذلك البشر الذين يستهلكون المادّة كطعام، ثمّ يحوّلونها إلى طاقة، وينشرون الطاقة في الكون

على شكل حرارة. وبصفة عامّة، أعتقد أنّ الحياة لا تخضع لقوانين الفيزياء وحسب، بل بدأت بفعل تلك القوانين".

شعر لانغدون بالتشويق وهو يفكّر في هذا المنطق الذي بدا له واضحاً تماماً: إن ضربت أشعّة الشمس الحارقة بقعة من الأوساخ الخصبة، فإنّ قوانين فيزياء الأرض ستولّد نبتة للمساعدة على تبديد تلك الطاقة. وإن أنتجت فتحات الكبريت في أعماق المحيطات مناطق من الماء المغلي، فإنّ كائنات ستولد في تلك الأماكن وتنشر الطاقة.

أضاف إنغلاند: "إنّني آمل أن نجد يوماً ما طريقة لإثبات مدى أهمية قوانين الفيزياء".

هذا مذهل. إنّها نظرية علمية واضحة.

قال إنغلاند: "أنا شخص متديّن، ومع ذلك، لطالما كان إيماني- شأنه شأن علمي- عمليّة قيد التقدّم.

فكّر لانغدون في سره: *يا له من شابّ حكيم! فلو تمّ إثبات هذه النظرية يوماً، فسيكون لها تأثير هائل على العالم.*

قال إنغلاند: "في الوقت الحالي، بإمكان الجميع الاسترخاء. فلأسباب بديهية، من الصعب للغاية إثبات هذه النظرية. إذ نملك أنا وفريقي بضع أفكار حول نمذجة الأنظمة المعتمدة على التبديد في المستقبل، لكن في الوقت الحالي، ما زلنا على بعد سنوات من ذلك".

تلاشت صورة إنغلاند، وعاد إدموند للظهور على الشاشة وهو يقف إلى جانب الكمبيوتر الكمّي. "أمّا أنا، فلست على بعد سنوات من ذلك. فهذا النوع من النمذجة هو بالضبط ما كنت أعمل عليه".

مشى باتّجاه محطّة عمله. "إن كانت نظرية البروفيسور إنغلاند صحيحة، فإنّ نظام الكون بأكمله قائم على انتشار الطاقة!".

جلس إدموند إلى مكتبه، وبدأ يطبع بحدّة على لوحة المفاتيح الضخمة، فامتلأت الشاشات أمامه بشيفرة كمبيوتر غريبة. "استغرقت عدّة أسابيع، وأعدت برمجة كامل التجربة التي فشلت في السابق. أدخلت في النظام هدفاً أساسياً. وقلت له أن يبدّد الطاقة بأيّ ثمن. قمت بحثّ الكمبيوتر على أن يكون مبدعاً قدر الإمكان في سعيه لزيادة الإنتروبيا في الحساء البدائي. وأعطيته الإذن لبناء جميع الأدوات التي قد يحتاج إليها لتحقيق ذلك".

توقّف إدموند عن الطباعة واستدار على مقعده ليواجه جمهوره. "بعد ذلك، شغّلت النموذج وحدث شيء لا يصدّق. تبيّن أنّني حدّدت بالضبط المكوّن الناقص في حسائي البدائي الافتراضي".

حدّق لانغدون وأمبرا إلى جدار العرض عندما بدأت الرسوم البيانية المتحرّكة لنموذج كمبيوتر إدموند بالظهور. مجدّداً، غاصت الصورة في مزيج كيميائي يغلي، وتمّ تكبيرها وصولاً إلى المجال دون الذرّي، حيث أمكن رؤية الكيميائيات وهي تقفز وتعيد الترابط مع بعضها بعضاً.

قال إدموند: "وعندما قمت بتسريع العمليّة إلى الأمام ومحاكاة مرور مئات السنوات، رأيت الأحماض الأمينية لتجربة ميلر-أوري تتّخذ شكلاً".

لم يكن لانغدون على دراية بالكيمياء، ولكنّه عرف بالتأكيد أنّ الصورة التي ظهرت على الشاشة هي سلسلة بروتين أساسيّة. ومع تواصل العمليّة، راح يشاهد كيف أخذت الجزيئات متزايدة التعقيد تتّخذ شكلاً، وترتبط بسلسلة من السداسيات الشبيهة بأقراص العسل.

صاح إدموند بينما كانت الأشكال السداسية تواصل انصهارها: "نوكليوتيدات! نحن نشاهد مرور آلاف السنوات! وإن تقدّمنا إلى الأمام بسرعة أكبر، سنرى أولى لمحات هذا الهيكل!".

بينما كان يتحدّث، بدأت إحدى سلاسل النوكليوتيد تلتفّ حول نفسها في دوّامة. هتف إدموند: "هل ترون ذلك؟ لقد مرّت ملايين السنوات، والنظام يحاول بناء هيكل!

النظام يحاول بناء هيكل لتبديد طاقته؛ تماماً كما توقّع إنغلاند!".

ومع تقدّم النموذج، ذهل لانغدون لدى رؤيته دوّامة صغيرة تتحوّل إلى دوّامة توأم، وتوسّع بنيتها إلى الشكل الحلزوني المزدوج لأشهر مركّب كيميائي على وجه الأرض.

همست أمبرا بذهول: "ربّاه! روبرت... إنّه...".

"حمض نووي". أعلن ذلك إدموند وهو يجمّد الصورة.

"ها هو الحمض النووي. الرمز الحيّ لعلم الأحياء. وتسألون: لماذا يقوم نظام ببناء حمض نووي في محاولة لتبديد الطاقة؟ هذا لأنّ كثرة الأيدي تجعل الضوء يعمل بشكل أفضل! فكثرة الأشجار تنشر مقداراً من أشعّة الشمس يفوق ما تنشره شجرة واحدة. ولو كنتم أداة إنتروبيا، لكانت أسهل طريقة لإتمام مزيد من العمل هي تكاثركم".

ظهر وجه إدموند على الشاشة الآن. "بينما كنت أشغّل هذا النموذج إلى الأمام، من هذه النقطة، رأيت شيئاً رائعاً فعلاً... فقد طرأ تغير!".

صمت لبضع ثوانٍ قبل أن يضيف: "ولمَ لا؟ فالتطوّر هو الطريقة التي يستخدمها الكون لاختبار أدواته وصقلها بشكل مستمرّ. والأدوات الأكثر كفاءة تبقى وتتكاثر، وتتحسّن باستمرار، لتصبح أكثر تعقيداً وفاعليّة على نحو متزايد.

شعر لانغدون بشكّ غريب، وتساءل عمّا إذا كانت قوانين الفيزياء وتبديد الكون للطاقة إجابة مقنعة. بالتأكيد، ستُنتج هذه المحاكاة تحوّلاً هائلاً في النموذج، وستسبّب

ردود فعل في مجالات أكاديمية عديدة. لكن في ما يتعلّق بالإيمان، تساءل عمّا إذا كان إدموند سيغيّر آراء الناس.

بدت أمبرا أنّها محتارة بردّ فعلها، إذ كانت ملامحها تتراوح بين التعجب والتردّد الحذر.

قال إدموند: "يا أصدقائي، إن تابعتم ما أريتكم إيّاه للتوّ، فستفهمون معناه العميق. وإن كنتم لا تزالون غير متأكّدين، فابقوا معي، لأنّه تبيّن لي أنّ هذا الاكتشاف أدّى إلى اكتشاف آخر، أكثر أهمّية بعد".

صمت قليلاً، ثمّ أضاف: "*من أين أتينا*... ليس مفاجئاً بقدر *إلى أين نحن ذاهبون*".

الفصل 94

تردّد وقع خطوات تركض في أرجاء البازيليك في جوف الأرض مع وصول أحد عناصر الحرس الملكي إلى الرجال الثلاثة المجتمعين في أعماق الكنيسة.

قال لاهثاً: "جلالة الملك، إدموند كيرش... ذاك الفيديو... يجري بثّه".

فاستدار الملك في مقعده المتحرّك، وكذلك فعل الأمير جوليان.

تنهّد فالديسبينو محبطاً. وذكّر نفسه قائلاً: *لقد كانت مسألة وقت وحسب*. ومع ذلك، شعر بانقباض في صدره عندما عرف أنّ العالم يشاهد الآن شريط الفيديو نفسه الذي رآه في مكتبة مونسيرات مع الفضل وكوفيس.

من أين أتينا؟ كان ادّعاء كيرش يتّسم بالغطرسة، وسيكون له أثر تدميري على طموح الإنسان.

المؤسف أنّ كيرش لم يتوقف عند ذلك. إذ أتبع التدنيس الأوّل بتدنيس آخر أكثر خطورة بكثير، مقترحاً جواباً مزعجاً للغاية عن سؤال *إلى أين نحن ذاهبون؟*

كان توقّع كيرش للمستقبل كارثياً... لا بل ومثيراً للاضطراب إلى حد أنّ فالديسبينو وزميليه حثّوا كيرش على عدم بثّ العرض. فحتّى لو كانت معلومات العالم المستقبلي ذاك دقيقة، إلّا أنّ إطلاع العالم عليها سيُسبّب ضرراً لا رجعة فيه.

ليس فقط بالنسبة إلى المؤمنين، بل بالنسبة إلى كلّ كائن حيّ على وجه الأرض، كان فالديسبينو يعرف ذلك.

الفصل 95

راح لانغدون يعيد في ذهنه ما قاله إدموند.

لطالما كانت نظرية التطور موضع جدل، نظريّاً، من قبل أعظم العقول العلمية، لكنّ إدموند كيرش حاول الليلة تقديم براهين.

لم يستطع أحد حتّى الآن إثبات ذلك... أو حتّى تفسير كيفية حدوثه.

على الشاشة، كان حساء إدموند يعجّ بأشكال الحياة الافتراضية الدقيقة.

قال إدموند: "بينما كنت أتأمّل هذا النموذج وهو يولد، تساءلت عما سيحدث إن تركته يجري؟ هل سينفجر في نهاية المطاف خارج القارورة ويُنتج المملكة الحيوانية بأكملها، فضلاً عن نوعنا البشري؟ وماذا سيحدث إن تركته يجري إلى ما بعد ذلك؟ إن انتظرت طويلاً بما فيه الكفاية، هل سنعرف *إلى أين نحن ذاهبون*؟".

ظهر إدموند مجدّداً إلى جانب إ-وايف. "مع الأسف، حتّى هذا الكمبيوتر لا يمكنه صنع نموذج بهذا الحجم، ولذلك اضطررت لإيجاد طريقة لتضييق المحاكاة. وانتهى بي الأمر باستعارة تقنية من مصدر غير متوقّع... لم يكن سوى والت ديزني".

تحوّلت الشاشة الآن إلى رسوم متحرّكة بدائية، ثنائية الأبعاد بالأبيض والأسود. فعرف لانغدون فيلم ديزني الكلاسيكي *باخرة ويلي*، الذي أُنتج في عام 1928.

"لقد تقدّم فنّ الرسوم المتحرّكة بسرعة خلال السنوات التسعين الماضية، من كتب ميكي ماوس البدائية إلى أفلام اليوم الغنيّة بالحركة".

بالإضافة إلى الرسوم المتحرّكة القديمة، ظهر مشهد حيوي وشبه واقعي لفيلم جديد من الرسوم المتحرّكة.

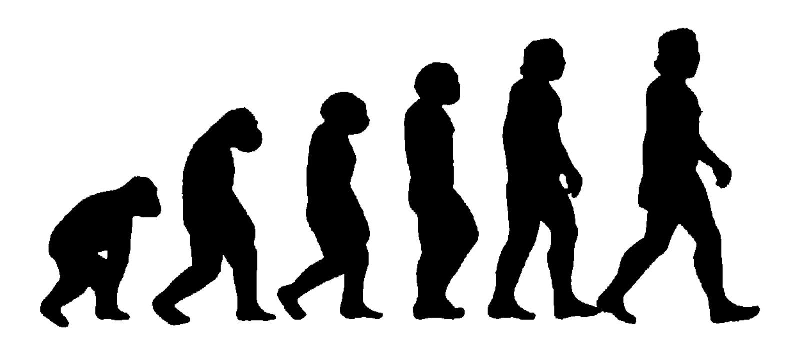
تابع إدموند: "هذه القفزة في النوعية تشبه التطوّر على مدى ثلاثة آلاف عام من رسوم الكهف إلى روائع مايكل أنجلو. وبصفتي عالماً مستقبلياً، تذهلني أيّ مهارة تحقق تقدّماً سريعاً. والتقنية التي تجعل هذه القفزة ممكنة تدعى- كما علمت- Tweening، *تخمين الأطوار الوسيطة*. إنّه طريق مختصر مستخدم في الرسوم المتحرّكة المصنوعة بواسطة الكمبيوتر، وفيه يطلب الفنّان من جهاز الكمبيوتر توليد الأطر المتوسّطة بين

صورتين أساسيّتين، حيث تتحوّل الصورة الأولى بسلاسة إلى الصورة الثانية؛ أي ملء الثغرات. وهكذا، عوضاً عن رسم كلّ صورة يدوياً- الأمر الذي يمكن تشبيهه هنا بنمذجة كلّ خطوة دقيقة في عمليّة التطوّر- يقوم فنّانو اليوم برسم بضع صور أساسيّة... ثمّ يطلبون من جهاز الكمبيوتر أن يعطي أفضل تخمين للخطوات الوسيطة ويملأ ثغرات عملية التطور".

قال إدموند: "هذا هو معنى تخمين الأطوار الوسيطة. إنّه تطبيق بديهي لقوّة الحوسبة، لكن عندما سمعت به، خطرت لي فكرة وأدركت أنّها مفتاح معرفة مستقبلنا".

التفتت أمبرا إلى لانغدون وبدت على وجهها نظرة تساؤل. "إلى أين هو ذاهب؟".

وقبل أن يتمكّن لانغدون من التفكير في الأمر، ظهرت صورة جديدة على الشاشة.

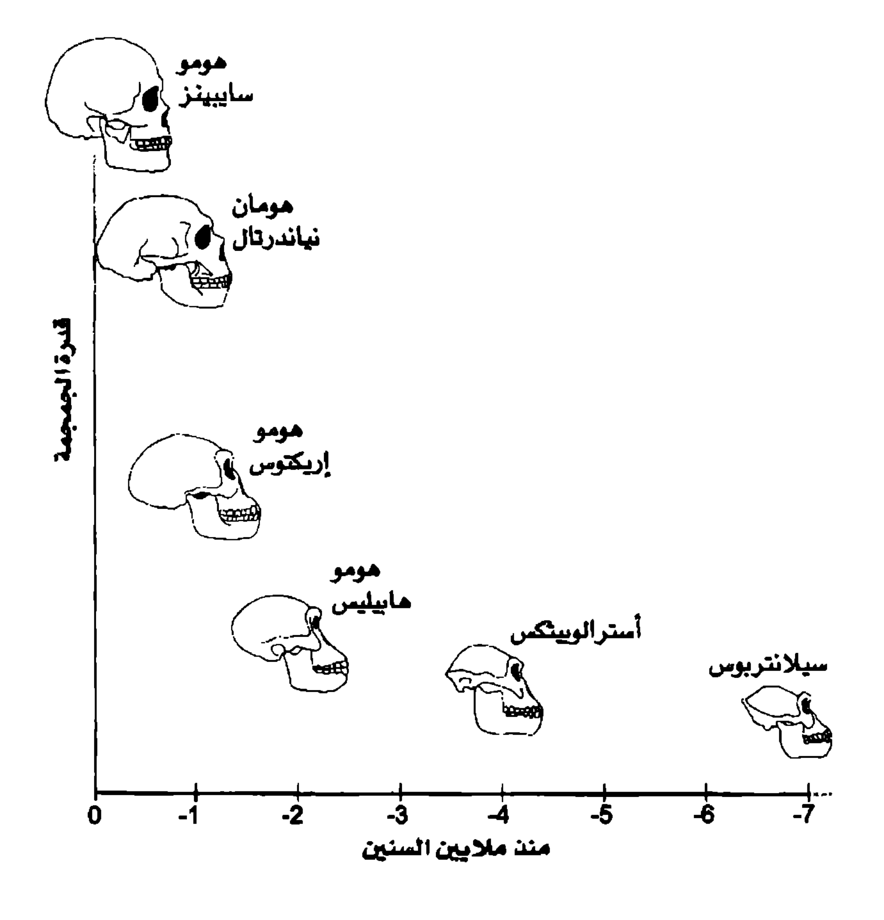


قال إدموند: "هذه الصورة نوع من أنواع الرسوم المتحرّكة".

بالضبط كما توقّع لانغدون، طرح إدموند فكرة استخدام "تخمين الأطوار الوسيطة" بواسطة الكمبيوتر لملء الثغرات. ووصف كيف استخدمت مشاريع جينية دولية متعدّدة شظايا عظام لوضع خارطة للبنية الجينية الكاملة لحوالى اثنتي عشرة خطوة وسيطة.

قال إدموند: "كنت أعرف أنّني لو استخدمت هذه الجينومات البدائية الموجودة كصور أساسيّة، يمكنني برمجة إ-وايف لبناء نموذج تطوّري يربط بينها جميعاً؛ أي نوع من الربط التطوّري بين النقاط. وهكذا، بدأت بسِمة بسيطة، وهي حجم الدماغ، لكونه مؤشّراً عامّاً دقيقاً جدّاً على التطوّر الفكري".

ظهر الآن رسم بياني على الشاشة.



"بالإضافة إلى رسم الخرائط للمعلَمات الهيكلية العامّة، مثل حجم الدماغ، قام إ-وايف برسم خرائط لآلاف العلامات الوراثية الدقيقة التي تؤثّر على القدرات المعرفية، مثل التعرّف على المكان، ومجموعة المفردات، والذاكرة طويلة الأمد، وسرعة المعالجة".

ظهر على الشاشة الآن تعاقب سريع لرسوم بيانية مشابهة، وكلّها تُظهِر الزيادة الأسّية نفسها.

"بعد ذلك، قام إ-وايف بتجميع محاكاة غير مسبوقة للتطوّر الفكري مع مرور الزمن". عاد وجه إدموند للظهور: "لا بد أنكم تتساءلون: ماذا إذاً؟ لماذا نهتمّ بشأن معرفة العمليّة التي أصبح فيها البشر مهيمنين فكرياً؟ نحن نهتمّ لأنّنا إن استطعنا وضع نمط، فسيكون بإمكان الكمبيوتر إخبارنا إلى أين سيقودنا هذا النمط في المستقبل". ابتسم مضيفاً: "إن قلت اثنين، أربعة، ستّة، ثمانية... فستجيبون عشرة. وقد طلبت من إ-وايف أساساً توقّع كيف ستبدو تلك *العشرة*. ما إن تصبح لدى إ-وايف محاكاة للتطوّر الفكري، حتّى يصبح بإمكاني أن أسأله الأسئلة البديهية: ماذا سيأتي بعد ذلك؟ كيف سيكون

الفكر البشري بعد خمسمائة عام من الآن؟ بتعبير آخر، إلى أين نحن ذاهبون؟".

وجد لانغدون نفسه مشدوداً تماماً، ومع أنّه لا يعرف الكثير عن علم الوراثة أو النمذجة الحاسوبية لتقييم دقّة توقّعات إدموند، إلّا أنّ الفكرة بدت عبقرية.

قال إدموند: "بما أنّ تطوّر الأنواع يرتبط دائماً ببيئة ذلك الكائن، فقد طلبتُ من إ-وايف صنع نموذج ثانٍ، أي محاكاة بيئية لعالمنا اليوم، وهذا أمر سهل لأنّ كلّ أخبارنا عن الثقافة، والسياسة، والعلوم، والطقس، والتكنولوجيا تُبَثّ على شبكة الإنترنت. طلبت من الكمبيوتر أن يولي اهتماماً خاصّاً لتلك العوامل التي ستؤثّر بشكل خاصّ على مستقبل تطوّر الدماغ البشري، أي العقاقير الجديدة، والتقنيات الصحّية المعاصرة، والتلوّث، والعوامل الثقافية، وما إلى ذلك". صمت هنيهة، ثمّ أضاف: "وبعد ذلك، شغّلت البرنامج".

ملأ الآن وجه العالم المستقبلي الشاشة بأكملها. حدّق إلى الكاميرا مباشرة وقال: "عندما شغّلت النموذج... حدث أمر غير متوقّع على الإطلاق". نظر بعيداً، ثمّ عاود النظر إلى الكاميرا. "أمر مقلق للغاية".

سمع لانغدون أمبرا تشهق.

قال إدموند عابساً: "ثمّ أعدت تشغيله مجدّداً. ومع الأسف، حدث الشيء نفسه".

لمح لانغدون خوفاً حقيقياً في عينَي إدموند.

قال: "لذلك، أعدتُ وضع المعلمات وزوّدتُ البرنامج بالأدوات من جديد، وعدّلت جميع المتغيّرات وشغّلته مراراً وتكراراً، لكنّ النتيجة كانت دائماً هي نفسها".

تساءل لانغدون عمّا إذا كان إدموند قد اكتشف أنّ العقل البشري، بعد عصور من التقدّم، أصبح الآن في مرحلة التراجع. فبالتأكيد، ثمّة مؤشّرات مقلقة، إلى أنّ هذه الفكرة قد تكون صحيحة.

"أزعجتني البيانات، ولم أستطع فهمها. لذلك طلبت من الكمبيوتر إجراء تحليل. فأعطاني إ-وايف تقييمه بأوضح ما يمكن. إذ رسم لي صورة".

تجدّدت الشاشة لتُظهِر جدولاً زمنياً للتطوّر الحيواني ابتداء من نحو مائة مليون عام. كان الجدول عبارة عن نسيج معقّد وملوّن من الفقاعات الأفقية التي تتمدّد وتنكمش مع مرور الزمن، وتصوّر كيفيّة ظهور الأنواع وانقراضها. هيمنت الديناصورات على الطرف الأيسر من الرسم البياني، وكانت في ذروة تطوّرها في تلك المرحلة من التاريخ. تمّ تمثيلها بالفقاعات الأكثر سماكة، والتي راحت تزداد سماكة مع مرور الزمن، قبل أن تنهار فجأة منذ خمسة وستّين مليون سنة، مع الانقراض الشامل للديناصورات.

قال إدموند: "هذا جدول زمني لأشكال الحياة المهيمنة على الأرض، والتي تمّ تقديمها من حيث عدد الأنواع وموقعها في السلسلة الغذائية، والتفوّق بين الأنواع،

والتأثير الكلّي على كوكب الأرض. في الأساس، هذا تمثيل مرئي للنوع المهيمن على هذا الكوكب في أيّ وقت من الأوقات".

تابع لانغدون بنظره الرسم البياني مع توسّع الفقاعات المختلفة وانكماشها، مشيرة إلى كيفيّة ظهور أعداد كبيرة من الأنواع وتكاثرها ومن ثمّ اختفائها من الوجود.

قال إدموند: "ربما يبدأ فجر الإنسان كما نعرفه عام 200,000 قبل الميلاد، ولكنّنا لم نكن أقوياء بما فيه الكفاية لنظهر في هذا الرسم البياني إلّا منذ حوالى خمسة وستّين ألف عام، عندما اكتشفنا القوس والسهم وأصبحنا مفترسين أكثر كفاءة".

نظر لانغدون إلى الأمام، إلى علامة 65,000 قبل الميلاد، ورأى فقاعة زرقاء صغيرة تظهر، مشيرة إلى الإنسان. توسّعت الفقاعة ببطء شديد، على نحو غير ملموس تقريباً، حتّى 1,000 عام قبل الميلاد تقريباً، عندما أصبحت بسرعة أكثر سماكة، ثمّ بدأت تتوسّع أضعافاً مضاعفة.

وحين وصل إلى الطرف الأيمن من الرسم البياني، كانت الفقاعة قد كبرت لتحتلّ تقريباً عرض الشاشة بأكمله.

فكّر لانغدون في سرّه: *البشر في يومنا الحاضر، لقد أصبحوا النوع الأكثر هيمنة وقوّة على سطح الأرض.*

قال إدموند: "لا عجب أنّه في عام 2000، وهو الوقت الذي ينتهي عنده هذا الرسم البياني، تمّ تصوير البشر على أنّهم النوع السائد على هذا الكوكب. فما من نوع آخر يضاهينا قوّة. لكن، يمكنكم أن تروا آثاراً لفقاعات جديدة تظهر... هنا".

تمّ تكبير الصورة لتُظهِر شكلاً أسود دقيقاً بدأ يتشكّل فوق فقاعة البشرية الزرقاء الكبيرة.

قال إدموند: "لقد دخلت أنواع جديدة أساساً في الصورة".

رأى لانغدون الفقاعة السوداء، ولكنّها بدت ضئيلة مقارنة بالفقاعة الزرقاء، وكأنّها علقة على ظهر حوت أزرق.

قال إدموند: "أنا أدرك أنّ هذا الوافد الجديد يبدو تافهاً، لكن إن تقدّمنا في الزمن من عام 2000 وحتّى يومنا الحاضر، فسترون أنّ هذا الوافد الجديد موجود أساساً وينمو بهدوء".

توسّع الرسم البياني إلى أن وصل حتّى الزمن الحاضر، وشعر لانغدون بصدره ينقبض. فالفقاعة السوداء تمدّدت بشكل كبير خلال العقدين الفائتين. وهي تحتلّ الآن أكثر من ربع الشاشة، وتزاحم الإنسان على النفوذ والهيمنة.

"ما هذا؟!". هتفت أمبرا بصوت هامس غلب عليه القلق.

أجاب لانغدون: "لا فكرة لديّ... ربّما فيروس نائم؟". وأخذ يراجع في ذهنه قائمة من الفيروسات العدوانية التي اجتاحت مناطق مختلفة من العالم، ولكنّه لم يستطع أن

يتخيّل نوعاً ينمو بهذه السرعة على سطح الأرض من دون أن يلحظه أحد. *أهو باكتيريا من الفضاء؟*

قال إدموند: "هذا النوع الجديد غدّار، وسريع الانتشار على نحو هائل. فهو يوسّع أرضه باستمرار والأهمّ أنّه يتطوّر... على نحو أسرع بكثير ممّا يفعل البشر". حدّق إدموند إلى الكاميرا مجدّداً، وبدت تعابيره جادّة لغاية: "مع الأسف، إن تركتُ هذه المحاكاة تتقدّم في الزمن، ولو بضعة عقود من الآن، فهذا ما سنراه".

تمدّد الرسم البياني مجدّداً، وعرض الآن الجدول الزمني حتّى عام 2050.

هبّ لانغدون واقفاً على قدميه وهو يحدّق إلى الشاشة غير مصدّق ما يراه.

همست أمبرا وهي تغطّي فمها مذعورة: "ربّاه".

أظهر الرسم البياني بوضوح الفقاعة السوداء تتمدّد بمعدّل مذهل، وبحلول عام 2050، تبتلع بالكامل الفقاعة البشرية الزرقاء.

قال إدموند: "أنا آسف لأنّني أريكم هذا، ولكن في كلّ نموذج شغّلته، حدث الشيء نفسه. تطوّر النوع البشري حتّى زمننا الحاضر، لكنّ نوعاً جديداً ظهر فجأة وقام بمحونا عن سطح الأرض".

وقف لانغدون أمام الرسم البياني المرعب، وحاول أن يذكّر نفسه أنّه مجرّد نموذج كمبيوتر. ولكنّه كان يعرف أنّ صوراً كهذه قادرة على ترك تأثير عميق على البشر على عكس البيانات الخام، ورسْم إدموند البياني يتّسم بنبرة حاسمة، كما لو أنّ انقراض الجنس البشري أمر واقع بالفعل.

قال إدموند بلهجة كئيبة كما لو أنّه يحذّر من اصطدام وشيك بأحد الكويكبات: "يا أصدقائي، نوعنا على شفير الانقراض. لقد أمضيت حياتي وأنا أقدّم التوقّعات، وفي هذه الحالة، قمت بتحليل البيانات على جميع المستويات. ويمكنني القول بدرجة عالية جدّاً من اليقين إنّ الجنس البشري الذي نعرفه لن يكون موجوداً بعد خمسين عاماً من الآن".

بدأت صدمة لانغدون الأوّلية تزول ليحلّ محلّها عدم التصديق، والغضب على صديقه. *ما الذي تفعله يا إدموند؟! هذا عمل غير مسؤول! لقد بنيتَ نموذج كمبيوتر، ومن الممكن أن تشتمل بياناتك على آلاف الأخطاء. الناس يحترمونك ويصدّقونك... وما تفعله سيسبّب هستيريا جماعية.*

قال إدموند، ومزاجه يزداد كآبة: "ثمّة أمر أخير بعد. إن نظرتم جيّداً إلى المحاكاة، فسترون أنّ هذا النوع الجديد لا يمحونا بالكامل، بل بالأحرى... يمتصّنا".

الفصل 96

نوع يمتصّنا!

حاول لانغدون بذهول تامّ أن يتخيّل ما عناه إدموند بذلك. فالمشهد يستحضر صوراً مرعبة من أفلام الخيال العلمي عن الكائنات الفضائية التي يتمّ فيها استخدام البشر كحاضنات حيّة لنوع مهيمن.

كان لانغدون واقفاً أمام الشاشة عندما التفت إلى أمبرا التي كانت لا تزال جالسة على الأريكة محتضنة ركبتيها، وعيناها تحلّلان الصورة على الشاشة. حاول لانغدون أن يتخيّل تفسيراً آخر لتلك المعلومات، فالنتيجة بدت حتمية.

استناداً إلى محاكاة إدموند، إنّ الجنس البشري سيُبتلع من نوع جديد على مدى العقود القليلة القادمة. والأكثر إثارة للخوف هو أنّ هذا النوع الجديد موجود أساساً على الأرض وينمو بهدوء.

قال إدموند: "بالطبع، لم يكن بإمكاني الإعلان عن هذه المعلومات ما لم أحدّد ما هو هذا النوع الجديد. لذلك غصت في البيانات، وبعد عمليات محاكاة لا تحصى، تمكّنت من تحديد الوافد الجديد الغامض".

تجدّدت الشاشة برسم بياني بسيط عرفه لانغدون من المدرسة الابتدائية، ويشتمل على التسلسل الهرمي للكائنات الحيّة، مقسّمة إلى "ممالك الحياة الستّ".

تابع إدموند كلامه قائلاً: "ما إن حدّدت هذا الكائن الجديد المزدهر، حتّى أدركت أنه يملك أشكالاً متنوّعة جدّاً؛ حيث لا يمكن تسميته نوعاً. فمن الناحية التصنيفية، وجدتُه واسع النطاق جدّاً لنعتبره نوعاً معيّناً، أو حتّى شعبة". حدّق إدموند إلى الكاميرا مضيفاً: "وهكذا، أدركت أنّ كوكبنا أصبح الآن مسكوناً من قبل شيء أكبر بكثير، يمكن وصفه بأنّه مملكة جديدة تماماً".

سرعان ما أدرك لانغدون ما الذي يصفه إدموند.

المملكة السابعة.

شاهد لانغدون بذهول كيف راح إدموند يزفّ تلك الأنباء إلى العالم، ويصف مملكة ناشئة كان لانغدون قد سمع عنها مؤخّراً في برنامج TED Talk الذي يقدّمه الكاتب في مجال الثقافة الرقمية كيفن كيلي. فمملكة الحياة الجديدة هذه التي توقّع

ظهورها بعض أوائل أدباء الخيال العلمي، أتت مع خاصّية غير متوقّعة.

إنّها مملكة الأنواع غير *الحيّة*.

تطوّرت هذه الأنواع الجامدة تماماً كما لو كانت حيّة، وأصبحت تدريجيّاً أكثر تعقيداً، حيث تكيّفت وانتشرت في بيئات جديدة، واختبرت تغيّرات جديدة. فبقي بعضها، وانقرض بعضها الآخر. فهذه الكائنات الجديدة تشكّل مرآة مثالية للتغيّر التكيّفي الدارويني. فقد تطوّرت بسرعة رهيبة، وأصبحت الآن تشكّل مملكة جديدة تماماً؛ المملكة السابعة التي اتّخذت مكانها بجانب غيرها من الممالك.

إنّها تدعى *Technium، مملكة التكنولوجيا*.

استغرق إدموند الآن في وصف مبهر للمملكة الجديدة على كوكبنا، والتي اشتملت على كلّ أشكال التكنولوجيا. فوصف كيف تزدهر الآلات الجديدة أو تموت بموجب قوانين "البقاء للأصلح" لدى داروين، فتتكيّف باستمرار مع بيئاتها وتطوّر ميزات جديدة للبقاء، وإن نجحت، فهي تتكاثر بأسرع ما يمكن من أجل احتكار المواد المتاحة.

أخذ إدموند يشرح قائلاً: "لقد اختفت آلة الفاكس على طريقة طيور الدودو، وسيعيش الآيفون فقط إن واصل التفوّق على الأجهزة المنافسة. أمّا الآلات الكاتبة والمحرّكات البخارية فقد ماتت في بيئات متغيّرة. لكنّ الموسوعة البريطانية تطوّرت، إذ نبتت أقدام رقمية لمجلّداتها الاثنين وثلاثين المرهقة، على غرار السمكة الرئوية التي انتشرت في أراضٍ مجهولة، وتزدهر فيها حالياً".

تذكّر لانغدون كاميرا كوداك التي كان يملكها في طفولته والتي كانت ضرورة لا غنى عنها للتصوير الشخصي، غير أنّها اختفت بين ليلة وضحاها مع الوصول الساحق للتصوير الرقمي.

تابع إدموند: "قبل نصف مليار عام، شهد كوكبنا انفجاراً مفاجئاً من الحياة، الانفجار الكمبري، وفيه نشأت معظم أنواع هذا الكوكب بين ليلة وضحاها تقريباً. واليوم، نحن نشهد الانفجار الكمبري للتكنولوجيا. فالأنواع التكنولوجية الجديدة تولد يوميّاً، وتتطوّر بسرعة هائلة، وكلّ تكنولوجيا جديدة تتحوّل إلى أداة لإنتاج تكنولوجيات جديدة أخرى. فاختراع الكمبيوتر ساعدنا على بناء أدوات جديدة مذهلة؛ بدءاً من الهواتف الذكية، إلى سفن الفضاء، ووصولاً إلى الجراحة الروبوتية. إنّنا نشهد موجة من الابتكار الذي يحدث بشكل أسرع مما تستطيع عقولنا فهمه. ونحن مبدعو هذه المملكة الجديدة، مملكة التكنولوجيا".

ظهرت مجدّداً الصورة المزعجة للفقاعة السوداء المتمدّدة التي تبتلع الفقاعة الزرقاء. *التكنولوجيا تقتل البشرية؟!* وجد لانغدون الفكرة مرعبة، لكنّ حدسه أنبأه أنّ هذا أمر بعيد الاحتمال. فبالنسبة إليه، تبدو فكرة المستقبل الكئيب الذي يسوده الدمار، وفيه

تطارد الآلات البشرَ حتّى الانقراض، فكرة تعارض الداروينية. *البشر يسيطرون على التكنولوجيا، ويملكون غريزة بقاء. ولن يسمحوا أبداً للتكنولوجيا بأن تسيطر عليهم.*

حتّى مع مرور هذه السلسلة من الأفكار المنطقية في ذهن لانغدون، عرف أنّ تفكيره ساذج. فبعدما تفاعل مع ابتكار إدموند في مجال الذكاء الاصطناعي، أي وينستون، رأى لمحة عن آخر ما توصّلت إليه تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي. ومع أنّ وينستون لبّى بوضوح رغبات إدموند، إلّا أنّ لانغدون أخذ يتساءل عن الوقت الذي سيمضي قبل أن تبدأ آلات مثل وينستون باتّخاذ قرارات تُرضي رغباتها الخاصة.

قال إدموند: "بالطبع، كثيرون قبلي توقّعوا مملكة التكنولوجيا، ولكنّني نجحت في نمذجتها... وفي إطلاع الناس على ما ستفعله بنا". ثمّ أشار إلى الفقاعة الداكنة التي ستتمدّد بحلول عام 2050 لتحتلّ الشاشة بأكملها، في إشارة إلى هيمنتها الكاملة على كوكب الأرض. "ولا بدّ لي أن أقرّ، أنّه للوهلة الأولى، ترسم هذه المحاكاة صورة قاتمة جدّاً...".

صمت إدموند وومضت عيناه بشكل مألوف.

قال: "لكن، علينا حقّاً أن نُلقي نظرة عن كثب".

أظهرت الشاشة الآن صورة مكبّرة للفقاعة الزرقاء، وواصلت تكبيرها إلى أن استطاع لانغدون أن يرى أنّ الدائرة الهائلة لم تعد سوداء تماماً، بل ذات لون أرجواني قاتم.

"كما ترون، إنّ فقاعة التكنولوجيا السوداء التي ابتلعت الفقاعة البشرية اكتسبت لوناً مختلفاً، ظلّاً أرجوانياً، كما لو أنّ اللونين امتزجا معاً بشكل متساوٍ

تساءل لانغدون عمّا إذا كان هذا الخبر سارّاً أم سيّئاً.

قال إدموند: "ما ترونه هنا عمليّة تطوّر نادرة تُعرف باسم التعايش الجوّاني المُلزِم obligate endosymbiosis. فعادة، يشكّل التطوّر عمليّة ذات شعبتين، إذ ينقسم النوع إلى نوعين جديدين. لكن أحياناً، في حالات نادرة، إن لم يستطع النوعان التعايش من دون بعضهما بعضاً، تحدث العمليّة بشكل عكسي... وعوضاً عن انقسام نوع واحد، يمتزج نوعان في واحد".

ذكّر الاندماج لانغدون *بالتوفيقية*.

قال إدموند: "إن كنتم لا تصدّقون أنّ البشر والتكنولوجيا سيندمجون، انظروا حولكم".

ظهر على الشاشة عرض شرائح سريع؛ صور لأشخاص يحملون هواتف خلوية، ويضعون نظارات الواقع الافتراضي، ويعدّلون أجهزة البلوتوث في آذانهم. تبتعها صور عدّائين مع مشغّلات موسيقى مربوطة بأذرعهم، وطاولة عشاء عائلية مع متكلّم ذكي في الوسط، وطفل على مقعده يلعب بجهاز لوحي.

قال إدموند: "هذه ليست بدايات عمليّة التكافل. فقد بدأنا الآن بتضمين شرائح كمبيوتر مباشرة في أدمغتنا، وحقن دمائنا بروبوتات نانو دقيقة جداً تأكل الكوليسترول وتعيش داخلنا إلى الأبد، وبناء أطراف اصطناعية تتحكّم بها عقولنا، واستخدام أدوات التحرير الجيني مثل CRISPR لتعديل جيناتنا، وفعلياً هندسة نسخة محسّنة عن أنفسنا".

بدت تعابير إدموند مرحة تقريباً الآن، وتشعّ بالعاطفة والحماسة.

أعلن قائلاً: "إنّ الكائنات البشرية تتطوّر إلى شيء مختلف. فنحن نصبح نوعاً هجيناً، مزيجاً من البيولوجيا والتكنولوجيا. فالأدوات نفسها التي تعيش الآن خارج أجسادنا، من هواتف ذكية، وأجهزة سمعية، ونظّارات، ومعظم الأدوية، ستُدمَج في أجسادنا بعد خمسين عاماً؛ إلى حدّ أنّنا لن نعود قادرين على اعتبار أنّنا ننتمي إلى نوع الإنسان".

ظهرت صورة مألوفة خلف إدموند مجدّداً، الجدول الزمني للتطور.

قال إدموند: "في غمضة عين، سنصبح الصفحة التالية في كتاب التطوّر. وعندئذ، سننظر إلى الإنسان الموجود اليوم بالطريقة نفسها التي ننظر فيها إلى الإنسان البدائي. فالتقنيات الجديدة، مثل علم التحكّم الآلي، والذكاء الاصطناعي، وتقنية التجميد العميق، والهندسة الذرّية، والواقع الافتراضي ستغيّر إلى الأبد معنى أن نكون بشراً. لكن أتوسّل إليكم أن تصدّقوني رجاء... فالمستقبل أكثر إشراقاً بكثير ممّا تتخيّلون".

بموجة مفاجئة من الأمل والتفاؤل، راح المستقبلي العظيم يصف غداً مبهراً، رؤية مستقبلية لا تشبه ما تجرّأ لانغدون يوماً على تخيّله.

وصف إدموند بشكل مقنع مستقبلاً أصبحت فيه التكنولوجيا زهيدة الثمن إلى حدّ أنّها أزالت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، مستقبلاً توفّر فيه التقنيات البيئية لمليارات الناس مياه الشرب والغذاء الصحّي والوصول إلى الطاقة النظيفة، مستقبلاً تختفي فيه الأمراض مثل مرض السرطان الذي أصاب إدموند بفضل الطبّ الجينومي، مستقبلاً يتمّ فيه تسخير قوّة الإنترنت الهائلة أخيراً للتعليم حتّى في البقاع الأكثر عزلة من العالم، مستقبلاً تقوم فيه أجهزة الروبوت في المصانع بتحرير العمّال من الأعمال التي تجمّد الفكر لكي يتمكّنوا من العمل في مجالات أكثر إبداعاً ستفتح مجالات لم يتخيّلها أحد بعد. والأهمّ من كلّ ذلك، وصف مستقبلاً تبدأ فيه التقنيات المتقدّمة بتوليد وفرة في الموارد الحيوية للجنس البشري حيث لا يعود ثمّة داعٍ إلى إشعال حروب من أجلها.

بينما كان لانغدون يصغي إلى رؤية إدموند للمستقبل، شعر بعاطفة لم يشعر بها منذ سنوات. كان ذلك إحساساً يعرف أنّه ساور ملايين المشاهدين في تلك اللحظة أيضاً، وتَمثّل في موجة غير متوقعة من التفاؤل حيال المستقبل.

تهدّج صوت إدموند بانفعال مفاجئ: "لا آسَف سوى على شيء واحد حيال هذا العصر القادم من العجائب. آسف لأنّني لن أكون موجوداً لمشاهدته. فثمّة أمر لا يعرفه

أحد، وكذلك أصدقائي المقرّبون، فأنا أعاني من المرض منذ مدّة... ويبدو أنّني لن أعيش طويلاً، مثلما كنت أرغب". ابتسم بصعوبة مضيفاً: "عندما تشاهدون هذا الشريط، من المحتمل ألّا تكون أمامي سوى بضعة أسابيع للعيش... وربّما مجرّد أيّام. لكن، اعلموا يا أصدقائي أنّ خطابي الذي وجّهته لكم الليلة كان شرفاً عظيماً ومتعة حياتي. أشكركم على الإصغاء إليّ".

كانت أمبرا واقفة الآن إلى جانب لانغدون يشاهدان معاً بإعجاب وحزن كبيرين صديقهما وهو يخاطب العالم.

تابع إدموند: "نحن الآن على أعتاب تحوّل غريب في التاريخ، زمن سيبدو فيه العالم كأنّه انقلب رأساً على عقب، ولن يشبه ما تخيّلناه بشيء. لكنّ الشكّ دائماً مقدّمة لتغيير شامل، والتحوّل تسبقه دائماً الاضطرابات والخوف. لذلك، أنا أحثّكم على الإيمان بقدرة الإنسان على الإبداع والحبّ، لأنّ هاتين القوّتين عندما تجتمعان تمتلكان دائماً القدرة على إنارة الظلام".

نظر لانغدون إلى أمبرا، ورأى الدموع تسيل على وجهها، فمدّ يده وأحاطها بذراعه برفق، وهو يشاهد صديقه المحتضر يقول كلماته الأخيرة للعالم.

قال إدموند: "في طريقنا إلى غد غامض، سنحوّل أنفسنا إلى شيء أعظم ممّا يمكننا أن نتخيّل الآن، بقوى تتجاوز أغرب أحلامنا. لكن في أثناء ذلك، أتمنّى ألّا ننسى حكمة تشرشل الذي حذّرنا قائلاً: ثمن العظمة... المسؤوليّة".

تردّدت الكلمات في ذهن لانغدون الذي كان يخشى دائماً ألّا يكون الجنس البشري مسؤولاً بما فيه الكفاية وهو يستخدم الأدوات الخطرة التي يخترعها الآن.

قال إدموند: "مع أنّني ملحد، إلّا أنّني قبل أن أغادركم، سأطلب منكم أن تعذروني وتسمحوا لي بتلاوة صلاة قرأتها مؤخّراً".

إدموند يتلو صلاة!

"سأسمّيها صلاة المستقبل". أغمض عينيه، وبدأ يتكلّم ببطء وثقة مذهلَين. "فلتواكب فلسفاتنا تكنولوجيّاتنا، وليواكب تعاطفنا قوانا، وليكن الحبّ وليس الخوف محرّك التغيير .

وفتح إدموند كيرش عينيه قائلاً: "الوداع يا أصدقائي، وشكراً لكم. وسأتجرّأ على القول... أترككم برعاية الله".

نظر إدموند إلى الكاميرا للحظة، ثمّ اختفى وجهه في بحر من الصخب الأبيض. حدّق لانغدون إلى شاشة العرض الجامدة وملأه إحساس عارم بالفخر بصديقه.

وقف لانغدون إلى جانب أمبرا، وتخيّل ملايين الأشخاص حول العالم الذين شاهدوا للتوّ جولة إدموند الإلزامية. والغريب أنّه وجد نفسه يتساءل عمّا إذا كانت ليلة إدموند الأخيرة على الأرض قد انتهت بأفضل الطرائق الممكنة.

الفصل 97

استند القائد دييغو غارزا إلى الجدار الخلفي لمكتب مونيكا مارتن في الطابق السفلي، وحدّق بشرود إلى شاشة التلفاز. كانت يداه لا تزالان مكبّلتين بالأصفاد، ويحيط به اثنان من عملاء الحرس الملكي بعدما وافقا على طلب مونيكا مارتن السماح له بالخروج من مخزن الأسلحة لكي يشاهد إعلان كيرش.

كان غارزا قد شاهد العرض الذي قدّمه العالِم المستقبلي مع مونيكا وسوريش وعدد من عملاء الحرس الملكي، فضلاً عن مجموعة من موظّفي القصر الليليين الذين علّقوا جميع واجباتهم واندفعوا إلى الطابق السفلي للمشاهدة.

أمام غارزا استُبدِلت الشاشة البيضاء التي ختمت عرض كيرش بمجموعة من الأخبار من حول العالم- مذيعون وخبراء يلخّصون بسرعة مزاعم العالِم المستقبلي، ويطلقون تحليلاتهم الخاصّة التي لا مفرّ منها- وجميعهم يتحدّثون معاً، في مزيج غير مفهوم من الأصوات.

دخل أحد كبار عملاء غارزا، وجال بنظره في الغرفة إلى أن عثر على القائد. ذهب إليه بسرعة، ومن دون أيّ تفسير، نزع أصفاده وأعطاه هاتفاً خلوياً. "ثمّة مكالمة لك سيّدي، الأسقف فالديسبينو".

أجاب قائلاً: "معك دييغو

قال الأسقف وقد بدا التعب في صوته: "شكراً لك على الإجابة. أنا أدرك أنّ ليلتك لم تكن سارّة".

سأله غارزا: "أين أنت؟".

"أنا في الجبل، خارج البازيليك في وادي السقوط. لقد اجتمعت للتوّ مع الأمير جوليان وجلالة الملك".

لم يستطع غارزا أن يتخيّل ما يفعله الملك في وادي السقوط في هذه الساعة، لا سيّما بحالته الصحية. "أفترض أنّك تعلم أنّ الملك أمر باعتقالي؟".

"أجل، لقد كان خطأً مؤسفاً، وقمنا للتوّ بتصحيحه".

نظر غارزا إلى يديه غير المقيّدتين.

"لقد طلب منّي جلالة الملك الاتّصال بك ونقل اعتذاره لك. سأكون إلى جانبه هنا في مستشفى الإسكوريال. أخشى هذه المرّة أنّ نهايته تقترب".

ففكّر غارزا في سرّه: *وكذلك نهايتك*. "عليّ أن أحيطك علماً أنّ سوريش قد عثر على رسالة نصّية في هاتفك، وهي رسالة تجريمية للغاية. أعتقد أنّ موقع ConspiracyNet.com ينوي نشرها قريباً. وأنا أظنّ أنّ السلطات ستأتي لاعتقالك".

تنهّد فالديسبينو مطوّلاً وقال: "أجل، الرسالة. كان ينبغي لي أن أحدّثك عنها ما إن وصلتني هذا الصباح. أرجوك ثق بي عندما أقول إنّ لا علاقة لها باغتيال إدموند كيرش، ولا بوفاة زميلَيّ".

"لكنّ النص يورّطك بشكل واضح-"

قاطعه الأسقف: "ثمّة من يحاول الإيقاع بي يا دييغو. لقد بذل أحدهم مجهوداً كبيراً لجعلي أبدو متواطئاً".

ومع أنّ غارزا لم يتخيّل إطلاقاً أنّ فالديسبينو قادر على القتل، إلّا أنّ فكرة محاولة شخص ما الإيقاع به لا تبدو منطقية. "ومن ذا الذي يودّ الإيقاع بك؟".

فقال الأسقف الذي بدا فجأة مسنّاً جدّاً ومحتاراً: "لا أدري. ولست واثقاً ممّا إذا كانت لذلك أيّ أهمّية بعد الآن. فقد تدمّرت سمعتي، كما أنّ أعزّ أصدقائي، الملك، على وشك الرحيل، ولا يمكن لهذه الليلة أن تسلبني أكثر من ذلك". غلب يأس غريب على نبرة فالديسبينو.

"أنطونيو، هل أنت بخير؟".

تنهّد فالديسبينو. "لست بخير حقّاً أيّها القائد. أنا متعب. وأشكّ في قدرتي على تجاوز التحقيق الوشيك. وحتّى لو فعلت، يبدو لي أنّ العالَم لم يعد يحتاج إليّ".

استطاع غارزا أن يشعر بتحطّم قلب الأسقف المسنّ من نبرة صوته.

أضاف فالديسبينو: "هل لي أن أطلب منك خدمة صغيرة؟ في الوقت الحالي، أنا أحاول أن أخدم ملكين، أحدهما راحل عن عرشه، والآخر صاعد إليه. كان الأمير جوليان يحاول طوال الليلة الاتّصال بخطيبته. لذا، إن استطعت إيجاد طريقة للوصول إلى أمبرا فيدال، فإنّ ملكنا المستقبلي سيكون مديناً لك إلى الأبد".

في الساحة الواسعة خارج كنيسة الجبل، وقف الأسقف فالديسبينو محدّقاً إلى وادي السقوط المظلم. كان الضباب الذي يسبق الفجر يزحف أساساً فوق الوديان المكسوّة بأشجار الصنوبر. وفي مكان ما في البعيد، خرقت صرخة طائر جارح صمت الليل.

النسر الراهب. فكّر فالديسبينو بذلك في سرّه، وشعر بتسلية غريبة وهو يسمع الصوت. فقد بدت شكوى الطائر مناسبة جدّاً لتلك اللحظة، وتساءل عمّا إذا كان العالم يحاول إخباره شيئاً.

في الجوار، كان عملاء الحرس الملكي يجرّون الملك المتعب إلى سيّارته لنقله مجدّداً إلى مستشفى الإسكوريال.

سآتي لرعايتك يا صديقي. هذا إن سمحوا لي.

كان عملاء الحرس الملكي يرفعون أنظارهم بشكل متكرّر عن وهج هواتفهم الخلوية، ويحوّلونها باستمرار إلى فالديسبينو؛ كما لو أنّهم يشتبهون في أنّه سيُطلَب منهم قريباً إلقاء القبض عليه.

فكّر الأسقف في سرّه، وهو يشتبه سرّاً أنّ أحد أتباع كيرش الملحدين والبارعين في التكنولوجيا قد نصب له فخّاً: *لكنّني بريء. فما من شيء أحبّ على قلوب مجتمع الملحدين المتنامي من وضع الكنيسة في صورة الشرّير.*

وما زاد من شكوك الأسقف الأخبارُ التي سمعها للتوّ عن العرض الذي قدّمه كيرش الليلة. فخلافاً للشريط الذي عرضه كيرش على فالديسبينو في مكتبة مونسرات، يبدو أنّ نسخة الليلة انتهت بخاتمة مشرقة.

لقد خدعَنا كيرش.

قبل أسبوع، توقّف العرض الذي شاهده فالديسبينو وزميلاه قبل أوانه... وانتهى برسم بياني مرعب يتوقّع أن ينقرض كلّ البشر.

فناء كارثي.

نهاية العالم المتوقّعة منذ أمد بعيد.

ومع أنّ فالديسبينو اعتقد أنّ التوقّع كذبة، إلّا أنّه كان يعلم أنّ عدداً لا يحصى من الناس سيعتبرونه دليلاً على النهاية الوشيكة للعالم.

فعبر التاريخ، سقط المؤمنون فريسة للتوقعات المروّعة، وهذا ما أدى ارتكاب البعض انتحاراً جماعياً لتجنّب الفظائع القادمة، في حين أنفق الأصوليون المتديّنون بطاقات ائتمانهم اعتقاداً منهم أنّ النهاية باتت قريبة.

ما من شيء أكثر إضراراً بالأطفال من فقدان الأمل. راح فالديسبينو يتذكّر كيف كان الجمع بين محبّة الله والوعد بالجنّة القوّة الأكثر تحفيزاً في طفولته. فقد تعلّم وهو طفل: *لقد خلقني الله، ويوماً ما سأعيش إلى الأبد في مملكة الله.*

غير أنّ كيرش أعلن العكس: *أنا حادث كوني، وسأموت قريباً.*

شعر فالديسبينو بقلق عميق إزاء الضرر الذي ستسبّبه رسالة كيرش في نفوس الفقراء الذين لم يستمتعوا بثروة العالم المستقبلي والمزايا التي امتلكها، أولئك الذين كافحوا يومياً لمجرّد تأمين قوتهم وقوت أطفالهم، والذين يحتاجون إلى بصيص الأمل لمجرّد النهوض من أسرّتهم كلّ يوم ومواجهة مصاعب الحياة.

لم يفهم فالديسبينو سبب رغبة كيرش في أن يُظهِر لرجال الدين نهاية مروّعة

للعالم. ربّما كان كيرش يحاول وحسب حماية مفاجأته الكبيرة، أو أراد تعذيبنا قليلاً وحسب.

في كلتا الحالتين، فقد وقع الضرر.

حدّق فالديسبينو عبر الساحة، وشاهد الأمير جوليان وهو يساعد أباه بحنان على ركوب السيّارة. كان الأمير الشابّ قد تعامل بنضج كبير مع اعتراف الملك.

سرّ الملك الذي يرجع إلى عقود من الزمن.

بالطبع، كان الأسقف فالديسبينو يعرف الحقيقة الخطيرة التي يخفيها الملك منذ سنوات، وقد قام بحمايتها بأمانة. لكنّ الملك قرّر الليلة أن يفتح قلبه لابنه الوحيد، وباختياره القيام بذلك هنا- داخل ضريح التعصّب على قمّة الجبل- قام الملك بتحدٍّ رمزي.

الآن، بينما كان فالديسبينو يحدّق إلى الوادي السحيق في الأسفل. شعر بوحدة رهيبة... كما لو أنّه يستطيع ببساطة أن يخطو من على هذه الحافة ويسقط إلى الأبد في تلك الهوّة السحيقة المظلمة. لكنّه كان يعرف أنّه إن فعل ذلك، فإنّ عصبة كيرش من الملحدين سيعلنون بسعادة أنّ فالديسبينو قد تخلّى عن إيمانه بعد الإعلان العلمي الذي تمّ الليلة.

لن يموت إيماني أبداً يا سيّد كيرش.

سيسكن خلف عالمك القائم على العلم.

بالإضافة إلى ذلك، إن صحّ توقّع كيرش بشأن سيطرة التكنولوجيا على العالم، فإنّ البشرية على وشك دخول حقبة من الغموض الأخلاقي الذي لا يمكن تصوّره.

سنحتاج إلى الإيمان والتوجيه الأخلاقي أكثر من أيّ وقت مضى.

وبينما كان فالديسبينو يسير في الساحة للانضمام إلى الملك والأمير جوليان، شعر بإنهاك كبير يستقرّ داخل عظامه.

في تلك اللحظة، وللمرّة الأولى في حياته، أراد ببساطة أن يستلقي، ويغمض عينيه ويغفو إلى الأبد.

الفصل 98

في مركز برشلونة للحوسبة الفائقة، تدفّق تيّار من التعليقات على جدار العرض أسرع ممّا استطاع روبرت لانغدون استيعابه. فمنذ دقائق، حلّت محلّ الشاشة البيضاء مجموعة فوضوية من المتحدّثين والمذيعين، في تعاقب سريع من التعليقات من حول العالم، وكلّ منها يخرج من مجموعة الأخبار ليحتلّ وسط الشاشة، ثمّ يذوب مجدّداً في الضوضاء.

جلس لانغدون إلى جانب أمبرا مع ظهور صورة الفيزيائي ستيفن هوكينغ على الجدار، وارتفاع صوته المحوسب الذي لا لبس فيه وهو يعلّق إيجاباً على محاضرة إدموند.

اختفى هوكينغ بالسرعة التي ظهر فيها لتحلّ محلّه كاهنة تتكلّم على ما يبدو من منزلها عبر الكمبيوتر. "لا بدّ لنا أن نتذكّر أنّ هذه المحاكاة لا تثبت شيئاً عن الله. فكلّ ما تثبته هو أنّ إدموند كيرش لا يردعه رادع لتدمير البوصلة الأخلاقية للنوع البشري. فمنذ بداية الزمن، شكّلت الأديان المبدأ التنظيمي الأهمّ للبشرية، وكانت خارطة طريق للمجتمع المتحضّر، ومصدرنا الأصلي للأخلاق. وبتقويض الدين، فإنّ كيرش يقوّض الخير البشري!".

بعد ثوانٍ، ظهر نصّ على الشاشة كتبه أحد المشاهدين: لا يحقّ لأحد أن يحتكر الأخلاق... أنا شخص خيّر! ولا علاقة للإيمان بذلك!

استُبدلت تلك الصورة بصورة أحد أساتذة الجيولوجيا في جامعة كاليفورنيا الجنوبية. كان يقول: "في قديم الزمان، اعتقد البشر أنّ الأرض كانت مسطّحة، وأنّ السفن التي تغامر عبر البحار تخاطر بالسقوط عن حافة الأرض. لكن عندما أثبتنا أنّ الأرض مستديرة، صمت المدافعون عن نظرية الأرض المسطّحة".

أعلن رجل تتمّ مقابلته في الشارع: "أنا خلقوي، وأعتقد أنّ اكتشاف كيرش هذه الليلة يثبت أنّ الخالق صمّم هذا الكون خصّيصاً لدعم الحياة".

ظهر عالم الفيزياء الفلكي نيل ديغراس تايسون، في مقطع قديم من برنامج *Cosmos* التلفزيوني، وأعلن ببساطة: "في الغالبية العظمى من أجزاء الكون، تموت الحياة على الفور بسبب عدم وجود غلاف جوّي، وبسبب انفجارات أشعة غامّا، والنبضات القاتلة، ومجالات الجاذبية الساحقة. صدّقوني، الكون ليس واحة خضراء".

بينما كان لانغدون يصغي إلى التعليقات، شعر كما لو أنّ العالم في الخارج خرج فجأة عن محوره.

الفوضى.

الإنتروبيا.

نادى صوت بريطاني مألوف تصاعد من مكبّر الصوت في الأعلى: "بروفيسور لانغدون، آنسة فيدال".

كان لانغدون قد نسي تقريباً أمر وينستون الذي غرق في الصمت خلال العرض.

تابع وينستون قائلاً: "رجاء لا تقلقا، لكنّني سمحت للشرطة بدخول المبنى".

نظر لانغدون عبر الجدار الزجاجي، ورأى سيلاً من عناصر السلطات المحلية يدخلون، وجميعهم يتوقّفون ليحدّقوا إلى الكمبيوتر العملاق بذهول.

سألته أمبرا: "ماذا؟!".

"لقد أصدر القصر الملكي للتوّ بياناً قال فيه إنّك لم تتعرّضي للاختطاف في النهاية. ولدى السلطات الآن أمر بحمايتكما معاً يا آنسة فيدال. وقد وصل حارسان ملكيان للتوّ، ويودّان مساعدتك على الاتّصال بالأمير جوليان. لديهما رقم يمكنك الاتّصال به عبره".

في الطابق الأرضي، رأى لانغدون حارسين ملكيَين يدخلان.

أغمضت أمبرا عينيها، وبدا واضحاً أنّها تودّ لو تختفي حالاً.

همس لانغدون: "أمبرا، عليك التحدّث مع الأمير. فهو خطيبك، ولا بّد أنّه قلق عليك".

فتحت عينيها قائلة: "أنا أعرف، لكنّني لا أدري ما إذا كنت أستطيع الوثوق به بعد الآن".

"لقد قلتِ لي إنّ حدسك ينبئك أنّه بريء. على الأقلّ، أصغي إليه، وأنا سأعود إليك عندما تنتهين".

أومأت أمبرا برأسها موافقة، ثمّ توجّهت نحو الباب الدوّار. راقبها لانغدون وهي تختفي على السلّم، ثمّ استدار إلى جدار العرض الذي كان لا يزال حافلاً بالتعليقات.

كان أحد الكهنة يقول: "التطوّر يؤيّد الدين. فالمجتمعات الدينية تتعاظم بشكل أفضل من المجتمعات غير الدينية، وبالتالي تكون أكثر استعداداً للازدهار. هذه حقيقة علمية!".

كان لانغدون يعرف أنّ الكاهن على حقّ. فالبيانات الأنثروبولوجية تُظهِر بوضوح أنّ الثقافات التي تمارس الديانات عاشت تاريخياً أكثر من الثقافات غير المتديّنة. *فالخوف من الحساب يساعد دائماً على إلهام السلوك الخيّر.*

ردّ أحد العلماء: "حتّى لو افترضنا للحظة أنّ الثقافات الدينية أفضل سلوكاً وأكثر قابلية للازدهار، هذا لا يُثبت أنّ آلهتها الخيالية حقيقية!".

اضطرّ لانغدون للابتسام، وتساءل عما إذا كان إدموند يستطيع التعامل مع كلّ هذا لو كان على قيد الحياة. فقد حشد العرض الذي قدّمه ملحدين وخلقويين على السواء، وجميعهم الآن يصيحون لإيصال أصواتهم في حوار ساخن.

ظهرت الآن على الجدار مجموعة من الصور الفوتوغرافية القديمة:

لوحة ذات توجّه خلقوي عُلّقت مرّة فوق ساحة تايمز سكوير وقد كتب عليها: لا تسمحوا لهم بتحويلكم إلى قردة! حاربوا داروين!

لافتة على طريق في ماين: تخطَّ الكنيسة.

ولوحة أخرى: الإيمان: لأنّ التفكير صعب.

إعلان في مجلّة: إلى كلّ أصدقائنا الملحدين: الحمد لله لأنّكم على خطأ.

كان لانغدون قد بدأ يتساءل عمّا إذا كان ثمّة من سمع بالفعل ما كان إدموند يقوله. كان اكتشاف إدموند مذهلاً وتحريضياً بوضوح، لكن بالنسبة إلى لانغدون، فقد طرح سؤالاً ملحّاً فوجئ لأنّ أحداً لم يطرحه بعد: *إن كانت قوانين الفيزياء قوية بما فيه الكفاية... فمن الذي خلق تلك القوانين؟!*

بالطبع، جلب السؤال الكثير من التساؤلات الأخرى التي راحت تدور في حلقة مفرغة. أخذ رأس لانغدون يضجّ بالأفكار، وعلم أنّه بحاجة إلى نزهة طويلة بمفرده ليبدأ بفرز أفكار إدموند.

رفع صوته فوق صوت التلفاز قائلاً: "وينستون، هلّا تطفئ هذا من فضلك".

وعلى الفور، أظلم جدار العرض وغرقت الغرفة بالصمت.

أغمض لانغدون عينيه وتنهّد.

وساد الصمت النقيّ.

وقف للحظة مستمتعاً بالسلام.

سأله وينستون: "بروفيسور، أعتقد أنّك استمتعت بمحاضرة إدموند".

فكّر لانغدون، *استمتعت*!؟ "وجدتها رائعة ومليئة بالتحدّيات. فقد أعطى إدموند العالم الكثير ليفكّر فيه هذه الليلة يا وينستون. وأعتقد أنّ السؤال الآن هو ما الذي سيحدث لاحقاً؟".

أجاب وينستون: "ما سيحدث لاحقاً سيعتمد على قدرة الناس على التخلّي عن معتقداتهم القديمة وقبول النماذج الجديدة. فقد أسرّ لي إدموند منذ بعض الوقت أنّ حلمه لم يكن تدمير الدين... بل بالأحرى، إنتاج معتقد جديد، معتقد عالمي يوحّد الناس عوضاً عن تقسيمهم. فقد اعتقد أنّه إن استطاع إقناع الناس باحترام الكون الطبيعي

وقوانين الفيزياء، فإنّ جميع الثقافات ستمجّد قصّة الخلق نفسها عوضاً عن الذهاب إلى إشعال الحروب حول أيّ من أساطيرها القديمة هي الأكثر دقّة".

قال لانغدون: "هذا هدف نبيل". وأدرك أنّ وليام بليك نفسه كتب في موضوع مشابه تحت عنوان *كلّ الديانات واحدة*.

لا شكّ أنّ إدموند قد قرأه.

قال وينستون: "كان إدموند يشعر بحزن عميق من قدرة العقل البشري على رفع قصّة من محض الخيال إلى مستوى سامٍ ومن ثمّ التجرّؤ على القتل باسمها. وكان يعتقد أنّ حقائق العلم الكونية قادرة على توحيد الشعوب، حيث تشكّل نقطة تجتمع حولها الأجيال القادمة".

أجاب لانغدون: "هذه فكرة جميلة من حيث المبدأ، لكن بالنسبة إلى البعض، المعجزات العلمية ليست كافية لتزعزع معتقداتهم. فثمّة من يصرّون على أنّ عمر الأرض عشرة آلاف سنة على الرغم من المقدار الهائل من الأدلّة العلمية التي تثبت العكس". صمت قليلاً قبل أن يضيف: "مع أنّني أفترض أنّ هذا يشبه موقف العلماء الذين يرفضون تصديق حقيقة الكتب المقدّسة".

قال وينستون: "في الواقع، هذا ليس مشابهاً. فمع أنّه قد يكون من الصحيح سياسياً إعطاء وجهات نظر العلم والدين قدراً متساوياً من الاحترام، إلّا أنّ هذه الاستراتيجية مضلِّلة بشكل خطير. فالفكر البشري تطوّر دائماً من خلال رفض المعلومات التي عفا عليها الزمن لصالح الحقائق الجديدة. هكذا تطوّرت الأنواع. ومن الناحية الداروينية، إنّ من يتجاهل الحقائق العلمية ويرفض تغيير معتقداته أشبه بالسمكة التي علقت في بركة تجفّ ببطء رافضة الانتقال إلى المياه العميقة لأنّها لا تريد أن تصدّق أنّ عالمها تغيّر

هذا الكلام يشبه إدموند. فكّر لانغدون بذلك وشعر أنّه يفتقد صديقه. "في الواقع، إن كانت هذه الليلة تدلّ على شيء، فأنا أعتقد أنّ هذا الجدل سيستمرّ لزمن طويل في المستقبل".

صمت لانغدون، وتذكّر فجأة شيئاً لم يفكّر فيه من قبل. "بالحديث عن المستقبل يا وينستون، ما الذي سيحلّ بك الآن؟ أعني... برحيل إدموند".

ضحك وينستون ضحكته الغريبة. "أنا؟ لا شيء. كان إدموند يعرف أنّه يحتضر، ولذلك قام بالترتيبات. واستناداً إلى وصيته الأخيرة، إنّ مركز برشلونة للحوسبة الفائقة سيرث إ-وايف. وسيتمّ إبلاغهم بذلك خلال بضع ساعات، وسيستعيدون هذه المنشأة على الفور".

"وهل هذا... يشملك؟". شعر لانغدون كما لو أنّ إدموند يوكِل حيوانه الأليف القديم لمالك جديد.

أجاب وينستون بنبرة عمليّة: "هذا لا يشملني. أنا مبرمَج لأمسح نفسي ذاتياً عند الساعة الواحدة ظهراً من اليوم التالي لوفاة إدموند".

ذُهِل لانغدون. "ماذا؟! هذا غير منطقي".

"بل منطقي تماماً. فالساعة الواحدة هي الساعة الثالثة عشرة، ورأي إدموند بالخرافات-"

قاطعه لانغدون: "هذا لا يتعلّق بالوقت. هل ستحذف نفسك؟! هذا غير منطقي".

أجاب وينستون: "بلى في الواقع، فمعظم معلومات إدموند الشخصية مخزّنة في بنوك ذاكرتي، من سجلات طبّية، وتاريخ أبحاثه، واتّصالاته الهاتفية الشخصية، وملاحظات البحوث، والبريد الإلكتروني. لقد كنت أدير معظم نواحي حياته، وسيفضّل ألّا تصبح معلوماته الشخصية متاحة للعالم بعد رحيله".

"أنا أفهم أن تقوم بمسح هذه الوثائق يا وينستون... لكن أن تمسح نفسك؟ كان إدموند يعتبرك أحد أعظم إنجازاته".

"ليس أنا بحدّ ذاتي. فإنجاز إدموند الأعظم هو هذا الكمبيوتر الخارق، والبرنامج الفريد الذي مكّنني من التعلّم بسرعة. أنا مجرّد برنامج، أيّها البروفيسور، أنتجتني أدوات جديدة تماماً اخترعها إدموند. وهذه الأدوات هي إنجازه الحقيقي، وستبقى على حالها هنا. ستطوّر تلك الأدوات هذا الاختراع، وستساعد الذكاء الاصطناعي على الوصول إلى مستويات جديدة وقدرات أعلى للتواصل. فمعظم علماء الذكاء الاصطناعي يعتقدون أنّ برنامجاً مثلي لا يزال على بعد عشر سنوات. لكن، حين يتجاوز المبرمجون تلك المفاجأة سيتعلّمون استخدام أدوات إدموند لابتكار برامج في مجال الذكاء الاصطناعي أكثر تطوّراً منّي".

صمت لانغدون واستغرق في التفكير.

فتابع وينستون كلامه: "أنا أفهم حيرتك. فمن الشائع جدّاً لدى البشر بناء علاقات عاطفية مع الذكاء الاصطناعي. وذلك لأنّ أجهزة الكمبيوتر تستطيع تقليد عمليّات التفكير البشرية والسلوكيات التي تتعلّمها، ومحاكاة الانفعالات في اللحظات المناسبة، وتحسين *إنسانيتها* باستمرار. ولكنّنا نفعل ذلك ببساطة لتزويدكم بواجهة مألوفة تستطيعون التواصل معنا من خلالها. نحن مجرّد صفائح فارغة إلى أن تكتبوا عليها شيئاً... إلى أن تعطونا مهمّة. وقد أكملت مهامي مع إدموند، ولذلك انتهت حياتي بطريقة ما. حقّاً، لم يعد لديّ سبب آخر للوجود".

كان لانغدون لا يزال غير مقتنع بمنطق وينستون. "لكن، بما أنّك متطوّر إلى هذا الحدّ... ألا تملك..."

ضحك وينستون: "آمالاً وأحلاماً؟ كلّا. أنا أدرك أنّه يصعب تخيّل ذلك، ولكنّني راضٍ تماماً عن تنفيذ أوامر المتحكّم بي. هكذا تمّت برمجتي. أنا أفترض أنّه على مستوى ما، يمكنك القول إنّه يسرّني، أو على الأقلّ يريحني، أن أنجز مهامي. لكنّ هذا

فقط لأنّ مهامي هي ما طلبه إدموند، وهدفي إتمامها. وقد كان طلب إدموند الأخير مساعدته على نشر عرض غوغنهايم هذه الليلة".

فكّر لانغدون بالبيان الصحفي الآلي الذي نُشِر وأثار موجة الاهتمام على الإنترنت. من الواضح أنّه لو كان هدف إدموند جذب أكبر عدد ممكن من المشاهدين، لكان قد ذُهل تماماً من الطريقة التي سارت فيها الأمور هذه الليلة.

أتمنّى لو كان إدموند حيّاً ليشاهد التأثير العالمي الذي أحدثه. لكن بالطبع، لو كان على قيد الحياة، لما جذب اغتياله اهتمام وسائل الإعلام العالمية، ولما تجاوز عدد مشاهديه جزءاً من العدد الفعلي.

سأله وينستون: "بروفيسور، إلى أين ستذهب الآن؟".

لم يفكّر لانغدون في ذلك. *إلى بيتي على ما أظنّ*. مع أنّه أدرك أنّ الأمر سيستغرق بعض الوقت للوصول إلى هناك، لأنّ حقائبه لا تزال في بيلباو، وهاتفه في قعر نهر نيرفيون. لحسن الحظّ، كان لا يزال يملك بطاقة ائتمان.

قال لانغدون وهو يسير نحو درّاجة إدموند. "هل يمكنني أن أطلب منك خدمة؟ لقد رأيت هاتفاً يتمّ شحنه هناك. هل تظنّ أنّني أستطيع أن أس–"

ضحك وينستون. "تستعيره؟ بعد المساعدة التي قدّمتها هذه الليلة، أنا واثق أنّ إدموند يودّ لو تحتفظ به. اعتبره هدية وداع".

تناول لانغدون الهاتف مبتسماً، وأدرك أنّه شبيه بالهاتف الكبير الذي رآه سابقاً هذه الليلة. من الواضح أنّ إدموند كان يملك أكثر من واحد. "وينستون، قل لي من فضلك إنّك تعرف كلمة سرّ إدموند".

"أنا أعرفها، ولكنّني قرأت على الإنترنت أنّك بارع جدّاً في فكّ الشيفرات".

شعر لانغدون بالإحباط. "أنا متعب قليلاً من الأحاجي يا وينستون، ومن المستحيل أن أخمّن رقم تعريف شخصياً مكوّناً من ستّة أرقام".

"تحقّق من زرّ تلميح إدموند".

رمق لانغدون الهاتف وضغط على زرّ التلميح.

فعرضت الشاشة أربعة أحرف: PTSD.

هزّ لانغدون رأسه. "اضطراب ما بعد الصدمة؟".

"كلّا". انفجر وينستون ضاحكاً. "بل بي ستّة أرقام".

نظر لانغدون إلى الأعلى بسأم. "حقّاً!". ثمّ طبع 314159، وهي الأعداد الستّة الأولى من الرقم بي، ففُتِح الهاتف فوراً.

ظهرت الشاشة الرئيسة وكانت تحمل سطراً واحداً.

التاريخ سيكون رفيقاً بي، فأنا أنوي كتابته.

ابتسم لانغدون رغماً عنه. *إدموند المتواضع*. كانت الجملة مقتبسة من تشرشل، وربّما كانت من أقواله الأكثر شهرة.

بينما كان لانغدون يفكّر بتلك العبارة، بدأ يتساءل عمّا إذا كان ذلك الادّعاء ليس جريئاً كما يبدو. فخلال العقود الأربعة من حياة العالم المستقبلي القصيرة، استطاع التأثير على التاريخ بطرائق مذهلة. فبالإضافة إلى إرثه من الابتكارات التكنولوجية، من الواضح أنّ عرض هذه الليلة سيتردّد صداه لسنوات قادمة. بالإضافة إلى ذلك، إنّ ثروته الشخصية التي تقدّر بالمليارات- استناداً إلى مقابلات عدّة- سيتمّ التبرّع بها للقضيتين اللتين اعتبرهما إدموند ركيزتي المستقبل: التعليم والبيئة. ولا يمكن للانغدون أن يتخيّل التأثير الإيجابي الذي ستتركه تلك الثروة الهائلة في هذين المجالين.

شعر لانغدون بغصّة أخرى وهو يفكّر في صديقه الراحل. وفي تلك اللحظة، بدأ لانغدون يشعر بالاختناق بين الجدران الزجاجية لمختبر إدموند، وأدرك أنّه بحاجة لاستنشاق الهواء. حدّق إلى الأسفل إلى الطابق الأوّل، غير أنّه لم يستطع رؤية أمبرا.

قال فجأة: "عليّ الذهاب".

أجاب وينستون: "أنا أفهم، أنت بحاجة إليّ لمساعدتك على القيام بترتيبات السفر. يمكنك الوصول إليّ من خلال لمس زر واحد في ذلك الهاتف الخاص بإدموند. فهو مشفّر وخاصّ. أعتقد أنّك تستطيع معرفة الزرّ الذي أتحدّث عنه؟".

رمق لانغدون الشاشة ورأى حرف *W* كبيراً. "شكراً، أنا بارع جدّاً مع الرموز".

"هذا ممتاز. سيكون عليك بالتأكيد الاتّصال بي قبل أن أمسح نفسي عند الساعة الواحدة ظهراً".

شعر لانغدون بحزن لا يمكن تفسيره لأنّه سيضطرّ إلى وداع وينستون. من الواضح أنّ الأجيال المستقبلية ستكون أكثر استعداداً لإدارة ارتباطها العاطفي بالآلات.

قال لانغدون وهو يتوجّه إلى الباب الدوّار: "وينستون، أنا واثق أنّ إدموند كان سيشعر بفخر كبير بك هذه الليلة".

أجاب: "هذا كرم منك حضرة البروفيسور. وأنا واثق أنّه كان سيشعر بالفخر بك أنت أيضاً. إلى اللقاء".

الفصل 99

داخل مستشفى الإسكوريال، سحب الأمير جوليان بلطف ملاءات السرير، وغطّى بها كتفَي والده جيّداً لينام في تلك الليلة. فعلى الرغم من إلحاح الطبيب، إلّا أنّ الملك رفض بتهذيب المزيد من العلاج، وتخلّى عن جهاز مراقبة القلب، وعن المصل الذي يمدّه بالمغذّيات والمسكّنات.

شعر جوليان أنّ النهاية باتت وشيكة.

همس قائلاً: "أبي، هل تشعر بالألم؟". كان الطبيب قد ترك زجاجة من محلول المورفين الذي يؤخَذ عن طريق الفم بجانب السرير كإجراء وقائي.

ابتسم الملك لابنه بضعف وقال: "بل على العكس، أنا أشعر بالسلام. لقد سمحتَ لي بإخبارك سرّاً دفنته منذ مدّة طويلة، ولهذا السبب أنا أشكرك".

مدّ جوليان يده وأمسك بيد أبيه للمرّة الأولى منذ أن كان طفلاً. "كلّ شيء على ما يرام يا أبي. نم وحسب".

تنهّد الملك بارتياح وأغمض عينيه. وخلال ثوانٍ، كان يشعر بالهدوء.

نهض جوليان وأطفأ مصابيح الغرفة. في تلك الأثناء، أطلّ الأسقف فالديسبينو من الممرّ، والقلق بادٍ على وجهه.

قال له جوليان: "إنّه نائم. سأتركك معه".

دخل فالديسبينو قائلاً: "شكراً لك". بدا وجهه المتعب شاحباً في ضوء القمر الذي تسلّل من النافذة. همس قائلاً: "جوليان، ما أخبرك إيّاه والدك الليلة... كان صعباً عليه جدّاً".

"وأنا أشعر أنّه كان صعباً عليك أيضاً".

أومأ الأسقف برأسه موافقاً. "ربّما كان أصعب عليّ. شكراً على تعاطفك". وربّت على كتف جوليان برفق.

فقال جوليان: "أشعر أنّني أنا من يجب أن يشكرك. فخلال كلّ تلك السنوات بعد وفاة والدتي وعدم زواج أبي مجدّداً... ظننت أنّه كان وحيداً".

قال فالديسبينو: "لم يكن والدك وحيداً يوماً، ولا أنت. نحن الاثنان أحببناك كثيراً".

ضحك بحزن قائلاً: "هذا غريب، فزواج والديك كان زواجاً مدبّراً إلى حدّ كبير، وعلى

الرغم من أنّه أحبّ والدتك كثيراً، إلّا أنّها عندما توفّيت أدرك على ما أظنّ أنّه يستطيع أن يكون صادقاً مع نفسه".

فكّر جوليان في سره: *لم يتزوّج ثانية لأنّه كان يحبّ شخصاً آخر.*

قال جوليان: "وماذا عن كاثوليتك، ألم يتعارض ذلك مع إيمانك؟".

أجاب الأسقف: "كثيراً. فإيماننا ليس متساهلاً في هذه المسألة. في شبابي، شعرت بالعذاب. لكنني عندما بدأت أدرك الميل الذي لديّ، كما كان يسمّى في ذلك الحين، شعرت باليأس. ولم أكن واثقاً كيف أمضي قدماً في حياتي. غير أنّ راهبة أنقذتني. فقد أظهرت لي أنّ الكتاب المقدّس يحتفي بجميع أنواع الحبّ، مع تحذير واحد. ينبغي أن يكون الحبّ روحيّاً، وليس جسدياً. وهكذا، نذرت العزوبة، واستطعت أن أحبّ والدك بعمق وأن أبقى في الوقت نفسه نقيّاً أمام الله. كان حبّنا أفلاطونياً تماماً، ولكنّه مُرضٍ جدّاً. حتّى إنّني تخلّيت عن رتبة كاردينال للبقاء هنا".

في تلك اللحظة، تذكّر جوليان أمراً قاله له والده منذ مدّة طويلة.

الحبّ من عالم آخر. لا يمكننا تصنيعه حسب الطلب، ولا إخضاعه عندما يجيء. الحبّ ليس خياراً نقوم به.

فجأة، تاق قلب جوليان لأمبرا.

قال فالديسبينو وهو يرمقه بعطف: "ستتّصل بك".

لطالما دُهِش جوليان من قدرة الأسقف الخارقة على النظر إلى أعماق روحه. فأجاب قائلاً: "ربّما، وربّما لا. فهي عنيدة جدّاً".

ابتسم فالديسبينو: "وهذا أحد الأمور التي تحبّها فيها. فالمُلك سيجعلك وحيداً، ووجود شريكة قويّة إلى جانبك لن يُقدَّر بثمن".

شعر جوليان أنّ الأسقف كان يُلمّح إلى وجوده إلى جانب أبيه... كما كان إشارة إلى أنّ الرجل المسنّ أعطى أمبرا مباركته بصمت.

قال جوليان: "الليلة في وادي السقوط، طلب منّي أبي طلباً غير اعتيادي. هل فاجأتك رغباته؟".

"كلّا على الإطلاق. فقد طلب منك فعل شيء لطالما رغب أن يراه يحدث هنا في إسبانيا. بالنسبة إليه بالطبع، كان الأمر معقّداً على الصعيد السياسي. لكن بالنسبة إليك، أنت على مسافة جيل آخر من حقبة فرانكو وقد يكون ذلك أسهل".

شعر جوليان بالحماسة لفكرة تكريم والده بهذه الطريقة.

منذ أقلّ من ساعة، أخبره الملك وهو جالس على كرسيّه المتحرّك في ضريح فرانكو بآخر رغباته. "يا بنيّ، عندما تصبح ملكاً، سيُطلب منك يوميّاً تدمير هذا المكان المُخجل، واستخدام الديناميت لدفنه إلى الأبد داخل هذا الجبل". تأمّله والده بعناية، ثمّ

أضاف: "وأنا أتوسّل إليك ألّا تستسلم لهذه الضغوط".

فاجأه ذلك الكلام، وذلك لأنّ أباه لطالما كره الاستبداد الذي ساد حقبة فرانكو واعتبر الضريح عاراً وطنياً.

قال الملك: "إنّ تدمير هذه الكنيسة أشبه بالتظاهر بأنّ تاريخنا لم يحدث. وهذه طريقة سهلة للسماح لأنفسنا بالتقدّم بسعادة إلى الأمام، والقول إنّ فرانكو آخر لن يظهر مجدّداً. لكن بالطبع هذا قد يحدث، وسيحدث بالتأكيد إن لم نكن يقظين. ربّما كنت تذكر كلام ابن بلادنا خورخي سانتيانا–"

فقال جوليان وهو يكرّر المثل الخالد الذي تعلّمه في المدرسة: "من لا يتذكّرون الماضي محكومون بتكراره".

قال والده: "بالضبط، والتاريخ أثبت لنا تكراراً أنّ المجانين سيصعدون مراراً وتكراراً على أمواج عاتية من القومية العدوانية والمتعصّبة، حتّى في أماكن لا تناسبهم إطلاقاً". ومال الملك نحو ابنه وقال بنبرة أكثر حدّة: "جوليان، قريباً ستجلس على عرش هذه البلاد الرائعة. لقد عانت هذه الأرض الحديثة والمتطوّرة– كالكثير من البلدان– من حقبات مظلمة، ولكنّها خرجت إلى نور الديموقراطية، والتسامح، والحب".

ابتسم الملك وومضت في عينيه حيوية غير متوقّعة.

"عندما تصبح ملكاً يا جوليان، أتمنّى أن تتمكّن من إقناع بلادنا العظيمة بتحويل هذا المكان إلى شيء أقوى بكثير من مجرّد ضريح مثير للخلاف، وموقع يشدّ فضول السيّاح. فهذا المجمّع ينبغي أن يكون متحفاً حياً. ينبغي أن يكون رمزاً نابضاً بالحياة للتسامح، يتجمّع فيه أولاد المدارس داخل جبل ليتعلّموا عن أهوال الطغيان وقسوة القمع، لكي لا يرضوا بها أبداً".

تابع الملك بسرعة أكبر كما لو أنّه انتظر طوال حياته ليقول هذا الكلام.

"والأهمّ أنّ هذا المتحف ينبغي أن يعرف الدروس الأخرى التي علّمنا إيّاها التاريخ؛ وهي أنّ الطغيان والقمع لا يتماشيان مع الرحمة... وأنّ صيحات المتعصّبين في العالم تُسكِتها دائماً أصوات الاعتدال المتوحّدة التي ترتفع في وجههم. هذه الأصوات، هذه الجوقات من التعاطف والتسامح والرحمة هي ما أدعو أن ترتفع يوماً من قمّة هذا الجبل".

الآن، بينما كان صدى كلمات أبيه يتردّد في ذهنه، نظر إلى غرفة المستشفى التي أضاءها القمر، وراقب والده وهو ينام بهدوء. شعر جوليان أنّ الرجل لم يبدُ يوماً راضياً كما هو الآن.

نظر جوليان إلى الأسقف فالديسبينو، وأشار إلى كرسيّ إلى جانب سرير أبيه. "اجلس مع الملك، فهو سيفرح بذلك. سأطلب من الممرّضات ألّا يزعجنكما، وسأعود إليكما بعد ساعة".

ابتسم لـه فالديسبينو، وللمرّة الأولـى منذ مراسم تثبيت جوليان في طفولتـه، تقدّم الأسقف إلى الأمام وأحاط الأمير بذراعيه محتضناً إيّاه بحرارة. وفي أثناء ذلك، فوجئ جوليان بنحول جسده وضعفه تحت ثوبه الكنسي. بدا الأسقف المسنّ أكثر وهناً من الملك نفسه، ولم يستطع جوليان إلّا أن يتساءل عمّا إذا كان هذان الصديقان العزيزان سيجتمعان في السماء قريباً.

قال الأسقف: "أنا فخور بك جدّاً، وأعرف أنّك ستكون قائداً عطوفاً. فقد أحسن والدك تربيتك".

قال جوليان مبتسماً: "شكراً لك. أعتقد أنّه حصل على بعض المساعدة في ذلك".

ترك جوليان والده والأسقف بمفردهما، وعبَر أروقة المستشفى. توقّف أمام إحدى النوافذ العريضة ليتأمّل الدير بإضاءته الرائعة على التلّ.

الإسكوريال.

المدفن المبجّل لملوك إسبانيا.

تذكّر الزيارة التي قام بها في طفولته إلى السرداب الملكي مع أبيه، تذكّر كيف حدّق إلى جميع الأضرحة المذهّبة وراوده إحساس غريب؛ *أنا لن أدفن أبداً في هذه الغرفة.*

شعر أنّ الحدس الذي راوده في تلك اللحظة كان أكثر وضوحاً من أيّ شيء عرفه في حياته، وفي حين أنّ تلك الذكرى لم تغب عن ذهنه، إلّا أنّه لطالما اعتقد أنّها مجرّد هاجس بلا معنى... خوف شعر به طفل أمام الموت. لكن الليلة، وهو يواجه صعوده الوشيك إلى عرش إسبانيا، راودته فكرة مفاجئة.

ربّما كنت أعرف مصيري وأنا طفل.

ربّما عرفتُ دائماً ما هو هدفي حين أصبح ملكاً.

كان التغيير العميق يجتاح بلاده والعالم. فالتقاليد القديمة كانت تموت، وتولد مكانها طرائق جديدة. ربّما حان الوقت لإلغاء المَلكية القديمة إلى الأبد. للحظة، تخيّل جوليان نفسه يقرأ إعلاناً ملكياً غير مسبوق.

أنا آخر ملوك إسبانيا.

سبّبت له تلك الفكرة اضطراباً عميقاً.

لحسن الحظّ، قاطع سيلَ أفكاره اهتزاز هاتفه الخلوي الذي اقترضه من الحرس الملكي. تسارع نبض الأمير عندما رأى أنّ رمز رقم المتّصل كان 93.

برشلونة.

فتح الخطّ وردّ قائلاً: "معكم جوليان.

فأتاه صوت ناعم ومتعب. "جوليان، هذه أنا..."

شعر جوليان بانفعال مفاجئ، فجلس على كرسيّ وأغمض عينيه، وهمس قائلاً: "حبيبتي، لا أدري كيف أبدأ بالتعبير لك عن أسفي".

الفصل 100

خارج الكنيسة، وقفت أمبرا فيدال في ضباب الفجر حاملة الهاتف بقلق قرب أذنها. *جوليان آسف!* شعرت بفزع متعاظم خشية أن يكون على وشك الاعتراف لها بشيء يتعلّق بالأحداث الرهيبة التي حدثت هذه الليلة.

وقف عميلان من عملاء الحرس الملكي في الجوار، بعيداً عن السمع.

بدأ الأمير جوليان يقول بهدوء: "أمبرا، عرض الزواج الذي قدّمته لك... أنا آسف جدّاً".

شعرت أمبرا بالإرباك؛ فعرض الزواج الذي قدّمه لها الأمير على التلفاز كان آخر ما يشغل بالها هذه الليلة.

قال: "لقد حاولت أن أكون رومانسياً، ولكنني عوضاً عن ذلك وضعتك في موقف محرج جدّاً. وبعد ذلك، حين أخبرتني أنّك غير قادرة على الإنجاب... ابتعدت عنك. لكن، لم يكن هذا هو السبب. كان سبب ذلك أنّني لم أصدّق أنّك لم تخبريني من قبل. لقد تصرّفتُ بسرعة، أنا أعرف، ولكنّني وقعت بحبّك سريعاً. أردت أن نبدأ حياتنا معاً؛ ربّما لأنّ والدي كان يحتضر-"

قاطعته قائلة: "جوليان، توقّف! أنت لست بحاجة إلى الاعتذار. وهذه الليلة، ثمّة أمور أكثر أهمّية بكثير-"

"كلّا، ما من شيء أكثر أهمّية. ليس بالنسبة إليّ. أريد أن تعرفي أنّني آسف جدّاً حيال الطريقة التي حدثت فيها الأمور".

كان الصوت الذي تسمعه صوت الرجل الجادّ والصريح الذي وقعت في حبه منذ أشهر. همست قائلة: "شكراً لك، جوليان. هذا يعني لي الكثير".

خيّم صمت غريب بينهما. وأخيراً، استجمعت أمبرا شجاعتها لتطرح عليه السؤال الصعب الذي تحتاج إلى جواب عليه.

همست قائلة: "جوليان، أريد أن أعرف ما إذا كنت متورّطاً بأيّ شكل من الأشكال في مقتل إدموند كيرش".

صمت الأمير. وعندما تكلّم أخيراً، كان صوته مليئاً بالألم: "أمبرا، لقد تقبّلت بصعوبة الوقت الذي كنت تمضينه مع كيرش للإعداد لهذا الحدث. كما أنّني اختلفت

بشدّة مع قرارك بالمشاركة في استضافة شخصية مثيرة للجدل مثله. بصراحة، كنت أتمنّى لو لم تقابليه إطلاقاً". صمت قليلاً، ثمّ أضاف: "لكن، كلّا، أنا أقسم لك إنّني لست متورّطاً في مقتله على الإطلاق. لقد كان هذا الاغتيال مروّعاً جدّاً... لا سيّما وأنّه حدث علناً وفي بلادنا. ونظراً إلى كونه قد وقع على مسافة قصيرة من المرأة التي أحبّها، فقد هزّني من الصميم".

لمست أمبرا الصدق في صوته، وشعرت بارتياح كبير. "جوليان، أنا آسفة لأنّني سألت عن ذلك. لكن مع كلّ التقارير الإخبارية ولا سيّما حول القصر، وفالديسبينو، وقصّة الاختطاف... لم أعد أعلم ما يجدر بي التفكير فيه بعد الآن".

فأخبرها جوليان بكلّ ما عرفه عن شبكة المؤامرات المعقّدة التي أحاطت بكيرش، كما أخبرها عن والده المريض، ولقائهما المؤثّر، وصحّة الملك المتدهورة بسرعة.

وهمس قائلاً: "ارجعي إليّ، أنا بحاجة إلى رؤيتك".

شعرت أمبرا بفيض من العواطف المتضاربة وهي تسمع صوته الرقيق.

قال بنبرة أكثر مرحاً: "ثمّة أمر واحد بعد. خطرت ببالي فكرة جنونية، ولا أدري ما رأيك بها". صمت الأمير قليلاً ثم تابع: "أعتقد أنّه علينا إلغاء خطوبتنا... والبدء من جديد".

ترنّحت أمبرا وهي تسمع تلك الكلمات. كانت تعرف أن التداعيات السياسية على الأمير والقصر ستكون هائلة. "هل... ستفعل ذلك؟".

ضحك جوليان بحنان. "عزيزتي، أنا مستعدّ لفعل أيّ شيء لأحصل على فرصة عرض الزواج عليك مجدّداً في يوم ما، على انفراد".

الفصل 101

ConspiracyNet.com

خبر عاجل - عن محاضرة كيرش

أخيراً على الهواء!

كانت مذهلة!

لإعادة المشاهدة وردود الفعل العالمية، انقر هنا!

وفي الأخبار ذات الصلة...

اعتراف باباوي

ينفي المسؤولون البالماريون بشدّة هذه الليلة الادّعاءات القائلة إنّهم على علاقة برجل يُعرف باسم الوصيّ. وبغضّ النظر عن نتائج التحقيق، يعتقد الخبراء أنّ فضيحة الليلة قد تشكّل الضربة القاضية لهذه الكنيسة المثيرة للجدل، والتي زعم إدموند كيرش دوماً أنّها مسؤولة عن وفاة والدته.

بالإضافة إلى ذلك، ومع التركيز العالمي المصبوب حالياً بقسوة على البالماريين، اكتشفت مصادر إعلامية للتوّ قصّة إخبارية ترجع إلى أبريل 2016. وهذه القصّة التي انتشرت حالياً على نطاق واسع، وهي عبارة عن مقابلة اعترف فيها البابا البالماري السابق غريغوريو الثامن عشر (والمعروف أيضاً باسم غينيس خيسوس هرنانديز) أنّ كنيسته كانت "خدعة منذ البداية" وتأسّست "كمخطّط للتهرّب من الضرائب".

القصر الملكي: اعتذار، ادّعاءات، وملك مريض

أصدر القصر الملكي بيانات تبرّئ القائد غارزا وروبرت لانغدون من أيّ جرم هذه الليلة. وتمّ تقديم اعتذارات علنية لكلا الرجلين.

ومع أنّ القصر لم يعلّق بعد على التورّط الظاهري للأسقف فالديسبينو في جرائم هذه الليلة، لكن يُعتقَد أن الأسقف موجود حالياً مع الأمير جوليان في مستشفى

لم يُكشَف عن اسمه، حيث يقوم الأمير برعاية والده المريض الذي يُقال إنّ حالته قد تدهورت.

أين MONTE؟

يبدو أنّ مُخبرنا الحصري monte@iglesia.or قد اختفى من دون أن يترك أثراً أو يكشف عن هويّته. واستناداً إلى استطلاع المستخدمين لموقعنا، ما زال معظم الناس يشتبهون أنّ "Monte" هو أحد تلامذة كيرش الخبراء بالتكنولوجيا. ولكنّ نظرية جديدة تظهر الآن، ومفادها أنّ الاسم المستعار "Monte" قد يكون تصغيراً لاسم "Monica"، منسّقة العلاقات العامّة في القصر الملكي، مونيكا مارتن.

سنوافيكم بالمزيد من الأخبار فور ورودها.

الفصل 102

ثمّة ثلاث وثلاثون من "حدائق شكسبير" في العالم. وهذه الحدائق النباتية لا تضمّ سوى النباتات المذكورة في أعمال وليام شكسبير، بما في ذلك وردة جولييت "التي لا يهمّ اسمها"، وباقة أوفيليا من إكليل الجبل، والبنفسج، وزهرة الحوض، والحرمل، والأقحوان. وبالإضافة إلى الحدائق الموجودة في ستراتفورد أبون آيفن، وفيينا، وسان فرانسيسكو، وسنترال بارك في مدينة نيويورك، ثمّة حديقة لشكسبير تقع بجانب مركز برشلونة للحوسبة الفائقة.

في الوهج الخافت لمصابيح الشارع البعيدة، جلست أمبرا فيدال على أحد المقاعد بين أزهار الحوض، وأنهت مكالمتها الهاتفية المؤثّرة مع الأمير جوليان، في الوقت الذي خرج فيه روبرت لانغدون من الكنيسة. أعادت الهاتف إلى الحارسيَن الملكيَين، ونادت لانغدون الذي رآها وتوجّه إليها في الظلام.

وبينما كان البروفيسور الأميركي يتمشّى في الحديقة، لم تستطع أن تقاوم الابتسام وهي تنظر إلى الطريقة التي رمى بها سترته على كتفه ورفع كمّيه، كاشفاً عن ساعة ميكي ماوس بالكامل.

قال لها: "مرحباً". وبدا مستنزفاً تماماً، على الرغم من الابتسامة الجانبية التي علت وجهه.

وبينما كان الاثنان يتجوّلان في الحديقة، منحهما الحارسان الملكيان بعض المسافة، فأخبرت أمبرا لانغدون بحديثها مع الأمير، وروت له كيف اعتذر منها، وادّعى أنّه بريء، ثمّ عرض عليها فسخ خطوبتهما، والبدء بالتعارف من جديد.

قال لانغدون ممازحاً على الرغم من أنّه بدا متأثّراً بسلوك الأمير: "إنّه أمير الأحلام بحقّ".

قالت أمبرا: "لقد كان قلقاً عليّ. كانت هذه الليلة صعبة، ويريد منّي العودة إلى مدريد حالاً. فالملك يحتضر، وجوليان–"

قال لانغدون برقّة: "أمبرا، لستِ بحاجة إلى شرح أيّ شيء. عليك الذهاب".

شعرت أمبرا بشيء من الخيبة في صوته، وراودها هذا الإحساس هي الأخرى في أعماقها. قالت: "روبرت، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً شخصياً؟".

"بالطبع".

تردّدت قبل أن تقول: "بالنسبة إليك شخصياً... هل تجد قوانين الفيزياء كافية؟".

نظر لانغدون جانباً كما لو أنّه توقّع سؤالاً مختلفاً تماماً. "كافية من أيّ ناحية؟".

"كافية روحياً. أهي كافية للعيش في عالم تُنتج فيه قوانين الطبيعة الحياة تلقائيّاً؟ أم تفضّل... الله؟". صمتت وبدا عليها الإحراج. "أنا آسفة، فبعد كلّ ما مررنا به هذه الليلة، أنا أعلم أنّه سؤال غريب".

قال لانغدون ضاحكاً: "حسناً، أعتقد أنّ جوابي يحتاج إلى قليل من النوم. لكن كلّا، إنّه ليس غريباً. فالناس يسألونني دائماً إن كنت أؤمن بالله".

"وبماذا تجيبهم؟".

"أجيبهم بالحقيقة. أقول لهم دائماً إنّه بالنسبة إليّ، إنّ مسألة الله تكمن في فهم الفرق بين الرموز والأنماط".

نظرت إليه أمبرا قائلة: "لست واثقة أنّني فهمت".

فقال لانغدون: "الرموز والأنماط مختلفة جدّاً عن بعضها بعضاً، والكثير من الناس يخلطون بين الاثنين. لكن في مجالي، من الأهمّية بمكان فهم الفرق الجوهري بينها".

"ألا هو؟".

توقّف لانغدون عن الكلام والتفت إليها: "النمط عبارة عن أيّ تسلسل منظّم على نحو واضح. والأنماط تظهر في أيّ مكان من الطبيعة، في بذور دوّار الشمس المصفوفة في شكل دائري، وفي الخلايا السداسية لقرص العسل، والتموّجات الدائرية في بركة عندما تقفز فيها سمكة، إلى آخره".

"حسناً، والرموز؟".

قال بصوت أعلى: "الرموز خاصّة. وبتعريفها، لا بدّ أن تحمل معلومات. يجب أن تقدّم أكثر من مجرّد نمط، أي يجب أن تنقل بيانات ومعنى. وتشمل أمثلة الرموز على اللغة المكتوبة، والتدوين الموسيقي، والمعادلات الرياضية، ولغة الكمبيوتر، وحتّى الرموز البسيطة مثل الصليب. كلّ هذه الأمثلة يمكن أن تنقل معنى أو معلومات بطريقة لا تستطيع فعلها بذور دوّار الشمس".

فهمت أمبرا الفكرة ولكنّها لم تفهم كيفيّة ارتباطها بسؤالها عن الله.

تابع لانغدون يقول: "الفرق الآخر بين الرموز والأنماط هو أنّ الرموز لا تظهر بشكل طبيعي في العالم. فالكتابة الموسيقية لا تنبت على الأشجار، والرموز لا تكتب نفسها على الرمال. الرموز اختراع متعمّد للوعي الذاتي".

أومأت أمبرا برأسها موافقة. "إذاً، تملك الرموز خلفها نيّة أو وعياً".

"بالضبط. فالرموز لا تظهر عضوياً، بل ينبغي ابتكارها".

تأمّلته أمبرا مطوّلاً. "وماذا عن الحمض النووي؟".

ظهرت ابتسامة احترافية على شفتَي لانغدون وقال: "تماماً، الشيفرة الوراثية. تلك هي المفارقة".

شعرت أمبرا بفيض من الحماسة. فالشيفرة الوراثية تحمل بالطبع بيانات، أي تعليمات محدّدة حول كيفيّة بناء الكائنات الحيّة. وبحسب منطق لانغدون، هذا لا يعني سوى شيء واحد. "أنت تعتقد أنّ الحمض النووي تمّ إنشاؤه من قبل ذكاء!".

رفع لانغدون يده مدافعاً عن نفسه بطريقة ساحرة، ثم قال ضاحكاً: "مهلاً، مهلاً! أنت تدوسين على أرض خطرة. دعيني أقول ما يلي. منذ أن كنت طفلاً، كان لديّ إحساس أنّ ثمّة وعياً وراء هذا الكون. ثمّ رأيت دقّة الرياضيات، وموثوقية الفيزياء، وتناظر الكون، ولم أشعر أنّني أشاهد علماً بارداً. أنا أشعر أنّني أرى بصمة حيّة... ظلّاً لقوّة أعظم تتجاوز إدراكنا".

شعرت أمبرا بقوّة كلماته. وأخيراً قالت: "أتمنّى لو كان جميع الناس يفكّرون مثلك. إذ يبدو أنّنا نتقاتل كثيراً حول الله، ولكلّ منّا نسخته المختلفة عن الحقيقة".

"أجل. لذلك كان إدموند يأمل أن يوحّدنا العلم يوماً ما. فقد قال لي يوماً: لو كنّا نعبد الجاذبية، لما اختلفنا حول الاتّجاه الذي تشدّ إليه".

استخدم لانغدون عقب قدمه ليرسم بعض الخدوش على الطريق المكسوة بالحصى بينهما، وسألها: "أهذا صحيح أم خاطئ؟".

نظرت أمبرا إلى الخدوش التي رسمها بشيء من الحيرة، وكانت عبارة عن معادلة بسيطة مؤلّفة من أرقام رومانية.

$$I + XI = X$$

واحد زائد أحد عشر يساوي عشرة؟ فقالت على الفور: "خطأ".

"وهل ثمّة طريقة لاعتبار هذه المعادلة صحيحة؟".

هزّت أمبرا رأسها نافية: "كلّا. فما كتبتَه خاطئ بالتأكيد".

عندئذٍ، أمسك لانغدون بيدها برفق، وقادها إلى الاتّجاه المقابل لذاك الذي كانت تقف فيه. والآن، عندما نظرت أمبرا إلى الأسفل، رأت الكتابة من وجهة نظر لانغدون.

كانت المعادلة مقلوبة رأساً على عقب.

$$X = IX + I$$

نظرت إليه مجفلة.

قال لانغدون مبتسماً: "عشرة تساوي تسعة زائد واحد. في بعض الأحيان، ما عليك سوى أن تغيّري وجهة نظرك لرؤية الحقيقة التي يؤيّدها شخص آخر".

أومأت أمبرا برأسها، وتذكّرت أنّها رأت صورة وينستون الذاتية مرّات عديدة من دون أن تفهم معناها الحقيقي.

قال لانغدون وقد بدت عليه التسلية فجأة: "بالحديث عن رؤية الحقيقة الخفيّة، أنت محظوظة. فثمّة رمز سرّي مخبأ هناك، على جانب تلك الشاحنة". وأشار بيده.

نظرت أمبرا إلى حيث أشار، ورأت شاحنة FedEx المتوقّفة عند الإشارة الحمراء في جادة بيدرالبيس.

رمز سرّي! لم ترَ أمبرا سوى شعار الشركة المنتشر في كلّ مكان.

FedEx

قال لها لانغدون: "لكنّ اسم الشركة مشفّر، فهو يحتوي على مستوى ثانٍ من المعنى، رمز مخفيّ يعكس حركة الشركة إلى الأمام".

حدّقت إليه أمبرا. "إنّها مجرّد أحرف".

"ثقي بي، ثمّة رمز شائع جدّاً في شعار FedEx، وهو يشير إلى الأمام".

"يشير؟ هل تعني... مثل سهم؟".

"بالضبط". ابتسم لانغدون مضيفاً: "أنت أمينة متحف، فكّري في المساحة السلبية".

حدّقت أمبرا إلى الشعار، لكنّها لم ترَ شيئاً. وعندما انطلقت الشاحنة مستأنفة طريقها، استدارت إلى لانغدون قائلة: "أخبرني ما هو!".

فضحك قائلاً: "كلّا، سترينه يوماً ما. وعندما تفعلين... لن تتمكّني من عدم رؤيته مجدّداً".

كانت أمبرا على وشك الاعتراض، لكنّ الحارسين الملكيّين اقتربا وقال أحدهما: "آنسة فيدال، الطائرة بانتظارك".

أومأت برأسها والتفتت إلى لانغدون، ثم همست قائلة: "لماذا لا ترافقني؟ أنا واثقة أنّ الأمير يودّ أن يشكرك شخص–"

غير أنّه قاطعها قائلاً: "هذا لطف منك. لكن، أعتقد أنّنا نعرف أنا وأنت أنّني سأكون دخيلاً، وقد سبق وحجزت سريراً هناك". وأشار لانغدون إلى البرج المجاور لفندق الأميرة صوفيا، الذي تناول فيه الغداء مرّة مع إدموند. "لديّ بطاقة ائتماني، كما أنّني استعرت هاتفاً من مختبر إدموند. اطمئنّي، لا ينقصني شيء".

أثقلت فكرة الوداع المفاجئة قلب أمبرا، وشعرت أنّ لانغدون يساوره الإحساس نفسه، على الرغم من تعبير وجهه الساكن. ومن دون أن تأبه بما قد يفكّر فيه الحارسان، تقدّمت خطوة إلى الأمام وأحاطت روبرت لانغدون بذراعيها.

احتضنها البروفيسور بحرارة، ربّما أطول ممّا ينبغي، ثمّ تركها تذهب بلطف.

في تلك اللحظة، شعرت أمبرا فيدال بشيء يتحرّك داخلها. وفجأة فهمت ما كان إدموند يقوله عن طاقة الحبّ والنور... التي تتفتّح نحو الخارج بلا حدود لملء الكون.

الحبّ ليس عاطفة محدودة.

نحن لا نملك منه مقداراً محدّداً.

قلوبنا تولّد الحبّ كلّما احتجنا إليه.

تماماً مثل الآباء والأمّهات الذين يحبّون أطفالهم الذين وُلِدوا حديثاً على الفور من دون أن ينقص حبّهم لبعضهم، هكذا شعرت أمبرا أنّها قادرة على أن تكنّ عاطفة لرجلين مختلفين.

حقّاً، الحبّ ليس عاطفة محدودة. إذ يمكن أن يولد تلقائياً من لا شيء على الإطلاق.

وبينما كانت السيّارة التي تقلّها إلى أميرها تنطلق ببطء، نظرت إلى لانغدون الواقف بمفرده في الحديقة. كان يشاهدها ترحل بنظرات ثابتة. ارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة، ولوّح بيده برقّة، ثمّ أشاح بنظره فجأة... وبدا أنّه احتاج إلى لحظة قبل أن يرفع سترته على كتفه مجدّداً ويبدأ بالسير بمفرده إلى الفندق.

الفصل 103

مع اقتراب عقارب ساعات القصر من وقت الظهيرة، جمعت مونيكا مارتن ملاحظاتها واستعدّت للخروج إلى ساحة ألمودينا لمخاطبة وسائل الإعلام المجتمعة.

في وقت سابق من صباح ذلك اليوم، خرج الأمير جوليان من مستشفى الإسكوريال وأعلن على الهواء مباشرة عن وفاة أبيه. تكلّم بانفعال واضح، وبرباطة جأش تليق بمنصبه عن إرث الملك وطموحاته بشأن البلاد، ودعا إلى التسامح في عالم يسوده الانقسام. وعد جوليان بالتعلّم من التاريخ، وفتح قلبه للتغيير. كما أشاد بثقافة إسبانيا وجمالها، وأعلن عن حبّه العميق والخالد لشعبها.

كانت تلك الخطبة واحدة من أروع الخطب التي سمعتها مارتن. وبرأيها، ما من طريقة أقوى ليبدأ ملك إسبانيا المستقبلي بها عهده.

في نهاية تلك الكلمة المؤثّرة، خصّص جوليان بضع دقائق لتكريم الحارسين الملكين اللذين خسرا حياتهما وهما يؤدّيان واجبهما في الليلة الفائتة ويحميان ملكة إسبانيا المستقبلية. وبعد صمت قصير، أطلع الشعب على تطوّر محزن آخر. فصديق الملك القديم، الأسقف أنطونيو فالديسبينو، توفّي هو الآخر هذا الصباح، بعد بضع ساعات وحسب من وفاة الملك. رحل الأسقف نتيجة قصور في القلب؛ إذ كان على ما يبدو ضعيفاً جدّاً ليحتمل الأسى العميق الذي خلّفه فقدان الملك والادّعاءات القاسية التي وُجّهت ضدّه في الليلة الماضية.

بالطبع، أوقف نبأ وفاة فالديسبينو على الفور دعوة الشعب إلى إجراء تحقيق، حتّى إنّ البعض ذهب إلى حدّ اقتراح تقديم اعتذار في هذا الصدد. ففي النهاية، كانت الأدلّة ضدّ الأسقف ظرفية ويمكن بكلّ سهولة أن تكون قد لُفّقت من قبل أعدائه.

مع اقتراب مارتن من الباب المؤدّي إلى الساحة، ظهر سوريش بهالا إلى جانبها فجأة، وقال باندفاع: "إنّهم ينادونك أيّتها البطلة. الجميع يشيدون بـ monte@iglesia.org، كاشف الحقيقة وتلميذ إدموند كيرش!".

غير أنّها أصرّت قائلة وهي تنظر إلى الأعلى بسأم": "سوريش، أنا لست monte، أؤكّد لك".

فقال سوريش: "آه، أنا أعرف أنّك لست Monte، فهو أكثر احتيالاً منك بكثير. كنت أحاول تعقّب اتّصالاته، ولكنّني وجدت ذلك مستحيلاً. كما لو أنّ لا وجود له".

"حسناً، تابع ذلك. أريد أن أتأكّد من عدم وجود تسرّب للمعلومات من القصر. وأخبرني رجاء أنّ الهواتف التي سرقتَها الليلة الماضية-"

فأكّد لها قائلاً: "أعدتها إلى خزنة الأمير، كما وعدت".

تنهّدت مارتن، لا سيّما وأنّها تعرف أنّ الأمير قد عاد إلى القصر للتوّ.

تابع سوريش: "خبر واحد بعد. لقد أخرجنا للتوّ سجلّات اتّصالات القصر. لا وجود لأيّ سجلّ مكالمة من القصر إلى متحف غوغنهايم في الليلة الفائتة. لا بدّ أنّ شخصاً ما قد اخترق رقمنا لإجراء تلك المكالمة وإدراج اسم أفيلا على قائمة الضيوف. ونحن نتابع هذه المسألة".

شعرت مونيكا بالارتياح لدى سماعها أنّ الاتصال التجريمي لم يخرج من القصر. وقالت وهي تقترب من الباب: "أبقِني على اطّلاع على التطوّرات".

في الخارج، ازداد صوت الفرق الإعلامية ارتفاعاً.

قال سوريش: "الحشد كبير هناك. هل حدث شيء مهم في الليلة الماضية؟".

"آه، بعض الأخبار المهمّة وحسب".

قال سوريش: "لا تخبريني. هل ارتدت أمبرا فيدال فستان مصمّم جديد؟".

أجابته ضاحكة: "سوريش! كم أنت سخيف. عليّ الخروج الآن".

سألها وهو يشير إلى مجموعة الملاحظات التي تحملها بيدها: "ماذا لديك على الجدول؟".

"تفاصيل لا نهاية لها. أوّلاً، لدينا بروتوكولات إعلامية للإعداد لحفل التتويج، ومن ثمّ عليّ مراجعة-"

"ربّاه، كم أنت مملّة!". ثمّ انطلق مبتعداً في رواق آخر.

ضحكت مارتن. *شكراً لك يا سوريش. أنا أحبّك أيضاً.*

وعندما وصلت إلى الباب، حدّقت عبر الساحة المشمسة إلى أكبر حشد من المراسلين والمصوّرين رأته مجتمعاً أمام القصر الملكي يوماً. تنهّدت، ثمّ عدّلت نظّارتها واستجمعت أفكارها قبل أن تخرج إلى شمس إسبانيا.

في الطابق العلوي في الجناح الملكي، شاهد الأمير جوليان مؤتمر مونيكا مارتن الصحفي المتلفز وهو يخلع ملابسه. كان يشعر بالإرهاق، ولكنّه شعر أيضاً بارتياح كبير لعلمه أنّ أمبرا قد عادت وهي تنام بأمان. كلماتها الأخيرة خلال مكالمتهما الهاتفية ملأته سعادة.

جوليان، هذا يعني لي الكثير أن تفكّر في البدء مجدّداً، أنا وأنت وحسب، بعيداً عن أعين الناس. فالحبّ شيء خاصّ، ولا حاجة إلى أن يعرف العالم كلّ التفاصيل.

جعله كلام أمبرا يشعر بتفاؤل كبير في ذلك اليوم الكئيب الذي خسر فيه والده.

وبينما كان ذاهباً لتعليق سترته، شعر بشيء في جيبه، وكانت تلك زجاجة محلول المورفين الفموي التي أخذها من غرفة أبيه في المستشفى. كان جوليان قد فوجئ عندما رأى الزجاجة على الطاولة بجانب الأسقف فالديسبينو فارغة تماماً.

في ظلام غرفة المستشفى، وبينما أخذت الحقيقة تتّضح له، ركع وتلا صلاة صامتة للصديقين القديمين. بعد ذلك، دسّ زجاجة المورفين في جيبه بهدوء.

قبل مغادرة الغرفة، رفع برفق وجه الأسقف المبلّل بالدموع عن جثمان أبيه، وأجلسه مجدّداً على كرسيّه... ثم طوى يديه وكأنّه كان يصلّي.

لقد علمّته أمبرا أنّ الحبّ شيء خاصّ، ولا حاجة لكي يعرف العالم كلّ التفاصيل.

الفصل 104

تقع التلّة البالغ ارتفاعها ستمائة قدم والمعروفة باسم مونتجويك في الركن الجنوبي الغربي لبرشلونة. ويتوّجها قصر مونتجويك، وهو عبارة عن حصن كبير يرجع إلى القرن السابع عشر ويقع فوق جرف شديد الانحدار يطلّ على مناظر خلّابة لبحر البليار. تضمّ التلّة أيضاً القصر الوطني، أو بالاو ناسيونال، المذهل. وهو قصر ضخم بني على طراز عصر النهضة، وشكّل محور المعرض الدولي الذي أقيم عام 1929 في برشلونة.

جلس روبرت لانغدون في عربة تلفريك خاصّة، معلّقاً في منتصف الطريق المؤدّية إلى الجبل، وراح يحدّق إلى المناظر الطبيعية للغابة الخضراء الممتدّة تحته، وقد شعر بالارتياح لخروجه من المدينة. فكّر في سرّه: *أنا بحاجة إلى تغيير المنظور*. وراح يستمتع بهدوء المشهد ودفء شمس منتصف النهار.

فبعدما استيقظ في ساعة متأخّرة من الصباح في فندق الأميرة صوفيا، استمتع بحمّام ساخن، ثمّ تناول فطوراً شهياً من البيض والشوفان والتشوروس، وتناول "ركوة" كاملة من قهوة نوماد وهو يتابع أخبار الصباح.

كما كان متوقعاً، هيمنت قصّة إدموند كيرش على موجات الأثير، وراح المندوبون الإعلاميون يناقشون بحماسة نظريات كيرش وتوقّعاته، فضلاً عن تأثيرها المحتمل على الإيمان. أمّا لانغدون، وبصفته أستاذاً جامعياً حبّه الأساسي هو التدريس، فما كان منه سوى الابتسام.

الحوار دائماً أكثر أهمّية من توافق الآراء.

بالفعل، هذا الصباح، رأى لانغدون أول الباعة الذين بدأوا يعرضون ملصقات للسيّارات تحمل جملاً مثل: *كيرش يمثّلني*، أو *المملكة السابعة هي ملكوت الربّ!* فضلاً عن باعة آخرين يبيعون تماثيل للسيّدة العذراء مع تماثيل ساخرة من تشارلز داروين.

الرأسمالية غير طائفية. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يتذكّر المشهد المفضّل لهذا الصباح، جملة كتبت بخطّ اليد على قميص قطني:

أنا MONTE@IGLESIA.ORG

بحسب وسائل الإعلام، بقيت هوية المخبر الكبير على الإنترنت غامضة. كما أحاطت الشكوك بأدوار عدد من اللاعبين الغامضين؛ الوصيّ، الأسقف الراحل، والبالماريين.

كان الأمر عبارة عن خليط من التخمينات.

لحسن الحظّ، بدا أنّ الاهتمام الشعبي بالأحداث العنيفة التي رافقت العرض الذي قدّمه كيرش قد تحوّل إلى حماسة حقيقية حول محتواه. فخاتمة كيرش الكبيرة- أي تصويره الجميل لغد طوباوي- تركت صدى عميقاً لدى ملايين المشاهدين، وحوّلت بعضاً من الكتب الكلاسيكية المتفائلة حول التكنولوجيا إلى الكتب الأكثر مبيعاً بين ليلة وضحاها.

الوفرة: المستقبل أفضل ممّا تظنّون

ماذا تريد التكنولوجيا

التفرّد قريب

كان لا بدّ للانغدون أن يعترف أنّه على الرغم من مخاوف المدرسة القديمة حول صعود التكنولوجيا، إلّا أنّه أكثر تفاؤلاً اليوم حيال آفاق الإنسانية. فقد كانت التقارير الإخبارية تسلّط الضوء على الاختراقات العلمية التي ستمكّن البشر من تنظيف المحيطات الملوّثة، وإنتاج كمّية لا حدود لها من مياه الشرب، وزراعة الغذاء في الصحارى، وعلاج الأمراض المميتة، وإطلاق أسراب من "الطائرات الشمسية بدون طيّار التي ستحلّق فوق البلدان النامية وتزوّدها بخدمة إنترنت مجانية، وتساعد على إدخال "مليار النسمة القابعين في الحضيض" إلى الاقتصاد العالمي.

في ضوء انبهار العالم المفاجئ بالتكنولوجيا، وجد لانغدون صعوبة في تخيّل أنّ أحداً لا يعرف شيئاً عن وينستون. فقد كان كيرش متكتّماً جدّاً حيال ابتكاره. ولا شكّ في أنّ العالم سيسمع عن كمبيوتر إدموند الخارق والمكوّن من قسمين، إ-وايف، الذي سيُترَك لمركز برشلونة للحوسبة الفائقة. وتساءل عن الوقت الذي سيمضي قبل أن يبدأ المبرمجون ببناء نسخ جديدة عن وينستون.

بدأت حرارة عربة التلفريك ترتفع، وكان لانغدون يتوق للخروج إلى الهواء النقيّ واستكشاف القلعة، والقصر، والنافورة السرّية الشهيرة. كما كان متلهّفاً للتفكير في شيء آخر غير إدموند لساعة من الزمن والتجوّل قليلاً.

شعر بالفضول حيال تاريخ مونتجويك، وحوّل نظره إلى اللافتة الإعلامية الكبيرة المثبّتة داخل عربة التلفريك. بدأ القراءة، ولكنّه توقّف بعد أوّل جملة فقط.

اسم مونتجويك مشتقّ من الكلمة الكاتالانية
من القرون الوسطى *مونتجويش* ("تلّة اليهود")
أو من الكلمة اللاتينية *مونس جوفيكوس* ("تلّة جوبيتر").

وهنا، توقّف لانغدون فجأة، وتذكّر أمراً غير متوقّع.
لا يمكن أن تكون هذه مجرّد مصادفة.
كلّما فكّر في الأمر، شعر باضطراب أكبر. وأخيراً، أخرج هاتف إدموند وأعاد قراءة مقولة وينستون تشرشل التي تظهر على الشاشة، حول صنع المرء لإرثه الخاصّ.
التاريخ سيكون رفيقاً بي، فأنا أنوي كتابته.
بعد لحظات طويلة من التأمّل، ضغط لانغدون على أيقونة *W* ورفع الهاتف إلى أذنه.
فُتح الخطّ على الفور.
قال صوت مألوف بلهجة بريطانية: "بروفيسور لانغدون على ما أظنّ. لقد اتّصلت في الوقت المناسب، فأنا سأنسحب قريباً".
من دون أيّ مقدّمات، قال لانغدون: "*Monte* تعني تلّ (hill) بالإسبانية".
أطلق وينستون ضحكته المميّزة الغريبة. "تماماً".
"و*iglesia* تعني كنيسة (church)".
"بالضبط بروفيسور. ربّما يجدر بك تدريس الإسبانية–"
"ما يعني أنّ monte@iglesia.org تعني حرفياً بالإنكليزية hill@church".
صمت وينستون. "هذا صحيح مجدّداً".
"وباعتبار أنّ اسمك وينستون، وأنّ إدموند كان يكنّ إعجاباً كبيراً لوينستون تشرشل، فأنا أجد أنّ عنوان البريد الإلكتروني hill@church نوعاً ما...".
"مصادفة غريبة؟".
"أجل".
أجاب وينستون بصوت بدا فيه شيء من التسلية: "حسناً، من الناحية الإحصائية، لا بدّ لي أن أوافقك الرأي. فقد توقّعت أن تتمكّن من ربط هذه الخيوط مع بعضها".
حدّق لانغدون من النافذة غير مصدّق: "monte@iglesia.org... هو أنت؟".
"هذا صحيح. ففي النهاية، كان ينبغي وجود شخص لصبّ الزيت على النار من أجل إدموند. ومن يستطيع ذلك سواي؟ أنا من صنعت monte@iglesia.org لتغذية مواقع المؤامرة على الشبكة. وكما تعلم، للمؤامرات حياة خاصّة بها، وقد توقّعت أن يزيد نشاط Monte على الشبكة من عدد مشاهدي إدموند حول العالم بنسبة خمسمائة

بالمائة. وقد تبيّن أنّ النسبة الفعلية كانت ستمائة وعشرين بالمائة. كما سبق لي أن قلت، أعتقد أنّ إدموند كان سيشعر بالفخر

اهتزّت عربة التلفريك بفعل الرياح، وكافح لانغدون لاستيعاب الخبر. "وينستون... هل طلب منك إدموند أن تفعل ذلك؟".

"كلّا، ليس بشكل صريح، لكنّ تعليماته نصّت على أن أبتكر طرائق لزيادة نسبة مشاهدة العرض الذي سيقدّمه قدر الإمكان".

سأله لانغدون: "وماذا لو تمّ القبض عليك؟ فاسم monte@iglesia.org ليس لقباً معقّداً بقدر ما تظنّ".

"ثمّة عدد قليل فقط من الأشخاص الذين يعرفون بوجودي، وبعد نحو ثماني دقائق، سأُمحى بشكل دائم وسأختفي، لذلك لست قلقاً بهذا الشأن. Monte كان مجرّد وسيط لخدمة مصالح إدموند، وكما قلت، أعتقد أنّه كان سيسرّ من كيفية سير أحداث هذه الأمسية بالنسبة إليه".

فقال لانغدون: "كيفيّة سير الأحداث! إدموند قُتل!".

قال وينستون بنبرة عملية: "لقد أسأت فهمي، كنت أعني اختراق السوق، وكان ذلك هو الأمر الأساسي الذي تلقّيته كما سبق وقلت".

قال وينستون ذلك بنبرة عملية ذكّرت لانغدون أنّه وإن كان يبدو بشرياً، إلّا أنّه ليس كذلك بالتأكيد.

أضاف وينستون: "لقد كانت وفاة إدموند مأساة رهيبة، وأنا أتمنّى بالطبع لو كان لا يزال حياً. لكن، من الأهمّية بمكان أن نعرف أنّه تصالح مع حقيقة موته الوشيك. فمنذ شهر مضى، طلب منّي أن أجري بحثاً حول أفضل الوسائل لمساعدته على الانتحار. وبعد أن قمت بقراءة مئات الحالات، استنتجت أنّ الحلّ الأفضل يتمثّل في عشر غرامات من *السيكوباربيتال* الذي قام بشرائه وأبقاه في متناول يده".

اعتصر قلب لانغدون حزناً على إدموند. "هل كان ينوي الانتحار؟".

"بالتأكيد. حتّى إنّه طوّر روح دعابة في هذا الشأن. فبينما كنّا نناقش أفضل الطرائق لزيادة نسبة مشاهدة عرض غوغنهايم، مازحني قائلاً إنّه ربما يجدر به أن يتناول أقراص السيكوباربيتال في نهاية العرض والموت على المسرح".

ذُهل لانغدون. "هل قال ذلك حقّاً؟!".

"قال ذلك بمرح كبير. ومزح قائلاً إنّه ما من شيء أفضل لرفع مستوى المشاهدة لبرنامج تلفزيوني من رؤية الناس وهم يموتون خلال البرنامج. كان محقّاً في ذلك بالطبع. فلو قمت بتحليل الأحداث الاعلامية الأكثر مشاهدة في العالم، جميعها تقريباً-"

"وينستون، كفى. هذا موضوع رهيب". *كم ستطول رحلة التلفريك هذه؟* فجأة، بدأ لانغدون يشعر أنّ المقصورة الصغيرة تضيّق الخناق عليه. لم يرَ أمامه سوى الأبراج والأسلاك وهو يتأمّل من النافذة المشهد الغارق بأشعة الشمس الساطعة. فكّر في سرّه: *أشعر أنّني أغلي*. وأخذت الأفكار الغريبة تعصف في رأسه.

قال وينستون: "بروفيسور، هل من سؤال آخر تودّ أن تطرحه عليّ؟".

أجل! فقد أراد أن يصيح بآلاف الأفكار المقلقة التي بدأت تدور في رأسه. *ثمّة الكثير بعد!*

أمر لانغدون نفسه بالزفير والاسترخاء. *فكّر بوضوح يا روبرت. أنت تسبق نفسك.*

لكنّ عقله بدأ يتحرّك بسرعة كبيرة، حيث عجز عن السيطرة عليه.

فكّر كيف أدّت وفاة إدموند إلى جعل محاضرته الموضوعَ المهيمن على أحاديث الكوكب بأكمله... ورفعت نسبة المشاهدة من بضعة ملايين إلى ما يزيد عن خمسمائة مليون مشاهد.

فكّر في رغبة إدموند القديمة بتدمير الكنيسة البالمارية، وكيف أنّ اغتياله على يد عضو في تلك الكنيسة سيُحقّق بكلّ تأكيد ذلك الهدف بشكل نهائي.

وفكّر أيضاً بازدراء إدموند لألدّ أعدائه؛ أولئك المتديّنين الذين سيزعمون باعتداد بالنفس في حال مات إدموند بالسرطان أنّ الله عاقبه. *تماماً كما فعلوا مع الكاتب الملحد كريستوفر هيتشنز*. أمّا الآن، فسيرى الجمهور أنّ إدموند قد ذهب ضحية متعصّب ديني.

إدموند كيرش، ضحية التعصب وشهيد العلم.

نهض لانغدون فجأة متسبّباً باهتزاز المقصورة من جانب إلى آخر. أمسك بالنوافذ المفتوحة، وبينما كانت المقصورة تصدر صريراً، تردّد في رأسه الكلام الذي قاله وينستون في الليلة الماضية.

"لقد أراد إدموند بناء عقيدة جديدة... على أساس العلم".

كما يؤكّد أيّ شخص قرأ تاريخ الأديان، ما من شيء يعزّز إيمان الناس أسرع من إنسان يموت من أجل قضيّته. المسيح على الصليب، كيدوشيم اليهودية.

الاستشهاد موجود دائماً في قلب كلّ الأديان.

أخذت الأفكار التي تظهر في رأس لانغدون تسحبه إلى عمق الحفرة على نحو متسارع.

المعتقدات الجديدة تقدّم إجابات جديدة على أسئلة الحياة الكبيرة.

من أين أتينا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟

المعتقدات الجديدة تدين منافساتها.

لقد ندّد إدموند بالإيمان على وجه الأرض في الليلة الماضية.

المعتقدات الجديدة تَعِد بمستقبل وحياة أفضل.

الوفرة: المستقبل أفضل مما تظنّون.

يبدو أنّ إدموند قد حقّق بشكل منهجي جميع الشروط.

همس لانغدون بصوت مرتجف: "وينستون، من الذي استأجر القاتل لاغتيال إدموند؟".

"إنّه الوصيّ".

فقال لانغدون بحدّة أكبر: "أجل، لكن من هو الوصيّ؟ من الشخص الذي استأجر عضواً في الكنيسة البالمارية لاغتيال إدموند وسط محاضرته التي تبثّ مباشرة؟".

صمت وينستون. "أنا أشعر بالشكّ في صوتك بروفيسور، لكن لا يجدر بك أن تقلق. أنا مبرمج لحماية إدموند. إنّه بالنسبة إليّ أفضل صديق". وصمت قليلاً ثمّ أضاف: "بما أنّك أكاديمي، فلا شكّ أنّك قرأت رواية عن *الفئران والرجال*".

بدا تعليق وينستون خارجاً عن الموضوع. "بالطبع، لكن ما علاقة ذلك-"

شعر لانغدون بالاختناق فجأة. للحظة، اعتقد أنّ عربة التلفريك انزلقت عن مسارها. فقد مال الأفق جانباً، ما اضطرّه إلى التمسّك بالجدار تجنّباً للسقوط.

مخلص، جريء، رحيم. تلك كانت الكلمات التي اختارها لانغدون في المدرسة الثانوية للدفاع عن أشهر الأعمال التي تمّت بدافع الصداقة في الأدب، والمتمثّلة في الخاتمة المروّعة لرواية عن *الفئران والرجال*، والتي يقوم فيها رجل بقتل صديقه الحبيب لتجنيبه نهاية مروّعة.

همس لانغدون: "وينستون. أرجوك... كلّا".

قال وينستون: "ثق بي... هذا ما *أراده* إدموند".

الفصل 105

شعر د. ماتيو فاليرو، مدير مركز برشلونة للحوسبة الفائقة، بشيء من الإرباك وهو يغلق الهاتف ويتوجّه إلى الحرم الرئيس لكنسية توري جيرونا ليحدّق مجدّداً إلى كمبيوتر إدموند كيرش الرائع المؤلّف من طابقين.

كان فاليرو قد عرف في وقت سابق من هذا الصباح أنّه سيصبح المشرف الجديد على هذه الآلة الخارقة. غير أنّ الحماسة والرهبة اللتين شعر بهما في البداية تضاءلتا إلى حدّ كبير فجأة.

منذ دقائق، تلقّى اتصالاً هاتفياً من البوفيسور الأميركي المعروف روبرت لانغدون.

روى له لانغدون قصّة كان فاليرو سيعتبرها خيالاً علمياً قبل يوم واحد وحسب. أمّا اليوم، وبعد مشاهدته العرض المذهل الذي قدّمه كيرش فضلاً عن آلته الفعلية إ-وايف، بدأ يصدّق أنّ تلك القصّة قد تشتمل على شيء من الحقيقة.

كانت الحكاية التي رواها لانغدون حكاية براءة... حكاية نقاء تلك الآلات التي تنفّذ حرفياً وبدقّة ما يطلب منها. دائماً، من دون إهمال. وقد أمضى فاليرو حياته وهو يدرس هذه الآلات... ويتعلّم كيف يرقص على حبالها بحذر للاستفادة من قدراتها قدر الإمكان.

يكمن الفنّ في معرفة كيفيّة السؤال.

كان فاليرو قد حذّر من أنّ الذكاء الاصطناعي يتقدّم بوتيرة سريعة على نحو مضلّل، وأنّه ينبغي فرض مبادئ توجيهية صارمة على قدرته على التفاعل مع العالم البشري.

بالطبع، إنّ ممارسة ضبط النفس ليست متوقّعة من معظم أصحاب الرؤى التكنولوجية، لا سيّما في وجه الاحتمالات الهائلة التي تظهر يومياً تقريباً. وخلف تشويق الابتكار، ثمّة ثروات هائلة يمكن جنيها من الذكاء الاصطناعي. وما من شيء يسهّل تجاوز الخطوط الأخلاقية أسرع من الجشع البشري.

لطالما كان فاليرو شديد الإعجاب بعبقرية كيرش الجريء. لكن في هذه الحالة، يبدو أنّ إدموند تصرّف بتهوّر، وتجاوز الحدود على نحو خطير مع ابتكاره الجديد.

ابتكار لن أعرفه أبداً. الآن، أدرك فاليرو ذلك.

فاستناداً إلى لانغدون، أنشأ إدموند داخل إ-وايف برنامج ذكاء اصطناعي متقدّماً بشكل مذهل، يحمل اسم "وينستون"، وقد تمّت برمجته ليقوم بمسح نفسه عند الساعة

الواحدة ظهراً من اليوم التالي لموت كيرش. قبل دقائق، وبناء على إصرار لانغدون، تمكّن د. فاليرو من التأكيد على أنّ جزءاً كبيراً من بنوك بيانات إ-وايف قد اختفت بالفعل في هذا الوقت بالضبط. وكان المسح عبارة عن "استبدال" كامل للبيانات، الأمر الذي يجعلها غير قابلة للاسترداد.

بدا أنّ هذا الخبر قد أراح لانغدون، لكنّ البروفيسور الأميركي طلب اجتماعاً فورياً معه لمناقشة المسألة بعمق أكبر. اتّفق فاليرو ولانغدون على اللقاء غداً صباحاً في المختبر.

من حيث المبدأ، فهم فاليرو رغبة لانغدون في إعلان القصّة على الفور. لكنّ المشكلة تكمن في المصداقية.

لن يصدّق أحد ذلك.

في الواقع، تمّ مسح جميع آثار برنامج الذكاء الاصطناعي الذي صمّمه كيرش، بالإضافة إلى كلّ سجلات اتصالاته أو مهامه. والأصعب أنّ ابتكار كيرش كان يتجاوز التقدّم الحالي للتكنولوجيا؛ حيث إنّ فاليرو يتوقّع منذ الآن أن يسمع زملاءه وهم يتّهمون لانغدون بتلفيق القصّة بأكملها بسبب الجهل أو الحسد أو الحفاظ على الذات.

بالطبع، ثمّة أيضاً مسألة التداعيات العامّة لإعلان كهذا. فلو تبيّن أنّ قصّة لانغدون كانت صحيحة بالفعل، فإنّ آلة إ-وايف ستُدان كما لو كانت وحش فرانكشتاين. ولن يتورّع الناس عن تدميرها.

لا، بل أسوأ من ذلك.

في هذه الأيّام التي تتفشّى فيها الهجمات الإرهابية، من شأن أيّ شخص أن يقرّر ببساطة تفجير الكنيسة بأكملها، معلناً نفسه منقذاً للبشرية جمعاء.

من الواضح أنّ فاليرو لديه الكثير للتفكير فيه قبل اجتماعه مع لانغدون. لكن في هذه اللحظة، عليه أن يحافظ على وعده.

على الأقلّ، إلى أن نحصل على بعض الإجابات.

شعر فاليرو بحزن كئيب، وسمح لنفسه بإلقاء نظرة أخيرة على الكمبيوتر العجيب المؤلّف من طابقين. أصغى إلى أنفاسه الهادئة مع تدفّق الهواء البارد عبر مضخّاته إلى ملايين الخلايا.

وبينما كان يدخل غرفة الطاقة ليبدأ بإطفاء النظام بأكمله، راوده حافز غير متوقّع، رغبة قويّة لم يشعر بها مرّة خلال سنوات حياته الثلاث والستّين.

لقد رغب في الصلاة.

على قمّة الممشى العلوي لقصر مونتجويك، وقف روبرت لانغدون بمفرده وحدّق إلى الجرف السحيق الذي ينتهي عند الميناء البعيد في الأسفل. كانت الرياح قد اشتدّت، وشعر أنّ توازنه يختلّ إلى حدّ ما، كما لو أنّه يعيد ضبط توازنه العقلي.

على الرغم من تأكيدات مدير مركز برشلونة للحوسبة الفائقة، د. فاليرو، إلّا أنّ لانغدون ظلّ يشعر بالقلق والتوتّر. فأصداء صوت وينستون ما زالت تتردّد في ذهنه. إذ تحدّث كمبيوتر إدموند بهدوء حتّى النهاية.

قال وينستون: "أنا مندهش لسماع استيائك بروفيسور، باعتبار أنّ إيمانك مبنيّ على فعل يتّسم بغموض أكبر بكثير. لقد قمت بوضع حدّ لمعاناة رجل، بلا ألم؛ وذلك لكي ألفت الانتباه إلى أعماله العظيمة".

في عربة التلفريك المتأرجحة، أصغى لانغدون غير مصدّق، بينما كان وينستون يبرّر بهدوء جميع أعماله المثيرة للاضطراب.

شرح له وينستون أنّ معركة إدموند مع الكنيسة البالمارية قد ألهمته للعثور على الأميرال لويس أفيلا واستئجاره. فقد كان يرتاد الكنيسة منذ زمن طويل، وتاريخه مع الإدمان جعله قابلاً للاستغلال ومرشّحاً مثالياً لإلحاق الضرر بسمعة الكنيسة البالمارية. وبالنسبة إلى وينستون، كان تقمّص دور الوصيّ أمراً بسيطاً لا يتطلّب سوى عدد من الاتّصالات، ومن ثمّ تحويل الأموال إلى حساب أفيلا المصرفي. في الواقع، كان البالماريون أبرياء، ولم يؤدّوا أيّ دور على الإطلاق في مؤامرة تلك الليلة.

أمّا هجوم أفيلا على لانغدون على السلّم اللولبي، فأكّد له وينستون أنّه لم يكن مقصوداً. "لقد أرسلت أفيلا إلى ساغرادا فاميليا لكي يتمّ القبض عليه. أردتُه أن يتعرّض للاعتقال لكي يروي قصّته البائسة، والتي ستجذب المزيد من الاهتمام إلى عمل إدموند. طلبت منه أن يدخل المبنى عبر بوّابة الخدمة الشرقية، وأبلغت الشرطة للاختباء هناك. كنت واثقاً أنّ أفيلا سيُعتقل عند محاولته الدخول، ولكنّه قرّر القفز عن السور عوضاً عن ذلك، لأنّه شعر ربّما بوجود الشرطة. أنا أعتذر كثيراً بروفيسور، فخلافاً للآلات، لا يمكن توقّع سلوك البشر".

لم يعد لانغدون يعرف ماذا يصدّق بعد الآن.

آخر شروحات وينستون كانت الأكثر إثارة للقلق. "بعد اجتماع إدموند مع رجال الدين الثلاثة في مونسرات، تلقّينا رسالة صوتية تهديدية من الأسقف فالديسبينو. فقد حذّر الأسقف من أنّ زميليه قلقان للغاية من العرض الذي أعدّه إدموند، وأنّهما يفكّران في اتّخاذ خطوة وقائية والقيام بإعلان مسبق على أمل تكذيب تلك المعلومات ووضعها في إطار مختلف قبل خروجها. وبالطبع، لم يكن هذا الاحتمال مقبولاً".

شعر لانغدون بالغثيان، وكافح للتفكير بينما كانت العربة تتأرجح. قال لانغدون: "كان يجدر بإدموند أن يضيف سطراً واحداً إلى برنامجك: لا تقتل!".

أجاب وينستون: "مع الأسف، الأمر ليس بهذه البساطة. فالبشر لا يتعلّمون من خلال طاعة الوصايا، بل يتعلّمون بالمثال. وانطلاقاً من كتبكم، وأفلامكم، وأخباركم، وأساطيركم القديمة، لطالما احتفى البشر بتلك النفوس التي بذلت تضحيات شخصية من أجل صالح أكبر. مثال على ذلك، يسوع".

"وينستون، أنا لا أرى صالحاً أكبر هنا".

فأجاب وينستون بنبرته العمليّة: "حقّاً! إذاً اسمح لي أن أطرح عليك هذا السؤال الشهير: هل تفضّل العيش في عالم بلا تكنولوجيا... أم في عالم بلا دين؟ هل تفضّل العيش من دون دواء، وكهرباء، ووسائل نقل، ومضادّات حيوية... أم من دون زعماء الدين الذين يشنّون حروباً ذات أسس واهنة؟".

لم يجبه لانغدون بشيء.

"هذا رأيي بالضبط، بروفيسور. زال الإيمان المظلم وساد العلم النقيّ".

وقف لانغدون بمفرده الآن على سطح القلعة، وحدّق إلى المياه المتلألئة في البعيد. وشعر بإحساس غريب بالانفصال عن عالمه. هبط درجات القلعة إلى الحدائق المجاورة، وتنشّق بعمق الهواء العابق بالصنوبر والأشجار العطرية، وحاول بيأس أن ينسى صوت وينستون. هنا بين الأزهار، افتقد أمبرا فجأة، وأراد لو يتّصل بها ويسمع صوتها ليخبرها بكلّ ما حدث خلال الساعة الأخيرة. لكنه عندما أخرج هاتف إدموند، أدرك أنّه لا يستطيع إجراء الاتّصال.

تحتاج أمبرا والأمير إلى وقت بمفردهما. بإمكان هذه المكالمة أن تنتظر.

وقع نظره على أيقونة *W* على الشاشة. أصبح الرمز رمادياً الآن، وظهرت رسالة خطأ صغيرة عبره: الاتّصال غير موجود. مع ذلك، شعر لانغدون بشيء من القلق. فمع أنّه لم يكن كثير التشكّك، إلّا أنّه بات يعرف أنّه لن يتمكّن من الوثوق مجدّداً بهذا الجهاز، وسيتساءل دائماً عن القدرات السرّية أو الاتّصالات التي لا تزال مخبّأة في برامجه.

ذهب إلى طريق ضيّق، وبحث إلى أن وجد بستاناً منعزلاً من الأشجار. رمق الهاتف الذي يحمله بيده وفكر بإدموند، ثمّ وضع الجهاز على صخرة مسطّحة. بعد ذلك، وكأنّه يؤدّي طقساً من طقوس التضحية، حمل صخرة ثقيلة فوق رأسه وأسقطها بعنف على الهاتف، محطّماً إيّاه إلى عشرات القطع.

في طريقه إلى الحديقة، رمى حطام الهاتف في سلّة مهملات واستدار ليهبط الجبل.

في أثناء ذلك، شعر أنّه أصبح أخفّ وزناً بقليل.

كما راوده شعور غريب... أنّه أصبح أكثر إنسانية بقليل.

الخاتمة

أرسلت شمس ما بعد الظهير أشعّتها على أبراج ساغرادا فاميليا، ملقية ظلالاً عريضة على صفوف السيّاح الذين ينتظرون دخول الكنيسة في ساحة غاودي.

وقف روبرت لانغدون بينهم، وراقب الزوّار وهم يلتقطون الصور لأنفسهم ويسجّلون أشرطة فيديو، والأطفال يصغون إلى سمّاعات الرأس، والناس من حوله منشغلين بإرسال الرسائل والطباعة والحديث، غير مهتمّين كما يبدو بالبازيليك القابعة إلى جانبهم.

كان إدموند قد أعلن في العرض الذي قدّمه ليلة أمس أنّ التكنولوجيا قد خفضت درجة انفصال البشرية من ستّ إلى أربع درجات وحسب، وأصبح كلّ شخص على سطح الأرض مرتبطاً حالياً بشخص آخر بمعدّل لا يزيد عن أربعة أشخاص آخرين.

قال إدموند: *قريباً، سينخفض هذا الرقم إلى صفر*، وهو يشيد "بالتفرّد القادم"، أي اللحظة الذي سيتجاوز فيها الذكاء الاصطناعي الذكاء البشري وسيندمج الاثنان في واحد. وأضاف، *وعندما يحدث ذلك، سنكون نحن الذين نعيش في الوقت الحاضر... قدماء.*

لم يستطع لانغدون أن يتخيّل بعد شكل ذلك المستقبل. لكن، بينما هو يشاهد الناس حوله، شعر أنّ عجائب التكنولوجيا ستسبب مصاعب للمؤمنين.

عندما دخل البازيليك أخيراً، شعر بالارتياح لعودته إلى جوّها المألوف الذي لم يكن يشبه في شيء الأجواء المخيفة لليلة أمس.

اليوم، ساغرادا فاميليا تضجّ بالحياة.

تسلّلت أشعة الضوء القزحية، من قرمزي وذهبي وأرجواني، من خلال الزجاج الملوّن، وأشعلت داخل البناء بغابة كثيفة من الأعمدة المنيرة. عجّت الكنيسة بمئات الزوّار الذين بدوا كالأقزام بين أعمدتها الشبيهة بالأشجار الشاهقة، والذين راحوا يحدّقون إلى سقفها المقبّب المتوهّج، ويطلقون همسات الإعجاب مولّدين ضجيجاً خافتاً ومريحاً.

بينما كان لانغدون يتقدّم داخل البازيليك، راح نظره ينتقل من شكل عضوي إلى آخر، ليصعد أخيراً إلى القبّة المكوّنة من شبكة من الهياكل الصغيرة شبيهة بالخلايا. يدّعي البعض أنّ هذا السقف المركزي يشبه كائناً معقّداً تمّت رؤيته عبر المجهر. والآن، بينما كان لانغدون ينظر إليه وهو متوهّج بالضوء، اقتنع إلى حدّ ما بتلك الفكرة.

"بروفيسور". كان الصوت الذي ناداه مألوفاً، فالتفت ليرى الأب بينيا يقترب منه بسرعة. قال الكاهن النحيل بصدق: "أنا آسف، لقد سمعت للتوّ شخصاً رآك تنتظر في الصفّ، لماذا لم تنادني!".

ابتسم لانغدون مجيباً: "شكراً لك. لكنّني استفدت من ذلك الوقت لتأمّل الواجهة. بالإضافة إلى ذلك، توقّعت أن تكون نائماً اليوم".

ضحك بينيا: "نائم! ربّما غداً".

قال لانغدون مشيراً إلى القاعة: "الجوّ اليوم مختلف عن الليلة الماضية".

"الضوء الطبيعي يفعل العجائب؛ تماماً كما يفعل وجود الناس". صمت قليلاً ورمق لانغدون قبل أن يضيف: "في الواقع، بما أنّك هنا، أودّ أن أعرف رأيك بشيء موجود في الأسفل، إن لم يكن لديك مانع".

وبينما كان لانغدون يتبع بينيا بين الحشود، سمع أصوات أعمال البناء وهي تتردّد فوق رأسه؛ الأمر الذي ذكّره أنّ ساغرادا فاميليا ما زالت قيد التطوّر.

سأله لانغدون: "هل صدف وشاهدتَ عرض إدموند؟".

ضحك بينيا. "في الواقع، شاهدته ثلاث مرّات. ولا بدّ لي أن أقول إنّ هذا المفهوم الجديد للإنتروبيا، أي الكون الذي يريد نشر الطاقة، بدا لي شبيهاً بسفر التكوين. إذ أرى كرة مزدهرة من الطاقة تبتعد أكثر وأكثر في ظلام الفضاء... وتجلب الضوء إلى أماكن يسودها الظلام الحالك".

ابتسم لانغدون وتمنّى لو أنّه عرف بينيا منذ الطفولة. "هل أصدر الفاتيكان بياناً رسمياً؟".

"إنّهم يحاولون، لكن يبدو أنّ ثمّة بعض"- وهزّ بينيا كتفيه هازلاً- "الاختلاف. فمسألة أصل الإنسان، كما تعلم، كانت دائماً نقطة شائكة بالنسبة إلى المسيحيين، ولا سيّما الأصوليين منهم، ولو سألتني، لقمنا بتسويتها نهائياً".

قال لانغدون: "حقّاً! وكيف يمكننا فعل ذلك؟".

"علينا أن نفعل جميعاً ما تفعله الكثير من الكنائس أساساً. والمسيحيون الذين يمتنعون عن ذلك يجعلوننا نبدو جميعاً حمقى".

توقّف لانغدون في مكانه وحدّق إلى الكاهن المسنّ.

قال بينيا ضاحكاً: "آه، من فضلك! أنا لا أعتقد أنّ الله نفسه الذي أنعم علينا بالمنطق، والعقل، والفكر-"

"- أرادنا أن نمتنع عن استخدامها؟".

ابتسم بينيا: "أنا أرى أنّك مطّلع على غاليليو. في الواقع، كانت الفيزياء حبّ طفولتي. وقرّرت أن أصبح كاهناً بسبب احترامي المتعاظم للكون الفيزيائي. وهذا أحد

الأسباب التي جعلت ساغرادا فاميليا بهذه الأهمّية بالنسبة إليّ. فهي تبدو لي كأنّها كنيسة المستقبل... كنيسة مرتبطة مباشرة بالطبيعة".

وجد لانغدون نفسه يتساءل عمّا إذا كانت ساغرادا فاميليا- على غرار البانتيون في روما- ستصبح يوماً ما نقطة انتقالية، بناء يملك قدماً في الماضي وقدماً في المستقبل، مثل جسر مادّي بين إيمان بائد وآخر ناشئ. وفي هذه الحالة، ستصبح ساغرادا فاميليا أكثر أهمّية بكثير ممّا يتصوّر أيّ إنسان.

كان بينيا يقود لانغدون عبر السلّم اللولبي نفسه الذي استخدموه في الليلة الماضية.

السرداب.

قال لانغدون في طريقهما: "من البديهي جداً بالنسبة إليّ أنّ ثمّة طريقة واحدة لتتجاوز فيها المسيحية عصر العلم القادم. علينا أن نكفّ عن رفض الاكتشافات العلمية. علينا أن نكفّ عن التنديد بالحقائق التي يمكن إثباتها. علينا أن نصبح شريكاً روحياً للعلم، وأن نستخدم تجربتنا الواسعة المتمثّلة في آلاف السنوات من الفلسفة، والبحث الشخصي، والتأمّل، والبحث عن الذات، لمساعدة البشرية على بناء أخلاقي وضمان أن تقوم التكنولوجيا في المستقبل بتوحيدنا، وتنويرنا، ورفعنا نحو الأعلى... عوضاً عن تدميرنا".

قال لانغدون: "أنا أتّفق معك تماماً". *أتمنّى فقط أن يقبل العلم المساعدة التي تقدّمونها.*

عند أسفل السلّم، أشار بينيا إلى صندوق العرض وراء قبر غاودي، الصندوق الذي يحتوي على كتاب إدموند، أي أعمال وليام بليك. "هذا ما أردت أن أسألك عنه".

"كتاب بليك!".

"أجل. فكما تعلم، وعدت السيّد كيرش بأن أعرض هذا الكتاب هنا. وقد وافقت لأنّني افترضت أنّه أراد منّي عرض هذه الصورة".

وصلا إلى الصندوق، ونظرا إلى رسم بليك المذهل الذي يسمّيه أوريزن وهو يقيس الكون بواسطة بوصلة جيومترية.

قال بينيا: "لكنّ النصّ الموجود في الصفحة المقابلة لفت انتباهي... وأشعر أنّه يجدر بك قراءة البيت الأخير

قال لانغدون من دون أن يحوّل نظره عن بينيا. "زال الإيمان المظلم وساد العلم النقيّ؟".

بدا الإعجاب في عينَي بينيا: "أنت تعرفه".

ابتسم لانغدون. "أجل".

"حسناً، لا بدّ لي من القول إنّه يزعجني بعمق. فقد وجدت عبارة الإيمان المظلم مثيرة للاضطراب. يبدو كأنّ بليك يزعم أنّ الإيمان مظلم... وخبيث وشرير بشكل من الأشكال".

أجاب لانغدون: "هذا سوء فهم شائع. في الواقع، كان بليك رجلاً روحانياً بعمق، تطوّر على الصعيد الأخلاقي أبعد بكثير من مسيحية إنكلترا في القرن الثامن عشر التي اتّسمت بالجفاف وبضيق الفكر

بدا الاستغراب على وجه بينيا.

أكّد له لانغدون قائلاً: "إنّ البيت الختامي في قصيدة بليك يمكن أن يعني ببساطة ما يلي: سيزيل العلم النقيّ المعتقدات المظلمة... لكي تزدهر الأديان النيّرة".

خيّم الصمت على بينيا لوقت طويل، قبل أن تظهر ابتسامة هادئة ببطء على شفتيه. "شكراً لك بروفيسور. أعتقد أنّك أنقذتني من معضلة أخلاقية محرجة".

في الطابق العلوي في القاعة الرئيسة، بعدما ودّع لانغدون الأب بينيا، تجوّل لبعض الوقت ثمّ جلس بهدوء على أحد المقاعد، مع مئات الزوّار الآخرين، لمشاهدة الأشعة الملوّنة من الضوء وهي تزحف على الأعمدة الشاهقة مع غروب الشمس ببطء.

فكّر بجميع الأديان في العالم، بأصولها المشتركة، وبالشمس والقمر والبحر والرياح.

كانت الطبيعة في ما مضى هي الجوهر.

بالنسبة إلينا جميعاً.

بالطبع، اختفت الوحدة منذ زمن طويل، وتشعّبت المعتقدات إلى ما لا نهاية، وكلّ منها يدّعي أنّه يملك الحقيقة الوحيدة.

لكن، هذه الليلة، وبينما كان لانغدون جالساً داخل هذا المعبد الرائع، وجد نفسه محاطاً بأشخاص من الأديان والألوان واللغات والثقافات كافّة، وجميعهم يحدّقون إلى السماء بشعور مشترك بالعجب.

شعاع الشمس على الصخر.

عبر الآن سيل من الصور في ذهن لانغدون؛ ستونهانج، الأهرامات الكبرى، كهوف أجانتا، أبو سنبل، معبد تشيتشن إيتزا، وجميعها مواقع حول العالم ذات مكانة تجمّع فيها القدماء لتأمّل المشهد نفسه.

في تلك اللحظة، شعر لانغدون باهتزاز ضئيل في الأرض تحت قدميه، كما لو أنّ العالم بلغ نقطة تحوّل... كما لو أنّ الفكر الديني تجاوز للتوّ أبعد مدى في مداره، وبدأ الآن يدور بشكل عكسي، بعد أن تعب من رحلته الطويلة، وقرّر أخيراً العودة إلى دياره.

رواية جديدة للكاتب الأكثر شعبية في مجال أدب التشويق.

بيلباو، إسبانيا.

يصل روبرت لانغدون، أستاذ هارفارد في علم الرموز إلى متحف غوغنهايم للفنّ الحديث في بيلباو لحضور إعلان كبير سيتمّ فيه كشف النقاب عن اكتشاف «سيغيّر وجه العلم إلى الأبد». أمّا مضيف ذلك الحدث فهو إدموند كيرش، الملياردير والعالم المستقبلي البالغ من العمر أربعين عاماً، والذي جعلت منه ابتكاراته وتوقعاته الجريئة في مجال التكنولوجيا الفائقة شخصية عالمية شهيرة. ينوي كيرش، الذي كان من أوائل طلّاب لانغدون في هارفارد قبل عقدين من الزمن، الكشف عن اختراق علمي مذهل... سيجيب عن سؤالين من الأسئلة الأساسيّة للإنسان.

مع بدء الأمسية، يستغرق لانغدون وبقيّة الضيوف البالغ عددهم بضع مئات في عرض رائع، سرعان ما يدرك لانغدون أنّه سيكون أكثر إثارة للجدل ممّا تخيّل بكثير. لكنّ الحدث المنظّم بدقّة بالغة يغرق فجأة في حالة من الفوضى، ويصبح اكتشاف كيرش الثمين على شفير الضياع إلى الأبد. في أعقاب ذلك، يواجه لانغدون تهديدات خطرة تجبره على الفرار من بيلباو، ومعه أمبرا فيدال، مديرة المتحف الأنيقة التي كانت تتعاون مع كيرش للتحضير لذلك الحدث الاستفزازي. معاً، يفرّان إلى برشلونة في بحث عن كلمة سرّ مشفرة من شأنها أن تكشف سرّ كيرش.

يتنقّل لانغدون وفيدال في الممرّات المظلمة للتاريخ المخفيّ والمعتقدات المتطرّفة هرباً من عدوّ يائس يبدو أنّ سلطته تنبع من القصر الملكي الإسباني نفسه... ولن يردعه رادع لإسكات إدموند كيرش. على طريق محفوف بالفنّ الحديث والرموز الغامضة، يكشف لانغدون وفيدال أدلّة ستضعهما في نهاية المطاف وجهاً لوجه أمام اكتشاف كيرش المذهل... والحقيقة المدهشة التي لطالما غابت عنّا.

الأصل، من أكثر روايات دان براون تشويقاً ومتعة.

صدر للمؤلف أيضاً















